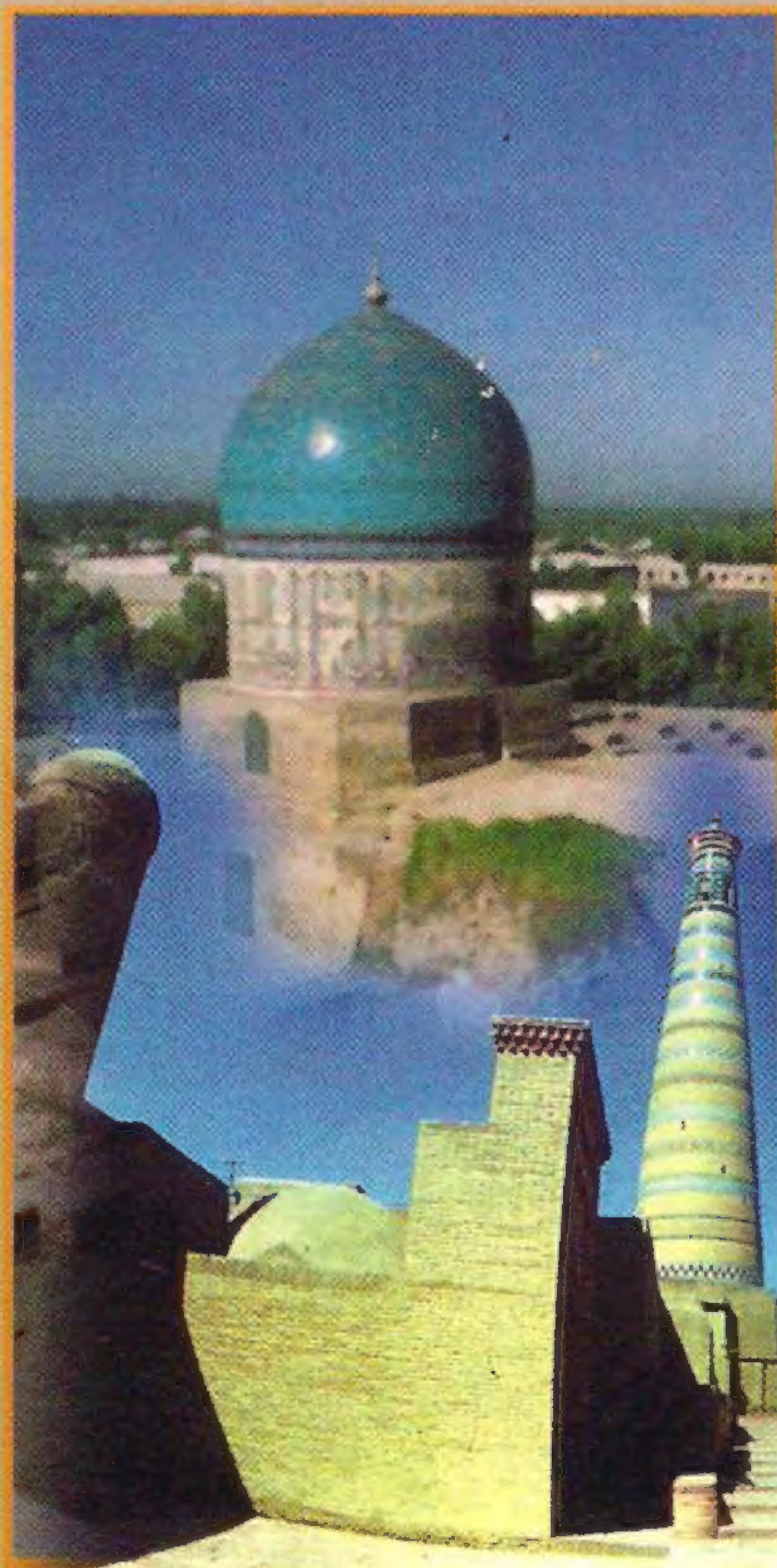
بوريبوي أحمدوف
زاهد الله منوروف

العرب والإسلام في أوزبكستان

تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم



طريق الحرير
سمرقند
جنكيز خان
تيمور - «لنك»
الخلافة العربية
خوارزم
السامانيون
القاراخانيون
الإقطاع
الاستعمار الروسي
الاحتلال السوفياتي
الاستقلال

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بوريبوي أحمدوف
زاهد الله منوروف

العرب والإسلام في أوزبكستان

تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم

مراجعة: نعمت الله ابراهيموف
العضو المراسل لاكاديمية العلوم الاوزبكية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprints@netgate.com.lb.

الطبعة الثانية ١٩٩٩

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخـراج الفنـي: تركية التالي

اهداء

الى الذكرى الخامسة

لاستقلال وطننا الغالي

جمعية أتراك السعودية

Suudi Arabistan Türkleri derneği

العرب والإسلام في أوزبكستان

تم إعداد هذا الكتاب بجامعة طشقند الحكومية للدراسات الشرقية ـ جمهورية اوزبكستان

تمهيد

أوزبكستان دولة اسلامية ذات تاريخ عريق وثقافة اصيلة، وذلك ما تشير اليه الحفريات الاثرية في خوارزم، سورخانداريا، طشقند وفرغانة، والكتابات القديمة باللغات الاغريقية القديمة، الايرانية القديمة، الصينية، التركية، العربية، الفارسية وغيرها من اللغات. لقد أسهم الشعب الاوزبكي، جنباً الى جنب مع الطاجيك والتركمان والكازاخ والقيرغيز والكاراكالباك، إسهاماً كبيراً في تطور حضارة شعوب آسيا الوسطى.

ولكن لاسباب موضوعية وغير موضوعية، لم يلْقَ تاريخ اوزبكستان دراسة كافية. صحيح انه صدرت حتى الآن عدة إصدارات بعنوان «تاريخ شعوب اوزبكستان»[١]، الا انها كانت بعيدة عن الشمول؛ إذ كانت سياسية أكثر ممّا هي تاريخاً، ومشبعة بالافكار الماركسية الليئينية التي كانت سائدة آنذاك، والتي كانت تقول إنّ المجتمع يتألف من طبقات متعادية متصارعة، في حين كانت تنبذ نشاطات الحكام وأولئك الذين كانوا يتزعمون المجتمع ويشرفون على نشاطه وحياته، وتعتبر الشعب القوة المحركة والدافعة للمجتمع، أما في العهد السوفييتي فقد أنيط هذا الدور

١ ـ تاريخ شعوب اوزبكستان، المجلد (١) (من العصور الغابرة وحتى بداية ق ـ ١٧م)، وطشقند، ١٩٥٠؛ تاريخ شعوب اوزبكستان المجلد (٢) (منذ تأسيس دولة الشيبانيين وحتى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى)، طشقند، ١٩٤٧؛ غلاموف. ي. غ. نبيوف. ر. ن ووهابوف م. غ؛ تاريخ اوزبكستان السوفييتية (في مجلد واحد)، طشقند ١٩٥٨؛ تاريخ اوزبكستان المجلد ١ ـ ٤، طشقند، ١٩٦٧.

إلى زعماء الحزب الشيوعي ومسؤوليه والى الدولة السوفييتية. وكانت الماركسية اللينينية تنكر الدور الانساني الطيب للاسلام وكبار رجال الدين المسلمين. والأدهى من ذلك كله، أنها كانت تربط بصورة تعسُّفية تاريخ الاوزبك والطاجيك والتركمان والكازاخ والكاراكالباك والقيرغيز والشعوب الاخرى بتاريخ الشعب الروسي.

إن هذا البحث الذي يلقي الاضواء على تاريخ شعوب اوزبكستان ـ تاريخ الشعب الاوزبكي ـ بعرض موجز، يكمن دوره في عرض أهم الاحداث التي جرت في التاريخ الغني العريق للشعب الاوزبكي، لذا لا يمكن وصفه بأنه بحث كامل شامل لكل ما يتعلق بتاريخ اوزبكستان.

وبصدد هذا، تميز، بصورة خاصة، من الفصول الأخرى الفصل الخامس عشر «أوزبكستان المستقلة»، الذي يحتوي بشكل عام على تدوين لأهم الأحداث التي جرت في اوزبكستان المستقلة (١٩٩١ ـ ١٩٩٥)، والتي يرى المؤلفان، أنه لمّا يحن الوقت لتحليل هذه الاحداث تحليلاً شاملاً ووافياً.

في أي حال فقد حاول المؤلفان ـ بالاستناد الى المراجع والمصادر القديمة المكتوبة والوثائق ـ تقديم عرض موجز موضوعي لتاريخ الشعب الاوزبكي الذي تمتد جذوره إلى القرون السحيقة.

ويمتاز هذا الكتاب، بحسب اعتقادنا، بان مؤلِّفَيْه أوليا اهتماماً خاصاً دور الاسلام والشخصيات الاسلامية البارزة في الحياة الروحية للشعب الاوزبكي، إذ خصص جزء كبير من هذا الكتاب بموضوع التفاعل الروحي الثقافي لشعوب اوزبكستان مع العرب.

الكتاب مخصص للمطالعة العامة، يفيد منه القراء عموماً ولا سيما المهتمين منهم بالتاريخ المعاصر لأوزبكستان المستقلة وللشعب الاوزبكي.

الفصل الاول

سكان اوزبكستان القدماء

تفيد الاكتشافات الأثرية (في سهل اونغور في وادي فرغانة وغيرها من المناطق)أن أجداد الأوزبك والطاجيك والتركمان الحاليين وشعوب أخرى، قد عاشوا في منطقة ما بين النهرين (نهري أموداريا وسرداريا) في آسيا الوسطى والمناطق المجاورة لما بين النهرين، وأنه مضى نحو خمسة آلاف او ستة آلاف سنة على تعلم سكان آسيا الوسطى فلاحة الارض وزراعتها بمساعدة أساليب الري الاصطناعية. ومنذ ٣٥٠٠ ـ ٤٠٠٠ سنة، ظهرت المدن الكبيرة والصغيرة، وتطورت في هذه المنطقة الزراعة والحرف والتجارة.

وثمة حقائق ومعلومات غزيرة ووافرة عن سكان آسيا الوسطى القدماء، ولا سيما اوزبكستان، تقدمها لنا الحفريات الأثرية التي جرت في مناطق خوارزم القديمة وبقتيريا وسغد وبارفي وفرغانة وتشاتشا(طشقند)، والتي قام بها علماؤنا في الآثار بإشراف رس. ب. تولستوف، م. ا.ماسون، ي. غ. غولاموف، أ. ب. اوكلادنيكوف، أ. أ. عسكروف، أُ. إ. إسلاموف وغيرهم.

وفي هذا الصدد، تجدر الاشارة الى المواد القيمة الفريدة في الأنتربولوجيا (علم الإناسة)، التي جمعها وقدم الاستنتاجات العامة لها كل من ل. ف. اوشانين و ت. ك. خوجانوف في زمانهما. وثمة مواد قيمة ومعلومات مهمة عن حياة سكان آسيا الوسطى واوزبكستان ونشاطاتهم في ميدان الصناعة والإنتاج، تقدمها لنا الكتابات

الأثرية القديمة مثل كتاب الزرادشتيين المقدس «افيسته»: والآثار الإيرانية القديمة «كفاداي ناماك»، «ماتاقداني خزر واستان»، والملحمة الشعرية الهندية القديمة «مهبراتا»، التي أُلّفت في النصف الثاني من القرن العشرين قبل الميلاد، والكتابات المخطوطة بالخط الإسفيني المكتشفة في «الشوس» و«بيرسيكوبل». وغيرها من المناطق الايرانية، ومؤلفات المؤرخين والجغرافيين الرومان واليونان القدماء أمثال: هيرودوتس (٤٩٠ ـ ٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق. م)، ايفور (٤٠٥ ـ ٣٣٠ ق. م)، ديودوروس (٩٠ ـ ٢١ ق.م)، بومبي تروغ (ق ا ق. م ـ ق ا م)، سترابون (عام ٦٣ ق.م ـ ٢٨ م)، بطليموس (حوالى العام ٩٠ ـ ١٦٠ ق. م)، كونت كورتس روف (القرن ـ ا ق. م)، ايليان (ق ٢ ـ ٣م) وغيرهم. وحري بنا أن نشير أيضاً إلى المؤرخين الصينيين وأعمالهم، ومؤلفاتهم أمثال: سيم ـ قسيان (١٤٥ ـ ١٣٥ ق. م)، بان غو (٣٢ ـ ٩٢م)، فان ـ خوا (٣٩٨ ـ ٤٤٥ م)، ويّ تشجين (عام ٥٨٠ ـ ٦٤٣ م) وغيرهم.

ووفق هذه المعطيات ومعطيات المصادر الأخرى، التي لم نُشِر إليها هنا، كان يطلق على سكان آسيا الوسطى وكازاخستان والمناطق الجنوبية الشرقية من روسيا اسم مشترك واحد، ويعرفون بالسقيتيين (ساكيّو المصادر الايرانية القديمة). وكانت تطلق على هؤلاء السقيتيين (الساكيين) تسميات مختلفة وفقاً للمناطق التي كانوا يقطنونها، فمثلاً، كانت القبائل، التي تسكن سهوب ما وراء قزوين تعرف بالـ«مساغيت»، والتي تعيش الى الشرق من المساغيت تعرف بالـ«ساكيين».

وتشير الكتابات الإيرانية القديمة الى أن هؤلاء الساكيين كانوا ينقسمون الى مجموعات ثلاث هي: ١) ساكيو ـ هاومافارخا، ٢) ساكيو ـ تيغراخاودا ـ أي الساكيون ذوو القبعات المدببة الرؤوس، ٣) ساكيو تيايتارا ـ دارايّا ـ أي ساكيو زاريتشيا (الساكيون الذين يعيشون في وديان الانهار). وبحسب آراء الباحثين، فقد قطنت المجموعة الاولى منطقة قاراقوم وخوارزم والحوض السفلي لنهر ياكاسارت (سرداريا)، والى الشرق من هذه المجموعة ـ أي المنطقة الوسطى لوادي سرداريا ـ قطنت المجموعة الثانية (ساكيو ـ تيغراخاودا). بينما قطنت المجموعة الثالثة (ساكيو تيايتارا ـ دارايّا) مناطق الضفة اليمنى لنهر اوكس (اموداريا)، الى جوار السغديين.

ثمّة معلومات قيمة جداً عن هؤلاء السقيتيين، ولا سيما تشكيلاتهم القبلية، أوردها العالم والكاتب الروماني القديم الشهير بلينوس الأكبر (٢٣ ـ ٢٤ ـ ٧٩ م)، مؤلف كتاب «التاريخ الطبيعي»، الذي يضم ٣٧ سفراً. وجاء في كتابه: «على الضفة الأخرى (لنهر اوكس) تعيش قبائل الـ «سقيت». ويطلق عليها الفرس اسم «ساكين» نسبة إلى أقرب قبيلة منهم، أما الكتّاب الاقدمون، فاطلقوا عليها اسم «الاراميين». وأمّا السقيتيون أنفسهم، فيطلقون على الفرس اسم «خورزار»، في حين كانوا يسمون سلسلة جبال القوقاز اسم «كروفكازسكي» أي ـ الثلج الأبيض ـ. إن عدد شعوب السقيتيين لا يمكن احصاؤه ولا يعادلهم عدداً سوى البارثيين. ومن اشهر شعوبهم نذكر: شعوب ساكي، مساغيت، داي، ايسيدون، استاك، رومنيك، بيستيك، بومودوت، غيست، ايدون، كام، كاماكي (كيماكي)، ايفخات، كوتنير، اينتوزيانتس، بساكي، اريماسن، انترآكات، خرو ـ آز و ايغاي.

لقد ترك لنا هيرودوتس وسترابون وايڤور وكلافدي ايليان معلومات قيمة عن حياة الساكين والمساغيت وعن عاداتهم وتقاليدهم، ونقرأ في كتب هؤلاء العلماء ما يلي: «إن المساغيت يشبهون السقيت بملابسهم ونمط حياتهم. فهم يحاربون ممتطين صهوات جيادهم أو مشاة»، ويجيدون كلا أسلوبي القتال، ويحاربون بالسهام والرماح ويستخدمون الأسلحة التقليدية العادية وبلطات الحرب. أما عاداتهم، فهم على الرغم من ان الواحد منهم لا يتزوج اكثر من واحدة، إلا انهم يستخدمون زوجاتهم بصورة جماعية مشتركة...« (هيرودوتس «التاريخ»). أما المساغيت فيقال ان قسماً منهم كان يعيش في الجبال وقسماً في السهول وقسماً في المستنقعات الناجمة عن مياه الانهار، والقسم الآخر في جزر هذه المستنقعات...

ويقتات مساغيت الجزر من جذور النباتات والثمار البرية، لذا لا يهتمون بالزراعة. يكسون اجسامهم بلحاء الخشب، ويشربون العصير المستخرج من ثمار الاشجار. أما مساغيت المستنقعات فيأكلون الاسماك... في حين يقتات مساغيت الجبال من الثمار البرية، كما أن لديهم اعداداً قليلة من الاغنام التي يحتفظون بها فقط للاستفادة من أصوافها ولبنها. يرتدون الثياب المرقشة والمصبوغة بعصائر النباتات، التي لا تفقد بريقها ولمعانها بسرعة. أما سكان السهول فإنهم لا يفلحون

الأراضي على الرغم من توفرها لديهم، ويعيشون على لحوم الأغنام والاسماك. ويمارسون حياة القبائل الرحّل على طريقة السقيتيين.

إن هذه الشعوب كافة، ذات نمط واحد في الحياة، متشابهة في مراسم دفن موتاها وفي طباعها وعاداتها ونظام حياتها اليومية. وكل شعب من هذه الشعوب، خبيث، وماكر، ومتوحش، وذو روح قتالية، إذا ما أُخذَ على حدة، إلا أنّه بسيط ومخلص في علاقاته بالآخرين.

... لا يعترفون بآلهة أخرى غير الشمس التي يُضحُّون لها بالخيول... (سترابون «الجغرافيا»).

وثمة معلومات طريفة مهمة اوردها ايفور عن حياة السقيتيين وطباعهم وتقاليدهم، جاء فيها: «كان رعاة الاغنام الساكيين من قبيلة السقيت، يعيشون في آسيا ذات الاراضي الخصبة، وتحدروا من اصل رعاة امتازوا بالعدل والانصاف. إن السقيتيين قوم لا يطمعون بجمع الثروات ويتعاملون بعدل ومساواة. وكل ما لديهم من النساء والأطفال والأُسر مشاع بينهم ومشترك...، ويتنقلون بواسطة العربات ويعيشون على الألبان. لا يسمحون بالملكية الخاصة، فحياتهم مشاعية تماماً، وتعود الأملاك كافة الى الجميع... كان السقيتيون، في بادئ الأمر، ذوي شأن وقوة عظيمة، وهم الذين اسسوا بارفيا وبقتيريا... وكانوا يُعتبرون، دائماً، أنهم من اقدم القبائل، ويضاهون المصريين بقدمهم». *(ايفور، «فقرة من التاريخ العام»)*.

وعن هذه التقاليد الساكية تصادفنا لدى ك. ايليان الحكاية الطريفة التالية: «إذا اراد احد الساكيين ان يتزوج فتاةً، فَعَلَيْه أن يصارعها، فإذا تغلبت عليه اصبح اسيرها وخاضعاً لإرادتها ومشيئتها خضوعاً تاماً، وإذا تغلب عليها استطاع اخضاعها لسيطرته». (ك. ايليان، «حكايات متفرقة»).

كذلك أشارت المصادر الصينية إلى سكان اوزبكستان الاقدمين. ولكن تجدر الاشارة اولاً إلى تحيزها وكونها ذات نزعات معينة، شأنها شأن جميع المؤلفات المصنفة في المجتمعات الطبقية. ولا يخفى على احد أن هذه المؤلفات، كانت تخدم

مصالح الملوك والقادة العسكريين وأرسطقراطيي القبائل والعشائر، وتُصوِّر حدّة ذهن «ابن السماء» وفطنته وطيبته، أي الامبراطور الصيني، وتمجد وتعظم رحابة مركز الكرة الأرضية، أي الصين، وفخامة القصر الصيني ورجال البلاط. أما الشعوب المجاورة للصين كشعوب الـ «اوسوبي»، الأسرغان، والكانغيوي وغيرها، فتصفهم بالوحوش والبرابرة والاعداء، الذين لا بد من معاقبتهم على افراطهم في عنادهم وتمردهم، وعدم اكتراثهم واهتمامهم، كما ينبغي، بموفدي الامبراطورية الصينية وبرسلها وسفرائها. وعلاوة على ذلك، تمتاز اسفار التاريخ الصينية بدقتها في تدوين تواريخ الاحداث والوقائع، وتعرض الاحداث وفق السنين بصورة تسلسلية، وتدعمها بالحقائق والاثباتات، أي انها تشير الى المجموع العام لعدد السكان، القرى، الأمور الرئيسية التي يزاولها سكانها، المسافات بين القرى والبلدان. كما انها تحتوي على مواد غزيرة في الاثنوغرافيا، فمثلاً، تورد حقائق ومعلومات عن حياة وطباع وعادات وتقاليد ومعتقدات شعوب اليوتشجي (الطخاريين)، الاوسوبي، الكانغيوي، الفرغانيين، السغديين، الخوارزميين وغيرهم من الشعوب.

وعلى سبيل المثال، نورد عدداً من الأمثلة:

«يوتشجي الكبرى (للمزيد أنظر أدناه، فصل «مملكة كوتشان») تقع على بعد ٣٠٠٠ لي (لي - ٥٧٦ متراً) من دواني (فرغانة) غرباً، ومن نهر غوي - شوي (اموداريا) شمالاً. والى الجنوب منها تقع داخيا (بقتيريا)،وتحدها غرباً - آنسي (بارفيا)، وتحدها شمالاً كانغيوي. وكذلك مملكة بلاد الرحل، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر في اثر ماشيتهم، ويشبهون الهون في عاداتهم، ويبلغ عدد مقاتليهم من ١٠٠٠٠٠ - ٢٠٠٠٠٠ مقاتل، وقد استطاعوا، ابان عظمة دولتهم، أن ينتصروا على الهون. ولما اعتلى «مودي» (٢٦٩ - ١٧٦) العرش انتصر على اليوتشجي، أما ابنه، زعيم الهون، لا اوشان - شانيوي (شانيوي - لقب الزعيم)، فقد قام بقتل أمير اليوتشجي وجعل من جمجمته إناء ليشرب الماء به. بادئ ذي بدء، كانت عائلة اليوتشجي تشغل البلاد الواقعة ما بين دونخوان (غانسو) وسلسلة تسيليان - شان (جبال في اقليم غانسو).

ولكن حينما انتصر عليه الهون، فر من هناك وانتقل من دواني (فرغانة) الى الغرب وهاجم داخيا (بقتيريا) واخضعها لسلطته، وبالتالي رسخ اقدامه على الضفة الشماليّة لنهر غوي ـ تشوي (امو داريا). بقي قسم قليل من شعب اليوتشجي عند السفوح الجنوبية ولم يتمكن من متابعة الآخرين، فأطلق الـ «كيان» (سكان التبت) على هؤلاء يوتشجي الصغيرة...

يقيم حاكم اليوتشجي الكبرى في مدينة لا نتشى (عاصمة بقتيريا) التي تحدها انسي (بارفيا) غرباً وعلى بعد مسيرة ٤٩ يوماً، ويبعد عنها مكان اقامة الأمير مسافة ٦٥٣٧ لي، وتبعد عنها لويان (ينتشجو) القديمة مسافة ١٦٣٧٠ لي. يتألف السكان من ١٠٠٠٠٠ أسرة، ٤٠٠٠٠٠ نسمة، وعدد القوات المحاربة ١٠٠٠٠٠ مقاتل. بعد قضاء الهون على نظام اسرة اليوتشجي الحاكمة، فرت هذه الاسرة الى داخيا حيث تجزأت الى خمس أسر حاكمة: خيومي، شوانمي، غويشوان، هيسي ودومي. وبعد مرور اكثر من مئة عام بقليل، قام أمير غويشوان (كوشان) الأمير كيوتسزوكو (كادريز) باخضاع الأسر الحاكمة الاربع الاخرى، واعلن نفسه ملكاً على غويشوان، ثم بادر الى محاربة انسي (بارفيا)، وانتصر على غاوفا، وقضى على «لودا» و«غيبين» (جنوب افغانستان واعالي نهر الهند)، واستولى على أراضيها. عاش كيوتسزوكو اكثر من ٨٠ سنة، وبعد وفاته اعتلى العرش ابنه يانغوتشجين (ويما «فيما» كادفيز) الذي أخضع الهند وكلف أحد قادته بإدارة شؤونها.

ومذ ذاك، اصبحت اسرة يوتشجي من اقوى الأسر الحاكمة وأكثرها ثراءً، وعُرفت لدى الدول المجاورة بمملكة غويشوان، في حين احتفظ القصر الصيني بالاسم القديم السابق: يوتشجي الكبرى *(بيتشورين ـ مجموعة المعلومات [جامع المعلومات] عن شعوب آسيا الوسطى في الازمان القديمة، المجلد «٢»، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨)*.

لم يحْظَ اصل اليوتشجي وتاريخهم بدراسة عميقة وافية. ويستدل من المعلومات التي اوردها الدبلوماسي والرحالة الصيني المشهور تشجان تسيان

(والمتوفى حوالي عام ١٠٢ ق. م) أن يوتشجي الكبرى - طخارستان (بلاد رحبة ممتدة على ضفتي اموداريا، وتضم الأجزاء الجنوبية من اوزبكستان وطاجيكستان. تحدها شمالاً سلسلة حصار، وجنوباً - جبال هندوكوش، وتمتد غرباً حتى نهري مركاب وهير يرود، وشرقاً حتى جبال بامير). تتألف من قبائل لها قصرها او مقرها الأميري على الضفة اليمنى لنهر اموداريا، وكانت، في بادئ الأمر، قبائل رحل. وتعتبر هي مؤسسة مملكة كوشان (اوالمملكة الكوشانية). وكان تشجان تسيان، الآنف ذكره، قد حاول في عام ١٣٨ ق. م، بناءً على تكليف من الامبراطور او - دي (من سلالة الخان الغربي، عام ١٥٦ - ١٨٧ ق. م) إقناع حاكم اليوتشجيين بالتحالف ضد الهون، بَيْدَ أن المحاولة باءت بالفشل.

وثمة شعب كبير آخر، ألا وهو شعب الاوسون (اوسوني)، نقرأ عنه في المصادر التاريخية الصينية ما يلي: «يعد اوسون من اعظم الملوك، اخضع لسلطته العديد من المناطق ورفض السفر الى اورطة الهون، وتحد مملكة اوسون بلاد الهون من الجهة الشرقية، وبلاد الكانغيوي من الجهة الشمالية الغربية، ودواني غرباً، وتحدها جنوباً قرى مختلفة سكانها من الحضر. في البداية كانت هذه البلاد تعود الى شعب سي (الساكيين).

تحرك يوتشجي غرباً حيث هزم حاكم سي (الساكيين)، الذي فر الى جنوب ما وراء الممر المغلق (احد الممرات عبر جبال هندوكوش)، ثم توغل يوتشجي الكبير غرباً حيث أخضع داخيا، تاركاً غونمو الأوسون في أراضيه، ما أدى الى وجود قبيلتي الـ «سي» والـ «يوتشجي» كفاصل بين الاوسون يفصلهم الى قسمين. في البداية، ذكر تشجان تسيان (الآنف ذكره) أن حاكميْ اوسون ويوتشجي الكبير كانا يترحلان في آن واحد بالقرب من دون - خوان. أما الآن، على الرغم من أن الحاكم ازداد بأساً وعظمة، فإن الهبات والهدايا الثمينة باستطاعتها حمله على العودة ثانية، نحو الشرق، الى الأراضي السابقة، والزواج من الأميرة هناك، ومصاهرة أهلها للجم الهون، (بيتشورين. *جامع المعلومات عن شعوب آسيا الوسطى القدماء، المجلد«٣»*، ص ٦٤).

إنه لمن المثير للاهتمام ما ذكره المؤرخ: «تقع اوسون شمال شرقي دواني وعلى بعد ٢٠٠٠ لي تقريباً. اهلها عبارة عن قوم رحل يتنقلون في اثر ماشيتهم ويشبهون الهون في عاداتهم وتقاليدهم. لديهم عشرات الآلاف من المحاربين الشجعان. كان الاوسون، في السابق، تابعين للهون، ولكن حينما اشتد بأسهم، جمعوا زعماءهم ورفضوا السفر الى اورطة الهون». (*بيتشورين، جامع المعلومات، المجلد «٢»*، ص ١٥٠، *المجلد «٣»*، ص ٧٣).

لمحة ايضاحية موجزة عن الأوسون: يلاحظ من المصادر الصينية انهم شعب رُحَّل، عاشوا، في بادئ الأمر، بين سلسلة جبال نان ـ شان ونهر بولونتسير، وفي عام ١٦٠ ق. م، وتحت ضربات الهون وهجماتهم، وفي اثر اليوتشجيين، اضطروا للارتحال الى سيميريتشي وتيان شان، حيث اخضعوا القبائل المحلية المؤلفة من الساكيين وما تبقى من اليوتشجيين، وفي الفترة ما بين القرنين الثاني والاول قبل الميلاد، أقاموا اتحاداً قبلياً، مما جعلهم أقوياء. وبعد ذلك تمردوا على الهون وخرجوا عن طاعاتهم. في تلك الفترة، كانت المساحات التي يشغلونها من الاراضي كبيرة جداً. لقد كانت تحدهم من الجهة الشرقية، قرى (او اراضي) الهون، ومن الجهة الجنوبية الغربية فرغانة، وكانغيوي (كانغلي) غرباً. وكانت عاصمتهم مدينة تشيغو الواقعة على الضفة الجنوبية الشرقية لـ «ايسيك كول».

فيما يتعلق بأصل الاوسون، لا يوجد إجماع في الرأي بين الباحثين. وجاء في أحد المصادر الصينية (في كتاب يان شو ـ غو، ق ٧ ق. م) وصفٌ للمظهر الخارجي للأوسون على النحو التالي: «إن هيئة الأوسوني تختلف كثيراً عن الاجانب الآخرين الذين يعيشون في الناحية الغربية».

وما الأتراك الحاليون ذوو العيون الزرقاء واللحى الشقراء سوى أحفاد الاوسونيين، والدليل على ذلك يكمن في لون العيون واللحى».

إن هذه المعلومات حَرِيَّةٌ بالاهتمام البالغ. وينسب ابيل ـ ريميوز وكلابروت الأوسونيين الى الجنس الآري، في حين يعتبرهم الاكاديمي ف. ف. وادلوف و ن. آ.

اويستوف أتراكاً.

الأوسونيون شعب متطور وذو باع في ميدان رعاية الماشية (ولا سيما رعاية الخيول)، وكان بعضهم، حيث تتوافر الامكانية، يزاولون الزراعة والصناعات اليدوية.

وتشير المصادر الصينية الى أن عدد الاوسونيين كان في حدود الـ ١٢٠٠٠ عائلة (٦٣٠٠٠ نسمة). وكان بمقدورهم إعداد جيش قوامه ١٨٨٠٠ محارب.

اقيمت العلاقات بين الاوسون والصين منذ عام ١٢٥ق. م، مع قدوم الدبلوماسي الصيني تشجان تسين الى مقر الـ «غونمو»، الحاكم الأعلى للأوسون.

وبعد مرور مدة من الزمن تحالف الاوسون والصين ضد الهون. وفيما بعد، استطاع الصينيون، وبواسطة الهدايا الثمينة، مصاهرة الأوسون (زوجت الاميرات الصينيات للغونمو وورثة عرشه (سينتسزو)، واخضعوا الاوسونيين لنفوذهم وسيطرتهم. وفي عام ٥١ ق. م، وعلى اثر الحروب التناحرية الداخلية، انقسم الاوسونيون الى قسمين. وقع (الاوسونيون الكبار) تحت سيطرة الصين، بينما وقع القسم الآخر (الاوسونيون الصغار) تحت سيطرة الهون. وفي عام ٤٢ ق.م، هزم الاوسونيون الكبار على ايدي الهون، ومن ثم، وتحت ضغط الجوجين (قبائل رحّل قطنت سهوب منشوريا الغربية ومنغوليا) انتقل الاوسونيون من سيميريتشي الى تيان شان، وبعد ذلك، وفي عام ٤٣٦ م، خضعوا لسلطة الصين بصورة نهائية وكلية.

أما سكان اوزبكستان الحضر المزارعون، فكانوا يعرفون بأسماء المناطق التي كانوا يعيشون فيها وينسبون اليها ويطلق عليهم: الخوارزميون، البقتيريون، السغديون، التشاتشيون، الكانغيو(الكانغليون)، الفرغانيون. وذكرت حولهم معلومات مهمة في المصادر الصينية. مثلاً ورد عن فرغانة المزدهرة الغنية ما يلي: «تقع دواني غربي الهون (أي مكان إقامة الخان عند سفح جبال هنغاي، قرب نهر ارخون، حيث كان مقر جنكيزخان في القرن ـ ٨)، وعلى بعد حوالى ١٠٠٠٠ لي عن

العاصمة غرباً. والدوانيون قوم حضر يزاولون الزراعة: يزرعون الأرز والقمح، يصنعون النبيذ من العنب، وتكثر لديهم خيول «الارغاماك» التي يتفصد عرقها دماً، والتي تعد من سلالة الخيول السماوية. وتضم دواني ما يقارب ٧٠ مدينة بين كبيرة وصغيرة، ويبلغ عدد ورثة العرش زهاء عدة مئات من الآلاف.

والفرغانيون فرسان مهرة يجيدون الرماية، وكانت اسلحتهم تتألف من السهام والرماح. يحد دواني شمالاً كانغيوي، وغرباً يوتشجي الكبيرة، ومن الجهة الجنوبية الغربية داخيا (بقتيريا)، ومن الجهة الشمالية الشرقية اوسون، وشرقاً غان ـ مي (غيومي مدينة صغيرة في ولاية خوتان شرقي تركستان). يقع مقر ادارة حاكم دواني في مدينة غويشان (كاسان) التي تبعد زهاء ١٢٢٥٠ لي عن تشان ـ آن (عاصمة الامبراطورية الصينية في عهد سلالة خان). يتألف سكانها من ٦٠٠٠٠ اسرة (٣٠٠٠٠٠ نسمة)، وقوام الجيش المحارب لديها ٦٠٠٠٠ مقاتل.

لا تختلف التربة والارض والمناخ والصناعات المحلية والعادات عمّا في يوتشجي وانسي. حتى إنّ سفراء ومبعوثي الصين قد اخذوا معهم (من دوان) بذور المحاصيل الزراعية. وامر ابن السماء بزراعة الـ «مو ـ سو» (الفصفصة) والعنب في الارض الخصبة... وقد زرع العنب والـ «مو ـ سو» في مساحات كبيرة. «وعلى الرغم من اختلاف اللغات التي يتحدث بها الناس في المناطق الممتدة من دواني في الجهة الجنوبية الغربية الى آنسي، إلا أن عاداتهم وتقاليدهم متشابهة ويستطيعون التفاهم بلغاتهم بغض النظر عن اختلافها». ويبدو انهم كانوا يتكلمون اللغة التركية ولكن بلهجات مختلفة. (بيتشورين. *جامع المعلومات...، «المجلد»*٢، ص ١٦١).

وعن الكانغيوي (كانغلي) الشعب التركي الذي قطن منطقة سرداريا، في أواسط مجرى النهر وأعاليه، جاء ما يلي: «تقع منطقة الكانغيوي شمال شرق دواني وعلى بعد ٢٠٠٠ لي تقريباً، سكانها من الرحّل، ولا يختلفون ابداً عن اليوتشجي من حيث العادات والتقاليد، وعدد جيشها ٩٠٠٠٠ مقاتل. أما حدود الكانغيوي فهي متداخلة مع حدود دواني، ونتيجةً لعدم تمتع الأولى بقوة عسكرية كافية، فإنها تعترف

بسلطة اليوتشجي على مناطقها الجنوبية، وسلطة الهون على مناطقها الشرقية. لدى حاكم الكانغيوي مقر اقامة في بلاد الـ «لويوين» في مدينة «بيتيان» التي تبعد عن تشان ـ آن مسافة تربو على ١٢٣٠٠ لي. يتألف سكانها من ١٢٠٠٠٠ اسرة (٦٠٠٠٠٠ نسمة)، قواتها ١٢٠٠٠٠ محارب. والى الشرق على بعد ٥٥٥٠ لي، يقع مقر النائب او الوالي». *(بيتشورين. جامع المعلومات، المجلد «٢»، ص ١٨٤).*

كذلك أشارت المصادر التاريخية الصينية الى خوارزم والخوارزميين. وذكرت بالحرف من ضمن ما ذكرت ما يلي: «كان حاكم يوسغيان (جورجان) يملك مقراً في مدينة يوسغيان (جورجان) الواقعة على بعد ٨٣٥٥ لي». *(بيتشورين ـ جامع المعلومات، المجلد «٢»، ص ١٨٦).*

وأخيراً، عن بقتيريا وشعبها: «تقع داخيا جنوب غربي دواني وعلى بعد ٢٠٠٠ لي تقريباً، وعلى الضفة اليمنى لنهر غوي ـ شوي (أي ـ اموداريا)، سكانها من الحضر، لديهم المدن والبيوت، وهم (أي ـ البقتيريون) تجار مهرة ويشبهون الدوانيين من حيث عاداتهم وتقاليدهم. ولكن لا رئيس أعلى لهم. ولكل مدينة، تقريباً، حاكم. أما جيشهم فهو ضعيف ويفتقر محاربوه الى الشجاعة والإقدام. ولما هزمتهم يوتشجي الكبرى، إبان اتجاه قواتها غرباً، انصاعوا لاسرة داخيا. يبلغ عدد سكان داخيا قرابة المليون نسمة، عاصمتها ـ لانشي. توجد في هذه المدينة، سوق تتوافر فيها البضائع والسلع المختلفة. وإلى الجهة الجنوبية الشرقية من داخيا، تقع بلاد (مملكة) شندو، او بلاد الهند». *(بيتشورين. جامع المعلومات، المجلد «٢»، ص ١٥٢).*

هنا، واستناداً إلى المصادر الصينية، ينبغي القول ان هذه القرى او البلدان كانت على الرغم من استقلالها، غير متضامنة ولا تربط بينها علاقات قوية، الأمر الذي استغله الجيران الأقوياء: الهون والصين. ونقرأ في التاريخ: «ان كل قرية من القرى الغربية كانت لها دولتها. وكانت قواتها تفتقر الى القوة نتيجة تفرقها وعدم اتحادها. كانت هذه القرى تابعة للهون، الا أنه على الرغم من ذلك لم تكن تربط بين الطرفين

علاقات متينة...» (*بيتشورين. جامع المعلومات، المجلد«٣»، ص.٩٩ ـ ١٠٠*).

ولكن تتوافر معلومات مهمة وقيمة جداً، مثل تلك التي اوردها المؤرخ الصيني، إذ يقول: «على الرغم من الاختلاف الكبير بين اللهجات الدارجة في المناطق الممتدة من دواني الى الجنوب حتى دولة آنسي (دولة بارفيا)، الا ان اللغة واحدة ولا يجد الناس صعوبة في التفاهم فيما بينهم. ويمتاز السكان بأعينهم الغائرة وحواجبهم الكثيفة، وبمهارتهم في التجارة، ويتبارون في الحصول على الفوائد. يحترمون المرأة، ولا يتجرأ الرجل على معارضتها. كما أنهم يستخدمون الحرير والطلاء، ولكن لا يستطيعون استخدام حديد الزهر في صناعاتهم». (*بيتشورين. جامع المعلومات، المجلد«٣»، ص ٦١*).

ان كون الساكيين والمساغيت من قبائل السقيتيين لهو أمر لا جدال فيه. فالساكيون والمساغيت من شعوب آسيا الوسطى الأصليين، الذين سبق ان تحدثنا عن حياتهم وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم والأعمال التي كانوا يزاولونها. إننا لا نستطيع ان نقول شيئاً، بصورة جازمة، فيما يتعلق بلغتهم. أما بالنسبة الى عاداتهم وطباعهم، فيلاحظ شَبَهٌ كبير بينهم وبين عادات وطباع الكازاخيين والأوزبك وغيرهم من الشعوب الناطقة باللغة التركية.

إن تزايد عملية التتريك في آسيا الوسطى في منطقة ما بين النهرين (أي ـ ياكسارت «سرداريا» وأوكس« أموداريا») قد بدأت في حدود مطلع القرن الجاري. كانت هذه المنطقة منذ مطلع القرن الثاني ق. م، قد قدمت اليها من التاي وسيميريتشي الشعوب (القبائل) الناطقة باللغة التركية، والتي كانت لها علاقات اقتصادية وثقافية مع سغد وخوارزم، قبل قدومها بفترة طويلة. وأدى ذلك، طبعاً، الى ازدياد نشاط الشعب التركي هنا. واستمر نزوح القبائل والشعوب من الشمال الى هذه المنطقة في الفترة من قَ ٥ ـ ٦ وق ١٠.

والجدير بالذكر هنا، أنه في هذه الفترة بالذات نزحت من الجنوب، أي من جهة ايران الشرقية، شعوب ناطقة باللغة الايرانية وقدمت الى منطقة ما بين النهرين في

آسيا الوسطى، الأمر الذي كان قد اكده، ابان حياته، المؤرخ المشهور ب. غ. غفوروف، وكتب قائلاً: «منذ القرون الاخيرة لما قبل الميلاد وبداية قرون ما بعد الميلاد، ومع تدفق الشعوب الناطقة باللغة الايرانية، يبدأ تغلغل المجموعات الناطقة باللغات الأجنبية ومن ضمنها تلك الناطقة بالتركية... ويبدأ الاتراك بالقيام بدور مهمّ وجوهري في تاريخ السلالات البشرية في آسيا الوسطى» *(الطاجيك،ص ٣٧١)*. ودعم هذا الرأي محمود الكاشغاري الذي يعد من علماء القرن العاشر ولغوييه. فقد ذكر، مثلاً: «إن ما وراء النهر برمتها (أي ـ الأراضي الممتدة من يانكاند «لعلها «يانكينت» المقر الشتوي لملك الغوز الواقع عند مصب سرداريا، وعلى بعد فرسخ جنوب النهر ـ ب. أ» الى الشرق، (أي ـ الى حدود الصين) كانت تعتبر مدناً تركية بناءً على أسمائها. إذ ان سمرقند ـ ساميزقند، شاشا ـ طشقند، اوزقند وتونقند، أسماء تركية. و كلمة «قند» باللغة التركية تعني مدينة. إن الأتراك هم الذين بنوا هذه المدن، وقاموا بتسميتها، ولا تزال تحمل هذه الأسماء حتى اليوم. ولكن بعد ان صارت غالبية سكانها من الفرس غدت تشبه المدن العجمية (الايرانية).

في الوقت الحاضر تمر حدود المناطق التركية ببحر ابيسكون (قزوين) من روم واوزجيند الى تشن. طول هذا (البحر) ٥٠٠٠ فرسخ، وعرضه ٣٠٠٠ فرسخ». *(ديوان لغات الترك، المجلد «٣»، ص ١٦٤)*. هنا، نود لفت الاهتمام الى عبارة «... بعد ان صارت غالبية سكانها من الفرس...» إن هذه العبارة تتفق و تتجاوب مع ما ذكره ب. غ. غفوروف بشأن زمن نزوح الشعوب الناطقة باللغة الفارسية الى منطقة ما بين النهرين في آسيا الوسطى.

يبدو من الاقتباسات والمعلومات المأخوذة من المصادر القديمة، والتي استشهدنا بها أعلاه، ان سكان الجزء الاوروبي من الاتحاد السوفييتي سابقاً وكازاخستان وآسيا الوسطى وحتى التاي، الرّحل منهم والحضر، كانوا يعرفون جميعاً باسم واحد مشترك ـ أي بالسقيتيين (ساكيين، المصادر المكتوبة باللغات الفارسية). وعلى الرغم من ذلك فقد كانت لهم تسميات مختلفة نسبة إلى أماكن عيشهم، وكانوا يتحدثون بلغات مختلفة. فمثلاً، كان الساغيت يقطنون سهب ما

وراء قزوين، والى الشرق منهم كان يعيش الساكيون، أما السكان الحضر - المزارعون، فكانت تطلق عليهم الأسماء المنسوبة الى مواطنهم: البقتيريون، المرجيلانيون، الباركانيون، السغديون، الخوارزميون، التشاتشيون وهَلُمَّ جراً. وكانوا من المواطنين الاصليين القدماء الذين عاشوا في اوزبكستان، يحيط بهم ومن حولهم، بل يخالطهم ويختلط بهم الاوسون، الكانغيوي، واليوتشجي وهم شعب أصله من التّيبت. وبالتالي نزح هؤلاء اليوتشجي الى المناطق الجنوبية من اوزبكستان وطاجيكستان وشمال افغانستان، وانصهروا في السكان المحليين وأصبحوا منهم.

وبعد ذلك، وفي الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس، لعب دوراً فعالاً في تاريخ آسيا الوسطى وايران كل من الهيون والكيدار والهون البيض، أي الافتاليت وهم شعب من أصل تركي.

إن المعلومات المتوافرة لدينا عن الحياة السياسية لشعوب آسيا الوسطى في تلك الحقبة هي قليلة جداً. ونقلاً عمّا ذكره هيرودوتس وايفور، كانت شعوب آسيا الوسطى تربطها صلات بـ «ميديا» (مملكة كانت تقع في المناطق الشمالية الغربية الجبلية في ايران في ق. ق ٩ - ٨ ق. م)، وقد نشبت حرب بينها وبين الساكيين والخوارزميين، وبعد ذلك، وعقب عام ٥٥٠ ق. م (أي في الفترة من عام ٥٥٠ - ٣٣٠ ق. م) حينما قضى الاخيمينيون على ميديا سقطت آسيا الوسطى تحت سلطتهم (أي سلطة الاخيمينيين)، الذين دام حكمهم لها مدة قرنين. وكما هو معلوم، فقد سقطت تحت سلطتهم اولاً بقتيريا، ثم الساكيون (السقيتيون)، فسغد. اشتهر الاخيمينيون باضطهادهم الشديد لشعوب البلدان التي احتلوها، حتى إنّهم أجبروها على مشاركتهم في حروبهم ضد الاعداء. مثلاً، شاركت شعوب آسيا الوسطى في الحرب الايرانية اليونانية في عام ٤٩٠ ق. م، حينما قاد كسيركس (٤٨٦ - ٤٦٥ ق. م) جيشه قاصداً اليونان (في عام ٤٨٠ ق. م)، وكان الساكيون، الخوارزميون، السغديون والبقتيريون ضمن قوات مشاة الجيش الايراني وخيّالته. وفي معركتي فيرموبيل (٤٨٠ ق. م) وبلاتيل (٤٧٩ ق. م) ابدى الفرسان الساكيون مهارة قتالية

فائقة. كذلك حارب الساكيون والسغديون والبقتيريون الى جانب داريا ضد الاسكندر المقدوني في عهد الفاو غاميليين عام ٣٣١ ق.م.

لقد ثارت شعوب آسيا الوسطى على الاخيمينيين غير مرة، لنيل حريتها واستقلالها، وخاضت ضدهم معارك ناجحة، وذلك ما تشير اليه المعلومات التي أوردها الكتّاب والعلماء اليونان القدماء، وجاء فيها من ضمن ما جاء معلومات عن نضال المساغيت وملكتهم توميريس وحربهم ضد الملك الفارسي كير الثاني (٥٥٨ ـ ٥٣٠ق. م). فمثلاً ذكر هيرودوتس: «ما ان علمت تاميريدا بعدم اصغاء كير لنصيحتها حتى جمعت قواتها كلها وزحفت عليه».

ولعل هذه المعركة كانت من أشد المعارك التي جرت بين البرابرة وأكثرها ضراوة. وكما يقال، جرت الأمور في البداية على النحو التالي: وقف الجيشان يتبادلان رماية السهام والنبال، الى أن فرغت جعابهم، ثم التحما مستخدمين الحراب والسيوف، ودارت المعركة طويلاً، وانتهت بانتصار المساغيت، وقد قتل عدد كبير من الجيش الايراني، ومن ضمنهم «كير» نفسه. ولما عثرت تاميريدا عليه، غطّت رأسه بفرو، وراحت تُمثِّل بجثته قائلة: «لقد أهلكتني وأنا حيّة منتصرة عليك، اذ سلبتني ابني بمكرك وغدرك. وها انا ذا الآن اشبعك دماً كما أقسمت». لقد جرى هذا الحادث المأساوي في نهاية صيف ٥٣٠ ق.م.

وكان سكان آسيا الوسطى الحضر، ايضاً، يكرهون الأخيمينيين، ويمقتون، بصورة خاصة، الـ «ساتراب» (النواب او الولاة)، الذين اثقلوا كاهل السكان بالضرائب الباهظة وابتزاز الأموال. وكما هو معلوم، كان الجهاز المركزي لحكومة الأخيمينيين قد جزّأ الامبراطورية الى دوائر لجمع الاتاوات، وذلك لتسهيل عملية فرض الضرائب والإتاوات. ونقلاً عن هيرودوتس: «لقد كانت آسيا الوسطى مقسّمة الى ثلاث دوائر لجمع الاتاوات، وكانت الاتاوات من الدائرة الثانية عشرة، والتي كانت تدخل ضمنها الاراضي ابتداء من اراضي البقتيريين وحتى الايغلو (الافغال ـ قبيلة كانت تسكن منطقة سرداريا في ناحية خجند)، تبلغ قيمتها ٣٦٠ تالانت

(وحدة نقدية كانت متداولة على نطاق واسع في اليونان)، ميسوبوتامي، سوريا ومصر، وتعادل قيمتها ٦٠٠٠ درهم ـ ب. أ)... أما الساكيون والكاسبيّون (وهم قبيلة كانت منتشرة آنذاك في الجهة الحنوبية الغربية، أي على الشاطئ القوقازي لبحر قزوين ـ ب. أ)، الذين كانوا يشكلون الدائرة الخامس عشرة، فكانوا يدفعون ٢٥٠ تالانت. أما الدائرة الخامسة عشرة، التي كانت تضم برفيان، خوارزم، وسغد وارين، فكانت تدفع ٣٠٠ تالانت».

طبعاً، لم تكن هذه الضرائب عبئاً ثقيلاً على كاهل الكادحين فحسب، بل على كاهل الوجهاء والأعيان المحليين أيضاً، وذلك لان الـ «ساتراب ـ النواب او الولاة» كثيراً ما كانوا يكلفون هؤلاء الوجهاء والأعيان بجباية الضرائب. لذا، ونتيجة الاستغلال الوحشي لثروات البلاد، فإنهم كثيراً ما كانوا يعارضون نائب ملوك الاخيمينيين. ولهذا السبب كانوا أحياناً يحرضون الجماهير الكادحة على النضال، وكانت المناطق، الواحدة تلو الأخرى، تتمرد وتثور على الاخيمينيين. مثلاً، في أواسط القرن ٤ ق. م، أعلنت خوارزم استقلالها، ورفض الساكيون الخضوع للأخيمينيين ونالوا سيادتهم أيضاً.

لقد صانت لنا المصادر (آثار الحفريات الاثرية ومؤلفات كتّاب اليونان والرومان القدماء) بعض المعلومات عن الحياة الاقتصادية لسكان تلك الحقبة الزمنية. ويُستدل من هذه المعلومات أن سكان السهوب، كالساكيين مثلاً، زاولوا رعاية الماشية، ما جعلهم يعيشون حياة البدو الرحل، وكانوا يربون الاغنام والماعز والبقر والخيول والجمال التي كانت توفر لهم المأكل والملبس.

أما عن حياة هذا الجزء من السكان وصناعاتهم، فثمة معلومات قيمة باستطاعة المؤرخ الحصول عليها من قبور الساكيين ومدافنهم القديمة في واحة بخارى، فرغانة، بامير، خوارزم وكازاخستان. أما السكان الحضر فكانوا يمارسون الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة. لقد كانوا يزرعون الحبوب (القمح، الشعير، والدخن، والأرز..)، والقطن، والسمسم، والقرعيات (البطيخ الاصفر والاحمر واليقطين...).

وفي المناطق الحضرية الزراعية كانت البستنة متطورة (يزرعون المشمش، الخوخ والدرّاق...) والكروم، ويمارسون صناعة النبيذ.

ونظراً الى تطور الزراعة وانتشارها بواسطة شبكات الري الاصطناعي، في نهاية القرن ـ ٢٠ق. م، ظهرت مستوطنات كبيرة محصنة (تشوست، والوارزين، دومستان وغيرها).

وفي المدن طرأ مزيد من التطور على صناعة النسيج، والخزف، والحلي، والتعدين والبناء. وتشير الآثار المكتشفة في عمليات التنقيب التي جرت في فرغانة (تشوست، والغارزينتيبا، وبايمالي تاش)، سورخاندايا (ساباليتيبا، وجاركوغان، والغازينتيبا)، خوارزم (تازاباغياب) وغيرها، إلى ان حِرَفِيّي آسيا الوسطى كانوا ينتجون المصنوعات من الذهب والفضة والنحاس، المرصّعة بالأحجار الكريمة، ويصنعون الآلات والادوات والاسلحة، ويبنون القصور الرائعة، والقلاع والحصون والجسور، ويشقون الطرق، ويتاجرون مع بلدان الشرق واتراك التاي.

لقد ساعدت ثروات البلاد الطبيعية على تطور الصناعة والتجارة. وتشير المعلومات المستقاة من المراجع والمصادر الاولية الاصلية الى ان اوزبكستان القديمة كانت غنية بالمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والنفط والكبريت، والاحجار الكريمة كالفيروز واللازورد، والقصدير و الرخام والنشادر وغيرها.

وفيما يتعلق بثقافة سكان آسيا الصغرى ومعتقداتهم في تلك الفترة، فبامكاننا أن نقول ما يلي: يبدو أن لغة هذه الشعوب احتفظت بسمة قبلية. فبالإضافة الى اللغات المحلية، كانت اللغة الفارسية القديمة مُتداوَلة كلغة رسمية. هكذا كان الأمر في عهد حكم الاخيمينيين. ولكن بعد ذلك تغلغلت الكتابة الآرامية التي أصبحت أساس اللغتين السغدية والخوارزمية.

لدى شعوب آسيا الوسطى، ولا سيما القبائل التي تهتم بتربية الماشية، ولدى الساكيين مثلاً، كان الأدب الشعبي متطوراً، وذلك ما تثبته حكاياتهم عن الملكة

سباريترا وزوجها المقدام امورغي، والملكة توميريس والراعي شيراك، الذين حاربوا الفرس من أجل حرية بلادهم واستقلال شعبهم. ينبغي ألاّ يغيب عن الذهن أن الملحمة الساكية كان لها أثر كبير آنذاك في تطور الأدب لدى الـ «ميديان» والفرس. ولقد كان ف. ف. بارتولد محقاً في كلامه، حينما قال: «إنه بالتحديد في مناطق إيران الشرقية وفي عهد الأخيمينيين، بدأت تتبلور المواضيع الملحمية، وإنه من المهم جداً ايضاً، انها كانت مكرسة للشخصيات التاريخية». وآنذاك كان ماركفارت قد كتب بهذا الشأن ايضاً، إذ قال على سبيل المثال ما يلي: «كانت المواضيع الملحمية قد جلبها الميديانيون والفرس من الشرق، واستقرت في الغرب. لقد تغلغلت قصة كير ورسخت اقدامها في بلاد فارس لدرجة أنها تصادفنا حتى في عهد الساسانيين».

في الماضي السحيق، كانت شعوب آسيا الوسطى تعبد الشمس، وكان لهم ربان هما الارض والماء، وآلهتان تتجسدان في شخصي ميترا واناخيت، وكان من آلهتهم غافوماردو، نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور، وكان يرمز الى القوة الكونية التي اوجدت المخلوقات كافة، عالم الحيوان والنباتات، وعلمت الناس كيفية بناء البيوت والمدن، والتغلب على أنواع الصعاب كافة. «كان المساغيت لا يعبدون من الأرباب والإلهات سوى الشمس، التي كانوا يقدمون لها الخيول ضحايا وقرابين، لاعتقادهم بأن أسرع الأرباب والإلهات جدير به ان يقدم له أسرع الحيوانات».

قال هيرودوتس كما ذكر سترابون: «ان الديربيكي يعبدون الأرض...» ودين الاخيمينيين تحث تعليماته على تقديس الأجداد والأسلاف. إلا أن الديانة الزرادشتية كانت اكثر الديانات انتشاراً في آسيا الوسطى، في الفترة ما بين القرنين ٧و ٦ ق. م، وانتشرت حتى بلغت الهند وبلاد فارس وغيرها من بلدان الشرقين الأوسط والأدنى. والزرادشتية ديانة تجسد الصراع بين الخير (المتمثل باله الخير اهرومزدا) والشر (المتمثل باله الشر اهريمان). وجدير بالذكر أن الزرادشتية تشجب التقشف والزهد، زاعمة ان ذلك يؤدي الى انتصار الشر، وتعترف باليوم الآخر، وتقول إن أنصار الخير مصيرهم الجنة.

وُضِع «الافسيتة» ـ الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين ـ في الفترة ما بين القرنين ٧ ـ ٦ ق. م، ويتألف من أربعة أجزاء: ياسنا، فينديداد، ياشتي، وفيسيزيد. ويضم تعاليم زرادشت المنظومة شعراً، واناشيد واساطير دينية. والفكرة الرئيسة للكتاب تكمن في الصراع بين اهرومزدا واهريمان، وقد جرت صياغته النهائية في ق. ٤ م إبّان حكم شانتور الثاني الساساني (٣١٠ ـ ٣٧٩)، وكان كتاب قانون (او نظام تشريعي ـ المترجم) لدولة الساسانيين.

ولقد أكد المستشرق الفرنسي ج. دارمستيتر والباحث السوفييتي ا. عليّوف أنّ «الافسيتة» أُلّف في «ميديا» أي في ايران الشمالية الغربية وأذربيجان، وبحسب رأي ف.ف. ستروف وس. ب. تولستوف، اللذين اجريا دراسة وبحثاً عميقين حول هذا الاثر، فإن كتاب «افسيتة» قد جرى تأليفه في آسيا الوسطى.

ومن آثار تلك الفترة وصلنا بعض الآثار الفنية: خناجر، وطقوم خيول وغيرها من المواد العائدة للرُّحل، أي مواد تصور الحيوانات المختلفة، وهي معروفة في المدارس الفنية بـ«الاسلوب الحيواني»، و صفائح ذهب عليها صور الساكين، وتماثيل الكهنة المصنوعة من الذهب والفضة، وعربات، وصور العديد من الحيوانات المصنوعة من الذهب ايضاً. لقد عُثر على هذه المواد والآثار في عام ١٨٧٧، أثناء عمليات التنقيب التي جرت في أطلال مدينة تخت ـ كوباد الواقعة عند مصب نهر وخش، وتعود إلى الفترة ما بين القرنين ٦ ـ ٤ ق. م المحاريب ـ المجمرات ذات القوائم الأربع، والقدر البرونزية ذات القوائم الثلاث، وأربعة مواعين فوقها، لها اربعة مقابض، عثر عليها في العام ١٩٣٩ أثناء شق قناة فرغانة الكبيرة؛ وعلى أشياء أخرى غيرها مثل (ختم حجري من افراسياب) والخ...

الدول القديمة التي كانت قائمة في منطقة اوزبكستان

انتهى حكم دولة الأخيمينيين في آسيا الوسطى (عام ٣٣٠ ق. م)، وحل محلهم المقدونيون. وكانت عواقب هذا الحدث التاريخي عظيمة: لقد تم القضاء على دولة الظلم والاستبداد التي سلبت آسيا الوسطى ثروات طائلة دون أي مقابل. في حين جلب المقدونيون معهم ثقافتهم الرفيعة المعروفة علمياً بالثقافة الهيلانية، وبنوا المدن (الاسكندرية على شاطئ البحر المتوسط (مصر)، وسوزنان (ايران)، في كرماني، واراكوسي (قندهار)، وأرسه (هرات ـ حالياً) على ياكسورت والخ...)، وشيدوا العمارات الشاهقة، وقاموا بعمليات إعادة إعمار على نطاق كبير. هذا اولاً.

اما ثانياً: فقد ساعدوا على تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين الشرق والغرب.

وثالثاً: ساعدوا على ظهور عدد من الدول المحلية الجديدة: دولة السلوقيين في ايران (٣١٢ ـ ١٦٨ ق. م)، دولة البارثيين (٣١٢ ـ ق. م ـ ٢٠م) في الشرقين الاوسط والادنى، الدولة الاغريقية البقتيرية (٢٣٩ ـ حوالى عام ١٢٠ ـ ق. م) في آسيا الوسطى وشمال افغانستان.

آسيا الوسطى تحت حكم الاسكندر المقدوني وخلفائه

بدأت حملة الاسكندر المقدوني، الذي دام حكمه من ٣٣٦ ـ ٣٢٣ ق. م، على

الشرق في عام ٣٣٤ ق. م. كان جيشه جيد التسليح والتدريب، يتألف من ٣٠٠٠٠ محارب من المشاة و ٥٠٠٠ من الفرسان. وكان بحوزة هذا الجيش «آليات» حصار مختلفة.

وفي طريقه الى آسيا الوسطى، ألحق الاسكندر عدة هزائم فادحة بالجيش الفارسي، إذ دمر خيرة فرق فرسان الاخيمينيين عند نهر غرانيك، ثمّ استولى على ميليت، وبذلك حرم الاسطول الفارسي من هذا الميناء البحري المهم، ثم احتل غالكارناس درع الاخيمينيين وحصنهم المنيع. وعقب ذلك (عام ٣٣٣ ق. م) ألحقت قوات الاسكندر الهزائم بالفرس على ضفة نهر ايس في كيليكي، وبعد ها سيطر على آسيا الصغرى بكاملها، ثم سقطت بيده أرواد ومارات ودمشق.

وفي مارات أسر الاسكندر زوجات الملك الفارسي «دارا الثالث» وأفراد أسرته(٣٣٦ - ٣٣٠ ق. م). كما أسر قافلته في دمشق. واستسلمت له المدن الكبيرة، منها جبيل وصيدا ، من دون مقاومة. وفي العام ٣٣٢ ق. م وبعد حصار دام سبعة أشهر، استولى على المدينة الفينيقية صور .

ومن صور توجه الاسكندر الى مصر، حيث لم يجد مقاومة عنيفة. واستسلم له الـ «ساتراب» النائب «او الوالي الفارسي» بدون مقاومة. وبهذا سقطت المنطقة الأكثر أهمية اجتماعياً واقتصادياً واستراتيجياً بالنسبة إلى الدولة الأخيمينية، وأصبحت بيد المقدونيين. وتجدر الإشارة إلى أن الفضل الكبير في الانتصارات التي حققها الاسكندر المقدوني، يعود الى دعم طبقات السكان كافة له، تلك الطبقات التي كانت تستاء من الأخيمينيين وتكرههم.

وفي صيف عام ٣٣٢ ق. م، احتلت قوات الاسكندر المقدوني مدينة صور واستعبدت سكانها. وبعد ذلك وبدون اي مقاومة، اجتازت نهر دجلة، متجهة نحو غاوغاميل حيث كانت تجمعات القوات الرئيسية لـ «دارا» الثالث، وحيث دارت معركة دموية طاحنة بين المقدونيين والأخيمينيين (١- اكتوبر عام ٣٣١ ق. م) مني فيها ملك الأخيمينيين بهزيمة منكرة. لاحق الاسكندر الفرس حتى مدينة أربيل الأشورية. أما

دارا الثالث ونوابه (ساتراب): بيس، وبارساينغ، وساتييرزان، ونابارزان، ومن بقي سالماً، فقد تمكنوا من الفرار باتجاه ايكباتاني (همذان ـ حالياً)، عاصمة ميديا.

وغدت الطريق نحو المركز الحيوي المهم للفرس مفتوحة أمام الاسكندر وجيشه، فتقدمت قواته بجرأة نحو فاميلون (عاصمة دولة العبيد في الجزء الجنوبي من ميسوباتاميا، أي الجزء الجنوبي من العراق). وخرج مازيي، نائب المدينة، واعيانها ووجهاؤها، مستقبلين الاسكندر بالخبز والملح. ومن هناك، وجه الاسكندر قواته الى مدينة السّوس (مدينة قديمة جنوب غربي ديزفول)، ومنها الى بيرسيدو وطن الأخيمينيين. واحتلت قوات الاسكندر آنذاك وبسهولة بالغة، مدينة بيرسيبول، عاصمة الفرس القديمة، حيث استولى المقدونيون على خزينة ملوك الأخيمينيين الغنية جداً والمفعمة بالحلي والأواني المصنوعة من الذهب والفضة، وغيرها من المجوهرات الثمينة التي تزيد قيمتها الاجمالية على ١٨٠٠٠٠ تالانت. وفي عام ٣٣٠ ق. م، تحركت جحافل الاسكندر الى ميديا واحتلت ايكباتان، فهرب دارا الثالث الى عمق إيران، إلا أن الاسكندر لحق به قرب دامغان الحالية. ومع اقتراب قوات الاسكندر قام الـ «ساتراب»، النواب او الولاة، بالقضاء على دارا الثالث والفرار شرقاً.

بعد وفاة دارا الثالث أصبحت أملاك الأخيمينيين وممتلكاتهم كافة بيد الاسكندر المقدوني. أما القوات الأخيمينية المناوئة فقد تجمعت في الجزء الشرقي من ايران وآسيا الوسطى وتمركزت هناك. وكان على الاسكندر احتلال هذه المناطق ايضاً. لكن صعوبات ومشاكل برزت أمامه، كانت تكمن في المؤامرات التي دبّرها اثنان من قادته العسكريين، ألا وهما فارمينون وفيلوت. صحيح، أن المؤامرة اكتشفت فوراً، وقُضي على رؤوسها بنجاح، كما قُضي على مشاعر الاستياء بين صفوف الجيش، وعلى من يعارضون سياسة مواصلة الحرب داخل البلاد؛ إلا أن المشكلة الأهم كانت تكمن في اندلاع الحرب الشعبية الوطنية ضد المحتلين الغزاة. وكانت أخطر الحركات تلك التي تزعمها الوالي الأخيميني السابق لبقتيريا المدعو بيس، الذي أعلن نفسه ملكاً، حتى إنه أطلق على نفسه اسم «آرت كسيركس الرابع». اضطربت الجماهير

الشعبية في اراخوسيا (منطقة قديمة تقع في حوض انهار ارغانداب، وارغانداك، وارغاستان وغزني، وأهم مدنها قندهار) وأرين (منطقة قديمة تقع على نهر هري رود، ومدينتها الرئيسية - هرات). بَيْدَ أنّ الاسكندر تمكن من القضاء على هاتين الثورتين في اراخوسيا وأرين بسرعة وبدون اي صعوبة تذكر.

إلا أن «بيس» سبَّب له الكثير من المتاعب، ما اضطر الاسكندر لمواجهته شخصياً، فاجتاز وادي كابول، وجبال باروباميز (جبال هندوكوش)، واقتحم بقتيريا. لم يستطع بيس الصمود أمام المقدونيين، فهرب الى بلاد سغد الواقعة في ما وراء نهر اموداريا. ولكن سرعان ما ألقى عليه القبض القائد العسكري، بطليموس لاغوس، الذي أصبح ملك مصر، فيما بعد.

وأرسل بيس، فوراً، الى ايكباتان حيث أعدم بصورة شنيعة.

بعد عبور اوكس اصطدم الاسكندر بمقاومة السغديين، الذين كان يترأسهم زعيمهم سبيتامين، الذي اتبع اسلوب الفدائيين في نضاله، الأمر الذي لم يجعل استيلاء الاسكندر على سمرقند يتمّ بسهولة وبدون عناء. ثم اتجه الاسكندر الى فرغانة، وأقام آنذاك على ضفة ياكسارت (نهر سرداريا، في منطقة خجند حالياً) مدينة كبيرة سماها اليكسندري ايسخاتا (الاسكندرية الأخيرة)، وبذلك حاول منع اتحاد سبيتامين مع ساكيي ياكسارت. أما سبيتامين فقد استغل عدم وجود الاسكندر في سغد وقام باحتلال سمرقند. ولما علم الاسكندر بذلك، قفل عائداً بجيشه الى سغد. وفي هذه المرة ايضاً، تجنب سبيتامين الاصطدام بالاسكندر بصورة مكشوفة ومواجهته بشكل مباشر، وفرّ من سمرقند الى السهوب. وهنا سار الاسكندر بجيشه الى وادي بوليتيميت (زرافشان)، بالنار والحديد، حيث قتل ١٢٠٠٠٠ من السغديين، واستعبد الكثير منهم واقتادهم الى الضفة اليسرى لأوكس.

بعد احتلال سمرقند وإخضاع السغديين، توقف الاسكندر عن مجاربة سبيتامين، وعاد الى زارياسب (بقتيريا) لتمضية فترة الشتاء هناك ولتعبئة قواته وتزويد جيشه بالمؤن والعلف للخيول.

وفي صيف ٣٢٣ ق. م، عاد الى سغد المضطربة، حيث ما زالت الأوضاع متوترة والهيجان مستمراً، ولم تتوقف هجمات سبيتامين الذي تحالف مع المساغيت. عندئذ لجأ الاسكندر الى القوة، واحتل عدداً من القلاع حيث كانت تتحصن ـ نقلاً عن ادريون ـ مجموعات كبيرة من المقاتلين السغديين. وتجدر الاشارة هنا، الى أن الاسكندر أقام عدداً من الاستحكامات لخوض معركة ناجحة مع سبيتامين، وأمر احدى فصائله، التي أعدها خصيصاً لذلك، بتمشيط سغد برمّتها. إلا أن سبيتامين واتباعه تفادوا مواجهة قوات الاسكندر، وفرّوا الى ما وراء اوكس (منطقة تركمانستان ـ حالياً)، حيث أخذوا يشنون الهجمات على مناطق سغد المكشوفة بالتعاون مع حلفائهم المساغيت. إلا أن هذه الهجمات لم تكن ناجحة ولم تُجْدِ شيئاً. إذ إنه إبّان إحدى هذه الهجمات، هُزم سبيتامين على يد «كين» أحد قادة المقدونيين. وهنا ايضاً وللمرة الأخيرة، هرب سبيتامين الى المساغيت، بيد أنّ زعيم المساغيت قام بقتله خشية انتقام الاسكندر منه، وأرسل رأس سبيتامين الى مقر الامبراطور المقدوني. وقد جرى ذلك عام ٣٢٧ ق. م.

وعن الأيام الأخيرة من حياة زعيم السغديين المتمردين، نقرأ لدى المؤرخ اليوناني أرِّيان (ما بين ٩٥ و١٧٥م) والذي أرَّخ لحملات الإسكندر على آسيا ما يلي: «عندما قدم سبيتامين إلى حصن السغديين الواقع على الحدود بين سغد وبلاد المساغيت السقيتيين، استطاع هو (أي ـ سبيتامين) وانصاره، وبدون أي صعوبة، اقناع زهاء ٣٠٠٠ من فرسان السقيت بشن هجمة مشتركة على سغد... ولما علم «كين» ورفاقه باقتراب سبيتامين مع الفرسان، خرج للقائه مع القوات التي كانت متوافرة لديه. وجرت معركة طاحنة انتصر فيها المقدونيون. أما السغديون، الذين بقوا مع سبيتامين، والعديد من البقتيريين، فقد استسلموا لـ «كين» بعد فرار زعيمهم. بينما قام المساغيت السقيتيون، بعد ان أخفقت العملية، بسلب مؤونة الأطراف المتحاربة، ومن ضمنها مؤونة حلفائهم البقتيريين والسغديين، وهربوا مع سبيتامين الى الصحراء. ولكن ما إن علموا بتحرّك الاسكندر نحوهم باتجاه الصحراء، حتى قاموا بقطع رأس سبيتامين...».

وبعد ذلك، لم يَرْمِ السغديون والبقتيريون السلاح وواصلوا النضال. إذ قام عدد من زعمائهم أمثال اوكسيرات وهورين بالاستحكام في حصونهم الجبلية، واستمروا في مقاومة الغزاة ومحاربتهم. وفي العام نفسه (٣٢٧ ق. م) وبعد جهود كبيرة، استطاع الاسكندر التغلب على الجبليين. وكانت هذه الانتفاضة آخر محاولة قام بها السغديون ضد الاسكندر المقدوني.

لقد لعبت سياسة المهادنة، التي اتبعها الاسكندر في تعامله مع مسؤولي البلاد وأعيانها، دوراً معيناً في انجاح عملية مكافحته لشعب سغد المتمرد الثائر، إذ تمكن المقدوني من استمالة هؤلاء المسؤولين والأعيان بقواتهم وفرسانهم الى جانبه، حتى انهم كانوا يشاركون في حملات الاسكندر العسكرية. إذ شاركوا، مثلاً، في الحملة الأخيرة التي شنت على سبيتامين، وكان ضمن قوات الاسكندر فرقة خيالة من السغديين والبقتيريين. قبل ذلك ايضاً، كان جيش الاسكندر يضم تشكيلات عسكرية من الاجانب، وعلاوة على ذلك، صاهر هو وقادته العسكريون الاعيان والوجهاء المحليين. ونقلاً عن أرِّيان، فقد أقدم الاسكندر نفسه، بعد احتلاله لحصن اوكسبارات الجبلي، على الزواج من ابنة راهشاناقة (روكسانا)، بغض النظر عن كونها إحدى أسراه، وإبّان محاربته جبليين آخرين في استحكام آخر، قام هذا الاوكسبارات باقناع زعيمهم هوريان بتسليم الاستحكام طواعية.«وعهد الاسكندر - يستطرد أرِّيان قائلاً: - إلى هوريان، واعاد اليه ثانية، استحكامه والمحافظة التي كانت تابعة له».

وكانت هذه السياسة سياسة حكيمة بعيدة النظر اتبعت قبل الاسكندر وبعده. إذ إن حكم البلاد المحتلة بواسطة سكانها المحليين مريح، وأكثر سهولة من حكمها مباشرة من الغزاة.

وهكذا أصبحت بقتيريا وبلاد سغد تحت حكم المقدونيين.

لقد ساعد الغزو المقدوني، بصرف النظر عن قوته المدمرة، على زيادة القوى الانتاجية، ومركزة الدولة، وإرساء الثقافة الهيلانية، التي تضافرت فيها العناصر اليونانية والمحلية. كذلك ساعد على تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية

والثقافية بين بلدان الشرق ـ من ضمنها دول آسيا الوسطى ـ والبلدان الغربية.

في السنوات الأخيرة اتخذ الاسكندر المقدوني من مدينة بابل عاصمة له، وانهمك في تنظيم شؤون امبراطوريته المترامية الأطراف وترتيبها. فمثلاً قسم المناطق الشرقية من الامبراطورية، ومن ضمنها إيران وجزء من آسيا الوسطى، إلى ١٤ ساترابياً (ولاية): فارس، باريتاكين، كارمانيا، ميدي، تابوريا مع بلاد ماردوف، بارثي مع غيركانيا، بقتيريا، أرين مع دراغيانا، هيدروسيا مع بلاد اريتوف، أراخوسيا، بلاد باروبانيساد، الهند من هذه الجهة من نهر الهند، ومناطق الهند السفلى.

بعد وفاة الاسكندر، جرى في الاجتماع، الذي عقده رفاقه المقربون منه في مدينة بابل، إعادة توزيع الـ «ساترابيات» (الولايات)، إلا أنهم تمكنوا من انتخاب خليفة للاسكندر المقدوني. وتولى الجزء الغربي من الامبراطورية الملك انتي باتر، في حين تولى الجزء الآسيوي من الدولة ـ الذي عاصمته بابل ـ الملك بيرديكا، القائد الاعلى لخيالة الاسكندر. وأدى هذا التصدّع إلى التفتت الشامل للامبراطورية، الذي بدأه الساترابيون (الولاة ـ او النواب) في ميديا ومصر، بيفون وبطليموس لاغوس. ولما باءت جهود بيرديكا ومساعيه، للمحافظة على وحدة الامبراطورية، بالفشل، ولم تؤد إلى أي نتيجة، قتله جنوده في العام ٣٢١ ق.م.

كان «انتي باتر» قد انتخب في الاجتماع الذي عقد في تريباراديس (سوريا) حاكما أعلى. وعَيَّن أشخاصاً آخرين في مناصب عليا، فمثلاً عين انتيغون ساتراب زيفي، قائداً أعلى في آسيا، وعين بيفون قائداً «للولايات العليا» أي: ايران وقسم من آسيا الوسطى والهند، في حين عهد إلى سلوقوس، احد قادة الاسكندر البارزين، بمنصب القائد الأعلى لبابل. كذلك عينت القيادة العليا لمناطق بارثيا (بارفيا)، أريا، بقتيريا وغيرها من المناطق.

بعد وفاة انتي باتر، (٣١٩ ق.م)، أخذ الساترابيون (الولاة) يتنازعون السلطة على ايران والاجزاء الشرقية من الامبراطورية. وكان اول من ابدى نفسه هو بيفون، ساتراب ميديا، على أن ساترابيي (ولاة) المناطق الشرقية لم يفسحوا له في

المجال (عام ٣١٨م)، ورفع رأسه «ايفمين»، الذي كان يتصرف باسم انتي باتر الآنف الذكر. وهب ضده سلوقوس وبيفون، اللذان استعانا بـ«انتيغون» إحدى الشخصيات ذات النفوذ المرشحة لحكم آسيا. وقام انتيغون، كونه ألد اعداء ايفمين، باقتحام سوريا، الا انه فشل في محاولته، ما اضطره للتراجع. وفي خريف ٣١٧ ق.م، دارت معركة طاحنة قرب اصفهان بين انتيغون وايفمين، وفي هذه المرة ايضاً، انتهت بانتصار ايفمين. لكن ايفمين هزم في المعركة الثالثة، وأعدم بأمر من انتيغون.

وبعد ذلك، أصبح انتيغون اقوى شخصية في آسيا الصغرى، إلا أن حربه من أجل الاستيلاء على إيران اسفرت عن تحطيمه وهلاكه شخصياً (في العام ٣١٠م، في ايبس). وانتقلت السلطة الحقيقية في إيران عام (٣١٢ ق.م) إلى سلوقوس بعد ان كانت في الماضي في قبضة ساتراب (والي) بابل.

أما فيما يتعلق بآسيا الوسطى، فما كاد الاسكندر يموت، حتّى دبت الفوضى والاضطراب في صفوف قوات المقدوني، وقرر عشرون ألفاً من المشاة و من الفرسان مغادرة البلاد والعودة إلى مقدونيا، بيد أنّ القوات المرسلة ضدهم بقيادة بيرديكا رفيق الاسكندر وأحد أنصاره ، اعترضت سبيلهم وجردتهم من اسلحتهم. وفرّ بعض منهم، إلا أنهم اعدموا فيما بعد. وعقب ذلك عزل ساتراب (والي) سغد، الذي كان من الوجهاء المحليين، وعين مكانه المقدوني المدعو «فيليب»، والذي عهد اليه بحكم سغد وبقتيريا. وفي العام ٣١٥ ق.م، استبدل ساترابيو (ولاة) المناطق الأخرى.

آسيا الوسطى ضمن دولة السلوقيين

دولة هيلانية عظيمة (٣١٢ ـ ٦٤ ق.م) تأسست في حدود منطقتي الشرق الأدنى والأوسط. أسسها سلوقوس الاول ـ ڤيكتور (أي الظافر)، ابن أحد النبلاء المقدونيين وأحد قادة الاسكندر العسكريين. شغل منصب والي بابل اعتباراً من عام ٣١٢ ق.م وقام بتوحيد ميديا وسوزيانا وبيرسيدو، ثم ضم إليها بقتيريا وأعلن نفسه ملكاً. وتعرف دولة السلوقيين ايضاً، بالمملكة السورية. وكانت تُخضع لسيطرتها الأراضي الممتدة من البحر الابيض المتوسط الى ايران الشرقية. وسرعان

ما عمل سلوقوس على توسيع حدودها، حتى الهند وسرداريا.

وفي عهد سلوقوس (٣١٢ ـ ٢٨١ ق.م) وخليفته انطوخيوس الاول (٢٨١ او ٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م) كانت آسيا الوسطى عبارة عن ساترابيا (ولاية) واحدة، تضم سغد، وبقتيريا ومرغيان. أما خوارزم فيبدو أنها ظلت محتفظة بسيادتها واستقلالها. وحرصاً على سلامة الأمبراطورية وأمنها من الشمال والشمال الشرقي والشرق، قام الملوك السلوقيون بانشاء مستوطنات أو مستعمرات يونانية محصنة. ومن ضمن هذه المدن ـ المستوطنات، أو المستعمرات، ذكر المؤرخون انطيوخيا (انطاكيا) الواقعة ما وراء ياكسارات وانطيوخيا بالقرب من بيرمي علي الحالية. ولحماية واحة مرو الخصيبة أقيم حولها في عهد انطوخيوس الاول سور طوله ١٥٠٠ ستادي (ما يعادل ٢٣٥كلم). وعلاوة على الأهمية الدفاعية لهذه المدن (كانت مبنية في ايران، انطيوخيا في فارْس (خرسان)، اللاذقية في ميديا، سلوقية افلوت، وغيديفون على الخليج الفارسي)، لعبت هذه المدن دوراً آخر تمثَّل في «هيلنة» السكان المحليين (أي جعلهم هيلانيين «أو يونان»).

أما عن الحياة الاقتصادية في آسيا الوسطى، في عهد السلوقيين، فالمعلومات المتوافرة لدينا قليلة جداً. وعلى الرغم من ذلك يمكننا الاستنتاج من اتساع شبكات الري وازدياد عدد المدن والمستوطنات، أنّ الزراعة والصناعة والتجارة قد تطورت إبان ذلك.

وعلى الرغم من ذلك، ونتيجة الحروب الفاشلة في سوريا، والاخفاقات في مكافحة بطليموس «٢» وفيلاديلفوس، والييْ مصر في منتصف ق ـ ٣ ق.م، فقد وجدت دولة السلوقيين نفسها في وضع حرج، فاستغلت المناطق الخاضعة لها وراح الساترابيون (الولاة) يعلنون استقلالهم الواحد تلو الآخر. وفي عام ٢٦٣ ق.م استقلت «بيرغام» الواقعة غرب آسيا الصغرى. وابان حكم انطوخيوس «٢» (وعام ٢٦١ ـ ٢٤٧ ق.م)، اندلعت الحرب السورية الثانية (عام ٢٥٨ ـ ٢٥٧ أو ٢٥٤ ق.م). صحيح أنها انتهت بتوقيع اتفاقية سلام، إلاّ أن السلوقيين فقدوا عدداً من مناطق آسيا الصغرى. وفي عام ٢٦٠ ـ ٢٥٠ ق.م، استقلت كابنوديكيا، شمال آسيا الصغرى.

وجرى مثل ذلك أيضاً في شرقي الدولة، إذ استغل والي بقتيريا ـ ديودوت انشغال السلوقيين في الحرب غرباً، فانفصل عنهم معلناً استقلاله. وفي الوقت نفسه، تمرّدت قبائل داخيا الرُّحل (قبائل بارنوف، التي كانت تتنقل حول بحر قزوين).

باختصار، إن الدولة السلوقية، التي عمتها ثورات الشعوب المستعمرة والنزاعات والحروب التناحرية الداخلية، قد سقطت تحت ضربات الامبراطورية الرومانية.

المملكة اليونانية البقتيرية

كما أشرنا آنفاً، أعلن ديودوت ـ والي السلوقيين سابقاً في حوالي العام ٢٣٩ ق.م ـ انفصاله عن السلوقيين واستقلال بقتيريا. ولكل باحث رأيه الخاص في أسباب انفصال هذه المنطقة الكبيرة ذات الأهمية البالغة في مختلف المجالات، عن الامبراطورية السلوقية. فمثلاً، يرى ف. ف. تارن ـ الاخصائي البارز في تاريخ المملكة اليونانية البقتيرية ـ وأ. غوشتميد، أن ذلك جرى نتيجة ثورة او انتفاضة كبيرة عارمة. في حين يرى المستشرق الروسي م. م. وياكونوف أنّ ذلك كان «نتيجة الفتور التدريجي للعلاقات بين دولة السلوقيين والساترابيا (الولاية) البقتيرية النائية». أما نحن، فنرى أن ما حصل يكمن في العاملين المذكورين: الثورة، وضعف العلاقات الاقتصادية السياسية، بين المركز والولاية.

كانت المملكة اليونانية البقتيرية دولة مترامية الاطراف، تضم بقتيريا، سغد ومارغيان وقسماً من تشاتش. حاول ديودوت ـ مؤسس الدولة ـ الاستيلاء على بارثيا(دولة ظهرت في حوالى العام ٢٥٠ ق.م جنوب وجنوب شرقي بحر قزوين)، ولذا ساعد السلوقيين في نضالهم ضد ارشاك «١» (٢٥٠ ـ ٢٤٧ ق.م) ملك من سلالة الأرشاكيين (أسرة حكمت مملكة بارثيا في العام ٢٣٠ ق.م ٢٢٤م). أما إبنه ديودوت «٢» (المقتول عام ٢٣٠ ق.م) فقد قطع علاقاته بالسلوقيين، وتحالف مع حكام بارثيا (عام ٢٣٨ ق.م تقريباً) ضد السلوقيين. على أن القيادة العليا اليونانية المقدونية لم توافق على تحالف ديودوت «٢» مع البارثيين. ودبرت ضد ديودوت «٢»

مؤامرة أسفرت عن مقتله على يد أحد رفاقه وأنصاره، اليوناني المدعو «افتيديم» (أصله من مدينة ماغنيسيا في آسيا الصغرى)، والذي انتقلت اليه، فيما بعد، السلطةُ في المملكة اليونانية البقتيرية، والذي أسس سلالة الـ « افتيديم» الحاكمة.

ومن الأحداث التي جرت إبان حكم «افتيديم»، الحرب مع السلوقيين، إذ قام انطوخيوس «٣» الكبير بتسيير جيش جرار إلى بقتيريا بهدف استعادة السيطرة على المناطق في آسيا الوسطى، وعند الحوض السفلي لنهر أوك (تيجين)، دارت معركة دموية طاحنة بين «افتيديم» و«انطوخيوس» «٣» أسفرت عن تدمير خيالة افتيديم وهزيمته. ونقلاً عن المؤرخين الاغريق القدماء، جرت هذه المعركة في عام ٢٠٨ق.م، وبعد ذلك حاصر انطوخيوس «٣» عدوه في مدينة زارياسب (بلخ) مدة طويلة. ويبدو أن السلوقي كان مصمماً على الاستمرار في النضال حتى النصر، ولم يكترث لمحاولات الاقناع، ولا للوعود (حاول «افتيديم» إقناعه بأنه ذو ميول سلوقية، وأنه على استعداد لعزل المتمردين كافة، ارضاءً له). عندئذ انتقل افتيديم إلى الوعيد، وهدده بأنه، إذا تطلب الأمر، سيلجأ للاستعانة بالساكين الرُّحل. وهنا خشي انطوخيوس «٣» هؤلاء الرّحل، ووافق على توقيع اتفاقية سلام.

قفل انطوخيوس «٣» عائداً إلى الغرب، وبقي افتيديم سيداً مطلقاً علي بقتيريا. أما عن حكم افتيديم بعد ذلك، فلا توجد لدى المؤرخين أي معلومات هامة تذكر.

استطاع ديمتري، ابن افتيديم وخليفته، توسيع حدود الدولة اليونانية البقتيرية ومساحتها إلى حد اكبر بكثير مما كانت عليه في السابق، إذ ضم اليها مثلاً اريا، واراخوسيا، ودرانغيان. وفي حدود عام ١٧٥ ق.م، استولى على مناطق الهند الشمالية. لم ترد في المصادر اي معلومات او اشارات عن مدة حكم افتيديم أو عن الأحداث التي جرت إبّان حكمه، سوى معلومات عن الاطاحة به واستيلاء شخص يدعى افكراتيد على السلطة، وقد جرى ذلك حوالي العام ١٥٧ ق.م. ومن الاحداث التي وقعت ابان حكم افكراتيد نذكر ما يلي: استيلاءه على باروبا ميساد والبنجاب، وعدم تمكنه من مواصلة تقدمه نحو الهند، إذ حال دون ذلك اعتراض ميناندر له في مكان ما من منطقة نهر الهند. وبعد ذلك بدأت المملكة اليونانية البقتيرية بالانهيار،

فانفصلت عنها كل من سغد وخوارزم. وقام الملك البارثيوني ميتيردات الاول (حوالي عام ١٧٠ ـ ١٧٢ ق.م) بسلب مارغيان الغنية منها. وهكذا لم يتبق من هذه المملكة سوى بقتيريا. وفي عام ١٥٥ ق.م تقريباً، قتل افكراتيد على يد ابنه بمساعدة شريكه في الحكم غيليوكل. وزالت الدولة اليونانية البقتيرية في الفترة ما بين العام ١٤٠ ـ ١٣٠ ق.م، وذلك نتيجةً لنمو حركة تحرر شعوب آسيا الوسطى، وقيام اليوتشجي بشن عدوانها على الدولة المذكورة.

وتفيد المصادر الأثرية ومؤلفات الاغريق القدماء، أن الزراعة والصناعة والتجارة كانت متطورة، في المناطق التي كانت تحت سلطة المملكة اليونانية البقتيرية.

لقد كانت الزراعة تعتمد على الري الاصطناعي، وكان السكان يزرعون الحبوب، ولا سيما القمح والأرز والفصفصة، والعنب وفواكه أخرى. كما كانت تربية الماشية متطورة في المناطق الصحراوية، ولا سيما تربية الخيول.

وفي سغد، قزل قوم، وفي الجبال وأعالي وداي امودرايا، كان السكان يزاولون أيضاً مهنة استخراج الثروات الطبيعية.

لقد كانت المملكة اليونانية البقتيرية على مستوى عالٍ من المدنية والتمدن، وليس عبثاً تخليد التاريخ لذكراها ونعتها بـ «بلاد الألف مدينة». لقد وردت هذه العبارة على لسان كل من سترابون ويوسطينوس، وقصدا بها بالتحديد، مدن بقتيريا، شمال الهند، سغد، مارغيان ووادي سرداريا، حيث كانت المدن أمثال: زارياساب (بلخ)، ودرابساك (اطلال ايخنوم قرب قوندوز)، وايفكراتيديا (من المتعذر تحديد موقعها)، وماروقند (سمرقند)، واليكسندريا ايسخاتا (في منطقة خجند الحالية)، واليكسندريا على نهر أوكس، وانطيوخيا «انطاكيا» ما وراء ياكسارت وأنطيوخيا (ماري ـ حالياً)، وديميترياس (ترمذ) وكابيسا (باغروم) وغيرها الكثير من المدن، التي كانت متطورة في ميداني الصناعة والتجارة. لقد كانت مدن المملكة اليونانية البقتيرية على علاقات تجارية مع ايران والصين والهند.

وكانت هذه البلدان تستورد البضائع والسلع الهندية: كالتوابل والأفاويه والعطور والأقمشة، وتصدر الحرير والفراء.

وتصف المصادر (الاثرية، المؤلفات والآثار الفنية) المملكة اليونانية البقتيرية كبلاد ذات ثقافة رفيعة، حيث امتزجت فيها ثقافة آسيا الوسطى المحلية بالثقافات الأخرى الهيلانية «اليونانية» والايرانية والهندية، مكونة ثقافة فريدة من نوعها، عرفت بالثقافة اليونانية البقتيرية، وتجلت، بصورة رئيسية، في فن التوفيرتيكا (صك المعادن)، وفي صناعة الميداليات والحلي والتصوير التي وصلتنا على قطع النقود المصكوكة.

وتفيد الحفريات الأثرية التي جرى التنقيب عنها في كل من خوارزم جنوب اوزبكستان (ناحية ترمذ) وطاجيكستان (كيكوباد ـ شاه في كوبيديان) أن سكان المملكة اليونانية البقتيرية كانت لهم كتاباتهم، وقد استخدموا الحروف الآرامية واليونانية.

كانت للموسيقي مكانة هامة في حياة سكان بقتيريا وسغد، ولا سيما في أثناء احتفالات القصر، حيث كانت تستخدم الآلات الموسيقية المختلفة كالمزمار والعود، والطبل والقيثارة والبوق والآلات الموسيقية الوترية.

أما بالنسبة الى المعتقدات السائدة في البلاد بين السكان، فقد كانت مختلفة، إذ عرفوا، اضافة الى الإلهات والأرباب المحليين (اناخيت، ميترا...) إلهات وأرباباً هيلانية (زفس، أثينا، بوسيدون وابولو والخ...)، وإلهات هندية وأرباباً. ذلك ما تشير اليه النصوص وآثار الفنون التطبيقية.

اما المستوى الرفيع للإبداع الفني الثقافي في بقتيريا وسغد، فإنه ينعكس بجلاء في القطع النقدية الذهبية والفضية التي صكت آنذاك، والمواد الأخرى المتعلقة بعباداتهم وحياتهم اليومية، والمصنوعة من الذهب والفضة (كالفناجين، والأواني، والحلي، والتماثيل التي تصور معبوداتهم وأربابهم وحياتهم اليومية).

دولة باركان (فرغانة)

فرغانة ـ بلاد قديمة عريقة، تقع في وادي فرغانة الرحب المترامي الاطراف، وتبلغ مساحتها ٢٢٠٠٠ كلم، طولها زهاء ٣٠٠ كلم وعرضها ١٥٠ ـ ١٧٠ كلم. وتحيط بها من ثلاث جهات السلاسل الجبلية التالية: سلاسل جبال التاي وتركستان (جنوباً)، تشاتكال وكورامين (من الجهة الشمالية الغربية) وفرغانة (من الجهة الشمالية الشرقية)، ومن الجهة الغربية فقط لها ممر ضيق (ممر خجند)، يجري فيه نهر سرداريا، الذي كان يُعدُّ من أعظم أنهار آسيا الوسطى، ويروي السهب «الظمآن». ويحتل وادي فرغانة، بفضل مناخه الجيد وخصوبة أراضيه وموقعه الجغرافي، مكانة مهمة جداً اقتصادياً واستراتيجياً. ففي الماضي، كان يمر بوادي فرغانة أحد فروع طريق الحرير العظيم، الذي كان يربط الصين واليابان ببلدان الشرقين الأوسط والأدنى وروسيا وأوروبا الشرقية. وكان طول هذه الطريق الفرعية زهاء ٧٠٠ كلم، وكانت له فروع: وادي التاي ـ كاراتيغين ـ فرغانة الغربية ـ بقتيريا، المعابر الجبلية ـ وادي كاراداريا ـ فرغانة الغربية ـ بقتيريا. فكانت طريقاً لحركة تجارية نشطة في الماضي القديم والقرون الوسطى. ولذا كان وادي فرغانة ولا يزال يعتبر من أهم مراكز آسيا الوسطى الاقتصادية.

يتألف السواد الأعظم لسكان وادي فرغانة من الاوزبك والطاجيك والقرغيز.

ورد ذكر وادي فرغانة، في المصادر العائدة للقرن ٢ ق.م، كمنطقة كثيفة السكان ذات ثقافة وحضارة، من مناطق آسيا الوسطى ، تعرف باسم «دوان»، فنقرأ مثلاً، في المصادر الصينية،: انها تقع غرب الهون، على بعد ١٠٠٠٠ لي عن العاصمة[١]، إلى الغرب مباشرة. سكانها حضر، مزارعون يزرعون الأرز والقمح، ويصنعون النبيذ من العنب. وتكثر لديهم الخيول الارغاماكية، التي تتفصد عرقاً ممزوجاً بالدم، وهي خيول سماوية الأصل. وفي «دوان» مدن كبيرة وصغيرة يبلغ

---

١ ـ المقصود هنا مقر الخان عند سفوح جبال هانغاي قرب نهر اورخون وحيث كان فيما بعد في النصف الثاني للقرن ـ ١٠ وبداية ق ـ ١٢ مقر قيادة جنكيزخان.

عددها حوالي «٧٠»، وتعداد سكانها يقارب عدة مئات من الآلاف، وقوام اسلحتهم السهام والرماح. وهم فرسان ورماةٌ مهرة. والى الشمال من «دوان» تقع كانغيوي، والى الغرب ـ يوتشجي الكبرى، والى الجنوب الغربي ـ داخيا، والى الجهة الشمالية الشرقية ـ اوسون، وغانمي[٢] شرقاً، وبعد ذلك تورد المصادر الآنفة الذكر حقائق طريفة جداً، منها:

«أخذ مبعوثو الصين ورسلُها معهم (من دوان) البذور (بذور الـ «مو ـ سو» والعنب) وأوعز ابن السماء بغرس الـ «مو ـ سو» والعنب في الاراضي الخصبة... وقد جرى غرس العنب والـ «مو ـ سو» في مساحات شاسعة.

ورغم اختلاف اللغات التي يتحدث بها سكان المناطق الممتدة من دوان غرباً حتى آنسي (بارثيا)، إلا أن عاداتهم وتقاليدهم متشابهة جداً وفي تخاطبهم يفهم بعضهم بعضاً ولا يجدون صعوبة في التفاهم».

وإذا ما ترجمنا هذه المعلومات، المستمدة من المصادر التاريخية الصينية، إلى لغة التاريخ، يتضح لنا ان حدود دوان (فرغانة) بالامكان تحديدها على النحو التالي: تحدها غرباً ممتلكات الهون (اتحاد قبلي، كانت غالبيته (في ق ـ ٣ ق. م) تقطن اواسط منغوليا ومنطقة ما وراء البيكال)، وشمالاً بلاد كانغيوي، وفي الجنوب الغربي يوتشجي الكبرى (شعب عاش في الفترة بين ١٤٠ ـ ١٢٩ ق. م على ضفة اموداريا اليسرى في طخارستان)، وفي الجنوب الغربي داخيا (بقتيريا) والشمال الشرقي اوسون.

كان عدد سكان «دوان» آنذاك ٦٠٠٠٠ أسرة (٣٠٠٠٠٠) نسمة.

كانت غالبية السكان من الحضر. ونقلاً عن الدبلوماسي الصيني تشجان تسان في ق ـ ٢ ق. م، كان في دوان ما يقارب الـ ٧٠ مدينة، من أهمها غويشوان (كاسان في فرغانة الشمالية)، يو ـ تشين (اوزغيند ـ شرقي فيرّان) و ايرشي (تقع في منطقة

---

٢ ـ غانمي (او غيويمي) ـ مدينة في ولاية خوتان (تركستان الشرقية)

ناحية مرخمات الحالية في محافظة انديجان). زاول الفرغانيون الزراعة: البستنة وزراعة الخضر والكروم، أما في الوديان الجبلية فكانوا يربُّون الماشية، ولا سيما الخيول الاصيلة، التي اشتهرت بلقب «الخيول السماوية». وتجدر الاشارة إلى ان الصينيين أخذوا الكثير عن الفرغانيين في ميدان الزراعة، إذ اخذوا من فرغانة حبوب الفصفصة والعنب التي أمر الامبراطور بغرسها في مساحات شاسعة.

الحقائق الأساسية للتاريخ السياسي

إن المعلومات المتوافرة عن التاريخ السياسي لدوان محدودة جداً، وكل ما بوسعنا قوله بهذا الصدد هو ما يلي:

يستنتج من حضارة المدن المميزة والملحوظة، أن أول دولة في «دوان» ظهرت، على ما يعتقد، في أواسط ق ـ ١٠ ق. م. وعن النظام السياسي الاداري لهذه الدولة لا يمكننا سوى ذكر القليل جداً من المعلومات. فمن الناحية السياسية كانت دولة «دوان» عبارة عن اتحاد مدن ـ دول (غويشوان ـ كاسان، ايرشي ـ مرخمات و يو ـ تشين ـ اوزغيند)، يعرف حاكمها الأعلى بلقب «فان» (أي ـ أمير قيصر). وكان لِـ «فان» مساعدان ينتخبان من أقربائه، وما يدعى بمجلس العُمُد (او الشيوخ) ويبت في القضايا الهامة المتعلقة بالحرب والسلام، اعضاؤه من زعماء وقادة الشعب والقبائل. وهنا تجدر الاشارة الى الدور الكبير، الذي كانت تلعبه قبائل اليوتشجي، الاوسون والساكيُّون وغيرهم من القبائل الرحل في حياة دوان الاجتماعية السياسية.

ومن الأحداث الهامة التي جرت في حياة الشعب الفرغاني، نذكر العدوان الصيني على دوان وشعبها في مطلع ق ـ ٢ ق. م.

في عام ١٠٤ ق. م، قامت قوات صينية، مؤلفة من ٦٠٠٠ فارس و ١٠٠٠٠ من المشاة، بقيادة «لي غوان لي» باعتداء على هذه البلاد الغنية الرائعة، ودارت الحرب رحاها مدة سنتين، وصلت خلالها القوات الصينية إلى يو ـ تشين (أوزغيند)،

العاصمة الشرقية لفرغانة. على انها لم تبلغ هدفها المنشود، واضطرت للتقهقر والانسحاب بعد ان منيت بخسائر فادحة وفقدت قسماً كبيراً من افرادها ومعداتها وعتادها. وتفيد المصادر الصينية ان ٢ / ١٠ فقط من القوات تمكنت من الوصول إلى «دونوهوان». وبعد سنتين (أي عام ١٠١ ق.م)، أرسل الامبراطور الصيني قواته مرة أخرى، الا انها كانت في هذه المرة تشكل جيشاً جراراً قوامه ١٠٠٠٠ من المقاتلين المزودين بالمؤونة اللازمة وآليات او «مدافع» القلاع (لعلها المنجنيقات). وفي ذات الوقت، كان الهون يتأهبون لشن عدوان على الصين، وقد حشدوا قواتهم على حدودها الشمالية الشرقية. فإذا ما باشر الهون عدوانهم كان من المحتمل ان تذهب جهود القادة الصينيين والجيش الصيني أدراج الرياح، وتفشل خططهم في وادي فرغانة. لذا قرر الامبراطور الصيني أن يعزل اولاً قوات الهون، فسيَّر اليهم ١٨٠٠٠٠ مقاتل، لكن خطة الصينيين لم تنجح، إذ ان الهون لم يتجرأوا على خوض معركة ضد الجيش الصيني، واضطروا للانسحاب إلى عمق اراضيهم. بعد ذلك صبحت الطريق إلى فرغانة مفتوحة أمام الصينيين، وفي هذه المرة أحرز الصينيون بعض النجاحات، فتمكنوا من احتلال يو ـ تشين، وغويشوان، وعدد من المستوطنات الهامة شرقي البلاد. بيد انهم اخفقوا في الاستيلاء على ايرش، عاصمة فرغانة، إذ خرج حماتها من الحصن وحاربوا المحتلين. إلاّ أنهم لم يستطيعوا الصمود، واضطروا للتراجع إلى داخل القلعة. وبعد حصار دام أربعين يوماً، اقتحم الصينيون المدينة الخارجية، واستولوا على منشآتها الدفاعية. وتقهقر حماة المدينة إلى المدينة الداخلية ـ القلعة، وتحصنوا وراء جدرانها واسوارها المنيعة الحصينة. وهنا ينبغي القول إنه في أثناء محاصرة ايرش، حدث شيء ما في يو ـ تشين، حيث أرسل القائد العسكري الصيني الى هناك فرقة خاصة، قام أهل يو ـ تشين بإبادتها. وجاء في المصادر، انه آنذاك، تمكن الصينيون بقيادة الضابط شان غوان غي من الاستيلاء على يو ـ تشين، التي فر حاكمها الى الكانغيويين. ولكن يبدو أن الصينيين أرسلوا من ايرش الى هناك ـ الى يو ـ تشين ـ فرقة أخرى. أما فيما يتعلق بايرش، فقد تعذّر على الصينيين إخضاعها واحتلالها، وهنا أدرك القائد الصيني أنه لن يستطيع التغلب على

هؤلاء الفرغانيين الجسورين الشُجعان الأباة، فأصدر أمراً بالانسحاب، وفي هذه المرة ايضاً تكبدت قواته خسائر جسيمة، ولم يعد من جيشه المؤلف من ٦٠٠٠٠ مقاتل سوى ١٠٠٠٠. وهكذا باءت الحملة الصينية على فرغانة بالفشل في هذه المرة أيضاً. لقد استطاع الفرغانيون الدفاع عن استقلالهم وسيادتهم، كما فعلوا في السابق، في الفترة ما بين القرنين ٧ ـ ٤ ق. م ومطلع العصر الجديد، وتمكنوا من الصمود أمام قوة عظيمة كالامبراطورية الصينية.

لا توجد لدينا أي معلومات عن الأحداث السياسية، التي جرت بعد ق ـ ٣ م، في فرغانة بشكل عام، وفي الجزء الشمالي الشرقي من آسيا الوسطى، سوى تلك المعلومات المتعلقة بالسفارة في الصين وما حدث فيها في ق ـ ٥ م.

ولكن الجدير ذكره، أنه عند مفترق القرنين ٥ ـ ٦ م، بدأت في فرغانة ايضاً مرحلة تكون المجتمع الاقطاعي.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية

في نهاية ق ـ ٢ ق. م ـ وبداية ق ـ ١ ق. م، يلاحظ في فرغانة حدوث تطور في الزراعة، وتربية الماشية، والصناعة والتجارة.

ففيما يخص الزراعة، تفيد الحفريات الأثرية التي تمت شرق فرغانة (ايلاتان)، بانها كانت تعتمد على الري الاصطناعي. وزُرعت الأراضي بالحبوب كالقمح، والأرز، والدخن، والعدس، والحمص، والصنوبر، والبرسيم (مو ـ سو ـ المصادر الصينية)، القطن والقرعيات (البطيخ الأحمر والأصفر والخ...)، والفواكه (المشمش، الدراق، الجوز، الكرز والعنب). كذلك كانت تربية دودة القز متطورة أيضاً. وفي المراعي الخصبة كانت الأبقار والخيول، والحمير والجمال. وكما اشرنا آنفاً، لقد كانت فرغانة مشهورة جداً بخيولها «الآرغاماك».

كذلك كانت الصناعات اليدوية متطورة. وبناءً على دراسات علماء الآثار (ي. أ. زادينبروفسكي، ت. غ. اوبولدويفا، ن. غ. غور بونوفا، أ. إ. اسلاموفا وغيرهم)

كانت «صناعة» التعدين، ومهنة تشغيل الخشب، وصناعة الفخار والخزف، وصياغة الحلي والمجوهرات، والنسيج والحياكة، صناعات متطورة ايضاً. وكان الحرفيون الفرغانيون يصنعون المصوغات الرائعة: الحلي (الخرز، والاقراط، والخواتم...) من الذهب والفضة والبرونز، وأدوات الزراعة وآلات الحرب من الحديد (المعاول، والسهام، الخناجر، الدروع والتروس...)

ولقد لعبت دوراً كبيراً في تطور هذه الحرف مناجمُ (الحديد، والذهب، والنحاس، والفضة والخ...) التي كانت غنية بها أراضي الفرغانة.

اشتهرت فرغانة بعلاقاتها التجارية النشطة مع جاراتها: الصين، وبقتيريا، والهند وغيرها من البلدان. وذلك ما تشير اليه الآثار التي جرى التنقيب عنها. فمثلاً، تم العثور في كارابولاك، مونشاك ـ تيبا، ومنطقة زهاد ستروي، على مصنوعات هندية: تماثيل برونزية، موقد صغير عليه صورة الإلهة «باجراباني»، وخرز من العقيق اليماني والخ...

وحري بالذكر أنّ فرغانة شاركت مشاركة فعالة في التجارة الدولية (في الوساطة التجارية).

الثقافة

إنّ أعمال الحفريات الأثرية والتنقيبات، التي أجريت في بعض مناطق هذه البلاد العريقة في الـ ٣٠ سنة الأخيرة، في دالفيرزين، وتشوست، وايلاتان، وشوراباشات، غيرات ـ تيبا، وسوخ، وكوبا (كوڤا) وأماكن أخرى، قدَّمت لنا مواد غزيرة عن التراث الثقافي لفرغانة العريقة، وثرائها مادياً وثقافياً وروحياً.

بلغ الفرغانيون مستوىً رفيعاً في فنّ البناء، وذلك ما تشير اليه مدن فرغانة المنظمة والمزودة بوسائل الراحة، والمستوطنات ذات الحصون المنيعة والقلاع، والقصور. كما اشتهر الفرغانيون كحرفيين مهرة بارعين. إن الصناعات الحرفية تقدم مواد قيمة عن حضارة الفرغانيين، إذ كانوا مثلاً ينتجون الاقمشة الجيدة التي

تحمل صوراً آدمية، والمناديل التي عليها الإلهات، وحلي النساء (كالاقراط من الفضة والبرونز، والخرز من الزجاج والحجارة والمرجان، والأساور المعدنية، والخواتم من البرونز والحديد، والاطواق والعقود ...). ذلك ما تدل عليه الأواني المزخرفة بالرسوم والنقوش، والحلي المصنوعة من الذهب على هيئة طيور، والمقابض البرونزية على هيئة جسم مرأة للمرايا، والصفائح البرونزية وعليها صور إلهتي الشمس والقمر، والتماثيل البرونزية المصنوعة على هيئة أغنام وتيوس جبلية وخيول. وثمة مواد غزيرة عن ثقافة فرغانة العريقة وحضارتها تقدمها لنا الصور المنحوتة على الصخور (طقوم وعدة قرن الثيران والعربات الصغيرة وتلك التي تجرها الخيول والخ...)، التي تم العثور عليها أثناء الدراسات الاثرية للجزء الاوسط من سلسلة جبال (سايمولي ـ توش) الفرغانية.

أمّا عن الأديان والطقوس الدينية لدى الفرغانيين، فاننا نعرف ما يلي:

كانوا يعبدون الكواكب السماوية (الشمس، والقمر) والقوى السحرية. وكانت سائدة لديهم عبادة الأجداد والأسلاف وتقديسهم، وكذلك الخيول المصورة على الصخور والطيور الداجنة (الدرّاج، والديك، والطاووس) المنقوشة على الخزف.

وإذا ما تطرقنا الى العلاقات الاثنو ـ ثقافية، فإنّ القبائل العريقة القديمة لهذه المنطقة ـ المزارعين ورعاة الماشية ـ كانت على علاقات وثيقة بعضها ببعض، وأدت الى تكوين الشعب الفرغاني العريق ذي القاعدة الاقتصادية المميزة والثقافة الاصيلة الغنية واللغة الخاصة به (يعود تاريخ أقدم كتابة إلى ق ـ ٢ ق. م).

ودخل ضمن سكان فرغانة العريقة شعوب اليوتشجي، الساكيُون والاوسون الرحل.

دولة كانغلي

إن المعلومات المتوافرة لدينا عن هذه الدولة العريقة في آسيا الوسطى، التي كانت قائمة في الفترة ما بين ق ٣ ـ ٢ ق. م، معلومات شحيحة جداً،وردت، على

العموم، في المصادر التاريخية الصينية («هو ـ هان شو»، «بي ـ شو»، «سوي ـ شو»، «سين تان شو» والخ)، وكتاب «افسيته» المقدس لدى الزرادشتيين الآنف ذكره، والملحمة الشعرية الهندية «مهابراتا»، وفي الدراسات والابحاث التي اجراها كل من: ف. ف بارتولد ، م. ي. ماسون، س. ي. مالوف، س. ب. تولستوف، س. غ. كلاشتورني، ف. توماشيك، ف. خيتر، إ. ماركفارت، وا. شافان وغيرهم. ان أهم خطوة في دراسة تاريخ دولة كانغلي (كانغيوي ـ المصادر الصينية)، تكمن في الرسالة العلمية«دولة الكانغلي والكانغيوي» (باللغة الاوزبكية) التي كتبها المؤرخ الاوزبكي ك. ش. شانيازوف، ونشرها في عام ١٩٩٠. وبفضل هذه الرسالة أصبح باستطاعة المؤرخين أخذ صورة عن الشعب الكانغلي التركي العريق وعن دولته.

الكانغلي (كانغار، كانغ، كانخا، كانغو، كانغوي) شعب تركي، وهذا مما لا شك فيه. يؤكد ذلك كتاب «أفسيته» والكتابات التركية القديمة وابن خورزادبيخ (حوالى ٨٢٠ ـ ٩١٣)، الادريسي (١١٠٠ ـ ١١٦٥)، رشيد الدين (١٢٤٧ ـ ١٣٢٨)، وابو الغازي (١٦٠٣ ـ ١٦٦٤). ومثلاً، ذكر رشيد الدين، الذي كرس فصلاً خاصاً من كتابه «جامع التواريخ» لتاريخ الشعوب التركية والتركية المغولية، عن الشعب الكانغلي ما يلي:

«في الوقت، الذي كان فيه أوغوز ـ خان (سلف الشعوب التركية ـ ب. أ) يحارب أباه وأعمامه وإخوانه وأقرباءه، ويشن الهجمات على البلاد ويقوم بسلبها ونهبها، كان المنضمون اليه من سواد الشعب ومن أقربائه، يصنعون، بحسب استطاعتهم، العربات ويحمِّلونها الأشياء المنهوبة كافة، في حين ينقلون الغنائم الأخرى على الدواب. كانت هذه العربات تعرف باللغة التركية باسم «كانكا»، ولذا اطلق عليهم إسم هذه العربات. نشأت فروع الكانغلي كافة عن خلفهم». وتقريباً، يمكن قول الكلام نفسه عن «شادجارا ـ يي تورك» ابي الغازي خان، بَيْدَ أننا هنا إزاء نقطة هامة: أشار إليها المؤرخ، وهي أنّ هذا الحادث قد جرى إبّان حرب أوغوزخان مع التتر.

إنه كان من المستحيل تقريباً تحديد مساحة الدولة الكانغلية وحدودها، وذلك لتضارب المعلومات التي أوردها العلماء المختصون بتاريخ الاتراك واختلافها، كما

اختلف المؤرخون المختصون بتاريخ القرون الوسطى أحياناً بشأنها. وكونها معلومات متناثرة ومتفرقة، وبناءً عليها، بامكاننا تحديدها على نحو تقريبي. فمثلاً ـ نقلاً عن المصادر الصينية ـ بامكاننا ان نقول عن حدود كانغيوي إنه كانت تحدها شرقاً دوان (فرغانة)، وفي الجهة الشمالية الشرقية كانت حدودها تلامس بلاد الاوسون الممتدة آنذاك على سفوح تيان ـ شان ومنطقة ايسيك كول، وغرباً كانت حدود كانغيوي تمر من منتصف مجرى ياكسارت (سرداريا).

كانت عاصمة البلاد تحمل اسم البلاد نفسه ـ كانكا (كانخا، كانغيوي). ويحدد موقعها أيضاً بفضل المعلومات الواردة في المصادر. فمثلاً، جاء في المصادر التاريخية الصينية، مايلي:

«لدى حاكم كانغيوي مقر في بلاد لويوين في مدينة بيتيان، وعلى بعد ١٢٣٠٠ لي عن تشان ـ آن». إن تعيين حدود «بلاد لويوين» يكاد يكون مستحيلاً، ولكن ليس من الصعب تحديد موقع بيتيان، التي بنيت في مطلع ق ـ ٣ ق. م. وكما هو معروف، جاء ذكر كانكا القديمة كعاصمة دولة عظيمة، في المصادر الشرقية، أما الدراسات المتمعنة للآثار المتبقية، التي قام بها في سبعينات ق ـ ٢٠، عالم الآثار الاوزبكي المشهور ي. ف. بورياكوف. فإن كانكا، بناءً على ما قدّمه، كانت تقع على المجرى السفلي لنهر آخانغاران، احد روافد سرداريا. ومن هنا بالامكان أن نحدد، على نحو تقريبي، موقع«بلاد لويوين»، موطن القبائل الساكية، وتحديد مقر افراسياب، الملك التركي الاسطوري، وقلب بلاد توران. وبحسب رأي الباحث، فان «بلاد لويوين» هي منطقة واحة طشقند الحالية.

وكانت من ضمن الاراضي والمناطق الخاضعة لملكة كانكا (كانخا، كانغيوي)، ـ علاوة على لويوين ـ أي واحة طشقند ، الاراضي الممتدة في وادي زرافشان وهي:

مناطق «كان» ـ سمرقند، ميمومايمورغ ـ أي الأراضي الواقعة جنوب «كان»، سوسي ـ الأراضي الواقعة في وادي كاشكاداريا، فومو ـ منطقة كاثاكورغان ـ حالياً، انسي ـ منطقة الحوض السفلي لزرافشان، أي محافظة بخارى، أوناغا ـ

تشارجو الحالية ويويغان ـ خوارزم.

وعن التاريخ السياسي إبّان فترة وجود دولة كانكا، يمكننا أن نقول إنه في أوج مرحلة ازدهارها (ق ـ ٢ ق. م ـ ق ـ ١ ق. م)، كما يلاحظ من خلال تقارير الدبلوماسي الآنف ذكره، تشجان تسيان، الذي زار تركستان الشرقية ودوان وكانغيوي في عام ١٣٨ ـ ١٢٦ و ١١٥ ق. م، حاولت الصين استمالة كانغيوي إلى طرفها في نضالها ضد الهون، وأرسلت تشجان تسيان لهذا الغرض. إلاّ أنّ المحاولة الاولى باءت بالفشل، إذ رفض ملك كانغيوي اقتراح الامبراطور الصيني، ڤو ـ دي «فقد كان كانغيوي أنوفاً ذا كبرياء وتحدٍ ويرفض رفضاً قاطعاً أن يحني هامته أمام مبعوثينا، إنه يُجلس المسؤولين الذين يرسلهم الوالي في أماكن دون تلك التي يجلس فيها سفراء «الاوسون»، هذا ما ذكره تشجان تسيان متذمراً في تقريره الذي رفعه الى الامبراطور. ورغم ذلك فإنه، في أثناء زيارته الثانية (في عام ١١٥ ق. م)، استطاع تشجان تسان إقناع ملك كانغيوي بالتحالف مع الصين ضد الهون. صحيح أنه آنذاك زار مقر ملك الاوسون، بيد أن المصادر لا تذكر ما إذا كان قد زار الكانغيويين أم لا. لذا لا أحد يدري بما انتهت إليه مهمة الدبلوماسي الصيني في هذه المرة.

أما عن تاريخ البلاد والتطورات اللاحقة التي جرت في الفترة ما بين ق ـ ٢ ق. م والنصف الاول من ق ـ ١ ق. م، فلا توجد لدينا اي معلومات عن ذلك أيضاً. ولكن في نهاية ق ـ ١ ق. م، ازدهرت كانغيوي مجدداً وتطورت، وذلك بفضل الأزمة التي بدأت في بقتيريا والتي أدت إلى انقسام يوتشجي الى خمس امارات، وضعف الهون في حربهم مع الصين.

كذلك لا نعرف الكثير عن العلاقات الدولية لدولة الكانغيوي. ونعرف مثلاً، أنه في عام ٣٦ ق. م حينما اجتاحت الصين وادي تالاس وألحقت الهزيمة بالهون هناك، كان الكانغيويون الى جانب الهون. ويستدل من المعلومات القليلة المتفرقة الواردة في المصادر الصينية أن دولة الكانغيوي قد توصلت الى عقد اتفاقية سلام مع الحكومة الصينية، واستطاعت بذلك صيانة استقلالها. وفي بداية ما بعد الميلاد تمكنت من بسط نفوذها على قرى قبائل اليانتساي (الـ «آلآن») الرحّل الذين عاشوا

الى الغرب من دولة الكانغيوي.

أما عن الحياة الاقتصادية والثقافية لدولة الكانغيوي في الفترة ما بين ق - ٣ ق. م - ق - ٥ م، فباستطاعتنا ان نقول حرفياً ما يلي: نقلاً عن معلومات المصادر الصينية («شي تسزي»، «تسيان خان شو»، «سوي شو»، «سين تان شو» والخ...) ومعطيات الحفريات الاثرية (ب. أ. ليتفينسكي، ي. ف. بورياكوف، م. إ. فيلانوفيتش وغيرهم) إن الجزء الأكبر من سكان كانكا كانوا يزاولون تربية الماشية، ولا سيما الأبقار والخيول والماعز. وفي وديان الانهار وحول البحيرات كانت الزراعة متطورة وتعتمد على الري الاصطناعي. وكان السكان الحضر يزاولون، بصورة رئيسة، زراعة الحبوب (القمح، الشعير والدخن) والعنب والبستنة. أما في المدن (وكانت كثيرة، ففي واحة طشقند وحدها بلغ عددها أكثر من عشر مدن) فقد اشتهرت الحرف الصناعية: الحدادة والنسج والحياكة والخزافة وغيرها. ويتجلى المستوى الرفيع من التطور الذي بلغته مهنة الحدادة في نماذج المصنوعات المنجزة من الحديد والنحاس والفضة، وأدوات العمل والأسلحة، والادوات المنزلية، التي تم العثور عليها في عمليات التنقيب الأثرية في آخانغاران، وكاونتشي، وسيمير يتشي وغيرها من الأماكن. كما بلغت مهنة الحياكة والنسج مستوىً عالياً من التطور قياساً إلى تلك الفترة، فمثلاً كانت تنتج الأقمشة القطنية الجميلة الرقيقة وتصنع منها الثياب، والمصنوعات الجلدية والصوفية والقبعات الخ... كما تطورت مهنة الخزافة، وصناعة الجرار بمختلف الأحجام، والفناجين، والقدور، وأواني الزهور، التي اكتشفت في كاونتشي - تيبا، واشتهرت المنتجات المصنوعة من العظام والحديد (المناجل والسكاكين والمعاول... الخ).

ومن البديهي أيضاً، ان التجارة بدورها كانت متطورة على الصعيدين الداخلي والخارجي، إضافة الى تطور انتاج الصناعات اليدوية ، لكن طريق الحرير العظيم، الذي كان يمر من خلال اراضي الكانكيين لعب دوراً هاماً، فبفضله استطاع سكان آسيا الوسطى اقامة علاقات تجارية وثقافية نشطة مع الهند والصين وايران وآسيا الصغرى، ومن خلالها مع اليونان وروما واوروبا.

وفي ق ٢ ـ ١ ق. م حاولت دولة كانكا صكّ عملة خاصة بها، إذ لم تكن لديها عملتها الخاصة قبل ذلك، فاتخذت العملة اليونانية البقتيرية نموذجاً. وساعد اصدار الوحدة النقدية على تحقيق مزيد من التطور، وعلى تنشيط تداول السلع والنقود.

أما المعلومات المتوافرة لدينا عن معتقدات الكانغيويين وثقافتهم، فهي معلومات عامة ومستقاة من المصادر الصينية ومواد الحفريات الاثرية. وبناءً على هذه المعطيات، كان قسم من السكان يعتنق الزرادشتية، وذلك ما تؤكده بقايا معابد النار، وتماثيل الإلهتين ميترا وأناخيتا، التي عثر عليها . س. ب. تولستوف في جانباس ـ قلعة، ولكن كان هناك من يعبدون الشمس (مثلاً: المساغيت والكاوسي وسكان سرداريا السفلى). والحيوانات كالخروف (سكان كاونتشي وطشقند القديمة). ان المواد التي جمعت في أثناء التنقيب، في كاونتشي تيبا (غ. ف. غريغوريف)، وفي انغرين (ت.ر. اعظمخو جايف) وفي واحة طشقند (ي. ف. بورياكوف)، تقدم بعض الاحكام والافكار عن مراسم الدفن لدى قسم من سكان الكانغيوي الذين كانوا يدفنون الميت في الارض.

كانت لدى الكانغيوي ثقافة رفيعة: كان مستوى بناء المدن يجري على النحو المطلوب، وذلك ما تثبته عمليات التنقيب في موقع كانكا القديمة، تشاشتيبا، كوي كيريلغان ـ قلعة، جانباس ـ قلعة وغيرها. ويستدل من مواد هذه الحفريات أن المدن كانت محاطة بأسوار عالية منيعة، خلفها خنادق عميقة عريضة، مملوءة بالماء كمواقع دفاعية. وداخل المدينة اقيمت قلعة داخلية ـ آرك. وكانت شهريستان ـ ضاحية للحرفيين. وعلاوة على ذلك، كان عدد مثل هذه الضواحي في كانكا ثلاثاً وكلها محاطة بأسوار متينة حصينة. وكانت للمدينة الداخلية والخارجية ابواب.

وكان المسرح والموسيقى فنّين متطورين. وجاءت في المصادر الصينية، وخصوصاً المباحث الموسيقية التي كتبت في القرنين ٢ ـ ٣م، معلومات طريفة عن الرقصات والراقصات في آسيا الوسطى، والآلات الموسيقية: الناي، السورناي (زونا)، تشيليدرما (الدّف)، الدوتار (آلة موسيقية ذات وترين)، غوسلا (آلة ذات

خمسة اوتار)، وعن الحان (مقامات) البخاريين، السمرقنديين والكانغيوي.

مملكة كوشان

دولة كبيرة، ضمت في مرحلة ازدهارها (ق - ١ وبداية - ٣ م) معظم اراضي آسيا الوسطى، افغانستان، وشمال الهند والجزء الغربي من باكستان الحالية. وقد ظهرت في حدود القرن الميلادي، بعد مرور اكثر من قرن على تفكك الدولة اليونانية البقتيرية وانهيارها.

وأسهم إسهاماً فعّالاً في تأسيسها شعب اليوتشجي الذي طرد في عام ١٧٤ - ١٦٥ ق. م على ايدي الهون من شمال شرقي الصين وجونغورن. وعقب ذلك، استقر اليوتشجي على الجهات الغربية من سلسلة جبال تيان شان، سيميريتشي وتركستان الشرقية، بعدما طردوا الساكيين من هناك. إلاّ أنهم، في عام ١٥٠ ق. م، وتحت ضربات الاوسون، سرعان ما اضطروا الى ترك موطنهم الجديد. فانتقل قسم كبير منهم، يُعرفون في المصادر الصينية بـ «دا - يوتشجي» (يوتشجي الكبرى)، عبر فرغانة، الى داخيا (طخارستان)، واستقروا على اراضي اواسط مجرى اموداريا، وعلى ضفته اليمنى، في حين بقي قسم صغير منهم في تيان شان وسيميريتشي. ونقلاً عن علماء الآثار، كان مركز اليوتشجي مدينة نخشاب (نوشيبولو - في المصادر الصينية) أو كاسان (غويشوان - بحسب المصادر الصينية). وبعد مرور بعض الوقت، قام اليوتشجي، مستغلين الاضطرابات الداخلية في الدولة اليونانية البقتيرية، بالاستيلاء على الضفة الشمالية لنهر اموداريا أيضاً. إلاّ أنهم لم يستطيعوا إقامة أي شكل من أشكال الاتحاد فيما بينهم، وعاشوا منفصلين أكثر من قرن من الزمان. وكانوا آنذاك يتألفون من خمس أسر مالكة: خيومي، وشاونمي، وغويشوان، وخيسى ودومي. وكان أعظم أمراء هذه الأسر الامير كيوتسزيوكيو (كودجولا كادفيز)، الذي أسس في بداية القرن الميلادي مملكة كوشان.

أهم الاحداث السياسية

بلغت الأمبراطورية الكوشانية ذروة تطورها وازدهارها في عهد كودجولا كادڤيزا والذين خلفوه مباشرة: كادفيزا «٢» «ڤيما» وكانيشكي.

إبان حكم كودجولا «٢» وكادفيزا (عام١٥ - ٥١م)، تأسست نواة المملكة الكوشانية، إذ تمّ إخضاع أفغانستان المركزية وكشمير. واصل كادفيزا «٢» ڤيما (بيويانغا يوتشجين - المصادر الصينية عام ٥١ -٧٣ م) سياسة الغزو التي اتبعها والده، وفي عهده تم غزو الهند وصولاً إلى مدينة بيناريس. «ومنذ ذلك الوقت، نقرأ في المصادر التاريخية الصينية «ديان خان - شو»: أصبحت أسرة يوتشجين من اقوى الأسر الحاكمة واكثرها ثراء. واخذت الدول المجاورة تطلق عليه لقب «ملك غويشوان»، إلاّ أنّ القصر الصيني استمر في اطلاق اللقب القديم (يوتشجين الكبرى) على هذه البلاد». وباسم كادفيزا «٢» ڤيما ارتبط اصلاح نظام العملة (إذ في عهده بالذات بوشر بصكّ النقود الذهبية والنحاسية من فئات الدينار، والدينارين، وربع الدينار ونصفه). كانت عاصمة الامبراطورية الكوشانية في عهد كادفيزا «٢» ڤيما، تقع في بوروشانتسور، بضواحي بيشاوار حالياً. ولوحظت نهضة سياسية كبيرة في حياة الامبراطورية الكوشانية إبان حكم كانيشكا (عام ٧٣ - ١٢٣ م)، ڤاسيشكا (دام حكمه ٤ سنوات) وخوڤيشكا (حكم اكثر من ٣٢ سنة). واصل كانيشكا سياسة اسلافه التوسعية، فضمّ ما تبقى من شمال الهند حتّى مجادخي وشرق تركستان. وفي عهده اصبحت كوشان دولة عظيمة، في مصاف روما وبارثيا (خرسان حالياً) والصين. وجدير بالذكر، أنه إبان عهد هذا الامبراطور، أصبحت البوذية الديانة الرسمية للامبراطورية الكوشانية، واللغة اليونانية البقتيرية اللغة الرسمية.

وفي عهد ڤاسوديف (دام حكمه ٣٤ عاماً) بدأت الامبراطورية الكوشانية بالانهيار. وكانت قد انقسمت آنذاك الى قسمين. وفي ق - ٤ م، تفتتت على اثر ادخال نظام اللامركزية وانعدام العلاقات الاقتصادية القوية بين الاقاليم، ولا سيما مع آسيا الوسطى، داخلياً، ولأسباب خارجية (اجتياح الكيداريين وخيونيين والهون

البيض لآسيا الوسطى من الجهة الشمالية الشرقية، وتحت ضربات الساسانيين من الغرب).

الحياة الاجتماعية الاقتصادية

ثمة مواد قيمة عن الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية في الامبراطورية الكوشانية تقدمها لنا الآثار المكتشفة ابان عمليات التنقيب التي جرت في ترمذ، وزارتيبا، وخالتشايان، وايرتوم ودالڤيرزين - تيبا - في اوزبكستان، وكايكوباد - شاه، كوخنا - قلعة، سكسان - آخو وياڤان - في طاجيكستان، وآيخانوم، وسورخ كوتال، بغراميه وباغلان - في افغانستان. ويستدل بهذه المكتشفات على ان سكان المملكة الكوشانية كانوا يزاولون الزراعة (ذلك ما تشير اليه آثار شبكات الري المكتشفة جنوب اوزبكستان، وفي واحات كوباديان ووحش وحصار الطاجيكية، والقرى الريفية المحصنة على شكل مستوطنات منتشرة في كل مكان)، والحرف اليدوية والتجارة، وذلك ما تدل عليه أطلال المدن الكبيرة شمال طخارستان (دالڤيرزين، وشهرناو، وكايكوباد - شاه، ياڤان والخ... ووجود حي الحرفيين). كما ان الادلة المادية والكتابات الاثرية (بطليموس مثلاً) تشير إلى ان سكان المملكة الكوشانية كانت لهم علاقات تجارية نشيطة بالصين، ومملكة البارثيين، وحتى روما وغيرها، عبر طريق الحرير العظيم الذي كان يمتد من عاصمة الصين القديمة ويمر بقرى باركانا، كانغيوي، شان وبارثيا، الى سوريا الخاضعة لحكم الامبراطورية الرومانية (كانت قائمة منذ ق - ٢ ق. م)، وكذلك بحراً، عبر مصر الخاضعة للحكم الروماني الى موانئ الهند الغربية.

كان أقدم خط تجاري يربط أوروبا ببلدان آسيا الوسطى يمر عبر الفرات - ميسوبوتاميا - ايكباتان (همذان) - غيكوتوبيلا (بارثيا) - انطاكيا مرو- بقتير (طخارستان) - جبال كاميد (كاراتيغين) - الابراج الحجرية (طاشكورغان في تركستان الشرقية) - كومول، حتى الصين. كان الحرير من السلع التي تنقل، بالدرجة الاولى، من الصين، الى أوروبا والبلدان الأخرى، ومن الهند التوابل

والأفاويه. وكانت سلع آسيا الوسطى التقليدية ـ سلع سمرقند، بخارى، تشاتشا وفرغانة ـ تلقى رواجاً واقبالاً شديدين.

الثقافة

كما هو معلوم، كان ضمن الامبراطورية الكوشانية سكان ذوو لغات وعادات وتقاليد وافكار مختلفة. وكان الأمر كذلك فيما يتعلق بالاديان والمعتقدات، ويتجلى ذلك، مثلاً، من خلال نقود ملوك كوشان. وعلى سبيل المثال، نلاحظ على القطع النقدية المضروبة في عهد كابنيشكا وخوفيشكا صور الآلهة الكوشانية البقتيرية ميخر ـ ميترا) (إلهه الشمس)، ماخ (إلهه او الـ القمر) آيتش (إلهة النار) فارّ (إله البركة او الوفرة والحظ) وإلخ. كما تصادفنا آلهات أو أرباب هنود: شيڤا، سكاندا كومار، مخامسين. وكانت تصك النقود وعليها صور بوذا. أما الاقاليم الغربية من الامبراطورية، فكانت آلمتها يونانية الاصل «هيلانية»: سيرابيس، هركولي، هيليوس، هيفيست وغيرها..

ومن ضمن الآثار الثقافية، تجدر الاشارة الى المكانة المرموقة التي تحتلها المعابد والمقدسات الدينية البوذية، التي اكتشفت على ضفتي اموداريا: في سورخ ـ كوتال، ترمذ وغيرهما من الأماكن.

ويحظى باهتمام كبير الجتر الذي عليه صور موسيقيين وحاملي صفائر زهور. وقد عثر على هذه الصور في ترمذ وايرتوم وكاراتيبا، مثل صور بوذا على هيئة انسان، والنقوش البارزة والتماثيل المكتشفة في قندهار ومطهور وبقتيريا. ومع ذلك فإن النقوش البارزة والتماثيل تعتبر تضلُّعاً فنياً واستيعاباً من قبل الحرفيين المحليين لمنجزات فن النحت اليوناني البقتيري.

إن الكتابات على المصنوعات الخزفية، المكتوبة بالحروف اليونانية البقتيرية، والكاروشتية والبراهمية الهندية، والنقوش المكتوبة بالحروف الكوشانية البقتيرية ـ التي عثر عليها في كاراتيبا، والأرشيف المكتوب على الجلد من توبراك، كل هذه الكتابات لهي دليل على انتشار الثقافة على نطاق واسع في تلك الأزمان السحيقة في آسيا الوسطى.

كذلك، فإن تماثيل الآلهة المصنوعة من الطين النضيج المشوي، والآلات الموسيقية، والتماثيل الذهبية وغيرها من الآثار التي عثر عليها علماء الآثار في منطقة مملكة كوشان، لهي دليل أيضاً على المستوى الفني الرفيع لشعوب آسيا الوسطى في تلك الحقبة الزمنية.

دولة الإيفتاليت

إن المعلومات عن الايفتاليتيين في المصادر الكتابية تصادفنا اعتباراً من عام ٤٥٧م، حينما قام ملكهم «وحش النار» باخضاع تشانياغان وطخارستان وبداخشان.

أما عن اصلهم، فثمة آراء مختلفة. وأهمها ما جاء في المصادر التاريخية الصينية («تان ـ شو» مثلاً) «مملكة يي ـ دا(مملكة الايفتاليت) نشأت عن اليوتشجي الكبرى». ونقلاً عن لازاريا بارفسكي (مؤرخ ارمني ق. ق ٦ ـ٧م) فإنهم اقتبسوا اسمهم من اسم الملك ايفتالان. وورد الكلام نفسه في المصدر الآنف الذي اشرنا اليه تواً (كتاب «تان ـ شو»): «يي ـ دا ورد اسم ملكهم، ولما جاء خلفه (خلف الملك) اطلقوا هذا الاسم على الدولة».

ويرى المستشرقان الروسيان: ب. أ. بيرخ ون. إ. فيسيلوفسكي، أن الايفتاليتيين واليوتشجيين هم شعب واحد. بيد ان س. ب. تولوستوف له رأي يختلف كلياً، ويعتبرهم، استناداً إلى معطيات البعثة الكشفية الاثرية الخوارزمية، أنهم احفاد الساكيين ـ المساغيت الذين قطنوا منطقة الأرال، والذين امتزجوا بالهون واختلطوا بهم، وتسربوا اليهم وتغلغلوا في منطقتهم (في ق ـ ١ ق.م ـ ٤ م) قادمين من سيميريتشي، وأخذ الايفتاليتيون عنهم (أي عن الهون) لغتهم التركية.

كما يعرف الايفتاليتيون (انظر آسيان مارتسيلين، بروكوبي كيسارسكي) باسم الهون البيض، وذلك لكونهم حضراً ذوي بشرة بيضاء، ومتمدنين بالمقارنة مع أبناء الهون الآخرين الرحّل.

الحقائق الأساسية في حياتهم

في ق ـ ٥م تمكن الايفتاليت من إقامة دولة قوية لهم في آسيا الوسطى، افغانستان، شمال شرقي الهند وفي جزء من تركستان الشرقية. في بداية القرن الخامس حاربوا الساسانيين، منازعين إياهم على ايران الشرقية. كان بيروز (٤٥٩ ـ ٤٨٤م)، متخوّفاً من تعاظم قوى الايفتاليتيين على الحدود الشرقية والشمالية للامبراطورية، وحاربهم بقواته الرئيسية، إلا أنه مني بهزيمة منكرة. ونقلاً عن المصادر، استطاع الايفتاليتيون، بمكرهم، استدراج الفرس بعيداً، الى طريق طويلة مسدودة بجبل، ونصبوا لهم الكمائن من الخلف والجانبين، محاصرين بيروز والجيش الفارسي. وهكذا، وجد هذا نفسه وجيشه في مأزق لا مفر لهم منه، ولا مجال لهم للانسحاب او التقهقر، فاضطر الى الرضوخ لشروط ملك الايفتاليت، وحررت اتفاقية خطية بين الساساني وايفتاليت تعهد الاول بموجبها بالشروط التالية:

١ ـ عدم الاعتداء على حدود خايتال (الايفتاليتيين).

٢ ـ دفع إتاوة كبيرة (غرامة حربية).

٣ ـ تنازل إيران عن إقليم طالقان للايفتاليت.

٤ ـ موافقة بيروز على تزويج إحدى أخواته لملك الايفتاليت.

وهنا تجدر الاشارة، إلى أن حجم الاتاوة التي طلبها ملك الايفتاليت كان كبيراً جداً (٣٠ كيساً نقداً) لدرجة أن بيروز لم يستطع دفعها مرة واحدة، فقد تمكن فقط من دفع ٢٠ كيساً، ومقابل الأكياس العشرة الباقية رهن ابنه كوادا.

في عام ٤٨٤م، وبعد تحرير كوادا من الأسر، بفضل تدخُّل الامبراطور البيزنطي زينون (عام ٤٧٥ ـ ٤٩١م)، الذي كان يرغب في تجنب وقوع عدوان ايفتاليتي من ناحية شواطئ بحر قزوين، خرق بيروز الاتفاقية وعاد لتجديد نشاطاته العسكرية ضد الايفتاليت... بعد ذلك التقى الايفتاليت بالفرس، قرب مدينة غورغو، وهنا سقط الفرس في كمين كان الايفتاليت قد نصبوه بمهارة فائقة لعدوهم، واصيبوا بهزيمة منكرة، إذ قتل عدد كبير من الفرس، من بينهم بيروز

نفسه، الذي سقط حريمه وعتاد جيشه ومؤونته في أيدي الايفتاليت. وبعد ذلك اضطرت ايران لدفع الإتاوة سنوياً. وقد دفعها الفرس إبان حكم ڤاليش (٤٨٤ - ٤٨٨ م) وكافاد «١» (٤٨٨ - ٥٣١ م) وبداية حكم كسرى انوشروان.

بعد ذلك، استولى الايفتاليت على وادي كابول، البنجاب، كاراشار، كوتشو، كاشغار وخوتان في تركستان الشرقية. وفي السنوات التي تلت ذلك، عاشت ايران ودولة الايفتاليت بسلام ووئام، وزد على ذلك تحالف الايفتاليت مع الساسانيين ضد البيزنطيين. فمثلاً، ضم كافاد «١» الى قواته القبائل التيمورية والفرسان الأرمن والايفتاليت وحارب البيزنطيين. وآنذاك قام الحلفاء بمحاصرة مدينة اميد الواقعة في شمال ميسوبوتاميا لمدة طويلة، ثم احتلوا المدينة وعملوا فيها نهباً وسلباً لمدة ثلاثة أيام. وآنذاك تعرضت للاعتداء والهجوم مدينة ايديسيا وغيرها من مدن ميسوبوتيا العليا. في عام ٥٠٦ م، ونظراً الى تزايد نشاطات قبائل الهون على الحدود الشمالية لكلتا الدولتين، عقدت اتفاقية سلام بين ايران والبيزنطية، وبموجبها قدمت الأخيرة عدة تنازلات للحلفاء، الذين حصلوا على غنيمة كبيرة نقلت بالسفن عبر نهر دجلة الى قطيسيفون العاصمة الايرانية. كما حصل الايفتاليت ايضاً على حصتهم من الذهب البيزنطي.

وكما اشرنا آنفاً، كان كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩م) في بداية حكمه، يدفع الفضة إتاوة للايفتاليت. بيد انه، فيما بعد، استغل كسرى انوشروان الاعتداءات المنتظمة التي يشنها الاتراك الغربيون، الذين التفوا عام ٥٥٢م حول الخاقان استيم، على ممتلكات الاتراك، وألحق عدة هزائم بالايفتاليت، وفي عام ٥٥٤م، انتزع منهم طخارستان، وفي الفترة ما بين عام ٥٦٣ - ٥٦٧م، ألحق بهم هزيمة ساحقة وجعل بلادهم اقطاعية تابعة له. ولكن سرعان ما حصل الايفتاليت على دعم من الخاقانية التركية وتحرروا من نير التبعية الايرانية الساسانية. ولكن في نهاية ق. ٧م، ونتيجة لانجرارهم وانجرافهم في فلك الخاقانية التركية الغربية، فانهم لم يستطيعوا استعادة سيادتهم السابقة.

باختصار، لقد سقطت دولة الايفتاليت تحت ضربات الحكام الساسانيين والاتراك والهنود.

الحياة الاجتماعية الاقتصادية: نظام الحكم

بغض النظر عن بقاء مخلفات النظام التقليدي القديم، تجري في حياة السكان الفلاحين الريفيين والمدنيين، فإن إدخال نظام اللامركزية في الحكم كان يشير الى ظهور بوادر ومقدمات لانبعاث العلاقات الاقطاعية. وقد اثبتت دراسات علماء الآثار في خوارزم، منطقة بخارى، وسمرقند، وطشقند وسرخانداريا، انحطاط المدن القديمة، وتعاظم آخر قصور الاقطاعيين وأفنيتها. ولقد أدى ضعف الحكومة المركزية، الى تعزيز مستوى دور الاقطاعيين ورفعه، وازدياد المواجهات العسكرية، بين ملك الايفتاليت وبين ايران والخاقانية التركية الغربية، التي غالباً ما تلازمها أعمال عسكرية تركت أسوأ الاثر على النشاط الاقتصادي والتجارة مع بلدان آسيا الشرقية والغربية. وحمل ذلك كله الاقطاعيين على ترك الخدمة في الجهاز الحكومي، والانصراف عن الشؤون التجارية، والعمل بحماس على بناء المستوطنات المحصنة المزودة بالقلاع والأفنية والساحات. وعلاوة على ذلك، شكل الإقطاعيون فصائل عسكرية جيدة التسليح. وأثبتت الدراسات أن هذه المستوطنات (مثلاً، القصر ـ القلعة في بالاليك ـ تيبا في محافظة سرخانداريا) كانت تُجاري المدن بحجمها، فهي عبارة عن قلاع عظيمة مزودة بالقاعات، وجدرانها مزينة بالزخارف.

وتفيد مواد الحفريات الاثرية والمصادر الكتابية (كتب التاريخ الصينية، ومؤلفات بروكوبي والطبري) أنّ القسم الاعظم من السكان كان يزاول الفلاحة (يزرعون الحبوب والقطن والمحاصيل الزراعية الأخرى)، في حين بقي قسم منهم يعيش حياة البدو الرحل. وفي المدن والمستوطنات (وبغض النظر عن النشاط المتزايد في بناء القلاع ـ المستوطنات، كانت تجري أعمال إعادة بناء المدن الكبيرة كمدينة فاراخشا مثلاً)، تطورت الحرف اليدوية والتجارة. وأسهم الايفتاليتيون، بفضل موقع مدنهم ومستوطناتهم (على طرق الحرير المشهورة)، في التجارة الدولية إسهاماً فعّالاً، إضافة إلى التجارة مع الهند والصين وايران والبيزنطية. وكانت المواد الاساسية في التجارة بين الشرق والغرب، الحرير والزجاج الملون

والمصنوعات المنتجة من هذا الزجاج، والتوابل، والاصباغ، والاحجار الكريمة. كان الزجاج الملون يصنع في الاراضي التابعة لسيطرة الدولة الكوشانية، ويصدر الى الصين. كذلك تدل كميات القطع النقدية الكبيرة المكتشفة ابان الحفريات في مناطق آسيا الوسطى، على تلك المساهمة النشطة الفعالة التي كانت تقوم بها دولة الايفتاليت في ميدان التجارة الدولية.

كان الاقطاعيون الارسطقراطيون بالوراثة يديرون شؤونهم الاقتصادية باستغلالهم سواد الشعب والعبيد بصورة قاسية لا تطاق. وإضافة الى ذلك كله، كانت حكومة الشاه تدعم هؤلاء الارسطقراطيين بسبل شتى، ولولا هذا الدعم لما استطاعوا استدراج الناس للعمل لديهم، إذ كانوا يُستدرجون، على نطاق واسع، خصوصاً في مشاريع البناء وشق اقنية الري. وهكذا، وبصورة تدريجية، انتقلت الاراضي الخصبة الى أيدي الاقطاعيين وغدا الشعب خاضعاً لهم كلياً. وأدى ذلك الى ارغام الشعب على حمل السلاح والنهوض ضد مستعبديه وتدمير ممتلكاتهم دون شفقة او أسف. وما ثورة كادحي ايران بقيادة مزدك، التي جرت عند مفترق القرنين ٥ ـ ٦م، وثورة الطبقات الفقيرة في بخارى في الثمانينات ق ـ ٦م بقيادة ابرويا، الا من الادلة التي تثبت ذلك. ونقلاً عن المؤرخ النرشخي، عامل ابرويا الاقطاعيين بقساوة وعنف، ما حمل الكثير من الاقطاعيين والتجار الاثرياء على الفرار الى سيميريتشي، والاستعانة بخاقان كارا ـ تشورين، الذي ساعدهم وسيَّر جيشه إلى بخارى عام ٥٨٥م، حيث أخمدت الثورة واعدم زعيمها.

باختصار، كانت الحكومة المركزية، آنذاك، قد فقدت، كلياً، نفوذها في الحياة الاجتماعية السياسية. وكانت السلطة الحقيقية قد أصبحت في أيدي الاقطاعيين الارسطقراطيين المتمركزين في القلاع ـ المستوطنات المحصنة. اما الحكام المحليون، الذين يدعمهم الاقطاعيون، فقد كانوا في المدن الكبيرة ويحملون القاب شاه (في خوارزم، ميدان قلعة، ترمذ)، وخودات (في بخارى، فاردائزي)، اخشيد (في سمرقند، وكيش وفرغانة)، افشين (اوسورشانا)، تودان (تشاتشا)ودهقان (ايلاك). وكانوا، اسمياً، خاضعين لسلطة الخاقانية التركية الغربية.

الثقافة

إن المعلومات المتوافرة لدينا عن الثقافة الايفتاليتية قليلة جداً، ولكن من الواضح أنها احتفظت ببعض سمات الثقافة الكوشانية وخصائصها، باعتبارها خليفة ووريثة.

كانت للشعوب الداخلة ضمن المملكة الايفتاليتية كتاباتها كما في السابق، في عهد الكوشانيين. فبالإضافة الى الكتابة السغدية (كانت على الطريقة البخارية) كانت، هناك، الكتابة الخوارزمية والكوشانية الايفتاليتية ذات الحروف المائلة. أما المناطق المجاورة لايران فكانت تُستخدم فيها الكتابة البهلوية.

كذلك كان الفن الملحمي فناً متطوراً، يصف نضال الايفتاليت ضد ايران الساسانية المعتدية على أراضي آسيا الوسطى. وهذا، مثلاً، يمت الى فترة نضال الملك الايفتاليتي، وحش النار، ضد بيروز، ويتجلى ذلك في رواية زوبير، في شخصية الملك غطفر، الذي هرب الى ايران بائعاً وطنه للاتراك.

كذلك كان فن تصوير الأيقونات فناً متطوراً، إذ كانت تصنع الأيقونات والتماثيل التي تصوّر الآلهة، والتماثيل الصغيرة من الطين النضيج (تراكوتا)، وترسم الصور الجدارية، التي تمثل نساءً ورجالاً جالسين، وتماثيل صغيرة لخدم يرتدون ملابس فاخرة (بالاليك ـ تيبا).

وتتجلّى ثقافة الايفتاليت الرفيعة في آثار القلاع المكتشفة (في بالاليك ـ تيبا مثلاً) وديار الإقطاعيين الدهقان (في آولتيبا، كافر قلعة)، والبنايات في افراسياب، تالي ـ بارزو وغيرها.

كذلك، فإن انتاج الزجاج الملون، الذي سبق لنا وتحدثنا عنه، لهو دليل ساطع على الازدهار الفني للبلاد.

الفصل الثالث

الخاقانية التركية

بادئ ذي بدء، ينبغي لنا القول إننا اعتمدنا، في جمع المعلومات عن الاتراك القدماء والخاقانية التركية، على مواد التنقيبات الاثرية والمصادر المختلفة المدونة بلغات شتى مثل: الصينية، والتركية القديمة، وما كتبه مؤرخو اليونان والرومان القدماء. ووفقاً للمعلومات المستقاة من هذه المصادر، فإن الأتراك يعتبرون من أقدم شعوب آسيا العريقة. لقد قطنوا مساحة شاسعة مترامية الاطراف تمتد من هانغاي الى التاي، وفي أراضي آسيا الوسطى الفسيحة الرحبة، حتى كوبان غرباً. وذاع صيتهم في الفترة ما بين عامي ٢٠٠٠ ـ ١٠٠٠ ق. م، وكانت لهم دولة عظيمة بالمقارنة مع الدول التي كانت قائمة آنذاك. وكانت اكبر دولة لهم وأعظمها قد اقيمت في عام ٢٢٠ ق. م في عهد ماتا ـ جباغو الحاكم الاعلى الثاني لهذه الدولة (٢٠٩ ـ ١٧٤ ق. م). وخضعت لسلطة هذه الدولة الاراضي الواقعة ما بين بحري اليابان والخزر (قزوين). لقد سجلت دولة الهون (وهي ايضاً دولة تركية طبعاً) صفحات ناصعة في التاريخ. وكما هو معلوم، كان الهون قد طردوا من شمال الصين في مطلع القرن الثالث للميلاد على أيدي التابغاشيين (تحدّروا من قبائل الدون ـ خو الرّحل، حيث لعبت قبيلة التوبا الدور الأساسي بين هذه القبائل)، ودامت دولتهم لمدة تزيد على ١٠٠ سنة، أي حتى نهاية القرن الرابع للميلاد.

وكان الاتراك قد بلغوا درجة كبيرة من التطور في عهد امبراطوريتهم المعروفة بامبراطورية «الاتراك الزرق»، التي يعتبر مؤسسها زعيم القبيلة الملقب بـ «اولوغ

جابغو ـ أي الأمير العظيم» (اسمه الحقيقي مجهول). كان له ابنان عظيمان: «بومين» و«إستيمي»، تغنت بهما الآثار الادبية التركية القديمة. كان الاول حاكماً للجزء الشرقي للخاقانية، وحكم الثاني الجزء الغربي منها. لقد قام اولوغ جابغو وابناه بمحاولات ناجحة جداً لاخضاع القبائل التركية المجاورة. ففي عام ٥٤٥م مثلاً، احرزوا نجاحاً باهراً في بسط سلطتهم على القبائل الاويغورية، التي كانت من اكبر القبائل أو الشعوب التركية وأقواها، وبعد مضي ١٠ أعوام ـ أي في عام ٥٥٥م ـ كانت قبائل آسيا الوسطى كافة، ومن ضمنها كيدانيو غربي منشوريا، وقيرغير الينيسي المشهورة بكثرة عديدها وعدتها وقوتها القتالية، قد اعترفت بسلطة الاتراك عليها.

وبعد ذلك، نقل مقر القيادة إلى أعالي نهر اورخون . ولكن سرعان ما اصطدم الاتراك بالصينيين. وهنا تجدر الاشارة إلى أن اباطرة «فيّ» بذلوا قصارى جهودهم لاخضاع الجزء الشرقي من الخاقانية لسلطتهم، فراحوا يجرون المناوشات المسلحة من حين الى آخر، ويرسلون نبلاءهم الى القبائل التركية، والهدايا الثمينة الى جحافل الخاقانية، ويكرمون ذوي المناصب الرفيعة، العسكريين منهم والمدنيين، ويصاهرونهم.

وفي عهد قارا ايسيك ـ خاقان، ابن «بومين» وخليفته (توفي عام ٥٥٢م)، اصطدم الاتراك بخصم شديد آخر، ألا وهو حاكم خانية جرجان (حوالى ٣٥٠ ـ ٥٥٣م)، الذي كانت بلاده تشمل الأراضي الممتدة بين جبال هانغاي والتاي، أي مساحة منغوليا حالياً وشمال الصين. وهكذا، في نهاية عام ٥٥٢م قام الجرجانيون، بزعامة دينشوكازين، باجتياح اراضي الخاقانية التركية. إلا أنهم في هذه المرة اخفقوا في اخضاعها لسيادتهم، إذ استطاع قارا ايسيك ـ خاقان مقاومة العدو المعتدي والصمود أمامه، كما تمكن من إلحاق هزيمة فادحةٍ به. ومرة ثانية، حاول الجرجانيون اخضاع الاتراك لسلطتهم في عهد موغان ـ خاقان، شقيق قارا ايسيك ـ خاقان وخليفته، في عام ٥٥٣م، الا ان هذه المحاولة باءت بفشل ذريع وكانت وخيمة العواقب، فقد قام موغان ـ خاقان بتوجيه ضربة ساحقة ماحقة

للجرجانيين، الذين كانوا يهدفون الى الاعتداء على سيادة الاتراك، وفرض سيادة الخاقانية التركية عليهم.

دام حكم موغان ـ خاقان مدة ٢٠ سنة (٥٥٣ ـ ٥٧٢م). وفي عهده صارت الخاقانية التركية دولة قوية عسكرياً وسياسياً. وخلال هذه السنوات، اتسعت مساحة الخاقانية، التي كانت ممتدة من هانغاي الى التاي، وشملت المناطق المجاورة لها ووصلت الى المناطق الغربية لآسيا الوسطى. وخلالها أيضاً اجتاح الاتراك دولة الايفتاليتيين (الهون البيض) وبسطوا نفوذهم وسلطتهم حتى حدود اموداريا وبحر الآرال. وكذلك في عهد استيمي ـ خاقان وطدوا اقدامهم في سيميريتشي (تقع ضمن حدود كازاخستان حالياً)، وفي تشاتشا (طشقند حالياً) والمناطق المجاورة لها، وفي خوارزم. وفي الربع الثالث من القرن السادس فرض الاتراك سيطرتهم على الامارتين الصينيتين «تشجو» و«تسي» ووصلوا حتى البسفور (كيرتش)، وفي عام ٥٨١م حاصروا قلعة خيرسونوس المحصنة.

في أواسط القرن السادس، ازداد النفوذ الدولي للخاقانية التركية ازدياداً ملموساً. وفي تلك الأثناء، وكما هو معلوم، كانت الخاقانية تقيم علاقات سياسية واقتصادية مع الصين، والهند، وايران وحتى مع البيزنطية النائية. ومنذ ذلك الحين، وبالتحديد (عام ٥٧١م)، بدأ التغلغل التركي باجتياز الاتراك لنهر اموداريا وقدومهم الى خراسان. وسرعان ما تمكن الاتراك من ترسيخ أقدامهم في بادغيس، بلخ، وفي مناطق طخارستان الأخرى.

وهكذا، في أواسط القرن السادس، غدت الخاقانية التركية دولة عظيمة جداً تحاذي حدودها الصين شرقاً، واموداريا وبحر الآرال غرباً.

وفي العام ٥٧٢م توفي موغان ـ خاقان، فخلفه أخوه ارسلان توبا ـ خاقان، الذي واصل سياسة والده، وبذل جهوده كلها لتعزيز الخاقانية وتحصينها والمحافظة على وحدتها. وتجدر الاشارة الى أنه إبان حكمه، استمرت الامارتان الصينيتان الآنف ذكرهما «تشجو» و «تسي» بدفع الاتاوة للخاقانية التركية. صحيح انهما حاولتا عدم دفع الاتاوة، وشق عصا الطاعة والعصيان، على أن المحاولة احبطت

وقضي عليها على أيدي القوات التي ارسلها ارسلان توبا ـ خاقان الى هاتين الامارتين. باختصار، استطاعت الخاقانية المحافظة على وحدتها الى حد معلوم، في عهد هذا الخان، الذي كان نوابه في المناطق البعيدة والقريبة يخدمونه بأمانة واخلاص ويحملون شعوبهم (قافي) على الامتثال للخاقان الأعلى واطاعته.

بَيْدَ أن اسباباً ادت الى الاخلال بأمن الخاقانية التركية واستقرارها ووحدتها، ولم تكن أسباباً داخلية فحسب، كالنزاعات القبلية والخلافات الداخلية، بل خارجية ايضاً، تمثلت في دسائس الاباطرة الصينيين ومكائدهم ولا سيما في الجزء الشرقي من الخاقانية، والتي كانت تزداد حدة وتوتراً من عام إلى آخر. وراح الصينيون يلجأون إلى طرق شتى (الرشاوي والاغراء بالوعود) لشراء نواب الخاقان في المناطق، وإلى استدراج زعماء القبائل. وكانت هذه المحاولات تعطي ثمارها احياناً فيسقط عدد من ذوي النفوس الضعيفة، ومنهم بعض زعماء القبائل، الذين يطمعون في تحقيق مآربهم الشخصية، في حبائل الصينيين وشراكهم، امثال تورامين، ابن موغان ـ خاقان، الذي اصبح ألعوبة في ايدي الرسل والمبعوثين الصينيين. لم يتوقف الصينيون عن سياستهم العدوانية الموجهة ضد الجزء الشرقي من الخاقانية التركية. ففي عهد الخاقان شيبي (٦٠٩ ـ ٦١٩م)، جرت اشتباكات عسكرية مكشوفة بين الدولتين، وخرجت الخاقانية من هذه المعركة بشرف، واستطاعت الدفاع عن سيادتها واستقلالها. وعلاوة على ذلك، ضاعف الاتراك نشاطاتهم، فمثلاً تشير المصادر الى ان الخاقان «خيلو» (٦٢٠ ـ ٦٣٠م) شن ٦٧ حملة عسكرية على الصين خلال فترة حكمه.

وبعد أرسلان توبا ـ خان بدأ النزاع على السلطة العليا في الخاقانية بين تورامين الآنف ذكره، و«إيشبارا»، أصغر أبناء أرسلان توبا ـ خان، وانتهى بفوز «إيشبارا».

كان قارا تشورين قد اختير وصياً على العرش وخاناً أصغر، وكان مقر قيادته في مكان ما في تيان ـ شان الشمالية. وعلى الرغم من ذلك، استمر النزاع بين تورامين وإيشبارا، الذي انتهز الفرصة في عام ٥٨٤م، وهاجم مقر قيادة أخيه

ودمره، في حين قام أنصار تورامين بحرق مقر قيادة ايشبارا عن بكرة أبيه وأحرق داخله ايشبارا نفسه ايضاً.

وبعد إيشبارا توالى على عرش الخاقانية بالترتيب كل من تورفاغا ـ خاقان، تومان ـ خاقان، شيبي ـ خاقان وتشولوك ـ خاقان. على ان فترات حكمهم لم تكن طويلة. ولم تجر في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الخاقانية التركية أحداث هامة تذكر، إلى أن تولى العرش قارا تشورين ـ خاقان (عام ٦٠٠م). ونقول بصراحة إن المصادر لم تذكر معلومات تبعث على العزاء، باستثناء توالي أربعة من الخاقانات أو خمسة خلال ١٦ سنة (٥٨٤ ـ ٦٠٠م)، مما يدل على انعدام الاستقرار السياسي في الخاقانية. والادلة على الاضطرابات وعدم الاستقرار في عهد قارا تشورين ـ خاقان، المشهور في التاريخ باسم «بوغو ـ خاقان» (أي الخاقان البطل) (عام ٦٣٠م)، كانت متوافرة وموجودة، إذ ان فترة حكم هذا الخاقان كانت مليئة بعمليات تمرد وعصيان نبلاء القبائل ووجهائها وحشم القصر وخدمه، وتميزت بالفوضى وتصاعد مكائد اباطرة «تان» ودسائسهم. فمثلاً، جاءت في المصادر معلومات تشير الى مؤامرة دبرت ضد الخاقان، وترأسها جاندار، احد كبار مسؤولي الدولة. صحيح ان المؤامرة فشلت، وتم اكتشافها ونال مدبروها جزاءهم، وبناءً على أمر من قارا تشورين جرى إعدام اقرباء جاندار والمقربين منه كافة، أما جاندار نفسه، مدبر المؤامرة، فقد تمكن من الاختفاء، ويبدو أنه فر الى الصين برعاية أسياده وحمايتهم.

وسرعان ما اقتحمت حدود الخاقانية التركية افواجٌ صينية، واندلعت حرب حقيقية، وهُزم الاتراك في معاركها الدموية الطاحنة. أما قارا تشورين ـ الخاقان نفسه فقد وقع في الأسر، وأرغم على الاعتراف بالسلطة العليا للامبراطور الصيني. وتشير المصادر الى ان جاندار الآنف الذكر، كان مسبِّباً للهزيمة التي مني بها الخاقان.

ومنذ ذاك الحين (عام ٦٣٠م)، ونتيجة لاشتداد حدة النزاعات القبلية، وتفاقم الشقاق بين افراد الأسرة الحاكمة، ولا سيما تعاظم السياسة العدوانية من قبل اباطرة «تان» (٦١٨ ـ ٩٠٧م)، انقسمت الخاقانية التركية الى قسمين: شرقي

وغربي. أو بصورة أدق، لقد فقد الخاقان السيطرة على الجزء الغربي من الخاقانية، فصار زعماء القبائل (الجابغويون) يديرون شؤون قبائلهم بصورة ذاتية مستقلة.

وهكذا، عاش الجزء الشرقي من الخاقانية التركية أكثر من ٥٠ سنة (٦٣٠ ـ ٦٨٢م)، مستقلاً عن الصينيين استقلالاً اسمياً. إلا أن حكام الجزء الشرقي الاتراك، لم يرضوا بهذا الوضع، وبذلوا قصارى جهودهم للتخلص من وصاية الصينيين اللجوجين، على أن جهودهم أخفقت لأنّ البلاد كانت ممزقة والقوى مشتتة. ولم يتم جمع قوى الاتراك الشرقيين المشتتة وتوحيدها إلا في عام ٦٨٢م على يد كولتوغ ـ خاقان، الذي اعلن استقلال الخاقانية.

حكم كولتوغ خاقان باسم ايلتاريش كولتوغ ـ خاقان. انه هو نفسه والد الزعيمين التركيين البارزين بيلغا ـ خاقان وكولتيغين، اللذين يحتلان مكانة رفيعة ومرموقة في تاريخ الشعوب التركية.

بيد أن ايلتاريش كولتوغ ـ خاقان لم يفلح في التغلب على الصينيين تغلباً تاماً وبصورة نهائية. ففي عام ٦٩٧م التف زعماء القبائل التركية ووجهاؤها حول قبيلة اشين، وتمردوا على الصينيين، إلا أن النجاح لم يحالفهم في هذه المرة ايضاً، وقام الجيش الصيني بسحق حركة التمرد هذه. وانسحب كولتوغ تشاغاي (ايلتاريش ـ خان)، زعيم المتمردين إلى أعماق الغابات مع عدد من جنوده الذين بقوا على قيد الحياة. وجاء في الكتابات القديمة المدونة نقشاً على ضريح تونتيوكوك، وزير ايلتاريش كولتوغ ـ خاقان، الذي اشتهر ببعد نظره ومراسه، أن كولتوغ تشاغاي استطاع حشد ما يربو على ٧٠٠ مقاتل في الغابات في بادئ الأمر، وتمكن من إلحاق هزيمة منكرة بـ «جيتي اوغوز ـ أي الاويغوريين» حلفاء اباطرة «تان». الأمر الذي ضاعف من قوى كولتوغ تشاغاي وأنصاره، وأدى إلى تدفق المقاتلين الجدد المؤيدين من كل حدب وصوب، وانضمامهم الى قوات كولتوغ تشاغاي، الذي فاق عدد رجاله وجنوده الـ ١٢ الف مقاتل. ورأى أنه غدا بمقدوره مواجهة الجيش الصيني. وفي عام ٦٨٠م جرت أول معركة بين الاتراك والجيش الصيني. إلا ان الجيش الصيني، الذي يفوق قوات كولتوغ تشاغاي من حيث العدد والعتاد، ألحق

بالاتراك هزيمة فادحة. لكن الاتراك لم يستكينوا، فبعد مرور ٧ سنوات (عام ٦٨٧م) أعادوا الكرة وانتصروا على الصينيين، مدمرين قوات الغزاة تدميراً نهائياً.

ومنذ تلك الفترة (عام ٦٨٧م) بدأت الخاقانية التركية تنتعش مجدداً وللمرة الثانية. على ان هذا الانتعاش لم يدم طويلاً. فبعد مقتل ايلتاريش كولتوغ ـ خاقان (عام ٦٩٢م) ثارت حركات التمرد والعصيان والنزاعات بين أبناء الاسرة الحاكمة، وساد الشغب والفوضى الخاقانية التركية مجدداً.

بعد مقتل ايلتاريش كولتوغ ـ خاقان، تولى العرش أخوه كاباغان ـ خاقان (٦٩٢ ـ ٧١٣م)، الذي تمكن من اعادة الاستقرار السياسي الداخلي إلى الخاقانية، ومن المحافظة على وحدتها وسيادتها واستقلالها. كذلك فإنّه، علاوة على ذلك، جهز جيشاً سار به غرباً حتى وصل الى سمرقند. بيد أنه هزم على ايدي العرب في المعركة التي دارت بينه وبينهم (عام ٧١٢ ـ ٧١٣م).

وعقب مصرع كاباغان ـ خاقان، لم يستطع احد من ابنائه، ينال بوغا ـ خان، يولينغ ـ تيغين الإمساك بزمام الحكم والسلطة، لا بل حتى إنهم تورطوا في نزاعات مع زعماء القبائل المتمردة. ولم ينجُ من هذه النزاعات الدامية سوى أبناء ايلتوروش كولتوغ ـ خاقان الصغار ـ بيلغا ـ خان، وكولتيغين.

هنا لا بد من التوقف عند نقطة مهمة لإلقاء الضوء على العديد من الأمور الغامضة المتعلقة بالتاريخ اللاحق للخاقانية، ولا سيما أسباب عدم الاستقرار السياسي فيها، والذي ظهر فوراً بعد مقتل كاباغان ـ خاقان، فقام هذا الأخير، كما يظهر، بفتح الطريق أمام النزاعات القبلية والشقاق والخلافات بين افراد الأسرة الحاكمة إبان حياته، وذلك بانتهاكه وخرقه الاعراف والتقاليد السائدة بين الاتراك والمتوارثة منذ القدم والمتبعة في تعيين الوصي على العرش، والتي كان ينبغي بموجبها أن يكون الوصي أحد ابناء الراحل ايلتاريش كولتوغ ـ خان، وبيلغا ـ خان بالتحديد. أما كاباغان فقد أوصى بالعرش الى ابنه بوكو ـ خان، ومنحه المناطق الغربية من الخاقانية. أدى ذلك طبعاً، الى استياء الاخوين بيلغا ـ خان وكولتيغين من

قرار عمهما، واضمر له الحقد. ولما سار الأخير بجيشه الى الغرب (ضد العرب على ما يبدو) وقتل في الحرب، رفض الاخوان الامتثال لـ «بوكو ـ خان» وتمردا عليه. وتم الاستيلاء على معسكرات كاباغان ـ خاقان ونهبها، وقتل انصار الخاقان وحاشيته والمقربين منه كافة، وكان بوكو ـ خان من بين القتلى. وتفيد الكتابات المنقوشة على ضريحي كولتيغين وبيلغا ـ خاقان، أن العبء الاكبر لهذا النزاع تحمّله كولتيغين، الذي تصفه المصادر مقاتلاً شجاعاً ذكيّاً، ورجل دولة ذا مراس وهمة عالية.

اما الأخوان بيلغا ـ خان وكولتيغين، على الرغم مما كان ينتظره ويتوقعه زعماء القبائل ووجهاؤها، فإنهما لم يتنازعا على السلطة العليا، بل على العكس من ذلك فقد اتفقا على ضرورة انتقال العرش الى الأخ الاكبر ـ بيلغا ـ خان، واكتفاء كولتيغين بتولي منصب القائد الأعلى للجيش. عاش بيلغا ـ خاقان وكولتيغين في سلام ووئام ومودة، وكانا يتعاونان في ادارة شؤون البلاد ويشرفان عليها معاً. ولعب في ذلك تونغيوكوكو، أحد أفراد حاشية والدهما، الذي بقي في خدمة بيلغا ـ خاقان دوراً مهماً جداً.

لقد قضى بيلغا ـ خاقان وكولتيغين على التفتت والانقسام الاقطاعي في البلاد، وأخضعا القبائل المتمرّدة، كقبائل الاوغوز والتتر وغيرها، وأقاما علاقات حسن جوار مع الصين. باختصار، استطاع الأخوان إقرار السلام والهدوء والأمن في الخاقانية، ولو لبعض الوقت. ولكن بعد وفاتهما (توفي كولتيغين في الحرب ضد الـ«توكوزوغوز» في عام ٧٣١م، اما بيلغا ـ خاقان فقد مات مسموماً بعد مرور ثلاثة اعوام على وفاة أخيه، أي عام ٧٣٤م) ثارت الفتن وحركات العصيان والفوضى في الخاقانية التركية. وبدأت الانقسامات الاقطاعية بصورة متعاظمة.

وبعد بيلغا ـ خاقان، خلفه على العرش ابناه: إيتشان خاقان (٧٣٤ ـ ٧٣٩م) وتينغري ـ خاقان (٧٤٠ ـ ٧٤١م)، اللذان حاولا مواصلة سياسة أبيهما، إلا أنّ النزاعات القبلية ودسائس القصر ومكائده المتزايدة شدة واستفحالاً، لم تمكنهما من ذلك. وفي عام ٧٤٥م أطاح الـ «توكوزوغوز» وقبائل أخرى بالخاقانية التركية

الشرقية، وأقاموا مكانها الخاقانية الاويغورية (٧٤٥ ـ ٨٤٠م).

أما الخاقانية التركية الغربية فقد استطاعت، بغض النظر عن انعدام جهاز السلطة المركزية القوي، أن تحافظ على استقلالها، وتمكنت من التوغل في آسيا كقوة عسكرية سياسية ضخمة. لقد كانت دولة عظيمة، تمكنت في النصف الثاني من القرن السابع، من بسط سلطتها على المناطق الممتدة بين تركستان الشرقية وبحر قزوين. وقد لعبت المدن والعلاقات التجارية مع الصين وإيران والبيزنطية دوراً كبيراً مهماً في تطور الخاقانية وازدهارها.

وبحسب المعلومات التي أوردها الرحالة الصيني «سيوان تسزين» (حوالى ٥٩٦ ـ ٦٦٤م)، كان ضمن مدن الخاقانية التركية الغربية، علاوة على مدن مرو، امول، بخارى، سمرقند، تشاغاي، اسبيجات، مدن عديدة مشهورة في تالاس وسيميريتشي وسوياب العاصمة، حيث كانت على سبيل المثال، الأسواق «المعارض» التجارية الضخمة التي يشارك فيها التجار الأجانب.

في النصف الثاني من القرن السابع، عمّ الانقسام والتفتت الاقطاعي الخاقانية التركية الغربية ايضاً. فتسبَّب ذلك في تجزئة الخاقانية الى ١٠ اجزاء على أسس قبلية، وقد جرى ذلك في عهد الخاقان «شوبولو» (٦٣٤ ـ ٦٣٨م). وهكذا، وبموجب هذا «الاصلاح» الاداري، قسمت شعوب شرقي نهر «تشو» الى خمسة اقسام (طوائف) نالت تسمية عامة «دولو»، في حين أطلقت تسمية «نوشيبي» على سكان الضفة الغربية (وكانوا هم أيضاً قد قسموا إلى خمسة أقسام «طوائف»). ولم تمض مدة طويلة حتّى انفردت كل طائفة، بإعلان استقلالها. وهذا ما كان ينشده الصينيون، الذين سرعان ما ارسلوا قواتهم (عام ٦٥٨م) وفرضوا سيادتهم على الاتراك الغربيين.

لم يمتثل سكان الخاقانية التركية لإدارة الغزاة المحتلين وأبدوا مقاومة لمأموريهم. وفي عام ٧٠٤م، استطاع الخاقان خوايداو استعادة سيادة الخاقانية واستقلالها، ولكن لمدة غير طويلة، إذ سرعان ما دبت الانقسامات والنزاعات

الاقطاعية من جرّاء الاغارات المستمرة التي كانت تشنها القبائل التركية الأخرى، ولا سيما تلك التي كانت تقطن شمال الخاقانية، مما حمل قسماً من الاتراك على الانتقال الى شرقي تركستان حيث اقاموا تحالفهم السياسي. وهم مشهورون في المصادر الصينية بالاتراك الشاتو (الجبليين) وبالتوكوزوغوز في المصادر العربية.

في النصف الثاني من القرن الثامن، سقطت الخاقانية التركية الغربية تحت هجمات الكارلوكيين وضرباتهم. وهؤلاء استوطنوا سيميريتشي، عندما قدموا من التاي. وقبل مجيء العرب، كانت الخاقانية عبارة عن زهاء ١٥ إمارة مستقلة. ونقلاً عن الطبري، كان حاكم طخارستان هو جابغو، وحاكم بخارى ـ قباج ـ خاتون، وآش ـ شاشي كورسول، وبلخ ـ نيزاك ـ طرخان الخ...

بعض الحقائق عن الحياة الاجتماعية الاقتصادية

كانت الغالبية العظمى من سكان الخاقانية من القبائل الرحل (ولا سيما في القسم الشرقي)، وشبه الرحل الذين يهتمون بتربية الماشية. وكانوا في القرى والخيام يصنعون الملابس من جلود الماشية والأدوات المنزلية المختلفة، ولا سيما اللباد المصنوع من الصوف. كما كانوا يصنعون بأنفسهم الخيام والمعدات الضرورية اللازمة لها. امّا في مدن الجزء الغربي من الخاقانية، فكانت الصناعة والتجارة أكثر تطوراً ورقياً، وكان الناس أكثر تحضراً وتمدناً، ما أدّى إلى ازدهار الصناعة والتجارة والزراعة.

وخلاصة القول، لقد أخذت الاشكال او الصيغ المبكرة للعلاقات الاقطاعية تشق طريقها نحو التطور، على الرغم من سيادة النظام القبلي.

وحول عادات الاتراك ومعتقداتهم في الفترة ما بين القرن الخامس وبداية القرن الثامن. تجدر الاشارة اولاً الى أنه، خلافاً للشعوب الأخرى، لعبت المرأة دوراً مهماً في المجتمع التركي. فمثلاً، لدى دخول الاطفال على آبائهم في الخيمة، كانوا ينحنون أمام أمهاتهم، وبعد ذلك يطرحون التحية على آبائهم ويسلمون عليهم. كذلك كانت المرأة تسهم في الاشراف على الأمور المنزلية، وتشارك في الحروب وفي

الاجتماعات الحكومية كافة، وحتى في استقبال سفراء الدول الأجنبية. ويذكر الطبري أنه كان للمرأة فضل كبير في الامجاد والمكانات العظيمة التي بلغها الخاقانون ونالوها.

وفيما يتعلق بمعتقدات الاتراك، تفيد المصادر أنهم في المرحلة المبكرة من تاريخهم كانوا يعبدون الحيوانات والطيور (كالعقاب والذئب... الخ)، والكواكب كالشمس والقمر، وطبقات السماء (كوك تينغري). ومن ثم صاروا يؤمنون بخلود الروح ووحدانية الله (اغلب الظن وجود رب واحد لكل قبيلة)، ويعتقدون ان الرب هذا وحده، دون غيره، هو الذي خلق المخلوقات والكائنات كافة، على انهم كانوا يعتقدون ان هذا الرب يسكن طبقة السماء التاسعة. وابان حكم توبو ـ خاقان (٥٧٢ ـ ٥٨١م) جرت محاولة لنشر الديانة البوذية في الخاقانية. ولدى عودة بوغو ـ خاقان (٧٥٩ ـ ٧٧٩م) من رحلته الى التيبت، حاول بث معتقدات المذهب «المانى» المشهور بين الاتراك، إلاّ أنّ المحاولتين باءتا بالفشل. باختصار، لقد كانت معتقدات الاتراك القدماء عرضةً لسيطرة العناصر الشامانية (الخرافية أو السحرية).

في المؤلّف الذي وضعه فخر الدين مبارك المرڤررودي: (نسبة إلى مدينة ميرڤ الواقعة في آسيا الوسطى على ضفاف المورغاب) بعنوان «تاريخ مبارك شاه» ولم يُصِبْ شهرة واسعة (فرغ منه في عام ١٢٠٦م)، نقف على معلومات تشير إلى أن الاتراك كانوا شعباً مثقفاً، ويقول المؤرخ :«كانت لدى الاتراك كتابتهم. ومع انهم كانوا يعرفون أسرار السحر والكواكب ويعبدونها، إلاّ أنهم كانوا يعلمون أبناءهم وأطفالهم القراءة والكتابة. وكان لهم نوعان من الكتابة: السغدية والتوكوزوغوزية. كانت الحروف السغدية تتألف من ٢٥ حرفاً، لكنها تحتوي على حروف الـ «ض 3ay»، و«ظ، ز 3a» و«غ»، وتكتب من اليمين الى اليسار، بحيث تكون الحروف منفصلة عن بعضها... والتوكوزوغوزية تتألف من ٢٨ حرفاً، تكتب من اليمين الى اليسار بصورة غير مترابطة... كان الاتراك قادرين على نظم الأشعار ـ القصائد والرباعيات....».

اما عن البنية الاجتماعية والسياسية للاتراك، فإن المعلومات المتوافرة لدينا قليلة جداً ايضاً. ولكن بامكاننا القول إن الاسرة كانت أساس المجتمع، وتعمل على توحيد العشيرة (اوروغ). وكانت العشائر المتقاربة تتّحد لتكوِّن قبيلة. وكانت القبائل، تبعاً لظروف داخلية وخارجية تتحد معاً في منظمة سياسية، يترأسها الامراء (جابغو)، الخانات الكبار والصغار، الذين يرد ذكرهم في المصادر: «خاقان»، «خان»، «تانخو»، «جابغو»، «ايلتابار»، «شاز» الخ..

ومع ذلك، كان المجتمع التركي طبقياً ويتألف من الارسطقراطيين (الخواقين، الجابغويين، الايلتابارين، والطرخانيين)، ومن الناس البسطاء العاديين، أي الجزء المستعبد او المستغل من السكان الذين يطلق عليهم (كارا بدوين).

لقد كانت الخاقانية التركية دولة ذات سلطة مركزية ضعيفة.

الفصل الرابع

آسيا الوسطى ابان حكم الخلافة العربية

فتح آسيا الوسطى من قبل العرب

ضُمت آسيا الوسطى إلى الخلافة العربية في عهد الأمويين، بعد حروب دامت أكثر من ٤٠ سنة (٦٧٤ ـ ٧١٥م). قبل التطرق الى تاريخ هذه الحروب العسكرية السياسية، نود القول إن أهم أسباب نجاح العرب في ذلك يكمن في الانقسام والتفتت الاقطاعي في آسيا الوسطى، والنزاعات الاقطاعية التي شملت آنذاك تلك المنطقة الشاسعة المترامية الأطراف. ووفق المصادر المخطوطة (العربية والصينية) ومواد الأبحاث الأثرية، كان هنا، قبيل قدوم العرب إلى آسيا الوسطى، زهاء ١٥ إمارة اقطاعية وهي: إمارة تشاغانيان ـ أميرها تشاغان ـ خودات، امارة ترمذ ـ حاكمها ترمذ ـ شاه، وإمارات ڤاشجيرد، كوباديان وخوتيلون، الواقعة بين نهري فاخش وبيانج، وقرى: ـ كيرران، وشوغنان و فاخان، الواقعة في منطقة غورنو ـ باداخشان ذات الحكم الذاتي التابعة لجمهورية طاجيكستان، وراشت وكوميد الواقعتان في اعالي فاحش (حالياً كاراتيغين في جمهورية طاجيكستان) والمأهولتان بالكوميج، وتنتمي لغتهم الى اللغات التركية، وقرية بوتيم في اعالي زرافشان. وسغد التي كانت تتألف آنذاك من ثلاث إمارات صغيرة:

سغد عاصمتها سمرقند (حوض نهر زرافشان من بيانجيكينت إلى كيرمين)، الجزء الغربي لوادي نهر زرافشان ومركزها بخارى، ووادي نهر قاشقاداريا

ومركزها كيش (شهريسابز حالياً). وكانت إلى الاسفل من سمرقند وعلى نهر زرافشان، تقع إمارتا ايشتيخان وكوشانيا، وبالقرب من بخارى، كانت إمارة وردان وعلى رأسها وردان ـ شاه. و كانت، آنذاك، فرغانة وخوجيند واستروشانا وشاش عبارة عن دويلات صغيرة مستقلة. طبعاً، لا يجوز استبعاد خوارزم من هذه العملية، وذلك ما يمكن ان نستدل عليه مما ذكره الطبري والمقدسي. وفي هذا الصدد يورد الطبري حقيقة طريفة، اذ يورد، اضافة الى لقب «خوارزم شاه»، لقب «الملك»، الذي يخضع من حيث منصبه أو وضعه للاول، بصورة اسمية طبعاً. ويقول المقدسي انه فقط في ميزدهقان وحدها (مدينة قديمة تقع بالقرب من خوجيلي الحالية) كان يوجد ١٢٠٠٠ قصر لكل قصر حصنه، وتعود الى اقطاعيين من درجات مختلفة.

باختصار، كان الانقسام والعداء والصراعات بين الاقطاعيين، والتي رافقها أحياناً اصطدامات عسكرية بين الملاكين الاقطاعيين، قد هيأت الظروف المناسبة ومهدت السبيل أمام العرب لفتح آسيا الوسطى وخوارزم. وفي المصادر المدونة باللغة العربية، ثمة حقائق وأدلة ساطعة تشير الى أن حكام آسيا الوسطى وخوارزم أنفسهم، ساعدوا كثيراً على انجاح الفتوحات العربية في هاتين المنطقتين. فذكر الطبري، مثلاً، ان تشاغان ـ خودات قام، نتيجة عدائه للملكي شومان وآخارون (الواقعتين على نهر سورخان وكفرنخان)، وعام ٧٠٥م، باستدعاء قتيبة بن مسلم (والي الأمويين في خراسان وسيستان (٧٠٥ ـ ٧١٥م) إلى آسيا الوسطى. وقبل ذلك بسنة (عام ٧٠٤م)، حينما عارض القائد العربي عثمان بن مسعود نظيره القائد العربي موسى بن عبد الله بن حازم، الذي كان قد احتل خوارزم وأعلن تمرده، قام بمناصرة الاول الاخشيدُ السغدي وملك غوتّالان. وفي عام ٧١٢م استنجد خوارزم شاه اسكاجفار بالعرب في حربه ضد أخيه خورزاد والدهاقنة الخوارزميين المتمردين (الاقطاعيين). وحينئذ قامت القوات العربية بقيادة عبد الرحمن، شقيق قتيبة بن مسلم، بالانقضاض على المدينة ـ الحصن خامجيرد ـ مقر خورزاد والاستيلاء عليها، كما أسر خورزادِ نفسه. قُتل آنذاك ٤٠٠٠ من الأسرى

الخوارزميين. وبناء على الاتفاقية التي عقدت بين خوارزم شاه والأمير عبد الرحمن، قام الاول بتقديم ١٠٠٠٠ رأس من الماشية المنتقاة كإتاوة. وضمن هذا السياق العام، يأتي كلام غوريك حاكم سمرقند (٧١٠ ـ ٧٣٧م) الموجه الى قتيبة: بأن الانتصارات لا يحققها إلا «بفضل مساعدة إخوان أخيه وأقربائه». تجدر الاشارة هنا، الى ان سقوط خوارزم عجّل ايضاً في نهوض الحركة الاجتماعية القوية المشهورة في التاريخ بحركة الخرّميين (طائفة دينية قائمة على مبدأ المزدكية والمساواة الاجتماعية والملكية الجماعية). ويمكننا القول إن تمرد خورزاد كان، والى حد ما، مقدمة لحركة الخرّميين، التي كانت، من حيث جوهرها، والمعبّر عنها بكلمات س. ب. تلستوف: «حركة مناهضة للاقطاعيين، تضم طوائف قروية ودهماء المدينة المناوئة لاصحاب القصور الفخمة والوجهاء الاقطاعيين ذوي النفوذ الكبير».

سير الفتوحات العربية

بدأت الجيوش العربية عام ٦٣٢م تحركها شرقاً: الى فلسطين، سوريا، العراق وايران الساسانية. وفي ذلك العام تمكن العرب من اخضاع فلسطين، وفي عام ٦٣٤ ـ ٦٣٥م فتحوا سوريا، وبعد عدة اخفاقات وهزائم، تمكن العرب من التغلب على مقاومة الساسانيين. وفي الاول من يونيو عام ٦٣٧م استطاعوا توجيه ضربة انتقامية للجيوش الايرانية في القادسية. وبعد خرق اتفاقية السلام المعقودة بين الطرفين من الجانب الايراني، وفي معركة نهاوند، بالقرب من اكباتان (اصفهان حالياً)، مُني الايرانيون بهزيمة ساحقة ماحقة، وتم القضاء على أسرة الساسانيين، وهرب آخر ملوكهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١م) الى الشرق، وقتل في مرو. وهكذا، في ٦٥١م، وصل العرب الى حدود اموداريا، وتمركزوا في واحة مرو متخذين منها قاعدة لهم، وراحوا ينطلقون منها الى منطقة ما بين النهرين، أي المنطقة الواقعة ما بين امودايا وسرداريا.

وفي عام ٦٧٤م، اجتاحت الجيوش العربية آسيا الوسطى بقيادة عبيد الله بن زياد، ونهبوا بايكيند (مدينة قديمة تقع على بعد ١٤ كلم، جنوب شرق بخارى)

وبخارى ايضاً. واستنجدت الملكة تاخشادا بملوك كيش ونسف وسغد، وقاومت العرب، ولكن في معمعان المعركة خان السغديون البخاريين، وانسحبوا من ميدان المعركة، واضطرت تاخشادا لعقد اتفاقية سلام مع عبيد الله بن زياد كلفتها اتاوة باهظة جداً قدرها مليار درهم نقداً. وأخذ العرب معهم ٤٠٠٠ اسير، من بينهم ٨٠ من سلالة الأسر الحاكمة وكبار المسؤولين. وبعد ذلك، وحتى عام ٧٠٥م، شنّت الجيوش العربية عدة حملات لسلب مدن آسيا الوسطى ونهبها، على أنهم لم يستطيعوا ترسيخ اقدامهم فيها، إلا بعد تعيين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان (عام ٧٠٥).

وفي عام ٧٠٥م، ومباشرة بعد تعيين قتيبة والياً على خراسان، توغل العرب في آسيا الوسطى، واتجهوا لفتح آخارون وشومان، القريتين الاقطاعيتين على نهر سورخان وكفرنيخون. بيد أنهم فشلوا، الأمر الذي اثار سخط الحجاج بن يوسف، والي الخليفة الوليد الأول (٧٠٥ ـ ٧١٥م) في الحجاز والعراق. وبعد انقضاء عام (أي عام ٧٠٦م) جهز قتيبة جيشاً كبيراً، وعبر مرو وآمول (تشارجوي حالياً)، وتوجه مرة أخرى الى بايكيند، التي سميت بـ «المدينة النحاسية» لجمالها وثرائها. ولنجدة بايكيند جاءت فصائل من سغد ونسف وكيش وانحاء اخرى من آسيا الوسطى.

ومع ذلك لم يتجرأ حاكم بايكيند على مواجهة جيش قتيبة وعرض عليه عقد الصلح، الأمر الذي وافق عليه العرب ولكن مقابل إتاوة كبيرة: مصنوعات من الذهب والفضة وكمية ضخمة من الاسلحة. ونقلاً عن الطبري، قام العرب بصهر المصنوعات هذه من الذهب والفضة، ولما وزنوها بلغ وزنها ١٥٠٠٠٠ مثقال. وبعد ذلك خرجوا من آسيا الوسطى، وأبقوا في بايكيند حامية على رأسها أحد اقرباء قتيبة. ولكن ما إن وصل العرب الى منتصف الطريق المؤدي الى أموداريا، حتى بلغهم نبأ حدوث عصيان في بايكيند. آنذاك قام البايكينديون بإبادة افراد الحامية عن بكرة أبيهم. وعاد قتيبة الى بايكيند. وبعد حصار دام شهراً، استولى على المدينة وعمل فيها سلباً ونهباً ما استطاع الى ذلك سبيلاً.

وعام ٧٠٧م، عاد قتيبة لاجتياح آسيا الوسطى مجدداً واحتل راميتان التي تعد واحدة من أقدم مدن بخارى. الا أنه لم يستطع مواصلة الزحف واضطر للتقهقر تحت ضغط القوات المتحدة السغدية والتركية والفرغانية. كما منيت بالفشل حملة قتيبة في عام ٧٠٨م، ضد حاكم وردان (شابوركاما)، وعلى القرية الواقعة في الحوض السفلي لزرافشان.

وهنا طلب منه الحجاج بن يوسف اتخاذ اجراءات حاسمة. وفي عام ٧٠٨م جهز قتيبة جيشاً جراراً واجتاز امودارياً مرة أخرى، وسار به الى بخارى وسمرقند عاصمة سغد. على أنه، في هذه المرة أيضاً، لم يستطع التغلب على حاكم بخارى، فاتجه بجيشه الى وادي قاشقادريا واستولى على منطقتيه الرئيسيتين: كيش ونسف. وهذا ما مكنه من اخضاع حاكم بخارى، ولكن لم يستطع مواصلة زحفه وتحقيق مزيد من النجاحات، إذ ما كادت الجيوش العربية تبتعد حتى سارعت المدن، التي اعترفت بسيادة العرب عليها، إلى الخروج عن طاعة العرب وأعلنت استقلالها.

وكانت المرحلة الحاسمة النهائية لاخضاع آسيا الوسطى تماماً، في الفترة ما بين عامي ٧٠٩ ـ ٧١٠م. ففي العام ٧٠٩م، ومن دون اي مقاومة، استولى قتيبة على بخارى. وفي عام ٧١٠م تمكن من احتلال شومان. الا أن «غوريك»، ملك سغد، الذي اعيد انتخابه مجدداً (عام ٧١٠م)، استطاع اقناع الشعب بالنهوض للنضال ضد المحتلين. ولم يتمكن العرب من الاستيلاء على سمرقند. على أن النجاح حالفهم في خوارزم العريقة، وذلك نتيجة الاضطرابات وعدم الاستقرار في البلاد، حيث كانت تدور نزاعات عنيفة بين خوارزم شاه اسكاجفارا وأخيه خورزاد، الذي يسانده الدهقانيون، الأمر الذي أشرنا اليه آنفا. ونقلاً عن الطبري، ان اسكاجفارا، الذي وجد نفسه محرجاً في هذا الصراع، استنجد بالعرب، وقدم لقتيبة بن مسلم المفاتيح الذهبية لمدن خوارزم: خزراسب، وفير (فيل) وكيت. وقد جرى ذلك في عام ٧١٢م.

وفي العام نفسه (٧١٢م) استطاع قتيبة إخضاع سمرقند أيضاً، ولكن بعد جهود وخسائر كبيرة. وكان من الأهمية بمكان أنه استطاع أن يسبق حلفاء غوريك ـ الشاشيين والفرغانيين. فما إن علم باتجاه قواتهم الى سغد لنجدتها، حتى قام العرب

بنصب الكمائن لها في الطريق، وقضوا عليها وهزموها. وبعد ذلك حاصر قتيبة المدينة من الجهات كافة، ونصب المنجنيقات أمام تحصينات المدينة، وراح يقصفها. ونقلاً عن الطبري، أن قتيبة، في هذه العملية، استعان بفصيلة كبيرة مؤلفة من الخوارزميين والبخاريين. وعلى الرغم من تفوق العرب عدداً وعدة وعتاداً، إلا أن السغديين صمدوا وقاوموا حتى النهاية، ولم يستسلموا إلا بعد أن أحدث العرب فجوة في سور الحصن، واندفعوا من خلاله إلى المدينة. وجاء على لسان الطبري: «عقد قتيبة اتفاقية سلام مع غوريك، شريطة أن يقدم الاخير للأول ١٠٠٠٠٠ رأس من الماشية، ويعمل على (تدمير معابد) النار والأصنام التي تزينها». وعلاوة على ذلك فرض على السغديين دفع ٢٢٠٠٠٠٠ درهم سنوياً، وتقديم ٣٠٠٠٠ من الشبان الاصحاء، كقوات احتياطية أو مساعدة في أثناء الحرب على ما يبدو.

وفي السنة التالية (٧١٣م)، سار قتيبة بن مسلم بجيشه الى كيش وفرغانة (خوجند وكاسان). وكان ضمن جيشه فصيلة كبيرة مساعدة من بخارى وخوارزم وكيش ونسف. وفي مكان ما في الطريق قسم قتيبة قواته الى قسمين: أرسل قسماً الى شاش، والثاني الى خوجند، التي قاوم سكانُها العرب مقاومة عنيفة. خلاصة الكلام، لم ينجح آنذاك قتيبة في فتح كاسان ولا شاش. كما لم يفلح في اخضاع شاش عام ٧١٤م. وذكر الطبري أن الذي حال دون ذلك هو وفاة الحجاج بن يوسف، حاكم العراق وخراسان. وكان ذلك في شهر شوال ٩٥هـ (يونيو - يوليو عام ٧١٤م). عندها ترك قتيبة قسماً من جيشه في بخارى وكيش ونسف، وعاد الى مرو.

وفي العام ٧١٥م، وبناءً على أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥م)، قام بحملة ضخمة على فرغانة ووصل الى المنطقة الواقعة الى شرق انديجان والتي اطلق عليها فيما بعد اسم «كليتش مزار»، وكانت هذه آخر نقطة في الشرق بلغها العرب، حيث واجههم الاتراك بمقاومة عنيفة. ويقول الطبري، ولم تمض على ذلك مدة طويلة، أي في يوم السبت المصادف منتصف شهر جمادى الآخرة ٩٦هـ (٢٦ فبراير ٧١٥م)، حتى توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأ خليفته سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧م) باضطهاد أنصار الحجاج وملاحقتهم،

فعزل خليفته يزيد بن أبي مسلم وغيره. أما قتيبة الذي اقسم يمين الولاء لعبد العزيز شقيق منافس الخليفة الجديد، فكان أيضاً من ضمن الذين شملتهم حملة «التطهير». ولما علم قتيبة بذلك، اعتراه الخوف للوهلة الأولى، لكنه سرعان ما تمالك نفسه وتمرد على الخليفة سليمان، ولكن لم تمض مدة طويلة حتى قتل على يد جنوده الذين ثاروا ضده.

وهكذا، تمكن العرب من فتح آسيا الوسطى مع مطلع عام ٧١٥م، وظلت تحت حكم الخلافة العربية حتى الربع الأول من القرن التاسع.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية

أولى القادة العرب اهتماماً بالغاً، في مناطق آسيا الوسطى التي فتحوها بنشر الاسلام، الذي لعب بالتالي دوراً تقدمياً. وغالباً ما كانوا يلجأون في ذلك الى السبل السلمية ويعفون معتنقي الاسلام من دفع الخراج والجزية. هذه هي السياسة التي اتبعها الولاة العرب في خراسان وما وراء النهر منذ عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠م).

بادئ ذي بدء، أدت الفتوحات العربية الى التعجيل في عملية تقسيم الأسرة المتمسكة بالتقاليد القديمة، وإضفاء طابع اقطاعي على المجتمع في آسيا الوسطى. ونتيجة النضال والإغراء بالوعود، استطاع القادة العرب استمالة الدهاقنة (الاقطاعيين) وجعلهم حلفاء لهم، مما سهل عليهم ابقاء الشعب خاضعاً ومطيعاً لهم.

وتشير المصادر الى ان المجتمع في آسيا الوسطى كان آنذاك يتألف من الدهاقنة (الاقطاعيين)، مثلما لدى العرب والفلاحين المحليين الأحرار، أي افراد المشاعية الريفية وفلاحي المحاصصة المعروفين، بحسب المصادر العربية، بـ الاكارين والعبيد.

كان الفلاحون الأحرار، باعتبارهم أعضاء في المشاعية الريفية، يمتلكون الأراضي ولا يعرفون نظام المحاصصة، ويكتفون بدفع الخراج والجزية لخزينة الدولة.

أما فيما يتعلق بالأكارين، أي فلاحي المحاصصة، فكان وضعهم صعباً جداً، إذ إنهم كانوا، خلافاً للفلاحين الأحرار، عرضةً لجور الإقطاعيين الذين يجحفون حقوقهم ويستغلونهم. أما بالنسبة للعبيد فلا يخفى وضعهم على أحد ولا تستحق المسألة اي إيضاحات.

كانت الدولة، ممثلةً بالخليفة، وفق الشريعة الاسلامية، المالك الرئيسي للأراضي، يستغلها الخليفة، على العموم، بمساعدة رجال حاشيته والمقربين منه، وهم: كبار القادة العسكريين والمسؤولون الدنيون، ذوو المناصب العالية، الذين تنازلوا عن بعض حقوقهم له. إن مثل هذا النظام، وتسميته العلمية ـ النظام الاقطاعي ـ وبموجبه ينال الاقطاعي قطعة من الارض تكون ملكه طيلة حياته وأحياناً تكون موروثة. وتمنح هذه الاراضي لمن قدموا خدمات جليلة عظيمة للدولة. كان الاقطاعيون يتمتعون بالكثير من الحقوق والامتيازات. فمثلاً، كانوا لا يدفعون من مداخيلهم سوى العشر. وكانت، وفق هذه المصادر، تقتطع الأراضي البور (الاراضي الموات) ،وبعد إحيائها، كان القانون يعفيها من الضرائب والفروض الإقطاعية. إضافة إلى وسائل للتكريم (تعرف بالتسويغ)، تعفي أيضاً من الضرائب والفروض الاقطاعية كلياً او جزئياً. كما كانت بعض القرى الممنوحة، من باب التكريم، تحظى بحصانة خاصة، ولا يقترب منها جابي الضرائب.

كان الجزء الأعظم من الأراضي الصالحة للزراعة في أيدي الدهاقنة (الاقطاعيين)، الذين كانوا بدورهم يحظون بالامتيازات، ويشددون قبضاتهم على الاراضي الخصبة الشاسعة ووسائل الري، كانوا يستغلون مالكي المساحات الضئيلة من الأراضي وفلاحي المحاصصة أيما استغلال.

وكانت ضريبة الخراج هي الضريبة الرئيسية، ويجري تعيينها انطلاقاً من نوعية الأرض، وتوافر الماء فيها، وقربها من المدينة، وما الى ذلك من الميزات. وإضافة الى الخراج، كان السكان يدفعون الجزية.

والجدير بالذكر هنا، أن الفروض الاقطاعية ابان الخلافة في خراسان وما وراء

النهر، كانت على ثلاثة اشكال:

مقاطعة، ومقاسمة ومساحة. فالمقاطعة عبارة عن إتاوة تدفع الى خزينة الدولة من أملاك الاقطاعيين، ويحدد حجمها بموجب اتفاقية خاصة تعقد بين المؤسسة المالية والاقطاعي. والمقاسمة هي الحصة التي يدفعها مالك الأرض من دخله، ويحدد حجم الحصة بناء على ظروف الري ونوع المزروعات. أما فيما يخص المساحة فإنها ضريبة تدفع على مساحة معينة من الأرض.

نضال الأسر الحاكمة: النزاعات بين الاقطاعيين وحركة المرتدين

في القرن الثامن عمت الخلافة نزاعات بين الأسرتين الحاكمتين، والاقطاعيين وحركة المرتدين «الهراطقة».

وفي العام ٧٤٦م، ترأس أبو مسلم (٧٢٧ ـ ٧٥٥م) الشخصية المشهورة حملة الدعاية العباسية الموجهة ضد سيادة الأمويين، وأدت في نهاية المطاف (عام ٧٥٠م) الى وصول العباسيين الى الحكم، ما أثار سخط العلويين الذين كانوا يريدون رؤية سليل علي على عرش الخلافة. وفي تلك السنة (٧٥٠م)، بدأت حركة قوية في بخارى بقيادة شارق بن شيخ المهري العربي الأصل الذي كان قد حظي حتى بدعم حكام بخارى وسمرقند وخوارزم وغيرها من المناطق. إلا أن حركة العصيان هذه قد سحقت في نهاية الأمر. ولكن سرعان ما بدأت في عام ٧٥٣م، النزاعات بين أبي مسلم، والي الخليفة على القسم الشرقي للخلافة، وزياد بن صالح، والي ما وراء النهر، تلك النزاعات التي حرض عليها خليفة المستقبل ـ ابو جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥م)، ذلك بأن نشاطات ابي مسلم لم تعد موجهة لصالح العباسيين، وغدت تدعم القوى الوطنية المحلية، الأمر الذي كان يهدد بانفصال القسم الشرقي للخلافة عن المركز. لكن حركة زياد بن صالح أخفقت. كما أن ملاكي الأراضي الأرسطقراطيين في ما وراء النهر لم يؤيدوا حركته. فسار ابو مسلم نفسه بقواته وقضى على الحركة. وحاول زياد بن صالح ـ زعيم المتمردين ـ الاختفاء في قرية باركاس

البخارية، بيد ان الدهقان (الاقطاعي)، الذي كان قد تعهد بحمايته، نكث بوعده فقام بقطع رأس زياد وحمله الى ابي مسلم. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد ظل الخليفة مصراً على عزل ابي مسلم، فدبر ضده حركات تمرد جديدة، وحاول تسميمه سراً، على أن محاولاته كافة منيت بالفشل. وبغض النظر عن ذلك، كان النصر في هذا الصراع حليف الخليفة. ففي العام ٧٥٥م، وبعد اداء فريضة الحج، عرج أبو مسلم في طريق عودته على بغداد لزيارة الخليفة، فغدر الأخير بالأول وقتله.

كان ابو مسلم ذا سمعة جيدة، يحظى باحترام أهل خراسان وما وراء النهر واهتمامهم به، فأدت العملية الدنيئة الغادرة التي أودت بحياته، إلى ظهور حركة معادية للعباسيين في المناطق الشرقية من الخلافة: في العام ٧٥٥م جرى تمرد في الري بزعامة سنباد، وزامن هذا التمرد تمرد آخر تزعمه إسحق التركي في ما وراء النهر.

الا أن أقوى حركات التمرد، كانت تلك التي قام بها «ذوو الثياب البيضاء» بزعامة المقنع (٧٦٩ ـ ٧٨٣م)، والتي شملت كيش ونسف وسمرقند وبخارى، ومن ثم عمت بلاد ما وراء النهر قاطبة، وشارك فيها مختلف فئات السكان. وإذا كان الناس البسطاء وسواد الشعب يريدون التخلص من عدم المساواة والتسلط الاقطاعي، كانت طبقة الاثرياء، ولاسيما الاقطاعيين والارسطقراطيين المحليين، تطمع في تحرير البلاد من حكم الخلافة والامساك بزمام السلطة العليا. إلا أن الحركة منيت بالاخفاق في نهاية المطاف، إذ إن المتمردين كانوا يفتقرون الى المهارة القتالية والعدة والعتاد، ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش العربي النظامي المسلح بصورة جيدة، إضافة إلى غياب الاتفاق والانسجام بين قادة حركات التمرد. كما كان بين القادة من انتقل الى الجانب الآخر (الى الجانب العربي) أمثال ـ كابزام، سرحام وغيرهما.

وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع الخليفة القضاء على استياء شعوب البلدان الخاضعة لسياسة الضرائب التي فرضها الولاة، وعلى الاستبداد الاقطاعي. ففي العام ٧٩٥م، بدأ السيستانيون انتفاضتهم بزعامة حمزة بن اتراك، وفي سنة

٨٠٠م، تمرد سكان «نسى» بزعامة أبي حاسب.

وكانت انتفاضة القائد العربي رافع بن ليث في سغد (٨٠٦ ـ ٨١٠م) ضد نظام الضرائب الجائر، من أشد الانتفاضات، فقد شملت وادي زرافشان، قاشقادريا وحتى شاش. وكانت معظم القوى المحركة الدافعة للانتفاضة من الفلاحين وفقراء المدن وقسم من الدهاقنة (الاقطاعيين الذين انضموا الى الحركة طمعاً في الاستيلاء على السلطة). وفي العام ٨٠٧م، أُرسل جيش بقيادة عيسى لاخماد الانتفاضة، إلاّ أن المتمردين الثائرين دحروا هذا الجيش ودمروه. بعد ذلك أرسل الخليفة الى خراسان ٣٠٠٠٠٠ مقاتل بقيادة خرساما بن عيّان، الذي فشل في قمع الانتفاضة في ما وراء النهر، التي كانت، حتى ذاك الحين، قد امتدت لتشمل طخرستان وبلخ. كان الوضع يهدد بخطر شديد، لدرجة أن هارون الرشيد قام بنقل مقر قيادته الى طوس في عام ٨٠٨م، وذلك كي يكون قريباً من موقع الأحداث، وليشرف شخصياً على الأعمال الحربية. وكان قد عين على خراسان والياً ذكياً ذا مراس وحنكة هو ابنه المأمون، الذي عزز جيشه بقوات جديدة من جيش خرساما بن عيان، واتجه به الى امول (تشارجوي حالياً) ومن هناك زحف على بخارى مباشرة. لقد تمكن من التغلب على المتمردين في ما وراء النهر، ويعود الفضل الأكبر في ذلك الى الانشقاق الذي وقع في صفوفهم. فمثلاً، في نهاية العام ٨٠٨م، انتقل الى جيش خرساما بن عيّان عدد من قادة الثوار مثل عجيفة بن انس واهواز بن مهاجر. وعندئذ تمكن خرساما ابن عيّان من الاستيلاء على بخارى في العام (٨٠٩م) ثم حاصر سمرقند، إلا أنه اخفق في احتلالها. وأفسد خططه كافة الحاكم الكارولي (جابغو). وعلاوة على ذلك، كان حمزة الخريجي قد تمرد مرة أخرى في خراسان. وفي محاولة لإخماد التمرد ورغبة في تصديع صفوفهم، أوصى الخليفة المأمون بتخفيض حجم الخراج في خراسان بنسبة الربع، الأمر الذي ساعد الخليفة الى حد ما على اخماد التمرد في خراسان. أما في ما وراء النهر فقد ظل التمرد مستمراً. وأرسل المأمون جيشاً بقيادة طاهر بن حسين الى سمرقند لمساعدة خرساما بن عيّان. وما كاد يقترب الجيش، حتى ترك جابغو مخيمه في ضاحية سمرقند واضطر رافع بن ليث المحاصر للاستسلام وتسليم نفسه الى خرساما بن عيّان وطاهر بن حسين، وسقطت

سمرقند في شهر اكتوبر عام ٨٠٩م، وتم القضاء على بقايا المتمردين في عام ٨١٠م.

في العديد من هذه الانتفاضات وحركات التمرد، وعلى سبيل المثال، كما في حركتي «حرام الدين» و«ذوي الثياب البيضاء»، لعب المزدكيون الجدد دوراً كبيراً، كما هو معلوم، حيث كانوا يرفضون الظلم الاجتماعي وعدم المساواة في المجتمع، وأركان الاسلام الخمسة: ١) الشهادة، ٢) الصلاة، ٣) الصوم، ٤) الزكاة، ٥) الحج واضافة الى ذلك، كان هؤلاء الهراطقة (المرتدون) يرجعون التعاليم القديمة التي كانت سائدة قبل الاسلام. وكانوا قد انبعثوا مجدداً منذ النصف الثاني من القرن «٨م» حينما رأى الشعب الكادح تحالف العرب والارسطقراطية المحلية. والجدير بالذكر ان زعماء هذه الحركات كانوا يؤمنون بالانبياء كافة ويتهمون أتباعهم ومشايعيهم بالمارقين المرتدين، وأعلنوا أنفسم أنبياء (المقنع)، ائمة أو خلفاء (ابو مسلم).

آثار الفتوحات العربية

وهكذا، في بداية القرن «٨» (عام ٧١٥م) استكملت، بصورة نهائية، الفتوحات العربية في آسيا الوسطى، بعد أن استمرت مئة عام ونيف (٧١٥ ـ ٨١٩م) ضمن الخلافتين الأموية فالعباسية. ودونما تحيّز، يمكننا الاعتبار أن هذه الحقيقة التاريخية كانت غزوا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ أريقت الدماء، وجرت أعمال تدميرية، وانتقصت حقوق السكان المحليين. وغدا الاسلام الدين الرسمي، واللغة العربية، اللغة الرسمية، ذلك أن الغازي او المحتل كان دائماً وفي مختلف العصور، يفرض نظمه وأفكاره على الشعوب والبلدان الخاضعة له. ولا يستثني العرب منهم. ولكن من باب العدل والانصاف ينبغي القول إنه لا مجال لمقارنة الغزوات العربية بالغزوات المغولية أو الروسية أو البلشفية. فالبلاشفة، مثلاً، نهبوا تركستان وسلبوها، ليس مادياً فقط بل روحياً أيضاً، وانتهجوا سياسة ليس فقط لتحويل هذه المنطقة الغنية مصدراً للخامات لهم، بل لإحلال ثقافتهم وعاداتهم ولغتهم في تركستان، وللقضاء قضاءً جذرياً على التراث الثقافي والتقاليد والعادات التي ورثتها الشعوب الخاضعة لسيطرتهم. باختصار، لقد حاولوا بطرق شتى حملنا

وحمل أجيالنا المقبلة على نسيان تاريخنا وحضارتنا وثقافتنا العريقة. أما الإسلام، كظاهرة اجتماعية فكرية، وكحصيلة تاريخية لتطور المجتمع منذ القرون السحيقة وحتى القرون الوسطى، وكدين حارب تعددية الآلهة وعبادة الأصنام، داعياً الى عبادة الله وحده، فقد أثبت أنه عقيدة قادرة على توحيد المدن والبلدان والقبائل والشعوب المختلفة، وأدت في نهاية المطاف الى تطوير العلاقات التجارية وغيرها من العلاقات بين الشعوب. وكان للإسلام أثر كبير في أخلاق الناس وعاداتهم، وبفضله تم القضاء على العيوب الاجتماعية كزواج المحارم، وما يسمى بطقس التطهير، أي نقل جثة الانسان المتوفى، الى مكان خاص، الى أبراج الدفن ، الى الأماكن المكشوفة على سفوح الجبال، أو الى الأماكن القاحلة المليئة بالحجارة لتأكلها السباع والطيور الجارحة. كان الاسلام وما يزال يترسخ في قلوب الناس، بفضل تعاليمه التي تحث على الاخلاق الحميدة والخير والانسانية.

أما اللغة العربية، التي أصبحت منذ مطلع القرن «٨م» لغة الدولة ولغة العلوم لدى سكان آسيا الوسطى أيضاً، فقد صارت بالتالي وسيلة التفاهم والتعامل في الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية بين جميع الشعوب، التي انضوت تحت راية الاسلام. فبواسطة اللغة العربية، بالتحديد، استطاعت شعوب آسيا الوسطى الاطلاع على مؤلفات علماء اليونان القدماء: اقليدس، افلاطون، جالينوس، ابقراط والرياضيات الهندية، ونظام الكسور العشرية، وتعاليم أفلاطون وأرسطوطاليس الفلسفية. وبفضل الاختلاط بالعرب والاحتكاك بهم استطاع سكان آسيا الوسطى، والاوروبيون أيضاً، الاطلاع على الاختراعات الصينية الباهرة كالبوصلة وملح البارود والورق. كما أن الابداعات الجليلة لاجدادنا ـ احمد الفرغاني، والخوارزمي، وابن سينا والبيروني والفارابي وغيرهم ـ تمكنت من الظهور الى حيز الوجود، بفضل اللغة العربية، التي بواسطتها تمكنوا من الاطلاع على أعمال علماء اليونان والهند الأقدمين ومؤلفاتهم.

إن علم تدوين التاريخ لدى العرب، الذي تطور بناءً على دراسة سيرة النبي

محمد (صلى الله عليه وسلم) وأعماله وتصنيفها، كان حافزاً هاماً لتطور الفكر التاريخي في آسيا الوسطى. ومن المؤلفات في التاريخ التي وضعها العلماء المحليون باستطاعتنا أن نذكر ما يلي: «تاريخ اليميني» ـ العتبي، «أثر الباقين»، «هندوستان» و«كتاب المسامرة وأخبار خوارزم» ـ البيروني، «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي» ـ شهاب الدين النسوي وغيرها من الكتب الكثيرة.

وفي عهد العرب ازدهر فن بناء المساجد، والمدارس، والمآذن والقصور وفن الديكور التطبيقي. وكانت مساجد: «الأقصى ـ في القدس، ٦٩٢»، «الأموي ـ في دمشق ق ـ ٨»، ومساجد سامرّاء وقصورها ـ العراق، «وقصر قصير عمرة» ـ سوريا، من النماذج التي يقتدى بها في بناء المساجد والقصور التي بنيت فيما بعد في آسيا الوسطى.

دولة السامانيين

الأحداث السياسية الرئيسية

السامانيون إحدى الأسر الحاكمة العديدة (ملوك الطوائف)، التي تولت الحكم بعد سقوط الخلافة العباسية، التي بدأ تفككها وانحلالها، كما هو معلوم، منذ الربع الأول من القرن «٩م» واستمر على هذا النحو. ونتيجة لذلك جاء الطاهريون (٨٢١ ـ ٨٧٣م) الى الحكم في سيسان، والسامانيون (٨١٩ ـ ١٠٠٥م) في بلاد ما وراء النهر وخراسان، وحتى الأمس القريب، كانوا يخدمون الخليفة بأمانة واخلاص. وانهارت الخلافة العباسية وسقطت تماماً في الربع الأول من القرن «١٠م» بنشوء الكثير من الأسر الحاكمة المستقلة في الجزئين الشرقي والغربي من الخلافة. فمثلاً انتقلت بلاد ما بين النهرين الى الهمذانيين (٩٠٥ ـ ١٠٠٤م)، ومصر وسوريا الى الاخشيديين (٩٣٥ ـ ٩٦٩م)، وايران الغربية الى البوندام (٩٣٢ ـ ١٠٦٢م)، أما طبرستان وجرجان فقد انتقلتا إلى الضيائيين المنتمين الى الاسرة الدليمية المحلية (٥٢٧هـ ـ حوالي ١٠٩٠م). وبحسب التعبير المجازي للمؤرخين، لم يبق للخليفة سوى بغداد وجزء من بابل. صحيح أن جميع الحكام المحليين الذين تولوا الحكم، استمروا في الاعتراف بالخليفة باعتباره السلطة العليا (كانوا يذكرون اسمه في خطبهم، وينقشون اسمه على النقود الى جانب اسمائهم، ويشترون له الكساء والحلي، وأحياناً يرسلون له الهدايا الثمينة ويُعربون عن خضوعهم له وانضوائهم تحت لوائه)، الا أن تبعيتهم لبغداد كانت شكلية بحتة. فقد كان الخليفة يعتبر رئيس البلاد اسمياً فقط ولا يتمتع بأي سلطة فعلية.

كانت دولة السامانيين من اكبر الدول التي اقيمت على الجزء الشرقي من حطام الخلافة المتفتتة.

كان مؤسس هذه الدولة يدعى سامان خودات، من قرية سامان التابعة نقلاً عن أ. أ. سيمينوف ـ لبلخ. وكان يحظى بحماية والي خراسان العربي، أسد بن عبد الله (٧٢٥ ـ ٧٢٧، ٧٣٥ ـ ٧٣٨م). وكان المأمون قد احسن الى ابنه اسد ـ ابن سامان ـ حينما كان الاول والياً على خراسان (٨٠٩ ـ ٨١٣م). كما أحسن الى أبناء أسد: نوح، وأحمد، ويحيى والياس. وفي عام ٨٢٠م عين الثلاثة في بلاد ما وراء النهر، إذ عين نوحاً حاكماً على سمرقند، وأحمد حاكماً على فرغانة، ويحيى على شاش وأستروشانا. أما الياس فعين حاكماً على هراة. إلا أنهم كانوا تابعين لبني طاهر. ورغم ذلك، كان الأمراء السامانيون يشعرون بالاستقلال والحرية التامة، حتى إنهم كانوا يصكون النقود باسمائهم، ولهم قواتهم العسكرية الخاصة، ويضاعفون قواهم ويجمعون الثروات. كما إنهم كانوا، علاوة على ذلك، يغزون الاراضي المجاورة لهم دون الاستئذان من الخليفة أو من واليه على خراسان، يعقوب بن ليث (من بني طاهر). وهكذا، قام، في العام ٨٤٠م، حاكم سمرقند، نوح بن اسد، بحملة مظفرة على اتراك ما وراء سرداريا وبلغ ايسفيجاب (سيرام). وبعد وفاة نوح بن أسد (عام ٨٤١م)، قام والي خراسان، عبد الله بن طاهر (من بني طاهر)، بمنح سمرقند ومحافظتها الى أخوي نوح، أحمد ويحيى، وبعد ذلك آل حكم سمرقند الى ناصر بن احمد. وسرعان ما برز يعقوب الابن الآخر لأحمد، وانتقلت الى حكمه منطقتا شاش واستروشانا.

وفي القرن «٩م» ازداد الانقسام الاقطاعي حدة ولم يبق في يد ناصر بن أحمد (٨٦٥ ـ ٨٩٢م) سوى سمرقند، أما فرغانة، فكانت تحت حكم أبي الاشعث يعقوب (ابن احمد ايضاً).

وكان اسماعيل (٨٩٢ ـ ٩٠٧م)، الابن الخامس لأحمد، من أبرز أفراد الأسرة السامانية، فاستطاع القضاء على الصراع الداخلي والنزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، وحركات العصيان في قرى بخارى، ومنها باركاد وراميتان... وتوحيد ما

وراء النهر تحت لوائه. وفي عام ٨٩٣م بسط نفوذه على «تارون» و«داخونجينت» ووادي تالاس الغني بمناجم الفضة. وذكر المسعودي انه أسر آنذاك ١٥٠٠٠ شخص، كان بينهم زعيم الكارلوك. وكانت الغنائم التي استولت عليها قوات اسماعيل كثيرة جداً لدرجة أن حصة كل مقاتل منها بلغت ١٠٠٠٠ درهم. وفي السنة نفسها بسط اسماعيل سلطته على أستروشانا ايضاً.

ما من شك أن ازدياد قوة السامانيين في بلاد ما وراء النهر وتناميها، وتعاظم بأس بني الصفّار (حوالي ٨٦٧هـ، ١٤٩٥م) في سيستان وخراسان، هي أمور كانت تثير الارتياب والقلق في بغداد. فقرر الخليفة اثارة الخلاف والنزاع بين اسماعيل وعمرو بن ليث (٨٧٩ ـ ٩٠١م). ولهذا الهدف قام الخليفة المعتضد (٨٩٧ ـ ٩٠٢م)، في العام ٨٩٨م، بعزل اسماعيل، وأرسل كتاباً الى عمرو بن ليث (من بني طاهر) يعينه بموجبه حاكماً على بلاد ما وراء النهر. فوافق عمرو على تعيين الخليفة له، وسار بجيش جرار ضد اسماعيل، إلا أن الحاكم الساماني اسماعيل اعترض سبيله عند النهر، وبفضل تدابيره الحاسمة، استطاع نقل مسرح الأحداث العسكرية الى الضفة اليمنى لنهر اموداريا. وخلال معركتين (الاخيرة قرب بلخ ربيع عام ٩٠٠م) ألحق هزيمة ساحقة بخصمه. أما عمرو بن ليث نفسه، فأسره اسماعيل وأرسله الى بغداد، تعبيراً عن استهزائه بمدبر هذه الحرب. وعقب انتصار اسماعيل انتقلت أملاك بني الصفار الى السامانيين، الذين غدت حدود بلادهم في خراسان تمر في الري وقزوين.

بعد وفاة اسماعيل، خلفه ابنه أحمد الثاني (٩٠٧ ـ ٩١٤م)، إلا أنه لم يكن سياسياً محنكاً مثل أبيه، بل كان انساناً تقياً ورعاً ومولعاً بالثقافة العربية. وفي عهده عظم دور اللغة العربية والمسؤولين الذين يتقنون هذه اللغة في القصر. وأدى ذلك الى استياء الأوساط الثقافية الطاجيكية، ولا سيما الحرس التركي. واضافة الى ذلك، اندلعت حركات العصيان والثورات في أقاليم البلاد، وانتهت بمقتل أحمد الثاني على أيدي المتآمرين، الذين كان يتزعمهم الحرس التركي.

وقام رجال الدين المسلمون والقادة العسكريون الأتراك بتولية ناصر الثاني

(٩١٤ - ٩٤٣م)، ابن أحمد الثاني، ابن اسماعيل وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره. وبما أن الأمير لم يكن قد بلغ سن الرشد، فقد استلم زمام الحكم الوزير المشهور بحنكته ومراسه، أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، الذي بذل قصارى جهوده لتوطيد الأمن والاستقرار والنظام في البلاد، ونجح في القضاء على حركة التمرد التي قام بها أبو صالح منصور بن اسحق في سمرقند، ولكن الثورات والانتفاضات أخذت تندلع تباعاً في الأقاليم الأخرى. وفي تلك السنة (٩١٤م) اندلعت انتفاضة حسين بن علي مركزي، ولم يُقض عليها إلاّ في العام ٩١٨م. ولم تمض سنة، حتى قامت ثورة تزعمها أحمد، الشخصية الاقطاعية الكبيرة، وذو النفوذ. لم تكن الثورات والانتفاضات مقتصرة على المركز، بل كانت تحدث في الاقاليم الشرقية من البلاد ايضاً. فمثلاً، جرت انتفاضة الياس بن اسحق في عام ٩٢٢م.

واخذت حركة لقبت بالقرامطة، تقوّض أركان الدولة السامانية من داخلها، وهي حركة اجتماعية موجهة ضد الاسلام القديم، تدحض فكرة اضفاء الطابع الاقطاعي على المجتمع، وتحمل رايتها شعاراً ينادي باحياء تقاليد الماضي والعودة الى المشاعية الريفية. وانضم الى الحركة فئات متعددة من طبقات المجتمع: الريفيون، الذين كانت شائعة بينهم فكرة إعادة المشاعية الريفية وتحديد طبقات المجتمع المدني. وكانت فكرة حركة القرامطة تحظى بدعم الأمير نفسه، الأمر الذي أثار سخط رجال الدين المسلمين وزعماء الحرس التركي، وأدى بالتالي الى اضطرار ناصر الثاني ابن احمد إلى اعتزال العرش. ثم قيد بالسلاسل وسجن في القلعة.

اعتلى ابن ناصر الثاني نوح الأول العرش (٩٤٣ - ٩٥٤). امتاز عهده بحملته الشديدة على القرامطة في كل مكان. أما زعيم حركة القرامطة، محمد بن أحمد ناخشاتي فقد ألقي القبض عليه وأعدم شنقاً بناء على أمر من الأمير. الا أن نوحاً الأول اخفق في القضاء كلياً على القرامطة، الذين استمرت حركتهم مدة طويلة في بلاد ما وراء النهر وخراسان.

وفي عهد نوح الأول ابن نصر، بالتحديد، ظهرت أمارات انحلال دولة السامانيين وانهيارها. وإبّان حكمه نهبت خزينة الدولة، ما أدى الى أزمة مالية حادة،

غدت معها الدولة عاجزة عن دفع رواتب الموظفين والحرس، الأمر الذي أثار سخطهم. وكما هو متبع في مثل هذه الاحوال، فقد قررت الدولة حل هذه الأزمة بزيادة حجم الضرائب وابتزاز الأموال. واضافة الى ذلك، لجأ الجباة إلى جباية الضرائب مسبقاً وقبل حلول موعدها. وفي هذا الصدد، ذكر المقدسي قائلاً: «انه في عهد حكم نوح بن ناصر، جبيت مسبقاً ضرائب سنة على شكل قروض، ولم تقم الدولة بتسديدها». أدت هذه العوامل كلها مجتمعة الى سخط جماهير الشعب. وحدثت حركات تمرد وعصيان. استغل أبو علي تشاغاني، حاكم خراسان، هذه الأمور كلها وقام في عام ٩٤٧م بالاستيلاء على عرش سمرقند. اما الأمير، فلم يلق دعماً من المسؤولين الكبار ولا من الجيش، وبعد أن تخلى الجميع عنه، اضطر نوح الاول للفرار الى سمرقند. وبعد ذهاب أبي علي تشاغاني الى خراسان، عاد نوح الاول الى بخارى ليعتلي العرش مجدداً، لكنه فشل في القضاء على الاقطاعيين الانفصاليين، ومنهم أبو علي تشاغاني الآنف الذكر. واستمر الاقطاعيون في نهجهم الانفصالي حتى في عهد الخليفة عبد الملك (٩٥٤ ـ ٩٦١م)، ابن نوح الاول وولي عهده.

وفي عهد عبد الملك بن نوح الاول فقدت السلطة المدنية قوتها وفعاليتها، وانتقل زمام الحكم كلياً الى يد القادة العسكريين الأتراك في شخص «حاجب بوزورغا، أي الحاجب الكبير». وعلاوة على ذلك، ونقلاً عن المؤرخ «نرشخي»، انه ما كاد يموت عبد الملك بن نوح الأول (٢٠ نوفمبر ٩٦١م)، حتى بدأت حركات التمرد في صفوف الجيش، وشملت حركات العصيان البلاد، ونقلاً عن المؤرخ: «كان كل والٍ يتصرف وكأنه ملك». وحول ذلك أيضاً، جاء في كتاب العتبي، مثلاً: «كانت غالبية الاقاليم تحت سلطة المتمردين، وتقلصت ايرادات الحكومة ومداخيلها، وتجرأ العسكريون على مضايقة السكان، وانتقلت السلطة الى الاتراك، ولم تعد قرارات الوزراء سارية المفعول. باختصار، إنه نتيجة لتفاقم الصراع بين الاقطاعيين، حتى أواسط التسعينات (ق١٠م)، فقدت دولة السامانيين الكثير من أملاكها: كوهستان، وساغانين، وبلخ، وهرات وخوارزم. وفي عام ٩٨٧م، وقعت جميع الاقاليم، الواقعة جنوب أموداريا تحت حكم الأمير التركي ابي علي بن أبي الحسن سيمجوري، ثم

وقعت منذ العام ٩٩٧م تحت حكم سابوك ـ تيغين، مؤسس أسرة الغزنويين الحاكمة. كما فقد السامانيون السلطة على أقاليم سرداريا التركية: اسفيجاب، ميرك وغيرهما.

وإبان حكم خلفاء عبد الملك: منصور الأول (٩٦١ ـ ٩٧٦م)، نوح الثاني (٩٧٦ ـ ٩٩٧م) وغيرهما، جرت حركات تمرد وعصيان شعبية، أجهزت كلياً على الدولة السامانية المتداعية. وفي إحدى هذه الحركات جرى إحراق قصر أمير بخارى الرائع.

لدى التطرق الى زوال الدولة السامانية، ينبغي ألاّ ننسى الدور المهم للحركة العدوانية التركية القاراخانية من ناحية كاشغار وسيميريتشي، التي عجلت في عملية انتهاء دولة السامانيين.

على أن السبب الرئيسي لسقوط الدولة السامانية يكمن في جوهر المجتمع نفسه: اولاً، في تطور النظام الاقطاعي، وفي ظروف التحول الاقطاعي المطّرد للمجتمع، الأمر الذي عزز الاتجاه نحو استقلالية الاقطاعيين. ثانيا، دعم حركة القرامطة والإفراط في الاهتمام بالحياة العلمانية في الوقت نفسه، ثالثاً، فقد السامانيون تأييد رجال الدين المسلمين.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية

كانت الطبقة السائدة في المجتمع تتألف من الأمراء السامانيين وأعضاء أسرهم، والشيوخ الاقطاعيين، وكبار رجال الدين، وكبار رجال الحرس التركي (القادة العسكريين)، أمثال: الب ـ تيغين، وسابوك ـ تيغين، وأبي علي سيمجوري، فايق وغيرهم، وكبار التجار. وكانت الطبقة السائدة، المستولية على الأراضي الشاسعة ومصادر المياه والثروات المحلية، تستغل الكادحين بصورة وحشية: الفلاحين والشركاء وفقراء المدن، وتعيش في رفاهية على حساب كدهم وجهدهم. لقد لعب الوجهاء الاقطاعيون دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية السياسية، وكانوا يتألفون من رجال الدين المسلمين، ومن كبار رجال الحرس التركي بشكل خاص، أمثال الب ـ

تيغين الآنف ذكره، والذي عين حاكماً على خراسان إبان حكم نوح الاول. وكان الب ـ تيغين، كما تشير المصادر التاريخية، يتمتع بثروة طائلة، أتاحت له القدرة على تقرير مصير دولة السامانيين. وذكر المؤرخ المشهور نظام الملوك، في كتابه «سياسة نامه» ما يلي: «كانت له (أي الب ـ تيغين ب.أ) في خراسان وما وراء النهر، أملاك وعقارات في ٥٠٠ قرية، ولم تكن ثمة مدينة إلا وله فيها قصر، وبستان، وخان وحمّام، كذلك كان لديه العديد من مخازن الحبوب. وفي عهد السامانيين كان يملك الآلاف من رؤوس الغنم، ومئات الألوف من الخيل والجمال والبغال. كما تجدر الأشارة إلى ما ذكره «نظام الملوك» فيما يتعلق بهذا الرجل ذي الشأن العظيم، إذ قال: «لما توفي أمير خراسان، نوح بن منصور، كان الب ـ تيغين في نيسابور. وكتب المقربون من الأمير (نوح بن منصور) رسالة من العاصمة بخارى، موجهة الى الب ـ تيغين جاء فيها: «لقد توفي أمير خراسان (وما وراء النهر)، وبقي من بعده أخوه (٣٠ سنة) وابنه (١٦ سنة)، وسنُجلس على عرش البلاد أيهما تراه جديراً، إذ إنك ركيزة البلاد». فكتب الب ـ تيغين رسالة جوابية بعثها مع الساعي، وجاء فيها: «كلاهما جدير بالعرش والملك، ... إلا أن الأخ، رجل بالغ وذو خبرة ومراس... أما الابن، فما يزال صغيراً، لا حنكة له... أرجو إجلاس الأخ على العرش». وهكذا نستنتج من هذه الفقرة المشار اليها اعلاه، ان القادة العسكريين الاتراك كانوا، بفضل ثرواتهم الطائلة وسيطرتهم على الجيش، يلعبون دوراً حاسماً في شؤون إدارة دولة السامانيين.

في أيام حكم السامانيين في خراسان وما وراء النهر، كانت ملكية الاقطاعات على النحو التالي:

الملك السلطاني (أو ملك المملكة): الأراضي والأملاك الأخرى العائدة للأمير (أو الحاكم) نفسه، كانت أكبر حجماً من غيرها، يقوم على خدمتها عامة سكان الريف بموجب نظام حصة الايجار، ويشرف على إدارتها ديوان خاص بالضرائب والغرامات النقدية يُعرف بديوان الدِّيَة.

أراضي الملكية الخاصة (الملك): وتتألف من الاراضي التابعة لأفراد الأسرة الحاكمة، الدهاقنة (الاقطاعيين)، السادة، ممثلي الحرس التركي وكبار التجار.

أراضي الأوقاف (الوقف): وهي الأراضي والعقارات الأخرى (الحوانيت، «المتاجر» والمطاحن الخ...) الممنوحة لمالكيها لخدمة المؤسسات الدينية، والمساجد، والمدارس والمزارات الاسلامية، والخاناقات (مأوى الدراويش).

الاراضي العامة: وتعود ملكيتها لعامة أهل الريف (المراعي، والغابات الخ.) وكانت هذه الأراضي كافة، تنقسم، من حيث الضرائب المفروضة عليها، الى ما يلي:

- ملك الخراج (أراضي الخراج): تشمل «الملك السلطاني» أراضي الملكية الخاصة (الملك)، وقسماً من أراضي الأوقاف. وكان حجم الخراج يقدر بناءً على مدى خصوبة الأرض، وموقعها من المدينة، وحجم الايرادات التي تم الحصول عليها.

- ملك حر خالص (الاراضي المبيّضة): وهي معفية من الضرائب جزئياً أو كلياً، وتشمل أراضي السادة، كبار علماء المسلمين وغيرهم من ذوي الامتيازات.

- أراضي الاقطاع: وهي الأراضي المقتطعة من (الملك السلطاني) والممنوحة لأبناء الأمير أو الملك ولكبار رجالات الدولة والقادة مقابل الخدمات الجليلة التي قدموها للعرش. كان الاقطاعيون، يتمتعون بحصانات تعفيهم من الضرائب وتخوّلهم البت في المسائل القضائية. وبعبارة أخرى، كان يحق لهم الاحتفاظ لأنفسهم بجزء من إيرادات أراضيهم او بأكملها، ومحاكمة المواطنين والبث في قضاياهم.

إن غياب العمليات العسكرية الكبيرة في منطقة ما وراء النهر، والاستقرار النسبي في البلاد، وتنسيق الجهاز الحكومي المركزي، هي عوامل ساعدت على التطور الاقتصادي والصناعي والتجاري والثقافي.

في مناطق البلاد الرئيسة مثل وادي زرافشان وفرغانة، وشاش وايلاك وخوارزم، ونقلاً عن المقدسي والاسطخري وابن حوقل وغيرهم من الجغرافيين الناطقين باللغة العربية، فإن الزراعة والبستنة كانتا متطورتين، واشتهرت هذه المنطقة بزراعة القرعيات والحبوب كالقمح والشعير والأرز والدخن والعدس والحمص والبازيلا والسمسم والقنب والقطن والعنب والرمان والكرز والتفاح

والسفرجل والخوخ والتين والبطيخ بنوعيه الأحمر والأصفر... إلخ.

وكانت الصناعات اليدوية والتجارة تحتل مكانة في اقتصاد ما وراء النهر وخراسان، يمارسها سكان القرى والمدن على حد سواء. كانت الصناعات متطورة ولا سيما في مدن البلاد الكبيرة: بخارى، وسمرقند، وشاش، وجرجيانج، وبلخ، هرات، ومرو، ونيسابور وغيرها. ودون الاسهاب في التفاصيل، نقول باختصار ان الصناعات في آسيا الوسطى كانت تفي بحاجات السوق المحلية، وترسل المصنوعات الى الأسواق الخارجية. وكانت الصادرات تحتل مكانة هامة في التجارة، وذلك يؤكده ما ذكره المقدسي عن قائمة الصادرات التي أوردها قائلاً: «أمّا فيما يتعلق بالبضائع، فتصدر منها ما يلي:«من ترمذ ـ القوارب والصابون وطرحات العرائس، ومن بخارى ـ الاقمشة الناعمة، والسجاجيد، والبسط، وأقمشة لتغطية أرضيات الأنزال (جمع نزل)، والمصابيح النحاسية، وأحزمة السروج، والأقمشة الأشمونية، والشحوم، وأصواف الغنم، وزيوت الشعر، ومن كيرمين ـ المناشف، ومن دبوسيا وورذار[1] ـ الأقمشة الودارية التي تبدو وكأنها مصنوعة من قطعة واحدة. وسمعت أحد السلاطين في بغداد يقول عنها «ديباج خراساني»، ومن رابينجان[2] ـ معاطف من فراء الضأن حمراء اللون، وسجاجيد للصلاة و أوانٍ من القصدير، جلود، قنب متين وكبريت، ومن خوارزم ـ فراء السمامير والقاقوم والقندس والظرابين وبنات عرس، والسناسير والثعالب والأرانب والماعز، والشمع، والسهام، وقشرة البتولا، والقبعات المدببة الرؤوس، وصمغ السمك، وزيت الخروع، وأسنان السمك، وعنبر، وجلود خيول مصنعة، وعسل، وجوز مقشر، وصقور وسيوف ودروع، وقشرة شجر الجلبخ، والعبيد السلاڤيين والأغنام والبقر ـ كل هذه الأشياء كان الخوارزميون يحصلون عليها من بلغار ـ، وعلاوة على ذلك، العنب، والزبيب، والكعك باللوز، والسمسم، والجوخ المقلم، والبسط، وقطع كبيرة من الجوخ والخيش مخصصة للهدايا، واغطية من قماش الملحم، والقفول، وأقمشة أرانج، ورماح، ومصول،

---

[1] ـ دبوسيا و وردار ـ قريتان تابعتان لسمرقند.

[2] ـ مدينة من مدن القرون الوسطى شمال غرب سمرقند. وتبعد عن كوشاني بفرسخين.

واسماك، وقوارب. ومن سمرقند ـ أقمشة فضية (سمغون)، وقدور سمرقندية كبيرة نحاسية، وكؤوس رائعة، وخيام، وركُب الجياد، ولجامات، وأحزمة، ومن جيزاك ـ أصواف وملابس صوفية فاخرة، ومن بيكانات ـ اقمشة تركستانية، ومن شاش ـ سروج عالية من جلود الخيول، وجعاب،وخيام، وجلود مجلوبة من بلاد الاتراك(مجزأة)، ومماطر، وسجاجيد للصلاة، وكتيفات، وقمح، ورماح ممتازة، وابر، وأقمشة قطنية مرسلة الى الاتراك، واقمشة حمراء مشهورة بالاقمشة المرجلة، والأقمشة السميكة، والحرير والملابس الحريرية، والجوز المقشور وغير المقشور، ومن فرغانة واسفيجاب ـ العبيد الاتراك، والاقمشة البيضاء، والمعدات الحربية، والسيوف، والنحاس، والحديد، ومن ترمذ ـ صوف الماعز، ومن شيلجي ـ الفضة، ومن تركستان كانت تساق الى هنا الخيول والبغال وهكذا ايضاً من «ختّال». لا مثيل للحوم البخارية، والبطيخ البخاري الأصفر المعروف باسم «الشاك»، والسهام الخوارزمية، والأواني الشاشية «المصنوعة في شاش»، والورق السمرقندي». وكان ابن حوقل، لدى اشارته الى السلع المستوردة من آسيا الوسطى، قد أشار، بشكل خاص، الى القماش الورداري[٣] الذي أشار إليه المقدسي آنفاً. ونقلاً عن المؤرخ ابن جوقل، كان هذا القماش يلبس «قطعاً كاملة دون قص». «ولا يوجد في خراسان أمير أو وزير أو قاض أو ثري أو إنسان بسيط أو مقاتل ـ يستطرد ابن حوقل ـ إلاّ وارتدى الأقمشة الوردارية فوق ثيابه الشتوية. كان ذلك يعتبر نوعاً من الاناقة واللياقة، إذ كان لون القماش مائلاً الى الصفرة، والقماش نفسه كان ناعماً مريحاً وسميكاً، ويبلغ ثمن القطعة منه من دينارين الى عشرين ديناراً. وغير مرة ارتديت مثل هذا القماش (خلال) خمسة أعوام. كانت ترسل الطلبات من العراق، وتصدر مثل هذه الاقمشة الى هناك، حيث يتباهون بارتدائها». وتجدر الاشارة هنا الى ما ذكره المؤرخ نرشخي عن ورشة التطريز بالذهب (بيت الطراز ـ بيت الشعوب) في بخارى، الواقعة بين القلعة وشهرستان، قرب الجامع، والتي (أي الورشة) كانت تنتج البسط الفاخرة، والستائر، وسجاجيد الصلاة والثياب الفخمة المطرزة بالذهب. وكما نرى من الحديث اللاحق، فقد كانت هذه الورشة تعمل خصيصاً لتلبية حاجات القصر.

---

٣ ـ الورداري ـ نسبة إلى قرية وردار القريبة من سمرقند.

وفي ق ٩ ـ ١٠م، كانت بلاد ما وراء النهر مشهورة في «صناعة» التعدين أيضاً، إذ ذكر الجغرافيون العرب (الاسطخري، وابن حوقل، والمقدسي وغيرهم) أنه كانت تستخرج الفضة، والكبريت، والرصاص، والذهب، والنحاس، والفيروز، والحديد الخام، والفحم الحجري، والنفط، والملح وغيرها من المعادن.

كانت مدن آسيا الوسطى، في تلك الفترة، ذات صلة تجارية ببلدان الشرقين الأدنى والأوسط وحوض الفولغا والصين، حيث كانت تذهب إليها وتأتي منها القوافل التجارية. وفي هذا الصدد، نجد مواد غنية في مؤلفات خورداذبيخ، والمسعودي، وابن فضلان، وغارديزي وغيرهم، وكذلك في مواد الحفريات الأثرية، التي جرت في العصر الحديث في خوارزم وحوض الفولغا وجنوب أوزبكستان.

نظام الحكم في دولة السامانيين

بسط السامانيون سلطتهم على مساحات شاسعة (ما وراء النهر وخراسان وحتى الري وقزوين) بمساعدة جهاز حكومي ضخم جيد التنسيق.

كان على رأس الدولة أمير يتمتع بسلطة مطلقة لا حدود لها ولا يشعر بالمسؤولية إلا أمام الله. أما عن نظام الدولة الاداري، فقد تحدث عنه بمزيد من التفصيل الاكاديمي ف. ف. بارتولد، وكان على النحو التالي:

الهيئة الادارية، وكانت تتألف من قسمين: قصر الحاكم الأعلى (دارغاخ)، والدواوين الحكومية.

قبل التطرق إلى بنية الـ (دارغاخ) وواجباته، و الدواوين، نود التنويه بالدور المهم الذي لعبه حرس الأمير الخاص في الحياة الاجتماعية السياسية. قوام الحرس من الغلمان الأتراك ورئيسهم. وهؤلاء تمتّعوا بمناصب حكومية مهمة، يحصل عليها الغلمان الاتراك بعد سنوات طويلة من الخدمة بجد ودأب. واليك كيف كانت تبدو عملية خدمة الغلمان الاتراك في الوصف المفصل الذي أورده نظام الملوك في كتابه «سياسة نامه»: «درجت العادة منذ أيام السامانيين، على اتباع القاعدة التالية: كانت ترقية الغلام تتم تدريجاً ووفق حجم عمله وخدماته وجدارته. وبعد شراء الغلام،

كانوا يأمرونه بالخدمة في المشاة مدة سنة ويمشي (على الاقدام) ضمن الحاشية، مرتدياً «كابا»[٤] من صنع «زنداناتشي»[٥]. وبذلك كانوا يمنعون الغلام من امتطاء الخيل، سراً أو علانية، طيلة هذه السنة. واذا اكتشفوا مخالفته هذا المنع عاقبوه[٦]. ولدى خدمته تلك السنة على هذا النحو، كان الـ «فيساك ـ باشي» يخبر الحاجب[٧]، ويأمر الأخير له بفرس تركي ذي لجام وحزام عادي بسيط. وبعد مرور سنة على خدمته ممتطياً جواده وحاملاً السوط، كانوا يمنحونه «كاراجور»[٨] ليتمنطق به. وفي السنة الخامسة كان يمنح سرجاً افضل ولجاماً مزوّداً بنجوم، «وكابا» من صنع داراي وصولجاناً ليعلق على الطوق. وفي السنة السادسة كان يتلقى ثياباً ولقباً، وفي السابعة خيمة ذات رأس واحد و١٦ إسفيناً، وكان يُقبل في مجموعته ثلاثة غلمان، ويطلق عليه لقب «فيساك ـ باشي». كان يعتمر قبعة لبادية سوداء مطرزة بالفضة، «وكابا» غانجية».

وهكذا، ومع مرور كل سنة، كانت تزداد مكانته وزينته و يزداد عدد مجموعته وتعلو رتبته حتى يصبح «خيل باشي»[٩] ومهما بلغت مكانته وخدماته ومآثره، كان يمتاز بلطفه مع الناس وولائه لسيده، ولا يمنح منصب الامارة ولا يحصل على ضيعة الا بعد بلوغه السابعة والثلاثين من عمره.

أما الآن فسنتحدث عن الرتب والألقاب وواجبات حامليها.

يعد منصب الـ «حاجب بوزورغ ـ الحاجب الكبير» من أول المناصب المهمة لرجال الحاشية او البلاط في حياة الغلام التركي وفي واجباته. وهذا المنصب يلقي

---

٤ ـ كابا ـ ثياب فوقية تشبه القمصول.
٥ ـ زاندانانتشي ـ قرية تابعة لبخارى.
٦ ـ فيساك ـ باشي ـ آمر صغير مسؤول عن ثلاثة غلمان.
٧ ـ حاجب ـ اعلى رتب الغلام ـ الحارس.
٨ ـ كاراجور ـ سيف طويل.
٩ ـ خيل باشي ـ الرتبة التي تلي الحاجب.

على عاتقه مسؤولية الاشراف على رجال البلاط كافة. أما المتفوقون منهم، فكانوا يعينون حكاماً لبعض الاقاليم.

وكان المنصب الثاني من حيث الأهمية، بعد الـ «حاجب بوزورغ ـ الحاجب الكبير» منصب «صاحب ـ حرس (قائد حرس البلاط)». وكما هو معروف، كان هذا المنصب موجوداً في عهد الأمويين والعباسيين، وبموجبه ينفذ قائد حرس البلاط أوامر الحاكم الأعلى. واليك ما ذكره نظام الملوك عن صاحب هذا المنصب وواجباته: «كان منصب أمير الحرس، دائماً، من أهم المناصب بعد منصب الأمير والحاجب الكبير، ففي البلاط لم يكن هناك من هو أعلى منصباً من أمير الحرس، ذلك أن لمنصبه علاقة بالتنكيل... وكان لدى أمير الحرس دائماً طبل وعلم ونوبة حراسة. حتى ان الناس كانوا يهابونه أكثر مما يهابون السلطان». ويقول نظام الملوك نقلاً عن الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) إنه قال: «لديّ أميرا حرس. وكلاهما لا شأن له، منذ الفجر وحتى الليل، سوى قطع الرؤوس والأيدي والأرجل والضرب بالهراوات والزج في السجون».

وكان يدير الشؤون الاقتصادية لـ «الدارغاخ» رجل بمنصب «وكيل». وفي هذا الصدد، يقول نظام الملوك موضحاً: «كان هذا المنصب يناط دائماً برجل ثقة مشهور، يعهد اليه بشؤون المطبخ، وقبو الخمر، والاسطبل، وقصور السلطان وأبنائه ورجال البلاط، ويتوجب عليه الحضور شهرياً وأحياناً، يومياً، الى المجلس السلطاني الرفيع والتحدث إليه والمثول دائماً لتقديم التقارير، وإبداء رأيه فيما يجري في البلاد وتقديم كشف بكل ما يقدمه ويحصل عليه الى المقام السامي.

المنصب الرفيع التالي ـ خوجائي بوزورغ (السيد الكبير)، وهو رئيس الاجهزة البيروقراطية ورجال القصر كافة.

وعلاوة على ذلك، كان في الـ«الدارغاخ» عدد كبير من المستخدمين الصغار مثل الخدم والبوابين والحشم والفراشين ...الخ.

وكانت ادارة هذا الجهاز البيروقراطي بكامله تتم بواسطة عشرة دواوين منتشرة حول ريجيستان بخارى. ونقلاً عن المؤرخ نرشخي، فإنها كانت تتألف من

الدواوين التالية:

١ ـ ديواني وزير: أي ديوان كبير الوزراء.

٢ ـ ديواني ـ مستوفي: ديوان خزينة الدولة أو الادارة المالية.

٣ ـ ديوان عميد الملك: ديوان عماد الدولة، أي ديوان العلاقات الخارجية أو ديوان الإنشاء.

٤ ـ ديواني ـ صاحب شورات: ديوان قائد الحرس الأميري، أي المؤسسة العسكرية.

٥ ـ ديواني صاحب بريد: ديوان الخدمات البريدية، أي مؤسسة المواصلات.

٦ ـ ديواني مشرف: الديوان السلطاني (أو الأميري) الخاص للرقابة، ومن ضمن واجباته «معرفة كل ما يجري في الـ «دارغاخ ـ قصر الحاكم الأعلى» وإطلاع (السلطان والأمير) بذلك عند الضرورة».

٧ ـ ديوان الضِّياع: ديوان يشرف على إدارة ضياع الامير أي ملك السلطان وعقاراته.

٨ ـ ديوان المحتسب: الديوان الحكومي لمراقبة النظام في الطرق والأماكن العامة.

٩ ـ ديواني وقف: ديوان يشرف على أملاك الأوقاف وعقاراتها.

١٠ ـ ديوان القضاة: مؤسسة حقوقية (المحكمة العليا).

وفي الحقيقة كانت ثمة مناصب: الوزير الاعظم، والوزير، مستوفي مماليك (كبير المستوفين) ومستوفي، وعميد الملوك، وصاحب شورات، وصاحب بريد، ومشرف، قاضي القضاة والخ... وفي الاقاليم المحلية، كانت السلطة بيد الـ «سيناخ سالار» كبار القادة العسكريين (في الأقاليم الكبيرة) وبيد الحكام (في المناطق الإدارية الصغيرة).

تطور العلوم والثقافة

إن مركزة البلاد، والنهضة الاقتصادية والسياسية ، قد ساعدتا على تطوّر العلوم والثقافة في بلاد ما وراء النهر وخراسان في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

والدليل على تطور العلوم أن صفحات التاريخ احتفظت باسماء الكثير من العلماء البارزين، الذين تركوا من بعدهم مؤلفات ضخمة قيمة في مختلف فروع العلوم في القرون الوسطى: التاريخ، والفلسفة، والادب، والفقه، والرياضيات، والفلك والطب.

ومن المؤرخين نذكر أبا علي حسين بن أحمد السلامي، صاحب «كتاب في أخبار ولاة خراسان» الذي كان واحداً من المصادر التي اعتمد عليها غرديزي (ق- ١١م) في تأليف كتابه «زين الاخبار»، و ابن الاثير (١١٦٠ - ١٢٣٤م)، الجويني (١٢٢٦ - ١٢٨٣م)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان البخاري (المتوفى عام ٩٢٤م)، وابو بكر محمد بن جعفر النرشخي (المتوفى عام ٩٥٩م)، الذين الّفوا كتباً بعنوان «تاريخ بخارى»، وأبو سعيد عبد الرحمن بن محمد الادريسي (المتوفى عام ١٠١٥م) والذي «كتب تاريخ مدينة سمرقند المعروف باسم «كتاب الاكمال لمعرفة الرجال، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله البائي الحكيم النيسابوري (المتوفى عام ١٠١٤م)- صاحب «كتاب أحوال نيسابور» الذي يضم ٨ مجلدات، وابو الحارث بن حمدوي الفيرسوني (المتوفى عام ٩٢٧م)، مؤلف الكتاب القيم في التاريخ «كتاب المفاخرات - اهل آل كيش وآل نسف»، وأخيراً أبو محمد بن سعيد بن القاضي (المتوفى عام ٩٥٧م) مؤلف تاريخ خوارزم القديم «تواريخ خوارزم منها الكافي» وهنا لابد من الاشارة الى الصيغة الفارسية لمؤلف المؤرخ المشهور الطبري، التي أنجزها أبو علي محمد بلخ (المتوفى عام ٩٧٤م)- وزير عبد الملك الأول ومنصور الأول السامانيين - والتي اصدرت وترجمت غير مرة.

كذلك كانت علوم الجغرافيا متطورة في عهد السامانيين، وكان من بين

جغرافيي تلك الفترة أبو زيد بن سهل البلخي (٨٥٠ ـ ٩٣٤)، مؤسس المدرسة الكلاسيكية الفارسية، والذي وضع زهاء ٦٠ مؤلفاً في الجغرافيا والفلك ولم يبق سوى أسماء نصفها: «تقويم البلدان»، «صور الاقاليم» (صور الاقاليم السبع)، «مسالك الممالك»، «اشكال البلاد»، و«كتاب البديع والتاريخ». وكان بالامكان ان يحتل، بين المؤلفات الجغرافية في عهد السامانيين، مكانة هامة، المؤلف الجغرافي والوزير ـ راعي العلوم، الذي قام في عهده برعاية أبي زيد البلخي السالف ذكره والرحالة ابن دليفة (ق ١٠م)، والرحالة الشهير ابن فضلان (ق ١٠م) أبي عبد الله محمد بن احمد بن نصر الدين جيحاني (نهاية ق ٩ ـ النصف الاول من ق ١٠م). يبدو ان مؤلف الجيحاني كان يحمل اسماً تقليدياً «غرائب الدنيا»، «عجائب البلدان» او شيئاً من هذا القبيل. وتأكيداً لذلك بالامكان الاستشهاد بالكلمات التالية للمسعودي: «لقد وضع الجيحاني.... كتاباً يشتمل وصفاً للعالم وأخباراً عنه وعن عجائبه وعن المدن والعواصم والبحار والانهار والشعوب واماكن عيشها، وغيرها من الاخبار والرحلات المدهشة المثيرة».

وفي ايام السامانيين تطورت في ما وراء النهر وخراسان تطوراً عظيماً،العلومُ الطبيعية: الرياضيات، الفلك، والطب وغيرها. وفي الفترة (من ق ٩ ـ ق ١٠م) ظهر علماء بارزون أمثال ابي عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٧ ـ ٨٥٠م)، الذي وضع علوم الجبر والّف «كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة»، و«الكتاب في حساب الهند»، و«كتاب صورة الأرض» وغيرها من المؤلفات، واحمد الفرغاني (المتوفى عام ٨٦١م) وله مجموعة مؤلفات في الفلك: «الحركات السماوية»، «جوامع علم النجوم»، «مدخل النجوم»، «الكامل في علم التنجيم» الخ...

وفي عصر السامانيين، برز علماء الموسوعات العظام: أبو نصر الفارابي (٨٧٣ ـ ٩٥٠م)، أبو ريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨م) وابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م).

إنّ تطور علوم الرياضيات، ولا سيما الهندسة التي تعد من أهم فروعها، قد أدى الى ازدياد الخبرة والتجارب، ومكّن المعماريين الجدد من القدرة على التخطيط بدقة متناهية وبناء المنشآت التذكارية مثل ضريح السامانيين الرائع في بخارى (٨٩٢ ـ

٩٤٣م)، وخريج عرب ـ اتا في قرية «تيم» (عام ٩٧٨م)، وقصر السامانيين في افراسياب (ق ـ ١٠م)، والقصر الريفي «كرك ـ كيز» في ترمذ القديمة (ق ـ ١٠م) وغيرها.

وفي عهد السامانيين تطور الادب والشعر تطوراً ملحوظاً، وتذكر المصادر (عوفي دولت شاه وآخرون غيره) أسماء ما يقارب الثلاثين من الادباء البارزين. ومن دون التطرق الى التفاصيل ، نشير الى انه خلافا للادب العلمي، انتقل الشعر الى اللغة الفارسية ـ الدارية وكان من خصائصه الأخرى، كما قال ي. ا. بيرتيلس آنذاك: «ان الشعراء، بل العلماء الآخرين كافة، كانوا مضطرين للعيش «في قصور الاثرياء، لانه لم يكن لديهم حل آخر، ذلك أنهم هناك فقط كانوا قادرين على كسب قوت عيشهم». ما أثر على المضامين الروحية والفكرية لهذه الاشعار.

باختصار، كان هؤلاء يمدحون في أشعارهم الطبقة الحاكمة، الملوك والامراء والقادة العسكريين، ويجزلون الثناء على شجاعتهم وكرمهم وانجازاتهم. وعلى الرغم من ذلك، وبفضل المواهب الشعرية الرفيعة، فقد ترك بعضهم آثاراً ملحوظة في تاريخ الادب الفارسي الطاجيكي. وحسبنا هنا ذكر اسماء أبي عبد الله جعفر بن محمد روداكي السمرقندي (تقريباً ٨٥٥ ـ ٨٦٠، ٩٤٠م)، شاهدي البلخي ـ تلميذ روداكي وفنان القصيدة والشعر الهجائي، وأبي زراع غورغاني، وأبي شكور البلخي (المولود عام ٩١٦)، مؤلف مجموعة الحكايات التربوية «افاريق نامه» («كتاب المديح»)، ابي طاهر الطيب بن محمد الخسرواني الفنان البارع في الاغاني العاطفية الفكاهية، أبي منصور محمد بن أحمد دقيقي (المتوفى عام ٩٧٧)، شاعر العاطفة المرهفة في عصره، وأول من حاول كتابة «شاهنامة».

هنا ينبغي القول انه في مدن ما وراء النهر وخراسان (بخارى، نسف، مرو، هرات وغيرها من المدن) كانت كتابة الاشعار باللغة العربية تتطوّر جنباً إلى جنب مع تلك التي تنظم بالفارسية، وتتوافر عنها معلومات قيمة في الجزء الرابع من مجموعة المختارات الشعرية للثعالبي (٩٦١ ـ ١٠٣٨)«يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر».

الفصل السادس

ما وراء النهر في عهد القاراخانيين

أصل القاراخانيين، ونشأة دولتهم، التي لعبت، كما هو معلوم، دوراً كبيراً في مصائر شعوب آسيا الوسطى:

شعوب تركستان الشرقية وسيميريتشي وما وراء النهر وخراسان، شعوب لا نعرف عنها سوى القليل. أما فيما يتعلق بأصل أسرة القاراخانيين، فلدى العلماء المستشرقين آراء شتى متضاربة أحياناً. فمثلاً، يقول ف. ف. غريغوريف، ن. أ. اريستوف، س. غ. كلاشتورني، وف. غريونارد، إنهم (أي القاراخانيين) من سلالة الكارلوكيين، أما أ. بريتساك، ومحمد فؤاد كوبريوليو - زاده وغيرهما، فيقولون إنهم ينتمون الى قبيلتي «تشيغيل» و«ياغما»، اللتين تعدان من القبائل الكارلوكية والـ «توكوز - اوغون» ذات النفوذ القوي. ويعتقد الأكاديمي ف. ف. بارتولد في عدد من مؤلفاته (ن. ا. ا. اريستوف. ملاحظات عن اصل القبائل التركية والشعوب، ومعلومات عن عدد أفرادها، ١٢ محاضرة في تاريخ الشعوب التركية في آسيا الوسطى، الوضع الحالي والواجبات القريبة لدراسة تاريخ الشعوب التركية، وغيرها) أن خانات هذه السلالة من الكارلوكيين الـ «ياغما» و «تشيغيل». أما ا. ك. كارايف الذي أجرى دراسة خاصة حول هذه المسألة في الفترة الأخيرة، فيعتبر أن الدور الرئيسي الحاسم في قيام دولة القاراخانيين يعود الى قبيلة الـ«تشيغيل» - احدى فروع الكارلوكيين الذين قطنوا تيان - شان الوسطى في ق. ٩ - ١٠م (تاريخ الخاقانية القاراخانية، فرونزه، ١٩٨٣م).

والآن، نورد نبذةً عن **أسماء القاراخانيين وألقابهم**: من المعلوم أن اصطلاحي «القاراخانيين» و«دولة القاراخانيين» استخدما للمرة الاولى من قِبل ف.ف. غريغوريف الآنف الذكر (القاراخانيين في ما وراء النهر بناءً على «تاريخ منجم ـ باشي. بالنص العثماني، مع ترجمة وملاحظات وتعليقات. ـ أعمال القسم الشرقي لدى جمعية الآثار الروسية»، الجزء «١٧»، مكتبة سمرقند العامة ١٨٧٤م)، كان الملقب بـ«ساتوك بوغرا قاراخان عبد الكريم» أول من اعتنق الاسلام ونشر هذا الدين الحنيف بين أتراك سيميريتشي وكاشغار. وقبل ذلك كانت كلمة «قارا» (الترجمة الحرفية لها «أسود») تعني «العظيم»، «الأعلى»، «الشعب». وبالتالي، فان«قاراخان» كانت تعني «الخان العظيم»، «الخان الأعلى»، «خان الشعب». وآنذاك، درجت العادة أن تطلق ألقاب طوطمية على الملوك والحكام «بوغراخان» («بوغرا» جمل ذو سنامين، فحل و«أرسلان خان» («أرسلان» ـ أسد)، أما الخانات الاقطاعيون «إلِك ـ خان». فإن أول من لقب بـ«إلِك ـ خان» سليمان وموسى، ابنا ساتوك بوغرا خان، السالف ذكره.

الأحداث السياسية الرئيسية

ما من أحد يعرف، بالضبط، تاريخ تأسيس الدولة القاراخانية. ولكن بالإمكان تحديد ذلك على نحو تقريبي. من المعلوم أن مؤسس الأسرة الحاكمة هو ساتوك بوغرا ـ خان، عبد الكريم الآنف الذكر، ولقد جاء في «طبقات نصري» لمنهاج الدين الجوزجاني ان (ساتوك بوغرا...) ولد في العام ٣٣٤هـ، ٩٤٤ ـ ٩٤٥م وتوفي في العام ٤٢٩هـ، ١٠٣٧ ـ ١٠٣٨م. في حين ذكر جمال قارشي تاريخاً آخر لميلاد ساتوك بوغرا ووفاته، اذ قال انه توفي عام ٣٤٤هـ، ٩٥٥ ـ ٩٥٦م.. وجاء في «سيرة حياة ساتوك بوغرا ـ خان» («تذكرائي بوغرا ـ خاني) ان ساتوك بوغرا ـ خان أسلم على يد أحد الدعاة الاتقياء المسلمين ـ أبي نصر الساماني، الذي قدم الى ما وراء النهر من كاشغار، بقافلة تجارية أيام الأمير الساماني، عبد الملك بن نوح (٩٥٤ ـ ٩٦٤م). وإذا كان الأمر هكذا، فان انتشار الاسلام في كاشغار والجزء الجنوبي الغربي لـ «تيان ـ شان» الوسطى قد حدث تقريباً في أواسط القرن «١٠م». ويمكننا القول إن دولة القاراخانيين تأسست في النصف الاول من القرن «١٠م»،

وذلك استناداً لما اثبته أ. بريتساك، بانه قبل ساتوك بوغرا ـ خان حكم البلاد والده أرسلان ـ خان بازير وعمه قادر ـ خان أغولتشاك. وكان الأول هو الحاكم الأعلى، ومقره في «بالاساغون» (مدينة بولان) في وادي نهر «تشو»، أما الثاني، فكان في «تاراز» بصفة مساعد او مشارك له في الحكم، ولا بد أنه من معاصري اسماعيل بن احمد الساماني (٨٩٢ ـ ٩٠٧م). وبالتحديد في عهد قادر ـ خان أغولتشاك، احتل اسماعيل بن احمد في العام ٨٩٣م «تاراز»، وأسر زوجته و١٥٠٠٠ من جنوده، وبعد ذلك نقل أغولتشاك عاصمته من «تاراز» الى «كاشغار».

كان القاراخانيون في شمال شرق «تيان ـ شان» في حالة حرب مع قبائل «باسميل» القاطنة في «بيشباليك» (قرب غوتشجين)» المؤلفة من ٤٠ عشيرة، وفي الشمال في حالة حرب مع قبائل «يماك» في وادي «ايريتش». لكن أخطر أعدائهم كانت قبائل «ياباكو»، التي تعيش في الشمال الشرقي بجوار قبائل« باسميل» في مكان ما في وادي «اميل».

باختصار، لقد فرض القاراخانيون سيادتهم كلياً على تيان ـ شان الوسطى وسيميريتشي حتى تسعينات القرن «١٠م». ففي الجهة الجنوبية الشرقية امتدت مملكتهم حتى نهر «تشيرتشين» وكانت حدودهم الشمالية الشرقية تكاد تمر بخط«بلخش»، ساسيك ـ كول وآلا ـ كول، أما الشرقية، فكانت تمر بخط نهر تشيرتشين، غرب مدينة «كوتش» بحيرة ساسيك ـ كول وآلا ـ كول. وأما الحدود الغربية فكانت تمر بوادي «تالاس».

وبعد تثبيت أقدامهم في «تيان ـ شان» الوسطى وسيميريتشي، اتجهت انظار القاراخانيين الى المناطق الواقعة على أواسط مجرى سرداريا والى غرب وادي «تالاس» وفرغانة. فدحروا القبائل السلجوقية من أواسط المجرى، والاوغوز من غرب وادي «تالاس»، أمّا فيما يتعلق بوادي فرغانة، فلم يجدوا اي مقاومة تذكر، واستولوا بسهولة على مدينتي كوبا(كوڤا) ونصراباد. وبعد بسط سيادته على تالاس وشاش وإلاك، قام هارون بوغرا ـ خان في ربيع ٩٩٢م، بالتوجه الى بخارى على رأس جيش جرار. ولما علم الأمير الساماني نوح الثاني (٩٧٦ ـ ٩٩٧م) بذلك،

أرسل ضده جيشاً بقيادة «آياتش» ولكن ليست لدينا معلومات كافية عن المعركة بين الجيشين الساماني والقاراخاني سوى ما ذكره العتبي عن انهزام القوات السامانية، واسْر «آياتش» وعدد آخر من قادته العسكريين. وعقب ذلك توغل القاراخانيون في ما وراء النهر، واقتربوا من «رباط ـ مالك» الواقعة الى الغرب من «كيرمين». ودارت المعركة بين القاراخانيين والسامانيين على مقربة من «رباط ـ مالك»، في منطقة تدعى «خرجينت»، حيث هزم السامانيون نتيجة خيانة قائدهم المدعو «فايق»، الذي تعمّد أن يخسر جيشه المعركة. ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي، حينما اقترب هارون بوغرا ـ خان من بخارى، خرج فايق من المدينة، معلناً عن خضوعه له وانضوائه تحت رايته. أما نوح الثاني، فاضطر الى مغادرة بخارى، وعبور أموداريا، والاختفاء في «أمول». ومع ذلك، لم يستمر هارون بوغرا ـ خان في مواصلة تقدمه، إذ سرعان ما مرض وسلّم بخارى لعبد العزيز، ابن نوح الثاني، وقفل عائداً الى كاشغار. على أنه لم يتمكن من بلوغ عاصمته وتوفي في الطريق بمنطقة كوتشكار ـ باشي. وفي ١٢ اغسطس ٩٩٢م، أي بعد مرور ثلاثة اشهر، عاد نوح الثاني إلى عاصمته. أما فايق فتم العفو عنه وأرسل إلى بلخ. بيد أنه لم يستقر هناك، لأنه لم يلق دعماً من أبي علي سيمجوري، فغادر بلخ خوفاً من نوح الثاني، وذهب إلى القاراخاني إِلك ـ خان نصر، الذي أحسن استقباله ودافع عنه أمام نوح الثاني، الذي عين الخائن حاكماً لسمرقند.

في هذه الفترة، خرجت خراسان عن طاعة السامانيين ووقعت في يدي أبي علي سيمجوري وفائق الآنف ذكرهما، في حين وقعت هرات وغزني في يد سابوك ـ تيغين الذي سبق أن أشرنا إليه آنفاً.

في مطلع العام ٩٩٩م، كثرت الدسائس والمكائد في قصر بخارى، ونتيجة ذلك أطيح بالأمير منصور الثاني (٩٩٧ ـ ٩٩٩م) وفقد بصره. وقد هبّ للدفاع عن الأمير المخلوع كل من محمود الغزنوي (٩٩٨ ـ ١٠٣٠م) والقاراخاني إِلك نصر ـ خان، فسيّر الأول، في شهر مايو ٩٩٩م، جيشاً إلى خراسان، حيث أطاح بالحكام المحليين السامانيين هناك، واستولى على خراسان. ونقلاً عن أبي الفضل البهيقي، فقد خضعت له بخارى دون إبداء أي مقاومة. لكن السامانيين واصلوا النضال لاستعادة

السلطة التي فقدوها. فمثلاً، استعانوا بكبار الفقهاء المسلمين لاستثارة الشعب من أجل النضال إلى جانبهم، إلا أن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح. ورداً على نداء الفقهاء، رُسُل الامير، أجاب الشعب: «إذا كان خصام الخانيين (القاراخانيين ـ ب. أ) مع السامانيين من أجل الدين، يصبح لزاماً علينا أن نحاربهم، ولكن إذا كان النضال من أجل مصلحة هذا الأمير، فلا يحق للمسلمين التضحية بأنفسهم وتعريضها للهلاك. إن أسلوب حياة هؤلاء الناس (أي الخانيين) رائع جداً، وايمانهم لا غبار عليه ولاعيب فيه و(لذا) من الأفضل الامتناع (عن التدخل)». صحيح أن بعض أفراد الأسرة، مثل القائد أبي ابراهيم اسماعيل الساماني الملقب بالمنتصر (١٠٠٠ ـ ١٠٠٥م) استطاع، بطريقة ما، استمالة الاوغوز (التركمان) الرحل، الذين كانوا، آنذاك، ينقلون من مناطق الضفة اليمنى الى زرافشان ومنطقة نور ـ اتا. وفي العام ١٠٠٠م، استطاع القائد الساماني حاجب ارسلان بال، إلحاق هزيمة بالجيش القاراخاني. وكانت بخارى قد سقطت في يد المنتصر، ولكن لمدة قصيرة. فبعد سنة، أي في عام ١٠٠١م، استطاع القاراخانيون طرده من بخارى، فلجأ المنتصر الى خوارزم حيث لم يتمكن من تثبيت أقدامه هناك. وحال دون ذلك تحالف القاراخانيين مع محمد الغزنوي. وهنا استنجد المنتصر بالسلطان محمود، الا انه لم يتلق المساعدة المرجوة. بل علاوة على ذلك، فقد قام خوارزم شاه في عام ١٠٠٤م بإلحاق الهزيمة به، مما اضطر المنتصرللهروب الى ما وراء النهر، حيث حظي بدعم السلاجقة، ونجح في تعبئة الغزاة السمرقنديين وحشدهم، والانتصار على إِلك ـ خان قرب قرية «بورغازي» (سابقاً ـ كامي أبو مسلم)، ولكن سرعان ما جمع إِلك ـ خان جيشاً كبيراً، وفي السهب الممتد بين جيزاك وخواست دمر السامانيين وحلفاءهم، بعدما تخلّت فصيلة اسماعيل عن المنتصر وانضمت الى قوات إِلك ـ خان. وبأعجوبة تمكن المنتصر من الفرار مع ثمانية من زملائه المقربين، وحاول الاختفاء عند بدوي من العرب الرُّحّل يدعى بن بوهيدجي، إلا أنه قتل هناك. وجرى ذلك نقلاً عن العتبي، في مطلع العام ١٠٠٥م، وبعد ذلك انتهت اسرة السامانيين. وانتقلت السلطة في بلاد ما بين النهرين ـ أي اموداريا وسرداريا ـ الى يد القاراخاني ناصر ابن علي، أمير فرغانة الشرقية.

بعد فرض سيادتهم على ما وراء النهر، بذل إلك خان جهوده لبسط سلطته على خراسان ايضاً. وفي عام ١٠٠٦، ورغم اتفاقية الصداقة وحسن الجوار (١٠٠١ ـ ١٠٠٣م)، قام إلك ـ خان، منتهزاً غياب محمود الغزنوي (كان في حملة على الهند)، بإرسال جعفر ـ تيغين على رأس جيش جرار الى بلخ، وسيّر جيشاً آخر بقيادة ابن عمه «سوباشي ـ تيغين» الى هرات. وقد تم الاستيلاء على المدينتين ـ بلخ وهرات.

ولما سمع محمود الغزنوي بذلك، سارع بالعودة الى خراسان. وما كاد السلطان، محمود الغزنوي، يقترب بجيشه، حتى سارع جعفر ـ تيغين الى ترك بلخ والانطلاق نحو ترمذ ومن هناك الى سمرقند. أما فيما يتعلق بـ«سوباشي ـ تيغين»، فقد بقي مشرداً هو ومن بقي معه، تطاردهم القوات الغزنوية في خراسان وجرجان. اما «إلك ـ خان»، الذي استغلّ انشغال القوات الرئيسية للسلطان محمد في تعقب سوباشي ـ تيغين، فقد أرسل قواته، مجدداً، الى خراسان وحاول التمركز في بلخ. وبالتحالف مع قريبه يوسف قادر ـ خان، حاكم خوغا، سار الى هناك بأربعين الف مقاتل، إلا أن محاولته هذه منيت بالفشل مرة أخرى، إذ أباد الغزنويون الفصائل القاراخانية قرب بلخ، عن بكرة أبيهم. ونقلاً عمّا ذكره العتبي فقد جرى ذلك في يوم الاحد الموافق ٢٢ ربيع الثاني ٣٩٨هـ، ٨/يناير/١٠٠٨م. ومع ذلك، ظل ناصر بن علي مصراً على احتلال خراسان وطلب العون من الخاقان الكبير أحمد بن علي (المتوفى عام ١٠١٧ ـ ١٠١٨م)، إلا أن الأخير رفض طلب أخيه، وعلاوة على ذلك، اتفق مع محمد الغزنوي، ما أدى الى استياء إلك ـ خان من موقف أخيه، وسير جيشاً ضده. وجرى ذلك في شتاء ١٠١١م، بيد أنّ الجيش اضطر للتوقف في منتصف الطريق من جرّاء الثلوج الغزيرة وشدة البرد. وفي السنة التالية (عام ١٠١٢م)، عاد وأرسل قواته لمحاربة أخيه، بيد أنه لم تجر اشتباكات مكشوفة. ونقلاً عن العتبي: «توسّط السلطان (محمود) وسوّى الأمور» وما لبث أن مرض إلك ـ خان ناصر بن علي، بعد ذلك بفترة قصيرة، وتوفي. وبحسب المعلومات التي وردتنا عن «ديول كارشي» كان ذلك عام ١٠١١ ـ ١٠١٢م.

وبعد وفاته انتقلت السلطة في ما وراء النهر إلى أحمد بن علي الآنف ذكره

والمشهور بلقب «توغان ـ خان». وعقب وفاة «توغان ـ خان» خلفه ابناه محمد بن علي ومنصور بن علي. وبحسب رأي. ف.ف. بارتولد ور. ر. فاسمر، آلت السلطة (ارسلان خان) الى محمد بن علي. وأما بحسب رأي أ. بريتساك فقد آلت الى منصور بن علي، في حين شغل محمد بن علي مكان إِلك ـ خان نصر، ويورد ب. د. كوتشنيف إثباتات قاطعة تؤيد الرأي الأخير.

في تلك الفترة ـ ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي ـ نشأت علاقات متينة بين القاراخانيين والخوارزم شاه أبي العباس منصور الثاني (١٠٠٩ ـ ١٠١٧م)، ووقعت معاهدة صداقة بين الخان الاعلى (الاعظم)، إِلك ـ خان والخوارزم شاه. صحيح أن الخوارزم شاه حاول اقناع القاراخانيين بإرسال فصائل للإغارة من حين لآخر على الغزنويين في خراسان، ولكن الخانات لم يوافقوا، إذ كان في ذلك خطورة بالغة فيما يتعلق بالجار العظيم. واكتفى القاراخانيون بأن وعدوه بالتوسط فيما بينهم وبين السلطان محمد، والخوارزم شاه. وعلى أي حال لقد باءت محاولة إنقاذ خوارزم بالفشل، إذ كانت تحتضر وتعيش أيامها الأخيرة. وكما سنرى لاحقاً، سرعان ما احتلها الغزنويون في العام ١٠١٧م.

بعد وفاة محمد بن علي ومنصور بن علي ـ ابني توغان ـ خان، في العام ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥م، آلت مقاليد الحكم الى يوسف قادر ـ خان، ابن هارون بوغرا ـ خان (المتوفّى عام ١٠٣٢م). وفي عهده تأزّمت العلاقات وتدهورت بحدة بين الخان الاعظم (يوسف قادر ـ خان) والـ«إِلك» علي ـ تيغين، حاكم ما وراء النهر. لقد أورد ميرخوند محتوى رسالة يوسف قادر ـ خان الى السلطان محمود التي يحرض فيها، بصورة مكشوفة، القاراخاني والغزنويَّ ضد علي ـ تيغين. وجاء في الرسالة مثلاً، ما يلي: «إذا انتصر إِلك ـ خان، فبالامكان بعد احتلال الدولة التورانية (أملاك القاراخانية الغربية ب. أ) أن يتجه الى إيران في الوقت الحاضر، وإذا وافقنا السلطان وسار بجيشه الى سمرقند، فإننا سنقوم بدورنا بمحاربة إِلك ـ خان (الايلخان)». يلاحظ من مضمون الرسالة تخوّف الخان الاعظم من الايلخان الذي يزداد بأساً وقوة، وطموحاً إلى إخضاع أملاك القاراخانيين الغربية كافة لسلطته. إن انشغاله

الدائم في حملاته على الهند أثار إلى حدّ ما، تخوفاته من تعاظم جاره في الشمال ومن السلطان محمود. باختصار، فقد كان يوسف قادر ـ خان والسلطان محمود يطمحان ايضاً إلى الفتّ من عضد علي ـ تيغين.

بدأت الاعمال الحربية الموجهة ضد علي ـ تيغين، في العام ١٠٢٥م، ومن الجانبين: اجتاز السلطان محمود نهر اموداريا على رأس جيش كبير، وعلى الضفة اليمنى للنهر، انضم اليه الخوارزم شاه التونتاش (١٠١٧ ـ ١٠٣٢م)، وخيم في مكان ما على مقربة من سمرقند. والى هناك ايضاً، وصل يوسف قادر ـ خان بجيشه وأقام مخيماً على بعد فرسخ من مكان تمركز الغزنوي. ولدى التقاء الحاكمين، قررا سلب ما وراء النهر من علي ـ تيغين، وتتويج ياغان ـ تيغين، ابن يوسف قادر ـ خان، على عرشها. كما أنهما قررا التصاهر لتوطيد عرى الصداقة بينهما، وتزويج ياغان ـ تيغين من زينب، ابنة سلطان محمود، وسلطان محمد، الابن الثاني لسلطان محمود (الابن الاول ـ سلطان مسعود)، من ابنة يوسف قادر ـ خان. الا أن معارك ضارية أو مهمة لم تجر ضد الايلخان علي ـ تيغين. لكن سلطان محمود انتصر على السلجوقي اسرائيل، حليف علي ـ تيغين، ففر الاخير الى السهوب. وبموجب ما كان متفقاً عليه، منحت سمرقند وبخارى لياغان ـ تيغين، ابن يوسف قادر ـ خان، الذي استطاع بفضل التحالف مع سلطان محمد، أن يطرد توغان ـ خان، شقيق علي ـ تيغين، من «بالاساغون» وأن يستولي على الاراضي الواقعة شرق اوزغيند والممتدة حتى اخسيكيت، وأصبحت ترمذ وتشاغان ـ كان وكوباديان وخوتّالان تحت سلطة الغزنويين. لكن تحالف القرابة بين القاراخانيين والغزنويين لم يكتب له أن يتحقق. وبعد خروج المتحالفين من بلاد ما وراء النهر ـ أي سلطان محمود ويوسف قادر ـ خان ـ استعاد علي ـ تيغين وضعه السابق واستولى على قسم كبير ممّا وراء النهر.

وبادر علي ـ تيغين فوراً الى العمل على استتباب الامور في ما وراء النهر. وفي الفترة من ١٠٢٩ ـ ١٠٣٤م كافح السلاجقة: داود تشاغري بيك ومحمد طغرل بيك. إن الحرب مع هذه القبائل القاطنة في بعض مناطق سمرقند وبخارى، قد سارت

بنجاحات واخفاقات متناوبة وانتهت بانتصار علي ـ تيغين. وبالتالي اضطر قسم من السلاجقة، بعد وفاة علي ـ تيغين (عام ١٠٣٤م) على ما يبدو، إلى الانتقال الى ما وراء أموداريا، في خراسان.

بعد وفاة يوسف قادر ـ خان، خلفه ابنه سليمان (المقتول عام ١٠٥٧م) والملقب بـ «ارسلان ـ خان». وبالاتحاد معه، حاول سلطان مسعود الغزنوي (١٠٣١ - ١٠٤١م) القضاء على علي ـ تيغين، الذي كان يناضل بشدة ضده لاستعادة خوتالان والمناطق الأخرى التي فقدها في ما وراء النهر سابقا، لكن محاولاته باءت بالفشل. وعقب ذلك، أجبر سلطان مسعود تابعه التونتاش على محاربة علي ـ تيغين. ولمساعدته أرسل من غزنة جيشاً يتألف من ١٥٠٠٠ مقاتل. ورفض علي ـ تيغين خوض معركة مكشوفة، فترك بخارى وتحصن في قلعة دابوسيا، الواقعة على الطريق المؤدية من بخارى الى سمرقند، شرق قرية «ضياء الدين». بعد الاستيلاء على بخارى، اتجه التونتاش الى دابوسيا، حيث دارت معركة دامية، أصيب فيها التونتاش إصابة مميتة أدت إلى إيقاف الحرب وعقد الهدنة.

توفي علي ـ تيغين ـ بحسب معطيات أبي الفضل البيهقي في العام ١٠٣٤، وخلفه ابنه وولي عهده يوسف بن علي. وتفيد المصادر أنّه واصل سياسة أبيه.

في ربيع عام ١٠٣٥م اجتاحت جيوش القاراخانيين الاراضي الغزنوية الواقعة على الحدود، وقامت بسلب تشاغانيان ونهبها، وحاصرت قلعة ترمذ، بدون التمكن من الاستيلاء عليها، كما أخفقت مرة أخرى في يونيو ١٠٣٥م. وفي شهر ديسمبر من العام نفسه، وقِّعت معاهدة سلام بين سلطان مسعود ويوسف بن علي.

في عهد سليمان بن يوسف، خليفة يوسف قادر ـ خان، لم تعِد لرئيس السلطة الاعلى لدى القاراخانيين أي هيبة أو سمعة. ومن أجل المحافظة، على الأقل، على لقب الخان الأعلى (ارسلان ـ خان)، قسم سليمان بن يوسف الامبراطورية إلى دويلات أو مقاطعات صغيرة بين إخوانه وأقربائه، ولم يُبقِ لنفسه سوى بالاساغون وكاشغار. فمثلاً، أعطى منطقتي تاراز واسفيجاب لأخيه محمد بوغرا ـ خان، والمدن التركية لارسلان ـ تيغين، وفرغانة لعمه توغان ـ خان، وبخارى وسمرقند وغيرهما

من مناطق ما وراء النهر ليوسف بن علي.

وهكذا انقسمت دولة القاراخانيين في أربعينات القرن - ١١م الى خاقانيتين مستقلتين. إحداهما شرقية، اتخذت بالاساغون عاصمة لها في بادئ الأمر، ثم نقلت عاصمتها الى كاشغار، والثانية غربية، اتخذت عاصمتها اوزغيند اولاً، ثم سمرقند فيما بعد. وكانت كل واحدة منهما تحمل لقب ارسلان - خان او بوغرا - خان.

كان خان ابراهيم بن نصر، والأكثر شهرة بلقب بوري - تيغين في خاقانية القاراخانيين تامغاتش، من ألمع الشخصيات. اسمه الكامل أبو اسحق ابراهيم، أبوه غازي، أو محتل، ما وراء النهر المشهور - إلِك - خان (ايلخان) نصر (مشابه او مطابق لـ «تامغاتش - خان الذي حكم سمرقند). أمضى بوري - تيغين مدة طويلة اسيراً لدى أبناء علي - تيغين، وبعد فراره من الأسر، جاء الى اوزغيند، حيث التحق بأخيه محمد ابن نصر (زعيم الدولة القاراخانية الغربية من عام ١٠٤١ - ١٠٤٢م). في المرحلة الاولى لارتقائه سلم الحكم، أبدى نشاطاً سياسياً ملحوظاً: اقام علاقات ودية مع الحاكم (أو الأمير) سلطان مسعود، وحظي بمودته وثقته، وبمساعدة الـ «كوميجيين» (شعب قطن آنذاك شمال تشاغانين والمناطق المجاورة لها) شن غارات سلب ونهب على فاحش وخوتالان التابعتين حينذاك لسلطة الغزنويين، ثم استغل انشغال سلطان مسعود في نزاعه مع السلاجقة واستولى على خوتالان. وفي خريف ١٠٣٩م، انتصر في عدة معارك مع ورثة علي - تيغين. وفي اكتوبر ١٠٣٨م، أرسل سلطان مسعود جيشاً من ١٠٠٠٠ مقاتل ضد بوري - تيغين، وأجبره على ترك خوتالان والفرار الى الكوميجيين. في ١٨ ديسمبر ١٠٣٨م، سار سلطان مسعود شخصياً على رأس جيشه لمحاربة بوري - تيغين، وفي ٣١ ديسمبر ١٠٣٨م، نصب الخيام في مدينة تشاغانيان (حالياً ديناو). وبعد استراحة قصيرة، اتجه سلطان، في بداية يناير ١٠٣٩م، نحو الشمال، ولكن لدى سماعه بنشاطات السلاجقة في خراسان، عاد بسرعة الى بلخ. أما بوري - تيغين، فقد تبعه حتى اموداريا وفاز بغنيمة كبيرة: عبارة عن قوافل من الجمال والخيول المحملة بالبضائع والسلع. وبالتالي تحالف بوري - تيغين مع السلاجقة التركمان ضد سلطان

مسعود، وشارك بفصائله في موقعة «دانداناكان» الشهيرة (٢٥ مايو ١٠٤٠م) والتي انتهت، كما هو معلوم، بالتدمير الكامل للقوات الغزنوية.

وفي السنة نفسها، استطاع بوري ـ تيغين، بمساعدة هؤلاء السلاجقة التركمان، انتزاع جزء مما وراء النهر من ابناء علي ـ تيغين. ووفقاً لبعض المصكوكات، كان قد استولى في العام ١٠٤٢م على بخارى وسمرقند. ومع ذلك، كانت فرغانة في خمسينات وستينات القرن ـ ١١م، خاضعة لحكم خلفاء علي ـ تيغين، ومنهم ابراهيم بن نصر وداود اللذان كانا يصكان النقود في اخسيكيت ومرغلان واوزغيند (كوتش ـ تيغين داود). وجدير بالذكر أن ابراهيم هذا غدا ذا سلطة قوية؛ فسرعان ما استغل النزاعات بين جيرانه في الشرق، وقام بدحرهم من شاش وتونكيت.

في سبعينات القرن «١م» نشب صراع سياسي حاد بين القاراخانيين والسلاجقة على المناطق الواقعة على ضفاف النهر في بلاد ما وراء النهر وعلى خراسان: بلخ وترمذ و تشاغانيان وخوتالان. وفي العام ١٠٧٢م، نقض ألب ارسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م) المعاهدة الموقعة بينه وبين شمس الملوك أبي الحسن نصر، وسيّر جيشاً عظيماً إلى ما وراء النهر، وذلك لمعاقبة القاراخاني الذي رفض إطاعته والخضوع له. إلا أن الجيش توقف في منتصف الطريق نتيجة مقتل السلطان الب ارسلان. وهنا، قام شمس الملوك بشن حملة مضادة، وكانت آنذاك ترمذ وبلخ في أيدي القوات القاراخانية، إلا أن قواته لم تستطع تثبيت أقدامها هناك. وفي نهاية الأمر، ترك شمس الملوك هاتين المدينتين وعاد إلى بلاده. يبدو أن القاراخانيين لم يستقبلوا هناك بالحفاوة والترحاب. وعلاوة على ذلك، قام أهل بلخ بمهاجمة وحدات الجيش القاراخاني وتموينه. وبعد مضي سنتين، أي في العام ١٠٧٤م، جهز السلجوقي ملك ـ شاه الاول (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) جيشاً ضخماً وسار به الى سمرقند، إلا أن الأمور لم تصل إلى الاصطدام والاشتباك، ووقعت اتفاقية سلام بعد أن توسط بين الطرفين الوزير المشهور نظام الملوك (المتوفى حوالي العام ١٠٧٨ ـ ١٠٧٩م).

بعد وفاة شمس الملوك، خلفه على عرش دولة القاراخانيين الغربية، أخوه خضر

ـ خان بن ابراهيم. وعن حكم هذا القاراخاني لا توجد لدينا أي معلومات معينة، إذ لم ترد أي تفاصيل عن ذلك لدى البيهقي وابن الاثير وغيرهما. ولكن يستدل بما ذكره نظامي أروزي السمرقندي، أنه في عهده كانت تركستان وما وراء النهر تنعمان بالأمن والسلام، وقد أقيمت بين الدولتين «علاقات نسب وصداقة، ومعاهدة متينة وتحالف».

حل محل خضر، خان بن ابراهيم، ابنه احمد خان (قتل عام ١٠٩٥م). ونقلاً عن ابن الاثير: لقد كان شاباً سيء الطبع والخلق، ظالماً يبتز الأموال والأملاك، علاوة على ذلك، كان يعادي كبار الفقهاء والعلماء المسلمين، بصورة مكشوفة، وبلغ تماديه حداً لدرجة أنه ـ بناءً على ما ذكره السمعاني ـ غدر بالشيخ أبي نصر أحمد الكاساني واستولى على خزينته، وبعد ذلك صار البعض يكتفي بتجنبه والبعض الآخر يتجاهله علناً. وكان ثمة أناس غادروا البلاد متذرعين بأعذار شتى. نذكر منهم على سبيل المثال، الفقيه، أبا طاهر بن علق، الذي غادر سمرقند متظاهراً بأنه مسافر لأداء فريضة الحج و ذهب إلى مرو، حيث حرّض مالك ـ شاه الأول على احتلال ما وراء النهر. كان السلطان بحاجة الى ذريعة، وفي العام ١٠٨٩م سيّر جيشاً كبيراً الى ما وراء النهر واحتل بخارى وسمرقند، ثم أسر أحمد ـ خان ابن خضر ـ خان، وبناءً على أمر مالك ـ شاه الاول، أُرسل الى اصفهان. وعين الأمير أبا طاهر نائباً له في ما وراء النهر، وقاد السلطان جيشه مواصلاً زحفه شرقاً حتى وصل مدينة اوزغيند. وبناءً على المعلومات التي أوردها ابن الاثير، وافق خان كاشغار (الحاكم الاعلى لدولة القاراخانيين الشرقيين) على شروط السلام التي تقدم بها السلطان، والاعتراف بتبعية دولة القاراخانيين ـ السلاجقة. لكن هذه التبعية كانت شكلية، فما إن عاد السلطان الى خراسان حتى ثار السمرقنديون، وطردوا نائبه أبا طاهر. وبعد ذلك قام زعيم الثوار ـ عين الدولة ـ بإرسال ساعٍ الى حاكم آت ـ باشي (حالياً ـ كوشويكورغان)، يعقوب ـ تيغين، شقيق الحاكم الاعلى لدولة القاراخانيين الشرقيين، داعياً إياه إلى الحضور فوراً الى سمرقند لاعتلاء العرش. وبعد عودة يعقوب ـ تيغين، الى سمرقند، جرى سوء تفاهم وخلاف أدّيا إلى مقتل عين الدولة.

ما حمل سلطان سينجار على تجهيز حملة جديدة إلى ما وراء النهر، واحتلال بخارى وسمرقند مرة أخرى. وهرب يعقوب ـ تيغين عائداً الى ذويه في آت ـ باشي. أما السلطان، فعين نائبه في ما وراء النهر، واتجه مجدداً نحو اوزغيند. ومن هناك بعث رسولاً الى كاشغار يطلب من خان القاراخاني الاعلى أن يسلمه يعقوب ـ تيغين. فاضطر الخان إلى تلبية طلب السلطان وألقى القبض على يعقوب ـ تيغين وأرسله الى ملك شاه في اوزغيند. وفي تلك الفترة بالضبط، علم باجتياح كاشغار من قبل جيش بارس خان طغرل بن ينال ـ تيغين، ووقوع خان كاشغار في الأسر. فخاف السلطان من مواجهة طغرل، وحرر يعقوب ـ تيغين وأرسله ضد الحاكم كاشغار. فليقتل القاراخانيون بعضهم بعضاً !وهذا هو المطلوب. بعد ذلك، عاد السلطان ملك ـ شاه الى وطنه خراسان، وفي العام ١٠٩٢م، السنة الاخيرة من حكمه، أعاد عرش ما وراء النهر إلى أحمدي بن خضر ـ خان. إن مثل هذا التحول في سياسة سلاجقة منجم ـ باشي يفسر بأن «سكان هذه المنطقة والأمراء المحليين لم يخضعوا لهذا السلطان واستمروا في عصيانهم وتمرّدهم عليه». على أنه استمر على سياسته القديمة، والشيء الأهم انه كان على خلاف مع علماء الدين المسلمين الذين استعانوا ببعض القادة العسكريين المخلصين لهم. في مطلع العام ١٠٩٥م القوا القبض على احمد ـ خان، واتهموه بانه مارق مرتد وقتلوه.

وتولّى عرش دولة القاراخانيين الغربيين، شقيق الخان المقتول، مسعود ـ خان بن محمد، المشهور ايضاً باسم ركن الدين كليتش توغاتش ـ خان مسعود (المتوفى حوالي العام ١٠٩٧ ـ ١٠٩٨م). لم تردنا أي معلومات في المراجع عن حكم هذا الخان وعن وضع ما وراء النهر أيام حكمه.

أما فيما يتعلق بما حدث في الخاقانية الغربية بعد مسعود ـ خان بن محمد خلال الثلاث سنوات ـ أي من عام ١٠٩٨ ـ ١١٠٢م ـ فحتّى الآن لم تتوافر لدينا اي معلومات عن ذلك. أما منذ العام ١١٠٢، فقد اصبح الحاكم الاعلى للخاقانية ارسلان ـ خان محمد بن سليمان (المتوفى عام ١١٣٢م)، الذي نشأ وتربى في بلاط السلاجقة. وفي عهده، و نقلاً عن إبن الأثير، قام ساغون ـ ديك (من سلالة

القاراخانيين) بعدة محاولات (في الفترة ١١٠٣ ـ ١١٠٩م) لانتزاع السلطة من ارسلان ـ خان محمد بن سليمان. إلا أن الأخير تغلّب على خصمه بفضل الدعم القوي له من جانب السلاجقة.

وفي آخر سني حكمه، أصيب ارسلان ـ خان محمد بن سليمان بالشلل، فانتقلت السلطة الفعلية لابنه ناصر بن احمد، الذي سرعان ما اصبح ضحية للمؤامرات والدسائس وقُتل. وبعد وفاة أرسلان ـ خان محمد بن سليمان انتقلت السلطة في خاقانية القاراخانيين الغربية الى ابي المظفر تومغاتش ـ خان ابراهيم، شقيق محمد بن سليمان، ومن ثم الى كليتش تومغاتش ـ خان (ابو المعالي الحسن ابن علي، والمشهور ايضاً بلقب (حسن ـ تيغين).)، ومن بعده الى ابنه أبي المظفر تومغاتش بوغرا ـ خان محمود. ـ ذلك ما أورده ابن الاثير ـ. توفي حسن ـ تيغين في العام١١٣٢م. وكما هو معلوم، فقد قام الكيدانيون، في عهد خليفة حسن ـ تيغين محمود بن محمد، باجتياح ما وراء النهر.

والكيدانيون يُعرفون ايضاً بـ «كاراكيتاي». وهم شعب مزيج من التونغوس والمغول، وكانت لهم دولتهم «لاوو» (١١٣٤ ـ ١٢١١م) المترامية الاطراف والممتدة من المحيط العظيم وحتى بحيرة بيكال و تيان ـ شان. زاول الـ«كاراكيتائيون»، علاوة على رعاية الماشية، الزراعة والتجارة. وفي ثلاثينات القرن« ١١م» بدأوا بالتحرك غرباً عبر الاراضي القيرغيزية وتركستان الشرقية، حتى وصلوا آنذاك في الاتجاه الشمالي الغربي الى نهر «اميل» حيث بنوا مدينة وسكنوا المنطقة المعروفة حالياً بـ«تشوغوتشاك». وكان عددهم ـ نقلاً عما ذكره الاكاديمي ف. ف. بارتولد ـ زهاء ٤٠٠٠٠ كيبيتوك. وكان الحاكم القاراخاني بالاساغون قد استدعاهم نتيجة مضايقات قبيلتي «كانغلي» و«كارلوك»، اللتين كانتا تشكلان قوة عسكرية وسياسية كبيرة في سيميريتشي. أما بالنسبة للمجموعات الأخرى منهم، المتجهة الى تركستان الشرقية، فقد هزمت في مكان ما في كاشغار على يد أرسلان ـ خان أحمد ابن تومغاتش خان حسن. ونقلاً عما ذكره ابن الاثير، فقد جرت تلك الاحداث عام ١١٢٨م. وأسر زعيمهم الملقب بـ «الأحدب». أمّا أولئك الذين وصلوا الى

سيميريتشي، فسارعوا الى خلع القاراخاني الضعيف عديم الارادة واستولوا على «بالاساغون».

وهكذا أقام الكاراكيتائيون دولتهم الممتدة، في بادئ الأمر، من الـ«ينيسي» الى «تالاس». ولقب زعيمهم يليو ـ داشي بـ «غوركان» (الخان العام). وبعد ذلك، قام الكيدانيون (الكاراكيتائيون) بإخضاع الـ«كانغيل» في تركستان الشرقية. وفي عام ١١٣٧م، انتصروا على محمود ـ خان الحاكم القاراخاني في ما وراء النهر، إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق المزيد من النجاحات، حتى إنهم لم يطاردوا المتقهقرين وعادوا الى قومهم فرحين بالغنائم الكثيرة التي حصلوا عليها. إن الهزيمة في موقعة جوجينت ـ بحسب تعبير ابن الاثير ـ أثارت «الرعب والكآبة» والسخط لدى جماهير الشعب القاراخاني. وسرعان ما جدد الكيدانيون نشاطاتهم العسكرية ووصلوا الى سمرقند. ومن ناحية أخرى، في ما وراء النهر، هب السلجوقي سلطان سانجار (١١١٨ ـ ١١٥٧م) لمساعدة القاراخاني. وفي ٩ سبتمبر ١١٤١م، وفي سهل كاتاوان الممتد شمالاً حتى سمرقند، وبين تاش ـ كوبروك (الجسر الحجري) ويانغي ـ كورغان، جرت معركة دامية انتصر فيها الكاراكيتائيون على الحليفين: القاراخاني محمود والسلجوقي سلطان سانجار. وبعد ذلك، استولى الكيدانيون على سمرقند بسهولة، وبعد سمرقند خضعت للكاراكيتائيين بخارى أيضاً. وذكر مؤلف «تاريخ جهانكوشا» أنه بعد ذلك اجتاح الكيدانيون خوارزم، ولكن الخوارزم شاه اتسيز (١١٢٧ ـ ١١٥٦م) افتدى نفسه بإتاوة طائلة وتعهد بدفع ٣٠٠٠٠ دينار ذهبي الى خزينة الـ «غور ـ خان». وفي النصف الثاني من القرن «١٢م» بسط الكاراكيتائيون سلطتهم على ترمذ وبلخ، وبهذا توقف زحفهم غرباً.

بعد الاستيلاء على ترمذ وبلخ ضُمت بلاد ما وراء النهر الى ممتلكات الكاراكيتائيين الاساسية المؤلفة من (تشوي، تالاس، كاتشكو، سوسامير، وادي تشاتكال ومنخفض إيسيكول).

وعلى المدن والمناطق المحتلة عيّن غورخان نواباً له معظمهم من الحكام السابقين

او اقربائهم. كما عين لهم مسؤولاً من الكاراكيتاي، وكلّفه بجمع الإتاوات، وايضاً باستشارة الحاكم المحلي في الأمور كافة. من المعلوم أنّ بخارى كانت آنذاك تحت حكم آل (اسرة) برهان، الذين كانوا يشغلون منصب «الرئاسة» بالوراثة. وكان الشعراء يقارنون هؤلاء «الرؤساء» بالأمراء السامانيين، ويضعونهم في منزلة الملوك. قام غورخان يليو ـ داتشي بتعيين الامام أحمد بن عبد العزيز حاكماً لبخارى، وهو شقيق الصدر الثاني حسان الدين عمر الذي قتل عام ١١٤١م لدى استيلاء الكاراكيتائيين على بخارى. وجاء على لسان نظامي عروضي السمرقندي، يبدو ان النائب (الذي عين للامام أحمد بن عبد العزيز) الكاراكيتائي كان قد تلقى تعليمات بضرورة استشارة الامام في الامور كافة. أما في سمرقند، فكان قد عين ابراهيم بن محمد، شقيق الحاكم السابق محمود، الذي هرب ضمن حاشية سلطان سانجار بعد موقعة كاتوان المشهورة. إلا انه كان شخصاً ضعيف الإرادة وقتله زعماء الكارلوك في العام ١١٥٦ ـ ١١٥٧.

وبناءً على الحقائق الساطعة التي اوردها إ. أ. دافيدوفيتش، في النصف الثاني من القرن «١٢م»، كانت المملكتان القاراخانيتان: فرغانة مع اوزغيند وما وراء النهر مع سمرقند تحت سلطة أسرتين قاراخانيتين تربطهما صلة قرابة. حاول حسن ـ تيغين ابن علي، ممثل القاراخانيين الفرغانيين، الاستيلاء على سمرقند، لكن محاولته باءت بالفشل. إلا أن إبنه وخليفته، تشاغير ـ خان جلال الدين علي، نجح في تحقيقَ ما عجز والده عن تحقيقه. وهكذا، واعتباراً من عام ١١٥٦م وحتى السقوط التام لدولة القاراخانيين، بقيت السلطة على المملكتين في أيدي القاراخانيين الفرغانيين.

وبعد وفاة تشاغري ـ خان جلال الدين (حوالي العام ١١٦٠ ـ ١١٦١م) خلفه على العرش أخوه (ابنه حسب مصادر اخرى) كليتش تومغاتش ـ خان مسعود بن حسن ، الذي خاض معركة ناجحة ضد الكارلوك، وأخمد انتفاضة القائد العسكري عيار ـ بيغي. توفي كليتش تومغاتش ـ خان مسعود بن حسن بتاريخ ليس قبل العام ١١٦٩ ـ ١١٧٠م.

وبحسب معطيات النميات (علم المصكوكات) خلفه على العرش بعد وفاته، إبنه محمد بن مسعود (المتوفى حوالي العام ١١٧٣ ـ ١١٧٤م) وأيام حكمه عاود الكيدانيون حملتهم مجدداً على خوارزم عبر ما وراء النهر، في عام ١١٧١ ـ ١١٧٢م، وذلك لعدم دفع الخوارزم شاه الإتاوة في الوقت المحدد. وجدير بالذكر، وجود فصائل قاراخانية ضمن غور ـ خان. وقام الخوارزم شاه إيل ـ ارسلان (١١٥٦ ـ ١١٧٢م) بإرسال جيش بقيادة عيّار ـ بيك لملاقاة الكاراكيتائيين، إلا أن عيار ـ بيك هزم في المعركة. وبعد ذلك، قاد ايل ـ ارسلان جيوشه بنفسه، إلا أنه مرض في الطريق واضطر إلى العودة الى غورغيانج، وسرعان ما توفي هناك. بيد أن الكاراكيتائيين لم يستغلوا الفرصة هذه وعادوا الى فرغانة.

وفي العام ١١٧٨ ـ ١١٧٩م، استولى خان اوزغيند ـ ابراهيم بن حسين ـ على سمرقند وفرض سلطته على قسمي خاقانية القاراخانيين الغربيين. وفي عهده، خاض عدة معارك مع الكاراكيتائيين والغوريين والخوارزم شاه. وشارك فيها، كما في السابق، الكاراكيتائيون الغربيون. فمثلاً ساعدوا تيكيش في اعتلاء عرش خوارزم عام ١١٧٢م.

وفي العام ١١٩٧ ـ ١١٩٨م، شن الكيدانيون حملة عسكرية على خراسان، نتيجة التصرفات العدوانية للحاكم غوامي، الذي احتل منطقة بلخ التابعة للكاراكيتائيين، وأولى تبعيتها للغوري غياث الدين محمود (١٢٠٦ ـ ١٢١٢م)، الذي يبدو انه في مطلع القرن «١٣»، أرسل جيشاً الى خراسان لمحاربة الخوارزم شاه تيكيش. فخاف الأخير ان يخوض المعركة وحده واستنجد بالغور ـ خان. فأرسل لمساعدة الخوارزم شاه جيشاً جراراً بقيادة تابانكو، حاكم تاراز. لكن الحلفاء هزموا وتشتتوا على ضفة اموداريا، وذلك في أثناء عبور النهر.

وفي مطلع ق ـ ١٣م، وبعد ابراهيم بن حسين، اعتلى عرش سمرقند ابنه عثمان. وكان عهد هذا القاراخاني الأخير في سمرقند قد شهد الاحداث التالية:

في العام ١٢٠٤م، قام السلطان شهاب الدين محمد (١٢٠٣ ـ ١٢٠٦م) بمحاصرة غورغيانج. وفي خضم معارك الحصار على مشارف عاصمة خوارزم

ظهر العديد من قوات الكاراكيتائيين وخان سمرقند القاراخاني عثمان. ولما رأى الغوريون هذه القوات فكوا الحصار وتركوا خوارزم، وسارت قوات غور - خان وعثمان - خان المتحالفة متعقبة الغوري حتى اندخود. وتوارى شهاب الدين محمد خلف اسوار اندخود الحصينة، وكان ذلك في شهر سبتمبر أو بداية أكتوبر عام ١٢٠٤م. أما عثمان - خان، باعتباره مسلماً، فإنه لم يرغب في ان يقع شهاب الدين محمد اسيراً في يد غورخان غير المسلم، وتواسط بين غورخان وشهاب الدين محمد وصالحهما. أما الكاراكيتائيون، وبعد أن أخذوا فدية طائلة من الغوري، عادوا الى ديارهم.

لقد شهد العقدان الاولان من القرن «١٣م» تعاظم نشاط الدولتين الشرقيتين العظميين: دولة خوارزم في الغرب ودولة جنكيزخان المغولية في الشرق. ووجد الكاراكيتائيون أنفسهم بين فكي كماشة هاتين الدولتين، إضافة الى فك كوتشلوك (كوشلوك) الأمير النعماني العظيم.

وبدأ كل شيء في عام ١٢٠٥م، نتيجة رفض الخوارزم شاه علاء الدين محمد (١٢٠٠ - ١٢٢٠م) لدفع الإتاوة لغورخان، ومنازعته، إضافة الى ذلك، على ما وراء النهر، التي كانت آنذاك تحت سلطة الكاراكيتائيين، واتصاله بالحاكم القاراخاني عثمان واقامته علاقات سرية معه ومع غيره من الحكام.

أما غورخان فقد قام، جراء تعاظم نشاطات النيمانيين وزعيمهم كوتشلوك، بطلب العون من اتباعه ومن ضمنهم الخان عثمان، خان سمرقند. لكنه لم يتلق المساعدة المتوقعة، بل انضم خان سمرقند الى الخوارزم شاه. وأرسل غورخان ضده ٣٠٠٠٠ من جنوده، إلا أنهم أعيدوا بسبب نشاطات كوتشلوك.

وفي عام ١٢٠٧م، سار الخوارزم شاه مع الخان عثمان بجيش ضد غورخان. والتقى الجيشان: جيش غورخان والخوارزم شاه في تاراز، ولكن بعد مناوشات واشتباكات قصيرة في ظروف صعبة جداً. أخذت عمليات التمرد تظهر في جيشه، وانضم قسم كبير منه الى جيش كوتشلوك. ولم يبق أمام غورخان سوى الاستسلام لكوتشلوك.

استغل الخوارزم شاه علاء الدين محمد ذلك واحتل بخارى. أما عثمان فصار منذ ذاك الحين من اتباع الخوارزم شاه، الا انه تمرد عليه في العام ١٢١٢م. وسار الخوارزم شاه شخصياً الى سمرقند واحتلها وعمل فيها سلباً ونهباً لمدة ثلاثة ايام. أما عثمان، فقد أسر واعدم. وهكذا استولى الخوارزم شاه على ما وراء النهر بأكملها ووصل حتى اوزغيند.

وهكذا اضمحل القاراخانيون ثم الكاراكيتائيون من بعدهم بفترة قصيرة.

العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية ونظام الحكم القاراخاني

كان سكان دولة القاراخانيين يمتهنون حرفاً مختلفة. فسكان القسم الشرقي من الخانية: في تيان شان الوسطى وجزء من سيميريتشي كانوا يهتمون برعاية الماشية، وفي مدن سيميريتشي وفرغانة وما وراء النهر كانوا يزاولون التجارة، وفي وديان الانهار والسهول والمناطق المحيطة بالمدن، كانوا يهتمون بالزراعة. وتشير المخطوطات والمصادر الاثرية، الى أنه جرت في الفترة ما بين ق. ١٠ ـ ١٢م عملية انحلال العلاقات القبلية التقليدية القديمة وتفككها، ومع ذلك، تطورت العلاقات الاقطاعية في منتهى البطء، بتأثير آثار التقاليد القبلية القديمة ومخلفاتها. بينما تطورت العلاقات الاقطاعية بصورة سريعة في المناطق الزراعية ووديان انهار تشو وايلي وتالاس ومنخفض ايسيكول.

وهكذا زاول سكان الدولة القاراخانية:تربية الماشية، والصناعة والتجارة، والصيد نسبياً.

كان الرعاة الرحل يهتمون، بشكل رئيسي، بتربية الاغنام والأبقار والخيول والجمال والياك. ويعتمدون في حياتهم على ما يحصلون منها من لحوم والبان وحليب وصوف وجلد وزبدة... الخ.

وفي المرحلة التي هي موضوع دراستنا (ق ١٠ ـ ١٢م) تزداد وتائر الانتقال من حياة البداوة الى حياة التمدن.

كانت المناطق الزراعية تنتج الحبوب: القمح والشعير والحمص والبازيلا والعدس والدخن؛ والفواكه والخضار: العنب والتفاح والخوخ والمشمش والجوز والسفرجل... الخ، والقرعيات: البطيخ بنوعيه الأصفر والأحمر والخيار والبصل...الخ.

كانت الطبقة السائدة في المجتمع ابان حكم القاراخانيين، تتألف من الاقطاعيين، وجهاء القبائل الرحل وشيوخها، هذا طبعاً إضافة الى الخانات والأمراء وكبار رجال القصر. وكان يطلق على المواطنين كافة، مصطلح «بودون»، وينقسمون بدورهم الى طبقة الأغنياء (بايلار)، والمتوسطة الحال (اورتا)، والفقراء (تشيغايلار)، القسم الرئيسي المنتج. كذلك كانت طبقة أخرى من الناس لا تجيد مهنة معينة، وتعيش بواسطة فرص العمل التي تتاح لها صدفة او في المناسبات (العيارين). كانت غالبية السكان العاملين في ميدان الزراعة من العاملين بموجب المحاصصة (العقارين) وتعتمد في عيشها، بصورة رئيسية، على فلاحة أراضي غيرهم (مقابل الحصول على حصة معينة من المحصول). إضافة إلى طبقة العبيد او الرقيق.

يستدل بمعطيات المصادر، انه في دولة القاراخانيين كانت ما تزال توجد الملكية الاقطاعية، التي كانت قائمة في عصر السامانيين، لا تزال قائمة: الاراضي السلطانية، أي تلك التي انتقلت ملكيتها الى الخان القاراخاني، اراضي واملاك السامانيين وخدمهم، اراضي الديوان، أي التي تعود ملكيتها الى الدولة مباشرة، الملكية الخاصة، وأملاك الأوقاف. وطبق القاراخانيون اسلوب توزيع الأرض الى اقطاعات، الأمر الذي سبق أن تحدثنا عنه.

وفيما يتعلق بضريبة الأراضي، لم تشر المعلومات المتوافرة لدينا الى ضرائب أخرى غير «الخراج». ويبدو أن الضرائب نفسها، التي كانت مفروضة أيام السامانيين، بقيت في عهد القاراخانيين ايضاً.

وثمة معلومات كثيرة عن المدن والمستوطنات ذات التصميم المدني، وعن وضع الصناعة والتجارة في آسيا الوسطى وسيميريتشي وتيان شان الوسطى، أُشير اليها في البحوث والدراسات التي أجراها العلماء القاراخ والقيرغيز والاوزبك (ب.ب

كوجيمياكو، غ. ن. باتسيفيتش، ا. ا. اغييفا، ت. قادروفا، عبد الرزاقوف، ل. إ. الباوم، ا. احراروف وغيرهم)، وذكروا أن هذه المدن كانت متطوّرة في ميداني الصناعة والتجارة. وكانت المدن َوالمستوطنات كثيرة في هذه المنطقة. فمثلاً بلغ عددها من تاراز حتى اترار ١٣٠ مدينة، في حين بلغ عددها على الضفة اليسرى لسرداريا ١٢ مدينة (اوزغيند واركوك الخ..). وكانت المدن الضخمة في سيميريتشي ايضاً (بالاساغون، آك ـ بيشيم، المااليق، كولان ونوزكيت الخ..). وجاء انه بلغ عدد مدن واحة طشقند زهاء ٥٠ مدينة (اسفيجاب وبينكيت وتونكيت وناوكيت وبيناكيت الخ..) وكان عددها في فرغانة ٣٩ مدينة (اوزغيند واخسيكيت ومرغيلان وكوفا الخ...)، وفي اوستروشان ـ ١٢ مدينة (بوند جكيت وشهريستان الخ...) وفي واحة بخارى ـ ٢٩ مدينة.

لقد أدى موقع العديد من هذه المدن على طريق الحرير العظيم الى ازدهار الصناعات والتجارة فيها. فازدهرت في هذه المدن والقرى ايضاً الصناعات كافة: كالخزف والنسيج والحدادة والصياغة وغيرها. وساعد على ذلك توافر الخامات في البلاد، فمثلاً كانت جبال تالاس غنية بخامات الحديد والنحاس والذهب والقصدير والفيروز والنفط. والجبال القريبة من شيلجي، الواقعة في وديان تالاس، كانت مركزاً ضخماً لانتاج الفضة والرصاص، وكارامزار، شمال آخانغران، كانت منجماً لاستخراج الفضة. وكانت جبال فرغانة مناجم لاستخراج الذهب والفضة والنشادر والزئبق والحديد و النحاس والفيروز والنفط والقطران والاسفلت وغيرها. كذلك كانوا يستخرجون الفيروز والحديد والقصدير من جبال «طشقند». والذهب والنحاس والرصاص والزئبق والرخام من جبال «نورات». وبفضل توافر هذه المعادن وغيرها، تطورت صناعة التعدين في هذه المنطقة الخاضعة لسيادة القاراخانيين. واكتشف علماء الآثار بقايا المعادن المنصهرة في أطلال «بابا ـ آتا» على جبال «كارا ـ تاو». ومناجم في «تالاس»، وورشات تعدين في كارا ـ بولاك (اوستروشان)، وورشات لصهر خامات النحاس في «تشات قلعة»، وورشات لصناعة الزجاج في كوفا وسمرقند واخسيكيت واوزغيند. ومن المعادن المختلفة،

كانوا يسبكون القدور (تركستان، كوفا، بارسخان، كاشغار) والاجراس (كاشغار، بارسخان).

لقد مارس سكان القرى، والرحل حرفة الصناعة، الى حد ما. وكانت مصنوعاتهم الرئيسة من الخامات الزراعية والحيوانية.

وكانت منتجاتهم تزيد عن حاجات السوق الداخلية، فيصدر الفائض منها الى الأسواق الخارجية.

أما عن نظام الحكم لدى القاراخانيين، فيمكننا القول، إنه رغم كون زمام الحكم، بصورة شكلية، في قبضة شخص واحد، ألا وهو الخان (مقره الدائم في بالاساغون)، إلا أن السلطة كانت لا مركزية، وموزعة بين الاقرباء ورجال الحاشية المقربين، الذين يتمتعون بقسط كبير من الاستقلال وحرية التصرف في اقطاعاتهم، باختصار، كان زعيم الدولة يعتبر رمزاً. زد على ذلك، أنه في النصف الثاني من ق ـ ١١م، انقسمت دولة القاراخانيين الى قسمين مستقلين: خاقانية شرقية وخاقانية غربية.

وعلى العموم، كان نظام الحكم على النحو التالي: جرى الاحتفاظ بالكثير من الانظمة التي كانت متبعة لدى اسلافهم السامانيين، يُرى ذلك من خلال المصطلحات التي احتفِظ بها في «ديوان لغة الترك» لمحمد كاشغاري و«كوتادغو بيليك» ليوسف بالاساغوني «حاجب»، «خاص حاجب»، «اولوغ حاجب»، «وزير»، «سيباخسالار»، «خيل باشي»... الخ.

كان بلاط الحاكم الاعلى، وبلاط حاكم الاقطاع، يعرف باسم «كابوغ» (كلمة تركية ـ قشرة، صدفة، خلية)، أما المشرف على البلاط فكان (كابوغ ـ باشي، أي رئيس الخلية) وكان يشرف على شؤون خزينة الدولة، «أغيتشي» (حارس السلع الحريرية)، رئيس التشريفات، «بيروك»، الطهاة ـ «آشتشي»، خدم المائدة او النُدل ـ «اديشين»، مدبرات البياضات، «توشاكتشي»، الصقّارون، «كوشتشي»، حرس القصر، «اوك يانتشي»، رئيس الحرس، «ياشغاك» (المسؤول عن حماية الخان والقصر).

كما تصادفنا في المراجع مصطلحات مثل «يابغو» و«توكسين». ويبدو أن المقصود بهما الحكام الـ«اولوس». وهؤلاء أمراء يأتون في المرتبة الثالثة بعد الخان.

تجدر الاشارة هنا الى أنه كان للخانات حرس خاص بهم، شأنهم في ذلك شأن السامانيين.

وكان الوزراء هم الذين يشرفون على السلطة الادارية. ويبدو أنه في عهد القاراخانيين ايضاً، احتفظ بالدواوين العشرة التي كانت قائمة في عهد السامانيين. كما كان كتبة القصر (بيتيكتشي) وأمناء سر الخان يحظون بمكانة معتبرة.

وكانت القوات (كوشون) لدى القاراخانيين تعرف باسم «بيزيك»، ومقسمة الى مجموعات عدد افرادها من ١٠٠ الى ١٠٠٠ مقاتل. وكان القائد العام الاعلى يلقب بـ «سوبوشلار» (زعيم) او «سيناخسالار»، وكان يطلق على صغار الضباط المشرفين على العمليات الحربية في أثناء القتال لقب «تشابوش»، أما قائد فرقة الفرسان فكان يطلق عليه لقب «خيل باشي».

كانت الاسلحة تتألف من السيوف «كيليتش»، بلطات الحرب (بالتو)، السهام (اوك)، الدروع (يوروك)، السياط (كامتشي)، تروس الحديد (تيمور كالكان)... الخ.

أما السلطة المحلية في الولايات فقد كانت في ايدي البكوات. والمستوطنات والقرى فكان يديرها الشيوخ (كوكتشين ساكال)، وفي المدن الحكام والرؤساء.

كان علماء الدين المسلمون (الائمة، السادة، الشيوخ، الصدور، شيوخ الاسلام والقضاة) يتمتعون بنفوذ كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية.

وكما هو مألوف، فإن المراجع لا تتحدث كثيراً عن وضع الطبقة الكادحة، ولكن من الواضح أن الجماهير الكادحة كانت تستغلها وتستعبدها الطبقات الحاكمة ذات الامتيازات. إلا أنها ـ أي الجماهير الكادحة ـ كانت، ولو بصورة غير منظمة، تناضل من أجل حقوقها، كما ناضلت أيام القاراخانيين. فمن المعلوم مثلاً، أنها ثارت على مستعبديها مرتين في ثلاثينات القرن «١١م» وفي عام ١٢٠٧م، وجرت الثورتان

في ما وراء النهر، احتجاجاً على الضرائب الباهظة التعسفية. ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي، فقد كانت الثورة الاولى ضد الإلك - خان (الايلخان) بوري - تيغين الآنف ذكره، أما الثورة الثانية فقد قامت في العام ١٢٠٧م، في عهد الصدر برهان الدين محمد بن احمد، حاكم بخارى ومنطقتها، والذي عينه الكاراكيتائيون لجمع الاتاوات لهم، إلا أنه كان سيد المدينة، يتمتع بكامل الحقوق والسلطة، وأغنى شخص فيها.

ونقلاً عن ابن الاثير، وعوفي، والنشوى، فإنه كان، علاوة على منصبه كرئيس (محتسب)، يشغل أيضاً منصب «خطيب»، ويتكفل بأمواله زهاء ٦٠٠٠ من الفقهاء ينفق عليهم ويدفع لهم معاشات. وفي العام ١٢٠٦م، قام هذا «الصدر» باداء فريضة الحج بصحبة مجموعة كبيرة من افراد حاشيته ومعهم قافلة تضم عدداً كبيراً من الاغنام والخيول والجمال؛ كان عدد الجمال وحدها أكثر من مئة رأس. وبتصرفه (اساء بصورة سافرة الى أحد الحجاج) في مكة، أثار سخطاً عاماً. وسرعان ما بلغ النبأ أهل بخارى، الذين كفوا عن مناداته بلقبه «صدر جهان».

باختصار، ثار الشعب ضد الصدر برهان الدين محمد، وكان كبرياؤه وعدم لباقته في مكة مجرد مبرر لثورة البخاريين عليه. أما السبب الحقيقي، فكان يكمن في أمر آخر ألا وهو جشع صنيعة الكاراكيتائيين وأجيرهم وتعسفه. فاستولى الثائرون على المدينة، وحاصروا قصر «الصدور». وعين سينجار، المعروف بـ «سلطان سينجار» حاكماً بدل الصدر برهان الدين محمد.

خوارزم في الفترة من ق ـ ٩ الى ق ـ ١٢

كانت خوارزم، شأنها شأن عموم آسيا الوسطى، مركزاً من مراكز الحضارة العالمية. وكان اجداد الاوزبك والطاجيك والتركمان الحاليين وشعوب آسيا الوسطى الآخرين وأسلافهم من حملة راية الثقافة المادية والروحية لهذه الشعوب.

ولقد أثبتت الأبحاث والتنقيبات الأثرية، التي أجراها س. ب. تولستوف في الفترة من ١٩٣٧ ـ ١٩٤٩م، ان خوارزم كانت، في الفترة من ق ـ ٤ ق. م ـ الى ق ـ ١ ق. م، دولة عظيمة عالية التطور في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وكانت مدنها محصنة وكثيرة الاستحكامات، ولها أيضاً علاقات تجارية نشطة، ليس فقط مع جاراتها، بل مع سوريا ومصر ودول البحر الاسود. كما كانت مزدهرة ثقافياً، وذلك ما تدل عليه الآثار التي عثر عليها في توبراك ـ قلعة عالم الآثار س. ب. تو لستوف (١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م)، وهي ـ أي الآثار ـ عبارة عن رسوم تعود الى ق ـ ٣م. ويقول هذا العالم: «إن خوارزم القديمة كانت ذات ثقافة فنية لا مثيل لها. إن فن البناء الرائع، الذي يدهش الأبصار بأشكاله المهيبة، واللوحات البديعة للتماثيل الطينية المدهشة، والنقوش، والفن الرفيع للمصممين الخوارزميين القدماء، وأخيراً المنمنمات التخطيطية الكثيرة الزاخرة، تؤلف مجموعة نادرة أصيلة تشهد على استقلالية ومدى قوة ونضوج التفكير والمهارة والبراعة الفنية لبناة الحضارة الخوارزمية القديمة العريقة». (متعقبو *آثار الحضارة الخوارزمية القديمة*. ص ١٨٩ ـ ١٩٠).

وهنا تجدر الاشارة الى أن سكان خوارزم القديمة كانوا يحسنون القراءة والكتابة وكانت حروفهم مأخوذة من الحروف الآرامية.

الحقائق الاساسية للتاريخ الاجتماعي السياسي

في الماضي البعيد (٦ ق. م)، خضعت خوارزم لسلطة السلالة الاخيمينية الايرانية القديمة، وكانت تعتبر واحدة من الاقاليم الست عشر التابعة لهذه الامبراطورية. ولدى قيام الاسكندر المقدوني بغزو آسيا الوسطى (٣٢٨ ق. م)، كانت السلطة فيها لإحدى الاسر المحلية الحاكمة، وفي مطلع القرن كانت خوارزم قد انضمت الى الامبراطورية الكوشانية. وفي القرن «٣» ق.م كان الحكم لإحدى الأسر المحلية، كما أثبتت عمليات التنقيب الاثرية في توبراك - القلعة المشهورة (١٩٣٨, ١٩٤٠، ١٩٤٥ - ١٩٥٠)، العائد تاريخها الى القرن «١» ق. م، والواقعة في منطقة ناحية بيروني الحالية في جمهورية قاراقالبقستان.

وفي عام ٣٠٥م، انتقلت السلطة في خوارزم الى أسرة افريغيت، التي كانت تعتبر نفسها فرعاً من السيافوش القدماء. دام حكم الافريغيت ستة قرون (ق ٤م - نهاية ق ١٠م). وكانت عاصمتهم الأولى هي «توبراك القلعة التي أشرنا إليها أعلاه، ثم نقلت عاصمتهم الى «بيل - القلعة» (فير - فيل)، التي توجد أطلالها في ضواحي «شابّاز» (شاه عباس). هنا، ينبغي القول إنه حينما كانت آسيا الوسطى بأسرها ومناطق الضفة اليسرى لأموداريا، خاضعة لحكم الهون - الفيداريين او ما يسمون بـ «الهون البيض» (ق - ٥م)، ثم لحكم الخاقانية الألمانية الغربية (ستينات ق ٦ - ٧م). استطاعت خوارزم ان تحافظ على سيادتها وان تتبع سياسة خارجية مستقلة، وذلك ما تشير اليه المعلومات التي أوردها المؤرخ البيزنطي «ميناندر».

إلا أن الحياة الاجتماعية - السياسية التي بدأت في خوارزم اعتباراً من ق - ٤م تقريباً (تدني الحياة في المدينة وظهور طراز جديد من المستوطنات - قصور الاقطاعيين والأرسطقراطيين)، شهدت، كنتيجة طبيعية لذلك، تضعضعاً في العلاقات السياسية الداخلية، ازدادت حدته قبيل اجتياح الجيوش العربية لآسيا

الوسطى. أما عن التفكك او التفتت السياسي لخوارزم عشية هذا الحادث التاريخي المهم، فإنه لا توجد لدينا معلومات قاطعة حقيقية. اما فيما يتعلق بوضع آسيا الوسطى وتلك الأراضي على الضفة الأخرى لأموداريا، تبين المعلومات التي وصلتنا وجود مواد تلقي اضواءً ساطعة على ذلك. لقد كانت هذه الاراضي الشاسعة المترامية الأطراف مجزأة الى دويلات صغيرة متخاصمة، قبيل الاجتياح العربي. وكانت هذه الدويلات: تشاغانيان - على رأسها تشاغان - خودات، ترمذ - يحكمها ترمذ - شاه، وامارات واشجيرد، قوباديان وخوتالان، الواقعة بين نهري وحش وبيانج وكيرّان، شوغنان وواحان، الواقعة في منطقة جمهورية غورنو - باداخشان ذات الحكم الذاتي - حالياً - التابعة لجمهورية طاجيكستان، راشت وكوميد في اعالي وحش (كاراتيغين حالياً)، وسكانهما من الكوميج الناطقين باللغة التركية، وبوتيم في اعالي باداخشان. وكانت سغد وحدها تتألف من ثلاث دويلات صغيرة: سغد - عاصمتها سمرقند. وكانت تشتمل حدودها على حوض زرافشان من بيانجيكينت وحتى كيرمين، الجزء الغربي من وادي زرافشان - وعاصمته بخارى - إمارة فاردان - حاكمها فاردان خودات. كذلك كانت فرغانة تتألف من عدة دويلات: خوجينت، اوستروشان وشاش. طبعاً لم تكن خوارزم استثناءً، وذلك ما تؤكده المعلومات المقتطفة التي اوردها الطبري والمقدسي. فمثلاً يورد الطبري، اضافة الى لقب «خوارزمشاه» لقب «ملك» التابع للاول من حيث المنصب، طبعاً بصورة اسمية. اما المقدسي، فيقول إنه فقط في ضواحي ميزداخ قلعة وحدها (ميزداخ قلعة - مدينة قديمة قرب خوجيلي الحالية) كان فيها ١٢٠٠٠ قصر محصن كل واحد مبني على حدة، تعود ملكيته للاقطاعي الحر او المستقل او الارسطقراطي.

اختصاراً، كان التفكك السياسي والعداء والصراع العسكري الدائم بين الدويلات، عوامل حاسمة مهدت السبيل أمام القادة العرب لفتح آسيا الوسطى وخوارزم. فمثلاً، يورد الطبري إثباتات قاطعة بأن الامراء المحليين، كي يتغلبوا على أعدائهم، لجأوا إلى الإستعانة بالقادة العرب، الذين كانوا يتخذون مواقعهم على الضفة اليسرى لأموداريا.

وهكذا، في العام ٧١٢م، هب العرب لنجدة الخوارزمشاه اسكاجوار في حربه ضد أخيه خورزاد والاقطاعيين الخوارزميين المتمردين. وسرعان ما ظهرت القوات العربية بقيادة الأمير عبد الرحمن في مدينة خزرساب، التي تُعد ثالثة المدن الرئيسية الخوارزمية بعد غورغيانج وفير، حيث ألقي القبض على خورزاد. وبموجب المعاهدة وافق الخوارزمشاه اسكاجوار على ان يدفع للعرب إتاوة حجمها ١٠٠٠٠ رأس من الماشية. كما أعدم ٤ آلاف من المتمردين مع زعيمهم خورزاد، بناءً على أمر من قتيبة ابن مسلم. الا ان قتيبة لم يستطع ان يسلب خوارزم سيادتها واستقلالها. ونقلاً عن ابي ريحان البيروني، اضطر لترك اسكاجوار على عرش خوارزم، ومغادر ة البلاد. ويضيف البيروني: «وكانت سلطة خوارزم في أيدي هذه الاسرة (أسرة افريغيت ـ ب. أ) تارة، وفي أيدي غيرها تارة، وظل الأمر على هذا المنوال الى أن فقدت سدة الحكم ومقام الشاه الرفيع بعد (وفاة الافريغيتي الأخير) الشهيد عبد الله محمد بن احمد بن عراق، ابن منصور بن عبدالله بن تركاساباس بن شاوشافار بن اسكاجاموك بن اسكاجاوار بن صابر بن صخر بن ارساموخ. في أيام الأخير ـ كما قلت ـ ظهر الرسول (صلعم)...» *(آثار الاجيال الماضية، ص ٤٨)*.

لقد أثارت خيانة اسكاجوار، ولا سيما قتله لخورزاد والعديد من مؤيديه، سخط الشعب الخوارزمي، لأن خورزاد وأنصاره كانوا يرفضون ظلم الاقطاعيين والارسطوقراطيين، ويناضلون في سبيل العدالة الاجتماعية ومشاعية الأموال والأملاك. ونقلاً عن س. ب. تولستوف، فقد كانت ثورة خورزاد من حيث جوهرها «حركة شعبية تضم الفلاحين ودهماء المدينة، ومناوئة للاقطاعيين سكان القصور الفخمة، والنبلاء ذوي السلطة الطامحين للاقطاعية». *(متعقبو آثار الحضارة الخوارزمية القديمة العريقة، ص ٢٢٤)*. لذا، وفور خروج الجيش العربي ـ كما ذكر البيروني ـ ثار الشعب الخوارزمي على اسكاجوار، الذي ألقي القبض عليه وقتل. أدى ذلك الى عودة قتيبة الى خوارزم مرة أخرى، فسحق الثورة بمنتهى القسوة والعنف، الأمر الذي نجد بخصوصه معلومات قيمة لدى أبي ريحان البيروني. وتولى العرش اسكاجاموك، ابن الخوارزمشاه المقتول. وعندئذ فر عدد كبير من أنصار خورزاد الى خاقانية الخزر المجاورة.

اما عن الوضع الاجتماعي ـ السياسي لخوارزم في ق «٨م» ـ والربع الاول من ق «٩م»، فالمعلومات المتوافرة لدينا قليلة جداً، والذي نعرفه ان البلاد كانت داخلة ضمن الخلافة، بدليل أنه كان الى جانب الشاه، المنتمي الى أسرة افريغيت، والٍ يدير شؤون البلاد ـ مع الشاه ـ عينه نائب الخليفة في خراسان. لكن هذه التبعية كانت اسمية، واستطاعت اسرة افريغيت المحافظة على الاستقلال الفعلي للبلاد حتى عام ٩٩٥م. أما تبعيتها للخلافة، فكانت تكمن في دفع الخراج في أوانه، وتقديم قوة عسكرية مساعدة. ذلك ما كان يطلبه الخليفة ونائبه في خراسان. وعن الاحداث السياسية في تلك الفترة، ذكر انه في العام ٧٢٨م جرت عملية تمرد قام بها سكان كوردير، المدينة التجارية الصناعية الضخمة آنذاك، الواقعة مكان تشيمباي الحالية أو قريباً منها. ولم تردنا أي معلومات فيما يتعلق بتفاصيل هذا التمرد ونتائجه وأسبابه. ولكن من الواضح، انه كان ثورة ضد الاستغلال التعسفي والضرائب الباهظة. وثمة حدث آخر جدير بالاهتمام، ألا وهو محاولة حاكم خوارزم انشاء تحالف مناوئ للعرب، ولوجود الوالي العربي في خوارزم، وللتخلص كلياً من وصاية الخلافة.

فمثلاً، تفيد المعلومات المستقاة من المراجع الصينية انه في العام ٧٥١م قصد الخوارزمشاه شاوشافار (شاوشي ـ فين المصادر الصينية) الصين، مقترحاً عقد حلف ضد العرب. ولكن بم انتهت سفرته؟ هل وصل الى عاصمة الصين أم لا؟ لم يرد في المصادر أي معلومات بهذا الشأن. وكما هو معلوم جرت في العام نفسه (٧٥١م) في تالاس معارك دموية طاحنة بين الصينيين والمسلمين. وكان الجيش الصيني بقيادة القائد المشهور غاوو ـ سيان ـ تشجي، في حين كان جيش المسلمين، الذي يضم عدداً كبيراً من المقاتلين من آسيا الوسطى، بقيادة زياد بن صالح، وكما هو معروف، مُني الصينيون بهزيمة فادحة ساحقة. وبعد ذلك، كان من المستبعد أن تمارس الصين سياسة عدوانية نشطة ضد العرب عامة، او ضد آسيا الوسطى وخوارزم.

ومن الاحداث المهمة في تاريخ خوارزم في القرن الثامن والنصف الاول من القرن التاسع، انقسام خوارزم الى دولتين مستقلتين: جنوبية، عاصمتها كيات

(فير، قيل)، عاصمة خوارزم القديمة، ويحكمها خوارزمشاه (من سلالة افريغ)، وشمالية، عاصمتها جورجانيا (غورغيانج)، ويحكمها أحد الأمراء المحليين. ودامت الدولتان مستقلتين حتى قام حاكم اورغينتش مأمون بن محمد (المتوفى عام ١٠١٧م) الذي كان تابعاً للسامانيين، بالقضاء، في العام ٩٩٥م، على أسرة افريغ، وضم الجزء الجنوبي من خوارزم الى مملكته.

وإذا ما حللنا المعلومات الواردة في المراجع تحليلاً دقيقاً، فان خوارزم، في الفترة من ق «٩م» ـ ق «١٠م»، لم تتعرض لأي ضغوط خارجية كما كان وضعها في القرن السابق. ما من شك في ان ذلك ساعد على تطور الزراعة والصناعة والتجارة، ما ادى الى تطور المدن، مركز المنتجات الصناعية والتجارة. فالاسطخري (حوالي ٨٥٠ ـ ٩٧٤م) الذي كتب في الفترة من العام ٩٣٠ ـ ٩٣٣م، يورد مثلاً اسماء ١٣ مدينة من مدن خوارزم: خوارزم (كاس)، دارغان، خزراسب، خيوه، خوشميسان، ارداخوشميسان، سفرداز، نوزڤار، كردارانخوش، كاردار،باراتيغين، مازمينيا وجورجانيا. وبعد مرور ٥٠ عاماً، بلغ عددها، نقلاً عن المقدسي خلال الفترة (٩٤٧ ـ ١٠٠٠م) اكثر من ٣٠ مدينة، وهي: كاس، غارديان، ايخان، ارزاخيوه، نوكراغ، كاردار ميزداخكان، جاشيرا، سدوار، زاردوخ، باراتيغين، مادكامينيا (على الضفة اليمنى لأموداريا)، جورجانيا، نوزوار، زمخشر، روزوند، وازارماند، فاسكاخانكاس، راخوشميسان، مادامیسان، خيوه، كاردارامخاس، خزراسب، خيغيربيند، جاز، دارغان، جيت، جورجانيا الصغرى، جيت الثانية، سادفار، ماساسان، كاردار، انداراستان (على الضفة اليسرى للنهر).

اما في المدن وفي الأرياف، والقرى الى حدٍ ما، وفي الفترة من (ق ٩ ـ ١٠م)، فقد كانت الصناعة والتجارة متطورتين جداً، زد على ذلك، ان خوارزم كانت تسهم في التجارة الدولية إسهاماً فعالاً، وذلك ما تؤكده قائمة السلع المصدرة الى المدن والبلدان الأخرى، والتي اوردها المقدسي: «.... فراء السمامير وحيوانات القاقم والسناجيب والظربان وبنات عرس والسناسير والثعالب والقنادس والارانب والماعز، والشمع، والسهام، وقشر البتولا، والقبعات العالية، وصمغ الاسماك،

وأسنان السمك، وزيت الخروع، والعنبر، وجلود الخيول، والعسل، والجوز المقشور، والصقور، والسيوف، والدروع، والرقيق السلافيون، والغنم والبقر، كانت كل هذه الأشياء تصدر من بلغار، علاوة على ذلك العنب، كميات كبيرة من الزبيب، معجنات اللوز، والسمسم، والاقمشة الجوخية المقلمة، والسجاجيد، وقطع كبيرة من الجوخ، وأقمشة للهدايا، وأغطية من القماش، والقفول، والارانج[1]، والرماح، التي لا يستطيع استخدامها الا الرجال الاقوياء جداً، راخبان[2]، والامصال، والسمك، والقوارب...» ويلاحظ من القائمة الطويلة للسلع المصدرة من ترمذ، سمرقند، فرغانة، ايسفيجاب (سايرام) وتركستان، أنها تضم سلعاً كثيرة محلية الصنع. ويشير الثعالبي (٩٦١ - ١٠٣٨م) الى قماش «الديبقي» الواسع الانتشار في خوارزم والذي كان يصنع في مدينة ديبق المصرية، والبطيخ الخوارزمي الذي كان يجلب حتى الى قصر الخليفتين المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) والواثق (٨٤٢ - ٨٤٧م) في صناديق خاصة من الرصاص ومحاطة بالجليد. ومن المعلوم ايضاً، أن التجار الخوارزميين كانوا يتاجرون ليس في بلدهم فحسب، بل اشتهروا في الخارج ايضاً. ونقلاً عن الاسطخري، كانوا «الممثلين الرئيسيين لفئة التجار في خراسان ايضاً» وانه «كان بالامكان أن يرى المرء في كل مدينة من مدن خراسان عدداً كبيراً من الخوارزميين الذين يمتازون عن السكان المحليين، كما هو حاصل حالياً، بقبعاتهم العالية».

وكما نعلم، فإنّ التطوّر الاقتصادي يؤدي بدوره الى تطور العلوم والثقافة وتنشيطهما. ونقلاً عن المقدسي: «فانهم (أي الخوارزميين) اناس عقيدة وعلوم وفقه، وقدرة وموهبة وثقافة»، وإنه في مدن الخلافة نادراً ما وُجد إمام (عالم) في الفقه، والأدب او القرآن، إلا وكان لديه تلميذ خوارزمي يحرز تقدماً في العلوم». باختصار، لقد أسهمت خوارزم في النهضة الاقتصادية في القرنين ٩ - ١٠م، كما أسهمت بخارى في تطور العلوم والثقافة. وما ظهور مجمع المأمون

---

١ - نوع من الاقمشة القطنية.

٢ - نوع من الجبن.

للعلوم في العاصمة الخوارزمية، حيث عملت مجموعة من نخبة العلماء البارزين أمثال: أبي نصر منصور بن عراق، الخوارزمي، كاماري، الكاسي، أبي ريحان البيروني، ابن سينا وغيرهم، الا نتيجة لهذه النهضة الاجتماعية الاقتصادية. واضافة الى النهضة الاجتماعية الاقتصادية، ينبغي الأخذ في الاعتبار التربة الثقافية الخصبة المحلية المتشبعة بالثقافات والآداب القديمة العريقة للشعوب المجاورة، وخصوصاً ثقافة الشعبين الايراني والهندي.

حكم المأمونيون خوارزم المتحدة مدة ربع قرن فقط (حوالى ٩٩٢ ـ ١٠١٧م)، والمعلومات عن حكمهم قليلة جداً. وأورد أبو الفضل البيهقي (٩٩٥ ـ ١٠٧٠م) في كتابه (تاريخ مسعود) ما مضمونه ان المأمونيين، ولا سيما أبا علي مأمون الاول ابن محمد (٩٩٢ ـ ٩٩٧م) وخليفته أبا الحسن علي بن المأمون الاول (٩٩٧ ـ ١٠٠٩م)، الذين استغلوا تدهور أوضاع السامانيين وضعفهم، وسعوا بصورة علنية إلى تحقيق استقلال خوارزم، وباشروا بتعزيز قوتها العسكرية، ما اثار تخوفات سلطان محمود الغزنوي والخليفة. لقد كان الأول خائفاً على خراسان، أما الخليفة القادر (٩٩١ ـ ١٠٣١م) فلم يكن راغباً في ظهور دولة مستقلة أخرى في شرق الخلافة. وبعبارة أخرى، إذا كان الغزنوي يطمح الى إخضاع الدولة الغنية المتقدمة ثقافياً لسلطته، فقد كان الخليفة يسعى الى إثارة النزاعات بين هاتين الدولتين لاضعافهما، ثم لابقائهما في فلك دولته، ولو اسمياً. كان هدفهما واحداً إلا ان تكتيكهما كان مختلفاً. فقد قرر الغزنوي مصاهرة المأمونيين، وزوج أختيه: الاولى لأبي الحسن علي بن المأمون الاول، والثانية لأخيه ابي العباس المأمون الثاني (١٠٠٩ ـ ١٠١٧م). هذه هي السياسة المفضلة لدى حكام الشرق إزاء من ينوون اخضاعه لنفوذهم في المستقبل القريب. أما بالنسبة للخليفة، فمن الجلي أنه كان يحاول إثارة الخلاف واشعال فتيل الحرب بين الخوارزمشاه وسلطان محمود، كما ذكرنا آنفاً، وانهاك قواهما. وهكذا، ذات يوم أرسل مبعوثه الى خوارزم وبواسطته ـ كما ذكر ابو الفضل البيهقي ـ « بعث له (اي الى الخوارزمشاه ـ ب. أ) ثوباً، و كتاب تكريم، ولواءً ولقب شرف «عين الدولة وزين الملكة» (*تاريخ مسعود، ص ـ ٨٠٩*).

كان الخليفة يعي جيداً أن مثل هذا التكريم والاهتمام إزاء رجل تابع له من مستوى شخص كالخوارزمشاه سيثير السخط الشديد لدى الغزنوي، إذ ان الخليفة بتصرفه هذا يساويه به (أي بالغزنوي). وذلك ما حصل بالفعل، وقرر سلطان محمود إخضاع خوارزم مهما كلفه من ثمن، فأرسل الى أبي العباس المأمون مبعوثاً حمله اقتراحاً بأن يخطب له على المنابر. ويقول أبو الفضل البيهقي: «لقد دب الرعب والفزع في قلب الخوارزمشاه من جراء قوة سلطان محمود التي أثارت الدنيا واقعدتها، واستبد به الأرق».

وعقد الخوارزمشاه اجتماعاً دعا اليه رجال الدولة والقادة العسكريين، وأعلن أنه يريد أن يخطب للسلطان محمود على المنابر «وإلا، فانه يخاف على نفسه وعليهم وعلى سكان الولاية». إلا أن معظم المجتمعين أعربوا عن رفضهم، ولم يخطب باسم السلطان. وبعد ذلك قام الخوارزمشاه باتخاذ خطوات للتحالف مع القاراخانيين ضد السلطان محمود. ولما علم السلطان بذلك نقل مقر قيادته من غزنة الى بلخ، واخذ يستعد لمحاربة الخوارزمشاه. وبعد ذلك، وجه الى الخوارزمشاه انذاراً نهائياً جاء فيه: «تخطب (باسمي) طواعية وبمحض رغبتك... وترسل (الينا) التبرعات والهبات... التي تليق بنا». فخاف الخوارزمشاه وقرر أن يخطب باسم السلطان في نسى وفاراو والمدن الاخرى ما عدا فير وغورغيانج، وأرسل الى السلطان ٨٠٠٠٠٠ دينار نقداً و٣٠٠٠ رأس من الخيل، مع وفد من الشيوخ والقضاة والوجهاء، «لحل هذه المشكلة، والمحافظة على العلاقات الودية، وكي لا تثور الاضطرابات والفوضى». إلا أن الخوارزمشاه، ابا العباس المأمون الثاني، قد اخفق في منع وقوع الكارثة. فقامت القوات المتمركزة في خزراسب، بقيادة الحاجب الاكبر علي - تيغين البخاري، بسحق المعارضين كافة وإبادتهم، وإذ تركت مواقعها زحفت الى غورغيانج، وحاصرت العاصمة. واختفى الخوارزمشاه داخل حصن (كوشك)، الا أنهم أحرقوه ودخلوا الى مخدعه وقتلوه. ونقلاً عن أبي الفضل البيهقي، أن هذه الأحداث قد جرت في يوم الأربعاء في أواسط شهر شوال ٤٠٧م (١٦/ مارس/ ١٠١٧م). وأُجلس على العرش ابن اخيه (باردار - زاده) أبو الحارث محمد بن علي

بن المأمون وعمره ١٨ سنة. إلا أن أحداً من الأمراء والوجهاء لم يرغب في إطاعته، وراح كل يتصرف على هواه».

وهكذا بقيت خوارزم في أيدي المغتصبين مدة اربعة اشهر. حتى إذا سمع سلطان محمود بذلك، قرر «الثأر لدم صهره، وقتل قاتل صهره والاستيلاء على المملكة الموروثة». وبعد استعداد تام، وفي الأيام القائظة من العام ١٠١٧م، زحف السلطان على خوارزم، حيث أباد القوات الخوارزمية عن بكرة أبيها، أما قادتها: الب ـ تيغين البخاري، خومارطاش شيرباي، وشاد ـ تيغين خاني، فقد أُلقوا ـ بناءً على أمر سلطان محمود ـ تحت الفيلة لتدوسهم. ودخل سلطان محمود مدينة غورغيانج، في حين تم عزل أبي حارث محمد. وجلب سلطان محمود خزينة خوارزم الغنية الى عاصمته. وهكذا تم القضاء على أسرة المأمونيين (١٠١٧م)

وطوال سبعة عشر عاماً (١٠١٧ ـ ١٠٣٤م)، بقيت خوارزم تحت حكم الغزنويين، يشرف على ادارة شؤونها أحد المقربين من سلطان محمود، وهو الأمير التون ـ طاش وابناه: هارون بن التون ـ طاش، واسماعيل خان بن التون ـ طاش.

وخلال الفترة ما بين (١٠٤١ ـ ١٠٧٧م) حكمها الاوغوزي «يابغو» من جيند: شاه ـ ميليا والمقربون منه.

وفي العام ١٠٩٧م انتقلت السلطة في خوارزم إلى أيدي الأنوشتيغيين (١٠٩٧ ـ ١٢٣١م)، الذين كانوا في بادئ الأمر تابعين للسلاجقة. وبالتالي، أصبحت خوارزم إبان حكمهم، أعظم دولة في آسيا الوسطى وايران، وتشتمل مساحتها، علاوة على خوارزم، ما وراء النهر، وخراسان، ومازندااران، وكيرمان، وسيستان، والعراق وبلاد العرب، واذربيجان، وغزنة وبلداناً أخرى.

كان انوش ـ تيغين مؤسس السلالة الجديدة، وهو من أصل تركي، وعبداً لـ«سيناخاسالار» السلجوقي عز الدين أونار بيلغا ـ تيغين (المقتول في العام ١٠٩٨م)، الذي بلغ في عهد ملك ـ شاه الأول (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) منصب «تاشتدار» (أمين أدوات غسيل السلطان). وفي العام ١٠٩٧م عين السلطان هذا الشخص المقرب

منه قائد شرطة (شيخني) في خوارزم. بيد أنه كان نائب الوالي، ذلك أن الوالي الذي عين كان ايكينتشي كوتشكار، احد مماليك سلطان سانجار، ابن الملك شاه الأول. بعد وفاة انوشتيغين (١٠٩٧م) خلفه على الولاية - ولاية خوارزم - إبنه - ابن انوشتيغين - كتب الدين محمد، الذي نال لقب «خوارزمشاه». وفي عام ١١٠٠م عينه سلطان سانجار، حاكم ايران الشرقية، (١٠٩٧ - ١١١٨م) حاكماً على خوارزم، وذلك تقديراً له لتفانيه في خدمته ومشاركته الدائمة في الأعمال العسكرية ونقله الى مرو، سنوياً، ايرادات الضرائب والخراج طيلة فترة حكمه الذي دام ٣٠ سنة (١٠١٧ - ١١٢٧م).

وبعد وفاة قطب الدين محمد، عين السلطان سانجار محله ابنه أبا مظفر علاء الدين اتسيز. وكان هذا انساناً ذكياً شجاعاً، يقدر العلم والفن، ويجيد الشعر ويهتم بالعلماء ورجال الفن والأدب. في بادئ الأمر، كان علاء الدين اتسيز مخلصاً ووفياً في خدمته لسلطان سانجار، الذي اصبح الحاكم الأعلى (١١١٨ - ١١٥٧م) لدولة السلاجقة، إذ سانده في سحق ثورة ارسلان محمد بن سليمان في العام ١١٣٢م، وتسلم قيادة الجناح الأيسر (جافانغار) لجيشه في أثناء محاربة قوات مسعود بن محمد تابار، وكان الى جانب السلطان في حملته على الغزنوي بهرام شاه في خريف ١١٣٥م وهلمجراً. وهكذا مضت عشر سنوات (١١٢٨ - ١١٣٨م)، إلا أنه ظل طوال هذه المدة يفكّر دائماً في الحصول على الاستقلال. ولذا حاول جاهداً تعزيز سيادة دولته وتقوية جيشه. وإضافة الى ذلك، اعتدى على الاوغوز في سرداريا السفلى واستولى على عاصمتهم جيند من دون علم السلطان. كما احتل آنذاك مينغ - كيشلاك.

أدى ذلك الى استياء السلطان سانجار، وفي أكتوبر ١١٣٨م، زحف بجيش كبير على خوارزم، حيث دارت معركة بينه وبين تابعه السابق في موقعه خزراسب، هزم فيها علاء الدين اتسيز، ومنح السلطان خوارزم كاقطاع لابن أخيه سليمان شاه. ولكن حال عودة السلطان الى مرو (عام ١١٣٩م) تمكن اتسيز من طرد سليمان شاه واستعادة خوارزم. وكي لا تزداد العلاقات تعقيداً بينه وبين السلطان،

بعث اتسيز اليه رسولاً لابلاغه رغبته في تقديم الولاء والطاعة للسلطان والتعبير عن اعتذاره. قبل السلطان اعتذاره، وما كاد يمر بعض الوقت حتى عاد اتسيز لمواصلة سياسته السابقة. وفي العام ١١٣٩م اجتاح غورغون واحتل منطقة كابود - جام. وفي العام نفسه، اعتدى على بخارى وقتل نائب سلطان سانجار فيها، ودمر حصونها وعاد بغنائم كثيرة. ولكن ما إن علم بزحف الكاراكيتائيين حتّى خاف على مملكته وعاد الى خوارزم، واعتذر مجدداً للسلطان وأعرب عن طاعته له.

ومن ناحية أخرى، ولاضعاف يقظة الخليفة المقتدر (١١٣٦ - ١١٦٠م)، بعث اتسيز رسولاً الى بغداد أيضاً، أعرب بواسطته عن ولائه وطاعته للخليفة. ورداً على ذلك أرسل له الخليفة ثياب شرف وهدايا وكتاباً يعترف به فيه ملكاً على الأراضي الخوارزمية. وبموجب هذا الكتاب خُلع على اتسيز لقب «سلطان». ومنذ ذاك الحين، بالتحديد (عام ١١٤١م) باشر علاء الدين اتسيز بصك النقود باسمه. وباختصار، بدأ عهد استقلال خوارزم اعتباراً من العام ١١٤١م. ولكن كان لا بد ايضاً من ان يتخلص من وصاية السلطان سانجار. ولذا عاد يتزلف اليه من جديد، فراح يرسل له الهدايا ويعرب عن ولائه وطاعته له. لكنه كسياسي مجرب، كان يعرف جيداً دنو اليوم الذي ستتخلص فيه خوارزم من التبعية وستنال فيه استقلالها التام. وبالفعل حان هذا اليوم، وظهر في آسيا الوسطى عدوّان خطيران لسلطان سانجار: الكاراكيتاي والاغوز.

وكما أشرنا آنفاً، اجتاح الكاراكيتائيون ما وراء النهر في العام ١١٣٧م. وقام حاكم سمرقند القاراخاني محمود بن أرسلان - خان بمحاربة الـ «غورخان» في موقعة خوجيند، التي انتهت بهزيمة القاراخاني. وبعد دخول سمرقند، بعث محمود ابن ارسلان - خان رسولاً الى سلطان سانجار يطلب منه العون. فقام سلطان سانجار بجمع جيش كبير من ولاياته كافة: غور، وغزنة، وسيستان، ومازانداران، وفي يوليو ١١٤١م، زحف إلى ما وراء النهر، وقرر بالدرجة الاولى تأديب الكارلوك - اعدائه القدماء - إلا أنهم تفادوه وهربوا الى الكاراكيتائيين.

ودارت المعركة بين سلطان سانجار والكاراكيتاي في ٩ سبتمبر ١١٤١م، في

منطقة كاتاوان الصغيرة الواقعة على بعد خمسة فراسخ عن سمرقند، وانتهت بانتصار الكاراكيتاي. وذكر ابن الاثير ان السلاجقة تكبدوا خسائر جسيمة. وهرب سلطان سانجار مع عدد صغير من خدمه، فانتهز الخوارزمشاه اتسيز هذه الفرصة واستولى على مجموعة من المناطق الشاسعة التابعة للسلاجقة: سيرخاس (١١٤١م)، مرو (١١٤٢م)، نيسابور (١١٤٢م)، بيهق (١١٤٢م) وفاريوماد (١١٤٢م).

وتجدر الإشارة هنا الى الحلف القديم المعقود بين الخوارزمشاه والكاراكيتائيين. حيث اتخذ الخوارزمشاه موقفاً حيادياً في معركة كاتاوان ولم يساعد سلطان سانجار؛ الأمر الذي فعله اتباعه الآخرون. وناهيك عن ذلك، فقد وقع اتسيز معاهدة صداقة وتعاون مع «غورخان»، وتقديراً لذلك عين غورخان قريبه اتما ـ تيغين شريكاً له في حكم بخارى بدلاً من الإمام أحمد بن عبد العزيز من آل برهان.

وبعد مرور زهاء ثلاث سنوات على هذه الأحداث استطاع سلطان سانجار إعادة الأوضاع الى ما كانت عليه من قبل، وفي العام ٥٣٨هـ (١١٤٣ ـ ١١٤٤م) سير جيشاً كبيراً لمحاربة الخوارزمشاه اتسيز وحاصر غورغيانج العاصمة، بيد انه أخفق في الاستيلاء عليها. أما اتسيز فتصرف بطموح أكبر، وما إن عاد السلطان الى مرو (عام ١١٤٥م) حتى خفّ الى المناطق الواقعة في سرداريا السفلى، واحتل مدينة جيند.

وفي خريف ١١٤٧م، زحف سلطان سانجار مرة ثانية على خوارزم، وحاصر الخوارزمشاه اتسيز في قلعة خزراسب مدة شهرين، ثم انقض عليها واحتلها من دون معارك. ثم اقترب عن كثب من غورغيانج. ورأى الخوارزم عدم جدوى الاستمرار في المقاومة، فقرر عقد اتفاقية سلام مع السلطان، وخرج من القلعة المحاصرة، وفي ٢ يونيو ١١٤٨م، مثل أمام سلطان سانجار معرباً عن ولائه له.

إلا أن اتسيز نكث بعهده مرة أخرى، ففي ربيع ١١٥٢م، سار الى ضفاف سرداريا، واحتل جيند، حيث عين نائباً له فيها.

في خمسينات وستينات القرن ـ ١٢م، وقعت دولة السلاجقة وسلطان سانجار في مأزق حرج. ففي العام ١١٥٢م، قام الغوريون، أتباع السلاجقة في الماضي، بتدمير جيش سلطان سانجار، واحتلال بلخ، ثم غزنة، واعلنوا استقلالهم، وكفوا عن إرسال الإتاوات السنوية الى مرو. وفي تلك السنة نفسها احتل الغوري علاء الدين حسين مدينة هرات. وسرعان ما شقت سيستان عصا الطاعة. ومن جانب ما وراء النهر تضاعفت تهديدات الكاراكيتائيين.

ولقد ساعدت هذه الظروف الخوارزمشاه اتسيز على نيل الاستقلال التام لخوارزم عن السلاجقة. وينبغي لنا هنا القول إن اتسيز يعتبر مؤسس الدولة الخوارزمشاهية ـ الأنوشتيغية.

وبعد علاء الدين اتسيز جاء ابنه ايل ـ ارسلان (١١٥٦ ـ ١١٧٢م). وكانت أول خطوة أقدم عليها أن طهر البلاد من «الاعشاب الطفيلية الضارة»، فسجن أخاه سلطان ـ شاه، وأعمى أخاه الثاني، وأعدم جل الذين كانوا يؤيدون سلطان ـ شاه. وكان من خطواته أيضاً أنه زاد رواتب العسكريين وحجم الاقطاعات، الأمر الذي سبق لنا ان تحدثنا عن جوهره آنفاً.

ان فترة حكمه التي دامت ١٧ سنة، أمضاها في صراع مع السلطان العراقي، وذلك لتوسيع حدود مملكته على حساب إيران الغربية واذربيجان، وتحرير البلاد من سلطة الكاراكيتائيين.

وحقق ايل ـ ارسلان نجاحات في خراسان والعراق بفضل النزاعات الداخلية التي بدأت هناك فور وفاة سلطان سانجار (عام ١١٥٧م). وكان من أبرز الأمراء المتنازعين: ايبيك، سونكور، آي ـ تيغين وخصوصاً آي ـ آبا، الذي احتل في العام ١١٦٢م نيسابور، وأعمى ولي العهد سلطان محمود ـ خان وابنه جلال الدين، وخطب على المنابر له وللخليفة المستنجد (١١٦٠ ـ ١١٧٠م). وبعد ذلك، سرعان ما استولى على طوس، وابي ورد، وشهريستان، وبيستام ودامغان، وفي العام ١١٦٣م استولى على كوميس.

بادئ ذي بدء، أراد الخوارزمشاه ايل - أرسلان وضع حد لأعمال آي - آبا العدوانية، فشن حملة ضده وحاصر نيسابور. على أن هذه الحملة باءت بالفشل، فعقد معاهدة سلام مع آي - آبا، وعاد الى خوارزم. بيد أن آي - آبا لم يكف عن اعماله العدوانية، إذ ما كاد ايل - ارسلان يغادر ضواحي نيسابور، حتى قام في العام ١١٦٥م، بمحاصرة نسى، المجاورة لاراضي الخوارزمشاه الذي تأهب لمحاربته. فما إن علم آي - آبا بذلك حتى فك الحصار وتراجع الى نيسابور. أما وضع خوارزم، فكان يتعزز من يوم لآخر. واعترف عمر بن حمزة النسوي بالسلطة العليا للخوارزمشاه وخطب باسم ايل - أرسلان على المنابر. وبعد ذلك، احتل الأخير ديخيستان دون أي صعوبة، وهرب حاكمه الأمير ايبك الى آي - آبا واتحد معه. وسرعان ما اقاما اتصالات مع سلطان العراق سلطان - شاه والاتابك ايلديغيز (١١٣٧-١١٧٦م).

وفي العام ١١٦٧م، شن الخوارزمشاه حملة ضد الاتابك ايلديغيز، ودارت بينهما معركة في بيستام، إلا أن القوى لم تكن متكافئة. ورغم ذلك تمكن ايل - ارسلان من احتلال بيهق وسابزيوار، فاضطر الأمير آي - آبا للفرار. عندئذ احتلت الجيوش الخوارزمية نيسابور أيضاً، ولم يبق أمام آي - آبا سوى الاعتراف بالسلطة العليا للخوارزمشاه. ولما تلقى الاتابك ايلديغيز هذا النبأ اضطر إلى مغادرة بيستام. وهكذا بدأت انتصارات الخوارزمشاه في ايران الغربية.

كذلك استطاع ايل - ارسلان أن يستميل أيضاً الى جانبه إينانتش - خان، حاكم الري ومحافظتها. وفي العام ١١٦٧م، قامت القوات الخوارزمية بالاشتراك مع قوات اينانتش - خان بإلحاق الهزيمة بسلطان ارسلان - شاه والاتابك جهان بهلوان ابن ايلديغيز في موقعة «ساوى». وعقب ذلك، توغلت القوات الخوارزمية في اذربيجان واحتلت مدنها المهمة مثل ابهر، وزاندان وقزوين.

عين اينانتش - خان نائباً للخوارزمشاه في عراق فارس واذربيجان اما بالنسبة إلى الكاراكيتائيين، فانهم اجتاحوا أراضي خوارزم في العام ١١٧١م، ما اضطر الخوارزمشاه ايل - أرسلان الى الانسحاب بقواته الرئيسية الى أموليا. وكي

لا يتمكن الكفار من احتلال العاصمة فوراً، أمر بفتح عيون خزانات الماء واغراق الأراضي المحيطة بـ «غورغيانج». إلا أن مرض ايل - أرسلان وعدم مشاركته في القتال أديا الى انتصار الكاراكيتائيين وتدميرهم الجيش الخوارزمي، على أنهم، لم يتمكنوا من الاستيلاء على العاصمة.

في ١٨ مارس ١١٧٢م، توفي ايل - ارسلان. وبدأ نزاع حاد على العرش بين ابنيه: تيكيش وسلطان - شاه.

وكما هو معلوم، في الأيام الأخيرة من حياة ايل - ارسلان، لم يكن ابنه الأكبر تيكيش الى جانبه، إذ كان في جيند البعيدة حيث يشغل منصب والٍ. فقامت توركان - خاتون ذات السلطة والنفوذ وزوجة ايل - ارسلان الراحل، بالاتفاق مع الأمراء وأقطاب الدولة، بتتويج سلطان - شاه - الابن الأصغر - على العرش. ولما رفض تيكيش الاعتراف به كرئيس للدولة، أرسلت توركان - خاتون جيشاً الى جيند لجلب ابنها المتمرد هذا الى غورغيانج بالقوة. وحينما علم تيكيش بذلك، ترك جيند وذهب الى بالاساغون، قاصداً خان الكاراكيتائيين الأعظم، طالباً المساعدة منه، ومقابل المساعدة العسكرية، تعهد تيكيش بإرسال الإتاوات سنوياً الى بالاساغون. أمده غورخان بجيش، ولدى اقتراب تيكيش والكاراكيتائيين من غورغيانج، هرب سلطان - شاه وتوركان - خاتون من العاصمة، وذهبا الى نيسابور، الى الأمير آي - آبا الآنف ذكره. ودون أي مقاومة احتل تيكيش غورغيانج وتولى عرش خوارزم. وبحسب المعلومات التي أوردها ابن الأثير، جرى ذلك في ١١ ديسمبر ١١٧٢م.

بعد مضي عامين، وفي خريف العام ١١٧٤م، بدأت حملة سلطان - شاه والأمير آي - آبا المشتركة على خوارزم، ودارت معركة بين الحليفين وتيكيش في ١١ يوليو ١١٧٤م في سوبورلي الواقعة على بعد ٢٠ فرسخاً من عاصمة خوارزم، حقق فيها تيكيش انتصاراً تاماً، وأسر آي - آبا، وأعدمه بناء على أمر الخوارزمشاه. في هذه المرة، هرب سلطان - شاه ووالدته الى ديخيستان، التي قام تيكيش بمحاصرتها واحتلالها، على أن سلطان - شاه استطاع الفرار مرة أخرى ولجأ الى

نيسابور، أما توركان ـ خاتون، فألقي القبض عليها وأعدمت بأمر من تيكيش.

خاف توغان ـ شاه، خليفة آي ـ آبا (١١٧٤ ـ ١١٨٥م)، أن يجير سلطان ـ شاه ويناصره، فذهب يطلب مساعدة الغوريين، سلطان غياث الدين وشهاب الدين، اللذين تفهما وضعه، وكانا يدركان تماماً الوضع المتأزم المعقد آنذاك في ما وراء النهر، حيث كانت الأزمة قد بلغت أوجها بين الخوارزمشاه والكاراكيتائيين. وتكمن المشكلة في ان تيكيش قد خرق الاتفاقية التي كان قد عقدها سابقاً مع غورخان، ورفض إرسال الإتاوات له، وقتل بيده مبعوث الكاراكيتائيين الذي قدم الى غورغيانج لأخذ الاتاوات. من يدري؟ قد يكون بالإمكان الحصول على اراضٍ جديدة في خوارزم؟

إلا أن سلطان شاه لم يجلس في «غور» مكتوف اليدين، بل سارع إلى بالاساغون وحصل على دعم من غورخان، الذي أمده بعدة آلاف من المقاتلين، استطاع بمساعدتها احتلال ساراخس،وطوس، وزيم، ونسى، وأبي ورد ومرو. واتّخذ مرو مقراً له. وبعد ذلك، وفي ١٣ مايو ١١٨١م، وقرب نيسابور، تمكن من تحطيم جيش توغان ـ شاه السالف الذكر شر تحطيم حتى لم تعد له قائمة، ولم تنجح محاولاته في الاستعانة بتيكيش أو السلاطين الغوريين.

وفي ربيع ١١٨٥م، وفي عهد سانجار ـ شاه، خليفة توغان ـ شاه، تعاظم نفوذ سلطان ـ شاه في نيسابور، وتمكن من استدراج عدد كبير من أمراء الحاكم الشاب (سانجار ـ شاه)، كما استمال المستائين من غطرسة أتابكة مينغلي ـ تيغين.

وفي ربيع ١١٨٦م، وكي لا يتمكن سلطان شاه من تعزيز قوته العسكرية، هاجم الخوارزمشاه خراسان واحتل نيسابور بعد حصار دام شهرين. فقدم له سانجار شاه واتابكته الولاء. ولكن بعد مغادرة خوارزمشاه، قام مينغلي ـ تيغين بإلقاء القبض على مندوبيه وأرسلهم الى سلطان ـ شاه في مرو. إن هذه العملية التي قام بها الاتابك المتهور، أدت إلى قيام الخوارزمشاه بحملة أخرى على خراسان، ودخوله نيسابور في ٢٧ مايو ١١٨٧م، وإلقاء القبض على مينغلي ـ تيغين وإعدامه. وعين تيكيش ابنه الاكبر نصر علاء الدين ملك ـ شاه حاكماً على

نيسابور، ثم عاد الى خوارزم.

أما سلطان ـ شاه، الذي كان يعد العدة في مرو وسابزيوار، فهجم على نيسابور، فور مغادرة الخوارزمشاه، بيد أنه أخفق في إحتلالها. ولما علم باقتراب قوات جديدة قادمة من خوارزم، فك الحصار وقفل عائداً الى مرو.

في العام ١١٨٨م، وبفضل وساطة الوجهاء وعلماء الدين، عقدت بين الأخوين، تيكيش وسلطان ـ شاه، معاهدة سلام نصت شروطها على اعتراف سلطان ـ شاه بالسلطة العليا لأخيه، واطلاق سراح مؤيديه، أما تيكيش فأنعم على أخيه بمقاطعات جام، بوخارز وزيرتسوم غير الكبيرة.

وفي ٤ يوليو عام ١١٨٩م، جرت في مدينه راديكان احتفالات فخمة مهيبة بمناسبة تتويج تيكيش. وبعد ذلك عاد الخوارزمشاه الى غورغيانج.

لكن سلطان ـ شاه لم يكتف بما حققه، وواصل حشد المزيد من القوات الجديدة، محاولاً توسيع مملكته في خراسان. وإضافة الى ذلك طلب في العام ١١٩٠م، من شهاب الدين الغوري أن يتنازل له عن هرات، بوشينج وبدغيس، إلا أن طلبه رفض. وفي العام نفسه، جرت بينهما، بالقرب من مرو، معركة طاحنة دموية، هزم فيها سلطان ـ شاه. وبعد ذلك حاول الفرار الى الكاراكيتائيين، الا أن تيكيش اعترض سبيله ولم يمكنه من اللجوء اليهم. وعندئذ استولى الخوارزمشاه على سيرخاس ودمر قلعتها. أما سلطان ـ شاه، الذي كان يتعقبه تيكيش، فقد احتمى بالغوريين، فأرسل الخوارزمشاه الى الغوريين رسولاً، وطلب منهم تسليم سلطان ـ شاه، لكن غياث الدين الغوري رفض تلبية طلبه، وعامل الرسول بفظاظة، كما أنه علاوة على ذلك، جهز قوات غورية بقيادة الب ـ غازي وتاج الدين حسن لمحاربة تيكيش. الا أن معارك لم تنشب بين الطرفين، إذ عاد سلطان ـ شاه من منتصف الطريق.

أما السلطان تيكيش، وبعد ان حصن الخطوط الخلفية، قام في العام ١١٩٢م، بشن حرب على العراق العجمي، ووصل حتى الري. في تلك الأثناء، اغتنم سلطان ـ شاه غياب أخيه واجتاح خوارزم وحاصر عاصمتها. ولما سمع تيكيش بذلك، سارع

بالعودة الى البلاد. الا ان سلطان ـ شاه، مع المقربين من السلطان، رفع الحصار وانسحب الى مرو.

وفي ربيع العام التالي ـ ١١٩٣م ـ قرر الخوارزمشاه محاربة سلطان ـ شاه. وهنا توسط الأمراء وكبار المسؤولين بين الأخوين للمرة الثانية. وفي معمعان المباحثات، قام بدر الدين تشاكير، آمر قلعة سيرخاس، بتقديم مفتاح بوابة القلعة وخزينة سلطان ـ شاه الى الخوارزمشاه. ان خيانة الآمر كانت ضربة قاضية لسلطان ـ شاه. وهكذا انتهت حرب الـ ١٢ سنة بين الأخوين سلطان ـ شاه وتيكيش على عرش خوارزم، لصالح تيكيش، الذي أصبحت خراسان بأسرها تحت سلطته.

ويعتبر عام ١١٩٣م بداية لرقي دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين.

قبل ذلك، وفي الفترة التي تلت العام ١١٨١م، كانت قوات تيكيش قد وصلت الى تاراز وبالاساغون ودحرت الكاراكيتاي، وفي العام ١١٨٢م، اجتاحت ما وراء النهر واستولت على بخارى، حيث القيت الخطب باسم السلطان تيكيش.

وجدير بالذكر، أنه في تلك الأعوام، أقام الخوارزمشاه علاقات حسن جوار مع حاكم غيلان ومازانداران حسام الدولة ارداشير (١١٧١ ـ ١٢٠٥م)، واتابيك اذربيجان «جهان بهلوان» (١١٧٥ ـ ١١٨٦م)، ثم ـ خليفته كيزيل ـ أرسلان (١١٨٦ ـ ١١٩١م).

والى جانب ذلك، واصل السلطان تيكيش الحرب من أجل السيادة على العراق العجمي وفي العام ١١٩٣م، احتل الري وقلعة تبارك.

وفي ٤/مارس/١١٩٤م، قام السلطان السلجوقي، طغرل الثالث، سلطان العراق (١١٧٦ ـ ١١٩٤م)، بمهاجمة طليعة الجيش الخوارزمي في موقعة الري، إلا أنه فشل في هجومه، وقتل. كان طغرل الثالث آخر الحكام السلجوقيين في العراق. وبعد ذلك، استولى السلطان تيكيش على همدان (٢٥ يونيو ١١٩٤م) وعلى قسم كبير من العراق العجمي، وأعطى المناطق والأقاليم التي احتلها لأمرائه البارزين: اصفهان ـ لـ «كولوغ ـ إينانتش، همدان ـ لـ «كاراغيوز»، الري ـ لابنه يونس خان.

ومن المعلوم، أن قوات الخليفة الناصر (١١٨٠ـ ١٢٢٥م) كانت قد حاربت الى جانب الخوارزمشاه ضد طغرل الثالث. لذا كان الخليفة يأمل في أن يتنازل له تيكيش عن جزء من اراضي العراق العجمي، إلا أن ذلك لم يحدث. وبعد ذلك، أرسل الخليفة الى الخوارزمشاه ثياب شرف وكتاباً رسمياً ينص على ضم الأراضي، التي كانت تابعة لطغرل، الى أملاك الخوارزمشاه ودعاه الى بغداد للقائه. كان ذلك عبارة عن خطة دبرها الخليفة للقضاء على الخوارزمشاه، الذي لم تفته هذه اللعبة ـ الخطة، ورفض السفر الى بغداد. وبعد ذلك، تدهورت العلاقات بينهما تدهوراً تاماً وبصورة نهائية.

وباختصار وكما ذكر الاكاديمي ز. م. بونياتوف، فإن الفضل في تعزيز قوة دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين يعود، الى حد كبير، لعلاء الدين تيكيش.

بعد وفاة السلطان تيكيش، خلفه على العرش ابنه قطب الدين محمد، الذي اضطر في الأيام الأولى من حكمه الى خوض نضال ضد اقربائه، وإلى اجراء تغييرات جذرية في جهاز الدولة، ولا سيما بين الولاة. فمثلاً استدعى أخاه تاج الدين علي شاه من اصفهان وعينه في خراسان (مركز نيسابور)، وعزل هندو ـ خان، ابن اخيه، والي نيسابور (خراسان) الا أن هندو ـ خان رفض الحضور الى غورغيانج وهرب الى مرو ومن هناك الى غور حيث التجأ الى غياث الدين، العدو القديم للخوارزمشاه، الذي قرر انتهاز المناسبة المؤاتية، فاحتفى بهندو ـ خان ومنحه إقطاعاً. ومن ثم شن حرباً على خوارزم. وفي بداية ربيع ١٢٠١م، احتل مرو واعطاها لهندو ـ خان، ثم، دون اراقة الدماء، احتل سيراخس ونسى، واعطاهما كإقطاع لابن عمه الأمير زانغي. وبعد مقاومة قصيرة احتل طوس، ثم في ابريل ١٢٠١م، احتل نيسابور، مركز خراسان.

وقبيل ربيع ١٢٠١، نجح الخوارزمشاه، قطب الدين محمد، في تعزيز الأوضاع الداخلية الى حد ما. وفي صيف العام نفسه حشد جيشاً وسيَّره الى خراسان. وفي اغسطس ١٢٠١م، حاصر مدينة هرات، بيد أنه أخفق في احتلالها. وبعد ذلك التقى بقوات شهاب الدين الغوري المتجهة لمساعدة هرات على ضفة

«مرقررود»، حيث دارت معركة لم ينتصر فيها أي من الطرفين، وبعد تدمير جسور نهر مرقررود تراجع الخوارزمشاه باتجاه مرو. وفي سبتمبر ١٢٠١م اتجه صوب نيسابور، ولما وصل الى نسى وأبي ورد علم بذلك هندو ـ خان، فترك مرو وهرب الى فيروزكوخ واحتمى بالغوريين. وهنا قام الخوارزمشاه بالاستيلاء على مرو، وفي ١٨ سبتمبر ١٢٠١م بلغ مشارف نيسابور، التي احتلها بعد حصار دام شهرين. ومن ثم استولى على سيراخس.

وفي يناير ١٢٠٣م توفي غياث الدين، واعتلى عرش هرات شهاب الدين (١٢٠٣ ـ ١٢٠٦م)، في وقت كانت النزاعات الداخلية تسود دولة الغوريين، الأمر الذي استغله الخوارزمشاه وسار بقواته الى خراسان. وفي الموقعة التي جرت على بعد ١٠ فراسخ من مرو، انتصر قطب الدين محمد. وبعد نصف شهر من الحصار والمعارك، استولى على مرو والقى القبض على الوالي الغوري جاربيك وقتله. وفي يناير من العام التالي، ١٢٠٤م، قام الخوارزمشاه بتطويق هرات، وبعد حصار طويل منهك، تمكن من احتلالها. واضطر الحاكم الغوري الب ـ غازي إلى تسليم المدينة وقبول عدد من التعهدات والالتزامات، منها: التعهد بالكف عن مشاركة الغوريين في محاربة الخوارزمشاه. وبعد ذلك اكتسح الخوارزمشاه دائرة بادغيس.

حتى اذا فرغ شهاب الدين الغوري من القضاء على حركة التمرد والعصيان في لاهور، قرر مهاجمة خوارزم للثأر من الخوارزمشاه. إلا أن الأخير، كان قد اتخذ الاحتياطات الدفاعية اللازمة: فتح خزانات الماء وأغرق الأراضي المحيطة بعاصمة خوارزم، وعزز دفاعات المدينة، وأجرى تعبئة السكان وتجنيدهم. وبعد مرور شهر، جفّت الاراضي المحيطة بالعاصمة، فجرت معركة دموية طاحنة على ضفة نهر كارا ـ سو، انتصر فيها الغوري. وتوارى الخوارزمشاه خلف أسوار غورغيانج الحصينة. قام شهاب الدين بمحاصرة العاصمة من الجهات كافة، إلا أن سكانها وقفوا وقفة رجل واحد للدفاع عنها. وبفضل مساعي توركان ـ خاتون وعلماء الدين المسلمين (الامام شهاب الدين الخيواقي وغيره) تم حشد جيش عظيم. في حين استعان الخوارزمشاه بالغور ـ خان، الذي أمده بجيش مؤلف من آلاف الجنود بقيادة تاج

الدين بيلغا ـ خان، حاكم اترار، عثمان ـ حاكم سمرقند، والوالي الكاراكيتائي في تاراز تويانكو، الذين وصلوا الى المدينة حينما اجتاز الغوريون مجرى النهر وباشروا بالانقضاض عليها. وجرت بين شهاب الدين الغوري وبين الخوارزمشاه وحلفائه، في ٢٨ سبتمبر ١٢٠٤م، معركة أسفرت عن تدمير قوة الغوريين تدميراً تاماً، وعودة الخوارزمشاه الى غورغيانج بالغنائم الكثيرة والأسرى. أما الكاراكيتائيون، فتعقبوا الغوريين حتى اندخودا، حيث لجأ شهاب الدين الغوري الى قلعتها للإحتماء بها. فقام الكاراكيتائيون بتطويق القلعة، ولم ينقذ الغوري من عار الهزيمة والفضيحة سوى عثمان، حاكم سمرقند، الذي لم يرغب في وقوع إنسان مسلم في أيدي الكفار، فتوسط بين الطرفين وأزال ما بينهما من عداوة. ونال الكاراكيتائيون خزينة شهاب الدين الغوري الغنية وأملاكه ومؤونته. وفي يناير ١٢٠٥م، عقدت اتفاقية سلام أخرى مع الخوارزمشاه. وبموجب الاتفاقية تعهد السلطان شهاب الدين بأن يعيد الى الخوارزمشاه جزءاً من خراسان مع مرڤررود، وبأن تكون قواته رهن اشارته (أي اشارة الخوارزمشاه).

ومنذ ذاك الحين (عام ١٢٠٥م)، دبت الفوضى في غور بشكل استحال معه السيطرة عليها: فولاة الأقاليم أعلنوا استقلالهم، ونهبت خزينة الدولة. وفي ١٣/مارس/١٢٠٦م، اغتيل السلطان شهاب الدين الغوري في مؤامرة. وبعد ذلك ـ نقلاً عن الجويني ـ تفتتت دولة الغوريين الى دويلات صغيرة. وفي دلهي أعلن الاستقلال قطب الدين ايبك، مؤسس سلالة المعزين او السلاطين المماليك، الذين حكموا شمال الهند (١٢٠٦ ـ ١٥٥٥م)، وفي لاهور ومولتان رفع راية الاستقلال الزعيم ناصر الدين كاباتشا، وفي زابوليستان وغزنة تاج الدين ايلديز. اما ابن السلطان غياث الدين محمد وخليفته، فلم يبق في أيديهما سوى فيروزكوخ، وفي هرات انفرد بالحكم عزالدين حسين، الوالي السابق للغوريين.

ولم تمض مدة طويلة ـ في العام ١٢٠٦م على ما يبدو ـ حتى انتقلت هرات الى حكم الخوارزمشاه. وبما أن ذلك تم بفضل عز الدين حسين نفسه، فقد منحه الخوارزمشاه ضيعته، ولكن شريطة أن يكون تابعاً له.

وبعد تفتت شوكة الغوريين وانكسارها وفقدانهم لنفوذهم، قرر الخوارزمشاه تصفية حساباته مع الكاراكيتاي، فسير من هرات جيشاً إلى بلخ المجاورة لحدود الكاراكيتاي. الا ان عماد الدين عمر، والي الغوريين في بلخ، اختبأ بادئ الأمر، في القنطرة وقاومه، ولكن حينما لم يهب أحد لنجدته ومساعدته، اضطر الى الاستسلام للخوارزمشاه.

كانت بلخ آخر معقل للغوريين في خراسان، وبسقوطها سقطت دولة الغوريين. وضمت هرات وبلخ الى دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين.

وبعد بلخ، استولى الخوارزمشاه على ترمذ، التي تعد من أكبر المراكز الاقتصادية والثقافية في ما وراء النهر، وأعطاها لعثمان، حاكم سمرقند، ثم اسولى على تولكان، ميمنة، أندخود والنواحي التابعة لها. وبعد ذلك كله، خضع له سلطان محمود آخر السلاطين الغوريين، وفي فيروزكوخ، خطب باسم الخوارزمشاه وصكت النقود باسمه ايضاً. وفي العام ١٢٠٦م، أخضع الخوارزمشاه اسفيزار ومازانداران، وعين أخاه علاء الدين محمد تاج الدين علي شاه.

بعد القضاء على الغوريين، باشر الخوارزمشاه عملياته العسكرية لاخضاع ما وراء النهر، وكان قبل ذلك قد قام بتعزيز خطوطه الخلفية وذلك باحتلال مناطق وأقاليم هرات، وجام، وزاوزان، ومرو، وسيراخس وغيرها من المناطق والأقاليم الغورية، وتعيين حكامه عليها وإقامة الحاميات. ولكن سرعان ما حاول هؤلاء الحكام أو الولاة الانفصال، بَيْدَ انهم قمعوا فوراً.

والذريعة لمهاجمة ما وراء النهر وجدت فوراً، ففي ربيع العام نفسه ١٢٠٧م، استنجد عثمان، حاكم سمرقند، في نضاله ضد ظلم الكاراكيتاي بالخوارزميين. وقد تزامن وصول مبعوثي عثمان الى عاصمة خوارزم مع وصول رسل الصدور البخاريين، الذين جاؤوا يطلبون العون لمساعدتهم في عزل المغتصب سانجار. وسار الخوارزمشاه بقواته الى سمرقند وبخارى. وبمساعدة الوجهاء وعلماء الدين وتعاونهم، استولى الخوارزمشاه على بخارى وقضى على تمرد سانجار. ونقل ٢٦

من زعماء المتمردين مع قائدهم الاعلى الى خوارزم، وبعد ذلك، اتفق خوارزمشاه وعثمان على سبل مواصلة النضال ضد الكاراكيتائيين.

ولمحاربة الخوارزمشاه، الذي كانت تتعاظم قواه، كان الغورخان الكاراكيتائي يعد العدة: لقد حشد عدداً كبيراً من الجند، ورشا عدداً من القادة الخوارزميين البارزين امثال ركن الدين، اسباخبيد كابودجام، والأمير دورت - آبا، شيخي سمرقند وغيرهم. وبموجب الاتفاقية، وفي حال الانتصار على الخوارزمشاه، كان الأول سينال خراسان، أما الأمير دورت - آبا فوعد بخوارزم. وبالفعل، في أثناء القتال، خان الأميران الخوارزمشاه وانضما الى صفوف الغورخان، ما ادى الى هزيمة الخوارزمشاه ووقوعه في الأسر.

وبسرعة، شاع نبأ انتصار الكاراكيتائيين وسبي الخوارزمشاه وعمّ الاقاليم والمناطق كافة، وبدأت الثورات وحركات التمرد والفوضى. وعلاوة على ذلك كله، فإن شقيق الشاه ونائبه في طبرستان، تاج الدين علي شاه، قد أعلن نفسه سلطاناً على دولة الخوارزمشاهيين - الانوشتيغيين. وفي نيسابور، أعلن ايضاً الأمير كيزليك - خان استقلاله.

ولكن سرعان ما تمكن الخوارزمشاه من الفرار من الأسر وعاد الى خوارزم، وباشر فوراً بإعادة تنظيم أمور الدولة. وجمع شتات قواته وعبأ جنوداً جدداً، وبدون تباطؤ، سار الى خراسان. أما كيزليك، فما إن سمع باقتراب الخوارزمشاه حتّى فر الى العراق، ولكن ألقي القبض عليه وأعدم. أما بالنسبة لتاج الدين علي شاه، فلجأ الى السلطان محمود في فيروزكوخ. بعد الاستيلاء على نيسابور، واصل الخوارزمشاه زحفه الى هرات واحتلها في شهر يوليو ١٢٠٨م، بعد حصار طويل مرير دام سنة. ومن هناك أرسل الأمير ملك الى فيروزكوخ. واستسلم السلطان محمود بدون مقاومة، ونُقل مع تاج الدين علي شاه الى غورغيانج، حيث أعدما. ومع موت السلطان محمود، انتهت دولة الغوريين، أما خراسان بأكملها، ومن ضمنها أملاك الغوريين، فأعيد ضمها الى دولة الخوارزمشاهيين، اعتباراً من عام ١٢٠٨م.

وفي عام ١٢٠٩م، بلغ نضال الخوارزمشاه ضد الكاراكيتاي مرحلته الأخيرة الحاسمة. وتكمن المسألة في أن مندوبي الغورخان، القادمين من أجل الإتاوات (كانت خوارزم تدفع الإتاوات للكاراكيتائيين منذ عهد اتسيز)، كانوا يزدادون وقاحة ويتصرفون بتحد وغطرسة. لقد آن الاوان للتخلص من استعمار الكاراكيتاي. وكان الشعب مستاءً ساخطاً على الكفار ويؤيّد الخوارزمشاه، الذي استغل هذه الفرصة الملائمة في ربيع عام ١٢٠٩م، وسيّر جيشاً الى ما وراء النهر، وقد نشبت معركة بين الخوارزمشاه والكاراكيتائيين في شهر سبتمبر ١٢٠٩م في سهل «ايلاميش» الواقع على ضفة نهركارا ـ داريا. قاد قوات الكاراكيتائيين القائد المشهور تايانكو، وكانت المعركة ضارية، وانتهت بهزيمة الكاراكيتائيين، وبفوز الخوارزمشاه بكميات كبيرة من الغنائم، إضافة إلى عدد كبير من الأسرى، كان بينهم الأمير تايانكو. إن تدمير الكاراكيتاي أفسح للخوارزمشاه في المجال لتوسيع حدود البلاد شرقاً حتى اوزغيند، وتاراز واسفيجاب.

بعد الهزيمة التي لحقت بهم في سهل «ايلاميش»، تقهقر الكاراكيتاي الى بالاساغون سالبين وناهبين ومدمرين كل ما يصادفهم في طريقهم. الا أن سكان بالاساغون ووجهاءها أقفلوا بوابة المدينة ولم يسمحوا لهم بالدخول، لكنهم احتلوا المدينة بعد حصار دام اسبوعين، وعملوا فيها سلباً ونهباً.

دامت دولة الكاراكيتاي سنتين أخريين، ومن ثم قضى عليها الخان النايماني المشهور كولشلوك (انظر الفصل التالي).

ورغبة في تقوية نفوذه في ما وراء النهر، قرر مصاهرة حاكمها عثمان، وزوجه إبنته خان ـ سلطان. إلا أنه رغم ذلك لم يثق بصهره ثقة تامة، فأسس «مشيخة» في سمرقند، وعهد بهذا المنصب الى الأمير دورت ـ آبا ـ أحد الأمراء المقربين اليه ـ وعلاوة على ذلك، حينما قدم الخان عثمان عام ١٢٠٩م بصحبة حاشية الخوارزمشاه الى غورغيانج ضيفاً، اضطروه إلى البقاء مدة سنة كاملة، ونتيجة لإصرار توركان ـ خاتون ـ والدة الخوارزمشاه ـ وتذرعها بالعادات والتقاليد التركية التي تفرض ذلك. وفي تلك الفترة، شن الخوارزمشاه حملة جديدة

على الكاراكيتائيين. ولما وصل الى سمرقند ولم ير الوجهاء والسكان الشاه خان عثمان ضمن الحاشية، دبت الفوضى في المدينة وارتاب الجميع في الأمر، واخذوا يبدون عداءهم للخوارزمشاه، بصورة علنية، ما اضطر الأخير الى ارسال اناس الى غورغيانج لاحضار الزوجين ـ عثمان وزوجته ـ الى سمرقند. ولما عاد الخان عثمان الى سمرقند كان الخوارزمشاه قد غادر المدينة وترك فيها حامية خوارزمية. وبناءً على أمر الخان عثمان، قام السمرقنديون بتدمير الحامية، واعلنوا استقلالهم وبعثوا رسلاً الى الغورخان. تمكن خان ـ سلطان مع حاشيته من الابتعاد والتواري في القنطرة، والانتظار هناك حتى وصول قوات الخوارزمشاه الى المدينة. كان الخوارزمشاه على رأس الحملة التأديبية الى سمرقند، حيث عمل فيها نهباً وتدميراً مدة ثلاثة أيام. ونقلاً عن الجوزي، قتل ١٠٠٠٠ نسمة من السكان، وأعدم الخان عثمان. وكان ذلك في عام ١٢١٢م. وبموت عثمان انتهت سلالة القاراخانيين.

وفي عام ١٢١٥م، ضم الخوارزمشاه الى مملكته كيرمان وبيلدوجيستان وميكران. ثم اعترف الاتابك اوزبك (١٢١٠ ـ ١٢٢٥م) له بتبعية الحكم، وكان الاتابك هذا من الايلديغيزيين. وتفيد المصادر (ابن الأثير وغيره) أنه خطب باسم الخوارزمشاه علاء الدين محمد في عران واذربيجان وحتى في دربند وشروان. وهكذا بسطت دولة الخوارزمشاهيين ـ الانوشتيغيين، في عهده، سلطتها على مساحة عظيمة من العراق واوزغيند وتاراز واسفيجاب، ومن بحر الآرال شمالاً حتى شواطئ المحيط الهندي جنوباً. إلا أن الخوارزمشاه لم يستطع القيام بأكثر من ذلك. فمثلاً لم يستطع تحقيق حلمه باجبار الخليفة الناصر على الاعتراف له بالسلطة على العالم الاسلامي، بل على العكس، سرعان ما اصطدم بجنكيز خان ـ السياسي البارز والقائد.

العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية ونظام حكم الخوارزمشاهيين

ان المعلومات التي وصلتنا عن الأوضاع الاقتصادية لخوارزم في الفترة من القرن ٩م الى القرن ١٢م، معلومات قليلة. ولكن، ومن خلال ما ذكره الجغرافيون العرب، باستطاعتنا الاستنتاج أن خوارزم كانت من أغنى البلدان وأكثرها تطوراً في

الميدان الزراعي. فمثلاً كتب عنها المقدسي: «إن هذه المنطقة مشهورة بكثرة مدنها. وتتصل فيها البيوت والبساتين، وتكثر فيها الكروم، والمعاصر، والأراضي المفلوحة، والاشجار، والفاكهة وغيرها من الخيرات الطبيعية، انها مربحة لمن يزاولون التجارة... فهي كثيرة المساكن، اقنيتها غزيرة المياه، فيها احتياطات كثيرة من الأسماك والاغنام، انها منطقة تجارية للغور والاتراك». ومما ذكرناه أعلاه فبامكاننا استنتاج ما يلي: ١) خوارزم بلاد عريقة متحضرة، ذات اراضٍ زراعية، اشتهرت بالري، ٢) - زاول سكانها مختلف الحرف والمهن كالزراعة، وتربية الماشية، وصيد الأسماك والتجارة.

كان معظم الاراضي تابعاً للدولة ممثلة في شخص الخان وملاكي الأراضي الكبار. وكانوا يستثمرون أراضيهم بمساعدة فلاحي المحاصصة.

ومن حيث الانتماء الطبقي في خوارزم، في الفترة التي نحن في صددها، كانت الطبقات الموجودة هي طبقات الاقطاع الزراعي نفسها، التي كانت قائمة في عهد السامانيين(إذ ان خوارزم كانت آنذاك داخلة ضمن دولة السامانيين)، وهي: ١) ملك سلطاني (مملكة)، ٢) ملك خاص، ٣) أوقاف، ٤) مشاعية. ومن حيث مبدأ فرض الضرائب، كانت تنقسم الى: ١) (ملك - خراج) أي الاراضي الخاضعة لضرائب الخراج (وتشمل الملك السلطاني والأملاك الخاصة). ٢) الأملاك المعفية جزئياً او كلياً من الخراج وغيرها من الضرائب (تتضمن أراضي السادة وكبار علماء المسلمين).

ففي خوارزم (في الفترة ما بين ق «٩م» «١٢م»). كان نظام الهبة الاقطاعية المتبع شائعاً على نطاق واسع، وبموجبه تقدم الأراضي والأملاك الأخرى، المدن والمناطق للشخصيات المدنية والعسكرية البارزة، مقابل خدمات جليلة يقدمونها للعرش.

إضافة الى الخراج، كانت ثمة ضرائب طبيعية وغيرها: مواد غذائية او مؤن، وتعبئة اجبارية في المشاريع الانشائية: (إقامة الأقنية والشوارع والجسور والقصور والمساجد والمدارس الدينية والخانقاهات والخ..)، وتصليح القلاع

والاسوار وترميمها وهَلُمَّ جَرًا...

نظام حكم الخوارزمشاهيين - الانوشتيغيين

بناءً على الدراسة التي أجراها الأكاديمي ز. م. نونياتوف، كان رئيس الدولة - الشاه او السلطان، يتمتع بالحقوق والسلطات كافة، ويأتي في المرتبة الثانية الوزير، الذي يدخل ضمن واجباته تمثيل الشاه في الاحتفالات الرسمية والمباحثات مع الحكام التابعين، والدول الأجنبية، والمحافظة على النظام العام في البلاد، والإشراف على عمل المؤسسات (الدواوين) الحكومية كافة. كذلك كان وزراء الولايات والأقاليم والدوائر يعدون من ذوي المناصب العليا.

وبعد الوزير، كان يأتي الحاجب (حاجب بوزورغ)، الذي كان يشرف على المراسم والتشريفات ويرفع التقارير الى الشاه (السلطان). وكان يتم اختياره لدى تعيينه، من بين وجهاء الأتراك العسكريين.

ونذكر من المناصب الأخرى التي كانت موجودة:

الأستاذ دار - المشرف على جميع الشؤون المتعلقة باسطبلات الخيول، والمطبخ، وأقبية الخمر، والمخبز والخ..

الميراخور - المشرف على اسطبل الخيول.

ميري شيكار - مدرب الصقور والمسؤول عن تنظيم الامور وترتيبها عند خروج الشاه الى الصيد.

تاشتدار - المشرف على أدوات الغسل في القصر.

شرابدار - المسؤول عن قبو ومستودع النبيذ وسائر المشروبات.

كيسادار - المسؤول الذي يدخل ضمن واجباته جمع الشكاوى والعرائض ورفع تقارير عنها الى السلطان.

جاشنيغار ـ رجل القصر المسؤول عن نوعية المأكولات المقدمة على مائدة السلطان.

الفراش ـ المسؤول عن مستودع لوازم الفراش (السجاجيد، والخيام، وغيرها من لوازم الفراش) السلطاني.

علم دار ـ حامل علم الشاه أو السلطان. وكان يشرف على الفصيلة المسؤولة عن صيانة لواء السلطان وحمله.

داواتدار ـ (الترجمة الحرفية «مالك الحبر») سكرتير السلطان (الشاه).

إضافة إلى مناصب أخرى عسكرية ومدنية، ولكن لم تتوافر لدينا معلومات عنها.

العلوم والثقافة في آسيا الوسطى ق ٩ ـ ١٢م

كانت الفترة من ق ٩ ـ ١٢م، بالنسبة إلى البلدان التي كانت في السابق داخلة ضمن الخلافة العربية، ومن ضمنها ما وراء النهر، مرحلة نهضة ثقافية عظيمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ففي هذه الفترة ازدهرت العلوم والثقافة على نطاق واسع، ولاسيما علوم الرياضيات، والفلك، والطب، والتاريخ، والفلسفة، والنحو والأدب. ولقد ترك لنا التاريخ عشرات الاسماء من علماء آسيا الوسطى البارزين أمثال الفلكي احمد الفرغاني (المتوفى عام ٨٥٠م)، وعالم الرياضيات محمد أبن موسى الفرغاني (٧٨٣ ـ ٨٥٠م)، والفيلسوف أبي نصر الفارابي (٨٧٣ ـ ٩٥٠م) والطبيب العلامة ابي علي ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م)، وعالم الموسوعات أبي ريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨م) والمؤرخ أبي بكر محمد النرشخي (٨٩٩ ـ ٩٥٩م)، أبي نصر العتبي (حوالى ٩٦١ ـ ١٠٢٢م)، أبي سعيد عبد الكريم سيعاني (١١١٣ ـ ١١٦٧م) ـ وواضع الموسوعات فخرالدين ابي عبدالله الرازي، والنحوي العلامة الزمخشري (١٠٧٥ ـ ١١٤٤م)، والفيلسوف بهاء الدين أبي محمد ثابت الحراقي، الذي عاصر السلطان اتسيز، واللغوي البارز محمود الكاشغاري (ولد في الفترة ما بين عامي ١٠٢٩ و١٠٣٨م) وكثيرين غيرهم من العلماء العظام، الذين نالت مؤلفاتهم شهرة عالمية كبيرة ولم تفقد قيمتها وأهميتها العلمية حتى يومنا هذا.

تجدر الاشارة هنا الى أن علماء آسيا الوسطى أسهموا إسهاماً فعّالاً في نشاطات المجمعين العلميين، في القرون الوسطى، وكذلك المجمع العلمي الخوارزمي

الذي أنشىء في عهد الخوارزمشاه الأخير أبي العباس المأمون الثاني (المقتول في عام ١٠١٧م)، ومجمع بغداد العلمي الذي أقيم في زمن الخليفة العباسي المأمون (٨١٣-٨٣٣م).

لقد أنجبت ما وراء النهر للعالم أئمة علماء الدين والمحدثين والفقهاء الذين ذاعت شهرتهم في العالم، وبالمناسبة نود الاشارة الى العالم الجليل والشاعر المشهور رشيد الدين الوطواط («١١١٤ ـ ١١١٦» ـ «١١٨٢ ـ ١١٨٣»)، الذي وضع، علاوة على رسالته الأدبية «حدائق السحر في دقائق الشعر»، أربع رسائل قيمة مكرسة للخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر، عمر، عثمان وعلي: «تحفة الصديق الى الصديق من كلام أبي بكر الصديق»، «فصل الخطاب من كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، «انيس الإلفان»، «مطلوب كل طالب من كلام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب»، سراج الدين بن عثمان الاوشي الأوزجندي (المتوفى ١١٧٣م) مؤلف «غرر الأخبار»، والكتاب عبارة عن مئة خبر من الأخبار المتعلقة بمشاهير رجالات الاسلام، ومن مفسري القرآن، نذكر منهم الشيخ أبا نصر أحمد البخاري (المتوفى في النصف الاول من القرن «١٢م»)، مؤلف «تفسير الزاهد»، ناجي الدين، أبا حفص عمر النسفي (المتوفى ١١٤٢م)، الذي ترك للأجيال اللاحقة مؤلفه القيم «تفسير في تفسير»، وأبا القاسم محمود الزمخشري السالف ذكره (المتوفى عام ١١٤٤)، مؤلف كتاب «الكشاف» ذا الشهرة الكبيرة.

ومن المحدثين نذكر النسائي، أبا عيسى محمد الترمذي، الإمام البخاري وعبد الرحمن السمرقندي، الذين نالت أعمالهم شهرة عالمية:

النسائي: (٨٣٠ ـ ٩١٥م) من مدينة نسى الصغيرة مساحة، ولكن العريقة والمشهورة تاريخياً، والواقعة على بعد ١٨كلم عن مدينة عشقباد حالياً، الى الجهة الشمالية الغربية. ولقد قام النسائي بالكثير من الرحلات طلباً للعلم، وكثيراً ما توقف في بلخ، العراق، سوريا والحجاز. ومن المحدثين الذين تتلمذ النسائي عليهم نذكر قتيبة بن سعيد البلخي، اسحق بن حبيب، اسحق بن موسى، ابراهيم بن سعيد، علي بن حجر وغيرهم.

ومن الأعمال الهامة التي تعود الى قلم النسائي «السنن الكبرى»، ذلك الكتاب الذي أعاد تنقيحه في أثناء اقامته بمصر، وحذف منه الاحاديث غير الموثوق بها بحسب نظره وأصدر النسخة الأخيرة المنقحة لهذا الكتاب بعنوان «المجتبى»، وهي تحظى برواج شديد بين المحدثين.

توفي النسائي عام ٩١٥م في مدينة الرملة (في فلسطين) ودفن فيها.

كذلك كان ابو عيسى محمود بن عيسى بن ثور السلامي البوغي الترمذي (٨٢٤ ـ ٨٩٢م)، من أشهر علماء الحديث. ولد هذا المحدث الجليل في قرية «بوغ» الواقعة على بعد ما بين ٤٠ ـ ٥٠ كلم من مدينة ترمذ، التي بنيت بالقرب منها شيراباد في القرن «١٨م». تلقى الترمذي مبادئ علومه الاساسية في ترمذ، التي كانت آنذاك أحد المراكز الاقتصادية والروحية والثقافية في بلاد ما وراء النهر، ودرس علوم الحديث على أيدي معلميه الامام أبو عبد الله محمد البخاري، قتيبة بن سعد، اسحق بن موسى، محمد بن المثنى.

ولأبي عيسى محمد الترمذي الكثير من المؤلفات في الفقه والحديث والتاريخ. ومن أهم أعماله التي جلبت له الشهرة كتاب «السنن» والمعروف ايضاً بعنوان «الجامع الصحيح»، «جامع الترمذي» ومجرد «الصحيح». وفي مؤلفاته، علاوة على الأحاديث، فصول خاصة مكرسة للفقه الاسلامي، وسير حياة الأولياء المسلمين ومناقبهم، وتفسير للقرآن الكريم. كذلك ألّف الترمذي، بالاضافة الى «السنن»، مجموعة أخرى من المؤلفات، مكرسة لمسائل الفقه والتاريخ، وهنا يجدر بنا ان نذكر منها: «كتاب العلل»، «كتاب التاريخ»، «كتاب الشمائل النبوية»، «كتاب الزهد» وغيرها.

ومن أشهر محدثي ما وراء النهر، والعالم الاسلامي، نذكر الإمام الجليل البخاري (اسمه الكامل ـ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري، ٨٠٩ ـ ٨٦٩)م. وكان والده الشيخ اسماعيل رجلاً متعلماً غنياً، ذا اطلاع جيد على الحديث، يمتهن التجارة. تمكن من تعليم ابنه تعليماً جيداً. كما إن أبا عبدالله نفسه كان موهوباً منذ نعومة أظافره، وذا قابلية جيدة، باشر بتعلم اللغة العربية والحديث وهو في العاشرة من عمره. وكان أول معلميه في الحديث عالميْ الحديث

البخاريين، محمد بن سلام بايقندي (٧٧٧ ـ ٨٣٩م) وعبد الله بن محمد الجعفي (المتوفى عام ٨٤٣م). ولما بلغ السادسة عشرة، سافر مع والدته (يبدو ان والده كان قد توفي آنذاك) وأخيه أحمد الى الأراضي المقدسة (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، بلخ، مرو، نيسابور، البصرة، الكوفة، بغداد، حمص (كوميس)، دمشق، فلسطين ومصر، حيث كانت له لقاءات مفيدة مع المحدثين المشهورين، فجمع الأحاديث. وأقام فترات طويلة في بعض المدن التي زارها: الحجاز والبصرة ونيسابور، فمثلاً، عاش ستة أشهر في الحجاز، وخمس سنوات في البصرة حيث قام بتدريس الحديث فيها.

بعد نيسابور، عاد الامام البخاري الى موطنه بخارى، حيث كرس معظم أوقاته في تدريس الحديث. إلا أنه اضطر إلى مغادرة بلده بخارى، على أثر القطيعة التي وقعت بينه وبين الامير خالد بن احمد الذهلي، والي بخارى، الذي طلب من الإمام البخاري الحضور الى القصر لتدريس أولاده (موظفي القصر ـ بحسب رواية أخرى) «الجامع الصحيح». فرفض الامام البخاري قائلاً: «اني لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين، فان كانت له حاجة الىٰ شيء منه فليحضر أولاده (موظفيه حسب الرواية الاخرى) الى مسجدي او داري». كان للإمام البخاري خصوم وحساد بما فيه الكفاية، وكانت مشكلته مع الأمير القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير، فاضطر أو أجبر على الخروج من بخارى والاتجاه نحو سمرقند حتى بلغ قرية خرجينت، التي تبعد عن سمرقند مسافة ١٨كلم. فمرض وتوفي فيها في ٣١ اغسطس ٨٦٩م، ودفن هناك وما يزال ضريحه حتى الآن يكرمه المسلمون.

اشتهر الامام البخاري بسعة حفظه للاحاديث النبوية، فروي انه حفظ ١٠٠٠٠٠ حديث صحيح و٢٠٠٠٠٠ غير صحيح او صحيح والعلم عند الله وحده.

ومن آثار الإمام البخاري انه ترك من بعده زهاء ٢٠ مؤلفاً في الحديث وعلوم الحديث والتاريخ. ونقلاً عن العالم الاسلامي والفقيه البارز شمس الدين باباخانوف تعود لقلم الامام البخاري المؤلفات التالية: «الجامع الصحيح»، «التاريخ الكبير»، «التاريخ الصغير»، «الف الصلاة»، «الأدب المفرد»، «التاريخ الأوسط»، «الجامع الكبير»، «كتاب الهبة»، «المسند الكبير»، «كتاب الدِّلال»، «بر الوالدين»، «كتاب

الاشربة». «كتاب الضعفاء»، «اسامي الصحابة»، «كتاب الكنى» وغيرها.

إلا أن أشهر مؤلفاته وأكثرها انتشاراً هو «الجامع الصحيح» الذي يضم ٧٢٥٠ حديثاً.

وترك الامام البخاري من بعده، علاوة على كتبه ومؤلفاته الكثيرة، تلاميذ من أشهرهم: الشيخ محمد بن يوسف الفراتري (٨٤٥ ـ ٩٣٢م)، أبو علي صالح بن محمد البغدادي (٨٢٠ـ٩٠٥) وعمرو بن فلاّس.

كما نود الاشارة ببضع كلمات عن عالم حديث آخر مشهور ممّن أنجبتهم بلاد ما وراء النهر، ألا وهو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي السمرقندي (٧٨٥ ـ ٨٦٨م)، الذي كان من أئمة علم الحديث، والذي وضع اضافة الى كتابه «المسند» الذي يشغل مكانة خاصة رفيعة بين كتبه الستة «كتاب ستة»، وإلى قلمه يعود عدد من المؤلفات المهمة مثل: «تفسير القرآن»، «الجامع» وغيرهما.

كذلك أنجبت ما وراء النهر فقهاء بارزين، بلغنا أسماء زهاء ثلاثين منهم، نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد بن محمد البخاري (المتوفى عام ١١٢٨م)، صاحب كتاب «خزينة الفتاوى»، حسان الدين عمر بن عبد العزيز بن معاذ البخاري (المقتول عام ١١٤١)، الذي ترك من بعده مؤلفين ثمينين في الفقه: «كتاب الواقية» و«جامع السِّيَر»، ناصر الدين أبو القاسم محمد السمرقندي، (والمتوفى عام ١١٦١)، مؤلف كتاب «ملتقات النصير»، فخرالدين حسان بن منصور الاوزجاندي (المتوفى عام ١١٩٦)، الذي ترك من بعده «فتاوى قاضي خان» الذي يعد من المؤلفات المهمة جداً في الفقه، وأخيراً الفقيه البارز برهان الدين المرغلاني (المتوفى عام ١١٩٦م)، الذي وضع كتاب «الحداد» ذا الشهرة الواسعة في العالم الاسلامي، والذي يعد من الآثار العلمية النفيسة الفريدة حتى في يومنا هذا.

وكما هو معلوم، إبان حكم القاراخانيين، ازداد دور الاسلام وتأثير علم الكلام في الوعي العام. كما ازداد، طبعاً، تأثير علماء المسلمين في الحياة الاجتماعية السياسية للبلاد. وفي تلك الفترة بالتحديد، انتشرت الطرق او الاتجاهات الصوفية

في بلاد ما وراء النهر، تلك الاتجاهات التي ظهرت في أواسط القرن الثامن في سوريا والبلدان العربية الأخرى.

ويعد مؤسس المدرسية الصوفية في آسيا الوسطى، التي مثلت أحد الاتجاهات الصوفية «الاتجاه النقشبندي»، الرجل التقي الورع المتصوف يوسف الهمذاني، الذي كان يعمل حذّاءً. ولقد ساهم يوسف الهمذاني، بالاشتراك مع تلامذته خوجا احمد يساوي وخوجا عبد الخالق غيجدوفاني، وبهاء الدين النقشبندي، مساهمة كبيرة فعالة في اقامة الطريقة النقشبندية ونشرها.

حياة يوسف الهمذاني (١٠٤٨ ـ١١٤٠م)، الشخصية الصوفية اللامعة، والمؤسس الروحي لطريقة خوجاغان. هو من قرية بوزانجار التابعة لهمذان. سافر في الثلاثين من عمره الى بغداد حيث درس علوم الفقه على الفقيه المعروف أبي اسحق، ثم أكمل علومه في مبادئ الفقه والدين في أصفهان وبخارى. وبالتالي اشتهر في العراق وخراسان وما وراء النهر وخوارزم. ونال لقب صوفي من الشيخ عباد الله عبدالله الجويني والشيخ حسن السمناني وأبي علي الفرمادي.

كان الهمذاني متضلّعاً من علوم الظاهر والباطن. عاش في بخارى وسمرقند ومرو وهرات، وكرس أوقاته كلها لتعليم تلامذته المبادئ الصوفية. توفي في الطريق في أثناء عودته من هرات الى مرو، حيث دفن هناك. وبعد مرور فترة من الزمن، قام ابن النجار ـ أحد مريدي الهمذاني ـ بجلب جثمان معلمه الى مرو حيث دفنه.

إن فضل الهمذاني على الطريقة النقشبندية، عظيم جداً، إذ انه أعد الكثير من تلامذتها، وأرسى المبادئ الروحية للطريقة.

كان للهمذاني عدد كبير من التلاميذ. وأبرزهم خوجا عبدالله باركي، وخوجا حسان انداكي، وخوجا احمد يساوي، وخواجا عبد الخالق غيجدوفاني.

ثمة معلومات قيمة عن حياة الهمذاني ونشاطاته وافكاره وردت في «كتاب الأنساب» للسمعاني (رسالات صاخبة)، في «رسالة» لعبد الخالق غيجدوفاني، و«فصل الخطاب» لخوجا محمد بارس (المتوفى عام ١٤١٣م) و«رشحات عين

الحياة» لفخر الدين علي بن حسين الواعظ الكاشفي (١٤٦٣ ـ ١٥٣٣م).

وكما أشير آنفاً، كان خوجا أحمد يساوي (المتوفى بين عامي ١١٦٦ ـ ١١٦٧م) من التلامذة المقربين للهمذاني، ومن الشيوخ الصوفيين البارزين، وشاعراً، ومؤسساً للطريقة اليساوية. ولد في آسيا الوسطى في مدينة ساريام (سايرام) التي كانت تعد من المدن الكبيرة آنذاك وتشتهر ايضاً بـ «اسبيجاب»، في اسرة الشيخ ابراهيم ـ آتا وبيبي عائشة (كاراساتش ـ آتا). تلقى مبادئ العلوم الاولية في سايرام على العالم شهاب الدين اسبيجاب، وأهداه الى «الطريقة» الشيخ التركي البارز أرسلان باب. بعد وفاة الأخير، سافر خوجا أحمد يساوي الى بخارى حيث التحق بخدمة يوسف الهمذاني، المذكور آنفاً ومؤسس طريقة خوجاغان، وأتم بإشرافه دراسته في التصوف. ويعتبر خوجا احمد يساوي الخليفة الثالث لخوجا يوسف الهمذاني بعد عبد الله باركي وخوجا حسان انداكي، الذي احتل مكانه بعد وفاة معلمه، ومع مرور الزمن عهد بتلامذته (خلفه) ومسكنه (خاناقاه) إلى خوجا عبد الخالق الغيجدوفاني (المتوفى عام ١١٢٠) وعاد الى مدينة يس (تركستان ـ حالياً)، حيث أمضى بقية حياته.

وشأنه شأن معلمه خوجا يوسف الهمذاني، لم يسْعَ خوجا احمد يساوي إلى جمع الثروة والأموال، ولحياة الرفاهية، بل عاش حياة بسيطة متواضعة وفقيرة، وكرس اشعاره للدعوة الى الصدق والعدل والصبر والنزاهة والامانة.

وذاع صيت خوجا أحمد يساوي على نطاق واسع كشيخ صوفي جليل وشاعر واعظ موهوب عبقري. وكان ديوانه «ديوان الحكمة» ذا شهرة عالمية، وقد صدر غير مرة وافضل اصداراته تعد طبعة قازان (١٨٩٦م) والطبعة التركية (١٩٨٣م). وتعد أشعار المفكر العظيم نموذجاً للغة الاوزبكية القديمة والشعر التركي في الفترة ما بين القرنين ١٠ ـ ١٢م.

وعلاوة على «ديوان الحكمة»، ترك خوجا أحمد يساوي من بعده الكثير من تلامذته الموهوبين العباقرة أمثال: منصور ـ آتا (المتوفى عام ١١٩٨م)، عبد المالك ـ آتا ، تاجخوجا ـ آتا (المتوفى عام ١٢٢٠م)، زانغي ـ آتا (المتوفى عام ١٢٥٨م) وحكيم ـ

آتا (المتوفى ١١٨٦م)، والذي كان يغلب على شهرته اسم سليمان باكيرغني، كما كان ديوانه «كتاب باكيرغني» مشهوراً ايضاً مثل «ديوان الحكمة» لاحمد يساوي ذي الشهرة العالمية في العالم الاسلامي.

نجم الدين كبري (١١٤٥ ـ ١٢٢١م)، الشخصية الصوفية البارزة في آسيا الوسطى، ومؤسس الطريقة الكبروية. إسمه الكامل: احمد بن عمر ابو الجناب نجم الدين الكبري الخوارزمي. من خيوة أصلاً. كانت له رحلات كثيرة زار فيها مصر واذربيجان وايران، حيث أكمل دراسته في المعارف الصوفية، وكسب الكثير من المريدين.

ففي مصر مثلاً، تتلمذ على روزبيهان الوزان المصري (المتوفى عام ١١٨٩م)، وفي تبريز، على أبي منصور حافظ، وبابا فرج التبريزي، وعمار بن ياسر البدليسي (المتوفى ـ عام ١١٨٧م)، وفي همذان، على اسماعيل الكيسري (المتوفى ـ عام ١١٩٣م) في ديزفول. وفي العام ١١٨٥م، عاد الى خوارزم حيث اسس الطريقة الكبروية. قتل نجم الدين الكبري عام ١٢٢١م، حينما حاصرت قوات جنكيزخان المغولي غورغيانج.

يعد نجم الدين الكبري من المنظرين الصوفيين البارزين، وآراؤه في التصوف، ومن ضمنها طريقته الكبروية، مدرجة في مؤلفاته «فوائح الجمال وفواتح الجلال»، «الاصول العشرة»، «رسالة الخائف الهائم من لومات اللائم»، «رسالة الشيخ نجم الدين كبري»، «رسالة من مؤلفات الشيخ نجم الملأت والدين كبري».

فالانسان، بحسب تصور نجم الدين الكبري، عبارة عن صورة مصغرة للعالم تحتوي على كل ما يحتوي عليه العالم الأكبر، أي أنه يحتوي على الميزات الالهية كافة، ما عدا ميزة «الله الرحمن الرحيم». ولمجرد بلوغ المريد ذلك يكتسب ميزات الهية معينة. لذا، عليه التقيد بدقة وصرامة بأصول هذه الطريقة وقواعدها، وأن يصوم ويخضع ارادته كلياً لارادة الشيخ. لقد صاغ الشيخ نجم الدين الكبري عشرة مبادئ للطريقة الكبروية تؤدي الى نيل رضا الله:

١) التوبة الصادقة والحب لله، ـ ٢) الزهد في الدنيا، ـ ٣) التوكل على الله، ـ ٤) القناعة، ٥) العزلة ـ ٦) ملازمة الذكر، وذكر الله دائماً، الله سبحانه وتعالى الذي يجنب الانسان الخصال القبيحة كالحقد والحسد والرياء، ـ ٧) الوجد الى الله، ـ ٨) الصبر على الآلام والتغلب على الشهوات. ـ ٩) التأمُّل، ـ ١٠) الرضا.

كانت تعاليم نجم الدين الكبري قد تخطت حدود آسيا الوسطى، وبلغت خراسان، والهند وحتى الحدود الغربية لآسيا. وكان لديه عدد كبير من التلاميذ، من اشهرهم: سعد الدين حموية (المتوفى عام ١٢٥٢م)، نجم الدين داية الرازي (المتوفى عام ١٢٥٦م) وسيف الدين بوخارزي (المتوفى عام ١٢٦١م).

في الفترة ما بين القرنين ٩ ـ ١٢م، في ما وراء النهر وخوارزم، كان الادب (الشعر) متطوراً، وظهر العديد ممن كتبوا أعمالهم باللغات العربية والفارسية والتركية في بخارى، وسمرقند، ومرو، ونيسابور، وبلخ، وغورغيانج، وخيوة، وفرغانة ومدن ما وراء النهر وخوارزم الأخرى، وحظي كثيرون منهم بشهرة عالمية، أمثال: روداكي (٨٥٠، ٨٦٠ ـ ٩٤١م)، شهيد البلخي (المتوفى عام ٩٣٧م)، دقيقي (ق ـ ١٠م)، الثعالبي (٩٦١ ـ ١٠٣٨م)، نظامي عروضي السمرقندي (بعد ربع ق ـ ١١و النصف الاول من ق ـ ١٢م)، رشيد الدين الوطواط (١٠٨٨ ـ ١١٨٢م)، أسير الدين اخسيكاتي (المتوفى عام ١١٧٤م)، ظاهر الدين الفاريابي (١١٦٠ ـ ١٢٠٢م)، أديب الخوارزمي (المتوفى عام ١١٦٥م)، يوسف خاس حاجب البالاساغوني (١٠١٩. توغيلجان)، أحمد يوغناكي (ق ـ ١٢ بداية ق ـ ١٣م) وغيرهم.

في الفترة الآنفة الذكر، أقيمت في مدن ما وراء النهر وخوارزم بنايات فخمة: قصور، ومساجد، ومدارس، وضرائح، ومآذن وهلَّمَّ جرًا. ومن الآثار المعمارية (ق ٩ ـ ق ١٢م) لم يصلنا سوى القليل. ولكنها رغم قلتها، تشير الى تطور الفن المعماري وازدهاره وقدرة معماريي ما وراء النهر وخوارزم على إنشاء مدرستهم المعمارية وأسلوبهم في فن البناء، مما أكسبهم الشهرة في أنحاء العالم كافة. ومن هذه الآثار نذكر، على سبيل المثال: ضريح السامانيين الرائع المشهور في مدينة بخارى (ق ـ ٩ ـ

ق ١٠م)، وخان رباط مالك بالقرب من مدينة نوائي الحالية (تقريباً ق ١١م)، ومسجد كالان في بخارى الذي تم بناؤه في عهد الحاكم القاراخاني أرسلان خان محمد بن سليمان (١١٠٢ ـ ١١٣١م) عام ١١٢٧م. وجدير بالذكر ان ارسلان خان هذا قد أجرى اصلاحات كثيرة في بخارى والمدن المجاورة لها. ففي عهده تم بناء أسوار مدينة بخارى، وتشييد القصر القائم في حي دروزة بالقرب من بوابة سعد أباد، كما تم اصلاح قلعة بخارى، وإجراء بعض الترميمات في بيكند العريقة. ومن الآثار المعمارية النادرة (ق ٩ ـ ق ١٢م) في بلاد ما وراء النهر، نذكر: المآذن الرائعة في قرية وابكينت (٢٥كلم عن بخارى)، التي شيدها صدر بخارى برهان الدين عبد العزيز ـ في العام ١١٩٨ ـ ١١٩٩م، ونامازغاخ بخارى (١١١٩ ـ ١١٢٠م)، مئذنة جاركورغان (محافظة سورخانداريا ١١٠٨ ـ ١١٠٩م)، برج بوران المشهور في سيميريتشي، ضرائح اوزغيند المشهورة، التي شيدت في عهد القاراخانيين في ق ١١ ـ ق ١٢م، ومجمع شاه زندا الأثري على المنحدر الجنوبي لافراسياب، الذي بوشر ببنائه في نهاية القرن ـ ١١م. ومن آثار خوارزم المعمارية العائد تاريخها الى ق ١١م ـ بداية ق ١٣م، والتي ما زالت قائمة، نذكر: ضريح فخرالدين الرازي (المتوفى عام ١٢١٠م) والخوارزمشاه تيكيش.

وكما يلاحظ من المعطيات الأثرية، فإن فن الرسم على الأواني المنزلية والحلي وأدوات الزينة كان قد قطع آنذاك شوطاً كبيراً في ميدان التطور. وفي هذا الصدد لدينا آثار مادية عثر عليها علماء الآثار في منطقة ما وراء النهر، وهي عبارة عن جرة فضية عليها صورة جمل مجنح (ق ٨ ـ ٩ م)، آنية من فضة عليها صورة ملك متربع على عرشه (ق ٨ ـ ٩م)، تماثيل واشكال برونزية (ق ٨ ـ ٩م)، كأس وإناء زهور من الخزف (ق ٩ ـ ١٠ م)، نوط زجاجي (ق ٨ ـ ٩م)، رأس ثور زجاجي ايضاً، وكؤوس وجرار مصنوعة من زجاج أزرق اللون، حق صغير من البلور، مرآة برونزية (ق ـ ١١م) وأشياء أخرى كثيرة.

الفصل التاسع

آسيا الوسطى ابان حكم جنكيزخان وسلالته

١ ـ غزوات جنكيزخان وتأسيسه دولة المغول

نتيجة للحروب الكثيرة الضارية التي شنها جنكيزخان (١١٥٥ ـ ١٢٢٧م)، ضد القبائل التترية ـ المغولية[1] في منغوليا، وضد شعوب سيبيريا والتاي وايغوريا[2] الناطقة باللغة التركية، أي الكارلوك والنيمان والقيرغيز والإيغوار وغيرهم، في الفترة من العام ١١٨٨ إلى ١٢٠٦، تمكن من اقامة دولة اقطاعية جديدة، كتب لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ شعوب آسيا المركزية والوسطى والصين وإيران وأفغانستان وأذربيجان والعراق وروسيا وجنوب شرقي أوروبا. وبالتالي، وفي الفترة ما بين ١٢٠٥ ـ ١٢٢٧م، قضى جنكيزخان على دولة سي ـ

١ ـ «التتر» و«المغول» تسميتان مترادفتان. فحتى القرن ـ ١٢م كانت كل القبائل التركية المغولية القاطنة في منغوليا الشرقية تعرف بالتتر، ومنذ بداية القرن ـ ١٣م، ومع ازدياد عظمة المغول اكتسبت تسمية عامة مشتركة: «مغول». وحري بالذكر أن كتاب الشرق قسموا التتر الى ثلاث مجموعات عرقية: «بيضاء»، «سوداء»، «بربرية». أطلقت «البيضاء» على التتر الرحل القاطنين جنوب سهوب «غوبي» والذين كانوا في خدمة تشجورتشجيني. وكانت غالبيتهم العظمى من قبائل الـ «اونغوت» التركية والـ «كيدان» المغوليين. أما «السوداء» فهي القبائل التترية مثل الـ «كيرايت والنيمان» المتنقلة ما بين جبال الصين وشرقي تركستان، أما «البربرية «فهي قبائل الميركيت (او ـ ميكريت) أويرات واوريانخاي، التي عاشت في جنوب سيبيريا.

٢ ـ ايغوريا: حسب المعطيات التاريخية، تطلق على شمال شرقي تركستان حيث تقع مدن كاشغار، تورفان، كاراخوجا، كومول (او خامي كما ورد لدى المؤرخين الصينيين) والمناطق الممتدة جنوب شرقي مدينة «كولجي».

سيا (والتي كانت تعرف أيضاً بدولة «تانغوت»، وظلت قائمة من العام ٩٨٢م الى ١٢٢٧م، في منطقة غاسنو الصينية حالياً والجزء الغربي من شانسي) وأمبراطورية تسزين (او دولة تشجور تشجيني) التي ظلت قائمة منذ العام ١٢١١م الى ١٢٢٧م، فارضة سلطتها على شمال الصين وشمال شرقها.

وبعد ذلك، وبدعم من أتراك التاي وسيبيريا، اتجهت أنظار التتر ـ المغول وجنكيزخان إلى دولة الخوارزميين العظيمة آنذاك. وفي طريقهم الى آسيا الوسطى دمروا بقايا قوات الكاراكيتاي ونيماني كوشلوك.

وفي الفترة من العام ١٢١٩ إلى١٢٢٤م، استطاع جنكيزخان القضاء على الحاميات المتفرقة في أترار، وبيناكيت، وخوجيند، وبخارى، وسمرقند، وغورغيانج، وترمذ، وبلخ ومدن آسيا الوسطى وخراسان التابعة للخوارزمشاه علاء الدين محمد (١٢٠٠ ـ ١٢٢٠م)، وفرض سيادته على آسيا الوسطى وخوارزم. لقد سلطت الأضواء، بصورة كافية، على هذه الأحداث في المؤلف الذي وضعه الاكاديمي ف. ف. بارتولد بعنوان «تركستان ابان الغزو المغولي»، حيث يستطيع القارئ الحصول على الأجوبة حول جميع المسائل المتعلقة بهذه الكارثة العظيمة التي ألمت بالعديد من البلدان والشعوب. ولذا نرى أن لا ضرورة للتوقف مرة أخرى عند هذه القضية بالتفصيل، ونكتفي بالتحدث عن سير هذا الغزو بكلمات موجزة.

غزو التتر المغول لآسيا الوسطى

يستدل بالمعلومات الموجزة المقتضبة، الجديرة بالاهتمام، والواردة في «ملحق اضافة الى الصراخ» لجمال الدين الكارشي، «الاسطورة المغولية»، «يوان ـ شي» لِـ بلانو كاربيني، على أن التتر المغول اجتاحوا آسيا الوسطى عبر اترار وسرداريا وعبر كاشغار وفرغانة.

تجدر الاشارة هنا، الى أن قوات جنكيزخان احتلت فرغانة قبل بيناكيت وخوجيند بفترة طويلة. وكان عدد من مدنها، مثل كاسان واخسيكيت، قد احتل ـ

حسبما يفيد المصدر الصيني - من دون إراقة دماء. ويفيد المصدر نفسه، أن خاسمايل (اسماعيل) حاكم مدينتي كاسان وباسيخا (اخسيكيت)، آنذاك، باسم الغورخان الكاراكيتائي، ومن ثم باسم الكوتشلوك النيماني، قد خرج مع وجهاء هاتين المدينتين لاستقبال جيني - نوين، وأعرب عن ولائه للمغول، الذين وعدوهم بحسب ما أعلنه جيبي - نوين، بأن السكان كافة سيتمتعون بحرية الأديان إذا أعلنوا ولاءهم. لكن مدن فرغانة الأخرى مثل انديجان وخوقند (خواكينت المصادر باللغة العربية) قاومت المحتل مقاومة عنيدة. وقد بقيت هذه المدن في حالة دمار مدة طويلة. فمثلاً، لم تتم إعادة بناء أنديجان إلاّ في نهاية ق - ١٣م، وعلى يد جغتاي دوفا - خان (١٢٩١ - ١٣٠٦)، كما بقيت خوقند دون أسوار واستحكامات ومعدات دفاعية حتى عام ١٧٤٠م.

كان جنكيزخان إبان حياته (١٢٢٧م) قد وزع أمبراطوريته العظيمة على أبنائه: جوتشي وتشاغاتاي واوغيدي وتولوي.

لقد نال الابن الأكبر - جوتشي - الأراضي الممتدة من نهر ارتيش شرقا وصولاً إلى تلك الأماكن «التي وطأتها الخيول المغولية» (كما ذكر جنكيزخان نفسه) غرباً، ومن ضمنها الحوض السفلي لنهر سرداريا الذي يضم مدينة غورغيانج. كان مقر جوتشي الصيفي على ارتيش، أما الشتوي، فقد كان في مكان ما في الحوض السفلي لسرداريا. وفي وقت لاحق، في عهد باتو (١٢٢٧ - ١٢٥٥م)، قام جوتشي بتوسيع حدود دولته باحتلال حوض الفولغا والأراضي الروسية.

وكانت دولة مترامية الأطراف من الصعب تعيين حدودها بدقة. ويحددها أ. ي. يعقوبوفسكي البحاثة الكبير، الذي درس تاريخ الاورطة الذهبية على النحو التالي: «كانت الاورطة الذهبية تتألف من بلغار والاقليم التابع لها في الجهة الشمالية الشرقية، وتجتاز حدودها، شمالاً، الامارات الروسية، وجنوباً تتألف من القرم ومدنها الساحلية من جهة، والقوقاز حتى دربند من جهة أخرى، وحتى باكو احياناً، وكذلك شمال خوارزم مع مدينة اورغينتش، وغرباً السهوب من دينسر وما وراءها، وشرقاً حتى غرب سيبيريا والحوض السفلي لسرداريا». كانت عاصمة الاورطة

الذهبية في عهد باتو، هي باتو ـ سراي (سراي القديمة) الواقعة مكان «سيليتريتي ـ حالياً» القريبة من استراخان، وفي عهد الخان بيرك (١٢٥٧ ـ ١٢٦٧م) ـ سراي ـ بيرك، الواقعة على اختوب، أحد فروع نهر الفولغا.

كانت دولة تشاغاتاي ذات مساحة شاسعة مترامية الأطراف. وكانت، في بادئ الأمر، تقتصر على جميع الأراضي، الممتدة من اويغوريا شرقاً وحتى سمرقند وبخارى غرباً. ومن ثم ضمت إليها المناطق الشمالية من افغانستان الحالية حتى معابر جبال هندوكوش. أما ميرزا اولوغ بيك فيحدد حدود دولة تشاغاتاي بصورة أكثر دقة: «تورانزامين من كاشغار وبداية أراضي الاويغور إلى ضفاف نهر جيحون، الذي يعد الحد الفاصل بين ايران وتوران، مع جزء كبير (مناطق) من بلخ، باداخشان وكابول وغزنة حتى نهر السند».

كانت منغوليا وشمال الصين قد أعطيتا إلى تولوي ـ خان، أصغر أبناء جنكيزخان.

وفيما بعد، قام هولاكو ـ خان، حفيد تولوي، في العام ١٢٥٦م، بتأسيس الدولة الهولاكية (او دولة الايلخانيين) الرابعة، من ايران واذربيجان، ودامت زهاء ١٠٠ سنة (١٢٥٦ـ١٣٥٣م).

٢ ـ دولة تشاغاتاي (أو جغتاي)

بناء على المصادر التاريخية، لم يكن تشاغاتاي يحكم بلاده كحاكم مطلق الحرية والسلطات، بل كمالك (صاحب) اينجو[٣] فحسب، أما السلطة الحقيقية على اتحاد قبائل الـ «اولوس»، حتى «الغو» (١٢٦١ ـ ١٢٦٦م)، فكانت في قبضة الخان الاعلى، الذي باسمه كانت السلطة المدنية هناك، يمثّلها الخوارزمي المشهور محمود يالافاتش (محامودي خولاسيما ـ حسب المصادر الصينية)، وبعد نقله الى الصين (بعد العام ١٢٣٩م) حل محله ابنه مسعود بيك (المتوفى عام ١٢٨٩م). أما السلطة

٣ ـ اينجو: القوات العسكرية والاراضي والفلاحون الذين يعيشون عليها، تعود ملكيتهم لافراد اسرة جنكيزخان.

العسكرية، واحصاء السكان وجمع الضرائب والاموال، فكانت في أيدي الامراء المغول المعينين لهذا الهدف، والذين يطلق عليهم دارو خاتشي وتانماتشي[٤]. وقد أورد المؤرخ الايراني المعروف «وصاف» أسماء عدد منهم: خزار- بوكي، تشينسانغ - تايفو وبوكا - نوشا، ممّن كانوا يقيمون إبان عهد اوغيدي - كانا (١٢٢٧ - ١٢٤٢م) في نخشب وسمرقند وبخارى. ولكن يستدل من معارضة محمود يالافاتش لقائدي الخان ايلديز - نويونو - خورتشي العسكريين، اللذين قضيا على ثورة محمود ترابي الشخصية المعروفة (لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر أدناه)، ومنعه إياهما من سلب بخارى ونهبها وارتكاب المجازر وإبادة أهلها، يستدل من ذلك كله أن الحاكم المدني (محمود يالافاتش، مسعود بيك) كان يتمتع بسلطة كبيرة في اولوس تشاغاتاي، وأن الولاة (او الحكام) [داروخاتشي وتانماتشي] كانوا ملزمين بالامتثال لإرادته. وبالفعل كانت السلطة المدنية (الحاكم المدني) أعلى من الحاكم العسكري في الـ «اولوس». وفي هذا الصدد، نود الاشارة إلى القصة التالية التي سردها رشيد الدين (١٢٤٧ - ١٣١٨م)، وجاء فيها: «يقال، إنه في عهد اوغيدي خان كتب تشاغاتاي رقعة انتقل بموجبها جزء من مناطق ما وراء النهر، التي كانت قد منحت بموجب أمر الخان لمحمود يالافاتش، إلى شخص آخر. ولما أوضح يالافاتش الأمر للخان، أرسل الأخير رقعة استفسار إلى تشاغاتاي، وطلب منه كتابة الرد، فرد تشاغاتاي: «لقد ارتكبت خطأ نتيجة عدم تفكيري، وماذا يمكنني أن أكتب رداً على ذلك، وبما أن الخان أمرني بالرد، فقد تجرأت على ذلك وكتبت كل هذا». أعجب الخان بذلك، وقبل اعتذاره ومنح تلك المنطقة إلى الاينجو تشاغاتاي. وبعد ذلك، حينما قدم محمود يالافاتش إلى تشاغاتاي، استجوبه الأخير ووبّخه. وهنا قال محمود يالافاتش لوزير تشاغاتاي، حبش أميد: «اودّ محادثتك على انفراد». ولما انفرد أحدهما بالآخر قال له محمود: «أنا نائب الخان ولن يقتلني تشاغاتاي من دون استشارتك، ولكن إذا ما شكوتك اليه، فانه سيأمر بقتلك. أما إذا سويت الأمر، فإن ذلك سيكون أفضل، وإلا وشيت بك إلى الخان كي يعدمك، وإذا

---

٤ - داروخاتشي: قائد عسكري مغولي كان يقود فوجاً يتألف أفراده من الشعوب المنتمية إلى القبائل الأخرى، تانماتشي: مساعد الـ «داروخاتشي» وتكمن مهمته في القوات.

نقلت كلماتي هذه إلى الخان، فإنني سأنكر ولن أعترف مهما عذبني، ولا تنس أنه ليس لديك أي شاهد». وهكذا اضطر الوزير لتسوية الأمر. ان الفقرة التي أوردنا لغنية عن التعليق والتفسير. كان محمود يالافاتش وخليفته مسعود بيك من ولاة الخان الأعلى، أما تشاغاتاي فما كان يتمتع إلا بالحصانة التي تخوله عدم دفع الضرائب.

وسرعان ما نقل محمود يالافاتش، في العام ١٢٣٩م، إلى الصين حيث عين محافظاً، أما بيشباليك وكاراخوج اللتان تتألف منهما ممتلكات اويغوريستان، من خوتان وكاشغار، والماليق وكياليك وحتى سمرقند وبخارى وضفاف جيحون فقد مُنحتا لابنه مسعود بيك.

كانت الأوضاع السياسية في أولوس تشاغاتاي قبل حكم الخان كيباك (المرة الاولى ـ في العام ١٣٠٩م، المرة الثانية ـ ١٣١٨ ـ ١٣٢٦م) غير مستقرة، إذ لم يدم طويلاً (١٢٤١ـ ١٢٤٧م) حكم كارا ـ هولاكو، حفيد تشاغاتاي وابن موتوغين الذي قتل عام ١٢٢١م أثناء محاصرة جنكيزخان لـ «باميان»، وأطاح به غويوك ـ خان (١٢٤٦ ـ ١٢٤٩م)، الذي أجلس على عرش اولوس (دولة تشاغاتاي) صديقه يسو ـ منكي، ابن تشاغاتاي. على أن يسو ـ منكي، شأنه شأن الكثير من خانات اسرة تشاغاتاي، كان مدمناً على الخمر، ولم يشارك في إدارة شؤون البلاد.

وكانت السلطة بأسرها في قبضة زوجته توكاشي (توغاشي) والوزير المسلم بهاء الدين المرغلاني، ابن شيخ الاسلام المرغلاني.

بعد وفاة غويوك ـ خان (في العام ١٢٤٩م وهو في طريقه إلى إميل) نما وتعاظم، بشكل ملحوظ، دور «باتي» في الحياة الاجتماعية السياسية للامبراطورية المغولية. وفي العام ١٢٤٩م، قام باتو ـ خان بإجلاس اوغول ـ غايميش، أرملة غويوك ـ خان، على العرش وعين لها وزيراً أو «يغور» مسيحياً يدعى «تشينغاي»، الذي عمل، سابقاً، سكرتيراً لدى اوغيدي ـ خان. إلا أن مثل هذا القرار لقي معارضة من جهة الأمراء من سلالة اوغيدي، الذين حظوا بمساندة حاكم اتحاد قبائل اولوس التشاغاتاي (١٢٤٧ ـ ١٢٥٢م). وعندئذ قرر باتو ـ خان إجلاس منكي، ابن تولوي ـ

خان، على عرش الامبراطورية المغولية، بعد المؤتمر المغولي العام الذي انعقد في كاراكوروم ـ عاصمة الخانات المغوليين الأربعة الأوائل (جنكيزخان، اوغيدي، غويوك ـ خان ومنغو ـ خان) الواقعة على نهر أورخون، وذلك بناء على مبادرة باتو ـ خان عام ١٢٥١م. والجدير بالذكر، هنا، أنه فور انتهاء المؤتمر والتتويج الرسمي للخان الجديد (منكي)، وبناء على مبادرة باتو ـ خان نفسه، جرت محاكمة كل الذين عارضوا إرادة باتو ـ خان. ونقلاً عن الجويني ورشيد الدين، نفذ،بموجب قرار المحكمة، حكم الإعدام بـ ٧٧ من ابرز الأمراء، ومن ضمنهم الامبراطورة الآنفة الذكر «اوغول ـ غايمشي»، وكاداغاتش خاتون والدة شيرامون . وأعلن عزل يسو ـ منكي، وجرى تعيين كارا ـ هولاكو السالف ذكره على قبائل أولوس تشاغاتاي، إلا أنه لم يصل إلى مكان تعيينه، إذ توفي في الطريق في مكان ما في التاي. ورغم ذلك وصلت قواته إلى مقر يسو ـ منكي، ثم خطف الاخير وأرسل إلى باتو ـ خان. بعد ذلك، في اولوس تشاغاتاي، عينت ايرغيني ـ خاتون (إبنة أريك ـ بوغي وأرملة كارا ـ هولاكو) مع ابنها الحدث مبارك ـ شاه، الذي توج رسمياً عام ١٢٦٦ في وادي تشيرتشيك في آخانغران. لكن السلطة الفعلية كانت بيد باتو ـ خان ومكني ـ خان، يمارسها باسمهما مسعود بيك.

وهنا نود الاشارة إلى ما ذكره الرحالة فيلغيلم روبروك، الذي زار (حوالي العام ١٢٥٠م) قصر الخان المغولي في كاراكوروم، ونص على أن الامبراطورية المغولية كانت بأسرها محصورة بين منكي ـ خان وباتو ـ خان.

باختصار، بعد مؤتمر عام ١٢٥١م الآنف الذكر، انقسمت دولة (أولوس) تشاغاتاي إلى قسمين: تركستان الشرقية، إقليم كولجين، وسيميريتشي، والجزء الشمالي الشرقي من فرغانة ـ على ما يبدو ـ أصبح خاضعاً لسلطة الخان، أما ما وراء النهر والجزء الغربي من فرغانة وخوارزم فقد خضع لسلطة الاورطة الذهبية. وكانت الحدود ـ نقلاً عن الرحالة فيلغيلم روبروك السالف ذكره ـ بين مملكتي منكي وباتو ـ خان، تمر في السهوب بين تالاس ونهر تشو، شرقي سلسلة الاسكندر المشهورة.

قام «الغوي» ابن بيدار وحفيد تشاغاتاي ـ الذي اعتلى العرش بعد كارا ـ هولاكو و اركين ـ خاتون (١٢٥٢ ـ ١٢٦١م)، بمحاربة بيرك ـ خان (١٢٥٧ ـ ١٢٦٧م) لتحرير أولوس (دولة) تشاغاتاي من سيطرة الأورطة الذهبية، ووجّه ضربة قوية إلى حامية الاورطة الذهبية في بخارى المؤلفة من ٥٠٠٠ مقاتل، وبحسب ما ذكره المؤرخ وصاف، «أُسِرَت الحامية وأخرجت من المدينة إلى السهب، وابيدت عن بكرة أبيها، وتم تقاسم أموال الحامية ونسائها وأولادها». وثمة معلومات طريفة في هذا الصدد، أوردها رشيد الدين، وجاء فيها أنه في عهد الغوي ـ خان (١٢٦١ ـ ١٢٦٦م)، قامت القوات التشاغاتائية بمحاربة بيرك ـ خان وألحقت الهزيمة بقوات الاورطة الذهبية المتمركزة قرب أترار. «وقام هو ـ أي الغوي ـ كما ذكر رشيد الدين ـ بجمع القوات المشتتة، وحارب مرة واحدة قوات بيرك ـ خان وانتصر عليه ونهب اترار». بعد ذلك غدا «الغوي» قوياً لدرجة لم يعد معها يكترث للخان، بل صار يعتدي على حقوقه أيضاً، حتى إنه ذات مرة استولى على الخزينة المرسلة من ايرانزامين إلى الاورطة الكبيرة (كاراكورم)، مما أوقد نار الحرب بين اريك ـ بوغا (ابن تولوي ـ خان) والغوي ـ خان. وتشير المصادر إلى أن اريك ـ بوغا كان هو البادئ بالحرب التي انتهت، في خاتمة المطاف، بهزيمة الغوي. إلا أنه لم يفقد رباطة جأشه، وبعد مغادرة اريك ـ بوغا ، استطاع الغوي أن يحشد جيشاً كبيراً وانتصر على اريك ـ بوغا.

كانت دولة (اولوس) التشاغاتاي قوية نسبياً في عهد حكم باراك ـ خان حوالي (١٢٦٦ ـ ١٢٧١م). ودامت العلاقات متوترة بين الخان ودولة التشاغاتاي، ولكن دون الوصول إلى مرحلة حرب مكشوفة. بالاستناد إلى «تاريخ أرباع اولوس» تهادن الطرفان واتفقا بعد نزاع طويل. ولكن نتيجة سياسة باراك ـ خان العدوانية، كادت تندلع في العام ١٢٦٨ ـ ١٢٦٩م، حرب واسعة النطاق بين أولوس تشاغاتاي وايران.

وفي السنوات الأخيرة من حياة باراك ـ خان (ابن ايسون ـ كارا بن كامكار بن تشاغاتاي، سرعان ما تقاسم السلطة على اولوس تشاغاتاي كل من خايدو ـ خان

وزعيم الاورطة الذهبية مينغو ـ تيمور (١٢٦٧ ـ ١٢٨٠م). ونال باراك ـ خان ثلثي ما وراء النهر فقط.

لم تجر أحداث مهمة تذكر إبان حكم نيكباي (حوالي ١٢٧١ ـ ١٢٧٢م) وتوغا ـ تيمور(حوالي ١٢٧٢ ـ ١٢٩١م). بعدها أجلس خايدو ـ خان على عرش اولوس تشاغاتاي دوفا ـ خان، ابن باراك خان (حوالى ١٢٩١ ـ ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧م)، الذي ترتبط باسمه ـ كما ذكرنا آنفاً ـ إعادة تعمير انديجان وجعلها عاصمة لفرغانة. كان خايدو ـ خان حليفاً وفياً للخان (خايدو)، وشاركه في الحروب التي خاضها داخل منغوليا، وتدخل في الحروب الداخلية في آك ـ اوردا[٥]، وبعد وفاة خايدو (ربيع ١٣٠١م)، حظي بسمعة حميدة لدى خليفته تشابار.

وحري بالذكر أن دوفا ـ خان كان المؤسس الحقيقي والفعلي لدولة تشاغاتاي بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

بعد وفاة دوفا ـ خان، دبت الخلافات والفوضى مجدداً في اولوس تشاغاتاي. ان فترة حكم كونتشاك ـ خان، ابن دوفا ـ خان، الذي نودي به خاناً قرب المااليق، في منطقة سايكو ـ بالا في العام ١٣٠٦م وتالغو، ابن كاداكا بن بوري بن موتوغين بن تشاغاتاي؛ لم تكن طويلة ولم يحكما معاً سوى سنتين. امتازت هاتان السنتان من حكمهما بعمليات التمرد والعصيان التي قام بها، في قراهم أو دويلاتهم، الامراء برئاسة سليل اوغيدي كورسابة.

استطاع كيباك خان، ابن دوفا خان (١٣٠٩م، في المرة الثانية حوالي ١٣١٨ ـ ١٣٢٦م)، التخفيف من حدة الحركات الانفصالية بين اقربائه وذويه. فمثلاً، استطاع اخماد تمرد وانتفاضات تشابار وتوكمي وبايكاجار. وأجلس على عرش الـ «اولوس» أخاه الاكبر، ايسين ـ بوكي (١٣٠٩ ـ ١٣١٨م). واستطاع الأخوان (كيباك ـ خان وايسين ـ بوكي) ان يضما إلى دولتهما مساحة كبيرة من أراضي خايدو. وأن يحسّنا إلى حدٍ ما، الاوضاع الاجتماعية ـ السياسية في البلاد. بيد أنهما لم يستطيعا

٥ ـ آك ـ اوردا: دولة مغولية أسسها اوردا (اورطه)، ابن جوتشي في العام ١٢٢٦م في الجزء الشرقي من داتشي ـ كيبتشاك وفي سيبيريا.

توطيد الأمور بصورة تامة، ويعود ذلك، إلى حد معين، لحروبهما مع الخان وهزيمتهما فيها.

وبغض النظر عن ذلك كله، يحتل كيباك ـ خان مكانة خاصة في تاريخ اولوس تشاغاتاي، إذ يرتبط باسمه اصلاح نظام العملة والادارة، الذي لعب دوراً مهماً في تطور نظام الحكم الاقطاعي في آسيا الوسطى، وبناء أو إعادة بناء مدن ما وراء النهر التي دمرها جنكيزخان. فمن الآثار العمرانية الجديدة لكيباك ـ خان كان قصر (كارشي بالمغولية) على بعد فرسخين عن «نسف»، والذي اقيمت من حوله، فيما بعد، مدينة كاملة. ومن المدن التي أعيد بناؤها كانت مدينة بلخ القديمة، التي تحدث عنها ميرزا اولوغ بيك: «منذ عهد صاحب قران (جنكيزخان ـ ب. أ) العظيم كانت مهملة وتحولت إلى دغل مليء بالقصب».

كان الهدف من اصلاحات كيباك ـ خان الادارية، واصلاح نظام العملة، هو إصلاح نظام الحكم والنظام النقدي، وبذلك تمكن من وضع حدٍ للفوضى واستغلال المسؤولين، من مختلف المستويات، مناصبَهم لمصالحهم الشخصية.

وبحسب الإصلاح الإداري لكيباك ـ خان قسمت الدولة «اولوس» إلى تومانات في بخارى وسمرقند، وإلى «ارتشين» (ارتشين ـ كلمة تركية تعني ترجمتها الحرفية، قرب، حول، ضاحية، أي المنطقة المحيطة بالمدن الكبرى، ناحية، دائرة) في فرغانة وتركستان الشرقية.

أما فيما يتعلق بإصلاح نظام العملة في البلاد، فأُصدرت وحدة نقدية جديدة تعرف بـ«كيباكي»[٦] على شرف المصلح، وذلك قدوة بالوحدة النقدية الهولاكية المتداولة في ايران والأورطة الذهبية. وكانت زنة الدينار الكيباكي مثقالين، أما الدرهم[٧] الواحد فكانت زنته ٣ مثاقيل.

إلا أن هذه الاصلاحات لم تكن قادرة على التغلب على الانقسام والتفتت

---

٦ ـ كيباكي دينار: عملة ذهبية.

٧ ـ درهم كيباكي: عملة فضية.

الاقطاعي، وذلك لأسباب كثيرة، أهمها أن هذه الاصلاحات كانت سطحية، ولا سيما الادارية منها. ولم تتطرق إلى أهم المبادئ الاساسية للمجتمع، خصوصاً العلاقات القبلية التقليدية، التي استمرت قوية وطيدة.

صحيح أن الممتلكات الاقطاعية حُوِّلت إلى «تومانات»، إلا أن السلطة فيها ظلت في أيدي مالكيها ـ كما في السابق ـ الذين صار يطلق عليهم اسم «رؤساء» الـ «تومانات». ورغم ذلك كله، كانت اصلاحات كيباك ـ خان خطوة إلى الامام نحو تطور المجتمع الاقطاعي. أما بالنسبة لاصلاح نظام العملة، فإنه لعب دوراً هاماً جداً في تعزيز النظام المالي في البلاد. وكانت الدنانير الكيباكية عبارة عن وحدات عملة ثابتة قابلة للتداول في دولة تشاغاتاي طوال تاريخ حكمها، وفي دولة تيمورلنك والتيموريين.

بعد وفاة كيباك ـ خان، دبت الخلافات والحروب الداخلية والنزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة. وخلال سنة واحدة (عام ١٣٢٦م) اعتلى العرش، بالتناوب، ابنا دوفا ـ خان: ايلتشيغ داي ودوفا ـ تيمور. صحيح أنه إبان حكم تارماشيرين (١٣٢٦ ـ ١٣٣٤م)، الملقب بعلاء الدين لشدة تمسكه بالاسلام، ظهرت بوارق أمل لانبعاث دولة تشاغاتاي. استقر تارماشيرين نهائياً في الجزء الغربي من البلاد، وكف عن السفر إلى الماليق(٨). حتى إنه في بداية حكمه قام بحملة سلب ونهب واسعة النطاق على هندوستان، ووصل حتى دلهي. وما كانت هذه الأفعال كلها سوى طموحات.

أما خلفاؤه فلم يستطيعوا المحافظة على وحدة البلاد، إذ اندلعت الحروب الداخلية الجديدة بينهم بقوة. وكان الخانات بوزان (ابن دوفا ـ تيمور)، وتشانكشي (ابن ايبوغين) ـ حفيدا دوفا ـ خان وايسين ـ تيمور، شقيق تشانكشي، الذين حكموا في الفترة ١٣٣٤ ـ ١٣٤٢م، خانات اسمياً، فانتقلت السلطة إلى كبار الاقطاعيين.

وباختصار، في أربعينات ق ـ ١٤م، كانت دولة تشاغاتاي قد انقسمت إلى قسمين: مغولستان (او جيتي)، التي كانت تضم سيميريتشي، وتركستان الشرقية،

---

٨ ـ الماليق: مدينة تقع في سيميريتشي في وادي نهر ايلي قرب كولجي، يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، دمرت في ق ـ ١٦م.

والجزء الشرقي من فرغانة، وما وراء النهر التي كانت تشتمل على الجزء الجنوبي الشرقي من خوارزم.

وفي الفترة من أربعينات إلى ستينات ق ـ ١٤م، تميزت دولة تشاغاتاي بازدياد الفوضى والاضطرابات واندلاع الحروب الداخلية والانقسام الاقطاعي. وفي تلك الفترة، تقسّم جزء من البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة. وفي الجزء الشرقي ظهرت البلاد المعروفة في المصادر التاريخية بـ«مغولستان» أو «جيتي». وناهيك من التقاليد القبلية الوطيدة، بدأت الاضطرابات والصراع الاقطاعي. وهنا قويت شوكة القبائل، ولا سيما قبيلتي «تشوروس» و«دوغلات». أما في الجزء الغربي من البلاد، فقد، انتقلت السلطة أيضاً إلى القبائل التركية المغولية التي استولت على السلطة. فمثلاً، أعلن حاجي بارلاس ـ عم تيمورلنك ـ استقلال كيش (شهريسابز) ومنطقتها، وفرض الأمير بايزيد جالاير سلطته التامة على إقليم خوجيند، كما أعلن خضر ياسافوري استقلال ساريبول وتاتقند[٩]. ورفع الاميران أولجيتو وكايخوسرو راية الاستقلال في حصار وخوتالان، كذلك أعلن الامير حسين ـ حفيد الأمير العظيم كازاغان المقتول عام ١٣٥٨م في أثناء الصيد ـ استقلاله ببلخ ومحافظتها. كما استقل محمد خوجا ـ زعيم النايمانيين ـ بـ «شيبرغان» ومحافظتها. وكانت ثمة مناطق خاضعة للأرسطقراطيين المحليين. فمثلاً، كانت بخارى ومحافظتها خاضعة للصدور، وترمذ ـ للسادة المحليين ـ الخوداواندزاديين، المنتمين إلى سلالة الشيخ الطشقندي الكبير ـ خاواندطاخور (المتوفى حوالى عام ١٣٥٠م) وغيرهم.

وهكذا نرى أنّ الخانات لم يتمتّعوا بأي سلطة فعلية، وكانوا مجرد أدوات في أيدي الجماعات الاقطاعية المتصارعة. الأمر الذي استغلّه الرجل الذكي ذو المراس تيمورلنك ـ ابن البيك من بارلاس «تاراغاي ـ بهادور».

إن عدم توافر المعلومات الوافية عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في دولة تشاغاتاي، تحول دون إعطائنا أي معلومات أو أي صورة

---

٩ ـ تاتقند: مدينة ترتقي إلى القرون الوسطى، تقع في آسيا الوسطى ما بين كاتا ـ كورغان و وخاتيرتشي.

واضحة بهذا الشأن. إلا أن ما تقدمه لنا النمِّيات (المسكوكات) والمصادر القصصية (لدى الجويني، ورشيد الدين، ووصاف، وجمال الكارشي وغيرهم) يتيح لنا إعطاء بعض الآراء بهذا الشأن.

ينبغي أولاً القول إنّ بلاد تشاغاتاي كانت دولة ذات نظام حكم لا مركزي، يدير شؤونها من يعينهم الخان من الحكام المدنيين (للمناطق المتحضرة، حتى العام ١٢٨٩م)، وحكام ملاكون ذوو رتب عسكرية يتمتعون بصلاحيات خاصة: «داروخاتشي» و«تانماتشي». والجدير بالذكر، أنه كان يشارك في إدارة شؤون البلاد، علاوة على ممثلي القبائل التركية المغولية (مثلاً في عهد تشاغاتاي خاراتشار ـ نوين من قبيلة بارلاس: مُكي ـ نوين، من الجالايريين، ابن تشاغاتاي الاصغر من قبيلة سونيت، كشيخ من قبيلة سولدوس)، مشاركة فعالة زُعماء الشعوب المحلية، أمثال محمود يالافاتش ومسعود بيك من خوارزم، حبش أميد من أترار، بهاء الدين مرغيناني، الوزير، يسو ـ منكي من فرغانة وغيرهم. وهنا ما يجدر ذكره، أن ممثلي سكان آسيا الوسطى المحليين الاصليين كانوا يسهمون، بصورة فعالة، حتى في الحياة الاجتماعية السياسية للصين في عهد أسرة يوان (١٢٧٩ ـ ١٣٦٣م). وبقي في المصادر على سبيل المثال، اسم محمود يالافاتش الآنف الذكر وخلفائه: علي بيك ويعقوب وشمس الدين الماليجي وسيد آجال وابنه علاء الدين، بهاء الدين القوندوزي وغيرهم.

نشأت تشاغاتاي في ما وراء النهر، وأصبحت بفضل جودة مناخها، دولة متطورة زراعياً، قائمة على الري الاصطناعي، واشتهرت بزراعة القطن، والأرز، والقمح، والشعير، والحمص، والقرعيات، والفصفصة والكروم وهَلُمّ جراً. وبفضل موقعها الجغرافي، كانت شرياناً تجارياً حيوياً ونقطة هامة على طريق الحرير العظيم، وقد لعبت دوراً كبيراً في تجارة الصين واليابان مع بلدان الشرقين الأدنى والأوسط وأوروبا الشرقية.

وتطورت الصناعة والزراعة في مدن ما وراء النهر: سمرقند، وبخارى، وطشقند، وخوقند، وخوجيند (مقر نائب الخان)، وأوزغيند (مكان حفظ الخزينة كما كان الأمر في عهد القاراخانيين والكاراكيتاي)، ومدينة انديجان حيث أجرى دوفا ـ

خان الكثير من الاصلاحات واتخذها عاصمة لفرغانة، ومرغيلان (مركز العلماء والشعراء)، وأخسيكيت، مسقط رأس الشاعر المعروف اثير الدين اخسيكاتي (المتوفى حوالي العام ١١٧٤م)، اسفارا، التي انجبت شاعر القرن ـ ١٣م سيف الدين اسفرانغي (المتوفي في الفترة ما بين ١٢٦١ ـ ١٢٦٧م)، كوبا (او ـ كوفا) موطن الشاعر الكبير ركن الدين كوباوي (ق ـ ١٣م).

لقد سبق أن ذكرنا آنفا أن التشاغاتائيين كانوا يحكمون البلاد (اولوس) بصفة «انجو» فقط، أي أنهم يكتفون بالتمتع في الحصول على مداخيلها وايراداتها. أما فيما يخص الإتاوات والخراج والضرائب، فإن المعلومات المتوافرة لدينا عامة بسيطة. فمثلاً يقول رشيد الدين عن الضرائب الأساسية المفروضة على الفلاحين والتجار والرُّحل: مال خراج، «كوبتشور»، «تارغو». ووفقاً لما أورده، كان حجم ضريبة الأرض يعادل ١٠ ٪ من الحجم العام للمحصول. وحجم ضريبة الماشية «كوبتشور» ١٪ عن كل ١٠٠ رأس. والضريبة الثالثة «تارغو» كانت ضريبة تجارية. ولا شك أنه فرضت ضرائب على الصناعات والتجارة، وكانت تدفع من المواد المنتجة أو السلع المباعة. ولكن منذ خمسينات القرن ١٣م، وبعد البدء بتداول العملة في عموم الأمبراطورية المغولية، وصكّ النقود باسم منكي ـ خان (١٢٥١ ـ ١٢٦٠م)، ولا سيما منذ عام ١٢٧٠م، بوشر بدفع الضرائب والإتاوات نقداً. وتجدر الإشارة هنا، إلى ان النقود كانت تصك في العديد من المدن الكبيرة. وذكر منها البحاثة م. ا. ماسون مدناً مثل: الماليق، بخارى، سمرقند، اترار، تاراز، كاشغار، طشقند، اوش، مرغلان، آك ـ تيبي، اوزغيند وخوجيند.

ومن الوقائع الاجتماعية الاقتصادية في حياة شعوب آسيا الوسطى إبان حكم المغول (التشاغاتائيين)، تجدر الإشارة إلى انتفاضة سكان محافظة بخارى في العام ١٢٣٣م بقيادة الحرفي محمود الطربي، احتجاجاً على سوء أوضاع جماهير الشعب، الناجم عن ظلم المسؤولين المغول وجباة الضرائب، وتمادي الاقطاعيين المحليين في تعسفهم. جرت الانتفاضة على النحو التالي: بدأت الانتفاضة في قرية «طرب» الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ (١٨ ـ ٢١كلم) عن بخارى (في حدود ناحية

جندار محافظة بخارى الاوزبكية ـ حالياً)، وسرعان ما امتدت لتشمل المنطقة بأسرها. واتجه إلى بخارى العديد من آلاف الثائرين المسلحين بالعصيّ والرفوش والفؤوس والمذاري، وهنا هرب قسم من المسؤولين المغول إلى كيرمين، واندسّ آخرون منهم بين الثائرين بهدف قتل محمود الطربي وهو في طريقه إلى بخارى والقضاء على زعيم الثورة.

وفي نهاية المطاف، استولى الثائرون على بخارى. وتمركزت قواتهم الرئيسة على مرتفع أبي حفص شمالي المدينة. أما محمود الطربي فقاده الشعب إلى قصر ملك سنجار وبايعه بالخلافة، وأما الوجهاء والمسؤولون المغول الذين لم يتمكنوا من الفرار، فقد ألقي القبض عليهم وأعدموا، ووزعت أملاكهم على الفقراء. بيد أن المغول الفارين إلى كيرمين سارعوا إلى جمع فصائلهم المشتتة، وقاموا بمهاجمة الثوار، إلا أنهم هزموا وردوا على أعقابهم. كان بمقدور الثوار مواصلة القتال وتحقيق مزيد من النجاحات، لكن زعماءهم ـ محمود الطربي وأخواه محمد وعلي، وعالم الدين شمس الدين محبوبي ـ رغبوا عن ذلك. وهكذا لم تتجاوز الثورة حدود بخارى، فاستغل محمود يالافاتش والمغول ذلك وأرسلوا من خوجيند جيوشاً بقيادة كاراتشار ـ نوين وايلديز ـ نوين وجيكين ـ خارتشي، وهزموا محمود الطربي وثواره، الذين لم يكونوا مسلحين بصورة جيدة وكانت تنقصهم المهارة القتالية، إلا أنهم رغم ذلك أبدوا مقاومة باسلة شديدة. ونقلاً عن المصادر، كانت المعارك دموية وفقد فيها من الطرفين ٢١٠٠٠ نفر. إن هذا العدد مبالغ فيه وموضع شك، لكن الأمر الذي لا شك فيه، هو أن الثوار دافعوا دفاعاً مستميتاً، وحاربوا الدخلاء بتفان، وبالرغم من القضاء على ثورتهم، إلا أنهم أثبتوا للمغول أن شعب ما وراء النهر يكره ويرفض النظام الذي أقامه المغول ـ التتر على الظلم والجور والتعسف، ولا ينوي الاستسلام له، ويتمتع بقوة كافية لخوض نضال ضارٍ ضد هذا النظام البغيض.

وتعد من الأحداث البارزة في الحياة الاجتماعية الاقتصادية في بلاد تشاغاتاي في أواسط ق ـ ١٣م، تلك الخلافات التي ازدادت حدة وتوتراً بين خلفاء تشاغاتاي الذين كانوا حكاماً في المحافظات. كان قسم من الامراء، حكام أولوس، يطمحون منذ

عهد مبارك ـ شاه وباراك إلى إقامة علاقات وطيدة مع سكان ما وراء النهر الحضر. فمثلاً، قام، آنذاك، مبارك ـ شاه بالارتحال من سيميريتشي إلى وادي آخانغران، وقام باراك ـ خان بالارتحال إلى تشاغانيان اولاً، حيث جرى انتخابه في العام ١٢٦٦م.

أما بنيانهم الاجتماعي فكان قوياً يترأسه العسكريون الرحّل: خايدو، ياساورا، بوزانا وغيرهم. وكانت حياتهم تميل إلى نمط حياة الرُّحل الغزاة. إذ أنهم كثيراً ما أغاروا على مناطق البلاد المتمدنة، ونهبوا السكان، وأحرقوا المدن والقرى. ومن جراء ذلك، أطلق عليهم الحضر لقب (لصوص، قطاع طرق، بربر)، في حين أطلقوا هم على الحضر لقب هُجناء (أي كاراوناس).

آسيا الوسطى في عهود تيمور والتيموريين

شكل التيموريون، آل تيمور، عائلة عظيمة رائدة، أسسها رجل الدولة والقائد الحربي الفذ الأمير تيمور (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥م)، والذي يتحدر نسله من أسرة البك البرلاس، أحد بكوات الطبقة الوسطى، تاراغاي[1] بخادر (توفي عام ١٣٦١م). وقد تملك التيموريون زمام الحكم مدّة مئة وستة وثلاثين عاماً، خصوصاً في بلاد ما وراء النهر وإيران وأفغانستان وأذربيجان. ومن هذا المقام ينبغي الإشارة إلى أحد أفراد هذا البيت البارزين، ألا وهو ظهير الدين محمد بابور (١٤٨٤ ـ ١٥٣٠م)، وذريته من بعده، الذين خلدهم التاريخ باسم «المغول العظام» أو «البابوريون»، والذين حكموا الهند على مدى ثلاثمئة واثنين وثلاثين عاماً (١٥٢٦ ـ ١٨٥٨م)، وحققوا رصيداً هائلاً، وإنجازات عديدة، وازدهاراً اقتصادياً وثقافياً حضارياً ضخماً في تلك البلاد العظيمة.

ولقد لعب الأمير تيمور، والدولة التي أسسها، دوراً هاماً رائداً في التاريخ، ليس تاريخ بلدان الشرق فحسب، بل تاريخ بلدان الغرب أيضاً. ويعد عصر تيمور، وعهود التيموريين من بعده، عصور ازدهار ورقي شعوب تركستان وايران وأفغانستان والهند، في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية

١ ـ اسم والد تيمور: محمد تاراغاي بخادر (المترجم)

والحضارية كافة. لقد كان ذلك عصر اهداء العالم تلك الشخصيات الرائدة، كل في مجاله، أمثال: مرزا أولوغ بك، ظهير الدين محمد بابور، وعبد الرحمن جامي، وعلي شير نوائي، وغيرهم من رجالات العلم والثقافة.

الأمير تيمور ـ الحياة الاجتماعية والسياسية لتركستان من منتصف القرن الرابع عشر إلى بداية القرن الخامس عشر

بدأ ظهور الأمير تيمور، على مسرح أحداث التاريخ، من منتصف القرن الرابع عشر، وواكب ذلك فترة التفكك النهائي لاتحاد قبائل تشاغاتاي، والذي بدأ في ثلاثينات القرن الرابع عشر كنتيجة لاستمرار الحروب بين الاقطاعيين، وتفاقم النزاعات بين الوجهاء والعائلات العريقة. وقد حاول قازان خان (١٣٣٣ ـ ١٣٤٦م)، وبوسائل قمعية، القضاء على نفوذ أمراء القبائل والطوائف وسيطرتهم، وفي مقدمتهم أمير الأمراء قازاغان، أعظمهم وأقواهم. وقد بلغت قسوة الخان حد أنه، كما أورد شرف الدين علي يازدي (توفي عام ١٤٥٤م) إذا ما طلب أمير مقابلة الخان، لم يكن يأمل أنه يعود من لدنه على قيد الحياة، وكان يودع أهله قبل ذهابه. وبسبب هذا العسف، فر الكثيرون منهم إلى سالي سراي[٢]، حيث الأمير قازاغان، الذي انعزل عن الخان، ولم يعد يغادر سالي سراي إلى قارش، تحاشياً لعنف الخان وقسوته.

وتطورت مشاعر البغض والنفور بين الخان والأمير، في نهاية المطاف، إلى عداوة، أدت إلى اندلاع الحرب بينهما. ومن العام ١٣٣٩م، قام قازان خان بهجوم ضد قازاغان، بغرض سحقه، والتخلص من ذلك الأمير العاصي وأعوانه، إلى الأبد. وجرت موقعة القتال بينهما في مكان يقال له داراي زانجي، يقع إلى الجنوب من بلدة تحير قاسبج (البوابات الحديدية) الشهيرة، وانتهت بهزيمة قوات الأمير التي كانت بقيادته، وفقد احدى عينيه بسبب القتال. ولكن الخان، لسبب ما، لم يذهب في أثر عدوه الأمير ومطاردته، بل عاد إلى الهقره من قارش.

---

٢ ـ سالي سراي: بلدة كانت على ضفة نهر جيحون (أموداريا)، حاليا قرية سراي. من أعمال مركز ديناو، اقليم سورخاندادريا، أوزبكستان. وكانت مقر القيادة العامة الرئيسية للأمير قازاغان.

بيد أن الأمير قازاغان، بغض النظر عمّا لحقه من هزيمة، استعد لجولة جديدة من القتال. وقد انتظر طويلاً أن تحين الساعة، وأخيراً أتت هذه الساعة. فقد حل الشتاء عام ١٣٤٥م قارساً، وفقد كثيرون، ومنهم قازان خان الجزء الأكبر من حيواناتهم، خصوصاً الجياد. وقد استغل هذا الظرف الأمير قازاغان وحلفاؤه، فدفعوا بقواتهم في ربيع ١٣٤٦م إلى قارش، ضد قازان خان. ودارت المعركة بينهما قريباً من العاصمة، وانتهت هذه المرة بهزيمة الخان، بالاضافة إلى قتله في معركة دموية.

ثم أصبحت القبائل التشاغانية تحت إمرة الأمير قازاغان. بيد أنه لم يستطع تبوُّء العرش لأنه لم يكن «جنكيزياً» بالوراثة، وطبقا للتقاليد الشائعة، التي كانت متأصلة بين شعوب الترك المغولية، لا يعتلي عرش البلاد إلاّ أفراد ذوي الـ«أق سوياك» (= العظام البيضاء)، من ذرية جنكيز خان. وكان الأمير قازاغان مضطراً لأن يحترم هذه التقاليد، ولكنه لم يدع هذه الفرصة تفلت من يديه، فعمل على أن يعتلي عرش الخان أشخاص من اختياره، فكان دانيشماند تشاخان (١٣٤٦ ـ ١٣٤٨)، ثم بيانقل خان (١٣٤٨ ـ ١٣٥٧م)، اللذان كانا خانين بالاسم فقط، في حين ركز قازاغان السلطات كلها في يده. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، ففي شتاء عام ١٣٥٥م، وعلى ضفة نهر جيحون (أموداريا) الجنوبية، من اقليم أرخانج سراي[٣]، وفي أثناء قيام الأمير قازاغان برحلة صيد، أصيب بسهم رمته يدا قاتل مأجور (على الأرجح من شيعة قازان خان). ولم يثبت بعده ابنه الأمير عبد الله، في خلافته في السلطة، إذ قام ضده، وضد الخان المنصب بيانقل، عام ١٣٥٧م، اثنان من أمراء الولايات هما: بيان سولدوس رأس السلطة في خيسار، وحاج بارلاس حاكم كيش (شهرساېز). وفي معركة دارت على بعد خطوات من سمرقند، قبض على الخان وأعدم، ونجح الأمير عبد الله في الفرار إلى ما وراء نهر جيحون (أموداريا)، حيث أقام في أندراب[٤] زمناً، ومات فيها.

واستمر حكم تيمور شاه، الذي نصبه على العرش بيان سولدوس وحاج

---

٣ ـ أرخانج سراي : من اقليم توخاريستان، تشتهر باسم «حضرة إمام».

٤ ـ أندراب: بلدة على الحدود بين اقليم توخاريستان وكابول، كانت تخضع لحكم باميان.

بارلاس، حوالى عامين (١٣٥٧ ـ ١٣٥٩م)، ثم صفّي جسدياً. وبعد ذلك تفكك التشاغاتاي، وانقسم إلى عدد كبير من البكستات التي تحللت من العهد وأعلنت استقلالها الواحدة تلو الأخرى. وكان الحاج بارلاس أول من رفع راية الاستقلال في كيش، ثم تلاه بايزيد جالاير من خوجند، وأولجاي يوغا سولدوس من بالخ، ومحمد خوجه أبردى نايمان في شبرغان، والأميران فايخسراو وأولجاي أبردي في خوتالان وأرخانج سراي، وخضر ياسا أوري في تانكنت، وساريبول والأمير ساتلميتس في كوخستان. وفتح الانفصال والتقسيم الطريق أمام الصدام بين الاقطاعيين، وقيام الحروب الأهلية، الأمر الذي أدى الى اشتغال الأمراء المستقلين بنهب بعضهم بعضاً وتسببوا بالكثير من المصائب للمواطنين.

واستغل الخان المغولستاني، توغلوق تيمور (١٣٤٨ ـ ١٣٦٣م)، الوضع السياسي غير المستقر في بلاد ما وراء النهر، وقام بالهجوم مرتين عليها، بغرض إعادة توحيد الفصائل والعشائر التشاغاتية المنقسمة في ذلك الوقت، الى جزءين. ولم يتمكن في الحملة الأولى من ترسيخ أقدامه في ما وارء النهر (١٣٦٠م)، في الأقاليم الواقعة بين سيحون (سرداريا) وجيحون (أموداريا)، حيث أعاقته حركات التمرد والعصيان والفوضى التي اندلعت من مغولستان نفسها، فاضطر الى مغادرة ما وراء النهر مسرعاً على الأثر. ولكن، في الحملة الثانية (١٣٦١م)، تمكن من اخضاع تلك البلاد المترامية المتحضّرة. ولم يستطع البكوات التشاغاتيون، كما في المرة السابقة، التوحّد، وفرّ كلّ منهم إلى جهة، تاركا قبيلته وشعبه تحت رحمة الأقدار. إلا أنّ واحداً منهم فقط، هو تيمور بك، اتخذ موقفاً مختلفاً. لقد بقي في وطنه وقرر الدفاع عن مواطنيه بالسبل كلها ضد اعتداءات الاقطاعيين المغولستان، واذلالهم لشعبه. وبعد تقدير كامل للموقف، ووزن للأمور، اتصل الأمير تيمور بالحاكم توغلوق تيمور، وقاما بالعمل معاً، في مقابل توليته الحكم على موطنه كيش والأقاليم التابعة لها. وقد فسر تيمور نفسه هذه التصرفات، فيما بعد، بأنها كانت أنسب وسيلة لحماية الوطن والمواطنين من أعمال السطو والنهب والقتل التي كان يقوم بها المغول: «خطة مدروسة بإحكام، وأقوى من الجيوش ذوات آلاف الأعداد»، كما ورد في كتابات تيمور اللاحقة.

واستمرت سلطة الخان المغولي على بلاد ما وراء النهر مدة عامين ونصف العام. وفي خريف ١٣٦٢م، عاد توغلوق تيمور، إلى موطنه مغولستان، وولّى ابنه خضر خوجة أوغلان، على ما وراء النهر، يعاونه في السلطة الأميران بكتشك، وتيمور بك. إلا أن الحاكم الشاب كان ضعيف الإرادة، مستسلماً للهو، فاستغل ذلك الأمير بكتشك، الرجل الذي عركته الحياة، معتمداً على مساندة اتباعه في قصر الحاكم، حيث جمع في يديه خيوط السلطة جميعاً، ولم يرتح تيمور بك لذلك، وازدادت العلاقات توتراً بينه وبين بكتشك، وفي ظل هذه الظروف، وتفاديا للمكائد والدسائس التي كان يحيكها ذلك المخاتل القادر، قام تيمور بك بمغادرة سمرقند ليلاً تصحبه فرقة من خلصائه.

ومنذ ذلك الحين، ارتبط قدره بقدر نظيره الأمير النشط الشاب حسين حفيد الأمير قازاغان، سالف الذكر، فرحلا سوياً إلى خيف، بحثاً عن الحظ والتوفيق. بيد أن الحظ لم يبتسم لهما هناك. لقد عاشا حياة شريدة في البراري، إلى أن وقعا في أيدي علي بك، حاكم جاني قورباني[٥]، في بلدة محمودي التابعة لماخان (حالياً ماري). وقبعا في حبسهما مدة اثنين وستين يوماً، في انتظار مصيرهما. وطبقا لرواية شرف الدين علي يزدي، فقد عقد علي بك النية على أن يبيعهما لتجار إيران، عند وصول قوافلهم. إلا انه بفضل مسعى محمد بك، الأخ الأكبر لعلي بك، حصل الأميران على حريتهما.

وافترق تيمور بك وحسين بك، عند زاندون، القرية البخارية. لكنهما اتفقا على العمل المشترك، فسافر الأول إلى موطنه كيش، على ما يبدو بغرض جمع الأنصار، في حين رحل حسين بك إلى الضفة اليسرى لنهر جيحون (أموداريا). على أن يتم اللقاء بينهما سراً في اقليم جارم سر على شاطئ نهر هلمند. ثم إن الأميرين التقيا، كما اتفقا، بجيشهما. أما ماذا كان في نية كل منهما أن يفعل مستقبلاً؟ هل يبدآن الصراع لتوحيد أقاليم الضفة اليسرى لنهر أموداريا، أم يقومان بغارات سطو على

٥ - جاني قورباني - فرع (قبيلة) من اويرات، يمثلهم أرجون شاه وعلي بك اللذان حكما سيراقوس وابيغرل ونسا وتوس ومشهد.

سنيد؟ فإن المراجع لم تورد أية معلومات حول هذا الموضوع، والمعروف فقط أنهما حينذاك توجها الى سيستان بدعوة من مالك قطب الدين. وتبعاً لقول المؤرخ، فقد أراد أن يستثمر خدماتهما في صراعه ضد عدوه. وفعلاً نجح قطب الدين في ما أراد، وحصل الأميران على مكافأة ضخمة، تمثلت في مبالغ نقدية، ونفائس، وغير ذلك، وكان المقابل ازهاقه المئات من الأرواح، وقد أصيب تيموربك بجراح بالغة في ذراعه وساقه الأيمنين، الأمر الذي نتج عنه ضمور في ساقه سبّب له عرجاً[٦] دائماً. وقد جرت هذه الأحداث عام ١٣٦٢م.

انصرم ما تبقى من العام ١٣٦٢م، وتلاه العام ١٣٦٣م بكامله وتيمور بك والأمير حسين منهمكان في شن «حروب عصابات»، إذا صح القول، ضد المغوليين. واستخدما الضفة اليسرى لنهر جيحون (أموداريا) وهي مناطق: كاخمرد وديريجيز وأرسيف واقليم بالخ، قاعدة تمركز لهما، ومنها كانا يعبران النهر، يتحينان الوقت المناسب، وينزلان ضربات مفاجئة بالحاميات المغولية المنتشرة في بالخ وترمذ ويولي سانجين، والبلدات الأخرى. وفي بعض الأحيان، وصل فرسان تيمور بك إلى حدود كيش نفسها، وخوزاره، بل إن الاميرين كانا، أحياناً، يظهران جسارة كبيرة، فينقضان على القرى المغولية الكبرى. وهكذا، وفي العام ١٣٦٣ ـ ١٣٦٤م، أحرزا النصر ثلاث مرات على القوات المغولية المتفوقة عدداً وعدةً، كانت أولاها في سانجين، عندما قهر تيمور بك جيشاً قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل وعلى رأسه الأمراء: ساريق وشينكوم وتوغلوق خوجه وكورتيمور. والثانية في كيش عندما توجه تيمور، بعد الأحداث السابقة، إلى ناحيتها، ووُفِّق في الاستيلاء عليها بقوة صغيرة، بفضل موهبته ودهائه الحربي.

وطبقاً لشرف الدين علي يزدي: «تخيَّر من بين مقاتليه مئتي فارس مغوار، وأمرهم أن يشدوا إلى جوانب خيولهم حزماً من القش، وجعلهم صفاً واحداً، وهو على رأسهم، وأطلقوا لجيادهم العنان إلى كيش. وعندما رأى القائمون على أمر المدينة مثار النقع ذاك، والغبار الكثيف الممتد، ظنوا أن جيشاً عظيم العدد يتقدم حثيثاً

---

٦ ـ من هنا جاءت شهرته باسم تيمور لنك (= الأعرج) ... المترجم.

للانقضاض على البلاد، فارتجفوا خوفاً، وغادروا البلد». وكانت المرة الثالثة من تاش أريق (= نهر الصخرة)، حيث حقق الحليفان تيمور بك والأمير حسين نصراً على المغول ذوي البأس، في العام ١٣٦٤م، وعلى جيشهم الأمير بكتشك نفسه (لم يكن خضر خوجه موجوداً حينها، حيث استدعي الى مغولستان إثر وفاة والده توغلوق تيمور خان) ومعه الأميران الكبيران حامد وتوق تيمور.

وكانت هزيمة منكرة، أسر فيها الأمراء بكتشك واسكندر أوغلان وحامد ويوسف خوجه، وقتل فيها الكثيرون. ويضيف علي يزدي: «كان بين القتلى اثنان من أمراء البيت المالك، وقد قذف بالمغول إلى ما وراء نهر سيحون (سرداريا).

وقد اشتهرت هذه الموقعة، التي جرت بين الأميرين، حسين وتيمور من ناحية وبين المغول من ناحية أخرى، في التاريخ باسم «جانج لاي» (القتال الموحل).

وعلى هذه الحال، فان الطريق الى سمرقند كان مفتوحاً أمام المغول. وقد استولى الياس خوجه، دون مجهود يذكر، على خوجند وجيزاخ وغيرهما من البلاد والقرى الواقعة بين خوجند وسمرقند. وهنا تجدر الاشارة إلى أن سمرقند، في ذلك الحين، لم تكن تحيطها الأسوار، ولم يكن حولها أي استحكامات أخرى، حيث أنها دمرت، كما هو معروف، على يدي جنكيزخان. ولهذا كان الياس خوجه على ثقة بأنه يمكنه الاستيلاء على المدينة بدون عناء. إلا أنه أخطأ في حساباته حيث أن شعب المدينة انبرى للدفاع عنها.

قام على رأس المدافعين شخص اسمه مولانازاده، واحدٌ من طلاب احدى مدارس سمرقند، وشخص آخر وهو الحرفي أبو بكر بكالاوي(٧) (نادف القطن)، ورامي القوس الماهر خوردك بخاري. ويسرد تلك الأحداث ب. ب. بارتولد، في مقالته بعنوان «الحركات الشعبية في سمرقند خلال عام ١٣٦٥م» كما يلي: انتظاراً لهجوم المغول، اجتمع أهل سمرقند في المسجد الجامع، ولكنهم لم يستطيعوا التوصل إلى قرار. وهنا انبرى ممثل جماعة العلماء، وكان رجل من وجهاء بخارى،

---

٧ ـ يندف القطن باستخدام العصا، وذلك لجعله هشاً نظيفاً. وهذه حرفة المنجد (المترجم).

معروف بشجاعته وفنه في الرماية، واتجه الى المنبر، مُتقلِّداً سيفه، بخطوات وئيدة. وبعد التحية المعتادة، وجه خطابه إلى الجمهور: يا معشر المسلمين ... ها هي جموع الكفرة، في قوتها القاهرة، أتت لتنهب ديار المسلمين، والحاكم يحصل منهم الجزية[8] تحت مُسمّى الجباية[9] والخراج، وينفقها كما يتراءى له، وعند قدوم العدو تخلى عن المسلمين وتركهم لرحمة الأقدار، وفرّ أمام الكفار. وعلى الرغم من أن أهل هذه المدينة قد دفعوا ليفتدوا أنفسهم، وقدموا الهدايا، إلا أن ذلك لم ينقذهم. ستدعون يوم الموقف العظيم لتُسألوا، أيها الأثرياء!! من يتصدى للدفاع عن الاسلام؟! من يتحمل أمانة المسؤولية أمام الوجهاء والعامة؟! فنطأطئ رؤوسنا له، ونتقدم لنخدم تحت إمرته!!. والتزم جميع الأشراف الصمت. فاستطرد مولانا زاده: بما أنه لم يقبل أحد المسؤولية، فهل إن أخذتها على عاتقي، تقدمون لي المساعدة والتأييد؟! فوافق الجميع على ذلك، واعترفوا به قائداً لهم وزعيماً عليهم. وعلى إثر ذلك، بعث بالأمير جاقو وسيف الدين إلى سمرقند، ورحل الأمير حسين إلى جيزاخ، وغادر تيموربك إلى طشقند، حيث مكث مدة ثلاثة اشهر لمعالجة جروحاته واصاباته. ثم إنهما (تيمور وحسين) سافرا معاً إلى سمرقند، واستدعيا شدمان تشاغاتيد قابول شاه، ابن دورتشي بن التشجيدوز بن دوواخان، من خيسار، ونصباه على عرش شعب تشاغاتاي.

لم يسلم الياس خوجة بضياع ما وراء النهر، بل تجهز للقيام بحملة جديدة. وفي ربيع عام ١٣٦٥م، تحرك جيشه الكبير باتجاه ما وراء النهر. وتقدم تيمور بك والأمير حسين، بجيشين إلى ضفاف نهر سرداريا. ودارت رحى موقعة دموية عنيفة بين المغول والتورانسام، كانت ساحتها بين تشيناس وطشقند. وفي الصباح الباكر من أول شهر رمضان ٧٦٦هـ (٢٢مايو ١٣٦٥م)، حمي وطيس القتال، وبانتصاف النهار مال ميزان النصر ناحية الاميرين. وفي حين سحق تيمور بقواته

---

٨ ـ الجزية ـ جعل مادي يدفع عن كل نفس، كضريبة يؤديها غير المسلمين المقيمين بديار المسلمين إلى بيت المال، نظير الخدمات الفيدرالية مثل الجيش والشرطة (المترجم).

٩ ـ الخراج ـ ضريبة عن دخل الأطيان الزراعية، تحصل بواقع نسبة تراوح من خمس إلى ثلث المحصول طبقاً لطبيعة ري الأرض (أمطار ـ أنهار ـ بالآلة...)

الجناح الأيمن للقوات المغولية، انتاب حسين التردد، فلم يدفع كتائبه إلى الجناح الأيسر للعدو. وقد واكب ذلك تلبد السماء بغيوم سوداء، وثار إعصار من ريح عاصف، وانهمر وابل من المطر الغزير، فتحولت ساحة الموقعة إلى بحيرة من الوحل الغدق، غاصت فيها قوائم الخيل، وفقدت قدرتها على الحركة الطليقة، وكان الموقف عصيباً على الفرسان والجياد. إلا أن مقاتلي تيمور واصلوا قتالهم بكل بسالة، وكان من الممكن أن يحرزوا النصر لو كان للأمير حسين حضور، بل على العكس، فقد غادر موقعه القتالي، وتقهقر إلى نهر سرداريا. وفي ظل تلك الظروف، لم يعد صراع تيمور بمفرده، ضد القوة المغولية الهائلة، مجدياً. ومن ثم اضطر هو أيضاً إلى مغادرة أرض المعركة. وكما يتضح من رواية شرف الدين يزدي: كان الأمير حسين فزعاً إلى درجة أنه هرع إلى موطنه في سالي سراي لا يلوي على شيء، وفي عجل، جمع أشياءه وكل ما يتعلق به وبأفراد أسرته، وأسرع جارياً إلى ما وراء أموداريا، وتمركز في شبرتو[١٠]. وطبقاً لقول يزدي: «عندما ظهر المغول على ضفة أموداريا اليسرى، اعتزم الهرب إلى هندوستان». وواصل تيموربك رحيله إلى سمرقند، ومنها إلى كيش. وإذ صار البقاء في ما وراء النهر بلا معنى، فإنه ايضاً رحل الى ما وراء أموداريا متمركزاً في اقليم بالخ.

وكما يروي بارتولد: «وتبعاً لموسيفي[١١]، عاهده عشرة آلاف مقاتل شاب كاملو التسلح».

على مدى ثلاثة أيام بلياليها، استمر السمرقنديون، وعلى رأسهم مولانا زاده وأبو بكر بكالاوي وخور دك بوخاري، في العمل دون انقطاع، وأعدوا المدينة للدفاع. لقد حشدوا جميع من استطاع حمل السلاح، وأقاموا المتاريس في جميع الشوارع، ما عدا الرئيسي الأساسي، حيث كمن الرماة في الأماكن الهامة. وعندما اقتحمت خيول المغول، بسرعتها الفائقة، تلك الطريق، قوبلت بسهام الرماة. وفي الشوارع

١٠ ـ شبرتو ـ مستعمرة تقع بالقرب من باجلانة.

١١ ـ موسيفي: المؤرخ، هو مؤلف «تاريخي خيرات». راجع بارتولد، موسكو، ١٩٧٣.

الأخرى، أعيد تقدمها، وواجه مشاة المحاربين نيران الرماة العاصفة. وقد وقع الكثير من القتلى والجرحى في صفوف المغول، فبادر الياس خوجة إلى الانسحاب من المدينة. ويحكي شرف الدين عن مأساة تعرض لها المغول، حيث وقعت خيولهم صريعة مرض القرحة المميتة، فمات منها عدد كبير قُدِّر بثلاثة أرباعها. وفي ظل هذه الظروف، لم يعد لديهم القدرة على الانتقال، فأمر الياس خوجة قواته بالاسراع في مغادرة المدينة.

وهكذا، انتهت حملة الخانات المغولستانيين هذه، على أقاليم ما وراء النهر بدون إحراز أي نجاح.

وقد عرفت هذه الحملة، باسم حرب ساريدارلر (صعاليك) سمرقند.

ولم تورد المراجع شيئاً عن أي اجراءات ديموقراطية، اتخذها ساريدارلر. ولدى شرف الدين يزدي هذه العبارة« يا لله !! جاء وقت أصبح المعدم شريفاً». ولعل ذلك يشير إلى أن الصعاليك قاموا بمصادرة جزء من ممتلكات الأثرياء، ووزعوه على المعدمين، كما يبدو أنهم ألغوا الجزية.

وطار نبأ انتصار ساريدارلر (الصعاليك) إلى تيمور بك والأمير حسين، حيث تلقاه تيمور أولاً. فخلال وجوده في ضواحي بالخ، حمل اليه هذا النبأ السعيد عباس بخادر، الذي سبق أن أرسله إلى تمير قاسبوق (البوابات الحديدية)، ضمن مجموعة من مستطلعي الأخبار. ويورد موسيفي معلومة جديرة بالاهتمام، عن أن مولانا زادة نفسه هو الذي أبلغ تيمور بذلك. وعلى أي حال، وأيا كان المصدر، فان تيمور سافر الى شبرتو حيث الأمير حسين، فور بلوغ النبأ، وتداول الأميران في الأمر، وقررا الهجوم على سمرقند في الربيع المقبل من العام ١٣٦٦. وحتى يحين ذلك، فقد رجحا أن من الخير بقاءهما على الضفة اليمنى لأموداريا، لإنجاز بقية التجهيزات. وتحقيقاً لهذا الغرض، استقر الأمير حسين في سالي سراي، بينما قبع تيمور بك في قارش، وخلال هذا الوقت، انتهى من تشييد حصن قارش.

وبانقضاء الشتاء، وطبقاً للاتفاق، توالى توارد الأمراء من مواقعهم الشتوية، متجهين نحو سمرقند، ورابطوا بالقرب منها. وتبعاً لرواية المؤرخين التيموريين،

شامي والسمرقندي، فقد أطلع أمراء سمرقند (ساريدارلر) على كل توجهاتهم، وأنهم يباركون أعمالهم، وأبدوا رغبتهم في لقاء حماة سمرقند. وقد صدق ساريدارلر حسن نية الأمراء، وحضروا للقائهم في خان جيل، ومعهم هدايا قيمة. وفعلاً قوبلوا في أول يوم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، أما في اليوم التالي، فلم يبق من ذلك أثر، فقد قبض على قائدي ساريدارلر أبو بكر بكالاوي وخورداك بخاري، ورُحِّلا إلى المنفى، في حين أجار تيمور بك مولانا زادة، وأنقذ حياته، ويتساءل ا. ى. ياكوبفسكي، في مقالته «تيمور ـ مختصر تقويم الشخصية» عن السبب الذي دعا تيمور إلى ذلك؟ ويستطرد مجيباً: يبدو أنه حدث اختلاف في وجهات النظر بين تيمور بك والأمير حسين، بشأن ساريدارلر سمرقند. وهناك ما يدعو إلى الظن بأنه كانت لتيمور علاقات قديمة ببعض منهم، خصوصاً بـ «الأعيان». وأيا كان الوضع، فإن الأمير حسين وتيمور بك أخضعا سمرقند لسلطة ساريدارلر (الصعاليك). وقد جرت هذه الأحداث في نهاية العام ١٣٦٦م.

بيد أن تيمور بك والأمير حسين لم يشتركا في اقتسام السلطة فيما بينهما، علاوة على أن شقة الخلاف الذي حصل بينهما على إثر معركة «قتال الوحل»، قد تعمقت، ولعب في ذلك غدر الأمير حسين وجشعه دوراً مهماً.

وقد وصل الأمر الى حد أنه بعد طرد المغول، صار يتطاول على ثروات الامراء، ليس ذويه فحسب، بل أمراء تيمور بك أيضاً. ومثال ذلك، أنه طلب إلى الأمراء جاكو وسيف الدين وأمه بوغي والتش بخادر ودولت شاه باكش دفع أموال طائلة، إلا أنهم، وقد أضاعوا تقريباً جل ممتلكاتهم في «قتال الوحل» وما تلاه من عبور سرداريا، لم يكونوا في وضع يسمح لهم بقضاء ما طلب اليهم. وطاردتهم تحقيقات وضغوط لانهاية لها. ولم يرض تيمور أن يترك امراءه يعانون، فدفع عنهم غرمهم، لدرجة أنه، كما حكى شرف الدين يزدي، «ضحى في سبيل ذلك حتى «بحلي زوجاته». وبهذا القرار السخي الكريم، كتب أ. ى. ياكوبفسكي «كسب تيمور شعبية كبيرة بين مساعديه العسكريين، وفي المقابل اكتسب حسين عدداً غير قليل من الأعداء من بين ذوي المكانة».

وأفترق الأميران ، كل إلى قصر حكمه، مُخلِّفين الجفاء محل الثقة، فرحل الأمير حسين الى سالي سراي، وتيمور بك إلى كيش.

وقد تدهورت العلاقة بين الأميرين تماماً بعد الخطاب المقذع، والذي فيه جرت محاولة إلصاق العار بابنة أوردا خاتون، أرملة تارما شيرين خان، وما تبع ذلك من قيام رجال الأمير حسين، في القصر السمرقندي، بترويج اشاعة مؤداها أن الرسالة من تيمور بك، وحقيقة الأمر أنها كانت فعلة الأمير حسين نفسه. وهكذا تطورت العداوة والمكائد من جانب حسين، والموجهة إلى النيل من شخصية تيمور بك، منذ العام ١٣٦٦م، إلى صراع مكشوف. فقام الأمير حسين بجمع الجيش، محتمياً بحصن بالخ، لخوض معركة فاصلة. وهكذا صفع تيمور بك أيضاً في كيش وقارش. وخلال الأعوام من ١٣٦٦م إلى ١٣٦٩م تعرض كلاهما لمحاولات اغتيال من الآخر.

وبحلول العام ١٣٧٠م، بدأ الأمير حسين استنفار الجيش من بالخ وكوندوز وبادخشان، وتوالى توارد الفرسان إلى ضفة أموداريا اليمنى، بلا انقطاع، ومن منطقة ترمذ وصلت تمير قاسبوق (البوابات الحديدية). وما كان ينبغي التهاون هنا، فقرر تيمور بك أن يبادر الأمير حسين بالهجوم، فغادر كيش بجميع ما كان لديه من قوات، وسار على مقدمة الجيش سيورغاتميش أوغلان والأميران مؤيد وحسين بارلاس. ومن ناحية بيا، انقض تيمور على معسكر جيشه الذي يقع على بعد ثلاثة فراسخ من ترمذ، حيث تزامن وصول سعيد بركة اليها، وهو أحد وجهاء أعيان أندخود، فقام بتسليم تيمور بك «الطبل والراية» «رمز السلطة والملك». ويروي شرف الدين يزدي: «ومنذ ذلك الحين، وحتى وفاته عام ١٤٠٣م، لم يفترق عن تيمور، وأصبح واحداً من مرشديه الروحيين». وقرر الأمير تيمور عبور نهر جيحون (أموداريا) عند مكان أعلى من ترمذ، خلال معبر أوباج، ولهذا اتجه من بيا صاعداً خلال تشاجا نرود. وهنا حضر اليه الأمير جاقو بارلاس مع محاربي قارقاره، والتحم معه ايضاً الأمير كايخسراو، الذي سبق أن فر من خوتالان إلى آلاي، خوفاً من الأمير حسين. وكان التوقف التالي للأمير تيمور، على الضفة اليمنى

لأموداريا، في بلدة درجز، على مسيرة أربعة فراسخ من جنوب بالخ. وفي مستهل شهر رمضان ٧٧١هـ (٢٩ مارس ١٣٧٠م)، وبتوجيه من الأمير تيمور، أعلن تنصيب سيورغاتميش أوغلان خاناً. وتعاظمت قوة تيمور بك، مع تقدم اقترابه من بالخ، حيث انضم اليه في الطريق، زاندا تشاشمة أبرده مع محاربي شبرجان. ويضيف شرف الدين، أنه حينذاك، اتحد معه خزارى «خولم»، وحاكم باداخشان شاه محمد، وغيرهما.

وسقطت بالخ في الحادي عشر من شهر رمضان ٧٧١ (١٠ ابريل ١٣٧٠)، بعد يومين من الحصار، وقُبض على الأمير حسين، الذي اختبأ في مئذنة المسجد (الجامع)، الواقع في القسم القديم من المدينة، وأُعدِم.

وهكذا، انتهى صراع الأعوام الطويلة، على ما وراء النهر، بين الأميرين وخرج منه تيمور بك منتصراً.

كيف جرت، في الحقيقة، عملية ضم بلاد ما بين النهرين وتوحيدها، أي الأجزاء الجنوبية الغربية من قبائل أولوس التشاغاتية، سابقاً، في دولة واحدة؟ لا تعطي المصادر سوى القليل من المعلومات عن ذلك. وإن كان معروفاً أنه في المؤتمر القومي، الذي دُعي اليه في عام ٧٧١هـ (يوليو ١٣٧٠م)، في سمرقند، اجتمع كل الأمراء وزعماء قبائل أولوس التشاغاتية، عدا الأمير زندا تشاشمة، حاكم شبرجان. ومن هذه الواقعة نرى أن الاجتماع حصل بطريقة سلمية وبدون أي استخدام للقوة. وبعبارة أخرى، فإن حكام الاقطاعيات، وزعماء القبائل التركية المغولية، القاطنة بين النهرين، والسكان الحضريين، اعترفوا بالسلطة العليا عليهم لسيور غاتميش والأمير تيمور.

وقد كرس المؤتمر القومي العام، الذي عقد في سمرقند، لغرض تشكيل جهاز حكومي مركزي، وبناء القوات المسلحة. وأعلن بالاجماع سمرقند عاصمة للدولة. وبهذا الخصوص، فقد تقرر احاطتها بانشاءات تحصينية، واقامة قصر للحاكم الأعلى فيها، ومبانٍ للهيئات الحكومية. وقد وزعت هذه المشروعات المعمارية على الأمراء، وجعل على رأسهم جميعاً الأمير أق بوغ. كما تم أيضاً حينذاك، تحديد

المهمات والوظائف في الهيئات الحكومية المركزية، وفي الجيش.

وكان لدى الأمير تيمور سبعة وزراء: وزير يشرف على شؤون الأقاليم والشعوب، الوزير الأعلى (وزير أعظم)، ووزير يشرف على القوات المحاربة ويدير شؤونها. وزير تقادجي، ووزير لرعاية أموال المتوفين وممتلكاتهم، أو ممتلكات الذين غادروا أماكن اقامتهم، والحفاظ عليها. وثلاثة وزراء آخرون كانوا مسؤولين عن الأقاليم الحدودية. وانطلاقاً من ذلك، فإن الأمراء: داوود وساربوخا وحسين بارلاس وأق بوغ وحاج محمد شاه و إلتشيبوجا بخادر ودولت شاه بخادر، كانوا معينين في مناصب الوزراء. كما شغل مناصب رؤساء الاتحادات الحربية الكبيرة، الأمراء: جاقو وحاج سيف الدين وعباس واسكندر وأعلم شيخ والاداكاووتشي وأردشير كاووتشي وقارى أناك، وغيرهم. وعين قادة لقوات الجيش (دار مقد سامي سيباخ) حنيتاي بخادر وشيخ علي بخادر وتوبان بخادر ودوكتا ونجتى شاه وأرسلان ودررا بخادر، وغيرهم. واختير خيتاي بخادر وشيخ علي وأق تيمور كبراء للبخادريين[١٢]. وعلى هذا النحو: «حصل كل حسب كفاءته، على وظيفة ومنصب» كما كتب شرف الدين يزدي.

وقد أخضعت شبرجان، وحاكمها زنداتشاشمة أيضاً في هذا العام ١٣٧٠م.

ولكن ذلك تسبب في متاعب جمة لتيمور. فكما سبق، اعتذر الزندا بحدة عن حضور المؤتمر القومي المشار اليه، ثم انه احتجز بيرشاه أرلانا، وابنه تيلانتشي، عندما عبرا أملاكه خلال سفرهما لحضور المؤتمر، في شبرخان، ثم قتلهما غيلةً. كما احتجز يوسف خوجة سفير الأمير تيمور، وأودعه السجن. وكان هذا تجاوزاً كبيراً. فتوجه اليه الأمير تيمور بنفسه. ولم يكد يصل إلى ترمذ، حتى وافاه زنداتشاشمة بالاعتذار والأسف الشديد، من خلال الأمير أولجامين، وأظهر خضوعه وامتثاله، فقُبِل رجاؤه. بيد أنه بعد رحيل تيمور بجيشه، حنث العهد، وواصل نهب اقاليم بالخ وترمذ. فبعث اليه تيمور بجيشه بقيادة جاقو بارلاس،

١٢ـ بخادر ـ لقب حربي رفيع المستوى، يعني الشجاعة والبسالة الفائقة. (المترجم).

حيث استولى، على شبرخان، واقتاد زنداتشاشمة أسيراً إلى سمرقند. وحقق معه الأمير تيمور بنفسه؛ ولكن هذا الأخير وبفضل تدخل جاقو بارلاس، وغيره من الأمراء، عفا عن جميع أخطائه، وفوق ذلك، أهداه معطفاً مطرّزاً بالذهب، وخنجراً مطعّماً بالأحجار الكريمة، وجواداً عربياً أصيلاً، وقافلة جمال، وقطيعاً من الماعز، وقبله في الخدمة.

وبينما انضوت بالخ ونسف وسمرقند وبخارى وفرغانة، تحت لواء تيمور، جلبت له خوارزم الكثير من العناء، وتعين عليه ان يخوض صراعاً دؤوباً، حتى تمكن من اخضاعها بعد خمس حملات.

في السبعينات من القرن الرابع عشر، كانت خوارزم تحت سلطة الأمير الآق أوردي المشهور نانجاديا (قتل في سراي عام ١٣٦١م)، وبذل تيمور عدة محاولات لضم خوارزم بالوسائل السلمية، ففي مارس ١٣٦١م بعث إلى غورغيانج بسفارة على رأسها آلاڤا تفاجي، وورد في رسالة حسين صوفي، حاكم خوارزم آنذاك: إن كيات وخيڤاك كانتا خاضعتين لسلطة تشاغاتاي، لكنهما على مدار عدة سنوات ظلّتا دون تمويل (بدون خزانة)، والآن يتعين اعادتهما مع جميع الأقاليم التابعة، إلى سلطتنا». وفي الختام، دعا الأمير تيمور حسين صوفي إلى توثيق عرى الصداقة، وحسن التفاهم.

بيد أن حسين صوفي، وكان رجلاً متكبراً مغروراً، لم يتقبل نصيحة تيمور، وردَ بصلف: «أنا أخضعت هذه الولاية بإعمال السيف، واستردادها لن يكون إلا من طريق السلاح». ثم إنه أهان سفير تيمور، الذي بعث به مرة ثانية، شيخ الاسلام جلال الدين كيش، وأودعه رهن الاعتقال. وقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى إعلان الحرب.

وحدثت أول حملة لتيمور على خوارزم، في ربيع عام ٧٧٣هـ (١٣٧١م)، حيث استولى على كيات وحاصرغورغيانج. وقد مات حسين صوفي في أثناء الحصار. وأضطر يوسف صوفي، شقيق الراحل ووريثه في الحكم، إلى طلب السلام. وعاد الأمير تيمور إلى سمرقند، بعد أن خطب شيرين بكة، ابنة آداكا صوفي الشهير باسم خانزادة بشيمة، إلى ابنه الأكبر جهان جير.

وجرت الحملة الثانية، في شهر رمضان ٧٧٤ هـ (فبراير ١٣٧٣م). وكان سببها المباشر هروب عدد من علية القوم: سلطان محمود بن كايخسراو وأبو اسحق ابن خضير ياسا أوري، ومحمد شاه بخاري، وكذلك تحريض يوسف صوفي لهم على الأمير تيمور. وقطعت هذه الحملة خط سيرها، عند بخارى، حيث أظهر حاكم خوارزم ندماً واعترف بخطأه، وطلب السلام.

وكذلك الحملة الثالثة، لم تبلغ نهايتها، حيث بدأت مع حلول ربيع عام ٧٧٧هـ (١٣٧٥م)، ولكن توقف مسيرها في خاص ميثار، الواقعة بعيد كيت، إثر تمرد أميري تيمور: ساربوج وعلي شاه.

أما الحملة الرابعة، فقد بدأت بسبب نقض يوسف صوفي شروط معاهدة السلام، إذ انتهز فرصة انشغال تيمور بالصراع مع قمر الدين، أحد حكام الولايات المغولستانية، وأوروس خان خان أق أوردة (١٣٦١ ـ ١٣٧٥م)، وقام بترتيب غارات سطو منتظمة على أملاك تيمور. وكان ذلك في شهر شوال ٧٨٠هـ (يناير ـ فبراير ١٣٧٩م)، وانتهت بعقد اتفاق سلام.

وقد ذهب سليمان صوفي، حاكم خوارزم الجديد، إلى مدى أبعد، إذ تحالف مع تختميش، واستمر في انتهاك الحدود المشتركة بين خوارزم وأملاك تيمور. وأدى ذلك إلى قيام الحملة الخامسة لتيمور على خوارزم، عام ٧٩٠ هـ (١٣٨٨م)، والتي اختتمت بفرار سليمان صوفي، والاستيلاء على غور غيانج وتدميرها[١٢] بالكامل.

وبأمر من تيمور أجري آنذاك ترحيل مهرة الصناع الحرفيين، إلى سمرقند. وقد خطب بإسمي سيورغاتميش خان، والأمير تيمور. في مساجد غورغيانج، وصكت باسميهما النقود. وبعد تلك الحملة، الخامسة، لم يلحق الجزء الجنوبي الشرقي وحده من خوارزم بتشاغاتاي وهو الذي خضع سابقاً لها، ثم اقتطعه عنوة حسين صوفي في ٧٦٤هـ ـ ١٣٦٥م، بل ألحق أيضاً الجزء الشمالي الغربي منها، بـ تشاغاتاي، ليصبح ضمن دولة تيمور.

---

١٢ ـ بعد انقضاء ثلاث سنوات (٧٩١هـ ـ ٧٩٣هـ)، أعيد إعمار المدينة، بأمر من تيمور، وذلك طبقاً لما أورده شرف الدين علي يزدي وغيره من المؤرخين.

وقد خاض تيمور صراعاً طويلاً وعنيداً ضد حكام قبائل (أولوس) جوتشي (أق أوردة وآلتن أوردة)، ومغولستان، كان الهدف منه، حماية مناطق الأقاليم الشمالية الغربية والشمالية الشرقية للدولة من غارات وحروب السلب والنهب من جانب البدو الرحّل من داشتي كيبتشاك، بالإضافة إلى العمل على إضعاف قبائل (أولوس) جوتشي، وبسط نفوذه السياسي عليها. وفيما يخص مغولستان، فإن لتيمور غرضاً خاصاً هناك، فهذه البلاد كانت خلال الأعوام ٢٧ هـ ـ ١٣٢٩م، ضمن مكونات تشاغاتاي التي انقسمت إلى جزءين، بعد الكورولات تالاسكي، في العام ١٢٦٩م، وفي سبيل اعادة توحيدها، قاد كثير من الخانات، من التشاغاتاي، الصراع، وقد كان، على الأرجح، السبب الرئيسي لحروب توغلوق تيمور والياس خوجة، ضد حكام ما وراء النهر، خلال الأعوام ١٣٦٠ و ١٣٦١ و١٣٦٥م، تحقيق هذا الهدف، كما ناضل تيمور نفسه، في سبيل ذلك أيضاً.

لقد قام الأمير تيمور، على مدى تسعة عشر عاماً (١٣٧١ ـ ١٣٩٠)، بثماني حملات على مغولستان، ووصلت جيوشه، في الحملات الخمس الأولى منها، إلى تانجي، واسيق كول (= البحيرة الدافئة)، ولكن، في كل مرة، كان الأميران المغولستانيان: قمر الدين وأنكاتيوره، يتمكنان من الهرب، ويختبئان من مطارديهما في كهوف الجبال. فمع مقدم الشتاء، يغيران على أنديجان وسيرام وتركستان. وقد جعلت جملتا تيمور، اللتان قام بهما في عامي ١٣٨٩ و١٣٩٠م، منافسيه عرضة للمتاعب والأخطار: فأولا، سحق أنكاتيورة، ورمى به إلى ما وراء نهر إرتيش، وثانيا، ألحق الهزيمة بقمر الدين نفسه، واستولى على «يولدزكاتا» (= النجمة الكبرى) الشهيرة، المقر الرئيسي لقيادة خانات المغول.

وعلى كل حال، فإنّ هزيمة كل من قمر الدين وأنكاتيورة، لم تكن كاملة تماماً، ولم يتسنّ له إخضاع مغولستان، وتوحيد شطري قبائل (أولوس) جوتشي.

بيد أن صراع تيمور ضد جوتشي كان ناجحاً. فحتى عام ١٣٧٧م تألفت قبائل (أولوس) جوتشي من كيانين مستقلّين (حكومتين أو دولتين) هما: آلتن أوردة (الأورطة الذهبية)، التي كوّنت جناح قبائل (أولوس) جوتشي الأيمن، وآق أوردة

(الأورطة البيضاء)، التي شكّلت الجناح الأيسر لها. وقد تكوّنت أق أوردة من الجزء الشمالي الشرقي من خوارزم، وشمال القوقاز، واقليم بولغار، وغرب سيبيريا، والقرم. وضمت أق أوردة أسفل مجرى (مصب) سرداريا، والأراضي الواقعة بين يانجي كنت وبين سوراق، والبراري من ضفاف سرداريا حتى أولوتا أو، وسنجير ياغاتشا، وكاراتالا، ونيومين. وخلال سبعينات القرن الرابع عشر، قام أوروس خان، أحد حكام آق أوردة النابهين، بنضال من أجل توحيد اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي وجعلها دولة موحدة قوية قادرة. وبتحقق النهاية الموفقة لذلك الصراع، نجح أوروس خان وغيره من حكام اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي، في إملاء إرادتهم، ولزمن طويل، ليس على ما وراء النهر فحسب، بل أيضاً على روسيا وأوروبا الشرقية. ولقد وعى تيمور ذلك جيداً. لهذا، ومنذ باكورة سنوات حكمه، أولى اهتماماً كبيراً لكلّ ما كان يجري في اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي، وبذل غاية جهده في سبيل أن لا يدع أحداً يوحّد شطري اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي، وقاد النضال من أجل إضعافها وتحجيمها.

ولتحقيق غرضه هذا، استغلّ تيمور، وباقتدار، الصراع بين الاقطاعيين والخصومات بين العشائر في اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي. وتحقق ذلك له عام ١٣٧٥م، في المؤتمر الشعبي الذي دعا إليه أوروس خان، من أجل تقرير توحيد اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي وآق أوردة وآلتن أوردة. وخلال الاجتماع، انبرى من قام ضد مقصد أوروس خان، واتّضح أنّ من بينهم أحد أعوان تيمور، من الأوغلان (العسكريين) الأوزبك، وهو تودي خوجة أوغلان، والد تختميش وحاكم مينج كيشلاق (الألف قرية)، وقد كلفه ذلك غالياً، إذ قتله أوروس خان. وبعد ذلك فر ابنه تختميش، خوفاً على حياته، من آق أوردة، حتى وصل إلى سمرقند، حيث آواه تيمور، وأحاطه بمظاهر التكريم. وبعد مرور بعض الوقت، انضم اليه، وزوّده بالسلاح والخيام، وسلمه الطبل والراية، رمز السلطة العليا، ووجهه إلى آق أوردة، على أمل أن ينتزع العرش من أوروس خان. لكن تختميش هزم على أيدي قوتلوق بوجه بن أوروس خان، وفر من جديد إلى القصر التيموري، حيث قوبل بالترحاب

ذاته، ومنح عتاداً عسكرياً، وسلاحاً كثيراً، وأطلق مرة ثانية إلى جوتشي. وفي هذه المرة أيضاً، أدار الحظ ظهره لتختميش، حيث لحقته الهزيمة في سوران على يدي توكتاكيه، الابن الاكبر لأوروس خان، الذي تصدى له في تحالف مع بعض الجوتشيين. فقد تختميش كل شيء، وبلغ ضفة سرداريا بصعوبة بالغة، وألقى بنفسه في الماء، هربا من مطارديه، وتبع أثره كازانتشي بخادر، فلحق به هناك، ورماه بسهم فأصاب ذراعه. وعبر تختميش النهر، بصعوبة بالغة ودمه يسيل، وفي دغل من القصب، ارتمى فاقد الوعي. ولحسن حظه، صودف، في ذلك الحين، مرور كتيبة تيمورية من هناك بقيادة إيديكو بارلاس، الذي جاء لنجدته، فأتاه وهو بين الحياة والموت، وضمّد جراحه، وحمله معه إلى سمرقند. ووجد لدى تيمور جميل الرعاية، وقام على علاجه خاصّة أطباء تيمور. ثم جمعت له الخيام والمؤن والسلاح، وبعث إلى آق أوردة من جديد. ولم يكن بمفرده في لقائه مع أوروس خان وابنه، إذ قرر تيمور، فجأة، الذهاب بنفسه مع الجيش. وقد توالت، قبيل قرار تيمور هذه الأحداث: وصل الى سمرقند، وتختميش على وشك الرحيل منها، ايديكو أوزبك (إيديجي)، عين أعيان آق أوردة، فاراً من مكائد أوروس خان، وخلال المناقشة، أطلع تيمور على خروج أوروس، طالباً تختميش، من سيجناك، وأنه في طريقه الى ضفة سرداريا. وقد أكد هذه المعلومة سفارة أوروس خان نفسه، التي وصلت على إثر ايديكو أوزبك. وورد في الرسالة، المتضمنة تعبيرات قاسية: «لقد قتل تختميش ولدي[١٤]، وفر هارباً اليكم، سلموه الى قبضتي، وإلا فحددوا مكاناً حيث يمكننا أن نتقارع فيه بالسيف». وجاء رد تيمور هادئاً: أتى تختميش الينا باحثاً عن الحماية، ولهذا لن أسلمه». وهنا وصلت العلاقة بين آق أوردة وحكومة تيمور إلى نقطة حرجة، ومن ثم نشبت الحرب. دهم تيمور معسكراً قرب أترار، في حين بقي أوروس قريباً من سيمناك، على مسيرة أربعة وعشرين فرسخاً بعيداً عن تيمور. وظلا هكذا في موقعيهما مدّة ثلاثة أشهر، لا يتخذ أي منهما قراراً بالتقدم لملاقاة غريمه بادئاً القتال. جرت فقط بعض المناوشات بين حراس المواقع والمستطلعين،

١٤- يقصد توغلوق بوغا.

دون وقوع حرب حقيقية. فانصرف أوروس خان الى عمق داشت كيبتشك، ولم يعثر عليه خلال بحث طال مدّة خمسة عشر يوماً، وعندما وصلت قوات تيمور إلى بلدة جيران قميش، كان قد أعلن عن موت أوروس خان، واختيار ابن كويريتشاك أوغلان خلفاً له. أنعم الأمير تيمور على تختميش خان بعرش آق أوردة، وقفل عائداً إلى سمرقند، هذا ما جاء في رواية شرف الدين يزدي. وقد جرت هذه الأحداث أيضاً، طبقاً لرواية مؤلف «ظفرنامة»، في بداية عام ٧٧٨هـ (٢١ مايو ١٣٧٦م). بيد أن تختميش، بعد ذلك كله، لم يثبت على العرش، إذ سرعان ما أطاح به تيمور مالك، ومن جديد، فر هارباً إلى حمى تيمور، حيث قدمت له مساعدة كبيرة، وقامت قوة عسكرية تيمورية، برئاسة غياث الدين تارخان ونيكي كاوتشين، بمرافقته الى سيجناك، واستخلصت له عرش آق أوردة، بقوة السلاح، فرسخ ثبوته عليه هذه المرة.

وكان الأمير تيمور قانعاً بنتائج سير الصراع في آلتن أوردة، إضافة إلى أمله في أن يظل تختميش رجله المخلص على الدوام، منفذاً لسياسته. إلا أن تختميش لم يحقق أمل حاميه ، إذ على العكس، سرعان ما نفّذ توحيد آق أوردة مع آلتن أوردة، وناصب حكومة تيمور العداء. وعاماً بعد عام، ازدادت هوة الخلاف بينهما عمقاً، وتفاقم سوء التفاهم والتعارض بين تيمور وتختميش، الذي عمل ضد ما رتب له تيمور تماماً. وفي محاولاته لاستعادة سالف مجد آلتن أوردة، وعصرها الذهبي خلال حكم أوزبك خان، قام تختميش بعدة حملات، بهدف توسيع رقعة البلاد. فهاجم ما وراء القوقاز وأذربيجان، وفي العام ١٣٨٥م أرسل جيشاً كبيراً للاستيلاء على تبريز. وكانت هذه الأقاليم، حينذاك، خاضعة لسلطة الأمير تيمور. وقد حرض تختميش، كما سبق ، حاكم خوارزم، سليمان صوفي ضد تيمور، وأرسل جيشاً لنهب الأقاليم الحضرية في ما وراء النهر، في حال غياب الأمير تيمور خارجها. وأدى ذلك كله إلى اندلاع حرب بين جوتشي وحكومة تيمور، خلفت وراءها شيئاً غير قليل من الحرمان والنكبات لشعبي البلدين. وقد قاد تيمور الجيش ثلاث مرات ضد تختميش، خلال الأعوام ١٣٨٩ و١٣٩١ و١٣٩٥م، ولكن بدون

التركيز على إقامة سلطة في جوتشي، حيث كان هدفه الأساسي تحطيم القدرة الحربية وتحجيم الوزن السياسي لهذه البلاد، لحماية أملاكه، سواءً في ما وراء النهر أو في ايران أو في أذربيجان. وكتب ا. ى. ياكوبفسكي: «لم يكن الهدف من حروب تيمور ضد تختميش الاستيلاء على الأراضي، باستثناء مجموعة من مدن سرداريا، تقع أسفل ساوران (سيجناك - وأترار وياسا)، بل إضعاف جوتشي إضعافاً كاملاً، حيث رأى دوما، في آلتن أوردة الجبارة، تهديداً قائماً لدول آسيا الوسطى». والمؤرخ على حق، وإلا فَلِمَ تنازل تيمور، منذ عام ١٣٩٥م، عن تلك البلدان الشاسعةِ الغنية لكوبريتشاك أوغلان بن أوروس خان، بعد هزيمة تختميش في «ترك»، عندما استولى على سراي برك وحاج ترخان (استراخان) وسراي تشك، وغيرها من بلاد جوتشي الرئيسة.

ونتوقف قليلا عند حملات تيمور الثلاث هذه، ضد تختميش:

في نهاية ديسمبر ١٣٨٨م، وجه تختميش جيشاً كبيراً إلى ما وراء النهر، بقيادة أليغميش أوغلان، عبر سرداريا، واكتسح معسكر فياتشق ديزاك. وبعد وصول أخبار الحملة الى الأمير تيمور، بعدة أيام، وبصرف النظر عن اشتداد البرد، وغزارة هطول الجليد، وبدون تريث لإتمام جمع كامل القوات، قام لملاقاة العدو. وعند خوجندة انضم إليه أمير زاده عمر شيخ ومعه قوات أنديجان، فأحيط بأليغميش من الناحيتين، وحاقت به الهزيمة.

وفي شهر صفر ٧٩١هـ (فبراير١٣٨٩م)، وصل تيمور إلى بلدة إيكان، حيث قضى بقية الشتاء وبواكير الربيع التالي، وبمجرد أن تجمعت القوات، من كل الأقاليم، وفي شهر ربيع الأول٧٩١هـ (بداية مارس ١٣٨٩م)، اجتاز سرداريا، وأذاق تختميش الهزيمة تلو الهزيمة، وطارده حتى دورانج جاكالة وآل تامجا. إلا أن الحملة توقفت إثر تزايد نشاط المغول على حدود ما وراء النهر.

واستؤنفت الحمله، بعد عامين، في ١٣٩١م. وقد استعد لها تيمور استعداداً كبيراً. ولم يكن قد حلّ الربيع بعد عام ٧٩٢هـ (سبتمبر - أكتوبر ١٣٩٠م)، حين

نقلت القيادة العليا للقوات إلى اقليم تشيناسة، وأعلنت التعبئة العامة. وهنا قضى الشتاء من العام ٩٠ هـ ـ ١٣٩١م، وفي بداية الربيع، قاد الجيش ضد تختميش. ووافى عند قاراسامان(١٥)، سفارة تختميش، التي عبّر تختميش من خلالها عن عميق أسفه لما بدرمنه، وطلب العفو عن جرائمه، ووعد، مستقبلاً، بالتزام حدود الأدب وقواعد الخضوع. إلا أن تيمور لم يصدق وعوده، وقد كذب مراراً. فاحتجز سفراءه لدى قيادة الجيش، واستمرت الحملة زهاء ستة أشهر من القتال، واختتمت بهزيمة تختميش، في الثامن عشر من يونيو ١٣٩١م، عند بلدة كوندوز تشا، الواقعة بين سامراء وتشتابول، وآبَ تيمور من الحملة بغنائم لا تحصى، وأسرى كثيرين. وقد دوّن تيمور، في ذكرى تلك الحملة كتابة، نقشت على الحجر في أولوتاو، ما زالت محفوظة حتى وقتنا الحاضر، في متحف الدولة في مدينة سانت بطرس برج (متحف الأرميتاج)، بروسيا.

وخرج تختميش من الحرب سليماً معافى. وسرعان ما تمالك نفسه، واستعاد المقدرة الحربية والسياسية لـ جوتشي، كما كانت، وعاد من جديد، يهدد جيرانه، وفي مقدمتهم تيمور ودولته. وحاول أن يغري الظاهر برقوق، حاكم مصر (١٣٨٢ ـ ١٣٩٩م)، بالصراع ضد تيمور. وتتوافر حول ذلك معلومات مؤكدة لدى المؤرخين العرب مثل المقريزي والأسدي. وفي عام ١٣٩٤م، قام تختميش بغارة على أذربيجان، واحتلت قواته بعض أقاليم شروان، وأجرى العديد من عمليات السلب والنهب والتخريب، إلا أنه لم يجرؤ على خوض معركة يواجه فيها تيمور، وبمجرد ظهور طلائع جيشه، انسحب تختميش إلى مقرّه في داشت كيبتشك. ولكن الأمير تيمور قرر تصفيته، بَيْدَ أنّ قدوم الشتاء، جعله يؤجل القيام بالحملة إلى العام القادم (١٣٩٥م)، وقضى الشتاء في فتح أباد.

وبدأت في السابع من جمادى الأولى ٧٩٧هـ (٢٨ فبراير ١٣٩٥م) حملة تيمور الأخيرة والحاسمة، ضد تختميش. لكنه، وفي أثناء مسيره إلى دربنت، هدأت سورة غضبه، وحاول معالجة الأمور بالسبل السلمية.

---

١٥ ـ قاراسامان ـ بلدة على ضفة نهر آريس اليسرى، حالياً قارأسابان.

ولهذا الغرض أوفد إلى تختميش سفارة، وجعل على رأسها رجلاً مجرباً ذا وزن، مولانا شمس الدين الماليجي. وكما ذكر شرف الدين يزدي: حاول سفير تيمور، بالنصح والاقناع، استمالة تختميش، ولكنه تخابث، وفي حين كان يتحدث عن المصالحة، استمر في استعداده للقتال. وبهذه الكيفية لم يكن للحرب أن تتوقف. وفي التاسع والعشرين من شهر جمادى الآخرة ٧٩٧هـ (١٦ أبريل ١٣٩٥م)، اتخذ الجيشان، اللذان لا يقل عددهما عن أربعمائة ألف مقاتل، مواقعهما القتالية، استعداداً للمعركة الفاصلة، والتي كانت دموية. وعن ضخامة هذه الموقعة، تشير المصادر إلى أنها غطت مساحة ٣٥ كيلو متراً مربعاً. وقاتل فيها الجانبان ببسالة، ولم يدّخر أحد منهما قوة. وخرج تيمور في نهايتها منتصراً، وفر تختميش ومن تبقّى معه من قواته، وتاه في غابات بلغاريا. تجدر الاشارة إلى أن انتصار تيمور، في كثير من الحالات، يرجع الفضل فيه إلى استخدامه أساليب جديدة في إدارة المعركة، فقبل هذه الموقعة، مثلاً، قسّم القوات العسكرية إلى سبعة فيالق، وجهّز احتياطياً ضخماً من سبعة وعشرين فوجاً. وقد عملت هذه الفيالق السبعة على تقوية المركز ودعاماته الجانبية، وأتاحت الأفواج الاحتياطية، عند اللزوم، دعم هذه أو تلك من الوحدات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كويرتشاك أوغلان بن أوروس خان، كان مرافقاً لتيمور، طوال ذلك الوقت، فأبدى رغبة في تبوُّء عرش أولوس جوتشي، وعندما تجاوز توراتور، أصدر له تيمور مرسوماً بحكم جوتشي، وزوده بفرقة من شجعان الأوزبك، وبعثه الى الضفة اليسرى لنهر الفولغا، وبذلك صار تيمور مطمئناً تجاه الجزء الساحلي الأيسر من جوتشي، في حين بقي جزء آخر غني بموارده الطبيعية، هو الجزء الساحلي الأيمن، ويضم الأراضي الممتدة من نهر الفولغا حتى نهر الدنبر (أوزي في المصادر الشرقية)، ولهذا قرر إنزال ضربة بهذه الأراضي؛ كذلك، لتحقيق حماية ما وراء النهر، فأرسل إلى هناك جيشاً، برئاسة شمس الدين عباس، أمير زاده بير محمد، توجه إلى أراضي الضفة اليمنى لـ جوتشي. ومضت قوات تيمور، حين ذاك، إلى الضفة الشمالية بنهر الدنبر، واستولت على آنكرمان (ما نكرمان) وآزاك (آزوف)، وبعض أقاليم كوبان والدون. ويروي شرف الدين تفصيل

تلك الحملة. والذي يثير الاهتمام، ما جاء عن الأوزبك قاطني إقليم انكرمان المذكور، «نهبَ محاربو تيمور، بكياروك أوغلان وقاطنيها من أولوس الأوزبك، وقد قبض على العدد الأكبر منهم، ورحلوا إلى مكان آخر». وكما هو معلوم، فإن شعب الأوزبك، ومنذ القدم، عاش حياة الترحال والتنقل، على الضفة اليسرى لنهر الفولغا، بين بحر الأورال وتومينيا. أما عن الأوزبك الأكرمانيين، فالحديث يجري هنا لأول مرة. فمتى ولأي سبب ظهروا ووجدوا في اقليم أكرمان؟ تصعب الاجابة بالتحديد. ثم انه بعد ذلك، قاد تيمور الجيش إلى أواسط روسيا، وتوغل في أراضي ريازان، واستولى على مدينة بليتس، إحدى أهم مدن ذلك الإقليم، وتوجه ناحية موسكو. لكن المعلومات عن كيفية انتهاء هذه الحملة، غير متوافرة. ويروي نظام الدين شامي وشرف الدين يزدي، ناقلاً عنه، أنه عندما وصل تيمور إلى موسكو، نهب كل الأقاليم، بما فيها المدينة وضواحيها، وقهر قوادها. إلا أن المؤرخين الروس، الذين سجلوا الأحداث المرتبطة بالتاريخ الروسي، لا يوردون شيئاً عن استيلاء تيمور على موسكو. وقد حدث تسجيل مثل تلك الأحداث في بعض صفحات المؤرخين. وطبقاً لنيكولا يفسكي: «انقضّ تيمور، حين ذاك، على الروس بجيش عظيم، واستولى على يليتس، واعتقل أميرها، وأسر عدداً كبيراً من مواطنيها، وقتل عدداً آخر. وإذ علم الأمير ڤاسيلي دميتريفتش (١٣٨٩ - ١٤٢٥م) بذلك، جمع قوات كبيرة، وتوجه ناحية كولامنا، وشرع في عبور نهر أوكا، في حين بدأ تيمور رحلة العودة، بعد أن نهب أراضي ريازان، واتجه إلى الجنوب». مثل ذلك يرويه م. س. سولافييف (١٨٢٠ - ١٨٧٩م)، «من عام ١٣٩٥م، وعلى ضفاف نهر تيريك، قاسى تختميش مرارة الهزيمة، واضطر إلى النجاة فراراً في الغابات البلغارية. في حين اقتحم تاميرلان الحدود الروسية، واستولى على يلتيس، وأسر أميرها، واجتاح الجهة الحدودية». ولم يكن ذلك الهجوم فجائياً، إذ كان لدى فاسيلي ديميتريفتش الوقت للاستعداد، فجمع جيشاً كبيراً، ورابط على حدود إمارته، على ضفة - نهر أوكا، إلا انه لم يلاق العدو. أما تامرلان، فبعد أن ظل خمسة عشر يوماً في أراضي ريازان، واكتسح ضفتي نهر أوكا، غادر الحدود الروسية، في اليوم نفسه الذي خرج فيه المسكوفيون (أهالي موسكو) لملاقاة أيقونة الأم المقدسة، المرسلة من

فلاديمير[١٦]». وبذلك يمكن القول، أيضاً إن الأمير تيمور لم يدخل مدينة موسكو نفسها، بل لم يكن في نيته أن يفعل. أما فيما يخص روايتي شامي ويزدي، فإنهما لا تطابقان واقع الحال. وكما يشير ياكو بفسكي: «لم يكن لدى شامي ويزدي التصور المطلوب حول جغرافية الأراضي الروسية، وبذلك يكونان قد خلطا بين أراضي ريازان وحدود امارة موسكو».

واستدار الأمير تيمور من أزاك، الى أرض الشركس، حيث جرى سلبها تماماً عقاباً لهم على قيامهم بحرق المراعي، الواقعة بين أزاك وكوبانة، وإرباك القوات التيمورية. ومن عند الشراكسة، قاد تيمور الجيش إلى داغستان، واستولى على حصني كوله وتارس المنيعين. وفي شتاء ٧٩٥هـ ـ ١٣٩٦م، استولى على أستراخان، وحرقها.

وبهزيمة تختميش، وقهر آلتن أوردة، دعم تيمور، ليس فقط الأوضاع الداخلية في دولته، ولكن، ودون قصد، قدم مساعدة عظيمة إلى روسيا، عجلت بتحررها من النير المغولستاني، واستعادة شرعية حكومتها. «سحق تيمور بترك. واكتسح سراي بركة. وقصم ظهر دولة آلتين أوردة، التي سببت كثيراً من المصائب للروس القدامى، ثم تهاوت آلتين أوردة بعد عام ١٣٩٥م. وقاد تيمور صراعاً ضد آلتين أوردة، من أجل المصالح في آسيا الوسطى، ودون أن يكون له أي اتصال بالأمير المسكوفي، الذي لم يكن على معرفة به. وقد تحققت فائدة كبيرة ليس لآسيا الوسطى فقط، بل لروسيا أيضاً.

ولئن كان لصراع تيمور ضد جوتشي، إلى هذا الحد أو ذاك، طابعاً دفاعياً، بمعنى حماية حدود الدولة التي كوّنها، فإن حروبه مع ايران واذربيجان والعراق وسوريا والهند، حملت طابع السطو. وينبغي ذكر أن مثل هذه السياسة أقامها على أساس حماية الاسلام ونشره. وهنا نصَّب تيمور نفسه راعياً للاسلام، يسهر على

---

١٦ ـ مدينة روسية، شمالية، تعتبر مقر الكنائس وعاصمة روحية للبلاد، وخروج الايقونة إلى مكان ما، كان يعني تأكيد مساندة القيادة الدينية ومباركتها لما يجري (المترجم).

حمايته أينما ضعفت دعائمه، ويعمل على نشره حيثما لم يعرف بعد. وقد وضعته هذه التوجّهات في مرتبة أجلّ من قادة الدين الروحيين. واليك مثلاً، ما ورد في رسالة من سعيد بركة، أحد أصحاب المكانة الروحية الرفيعة، في زمن تيمور، موجهة من قبله إليه في بداية عهد تيموز بالعمل السياسي: «فلينصر الله من نصر دين محمد (صلى الله عليه وسلم)، وليهزم الله من تقاعس عن نصرته، لقد انقضى أكثر من ثمانمائة عام على يوم هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنّه على رأس كل مئة عام، يبعث الله سبحانه وتعالى حاميا وناشراً لدين رسوله المختار، يقيم الدين، ويحيي العقيدة وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). والحمد لله تعالى الذي جعل أمانة تجديد الاسلام ونشره، في المئة الثامنة هذه، من نصيب صاحب القرآن الأمير تيمور». وقد أطلع تيمور زيد الدين أبا بكر تاي أبادي(١٧) على هذه الرسالة، فأعادها اليه مضيفاً إلى حاشيتها: «إلى صاحب القرآن تيمور، القائم على نشر الدين والشريعة، فليؤيده الله. وليكن معلوماً أن تلك المآثر إن هي إلا إنعام من الله إلى منار الدولة، علامة رضائه العظيم، وتكليف علوي بذلك الشأن العظيم، من تجديد الدين ونشر الشريعة. فلتضاعف جهدك، وعلى قدر عملك يعلي الله قدرك». وفي واقع الأمر، حاول تيمور جاهداً توحيد العالم الاسلامي كله في دولة واحدة، تضع حداً، بحسب وجهة نظره، للإخلال بالشرعية والانفراد بالسلطة، في الدول المفردة، وتفسح في المجال للناس أن يحيوا بسلام، وتتيح لهم تبادل الاتصالات، وتقدم التجارة والثقافة. وكيفما كانت الحال، فان حروب تيمور التي خاضها، بكل عنف، بدءاً من عام ١٣٨١م، لم تخلُ من طابع الاستيلاء والتملك، إلا أن ذلك أيضاً، كان من طبيعة ذلك العصر. وقد حتمت ظروف المجتمعات الطبقية،على القواد والحكام، أن يحافظوا على قوتهم واستقلالهم، وذلك من طريق بسط نفوذهم وهيمنتهم الحربية والسياسية على أكبر عدد ممكن من البلاد، ولم يكن تيمور شاذاً في ذلك، وهكذا فعل قبله، ومارس السياسة نفسها الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر، وكثير من حكام العرب وقادتهم، ومنهم محمود غازنقي ذلك السلجوقي

---

١٧ ـ أحد مشاهير رجال الدين ـ من مواليد تاي أباد، التابعة لجيرات ـ توفي عام ١٣٨٩م.

العظيم، وجنكيزخان، وغيرهم. لقد كانت أولى ضربات تيمور من نصيب مالك غياث الدين بير علي الثاني، حاكم جيرات (١٣٧٠ ـ ١٣٨١م)، حيث بعث اليه تيمور، في شتاء ٧٨١هـ (يناير ـ فبراير ١٣٨٠م)، بالحاج سيف الدين، المقرب اليه، ودعاه لعقد لقاء شعبي. وكان غياث الدين رجلاً طيباً، ولكنه ماكر، استقبل سفير تيمور بالتكريم اللائق، في حين احتجزه لديه في جيرات لفترة طويلة، اشتغل خلالها بجد، في تحصين البلد وتقوية الدفاعات، وتخزين احتياطي من القمح والعلف، وكان واضحاً أنه يستعد لخوض معركة يشتبك فيها مع عدوه القوي. وفي ٦٨٢ هـ (أبريل ١٣٨٠م)، وجه تيمور أمير زاده جهان جير إلى خراسان، على رأس خمسين فرقة، ومعه الأميران حاج سيف الدين وآق بوجا، وغيرهما، فاحتلّ، حينذاك، بالخ وشبرخان وبادجيس. وفي نهاية العام نفسه (فبراير ١٣٨١م) هجم تيمور على خراسان، حيث لم يُبْدِ مالك محمد شقيق غياث الدين، الذي كان في حصن سيراكس، أي مقاومة، وقدم اليه مفاتيح حاميات سراخس. ولم يجد تيمور مقاومة في المواقع الأخرى خلال مسيرته إلى جيرات، مكتسحاً معسكراً في بلدة ميجدالك التي تقع على مسافة احد عشر فرسخاً من عاصمة خراسان. ولم يشرع تيمور في حصار جيرات، و كقائد عسكري خبير، قرر بادئ ذي بدء، أن يقطع خطوط اتصالاتها، فوجه الضربة الأساسية للتحصينات في الأقاليم الأخرى. ومن ثم استسلمت جام كاوسيا دون قتال، في حين أبدت فوشيخ مقاومة جادة.

وأخيراً استولى على جيرات، بعد حصار مكثف وقتال عنيف. وقد كثر عدد القتلى، ووقع قرابة الألفين في الأسر، بيد أن تيمور عفا عنهم، وأصدر تعليماته بإخلاء سبيلهم جميعاً. كما استولى، في حينها، كذلك على توس وكيلات، وفي الطريق إلى توس، في مزار أبي مسلم، حضر زعيم ساريدارلر (صعاليك) خراسان، علي مؤيد، وقدم إلى تيمور فروض الولاء والطاعة، وهذا ما بدر أيضاً من حاكم ماخان، علي بك قورباني. ويرجح بعض المؤرخين، مثل بارتولد وياكوبفسكي، انطلاقاً من تنازله طوعاً عن السلطة، وجود علاقات صداقة قوية بين علي مؤيد وتيمور، إلا أن غالبية المصادر التاريخية لا تؤيد ذلك. ويتضح من رواية شرف الدين

يزدي، أن ساريدارلر سايزفاز لم يهلكهم إلا مالك غياث الدين، ولهذا فقد سارع علي مؤيد إلى مغادرة مكمنه في توس وقتها أو في كيلات - على قولٍ آخر - بالحضور إلى طرف تيمور وعرض السلام عليه.

وجرت في العام ٧٨٣هـ (٨١ - ١٣٨٢م) حملة تيمور الثانية على ايران، وفيها أخضعت كيلات وتورشيز وسايزفاز (وتركها لعلي مؤيد) ومازندران.

وفي العام ٧٨٥هـ (١٣٨٨م)، تقدم الأمير تيمور إلى سيستان، وأخضع أهم مدنها وحصونها، زراح وزافة وفرخ وبوست، وغيرها.

وقام تيمور في عام ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) بحملة على أستر أباد وأذربيجان، حيث أخضع مدن أمول وساري وسلطانية وبيريزوم.

بذلك أخضع تيمور، خلال الأعوام من ١٣٨١ إلى ١٣٨٤م، الجزء الأكبر من إيران. بيد أنه لم يتوقف عند هذا الحد، بل بعث، بعد ذلك بثلاث حملات كبيرة، إلى إيران وأذربيجان والعراق وسوريا، اشتهرت في التاريخ بـ: حملة السنوات الثلاث، حملة السنوات الخمس، وحملة السنوات السبع، وقد صاحبها الكثير من الدمار وازهاق الارواح.

وخلال زمن حملة السنوات الثلاث (٨٦ هـ - ١٣٨٨م)، استولى على أذربيجان، وفارس. وجرت هجمات على أملاك قارايوسف توركمان (١٣٨٩ - ١٤٢٠م)، وجورستان وأرمينيا (أقليم بحيرة بان). وفي تلك الحملة، يكتب شرف الدين أنه جرت معارك حامية دامية، تحمل فيها الجانبان خسائر فادحة. وكما هو معلوم، فإن تيمور، وجميع المحاربين أمثاله، كانوا لا يهاجمون المدن التي تخضع لهم بدون قتال، وتقبل بدفع الجباية مختارة (مال الأمان)، ولا يطلقون محاربيهم فيها، بل يرسلون إليها، فقط جباتهم ومحصّلي ضرائبهم. أما تلك المدن التي تبدي مقاومة جادة ضدهم، فكانوا يعملون فيها نهباً وتخريباً. ومن كان يقع في أيديهم مقاتلاً وفي يده السلاح، يتعرّض لضرب عنقه (في العلن). وأما المواطنون المسالمون فلا يتعرضون للأذى. وهذا ما حدث مثلاً رداً على استفزازات علي كوتشانه، الذي

تطاول على محصّلي الجباية، فقتلهم عن آخرهم، وقام جنده باجتياح حامية قوامها ثلاثة آلاف، كان تيمور قد جعلها لحماية المدينة والاقليم. وعندما علم تيمور بذلك الحادث وهو في طريقه إلى فارس، عاد إلى أصفهان، وفي سوْرة غضبه، أصدر أمره بضرب أعناق جميع من كانت لهم يد في ذلك. فهب الأصفهانيون للدفاع عن أنفسهم، وحملوا السلاح، غير أنهم هزموا، واستولى تيمور على المدينة. وضربت وقتها رؤوس الجميع، ما عدا الأسياد والموالين وأولئك الذين كانوا على الحياد. ويحكي شرف الدين يزدي، ما يشبه الأساطير، عن أنهم شكلوا برجاً من الرؤوس البشرية فيه سبعون ألف رأس.

وقامت حملة السنوات الخمس (٧٩٢هـ ـ ١٣٩٦م)، على ايران، بسبب الاضطرابات ومحاولات الانفصال بين الحكام المحليين (المظفرين) في مازندران وجنوب ايران، ولور الكبرى ولور الصغرى ـ وقد صاحب هذه الحملة حوادث سطو ونهب.

ومن جملة ما حدث: سويت بلدة أمول بالأرض، من جراء إبدائها مقاومة عنيفة، وجاء في مؤلف «ظفرنامة»: «تحولت إلى حفنة من التراب». وكان الإنجاز الرئيسي لهذه الحملة هو اجتثاث جذور آل مظفري (٧١٤هـ ـ ١٣٩٣م)، وكذلك جلايري (١٣٣٦ ـ ١٤٣٢م). وقضى نحبه في الموقعة، مفوض المظفرين الأخير في فارس، شاه منصور، ومن سلم، اعتقل وقتل. أما بالنسبة للسلطان أحمد (١٣٨٢ ـ ١٤١٠م)، وهو أحد ممثلي هذه الطبقة المتميزين، فانه لم يستطع إبداء أي مقاومة، فترك مقيدار، وفر هارباً إلى مصر، حيث وجد المأوى والأمان لدى حكامها المماليك، في ذلك الوقت.

وفي تزامنٍ مع هذه الحملة بالذات، كما سبق ذكره، جرت هزيمة تختميش، وأنزلت بـ جوتشي ضربة قلصت مقدرتها الحربية والسياسية.

وجرت حرب تيمور في هندوستان، خلال الفترة من مايو ١٣٩٨م إلى مارس ١٣٩٩، وتبعاً لمؤلف «يوميات حملة تيمور على الهند» الموضوعة بين عامي ١٣٩٩م و١٤٠٣م، والمهداة إلى أمير زادة خليل سلطان (١٣٨٤ ـ ١٤١١م): قضى تيمور

فصل الشتاء، بعد حملة السنوات الخمس، في وادي أخانجران، بالقرب من طشقند، وكان معلوماً من قبل أن للاسلام وجوداً في بلاد الهند، وفيها تصكّ النقود بشعار الاسلام، ولكن المسلمين فيها محاصرون بالوثنية والمشركين، وفي حين لا يقوم الحكام المسلمون هناك بأي مجهود لدعم الدعوة ونشرها، واقتنعوا فقط بتحصيل الضرائب والجزية من الوثنيين والمشركين، وتركوهم على معتقداتهم. وبناء على ذلك، قرر تيمور اعلان الحرب المقدسة والعمل على سيادة دين الله. وخلال هذه الحرب، جاب تيمور بجيشه الضخم كل أرجاء الهند، بالنار والسيف، يقتلع جذور الوثنية والشرك، ويقضي على ما يُعبد من دون الله. وقد استولى، في قتاله، على غنائم عظيمة، جُلبت إلى سمرقند وكيش، كان من بينها مئة وعشرون فيلا قتالياً، استخدمت فيما بعد، في أعمال التشييد والبناء والحروب.

وكانت حرب السنوات السبع هي الكبرى بين كل الحروب التي خاضها تيمور على مدار تاريخه كله. وقد بدأت في الثامن من شهر المحرم من عام ٨٠٢ هـ (١٠ سبتمبر ١٣٩٩م)، وانتهت في شهر المحرم من عام ٨٠٧ هـ (يوليو ١٤٠٤م). وتم خلالها الاستيلاء على مدن حلب وكومبسة وبعلبك ودمشق، وغيرها من مدن سورية، وبغداد وأويولوستان، من مدن العراق، والجزء الأكبر من تركيا. وآنذاك، قامت قوات تيمور بعدد من الغارات على جورجيا.

أما الانجاز الأكبر لتيمور، فكان انتصاره على سلطان تركيا المغولستاني بايزيد ايلدريم (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م)، بالقرب من أنقرة، في سهل تشيبوك أباد، في يوم الجمعة، التاسع عشر[١٨]، من شهر ذي الحجة عام ٨٠٤ هـ (٢٠ يوليو ١٤٠٢م). وورد وصف هذه الموقعة، بالتفصيل، لدى شرف الدين يزدي: كانت معركة ضارية، وحرب عوان، تقلبت بين الهزيمة والنصر، إلى أن حدد مسار القتال الأمير تيمور، باستخدام اسلوبه المفضل في المناورة المحوّلة للانتباه. ونستكمل من «ظفرنامة»: كان الوقت ما بعد منتصف النهار، وقد حمي وطيس القتال، فأطلق

١٨ ـ طبقاً لإبن عرب شاه: السابع والعشرون، من الشهر ذاته والسنة ذاتها.

تيمور محمد سلطان، على رأس فوج مختار، من قلب الجيش، يصحبه احتياطي، إلى مرتفع ذي سيادة استراتيجية، يقع وسط الوادي، وتحتله رماة السلطان بايازيد. هاجم محمد سلطان الرماة، فأزاحهم عن الهضبة، وصار يشكل تهديداً قوياً لقوات الترك الأساسية، كما عمل سلطان الترك على ازاحته منها، فدفع بكامل قلب الجيش إلى ذلك المرتفع، ولم يُبْدِ محمد سلطان أمامه مقاومة تذكر، إذ إن ذلك لم يكن من واجبه، فالغرض الرئيسي لتيمور قد تحقق، وتمت تفرقة جيش بايازيد، وصارت أجنحته مقطوعة الصلة بالقلب. فاستغل تيمور ذلك وطوق كلا الجناحين، ومن ثم أصبح بايازيد محاصراً في ذلك المرتفع. وتعاملت أفواج شاه روح وميران شاه مع ميمنة جيش الترك وميسرته، وسرعان ما فرغت منهما، ثم استداروا جميعاً، لدعم قوات محمد سلطان مطوقين قلب جيش بايازيد. وقد أبدى بايازيد دفاعاً باسلاً، إلا أنه ومع غروب الشمس، كان كل شيء قد اقترب من نهايته. اضطر بايازيد للانسحاب، لكنه لم يستطع ذلك إلا من خلال الممر الصناعي الذي شكله تيمور من رماته، وأرغمه على اللجوء اليه. وخلال فراره منسحباً، تعرض هو وقواته لسيل من سهام الرماة، فلم ينج منهم سوى القليل ومعهم بايازيد، الذي قبض عليه، واقتيد إلى مقر تيمور، حيث قابله بلطف، وأهداه هدايا قيمة، منها ملابس ثمينة، وأطلق سراحه. وقد قضى بايازيد نحبه في الرابع عشر من شهر شعبان ٨٠٥ هـ (٩ مارس ١٤٠٣م)، بعد تلك الواقعة بحوالي ثمانية أشهر.

وقد تلقى تيمور نبأ وفاة السلطان بايازيد وهو في خامين، فأسرع إلى آق سراي، لتقديم العزاء إلى أهله وأقربائه، ولاطف ابنه موسى، وأهداه معطفاً مطرزاً بالذهب، وخنجراً مطعماً بالأحجار الكريمة، ومئة فرس من كرام الخيل الأصيلة، وأسند اليه حكم الأمبراطورية التركية، وأثبت ذلك بمرسوم خاص، دمغه بالختم الأحمر (التمغة)، وفي ذلك الحين، وبأمر من تيمور، نقلت رفات بايازيد، من مقابر شيخ محمد حيران، حيث مدفنه المؤقت، إلى بروسسو، في ضريح خاص، كان قد شيده بايازيد في حياته.

عاد تيمور إلى سمرقند في شهر المحرم ٨٠٧ هـ (يوليو ١٤٠٤م)، وشرع

مباشرة في التجهيز للحرب ضد الصين، التي كان حكامها يجاهدون دائماً بادعاء سلطانهم على بلاد ما وراء النهر. وبعد استعدادات استغرقت ثلاثة أشهر، وفي الثالث والعشرين من شهر جمادى الأولى عام ٨٠٧ هـ (٢٧ نوفمبر ١٤٠٢م)، توجه إلى هناك على رأس جيش قوامه مئتا ألف مقاتل.

لكن الحملة قطعت خط سيرها، في إثر وفاة الأمير تيمور، الذي قضى نحبه في أترات، في السابع عشر من شهر شعبان ٨٠٧ هـ (١٨ فبراير١٤٠٥م).

وقد نجم عن حروب تيمور، كما نجم عن كل الحروب التي قادها زعماء الاقطاع أو القياصرة، كثير من المعاناة والشقاء، سواء لشعوبهم أو لشعوب البلاد التي حاربوها. فتحولت مدن كثيرة، مزدهرة، إلى خرائب. وحُمل من كل تلك البلاد، التي أخضعت، الكثير من الغنائم، ورُحِّل علماء بارزون، وصناع مهرة، ومعماريون فنيون الى سمرقند وكيش وبخارى، وغيرها من مدن ما وراء النهر. ولكن، وفي تميز واضح عن غيره من المحاربين والفاتحين، أثرى تيمور الحياة الاقتصادية لدولته، واجتذب الى ما وراء النهر خيرة الحرفيين والفنيين والمعماريين والعلماء، ليس لأن ما وراء النهر كانت تفتقر إلى مثل هذه الاختصاصات، بل من منطلق أنه كلما قوي المد الثقافي والحضاري، وكلما ثريت الحِرَف، ارتقت الفنون والعلوم. وتجدر الاشارة، إلى أن تيمور بك قاد نهضة معمارية عظيمة، ليس في بلاد ما وراء النهر فقط، أو في خصوصياته المتميزة، فحسب، بل أيضاً في البلاد التي فتحها. وتحفظ المراجع التاريخية الكثير من الأدلة على أنه قام دائماً بتشييد المدن، مثل بايلاكانة، في أذربيجان الايرانية، وغورغيانج وشروان. كما عمل على بناء قنوات جديدة للري في قاراباخ، ويراري موجان، وحرص على تشييد قصور جديدة في ايران وافغانستان، وغيرها من البلاد، وكذلك خطط لشق الطرق وتعبيدها، وإقامة العديد من الجسور والكباري.

كانت دولة تيمور، من حيث حجمها، ضخمة وعظيمة، فقد شملت، إلى جانب آسيا الوسطى، ايران وأذربيجان والعراق وأفغانستان. وقد أدار تيمور دفة الحكم فيها بمساعدة أبنائه وأحفاده وأهل الثقة من الأمراء. وحتى يتسنى له ذلك، قسم

الدولة التيمورية إلى حيازات، استخلف عليها حكاماً. فأنعم على ابنه الأكبر جهان جير[١٩] بعرش محمود غزنوي، أي حكم أفغانستان، وأعطى ابنه شاه روح حكم خراسان، واستخلف ميران شاه، ابنه الثالث، على عرش هولاكوخان أي العراق وأذربيجان، وأسند حكم فرغانة الى عمرشيخ وذريته من بعده (ميراك احمد، مثلاً). بَيْدَ أن جميع حكام تلك الحيازات الاقطاعية هؤلاء، وإن كانوا قد تمتعوا باستقلاليتهم، الى حد ما، حيث كان لهم الحق في فرض الضرائب والرسوم وتحصيلها، وإصدار القرارات والإدارة، إلا أنهم جميعاً خضعوا للقيادة المركزية العليا، في شخص تيمور نفسه، ووزرائه. وقد نجح تيمور بجعل جميع مواليه الحكام، على ولاء تام له، بفضل ما كان يتمتع به من عقل راجح، وفكر ثاقب، وقبضة حديدية.

وقاد العمل، في الجهاز الحكومي المركزي، وزراء تيمور الأربعة، وكما جاء في «موسوعة تيمور»، فأولهم كان وزير البلاد والشعوب (وزير الرعيات) الذي كان من اختصاصه إعلام القائد الأعظم بأوضاع البلاد وأحوال المواطنين الرعايا، والثاني: أدار الشؤون الحربية، والثالث: أشرف على الممتلكات التي خلّفها أصحابها لأسباب مختلفة، أهمها الحروب، وكذلك شؤون الرحالة والحجاج، أما الرابع: فقد قام على الشؤون الخاصة بقصر الحاكم الأعلى (وزير البلاط). هذا بالاضافة الى ثلاثة وزراء آخرين أداروا شؤون الأقاليم الحدودية. وقد خضع هؤلاء الوزراء السبعة، لرئاسة (ديوان يحيى) وزير الديوان أو كبير الوزراء.

والى جانب الوزراء، وفي المؤسسات القيادية المركزية والأقليمية، كما في دواوين الحكم في جوتشي، عمل مستخدمون حكوميون، في درجات مختلفة، وقد حفظت المصادر، تسميات لوظائف وألقاب، مثل: شيخ الاسلام، والصدر الأعظم (القيم على شؤون وممتلكات الأوقاف)، ودار خاخ (الذي يتلقى الشكاوى وينظر في المظالم)، واتشكي (خادم حديث بالقصر)، وايشيك أغا (رئيس التشريفات والمراسم)

١٩ـ ورث الحكم بعد وفاته في عام ١٣٧٦م، ابنه بير محمد.

ويساؤول (منفذ الأوامر الشخصية للحاكم)، وكالاكتشي (يختص بالوفاء بكمّ معين من الخراج)[٢٠]، والمحصل، (جامع الضرائب والرسوم)، وتفادجي[٢١] (موظف، عسكري كبير، مسؤول أساساً عن تعبئة القوات المسلحة وتجهيزها)، و كاراؤول بجي (كبير الحراس)، وكوتفال (كومندان أو آمر الحصن)، وجارتشي (منادي، يتولى القيام باعلان الأوامر والأخبار)، ويوت شي (مقيم خيمة السلطان)، والمحتسب (يراقب تطبيق قوانين الشريعة، وضبط الأسعار والأمن في الأسواق)، والمنش[٢٢] (سكرتير)، ووواقية نامة تشي (صاحب الأسفار، مسجل الأحداث والتواريخ)، وفراش، وغيرهم. وحكمت المدن والقرى من قبل كاتخودا، وفاروج كالانتاري.

وقد شيدت على طريق القوافل، محطات خاصة، لكل منها ملاحظ (ضابط) ومبنى فيها سار دابه (مبنى للقافلة، مزود بمصدر للمياه).

وتحفظ المراجع التاريخية، شهادات وان كانت قليلة، إلا أنها قيمة، وتلقي الضوء على التقاليد والمراسم التى كانت متبعة، في القصور التيمورية. فإلى اليمين من عرش الحاكم الأعلى، كان يجلس السادة، فالقضاة، فرجال الدين، والعلماء والشيوخ وشيخ الاسلام، وإلى اليسار منه الأمير الأعظم (أمير الأمراء)، فعميد البكوات (بك لربجي)، وأمراء الجيش، والغايونيون، وزعماء قبائل جوتشي والطومانيون، والقوشونيون[٢٣]. وفي مواجهة العرش كان يجلس رئيس الديوان، والوزراء. وخلف هؤلاء اتخذ مجالسهم حكام المدن والقرى والكلانتاري والكاتخدات، والضيوف الأجانب. وخلف العرش يمينا، كان يجلس العسكريون (أوغلان لر ـ المترجم)، وبواسل المحاربين (بخادر لر ـ المترجم)، ويساراً كان يجلس

---

٢٠ ـ عرفت هذه الوظيفة، في بعض النظم الاقتصادية في بلاد الشرق باسم الملتزم (المترجم).

٢١ ـ أي ما يناظر رئيس أركان الجيش حالياً (المترجم).

٢٢ ـ صاحب ديوان الانشاء: مسؤول عن كتابة الرسائل والمحررات ونحوها (المترجم).

٢٣ ـ ألقاب لقواد وحدات وتشكيلات الجيش، فالطومان قائد قوة تعدادها اكثر من ألف مقاتل، والقوشون قائد فوج، أي أنه يدخل ضمن تشكيل الطومان (المترجم).

قائد الحرس (كاراؤول بجي). وفي مقابل العرش كان يقف أمراء خيراؤول، وأسفل العرش كان يقف الخدم واليساؤول الخاص، والى يمين العرش ويساره كان يقف دار خاخين لتلقي المظالم والشكاوى.

وحظيت الدولة التيمورية بتقدير عالمي كبير. وطبقا لشهادة شرف الدين يزدي، وكتابات تيمور، وميران شاه وشاه روح، وغيرهم، المحفوظة، حالياً، في المتحف البريطاني بالمملكة المتحدة، والمكتبة الوطنية بفرنسا، والمكتبة السليمانية بتركيا، تطورت العلاقات السياسية والاتصالات التجارية، بين دولة تيمور، وبين دول وبلدان آسيا مثل آق أوردة ومغولستان والصين، وكذلك كان الحال مع مصر، وأيضاً مع دول وبلدان أوروبا مثل ايطاليا وأسبانيا وفرنسا وانجلترا وجنوى وڤينيسيا (البندقية) وغيرها. وقد بلغت تلك العلاقات ذروتها خلال أعوام الثمانينات والتسعينات من القرن الرابع عشر، وفي مستهل القرن الخامس عشر، حيث واكب ذلك تنامي قوة تركيا. فكما هو معلوم ، في العام ١٣٨٩م، حققت تركيا هزيمة القوات الأوروبية المتحدة، في منطقة كوسوف، في صربيا (جمهورية صربيا حالياً، بعد الانفصال عن يوغسلافيا في عصرنا الحاضر)، ونجم عنها أن فقدت صربيا استقلالها وأصبحت إحدى توابع تركيا. وبعد مرور أربعة أعوام، وفي العام ١٣٩٣م، استولت تركيا على بلغاريا وقلاخيا ومقدونيا وڤساليا، واقتحمت القوات الحربية التركية اليونان كذلك. وفي العام ١٣٩٦م، سحقت تركيا، في نيكوبول (بلغاريا) خيرة جيوش أوروبا بقيادة ملك المجر سيجيز موند، الذي أعلن الحرب الصليبية ضد المسلمين، وفي ذلك الوقت، أيضاً، حاصرت جيوش بايازيد كونستانتينوبول (القسطنطينية).

وزحف الخطر الحقيقي من جانب تركيا، مهدداً ليس بيزنطية فقط، بل أوروبا أيضاً. ولهذا اجتمع سفراء بيزنطية وإيطاليا وأسبانيا وغيرهم في قصر تيمور، سائلين اياه العون في صراعهم ضد تركيا. وباختصار، فقد كان ذلك أحد العوامل التي عجلت بالصدام بين هاتين الدولتين التركيتين القويتين، وقد جنت أوروبا، من وراء ذلك، نفعاً ليس بالقليل.

ويمكن اجمال القول إن نشاط الأمير تيمور وانجازاته تفيد أنّه كان شخصية فائقة التميز، فيها امتزاج موفق بين موهبة رجل الدولة وحنكة القائد الحربي، والمتذوق للفن المعماري، كما كان راعيا عظيماً للعلوم والثقافة. وقد كان للحكومة المركزية التي أسسها، وبخاصة ادارتها، أكبر الأثر في تنشيط الاقتصاد وتطور التجارة والثقافة وازدهار الحضارة. وإلى جانب ذلك، كان تيمور نموذجاً حقيقياً للاقطاعي والشريف، كما أورد ياكوبفسكي: «وضع نظاماً حربياً بالغ الانضباط والصرامة، وطبع جميع نظم الإدارة، بطابع واضح محدد منضبط». وقد كانت حربه ضد تركيا وآق أوردة، ذات نفع ظاهر للروس، حيث إن هزيمة تختميش وما تلاها، حررت روسيا من قهر آلتين أوردة واستبدادها، وهزيمة السلطان بايازيد يلدريم، حررت شعوب البلقان من الاستبداد.

الامبراطورية التيمورية في عهد كل من شاه روح وأولوغ بك

اقتسم كل من شاه روح وأولوغ بك امبراطورية تيمور بينهما، بعد موت الأمير تيمور، الشخصية السياسية الأساسية في حياة الأمبراطورية. بَيْدَ أن هذه الدولة التي كانت أيام تيمور نفسه موحدة نسبياً، وقوية من الناحيتين الحربية والسياسية، في أول زمانها، وحتى عام ١٤١٠م، أضعفتها الحروب الأهلية الداخلية، بين الإقطاعيين المتنازعين، والخصومات فيما بين العائلات والعشائر. فانتهى بها الأمر إلى قيام خليل سلطان (١٤٠٥ ـ ١٤٠٩م) ابن ميران شاه بالاستيلاء على عرش تيمور العظيم، وانفصل عن الامبراطورية الأم، ايران الغربية وأذربيجان، وأعلنت العائلة التركمانية الكبيرة قاراكيونيل استقلالها. وهنا، وكما أشار مؤلفو «تاريخ ايران»: كانت دولة التيموريين محصورة في آسيا الوسطى، بالأقاليم الايرانية خصوصاً (من نهر سغد رور وجبل بشتار كوخ في الغرب). وفي الحقيقة، تمكن شاه روح، بعد عام ١٤١٠م، إلى حد ما، من تحقيق استقرار الأوضاع الداخلية في البلاد، ولكن حالات التمرد والفوضى استمرت في عدد من الانحاء، هنا وهناك، من جانب الحكام في الاقطاعيات مثل سيد علي وبير علي تاز، وغيرهما، كما سيتضح فيما بعد.

جعل شاه روح، عند توليه، مدينة جيرات عاصمة للدولة التيمورية، وقد صارت في القرن الخامس عشر مركزاً اقتصادياً وسياسيا وثقافيا كبيراً.

وبعد صراع طويل عنيد استمر خلال السنوات من ١٤٠٥ الى ١٤٠٩م، نجح شاه روح في توطيد سلطانه على بلاد ما وراء النهر. وقبيل رحيله الى جيرات، في السادس عشر من شهر شعبان عام ٨١١ هـ (٧ يناير ١٤١٠م)، نصَّب ابنه البكر أولوغ بك، حاكما على ما وراء النهر وتركستان، وأقطع ابن اخته ميرزا محمد جهان جير خيسارى شادمان، وأسند إلى ميرزا ميراك احمد بن عمر شيخ حكم فرغانة خلفاً لأبيه.

ولم تنقضِ ثلاثة أشهر كاملة، بعد تقلد أولوغ بك سلطة الحكم في ما وراء النهر وتركستان، حتى قام ضده الشيخ نور الدين، وميرزا محمد جهان جير. وقد كان تنصيب أولوغ بك شكلياً فقط، حيث إن الشيخ نور الدين كان قد فرغ لتوه من توطيد سلطانه على تركستان، ولهذا لم يعترف برئاسة أولوغ بك له، بل إنه بعث في منتصف شهر ذي الحجة ٨١٣ هـ (١١ أبريل ١٤١١م)، بجيش الى سمرقند. وبالاضافة إلى الخيساريين، وقف الى جانب الشيخ نور الدين آخرون مثل عبد الخالق بن خواري دادا حسين، والأوزبك الرحل من آق أوردة، بزعامة جنكيز أوغلان، الذي كان يخدم لدى تيمور سابقاً. وتقدم أولوغ بك لصدهم ومعه شاه ملك. وقد جرت الموقعة يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة ٨١٣ هـ (١٤ أبريل ١٤١١م) في مكان يقال له قزل رابات، جنوب سمرقند. وقد حاز النصر فيها الشيخ نور الدين. وفر أولوغ بك ناحية كليف، وتوجه شاه مالك، في بادئ الأمر، إلى قارابقه (الهضبة السوداء ـ المترجم)، ثم اختبأ في جبال ألا كاراج، بين سمرقند وشهر سابز. وهكذا، كان الطريق إلى العاصمة مفتوحاً، فتحرك اليها الشيخ نور الدين ومعه جنكيز أوغلان، في حين وجّه الأمير تاغاي بوجي للاستيلاء على بخارى، كما وجه أمير شيخ حسن لاحتلال حصن كير جين، الواقع على ضفة نهر أموداريا، حيث توقع الشيخ نور الدين أن يكون أولوغ بك مختبئاً فيه.

وفي أثناء استجمام الشيخ نور الدين وجنكيز أوغلان، في إحدى حدائق تيمور،

خارج المدينة، وهي باغ دل كوش، في بلدة جيل، بعثا إلى سمرقند بشخص يدعى محمد، يعرض على أهلها تسليم المدينة وحقن الدماء. ولكن القيادات العليا، وكبار رجال الدين، حاج كمال الدين عبد الأول، وشيخ الاسلام خوجه عصام الدين، وقاضي المدينة مولانا صلاح الدين، ومولانا قطب الدين، وميراك دانيشماند، وخوجة فضل الله، وغيرهم، رفضوا عرض الشيخ نور الدين، وأخذوا أمر الدفاع عن المدينة على عاتقهم. ولم تسقط سمرقند، بالرغم من حضور الشيخ نور الدين شخصياً في نهاية شهر ذي الحجة ٨١٣ هـ (٢٦ مارس ١٤١١م)، وتقدُّمِه حتى بوابة شيخ زادة.

ولم يصل نبأ هذه القلاقل الى جيرات إلا في نهاية شهر ابريل، فقصد شاه روح من فوره، في الرابع من شهر المحرم ٨١٣ هـ (٩ مايو ١٤١٠م) الى ما وراء النهر، لاغيا الحملة التي كانت مقررة الى العراق واذربيجان، ضد قارايوسف.

وخلال وقت قصير جداً، سقطت كل بلاد ما وراء النهر، ما عدا سمرقند، وبعض المواقع الحصينة الأخرى، في قبضة الشيخ نور الدين، الذي توجه في حوالي العشرين من شهر مايو ١٤١٠م، الى ترمذ لإخضاعها، واضعاً نصب عينيه هدفين:

الأول: الاستيلاء على هذه المدينة الهامة من الناحيتين العسكرية والسياسية، بالاضافة الى المعابر الواقعة أمام ترمذ وكليف، وطرد أولوغ بك والأمير مزرات منها. أما الثاني: فكان الالتحام، مع جهان جير، القادم إليها من خيسار لقطع الطريق أمام تقدم شاه روح. ثمّ إخضاع سمرقند بعد ذلك. وقد اعتقد، في هذه المرة، أن سمرقند ستنضم اليه كما كان في زمن خليل سلطان، ويصوتون لاختيار الحاكم الأعلى، في صالح من يرشح الشيخ نور الدين، الذي سبق أن وقع اختياره على جهان جير. وبعد أن أرسل كلاً من جنكيز أوغلان وأمير عبد الكريم، لحصار ترمذ، وسلطان بايازيد إلى كليف، توجه الشيخ نور الدين، مصطحباً محمد جهان جير، الى سمرقند، وعند ذلك تمكنا من هزيمة شاه مالك، الذي خرج لصدهما، على مشارف العاصمة. بيد أنّهما، وفي هذه المرة أيضاً، لم يتمكّنا من الاستيلاء على المدينة، حيث أمطر السمرقنديون الغزاة بوابل من السهام، اضطر معها الشيخ نور الدين الى الانسحاب مبتعداً عن أسوار المدينة عام ٨٣٧ هـ (١٤٣٤م).

وبغض النظر عن كل ذلك، فقد استمر الشيخ نور الدين في صراعه ضد أولوغ بك، متحالفاً في هذا السبيل، تارة مع الأمير عبد الخالق، حاكم سيرام ويانجي، وتارة مع المغول أو الأوزبك الرحل من آق أوردة.

وقد تمكن شاه مالك من فسخ التحالف بين معارضي شاه روح. ولم يعد أمام الشيخ نور الدين سوى التصالح مع أولوغ بك وشاه مالك. وقد توجه برجاء الى جنكيز أوغلان، ليلعب دور الوسيط في عقد هذا الصلح. وبناء عليه، توجه الى سورام احد الوجهاء وهو رمضان أوزبك. بيد أن شاه مالك رفض التحدث عن السلام، ورد سفيره من حيث جاء، معلناً أن المحادثات لن تبدأ إلا عند رد تومان آغا، زوجة صاحب القِران[٢٤] الراحل تيمور، وأخيها، وابنها محمد شاه، بمصاحبة الحرس اللائق. وهنا اقترح الشيخ نور الدين على شاه مالك، أن يتلاقيا وجهاً لوجه، على أن يصطحب كل منهما اثنين فقط من جند الحراسة الخاصة. وعلى هذا صار الاتفاق. ومن ثم عمد شاه مالك الى الدهاء والمكر، فاستمال أحد الحارسين المرافقين له، ويدعى خير كاداك، وأغراه بقتل الشيخ نور الدين حال لقائهما.

وعندما التقى المحاربان العنيدان، في المكان المتفق عليه، قرب سورام، وفي أثناء تعانقهما، تقدم خير كاداك، فاتحاً ذراعيه لمعانقة الشيخ نور الدين بدوره، وبذلك سنحت له الفرصة فقام بطعنه بالخنجر في ظهره وأرداه قتيلاً.

ثم تنحى الشيخ حسن، أخو نورالدين، عن الحكم في سورام، لأولوغ بك، في النهاية، واعترف بالسلطة العليا له. وبعد ذلك، ضم أولوغ بك إلى سلطته يانجي وسورام، اللتين كانتا سابقاً خاضعتين لسلطة الأمير عبد الخالق.

وفي إبان ذلك الوقت، فسدت العلاقة بين أولوغ بك وشاه ملك، حيث صار الأخير يتصرف بمنتهى الاستقلالية، دون اعتبار لوضع الحاكم الشاب مطلقاً.

وقد ظهر ذلك جلياً، على سبيل المثال، في أثناء سير المحادثات بين ذلك

---

٢٤ ـ صاحب قران ـ (القران: المبارزة = المصارعة) وكان هذا اللقب الرفيع يطلق على الحكام العظام الذين يخوضون الحروب بأنفسهم، مقاتلين وقائدين لجيوشهم (المترجم).

الوصي[٢٥] وحاكم مغولستان محمد خان، وكذلك بينه وبين الشيخ نور الدين. أجرى شاه مالك هذه المحادثات بصفة شخصية، وباسمه دون اشارة الى أولوغ بك، الحاكم الشرعي في ما وراء النهر، أو الى شاه روح الحاكم الأعلى في امبراطورية التيموريين. وفي السابع عشر من شهر صفر ٨١٤ هـ (١٢ يوليو ١٤١٠م) حل شاه روح في كليف، عابراً نهر أموداريا، وحينئذ سارع أولوغ بك، الذي كان وقتها محاصراً، الى مغادرة الحصن، ونجح في الانضمام إلى معسكر والده. وباطراد تقدم شاه روح، فتخلت قوات السلطان بايزي عن مواقعها، وكذلك فعلت قوات جنكيز أوغلان، وقوات عبد الكريم، وغادرتها في فوضى، متوغلة في عمق ما وراء النهر. وبعث، بعد ذلك، شاه روح بكل من أولوغ بك وأمير مزرات إلى نسف، وأوكل إليهما تعبئة الجماهير هناك للكفاح ضد الشيخ نور الدين. وينبغي القول هنا، إن سلوك ميراك أحمد، الذي عينه شاه روح، منذ عام مضى، حاكماً على فرغانة، لم يكن على مستوى ما طلب منه. فقد أرسل اليه شاه روح، قبيل توجهه الى ما وراء النهر، سفيراً، يكلفه بوضع قوات الجيش في انديجان وأساكا على أهبة الاستعداد، ويكلّفه أيضاً بتقديم المدد، في أقصى سرعة، الى أولوغ بك وشاه مالك، في قتالهما ضد الشيخ نور الدين، إلا أن ميراك احمد تباطأ في بلوغ ما وراء النهر، ولم يتوجه الى سمرقند إلا بعد أن وصلها فعلاً شاه روح نفسه، علاوة على اصطحابه كتيبة صغيرة، فقط، لا يتعدى أفرادها الخمسمائة رجل.

وجرت الموقعة الحربية، بين كل من شاه روح وأولوغ بك وميراك احمد، من جهة، وبين كل من الشيخ نور الدين ومحمد جهان جير وجنكيز أوغلان، وعبد الكريم، من جهة أخرى، في ذلك المكان، حول قزل رايات، في يوم التاسع من شهر ربيع ..... ٨١٤ هـ (١ يوليو ١٤١١م)، وقد تقاتل الجانبان، طوال النهار ببسالة كبيرة، وتحملا خسائر فادحة. وفي نهاية المطاف كان النصر حليف شاه روح. وفر الشيخ نور الدين الى سورام، ومحمد جهان جير الى خيسار شادمان.

وبعد مرور يومين على تلك الموقعة، دخل شاه روح سمرقند، وأقام فيها ما يزيد على الأسبوع، ثم اضطر الى مغادرتها في ٢٤ يوليو ١٤١١م، إثر وصول

٢٥ ـ اشارة الى ان شاه روح عينه لمساعدة ابنه وإرشاده الى السداد (المترجم).

الأنباء المقلقة من فارس، عن نشوب الحرب بين إبني عمر شيخ: ميرزا اسكندر ورستمان، نتيجة خلافهما حول أصفهان وشيراز. وقبيل مغادرته ما وراء النهر، بعث شاه روح كلاً من شاه مالك، في إثر الشيخ نور الدين وحلفائه المنسحبين إلى أترار، والأمير مزرات، الى خيسار لمناوءة محمد جهان جير.

وأسفرت الأمور عن اعتراف محمد جهان جير بالسلطة العليا لشاه روح، وصار فيما بعد، عام ٨١٥ هـ (١٤١٢م) زوجاً لابنته، واستمر أولوغ بك في حكم خيسار شادمان حتى وفاته دون أن يكف عن محاولة إبعاد ذلك الأمير، المعتد بقوته، والمحب للسلطة، وصنيعة شاه روح، بكل ما لهذه الكلمة من معني، عن القصر السمرقندي. وقد قرر أولوغ بك أن يزاول سلطاته باستقلالية، دون الاعتماد على أحد أو مشاركة أي كان.

وانتهز فرصة جفاء وجهاء سمرقند لشاه مالك، خصوصاً بعدما أظهر عدم احترامه لهم، عندما كان الشيخ نور الدين، على أبواب العاصمة. وتأكدت نزعته الاستبدادية، ومن ثم أمطر والده بوابل من الشكاوى في صدد هذا المستحوذ، طالباً منه تنحيته. ولكي يتخلص شاه روح من عداوة أهل الشيخ نور الدين المقتول، وتهدئة حفيظة أمراء ما وراء النهر، الرافضين لسلطة شاه مالك، خصوصاً ابنه أولوغ بك، فإنه قبيل سفره الى سمرقند، أحال شاه مالك الى التقاعد، واصطحبه معه الى خراسان. وقد وصلت في أثره الى جيرات، تومان آغا حيث انعم عليها شاه روح وقضت فيها بقية حياتها.

وهكذا، ومنذ العام ٨١٤ هـ (١٤١١م)، تحرر أولوغ بك من وصاية شاه مالك، وحكم، باستقلالية، ما وراء النهر. إلا أن رأس الأمبراطورية، شاه روح ظل كما كان، حيث كان يجري الدعاء له على المنابر، وتصك النقود باسمه، في جميع انحاء المملكة الشاسعة، ومن بينها ما وراء النهر وتركستان. وتسري، في الأدب التاريخي، قناعة بأن أولوغ بك كان حاكماً متفرداً بالسلطة كاملة، وأنه في جميع تصرفاته كان مستقلاً عن القيادة الجيراتية ولا يعتمد عليها. إلا أنه، ورغم محاولات أولوغ بك وطموحه في الاستقلال بالحكم والاعتماد على نفسه، وهذه أمور ليست محل شك،

فإن شاه روح لم يحُلْ بينه وبين تحقيق مطمعه، فعهد اليه، على الدوام، بمراقبة الحدود الشمالية للامبراطورية، إضافة الى التزامه بمتابعة إرسال الامدادت الحربية الى والده، وتوطيد مؤسسته العسكرية. وقد صاغ أولوغ بك أفعاله طبقاً لإرادة أبيه، وقدم اليه الحساب، سواء في لقاءاته الشخصية أو في مكاتباته اليه، وعملياً، لم يقطع أمراً دون الرجوع اليه. وكانت هذه سمة مميزة في سياسة شاه روح، الذكي الحريص، الذي لم يشأ أحدٌ من أولاده أو أقربائه، أو أهل ثقته وأوليائه ان يجاوز الحد في التفرد بالسلطة، او الاستقلال بالحكم.

وفي ربيع عام ٨١٧ هـ (١٤١٤م) ارتحل شاه روح ، على رأس جيش كبير إلى أذربيجان لمناوءة قارايوسف، مرسلاً الى أولوغ بك من مازندران، أمراً بأن يسهر على مراقبة الحدود الشمالية للامبراطورية. وفي العام ٨٢٠ هـ (١٤١٧م) أرسل شاه روح قوات محاربة بقيادة كل من محمد جوكي والسلطان عويس، لدعم أولوغ بك ومؤازرته.

وفي العام ٨٤٢ هـ (١٤٣٩م)، رحل محمد جوكي، على رأس قوات كبيرة، الى ما وراء النهر، وعين ألايكا قوقلداش في رئاسة جيوش التيموريين، المرابطة في ميرف. وقد نشطت، خلال هذه السنوات بالذات، تحركات الاوزبك الرحل، والمغول، على حدود الامبراطورية، ووقع على كاهل أولوغ بك مسؤولية صعبة وجسيمة، هي الحفاظ على سلامة الحدود الشمالية، والتصدي لغارات الأوزبك الرحل والمغول، على بلاد ما وراء النهر. وقد أسهم أولوغ بك، معنوياً ومادياً، في دعم مؤسسات شاه روح. ففي العام ٨١٥ هـ (١٤١٣م) شاركت قوات محاربة، من بلاد ما وراء النهر، بلغ تعدادها خمسة آلاف مقاتل، بإمرة الأمير موسى أكا، في عمليات شاه روح، للدفاع عن خوارزم ضد الاوزبك الرحل، وكذلك في إبان حملة شاه روح ضد مرزا اسكندر المنشق، وضد التركمان في عام ٨١٦ هـ (١٤١٣م)، أرسل أولوغ بك، من وراء النهر، فيلة وقوات محاربة، مارست فعاليتها هناك في آقا بخادر. كما شاركت قوات ما وراء النهر في الاستيلاء على بادخشان عام ٨٢٠ هـ (١٤١٧م)، ودعمت حملة شاه روح الثانية مع العراق وأذربيجان، ضد قارايوسف التركماني، في العام ٨٢٢ هـ (١٤١٩م)، حيث ضم الجيش حينئذٍ، أكثر من ألف مقاتل في ما وراء النهر.

وقد خلَّف تيمور ميراثاً طائلاً لذريته، ونجح شاه روح، بمجهود هائل، في الاحتفاظ بزمام الأمور في يديه. ولكنه قضى سنوات حكمه الطويلة، في حملات عسكرية، لم تكن موجهة للتوسع، خلافاً لحملات تيمور، بل للحفاظ على وحدة الامبراطورية وتماسكها. وكان يمكن أن يُرى شاه روح، طيلة هذه السنوات العديدة، في العراق وأذربيجان، حيث قاد قتالاً مريراً ضد تركمان أجوزا قاراكيونل، أو في أفغانستان، محارباً القبائل المتمردة، أو في جنوبي ايران في صراع ضد مرزا اسكندر وبايقاره المنشقيْن، ابني ميران شاه، ومحمد سلطان بن بايسنكور، وغيرهم.

وعلاوة على ذلك، فقد تعززت دولتان بدويتان، نشأتا على الشمال والشمال الغربي للامبراطورية. هما: دولة الأوزبك الرحل، التي تشكلت من بقايا حكام آلتين أوردة، ودولة مغولستان (جيته)، التي ضمّت بين جنباتها القشجر وبيتا آريق (السبعة أنهر)، ووادي إيلاي. وقد شكل بدو الاوزبك، إبان حكم شاه روح وولاية أولوغ بك، قوة حربية و سياسية جادة ومؤثرة. فعلى سبيل المثال، استولوا على جزء من جنوب خوارزم، كان تابعاً في حينها الى تشاغاتاي، وبسطوا سلطانهم حتى ضفاف نهر سرداريا، واضعين بلاد ما وراء النهر، استراباد وجورجيان، تحت رحمة تهديداتهم. أما فيما يخص مغولستان، شأنها شأن آق أوردة، فقد استولى عليها خلال فتنة الحروب الأهلية بين الاقطاعيين، ولكنها ظلت قوية، ومصدراً لتهديد فرغانة وتركستان. وكان التهديد الأهم، بالنسبة للتيموريين، يأتي من الغرب حيث قارايونس التركماني، الذي تنامت قوته عاماً بعد عام، وكذلك من جانب جلال ريد.

على هذا المنوال، كان أولوغ بك ملتزماً، طبقاً لرغبة أبيه الاولى، بأن يواليه، بإرسال ما يلزم من القوات المحاربة. وغني عن البيان، وضع أولوغ بك،من حيث وجوب حصوله على موافقة شاه روح على كل تصرفاته، ويشهد على ذلك سفره الدائم الى خراسان، قبيل اتخاذ أي خطوة جادة. بل كان يحدث، أحياناً، أن يتشاور مع والده في احتمالات وقوع الأحداث، ثم يتناقش معه فيها بعد وقوعها. ومثال

ذلك، ما حدث خلال الحملة على أذربيجان وأساكا، ضد ميراك أحمد، الذي سيأتي ذكره.

وكان تجاوز الابن، وانفراده باتخاذ القرارات، يقودان في العادة إلى مشاكل كثيرة قد يدفع أولوغ بك ثمنها غالياً. فمثلاً، إبان الحملة التي فشلت ضد بوراك خان، الحاكم الاوزبكي، عام ٨٣٠ هـ، كان أولوغ بك على قاب قوسين أو أدنى من العزل عن حكم ما وراء النهر وتركستان، وعاقبه والده بصرامة، وعنَّفه كذلك على سوء معاملته ليونس هانم، التي فرت في العام ٨٣٨ هـ (١٤٣٥م) من مغولستان بسبب تنكيل الاقطاعيين آنذاك.

وهذا يدل بجلاء، على مدى تبعية الحكام الطائفيين، وولائهم ومن ضمنهم أولوغ بك، لرأس الدولة، شاه روح. وقد تفسر نزعات أولوغ بك الاستقلالية، على ما يبدو، بمحاولة التميز، لدى والده، واستعراض مقدرته امام اخوته بايسنكور ومحمد جوكي والآخرين، إضافة الى أنه كان يحاول التشبه بعض الشيء، بجده العظيم، تيموربك.

وبالنسبة للسياسة الداخلية للأمبراطورية التيمورية، احتفظ شاه روح بالنظام الذي كان سائداً في عهد تيمور. وقد وزع شاه روح البلاد، طبقاً لنظام الولايات الاقطاعية، في صورة تقسيمات مستقلة، اقتطعها أبناؤه وأقرباؤه، بالاضافة الى وجود نظام تارخات، أيضاً، وأدار دفة الحكم في الأمبراطورية، بمساعدتهم. فعلى سبيل المثال: في عام ٨١٢ هـ (١٤١٠م)، قلد حكم ولاية أوزجنت (خاصة فرغانة)، ميراك أحمد بن عمر شيخ، وولى على خيسار شادمان، محمد جهان جير بن محمد سلطان، وأسند السلطة على أملاك محمود غزنوي، أقاليم كندهار وقابول وغزني وغيرها حتى نهر السند إلى الأمير قائد بن بير محمد، وجعل حكم بلخ وثوخار ستان، وحتى باد خشان، لابنه ابراهيم سلطان، وكما سبق القول، ولى ابنه الأكبر مرزا أولوغ بك، على بلاد ما وراء النهر وتركستان. وكانت أكبر الاقطاعيات بجانب ما وراء النهر، خراسان، ومازاندران، والتي ضمت بين جنباتها توس ومشهد وسمنان ودمجان وخابوشان، وأبيڤرد، وهذه نصّب عليها، في عام ٨١٧ هـ

(١٤١٤م)، ابنه بايسنكور، وأسندت حكومة أملاك هولاكوخان، وهي غرب ايران والعراق، الى السلطان محمد بن بايسنكور.

وهنا تجدر الاشارة الى ان شاه روح لم يكن على ثقة كاملة بولاته، دون استثناء أولاده وأحفاده، لذلك أوفد إلى كل منهم شخصيات يثق فيها وذات ولاء مطلق له. فمثلاً، عين لدى الأمير عبد الله بن ابراهيم سلطان، حاكم فارس، الشيخ أبو الخير، وعين لدى ميراك احمد، حاكم فرغانة، الأمير مزرات. وموسى أكا، ولدى قائد شمس الدين، عين أوتشكارا ويوقال بارلاس، ولدى أولوغ بك، عين شاه مالك، وبعد عزله في عام ١٨٣، عين ناصر الدين خوافي (شقيق الوزير بير احمد خوافي). وكما ذكر بلنسكي، كان رجال السلطة هؤلاء مسؤولين مباشرة أمام جيرات. وكذلك كان الاستقلال المادي، بعيداً عن المنال، إذ كان يتعين إرسال جزء من المدخول على شكل ضرائب سنوية الى خزينة الدولة المركزية. وكانت أي محاولة صغيرة تنم عن عدم الطاعة، تجر وراءها عواقب وخيمة، يتعرض فيها الامراء لعقوبة قد تصل الى حد العزل من حكم الاقطاعية، مثل ما حدث للأمير اسكندر، إذ حرم من ولاية سلطة الحكم على أصفهان وهمدان ولورستان وفارس، من جراء تمرده على السلطة المركزية عام ٨١٧ هـ (١٤١٥م). وقسمت الولاية، مع اقطاعيته هذه، بين أمير زاده روستام وبين ابراهيم سلطان. وبعد مضي عام، عزل بايقاره من حكم أولوس (قم وكاشان وري وستمدار وحتى حدود جيلانة)، وأسند منصبه إلى الياس خوجه. وكذلك، نظير انفراده بالقرار في عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٧م)، كان أولوغ بك على وشك العزل من ولايته.

وعلى هذا المنوال، ساد الأخذ بنظام الحيازات المستقلة، في صورة ولايات اقطاعية، في عهد شاه روح. وكان حكام الاقطاعيات الولاتية، ومن ضمنهم أولوغ بك، أتباعاً موالين، وإن كانت لهم قصورهم الخاصة وخزائنهم وجيوشهم وأجهزتهم الحكومية.

وتشير المصادر، الى ان نظام حيازة الأراضي وتملكها وإدارتها، وخصوصاً الزراعية منها، في تلك العهود كان سارياً من خلال عدة صيغ: فإلى جانب الأراضي

المقطعة بالولاية، كانت هناك حالات أخرى مثل: ملكي سلطاني، وملكي خاص، والأملاك الموقوفة، والملكية العامة. وكانت الأراضي من نوعية «سلطاني» حكومية، «وخاص» ملك الأفراد الملاك، «وأراضي الوقف، وغيرها من المشروعات المدرّة للدخول، تابعة لدور العبادة والمدارس والمزارات ودور الدراويش (خاناكا) «والعامة»، مسخرة لخدمة عموم المواطنين، وكان استغلالها جماعياً.

وهناك كثير من الدلائل، في مصادر المراجع، عن وجود الرقيق، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في ما وراء النهر، وعن وضع الأرقاء في المجتمع. وقد كان العبيد يسخرون لاداء الأعمال الشاقة، ويباعون ويشترون، ويوهبون ضمن الوقف هم وأسرهم.

وتخلو المصادر، تقريباً، من الاشارة الى وضع الطبقة العاملة والفلاحين العاملين في الاراضي الحكومية أو الخاصة أو الموقوفة، وكذلك فقراء المدن، ولكن، يمكن التكهن في ظل ما فرض عليهم من ضرائب ورسوم عدّة (مال أو خراج وتوجهات وأواريزات وتمغة وساري شومار وزيتاته وبيجار وغيرها) بأن حياتهم لم تكن رغيدة. وقد تطلبت الحروب المستمرة، والدفاع عن البلاد المترامية، ضد غارات تركمان قاراكيونل والأوزبك الرحل والمغول، بالاضافة الى التشييد المعماري الضخم في جيرات وسمرقند وفي عدد من المدائن الأخرى، في ما وراء النهر، وخراسان في عهدي شاه روح وأولوغ بك، كل ذلك تطلب قدراً هائلاً من الثروات التي جمعت، في معظمها، من رعايا هذه الامبراطورية، بصورة أو بأخرى. ولهذا يغلب الظن، بأنه في ظل تلك النظم، تدنّى حدّ إيراد الأراضي إلى قيمة زهيدة، كما يذكر ب. ب. بارتولد، استخراجاً من «تذكرة» دولت شاه السمرقندي. وتقابلنا دلائل أخرى عن القيمة المنخفضة لإيراد الأطيان الزراعية، حيث وصل خراج الجريب (٠,٤ هكتار) من الاراضي الى «تنجة» واحدة فضة . ويرجح أن أثر ذلك كله كان ظاهرة موقتة، وأن مثل هذه الرسوم شرعت، فقط، في سنوات صراع شاه روح وأولوغ بك ضد المعارضين، ولدعم المؤسسات العسكرية الضخمة.

وقد كانت هذه الضرائب الكثيرة، كمّاً ونوعاً، أحد عوامل سخط الجماهير،

بالاضافة الى حدوث هزيمة أولوغ بك، أمام الأوزبك الرحّل، وفشل صراع شاه روح ضد قاراكيونل. وقد أولى أولوغ بك أهمية كبيرة لفرض رسم التمغة وتحصيله من التجار والحرفيين، ولهذا لا يُتصور أن أحداً من أولئك قد أقدم على إلغاء مثل هذه الضرائب، بحيث إنها بأنواعها المختلفة، شكلت جزءاً رئيساً من دخل الدولة في ذلك الزمن. ولا يوجد في المصادر ما يشير الى إعلان السخط من جانب الشعب، لكن هناك دلائل فردية: فخلال فترة حكم شاه روح، حدث تمرد جديد للساريدارلر في عام ١٤٠٥م، في خراسان، وكذلك حركة متطرفي الشيعة الامامية، والتمرد الشعبي في خوزستان (١٤٤١م).

وقد قدّم شاه روح، وكذلك أولوغ بك، الكثير لتطور الثقافة والحضارة. وصارت جيرات وتبريز وشهرسابز وسمرقند وبخارى وغجدوان، مراكز رئيسية للحضارة والثقافة، وفي هذا الوقت، ازدهر الشعر (شاه قاسم أنور، وبساطي السمرقندي، وخوجة عصمة الله البخاري، ويروندق البخاري، ومولانا باداخش، وخيالي البخاري، وبابا سورة أبي وردة). كما تقدمت العلوم (الشيخ أزاري ويحيى سيباك النيسابوري وسيمي النيسابوري وحافظي أبرو وعبد الرزاق السمرقندي وغيرهم). وكان بايسنكور بن شاه روح حاميا وراعياً للفنون والآداب والعلوم، وقد جمع فريقاً كبيراً من الخطاطين الموهوبين، وفناني تغليف الكتب وإخراجها، ومجلدي المخطوطات، وغيرهم.

وقد أولى الحكام التيموريون، وحاشيتهم المقربون، الإنشاءات المدنية المعمارية اهتماماً كبيراً. ففي إبان عهدي شاه روح وأولوغ بك، شيد إلى جانب دور العبادة، كثير من المنشآت المدنية: رابات وساردابات (لحفظ المياه) وطرق وقناطر وجسور وحمامات، وغيرها الكثير. ولقد أقيم المسجد الجامع، على مستوى فني عالٍ، وبنفقة جوهر شاه بجوم، في مشهد، وكذلك المصلى في جيرات، ومسجد وضريح جاز ددجاه، وغيرها كثير.

وأفرد الابن الاكبر لشاه روح، ميرزا أولوغ بك، اهتماماً كبيراً لتطور العلوم والثقافة وازدهارها. ففي عهده صارت سمرقند وبخارى مركزين لجذب العلماء

والشعراء والخطاطين والنساخ والفنانين والمعماريين ومهرة الصناع والحرفيين. وصار المركز الفلكي، الذي أقامه أولوغ بك، أكاديمية حقيقية في عصرها، وكان انشاؤه خلال الأعوام من ١٤٢٤ إلى ١٤٢٩م، وأصبح مركزاً لتطور العلوم البحتة والرياضيات والفلك. وقد واكب ذلك نهضة كبيرة في علوم الدين والطب واللغة والتاريخ والآداب. وتجدر الاشارة، على وجه الخصوص، الى انجازات أولوغ بك المعمارية، حيث شيد، محاكياً جده العظيم، مساجد رائعة، ومدارس مجهزة، وقصوراً فارهة، بالإضافة الى كرافان سراي، وحمامات لا عدّ لها، في سمرقند وشهر سابز وبخارى، ومدن أخرى في ما وراء النهر.

وقد بقيت تشكيلات الحكومة، وتنظيم المؤسسات القيادية، في الدولة التيمورية، خلال عهدي شاه روح وأولوغ بك، كما هي دون تغيير. وتقابلنا في المراجع التاريخية، التسميات والألقاب والوظائف نفسها، للعاملين في الحكومة، والتي كانت متداولة إبان حكم تيمور، اتشكي ـ اتشك أغا باشا ـ أوتاليك ـ صاحب ديوان ـ صدر ـ تقادجي، كما يطالعنا مصطلح تومان، الأمر الذي يدل على تقسيم البلاد إلى مناطق إدارية، أو دوائر سلطة (تومانات)، كما كان يحدث على عهد المغول وعهد تيمور. وكذلك بقي الهيكل التنظيمي للجيش كما هو: تومانات ـ آلاف ـ مئات ـ عشرات.

واستمرت العلاقات التجارية والاقتصادية وتبادل السفراء (الدبلوماسية)، بين حكومة التيموريين وبلاد: مصر والصين والهند ومغولستان، وعدد من بلدان أوروبا، في عهدي شاه روح وأولوغ بك، ومن بعدهما. ويوجد في مراجع التاريخ: حافظي أبرو وفصيح احمد خوافي وعبد الرزاق السمرقندي، عدد من الآثار الدالة على ذلك. وقد توطدت هذه العلاقات جيداً، مع كل من الصين والهند، على وجه الخصوص، كما توثقت عرى حسن الجوار مع كثير من البلدان الأخرى.

و كان هذا توجهاً مقصوداً، فمثلاً، سفارة عبد الرزاق السمرقندي الى الهند عام ١٤٤١م، وتبادل السفراء مع الصين بين عامي ١٤١٢ ـ ١٤١٣م وأيضاً بين العامين ١٤١٩ ـ ١٤٢٢م.

وللأسف، فقد تبدلت تلك العلاقات السلمية، مع مرور الوقت، الى حالة من الحرب. وكان ذلك سمة العلاقات التي أرساها كل من شاه.روح وأولوغ بك بعده، مع تركماني قاراكيونل، وجلال إيرية، والأوزبك الرحل، والمغول.

وكان من المحتم على شاه روح وأولوغ بك، وعلى الأقل حتى عام ٨٣٢ هـ (١٣٢٩م). أن يخوضا صراعاً دؤوباً طويلاً مع تركمانيي قاراكيونل، والأفغان، والأوزبك الرحل من آق أوردة (صاروا يسمون بدءاً من سبعينات وثمانينات القرن الرابع عشر، بـ أولوس أو اقطاعيات، وأحياناً ولايات الأوزبك).

وكان هذا الصراع يدار الى حد، بنجاح، وظل هدفه الرئيسي صد الغارات الجسورة التي كان يقوم بها الأوزبك الرحل على خراسان وما وراء النهر. واضافة الى ذلك، فقد وضع كل من الفريقين، نصب عينيه، هدفاً آخر، ألا وهو بسط سيطرته على الآخر، خصوصاً السيطرة السياسية. وانطلاقاً من هذا، فقد عضد كل من شاه روح وأولوغ بك، كما عضد الأوزبك الرحل، حالات التمرد والحروب الأهلية والقلاقل والصراعات بين المعارضين أو المتنازعين على السلطة، كل في حيازات منافسه. ولقد كان توجه شاه روح وأولوغ بك في هذا الصدد، أكبر منه لدى منافسيهما.

وقد شغلت العلاقات السياسية المشتركة، لبلاد ما وراء النهر مع مغولستان والاوزبكية، مكاناً هاماً في الحياة الاجتماعية والسياسية للدولة التيمورية، خلال القرن الخامس عشر.

بدأت الفتن والحروب الأهلية، في مغولستان، مباشرة، بعد موت خضر خوجة في العام ١٣٩٩م. ويورد مرزا محمد حيدر، الذي تعتبر كتاباته المرجع الوحيد للتاريخ المغولستاني خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، معلومات قيمة عن الوضع السياسي الداخلي لهذه البلاد. لم يتمكن محمد خالد بن خضر خوجة، من القضاء على تمرد الاقطاعيين، حتى لقي حتفه في نهاية المطاف. ثم قرر شاه روح وابنه، اللذان راقبا الأحداث بيقظة، فرض سلطانهما على قشجر، حيث تولى

الأمر بعد موت الأمير سعيد علي، حفيد خوداي داده العظيم، من قبيلة دوجلات. وكان اخضاع قشجر ضرورياً لأولوغ بك، بسبب رفض ميراك احمد الحاكم الاقليمي على فرغانة، الاعتراف بسلطته، علاوة على مجاهرته بالعصيان، وساعده في ذلك سعيد علي والمغول، بكل أنواع الدعم. وفي عام ٨١٧ هـ (١٤١٥م) حاول أولوغ بك، تحت شعار «عقد الاجتماعات الهامة»، ومن خلاله، حاول عزل ميراك احمد، ولكن لم يتم له ذلك. وعندما وجه اولوغ بك قواته الى انديجان، هرب ميراك أحمد مخلِّفاً الحاميات الضرورية في المدن الحصينة: فرغانة وأساكا وأنديجان وأوزخيند، ومضى الى وادي آلاي، ثم واصل فراره إلى قشجر، حيث المغول الذين قابلوه بحفاوة، ثم إن سعيد علي سار معه ضد أولوغ بك. وهكذا، وبعد فرار ميراك أحمد، استولى على فرغانة، وأخضعت كذلك أساكا وأنديجان، دون قتال وولّى عليهما الأميرين محمد تايان وموسى أكا. ثم عاد أولوغ بك الى سمرقند. بيد أنه لم يتسنَّ له الاحتفاظ بفرغانة، حيث استغل ميراك احمد وسعيد علي، غيابه عنها، فهاجما الحاميات التيمورية بالقرب من أذربيجان، وقُتل الأميران المذكوران في تلك الموقعة. ونهب المغول، وقت ذاك، فرغانة، ورحلوا إلى مغولستان، وبرفقتهم ميراك احمد، إلى قشجر.

وتحيَّن أولوغ بك، الظرف المؤاتي لكي ينتقم من المغول وميراك أحمد، ويعزز سلطانه على فرغانة، ويسيطر كذلك على قشجر نفسها. وقد تحقق له مراده في عام ٨١٨ هـ (١٤١٥م)، وبعد وفاة محمد خان، أرسل أولوغ بك الى هناك جيشاً بقيادة الأمراء صديق وعلي تكريت وعلي طاغا، فتم له اخضاع البلاد. وقد أسدى الأمير خوداي داده مساعدة قيمة لأولوغ بك، مكنته من احتلال قشجر. أما ميراك احمد، فقد استدعاه شاه روح الى جيرات، ثم توجه ليقضي بقية حياته في مكة المكرمة، منفياً، حيث لم يرجع من هناك ثانية. وهكذا كان مصير الحكام المنشقين الذين تمردوا على السلطة المركزية التيمورية. ولكن كيف تلقى شاه روح حملة أولوغ بك على قشجر؟ لقد كانت قشجر ذات نفع لشاه روح الذي ظل خلال تلك السنوات يخوض صراعاً ضد اسكندر، شقيق ميراك احمد، الذي قاد تمرداً في فارس، علاوة على تزايد تقرب بهاء الدين، حاكم بادخشان، إلى المغول، الأمر الذي هدد

الأمن التيموري. فلو أخذ أولوغ في الاعتبار ذلك كله، فإنه يمكن توقع مباركة شاه روح للحملة تلك. ويروي عبد الرزاق السمرقندي عن وصف ذلك الاستقبال الرائع الرسمي لأولوغ بك، على مشارف جيرات حينما عاد اليها مباشرة بعد قهر قشجر وإخضاعها، وتلك الاحتفالات الضخمة، التي أقيمت على شرفه واستمرت أياماً، وعن خطب المديح التي ألقاها شاه روح في حقه.

وخلال سنوات حكم ناقش جاهان، حفيد خضر خوجه التي استمرت من عام ١٤١٥ الى عام ١٤١٨م، قامت الى حدٍ ما، علاقات حسن جوار بين ما وراء النهر ومغولستان. وقد تعهد المغول، حينها، بعدم تقديم المساعدات الى البادخشانيين ضد شاه روح أو أولوغ بك ابنه، وعليه رجع شاه بهاء الدين بدون أن يكفل لنفسه تأييد ناقش جاهان، الذي ذهب الى مغولستان خصيصاً لهذا الغرض.

وفي شهر صفر ٨٢١ هـ، بدأت الحرب على السلطة بين ناقش جاهان وواعظ خان حفيدي خضر خوجة، وأدت إلى هزيمة جاهان وقواته. ثم انتقلت السلطة على مغولستان إلى يدي واعظ خان. ووصلت أنباء ذلك الى سمرقند في شهر ربيع الأول ٨٢١ هـ (آبريل ١٤١٨م). وقد أبلغ ذلك الى أولوغ بك صديقه نجاد، حاكم قشجر، فقام لتوّه باطلاق سراح جميع المغول، الذين سبق أن سجنهم في سمرقند منذ عام ١٤١٦م، وحينذاك نال سعيد علي حريته أيضاً بعد قضاء هذه السنوات رهن الاعتقال في سجن علية القوم، في سمرقند. ولا يمكن فهم تصرف أولوغ بك هذا، إلا على اساس أنه محاولة للتدخل في إذكاء حدة الخلافات الداخلية، في مغولستان، وتعضيد واحدة من الفرق الاقطاعية المتضاربة فيما بينها، ضد الأخرى. وفعلاً، ازدادت نار الحرب الأهلية بين حكام الاقطاعات اشتعالاً نتيجة لذلك. وفي نهاية شهر رجب ٨٢٢ هـ (يوليو - أغسطس ١٤١٩م)، رفع الأمير الدوجلاتي خوداي داده ومؤيدوه راية العصيان ضد واعظ خان. إن تحرُّك أولوغ بك على رأس جيش عظيم العدد، برفقة الأمير أرسلان خوجة طرخان أويا دجار، ومحمد طرخان، في نهاية شهر شعبان ٨٢٢ هـ (سبتمبر ١٤١٩م)، وبعد أقل من شهر من تمرد خوداي داده، لهو دليل على أن الميرزا نفسه، ودون سواه، قد خطط لهذه العملية.

بيد أن هذه الحملة، وعلى أي حال، لم تبلغ نهايتها. ورجع أولوغ بك الى

سمرقند ثانية، من طشقند، وواصل الجيش مسيرته الى قشجر بقيادة محمد طرخان. وكما توضح المصادر عامة، فإن السبب في هذا التعديل يرجع الى الشروع في القيام بالحملة الكبرى التي وجهها شاه روح الى العراق وأذربيجان، اضافة الى الاضطرابات التي حدثت في قشجر، وما ترتب على ذلك من صدور تعليمات مركزية بارسال الامدادات اللازمة، ومن ثم كان أولوغ بك مضطراً إلى تلبية أوامر والده، إلى جانب مساعدته لشاه مالك، في صراعه ضد الأوزبك الرحل، الذين توالت غاراتهم، بانتظام، على خوارزم من جهاتها الشمالية.

لكن هذه الحملة ألغيت بناء على تعليمات شاه روح، اضافة الى أن واعظ خان قد وفق، فيما يبدو، في عقد اتفاق سلام مع أولوغ بك.

وقد احتفظ واعظ خان بالحكم حتى عام ٨٢٨ هـ (١٤٢١م)، واستمر أولوغ بك، بدوره، في تأييد معارضيه. وفي نهاية جمادى الاولى ٨٢٤ هـ (مايو ١٤٢١م)، وصل الى سمرقند جاهان شاه أحد كبار الأمراء الدغلانيين، طالباً المعونة، فأكرم اولوغ بك وفادته، في الوقت الذي وفد فيه كول محمد ابن خوداي داده الشهير، للغرض نفسه.

وتشير الى العداوة المتأصلة بين أولوغ بك وواعظ خان، حقيقة أنه في منتصف شهر جمادى الآخرة ٨٢٤ هـ (١٨ يونيو ١٤٢١م)، انقض أولوغ بك على مغولستان بجيش جرار، في حين وصلت الى سمرقند، وقبيل تحرك القوات، جورشاد أغا، ذات التأثير النافذ في شؤون الدولة، في السادس من مارس ١٤٢١م، بصحبة محمد جوتشي، وقد غادرتها في منتصف شهر جمادى الأولى ٨٢٤ هـ (مايو ١٤٢١م)، محملة بهدايا عظيمة شغلت قافلة كاملة. ويرجح أن أولوغ بك اتفق معها على حملته تلك. وعندما بلغ أولوغ بك في مسيرته قارابولاق، دفع الى الامام بكتيبة استطلاع برئاسة الأمراء اسكندر وخاري مالك وبايزيد، في حين رابطت بقية القوات حتى نهاية الشهر في قارابولاق. وفي أواخر أيام شهر رجب ٨٢٤ هـ (يوليو ١٤٢١م)، وفد على أولوغ بك، في قارابولاق، سفراء شير محمد وعلى رأسهم كل من مالك اسلام وصدر الاسلام، في دعوةٍ لعقد الصلح. ولا تورد المراجع ما تم في هذا

الصدد، والمعروف أن أولوغ بك ألغى، حينئذ، الحملة التي سبق ان تقرر القيام بها، وقفل راجعاً الى سمرقند. بيد أنه لم يصدق السفراء، وبينهم مالك اسلام وصدر الاسلام، وأمر بترحيلهم معه الى سمرقند، ولم يسمح لهم بالعودة إلا في الثالث عشر من شهر ذي الحجة ٨٢٤ هـ (١٠ ديسمبر ١٤٢١م).عن طريق قشجر. ويتضح كما ذكر ب. ب. بارتولد، أن الحرب الأهلية في مغولستان، قد انتهت لصالح واعظ خان، وقدر له النجاح بالاستيلاء على الحكم فيها.

ويورد المؤرخان محمد حيدر ومحمود بن والي معلومات هامة عن كيفية سير الصراع، في وقتها، بين شير محمد وواعظ خان، على السلطة العليا في حكومة مغولستان. ومنها يتضح أن واعظ خان قد حظي بتأييد رؤساء القبائل، ومن بينهم خوداي داده وسعيد علي، الذي سبق ان هرب من الأسر في سمرقند، حيث كان قد حضر اليها بصحبة كول محمد بن خوداي داده، وتم احتجازهما لأكثر من أربعة أشهر، كأسرى شرف. وأطلق أولوغ بك سراح شير محمد، في السادس عشر من شهر ذي الحجة ٨٢٤ هـ (١٣ ديسمبر ١٤٢١م)، مشيراً عليه بالعودة من طريق قشجر. وكما أوضح توالي الاحداث، فقد ساند أولوغ بك شير محمد في صراعه ضد واعظ خان، وعهد إلى حاكم انديجان الاقليمي، الأمير أبي الليث، وبيرعلي تكريت، أن يقدّما الى حاكم قشجر المساعدة العسكرية اللازمة. وقد استمرت هذه الصراعات طوال أربعة أشهر، وانتهت بانتصار واعظ خان وجبهته. وفي بداية شهر جمادى الاولى ٨٢٥ هـ (٢٣ أبريل ١٤٢٢م)، اعتلى شير محمد، من جديد، عرش مغولستان.

وهكذا، حقق أولوغ بك ما خطط له منذ عام ٨١٩ هـ (١٤١٦م)، بأن يُجلِس على عرش مغولستان أحد صنائعه. بيد أن شير محمد أدار ظهره لولي نعمته، وابى أن يعترف بسلطان أولوغ بك عليه، بل صار يتدخل في الشؤون الداخلية للامبراطورية التيمورية، خصوصاً في قشجر، كما تدل على ذلك حادثة لجوء ابن علي تكريت، حاكم قشجر الاقليمي، إلى مغولستان في العام ٨٢٧ هـ (١٤٢٤م)، ورفض شير محمد طلب أولوغ بك بتسليمه. وكان ذلك سبباً جديداً لاعلان أولوغ بك الحرب على مغولستان. وتقرر القيام بالحملة في الأيام الأولى من شهر ذي الحجة ٨٢٧ هـ (٢٦

اكتوبر ١٤٢٣م). فوصل في منتصف الشهر الى شاه روح. وأصدر أوامره بتجميع قوات الجيش من جميع الأقاليم، والمرابطة خلال فصل الشتاء. فقضى الجناح الأيمن من الجيش، برئاسة خاري مالك، والشيخ أبي سعيد، فصل الشتاء في ضواحي أنديجان؛ والجناح الأيسر، بقيادة السلطان عويس بارلاس، وخوجه يوسف وتوكل بارلاس، في كراسامان، بالقرب من أترار، والقلب بإمرة أولوغ بك، في شاه روح.

وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول ٨٢٨ هـ (١١ فبراير ١٤٢٥م)، هاجم أولوغ بك مغولستان. ونجح في هزيمة قوات المغول التي كانت برئاسة الأمير ابن ابراهيم وجاهان شاه، في آشيا - وآق سو. واستمرت الحملة من شهر شعبان ٨٢٨ هـ (يونيو ١٤٢٥م)، وانتهت بالانتصار التام لأولوغ بك، الذي وصل حينذاك الى موقع يولدز، وفيها شير محمد، فنهبها أولوغ بك وعاد منها بغنائم كثيرة، يذكر عنها مؤلفو القرن السادس عشر، مثل عبد الرزاق السمرقندي وعبد الله بن محمد ابن علي نصر الله، أنه كان من بينها «حجران أخضران كبيران من النفريت، نقلهما أولوغ بك الى سمرقند بعربات خاصة صنعت لهذا الغرض بالذات». وتؤكد بعض المعلومات أنها كانت ثلاثة أحجار، سبق أن نقل تيمور واحداً منها.

وعاد أولوغ بك الى سمرقند، سالكاً طريق ذهابه نفسه الى مغولستان، وعند عبوره مدينة ألان أوتا، بين حصن سايبوري وديزاك، أمر بنقش العبارة التالية على الحجر: «من افضال السلطان الأعلى العظيم، قيصر القياصرة، ظل الله في الأرض، رافع لواء الاسلام، وحامي الدين، معين الدين أولوغ بك كوراجان، أدام الله حكمه. وقد عبر من خلال هذا المكان، في أثناء مسيرة حملة على بلاد جيته والمغول، في العام ٨٢٨ هجرية».

وكان ذلك أول وآخر انتصار لأولوغ بك. وكما سيتضح فيما بعد، فإن صراعه ضد الأوزبك الرحل، انتهى نهاية غير موفقة.

وفيما يتعلق بمغولستان، وبصرف النظر عن توالي الفتن والاضطرابات خلال عهد واعظ خان (١٤٢٤ - ١٤٢٨م)، الحاكم الثاني، والفتن والبلبلة الناجمة عن اقتحام الكاليك في ليبتاساي (السبع أنهر) في مستهل القرن الخامس عشر، فإن

الدولة تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها. وخلال عهد عيسى يوغاخان (١٤٢٧ ـ ١٤٦٢م). خليفة واعظ خان، استعاد المغول، بزعامة الأمير سيد علي، قشجر ثانية من التيموريين. وعلاوة على ذلك فقد شنوا كثيراً من الغارات نهبوا فيها فرغانة وقاندي بارام وسيرام.

واتخذت العلاقات الثنائية، بين التيموريين وطوائف الأوزبك الرحّل، خلال عهدي حكم كل من شاه روح وأولوغ بك، أشكالاً راوحت بين التعاون الاقتصادي وغارات السلب والنهب على المناطق الحضرية في ما وراء النهر وجورجان، والتي غالباً، ما استتبعت قيام حروب قمعية راح ضحيتها الكثير من الجانبين. وبالاضافة الى ذلك فقد دأب كل من الجانبين، شاه روح وأولوغ بك من جهة، وبدو الأوزبك من جهة أخرى، على اضعاف الآخر، ولهذا فقد ساند كل فريق، بقدر ما سمحت به امكانياته، الخصومات والصراعات الداخلية على السلطة، في بلاد كلا الجانبين.

وقد احتلت نشاطات الاغارة والسطو على الجيران المستقرين في الحواضر، مكاناً كبيراً في حياة البدو الرحل. وكانت تجري هذه الغارات، أساساً، في الشتاء، موسم النقص الحاد في أعلاف الماشية ومصادر الرعي، وكذلك في المواد التموينية والغذائية لقاطني تلك الأرجاء القاحلة. كما كانت هذه الغارات تحدث بسبب بداوة الحياة واستيفاءً لاحتياجات الرحل من المتطلبات والمواد. وقد توالت هذه الهجمات، بصفة، منتظمة، كل شتاء بالكيفية الرتيبة نفسها، على القاطنين المستقرين.

ويروي عبد الرزاق السمرقندي، حوادث جرت في فترة حكم عبد اللطيف (١٤٤٩ ـ ١٤٥٠م)، مؤداها أن قاطني الصحارى كانوا يجوسون، كل شتاء، خلال ما وراء النهر، حتى مسافة حوالي خمسة فراسخ (٣٥ كيلومتراً تقريباً) من سمرقند وبخارى. وقد أفرغوا تلك المناطق، وسلبوا أملاك السكان، وأخذوهم أسرى. وقد اتخذ عبد اللطيف الاجراءات الكفيلة لصد هذه الغارات ووقفها، وكان من نتيجتها أن الأوزبك الرحل، كفّوا عن الاقتراب من هذه المدن أكثر من مسافة مائة فرسخ. ويبدو أن عبد اللطيف قد نجح في صد هجمات الأوزبك الرحل، داخل مناطق ما وراء النهر، إلا أن هذا النجاح كان مؤقتاً، إذ بعد موته، إستؤنفت من جديد. وإن كانت مدن عديدة

بفضل مناعة أسوارها، قد تمكنت الى حدٍ كبير من حماية نفسها، فإن المواطنين والقرى عانوا باستمرار، من عمليات السلبِ والنهب والاكتساح. ويجب ملاحظة أن عمليات الغزو لم تقتصر على البدو والرحل من طوائف الأوزبك، فقط، إذ قام بها أيضاً حكام المناطق الحضرية المجاورة. وقد اصطبغ كثير من حملات تيمور، بصبغة السطو، وكذلك الحال مع أولوغ بك، وفيما بعد، حملات شايباني خان وعبد الله خان الثاني (١٥٨٣ ـ ١٥٩٨م).

وقبل الانتقال الى استعراض العلاقات المتبادلة بين حكومة التيموريين والأوزبك الرحل، يحسن التوقف، قليلاً، عند وضع الطوائف والجماعات الأوزبكية المرتحلة، في بداية القرن الخامس عشر. فكما هو معروف، أن قوريتشاق اوغلان، أحد أبناء أوروس خان، الذي يلقبه المؤرخون الشرقيون: قائد بلاد الأوزبك، كان خلال سنوات صراع تيمور الحاد مع تختميش، قد وجد مع الجوتشيديين الآخرين، مع تيمور قوتلوغ، على سبيل المثال. وبعد انكسار تختميش، عام ١٣٩٥م، في وادي نهر ترك، فإن تيمور، تبعاً لنظام الدين شامي، وشرف الدين يزدي «لدى وصوله الى مكان اجتياز نهر ايتل (فولغا)، المعروف بمعبر تورا تورا، زوّد قوريتشاق أوغلان بن أوروس خان، الذي كان بصحبة فرقة من شجعان الأوزبك، وهم من ضمن العاملين في القصر العالي، وأفردت له مخصصات تليق بالبادي شاه، من معاطف مطرزة بالذهب، ومناطق ثمينة، وأرسله عبر نهر ايتل، وقلده حكم الخانية على أولوس جوتشي».

غير أنه، وكما أوضحت الأحداث التالية، في قبائل جوتشي (أولوسي)، وعلى وجه الخصوص في آق أوردة، تقلد الحكم جوتشي آخر، كان قد أرسل معه، هو تيمور توغلوغ (١٣٩٥ ـ ١٤٠٠م). ويبدو أن قوريتشاق أوغلان، حكم في ذلك الوقت الطوائف الأوزبكية. ونظراً لعدم توافر المراجع بهذا الخصوص، فإنه لا يعلم على وجه التأكيد كيف جرت قيادته للأوزبك، وكم من الوقت دامت، وهل شملت سلطته كل القبائل والجماعات. وتوضح فيما سبق بيانه عن الأحداث المرتبطة بصراع شاه روح وأولوغ بك مع الشيخ نور الدين، أنه في عام ٨١٢ هـ (١٤١٠م)،

تسلط على حكم قبائل الأوزبك جنكيز أوغلان، الذي أسقطه جبار برده بن تختميش، في بداية عام ٨١٩ هـ (١٤١٦م) . وعلى ذلك فإن مدة حكم قوريتشاق أوغلان، لم تكن طويلة، واستمرت فقط حتى العام ١٨١٠م.

وكما هو معلوم، قاد حكم الأوزبك، خلال عامي ٨٢١ و٨٢٢ هـ (١٤١٨ و١٤١٩م)، بوراك أوغلان بن قوريتشاق أوغلان، وأولوغ محمد (محمد خان لدى الشرقيين) سليل توغا تيمور، وفي المرحلة النهائية، في شهرصفر ٨٢٥ هـ (فبراير، مارس ١٤١٩م)، تحقق النصر لأولوغ محمد، في حين فرّ بوراك خان هارباً الى سمرقند، حيث وجد المأوى في قصر أولوغ بك، وقدمت اليه المساعدات اللازمة. وتوجه الى الأوزبك، من جديد، وفي أثره سار اليهم أيضاً، على رأس جيش ضخم، أولوغ بك بشخصه. وفي السابع عشر من شهر محرم ٨٢٢ هـ (١٤ فبراير ١٤١٩م). بلغ أولوغ بك ضفة سرداريا، في مواجهة حصن شاه روح، وفي نهاية الشهر جاوز الى الضفة المقابلة. وفي موقع تمركزه، أبلغه يوراق سكى ولسو، الذي فر قبل ذلك من ولاية أوزبكية، عن الفوضى التي نشبت بين الطوائف والقبائل. وقد أيد هذه الأنباء التجار في ما وراء النهر، حين وصولهم الى هناك. وقد علم شاه روح بذلك أيضاً، عن طريق ابناء خودجالال باخادير، زعيم قبائل كورلادت، الفارين من هناك. لكن أولوغ بك لم يتقدم لأبعد من بورلاق، وفي بداية شهر صفر ٨٢٢ هـ (٢٧ فبراير ١٤٢٠م)، عاد الى سمرقند. ومن جديد، قاسى يوراق أوغلان الهزيمة على أيدي أولوغ محمد، فظل لوقت طويل، شريداً على أطراف القبائل والعشائر الأوزبكية.

وتسترعي الاهتمام حقيقة أنه في موازنة لنقل ابنه، الذي كان يسانده، في هذه السنوات، يوراق أوغلان، ارتبط شاه روح بعلاقات وطيدة مع معارضه أولوغ محمد خان. ولا تشير المصادر الى فحوى المباحثات التي أجراها سفراء أولوغ بك في جيرات. إلا أنه يمكن التكهن بأن أولوغ محمد، أراد من خلال شاه روح، أن يهدم تحالف يوراق مع أولوغ بك. هذا بالاضافة الى أنه حاول تحييد حكومة التيموريين، في صراعه مع معارضيه الأخرين على عرش آق أوردة، أي ولاية الأوزبك. أما فيما يخص شاه روح، فإنه أولاه اهتماماً ظاهرياً، أما في واقع الأمر، فقد أيد الفوضى وانتشار المنازعات الداخلية بين القبائل الأوزبكية.

وبالعودة الى يوراق، فقد استمرت علاقته بأولوغ بك، خلال سنوات «القوزاق الأول»، وفي نهاية شهر شعبان ٨٢٣ هـ (٨ سبتمبر ١٤٢٠م)» حضر الى سمرقند سفير يوراق، صوفي أوغلان، الذي جلب هدايا قيمة لأولوغ بك (طيور صيد مدربة، وخيول أصيلة، ونفائس). ومن هنا، يتضح أن يوراق قد بذل محاولة جديدة للحصول على دعم أكثر جدية من حاميه.

وتلقي هذه التطورات الضوء على سبب وصول رسل أولوغ محمد المشار إليهم، إلى جيرات، في إثر وجود سفير يوراق في سمرقند. وقد أدت الفتنة والصراعات المستمرة، بين اقطاعيي قبائل الأوزبك، الى قصر مدة حكم محمد أولوغ، وقاد هذا الصراع ضده كل من سيد احمد وكتشك محمد. وقد استغل يوراق هذا الوضع، وبدعم من أولوغ بك، استولى على زمام السلطة، وحكم قبائل الأوزبك.

ويروي شير خوند، في إشارة فريدة من نوعها، قصة مثيرة للفضول، ومسترعية للانتباه: بعد الاستيلاء على السلطة في قبائل الأوزبك، مباشرة، وصل الى سمرقند، سفيره جوما دوك أوغلان، ذلك الذي اغتصب السلطة من قبائل شايبان، في عام ١٤٢٦م، وبقي عدة أيام في رحاب قصر أولوغ بك، تحيطه مظاهر التكريم والاهتمام، ثم رحل إلى القبائل (أولوس) الأوزبكية، محملا بهدايا قيمة، إلى يوراق خان. ويورد ميرخوند سرداً تفصيلياً عن تلك الهدايا فهي: معاطف مطرزة بخيوط الذهب. وسيوف، ومناطق مذهبة، وأسراجٌ ثمينة لركوب الخيل، وجياد أصيلة، ومبلغ طائلٌ من المال. وأرسل معه كما طلب، المدعو تافساك أوغلان، الذي ظل لزمن طويل، ضمن خدم أولوغ بك. ورافق السفير، ما وضعه أولوغ بك في تصرفه، من فرق الحرس، مع الطبل والراية إلى يوراق، رمز السلطة العليا.

وفي واحد من المصادر المتأخرة، تطالعنا اشارة مثيرة للفضول عن سفارة يوراق إلى أولوغ بك، يذكر فيها المدعو يوريس «نوريس» أوغلان، أن أولوغ بك، أعاده إلى قبائل الأوزبك، نزولاً عند رغبة يوراق. ويذكر أن أولوغ بك، بدوره، أرسل سفيراً الى هناك، هو أحد أمراء البارلاس. فلو صحّ ذلك لكان يوريس أوغلان، هو غازي باي بن يديج نفسه، الذي ورد ذكره في بعض المصادر باسم غازي نوريس.

وقد وثق أولوغ بك بأن صار لديه الآن، رجله في أولوس الأوزبك. لكن يوراق خان، شأنه شأن شير محمد خان، لم يحقق أمل أولوغ بك. فبعد أن أصبح، بمساندة أولوغ بك، على رأس السلطة في الأوزبك، بدأ في استبعاد منافسيه على السلطة العليا تدريجاً، كما احتل عدداً من أقاليم آق أوردة، لبعض الوقت. وطبقاً لما ورد في المراجع، تصادم يوراق أوغلان، في تلك السنوات، مع منافس آخر هو كيبك خان (كويدادات) ابن تختميش، وأسقطه. وفي مدونة التاريخ لدى نيكولوفسكي. تحت رقم ٦٩٣٠ لعام ١٤٢٠م يطالعنا: «في ذلك العام، من أغسطس يوم الحادي والثلاثين، أسقط القيصر يوراق القيصر كويدادات».

من أمثال هذه المراجع، يمكننا معرفة أن يوراق خان، طوال السنوات من ٨٢٢ الى ٨٢٦ هـ (١٩ ـ ١٤٢٣م)، لم يصل إلى مناطق الأوزبك فحسب، بل إنه قصد، أيضاً، ما وراء نهر الفولغا.

استولى يوراق أوغلان، في صراع مع أولوغ محمد، خلال عدد محدد من السنين من عام ٨٢٦ هـ الى عام ٨٢٨ هـ (٢٣ ـ ١٤٢٥م)، على سراي وعدد آخر من مدن آلتين أوردة. كما تخلص من شخص آخر من المطالبين بالحكم، هو دولت بردة، الذي فر إلى القرم، طبقاً لرواية المؤرخ العربي «العيني» في القرن الخامس عشر.

وفي عام ٨٢٨ هـ (١٤٢٥م)، بلغ يوراق خان حداً من القوة، حيث وصل الى المدائن الواقعة أواسط مجرى نهر سرداريا، تحت السلطة التيمورية. فاستولى في عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٧م) على مدينة سيجناك، عاصمة آق أوردة السابقة، التي ظلت منذ عام ٧٩٧ هـ (١٣٩٤م) خاضعة لسلطة التيموريين. ولم يقْوَ أرسلان خوجة تارخان، حاكم تركستان التيموري، على مناجزة يوراق، واضطر الى تسليم تلك المدينة الهامة، اقتصادياً واستراتيجياً، إلى يوراق. وقد علل يوراق خان، في رسالة الى أولوغ بك، سبب إقدامه على هذه الخطوة بأن اقليم سيجناك يتعلق، قانوناً، بأملاك ذرية أوروس خان. وفي واحد من اكثر المراجع تشويقاً، وأقلها دراسة، وضعها عبد الكريم التمدوخي، في القرن السادس عشر، نجد اشارة قيمة عن

استيلاء يوراق على الأملاك السوردارية التيمورية. وطبقاً لما ورد، وجه يوراق خان، الى هناك، جيوشاً عظيمة العدد، فائقة العدة، مزودة بالمناجيق، وارتحلت، في اثر الجيش خمسة آلاف عائلة من الأوزبك، واستقربها المقام في ضواحي سيجناك.

وقادت تصرفات يوراق خان الاستفزازية تلك، واعتداءاته المقصودة، إلى صدام مسلح مع أولوغ بك. وانتهت المعركة التي نشبت بين أولوغ بك، يسانده محمد جوكي، الذي أرسله شاه روح سنداً لأخيه، وبين يوراق خان، بهزيمة الأخوين الساحقة. ولقد كان انسحابهما فراراً، لدرجة أن القوات التيمورية، تركت على أرض المعركة جميع أسلحتها ومعداتها، وطاردهم الاوزبك حتى ضواحي سمرقند ثم رجعوا الى بلادهم بعد أن نهبوا قرى ما وراء النهر جميعها، الواقعة جنوب سرداريا.

وعلى الرغم من أن شاه روح لم يكن قد تماثل للشفاء بعد، إثر إصابته بطعنة في بطنه، على يد أحد الارهابيين، في ٢٧ فبراير ١٤٢٧م، فقد سار بنفسه على رأس الجيش إلى ما وراء النهر، في العاشر من شهر شعبان ٨٣٠ هـ (٨ يوليو ١٤٢٧م)، مصطحباً معه بايسنكور، بدلاً من أولوغ بك، فيما يرجح، لكنه لم يُوفق. وبناء على طلب أولوغ بك واصراره، أعيد بايسنكور من بالخ، الى جيرات ثانية. ولا توجد في المراجع، معلومات مؤكدة عن عدد أفراد قوات الجيش الذي قاده شاه روح، ولكن المرجح أن عبور تلك القوات على مائتي سفينة، من طريق أموداريا، قد استغرق شهراً تقريباً، نظراً الى ضخامة عددها. وكما اتضح من سير الأحداث بعد ذلك، لم يكن لدى شاه روح النية المؤكدة لاخضاع الأوزبك لحكمه، كما كان مسلك تيمور دائماً، بل كانت تلك مناورة من جانب شاه روح، قصد بها التحذير والتخويف. إذ يبدو أنه كان يتحاشى مواجهة جديدة مع الأوزبك. ثم غادر شاه روح سمرقند، في الثالث من شهر ذي الحجة (٢٥ سبتمبر ١٤٢٧م)، بعد أن تحرَّى أسباب الهزيمة في سيجناك، وأقر العقوبات المناسبة لجميع من تسبب في تلك الفضيحة الحربية بمن فيهم أولوغ بك نفسه.

وعلى كل حال، لم يدم حكم يوراق خان الأوزبك طويلاً، حيث قتل في العام

٨٣٢ هـ (١٤٢٨م). ولا توجد في المراجع، معلومات محددة، عن ملابسات اغتياله، ولا تُعرف على وجه اليقين، كيف كانت العلاقات المتبادلة بين دولة التيموريين والأوزبك. والظاهر أن النزاعات في أولوس (قبائل) جوتشي السابقة، لم تُتِح للأوزبك الرحل، من جديد، فرصة استئناف غارات السطو والنهب على أملاك أولوغ بك وشاه روح. ثم ان أولوغ بك، وحتى آخر عهده في الحكم، لم يقم بأي عمل عسكري جاد، وتفرغ تماماً للعلم.

وبعد انقضاء أربع سنوات، انقضّ الأوزبك الرحل، من جديد، على سمرقند، بقيادة أبي الخير خان، سليل شايبان (نُصِّب خاناً عام ١٤٢٨م). وفي هذه المرة استولوا على الجزء الجنوبي الغربي من خوارزم، وعاصمته أورجنتش (أورخنج). ويذكر مؤلف «تاريخ أبي الخير خان»، بوضوح قاطع، أن أبا الخير، في هذه المرة، عقد العزم على احتلال خوارزم، ولذلك فمن الخطأ القول إنّ القصد من الهجوم كان نهب الاقليم فقط. ولم يتمكن حاكم خوارزم التيموري، الأمير ابراهيم ابن شاه مالك، من تنظيم المقاومة للتصدي لهجمة الأوزبك، الذين، وبدون صعوبة تذكر، استولوا على عاصمة خوارزم. ويضم كتاب «بحر الأسرار» معلومات مفادها أنه عند حصاره أورجنتش، أرسل أبو الخير خان سفراء إلى الأمير ابراهيم، يطالبه بتسليم البلاد، واخضاعها لسلطانه، حيث أنها، وطبقاً لقوله، كانت تابعة لجوتشي خان، مثلاً، وورثته من بعده. وهذا يدعم وجهة النظر السابق ذكرها عن طابع حملة الأوزبك الاحتلالي، على خوارزم. ويتضح من سير الأحداث، أن الوجهاء والزعماء الروحيين في خوارزم، أرغِموا على قبول طلبات أبي الخير خان. وقد نُهبت خوارزم وعاصمتها نهباً تاماً. ويروي مسعود بن عثمان الكوخستاني، أن أبا الخير خان، بعد استيلائه على أورجنتش، «أمر بفتح الخزينة، التي جمعها الحاكم السابق بصعوبة بالغة واهتمام كبير، واقام اثنين من كبار الأمراء على جانبي باب الخزينة، وتوالى دخول قواد الجيش المقربين الى الخان، ثم أفراد قوات الجيش أزواجاً، فيها، آخذين من هناك ما استطاعوا حمله دون مشقة».

وقاد شاه روح، في ذلك الوقت، حرباً ضروساً، ضد تركمان قاراكيونل في

أذربيجان، ولهذا ،يشك في أنه استطاع اتخاذ اجراءات جادة فيما يختص بمواجهة هجوم الأوزبك الرحل على خوارزم.

ولا تشير المصادر مباشرة الى رد فعل أولوغ بك تجاه سقوط خوارزم. ولكن يمكن، من سير الأحداث تفهم ذلك. فحضور أولوغ بك العاجل لمقابلة أبيه في سيراح، في صيف عام ٨٣٤ هـ (١٤٣١م)، على الرغم من عدم وجود مبرر، كان، على الأرجح، بسبب القلق تجاه تحركات الأوزبك الرحل الناشطة على حدود ما وراء النهر. فحضوره الى شاه روح كان لمناقشة الوضع وتقدير الموقف لاتخاذ الاجراءات المناسبة للصراع المشترك ضدهم. وشتاءً استقر أولوغ بك في بخارى، وأرسل جيشاً كبيراً، برئاسة أمرائه، إلى جهة داشتا كبتشاك وإلى مغولستان. وكما هو واضح، فقد أدار أولوغ بك، طوال هذه السنوات حروباً دفاعية.

بيد أنه لم يطل أمد امساك الأوزبك بزمام السلطة في خوارزم، وصار من المحتم عليهم مغادرتها. وتفسر سيرة أبي الخير خان ذلك «بمناخ خوارزم الرديء»، ونجد مثل ذلك التفسير في مصادر أخرى، كما لدى المقريزي (القرن الخامس عشر): «في العام ٨٣٣ هـ (٢٩ ـ ١٤٣٠م)، وما سبقه من سنين، ساد في أراضي سراي وداشت وفي براري كبتشاك جفاف جديد، وانتشر وباء فظيع، هلك من جرائه الحرث والنسل، ولم يسلم منه إلا القليل من العشائر وقطعانها». ويتفق في ذلك كل من أ. ى. ياكوبوفسكي وأ. أ. سيميونوف. ويقدم عبد الرزاق السمرقندي تحليلاً آخر، فيقول إن شاه روح أرسل ضد الأوزبك الرحل جيشاً عظيماً، ثم تحتم عليهم مغادرة خوارزم. ويتفق معه في ذلك ب. ب. ايڤانوف. وهناك أيضاً سبب آخر اضطر معه أبو الخير خان إلى مغادرة خوارزم، حيث نشط ضده، في ذلك الوقت، ابناء كيتشك محمد: محمود خان، المرتحلين، آنذاك، في البراري المحيطة بالأورال، وأملاك الحاج طرخان (استراخان)، وبلغ تهديدهم حد الهجوم على قبائل أولوس بزعامة أبي الخير.

قام الأوزبك الرحل بنهب خوارزم كذلك عام ٨٣٩ هـ (١٤٣٥م). ومنذ ذلك

العام حرم التيموريون من جزء كبير منها. ويقول عبد الرزاق السمرقندي: «لم يتمكن الأمير إبراهيم، في هذه المرة، من تنظيم الدفاع عن المدينة، ومن ثم فر هارباً، وخضع سكان تلك الأرجاء لإرادة المنتصر».

وبعد مضي بعض الوقت، تأسست في خوارزم إحدى خانات الأوزبك الرحل، وكان حاكمها مصطفى خان.

تكررت خلال هذه السنوات غارات الأوزبك الرحل على مازندران وجورجان، الأمر الذي ترتب عليه أن شاه روخ صار مضطراً للاحتفاظ، هناك، ولمدة عام، بأعداد كبيرة من قوات الجيش. كما تعرضت ايضاً الارجاء الشمالية من الامبراطورية للخطر، ولهذا كان أولوغ بك يضطر، كل شتاء، للبقاء مع جيوشه، إما في بخارى وإما في شاه روخ، أو في طشقند. وقد هدد الأوزبك الرحل باجتياح المناطق الحضرية لما وراء النهر وتخريبها، كل شتاء، وكذلك الأرجاء الشمالية من ايران: مازندران وجورجان. ففي عام ٨٤٤ هـ (١٠ ـ ١٤١١م) شنوا غارة على مازندران وتسببوا في خراب كبير لها ومعاناة لسكانها، وأوقعت بقوات الحراسة التيمورية برئاسة خوجة يوسف جليل وشيخ خوجة وغيرهما من أمراء تومان هزيمة شنعاء. وليس هناك شك في أن أولئك المعتدين الذين اسماهم عبد الرزاق السمرقندي «أوزبك قوزاق» هم أنفسهم الأوزبك الذين انفصلوا عن أبي الخيرخان، وترحلوا على الضفة المقابلة لسرداريا، في خوارزم وجنوب تركمنستان.

قضى شاه روخ نحبه في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة ٨٥٠ هـ (١٢ مارس ١٤٤٧م) في مدينة ري، دون أن يمهله الأجل لكي يسحق تمرد حفيده سلطان محمد، الذي انتزع السلطة على اقليم فارس منذ عام مضى، وكذلك لم يعلن عن خليفته من بعده، وكان بايسنكور الذكي الهمام المتمرس، الذي علق عليه شاه روخ آمالاً كبيرة، قد مات، في حياة والده، عام ٨٣٧ هـ (٢٠ ديسمبر ١٤٣٣م)، كما إن محمد جوكي، المرشح المحتمل لوراثة العرش، لم يعد موجوداً ايضاً، في حين أن أولوغ بك، أكبر الأبناء الموجودين على قيد الحياة، قد تفرغ، في ذلك الوقت، تفرغاً كاملاً للعلم، إلا أنه اعتبر خليفة أبيه الشرعي.

وكانت رغبة جوهر شاد، العاقلة الداهية المتسلطة، زوجة البادي شاه الراحل، أن ترى على عرش البلاد علاء الدولي بن بايسنكور، وإن خشيت اعلان ذلك صراحة. وذلك في حين أحاط شاه روح، في آخر سني حياته، حفيده عبد اللطيف بن أولوغ بك، باهتمام كبير وحب عميق. وقد تميز عبد اللطيف بصفات القائد الحربي المجرب الشجاع، الأمر الذي لا يدع مجالاً للكلام عن علاء الدؤلي أو غيره من الأحفاد الآخرين. ونشير إلى مدى إيثار شاه روح ووزيريه خوجة غياث الدين بير أحمد خوافي وخوجة شمس الدين سمناني لعبد اللطيف تلك الحقائق التي أوردها عبد الرزاق السمرقندي. ففي عام ٨٤٥ هـ (١٤٤١م)، أصرّ شاه روح الكهل، على أن يُنصِّب في جيرات عبد اللطيف، الموجود حينها في سمرقند، وسافرت إلى ما وراء النهر جوهر شاد نفسها لهذه المهمة، في اليوم الرابع من شهر شوال ٨٤٥ هـ (٥ أبريل ١٤٤٢م)، وعادت بصحبته، الى جيرات. «وقد انتظره الحاكم العجوز، وعندما رآه لم يكن لسعادته حدود، كما تصف كلمات السمرقندي. كما يُروى أنه، في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة ٨٥٠ هـ (١٢ مارس ١٤٤٧م)، تدهورت صحة الخاقان سعيد (شاه روح)، وفي ذلك المساء، قصد عبد اللطيف، في سمنان الوزيران: غياث الدين بير أحمد خوافي وخوجة شمس الدين السمناني، وأمامه وضعا الختم على رقعة المرسوم باعلان عبد اللطيف خليفة على العرش، وفي اليوم التالي، وكان شاه روح قد قضى نحبه، جاءه كذلك رسل جوهر شاه للغرض نفسه. من خلال سياستها المزدوجة، تواطأت جوهر شاد مع الأمراء الطرخانيين، في الوقت نفسه الذي بعثت فيه رسلها الى علاء الدين في جيرات، يطالبون باعتلاء عرش جده، دون تقاعس. ونظراً للاضطرابات والقلق اللذين سادا العاصمة، لم يجرؤ علاء على أن يعلن تنصيب نفسه رئيساً للدولة.

ولم يعد أمام عبد اللطيف سوى ان يشغل منصب قائد الجيوش، نزولاً عند اقتراح جوهر شاه. وكان جيش شاه روح، قد أخذ في ذلك الوقت بالتفكك. وتمكن عبد اللطيف، بشق النفس، من إعادة النظام إليه، غير أن ذلك لم يدم طويلاً.

ولم تمض عدة أسابيع، حتى أخذ الأمراء، تباعاً، في مغادرة مراكز قواتهم

الواحد تلو الآخر، فمنهم من أسرع الى علاء الدؤلي في جيرات، ومنهم من ارتحل إلى عبد القاسم بابور في ما وراء النهر. ثم لم يلبث عبد اللطيف أن هزم، بالقرب من نيسابور، أمام السرية القوية التي أرسلها ضده علاء الدؤلي، من جيرات، بقيادة الأمراء الملكيين: صالح وعويس طرخان واحمد طرخان. وقبض على عبد اللطيف، وأحضر الى جيرات، حيث قام علاء بنفسه باستجوابه، ثم أمر بسجنه في حصن اختيار الدين.

ووصلت الى أولوغ بك، من خلال رسول عبد اللطيف، أنباء موت شاه روح وتنصيب علاء الدؤلي على العرش، فسارع بالحضور الى خراسان. وعلى ضفة أموداريا، استمال الى صفه الأمير الملكي أبا بكر بن محمد جوكي، قائد خوتالان وأرخانج وسالي سراي، في ذلك الوقت. ثم اتهمه بالخيانة، وأحضر الى سمرقند حيث أدين وسجن في كوك سراي، وهناك قضي عليه. واتخذ أولوغ سبيله، بعد ذلك، عبر أموداريا، واستولى على بلخ وتشتشكت. وبدأ صراع طويل مرير بين أولوغ بك وعلاء الدؤلي على عرش شاه روح.

وهكذا فإن الامبراطورية التيمورية، التي كانت الى عام واحد خلا، بنياناً متراصاً، صارت مقسمة من جديد، إلى أجزاء بعد موت شاه روح مباشرة. فاستقر لمحمد سلطان الحكم في غرب ايران وفارس، ووقعت جورجان وأستر أباد في قبضة أبي القاسم بابور، وبقيت خراسان وجيرات خاضعتين لسلطة علاء الدؤلي، ووهب أولوغ بك الأراضي الواقعة على ضفتي أموداريا في اقاليم بلخ وخوتالان وكوندوز وأوخانج وسالي سراي وأندخون وشبرجان ومايمن وفاراب، الى عبد اللطيف، أما غرب ايران واذربيجان، فثبت فيه الحكم، من جديد، لجاهان شاه، أحد وجهاء قاراكيونل. ولكن، وفي ربيع عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م)، ثارت المواجهة المسلحة، من جديد، بين علاء الدين وأولوغ بك،على تركة شاه روح، وانتهت بانتصار أولوغ بك، في صيف ذلك العام. وطارد أولوغ بك علاء الدين وصولاً إلى جابو شان، حيث عبد القاسم بابور، وإلى حدود جورجان، مخلفاً وراءه كثيراً من القتلى، دون أن يتمكن من التخلص من مناوأة علاء نهائياً، والاستقرار على عرش جيرات.

وفي منتصف شهر رمضان المبارك من عام ٨٥٢ هـ (أوائل نوفمبر ١٤٤٨م)، ثار على أولوغ بك عدد من الأمراء الخراسانيين، الغاضبين منه، يترأسهم حاكم جيرات السابق، أبو سعيد، وأمير التاج التركماني يار علي بن اسكندر القاراكيونيلي، الذي عمل مع أولوغ بك منذ عام ٨٣٥ هـ (١٤٣٢م) وحتى إيداعه السجن في حصن ينريتو، وصار أولوغ بك مضطراً لأن يتّجه بجيشه الى جيرات، ويترك عبد اللطيف في نيسابور، ونجح آنذاك في قمع ذلك التمرد. إلا أن الأنباء المزعجة التي وردت من وراء النهر، جعلت أولوغ بك يترك خراسان قاصداً سمرقند، في أواخر أيام شهر رمضان ٨٥٢ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٤٨م)، مصطحباً معه رفات والده، وأموال الخزينة، وما إليها من الثروات التي ورثها من شاه روح وخلفها علاء الدؤلي. ولكن، وفي مكان ما بالقرب من ميرق، انقضّت عليه قوات الأمير هندوك، التي بعث بها أبو القاسم بابور، من مشهد، وأحاطت به حيث جرح جراحاً بالغة، وسقطت في أيدي هذه القوات غنائم كثيرة. فقد أولوغ بك جميع خيله، تقريباً، ثم إن هندوك طارده حتى ضفة أموداريا. وفي أثناء اجتياز أولوغ بك النهر، عند ميرق، تعرض لهجوم مباغت من الأوزبك الرحّل، حيث قتل الكثير من قواته العابرة وتشتت ما بقي منها، وآلت الى الأوزبك خيرات كثيرة، وأعداد غفيرة من الأسرى. وبمشقة بالغة، نجحت قوات أولوغ بك المشتتة في الوصول الى بخارى، حيث اتخذت مواقعها لقضاء فصل الشتاء.

وكانت تلك الوقائع، التي جرت خلال الأيام الأخيرة من شهر رمضان ٨٥٢ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٤٨م)، هي السبب الحقيقي وراء تعجل أولوغ بك في العودة من خراسان. وكما هو معلوم، استولى عبد اللطيف، في خريف عام ٨٥٠ هـ (١٤٤٦م)، على سيجناك، واستقر فيها لقضاء فصل الشتاء. وكما يروي صاحب «تاريخ أبي الخيرخان»، فإن أبا الخير خان قد علم بوفاة شاه روح، ورحيل أولوغ بك من بلاد ما وراء النهر، في خريف ٨٥٠ هـ، فأبدل بالترحال الإقامة، وعسكر، صيفاً في ياي لاو.

ونجح في التقدم نحو سمرقند، حيث وصل الأوزبك الرحّل الى أبواب المدينة وطوقوها من جميع الجهات. ويروي البعض أن أهل سمرقند، القوية الحصينة،

وأهل بخارى، قد تعرضوا الى نهب لم يدَعْ لهم شيئاً. وطبقاً لعبد الرزاق السمرقندي ومسعود الكوخستاني، فقد نهب الأوزبك الرحل جميع الأملاك والبساتين التابعة للقصر الامبراطوري حول المدن، وقصور المقربين له وخربوها، بما في ذلك مقر أولوغ بك «تشين خان» (دار الصين ـ المترجم) الذي عرف بذلك الاسم نظراً لاكتساء جدرانه بالخزف الوارد من الصين. وتشير مواضع من سيرة حياة أبي الخير خان، الى أن أهل سمرقند، في سبيل فك حصارهم، دفعوا الفديات، وقدموا الهدايا الثمينة (بيشكس وسافورين) المرسلة من حاكم المدينة، الأمير جلال الدين بايزيد، ويستطرد المؤلف نفسه: أعلن وجهاء (أرسطقراطيو) سمرقند، في وقت تقديم الهدايا للخان، أن ميرزا أولوغ بك حريص على الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الخان، ويرعى شروط التحالف والخضوع». إلا أنه يعتقد أن تقرير مسعود الكوخستاني، متحامل وكاذب: إذ لا يعقل أن السمرقنديين، بما هم عليه من التسلح الجيد، ما لم يكن للأوزبك الرحل، وهم وراء الأسوار المنيعة لمدينتهم الحصينة، يرضون لأنفسهم هذه المهانة. ويؤيد هذا الرأي المؤلفون الآخرون مثل عبد الرزاق السمرقندي وميرخوند وخوندير. ويتضح، كما أشار الى ذلك بارتولد، أن الأوزبك الرحل، نهبوا الضواحي من سمرقند وبخارى دون غيرها، وارتحلو بدون تلقي هدايا من سكان الحواضر، وبدون الحصول على أسلاب قيمة.

ونجح أولوغ بك، بمشقة بالغة، في تحقيق استقرار الأوضاع الداخلية في بلاد ما وراء النهر. وبعد ذلك سيطرت عليه الرغبة في الاستيلاء على خراسان. وقد اعتزم التوجه اليها، مباشرة، عند قدوم ربيع عام ١٤٤٩م، بيد أنه في هذه المرة، تحتم عليه أن يخوض الصراع ضد ابنه عبد اللطيف، الذي ناوأه، وعقد تحالفاً مع أبي القاسم بابور، وزوّده بمعلومات وافية عن تجهيزات أبيه الضخمة. ثم إنه تعهد له بعدم تمكين أولوغ بك من العبور خلال أملاكه.

انتهى هجوم أولوغ بك ضد عبد اللطيف نهاية غير موفقة، إذ تعرض في بداية شهر شعبان ٨٥٣ هـ (١٩ سبتمبر ١٤٤٩م)، للهزيمة من جانب ابنه، بالقرب من قرية دمشق، حول سمرقند. وحينذاك لم يسمح له بدخول سمرقند، كما لم يتمكن

من دخول شاه روح. وبعد ذلك، كما أورد الكوخستاني ودولت شاه، فكر أولوغ بك في التقدم الى داشت كيبتشك لطلب مساندة أبي الخير خان، إلا أنه عدل عن هذه الفكرة، وقرر في النهاية العودة الى سمرقند، واثقاً من أن الإبن لا بد من أن يبقى على طاعة ابيه. وقد عقد العزم على أن يتنازل عن السلطة الى عبد اللطيف، ويوقف بقية حياته على عبادة الله والاشتغال بالعلم.

وتشير المراجع، بعد ذلك، الى أن أولوغ بك التقى بأبي الخيرخان، دون أن يحصل على تأييده، وقد عاد الى سمرقند. وللأسف، كان خطأ أولوغ بك فادحاً في حساباته كلها. فقد تلقى عبد اللطيف أباه بفتور، وسمح له بالرحيل إلى مكة. ثم انه، وبمعاونة الأمراء المعارضين لأولوغ بك، والجناح العسكري لرجال الدين، دبر مؤامرة لقتله. ويروي عبد الرزاق السمرقندي أن عبد اللطيف جمع كل الشخصيات الساخطة على أبيه، وبعث بهم الى الخان التشنجيزي المزيف (المدعو موغلوك) طالباً اليهم أن يسألوه الاذن بالقيام باغتيال الميرزا. وقد وفق واحد منهم يدعى عباس، من قبيلة سولدوس، في الحصول على موافقة الخان. وبعد انقضاء ثلاثة أيام على قتل الأب، أعدم عبد اللطيف شقيقه عبد العزيز، وجميع الأمراء المقربين الى أولوغ بك: محمد طرخان وسلطان جونايدي واسماعيل صوفي طرخان وسلطان شاه، وكثيرين غيرهم.

وطبقاً لمعلومات ميرخوند، فإن اغتيال أولوغ بك، تلك الجريمة البشعة، قد حدث بالقرب من سمرقند. وبحسب رواية دولت شاه، في الثامن من شهر رمضان ٨٥٣هـ (٢٥ أكتوبر ١٤٤٩م)، على ضفة نهر أبي سوج (سابوخ)، غير بعيد من سمرقند. ويشير الى ذلك عدد آخر من المراجع. ولا يعرف على وجه التحديد أين كان يجري نهرأبي سوج، إلا أن دولت شاه يحدد مجراه بالقرب من سمرقند.

ما هوالسبب الحقيقي لتلك النهاية المأساوية لأولوغ بك العظيم، ذلك العالم والبادي شاه. يرجح أن أسباب ذلك تتلخص في تزايد تدهور الأوضاع الداخلية بتأثير الخلافات والصراعات الداخلية المستمرة بين الاقطاعيين، والخصومات بين خيرة العاملين في الدولة، اضافة الى انقضاض وجهاء الاقطاعيين، في ما وراء النهر

وخراسان، والحملات العسكرية غير الموفقة، وتخلي القوات المسلحة عنه، خصوصاً قياداتها العليا، التي يرضيها القائد الحربي القادر على إحراز النصر تلو النصر، ومن ثم امدادها بالغنائم والأسلاب، أما في حال فشل الحروب، فإن المحاربين عادة ما ينقضّون على قياداتهم العليا. وذلك ما حدث في أحيان كثيرة، فمثلاً، حين تعرض أبو الخير خان للهزيمة من جانب الكماك، بالقرب من سيجناك، عام ٨٦١ هـ (١٤٥٧م)، وأيضاً عندما إستولى زاهد الدين محمد بابور على سمرقند عام ١٥٠٠م، انفضّ كثيرون من حول شيعيان خان المنهزم، في موقع خوجة ديدار، بالقرب من سمرقند. ويورد محمد حيدر، في هذا الصدد، إفادة جيدة: عندما خسر الخان المغولستاني، يونس خان، معركته ضد إسان بوغا خان (١٤٢٨ ـ ١٤٦٢م)، واتخذ وجهته الى طشقند، تخلى عنه أفراد الكتيبة المرافقة له، ثم قبض عليه أمراؤه، وسلموه الى الحاكم التيموري، شيخ جمال.

وهذا أيضاً ما حدث مع أولوغ بك، فعندما قام ابنه ضده، على ضفة أموداريا، اعتزم أمراؤه أن يقبضوا عليه ويسلموه الى عبد اللطيف، في حين منع حاكم سمرقند، كلاً من ميران شاه كاأوتشن، وحاكم شاه روح، ابراهيم بن قولاد، من دخول مدينته.

ونضيف أنه، في تلك الأيام، تزامن قيام أبو سعيد، حفيد ميران شاه، تسانده القبيلة التركية القومية أرغبين، وشيوخ الطريقة النقشبندية، لمواجهة أولوغ بك.

الوضع السياسي في بلاد ما وراء النهر خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر

خلّفت ولاية عبد اللطيف، والتي لم تدم سوى ستة أشهر (٢٥ أكتوبر الى ٩ مايو ١٤٥٠م)، أثراً ملحوظاً في تقوية الروح الاسلامية في الحياة الاجتماعية والسياسية للبلاد. وقد كان سيد بادي شاه، كما يطالعنا ميرخوند، «منقاداً لأولياء الله، وكان خلال مقابلاته ومناقشاته معهم، يتزلف اليهم بشتّى السبل».

وقد تمكن عبد اللطيف من اقامة نظام صارم في البلاد، فقمع بيد من حديد حركات العصيان، ودعم حدود الدولة، وتخلص ممن أمكنه من المعارضين: أصدر أمراً باعدام شقيقه ميرزا عبد العزيز، بعد ثلاثة أيام من مصرع أبيه أولوغ بك،

وأودع السجن كلا من ميرزا عبد الله والسلطان أبي سعيد.

هكذا، وكما افترض عبد اللطيف، فقد أصبح بإمكانه فرض سيادته، ولسنوات طويلة، على البلاد دون مناوأة. بيد أنه لم يقدَّر لحلمه أن يتحقق، حيث لقي مصرعه، بدوره، على يد متآمر، في صباح التاسع من مايو عام ١٤٥٠م، حال توجهه من حديقة باغ ميدان الى بستان باغ شيناء الواقع جنوب سمرقند.

وبعد ذلك اتجه المتآمرون الى سجن كوك سراي، حيث أطلقوا سراح ميرزا عبد الله، ابن شقيق أولوغ بك، وأجلسوه على عرشه.

وقد استهل ميرزا عبد الله ولايته بتوزيع جزء كبير من ثروات الخزينة على قواد الجيش والأمراء، كما كان المسلك المفضل، عادة، للحكام في بداية عهدهم، لتدعيم مراكزهم. إلا أنه، وبالرغم من ذلك، تحتّم عليه أن يخوض صراعاً جاداً ضد علاء الدؤلي وسلطان أبي سعيد، اللذين نازعاه أمر السلطة والحكم في ما وراء النهر. وفي حين تكلل صراعه ضد علاء الدؤلي بالنصر، فقد عانى الهزيمة أمام أبي سعيد.

وقد كان السلطان أبو سعيد من أبرز الشخصيات بين التيموريّة، بعد شاه روح وأولوغ بك. كان انساناً نشطاً، ذا موهبة عسكرية وقيادية، وكان أولوغ بك ضمن خاصته، في أثناء صراعه ضد عبد اللطيف، في الفترة من أغسطس الى سبتمبر ١٤٤٩م، على ضفاف أموداريا. وعندما تزايد تدهور الروح المعنوية للمحاربين والأمراء، واستشرى الفزع بينهم، انتهز أبو سعيد لحظة مناسبة، وفي احدى الليالي غادر موقع مولاه، فاراً بصحبة فرقة من المحاربين وعشيرته من القوات الأرغبينية، متوجهاً إلى سمرقند. وحين وصل العاصمة، حاصرها، ولكنه لم ينجح في اقتحامها. واضطر، في النهاية الى رفع حصاره، تحت ضغط ما أرسله أولوغ بك من قوات، لصده، ثم فر الى أرجنين (في منطقة زآمين). وعجز عن ايجاد مكان للتخفي، وسرعان ما سقط في ايدي رجال عبد اللطيف، واقتيد الى سمرقند حيث قرر عبد اللطيف حبسه في سجن كوك سراي. ثم إنه نجح في الفرار من سجنه،

والهرب والاختفاء في بخارى. وكان فيها كثير من أنصاره المخلصين، خصوصاً بين رجال الدين المسلمين، من اتباع الحاج محمد جيرس (المتوفى عام ١٤١٩م) وخوفاً من غضب عبد اللطيف، وضعه رهن الاعتقال. بيد أن القدر كان رحيما بالسلطان أبي سعيد، وكتبت له الحياة هذه المرة أيضاً، ثم إنه، وبمجرد وصول نبأ مصرع عبد اللطيف إلى بخارى، حرره من الاعتقال، فوراً، وبايعه وجهاء بخارى، وعقد له لواء الحكم. وبعد ذلك سار أبو سعيد الى سمرقند، ولكنه هزم أمام ميرزا عبد الله، ففرّ شمالاً. وطبقاً لشهادة عبد الرزاق السمرقندي، تمكن من الاحتماء في ياسا (تركستان)، المدينة الحدودية الشمالية لدولة التيموريين. وفي شتاء عام ٨٥٤ هـ (٥٠ ـ ١٤٥١م) بعث ميرزا عبد الله بجيش ضده، هزمه أبو سعيد على مشارف ياسا. فتوجه اليه مرزا عبد الله بشخصه، إلا أنه لم يتجاوز شاه روح حتى علم بأن أبا سعيد عقد تحالفاً مع أبي الخيرخان (١٤٢٨ ـ ١٤٦٨م)، رأس حكومة الأوزبك الرحل. وأورد فخر الدين علي حسين الواعظي الكاشفي، المشهور بالأسافي (١٤٦٣ ـ ١٥٣٣م)، مؤلف السيرة الذاتية المشهورة «رشحات عين الحياة»، وكذلك مسعود بن عثمان الكوخستاني، صاحب «سيرة أبي الخيرخان»، أن أبا سعيد سافر بناء على مشورة الحاج عبد الله أحرار (١٤٠٤ ـ ١٤٩٠م) ومناصرته، الى أبي الخيرخان، حيث التقاه في موقع بالقرب من طشقند، ومن ثم سارا لملاقاة ميرزا عبد الله، الذي غادر شاه روح، حينما علم بذلك، وحث الخطى باتجاه سمرقند. ودارت رحى الحرب بينه وبين الاتحاديين في ١٠ يونيو، وفي قول آخر، ٢١ يونيو ١٤٥١م، على ضفاف نهر بولونجور، في الاقليم الشيرازي من سمرقند، وحسم الأمر بانتصار أبي سعيد وحليفه، ومصرع عبد الله، في هذه الحرب. ودخل السلطان أبو سعيد سمرقند بدون مقاومة، وبعث الى أبي الخيرخان، الذي بقي مرابطاً في خان جيل، هدايا قيمة، كان أغلاها رابية سلطان بيجيم [٢٦]، ابنة المرحوم ميرزا أولوغ بك.

---

٢٦ ـ تزوجها أبو الخيرخان، ورزق منها: سيونس حاج، وكتشوكونش، وقد حكم الأول طشقند وتركستان، على عهد شيباني خان ثم بعده (توفي عام ١٥٢٥م). وصار الثاني قائداً أعلى لجميع الأوزبك خلال الفترة من العام ١٥١٠ الى عام ١٥٣٠م.

وقد حكم أبو سعيد بلاد ما وراء النهر خلال أكثر من ست سنوات، حتى عام ١٤٥٧م. لم تسجل أحداث جسام في اثناء تلك الفترة، خلاف الغارات على بلاد ما وراء النهر، وحصار سمرقند من قبل أبي القاسم بابور (١٤٤٣ ـ ١٤٥٧م)، وعصيان أوترار عام ١٥٥٥م. وظلت العاصمة، وبلاد ما وراء النهر، في ذلك الحين، هادئة مستقرة مزدهرة، بفضل جهود الحاج عبيد الله أحرار، وصهره مير عبد الأول (توفي عام ١٥٠٣م) اللذين قادا الجماهير والجيش، في الدفاع عن سمرقند. وطبقاً للتحليلات الحديثة، سافر الحاج أحرار بنفسه، حينذاك، إلى مكان تمركز قوات أبي القاسم بابور، حيث نجح في اقناعه بعدم جدوى الحصار والحرب، وامتثل لنصحه فسحب قواته، ورجع الى بلده خراسان.

وبعد موت أبي القاسم بابور (٢١ مارس ١٤٥٧م)، استغل أبو سعيد تدهور الأوضاع في خراسان وانقسامها نتيجة لصراع علاء الدؤلي والسلطان محمد، فتوجه اليها في الثاني من شهر أكتوبر ١٤٥٧م، حيث استولى على جيرات، بدون مجهود يذكر.

وقبل مسيرته الى خراسان، قسم أبو سعيد مناطق نفوذه، من الأراضي الواقعة بين نهري سرداريا وأموداريا، بين أبنائه. فاقتطع عمر الشيخ فرغانة ومركزها أنديجان، وولي السلطان أحمد الحكم على سمرقند وبخارى. أما خيسار وخوتالان وتشاغانيان فقد جعل مقاليد أمور السلطة فيها لابنه السلطان محمود(٢٧).

وعلى كل حال، وباختصار، فإن عهد حكم أبي سعيد وكذلك خلفائه من بعده، في بلاد ما وراء النهر، لم تكن مستقرة. فأبو سعيد مثلاً، كان محتماً عليه مواصلة الصراع في خراسان، بالاضافة الى معارضته لعلاء الدؤلي، وابنه ميرزا محمود، والسلطان محمد، وللحكام المحليين المنشقين: أحمد ياسول، قائد حصن اختيار الدين، والأمير عبد الله حاكم سراخس، والأمير بيراق مغول قائد حصن نيرات.

---

٢٧ ـ مؤخراً، وفي بداية الستينات من القرن الخامس عشر، انتقل السلطان محمود الى جورجان ومازاندران. ثم بعد موت والده (١٤٦٩م)، يُرجّح أنه عاد الى جوتشي.

والأمير خليل حاكم سيستان، وشيخ حسن حاكم خابو شان، والتركمانيين من آل آق كايونيل. وغيرهم.

وكما هو معلوم، فإن مرزا محمد جوكي ومرزا أحمد، ابني عبد اللطيف، اللذين حكما، في حياة أبيهما، ومن بعده، اقليم بلخ، قد شقا عصا الطاعة على أبي سعيد، ووقفا ضده وحارباه. وقد كان نشاط هذين الأميرين من الجدية، بحيث أضطر أبو سعيد الى ترك جيرات والمسير للتصدي لهما بنفسه. وهنا لم يتمكن وليا العهد من الوقوف ضد قوى أبي سعيد الجبارة، فانهزما. وقتل ميرزا أحمد، وفر أخوه محمد جوكي هارباً الى جيرات، حيث وفق هناك في الانضمام الى ميرزا ابراهيم، ابن علاء الدؤلي، الذي استولى، بعد مغادرة أبي سعيد، على عاصمة خراسان. (٢٨) بيد أن وضع مرزا ابراهيم لم يكن قوياً بما فيه الكافية، وبعد وقت غادر محمد جوكي، جيرات، وتوجه نحو دشت كيبتشك حيث أبو الخير خان. وقد جاء في تاريخ أبي الخيرخان، أن الخان الأوزبكي، استقبل صهره (قريب زوجة رابية سلطان بيجيم) بحفاوة، ووعده بالمساندة في صراعه لنيل عرش أولوغ بك.

سنحت الظروف المناسبة، لمحمد جوكي، عام ١٤٦٠م، بمواصلة الصراع ضد أبي سعيد بنجاح. في ذلك العام، قام الأمير خليل، حاكم سبستان، ضد السلطان، في الوقت نفسه الذي اقتحم فيه السلطان حسين باي قارا، المتربص حينذاك في مازندران، حدود خراسان، وغزا كل أقاليمها حتى سابزفار ونيسابور، ولذلك كان أبو سعيد مضطراً الى تحريك قواته الأساسية للتصدي له. وقد استغل هذا الوضع محمود جوكي. وبدعم من فرق الأوزبك الرحّل بقيادة بوركا سلطان وبشكاوي أوغلان، قام باحتلال مدن ياسا وسايرام وطشقند وأساكا وشاه روح. ومن الأحداث التي تستحق الذكر، أنه في شاه روح تحول لمناصرة محمد جوكي، أولئك الأمراء الذين ظلوا حتى ذلك الحين في خدمة أبي سعيد، وطبقاً لرواية مؤلف تاريخ

---

٢٨ ـ كان السلطان أبو سعيد، في بالخ حتى ربيع ١٤٥٨م، ثم سقطت جيرات في اكتوبر عام ١٤٥٧م في يد جاهان قاراكايونيلي. وثبت الأمر لأبي سعيد في جيرات، نهائياً بدءاً من ١٦ ديسمبر عام ١٤٥٨م.

أبي الخيرخان، كان من بينهم أناس من ذوي المكانة مثل الأمير نور سعيد بك من بلكوت، القبيلة التركية المعروفة، وسلطان أرغبين. وبالاضافة إلى هؤلاء، انضم اليه كذلك البكوات التشاغاتيون الذين خدموا قبلاً مع أولوغ بك، ثم اعتزلوا الصراع بعد موته الدرامي، فلم يقفوا ضد عبد اللطيف أو ضد ميرزا عبد الله، ولكن ظلوا على استقلالهم داخل مقاطعاتهم. وكان أكثرهم تأثيراً نور سعيد بك، الذي كان وقتها في الجبال، قرب القرية البخارية نور (حاليا: نور آتا)، وكان يغير بانتظام، خلال عام ١٤٦٠م، على القرى الواقعة حول بخارى وسمرقند. ولم تسفر محاولات أبي سعيد، في اصلاح الأمور معه بالطرق السلمية، عن أي نجاح. فلم يرضخ هذا المعارض المنشق، كما كتب بارتولد، لنصائح سفراء أبي سعيد ولا لموفدي الحاج أحرار، الذي ظل متحصناً في مركزه بالقرب من نور آتا. بيد أن جيوش سمرقند تمكنت بعد ذلك بوقت، من طرده من نور آتا، ففرّ إلى الصحراء.

ويبدو أنّ السلطان أبا سعيد، كما يتضح من سير الأحداث بعد ذلك، قد طلب إلى نور سعيد بك أن يظل في الخدمة، إذ إنه خلال هجوم أبي سعيد على سبستان، حيث الحاكم المعين من قبل الأمير خليل عام ١٤٦٠م، تقدم سعيد بك مع فيالقه لمواجهة السلطان حسين باي قارا. وتشير الدلائل الى أنه لم يصل إلى هناك، إذ انه قبل ذلك، وهو في طريقه الى سايزفار، استدار تجاه ما وراء النهر، حيث انضمت الى محمد جوكي قوات الأوزبك الرحل، قرب شاه روح، كما انضم إليه، أيضاً، غيرهم من الأعوان.

وينبغي القول إنه في تلك الأثناء حقق محمد جوكي نصراً تدور له الرؤوس: فخلال وقت قصير للغاية، دانت له معظم ولايات ما وراء النهر، عدا سمرقند وبخارى وبعض المراكز، طبقاً لقول مسعود بن عثمان كوخستاني. وبالاضافة الى ذلك، فقد حقق انتصاراً ساحقاً، على ضفاف نهر كوخك، مع حلفائه، على جيش سمرقند الذي كان بإمرة الأمير محمد مزيد أرغن، وحاصر العاصمة، وإن لم يستطع الاستيلاء عليها. وقد عاثت جنود محمد جوكي والأوزبك الرحل، بالقرى المحيطة لسمرقند سرقة ونهبا.

ويكتب مؤلف تاريخ أبي الخيرخان، أن بعض المراكز في بلاد ما وراء النهر قد عانت كثيراً من جراء ذلك، وبلغ نهب السكان الآمنين حداً فظيعاً، جعل محمد جوكي يتخذ أقصى العقوبات لإيقافه.

وقد قام السلطان أبو سعيد، عندما وصلت أخبار ما وراء النهر المزعجة، بارسال جيش في السابع عشر من شهر يناير عام ١٤٦١م، بإمرة الأمير معز الدين شيرازي. وبعد مرور حوالي شهرين، توجه بنفسه الى هناك، مصطحباً قوات عظيمة. وإذ نُمي ذلك الى محمد جوكي، عقد في كوفن[٢٩] اجتماعاً مع الأمراء وقواد الجيوش، من قواته ومن الأوزبك الرحّل. وهنا تفجرت بينهم خلافات حادة، حول كيفية مواجهة الموقف، وتجهيز خطط المقاومة ضد معز الدين شيرازي وأبي سعيد. فقد ارتأى، مثلاً، يوركا سلطان وبشكاوي أوغلان، والأمراء الأزابكة الآخرون الأخذَ بخطة الهجوم، والمبادرة باحتلال ضفاف أمودار يا، لقطع الطريق أمام تحرك قوات أبي سعيد. وقد وافق على هذا الرأي جمع من الأمراء التشاغاتيين، بينهم محمد جوكي نفسه. أما القسم الأكبر من الأمراء التشاغاتيين، وعلى رأسهم نور سعيد بك والسلطان أرغين، فقد تحمس لخطة عمل أخرى، تقضي بالتمركز على طريق المسيرة المنتظرة الى الشمال، والتحصّن وراء أسوار شاه روح المنيعة، وبرروا خطتهم هذه، كما ورد في «تاريخ أبي الخير خان»، بأنه على الرغم من أن أبا سعيد، قد يدخل سمرقند، إلا أن بعض أمرائه سينقلبون عليه، وينحازون الى صفهم، وحينئذ ستكون لهم الغلبة، فيتمكنون من إنزال ضربة قاصمة، تكون فيها نهاية أبي سعيد إلى الأبد. وفي نهاية المطاف، سادت وجهة نظر أصحاب الخطة الثانية. وبناء عليه، غادر جيش التشاغاتيين معسكراتهم. ودون نظام، بدأ الزحف شمالاً نحو ضفاف سرداريا. وطبقاً لرواية عبد الرزاق السمرقندي، فقد أغضب الأوزبك الرحل رفض خطتهم. فتركوا مواقعهم، وقاموا بموجة من غارات النهب والسطو على القرى

---

(٢٩) ـ كوفن ـ قرية من أعمال كرمن.

المجاورة والبلدات القريبة، ثم رجعوا الى داشت كيبتشك. وقد كان هذا في صالح السلطان أبي سعيد، الذي زحف عبر أموداريا، وبدون مقاومة، توجه الى سمرقند.

غادر محمد جوكي والأمراء التشاغاتيون الى شاه روح، حيث، كما وصف السمرقندي، كانت حصناً قوياً منيعاً لا يمكن اقتحامه، وهي على ضفة سرداريا، تحيطها المياه من ثلاث جهات (سيحون)، ومن الناحية الرابعة، جهة اليابسة، حفرت خنادق ملئت بالماء، (أبكاندهات) وقنوات (جحاوات)، بحيث أصبح العبور خلالها مستحيلاً. وقد طوقت قوات أبي سعيد شاه روح من جميع الجهات، واستمرت الحرب حصاراً على مشارف المدينة مدّة أربعة أشهر، بدون أن ينجح في قهر مقاومتها. ثم إنه، في إثر تلقيه الأنباء المزعجة من خراسان، بادر مضطراً الى رفع الحصار، وسحب قواته، وتوجه بها الى شواطئ أموداريا. وكان ذلك بسبب نشاط السلطان حسين باي قارا التمرّدي، في استرأباد ومازاندران.

وبناء على ما ورد في «مطلع السعديين»، استغل السلطان حسين باي قارا، غياب السلطان سعيد عن خراسان، حينذاك، فاقتحم مازاندران من ناحية خوارزم، وأخضع منطقة أسترأباد. وقد قُتل الأميران الشيخ حجي والله بردا، اللذان كانا من أخلص المدافعين عن مازاندران وأسترباد، في وطيس الحرب مع السلطان باي قارا، وتشتتت قواتهما. ثم توجه السلطان حسين، بعد استيلائه على جورجانة، ناحية جيرات، وأصبحت العاصمة في خطر شديد، وأصاب امراءها حالة من الفزع. لكن المدينة استقوت بفضل الجهود المشتركة التي بذلها الأمراء وقواد الجبهات العسكرية، والحرفيون، وسكان المدينة، الذين اتخذوا الوسائل الفعالة لحمايتها. ويورد عبد الرزاق السمرقندي رواية تستحق الاهتمام عن ثبات الجيراتيين وبطولتهم، على مدى أشهر من حصار السلطان حسين لمدينتهم.

وفي نهاية الأحداث، طرد السلطان حسين باي قارا من بلدة جيرات أولاً، ثم من خراسان كلها، وأخيراً من مازاندران. وبعد ذلك، وفي بداية مارس عام ١٤٦٢م، توجه السلطان أبو سعيد، من جديد، الى بلاد ما وراء النهر. ووصل في نهاية ابريل

١٤٦٢م إلى سمرقند، وبعد استراحة قصيرة، وتجهيزات إضافية، توجه إلى شاه روح. وقد طال حصار المدينة المنيعة، هذه المرة إلى عام كامل، ولم يؤد حماس السلطان الشخصي، ولا المهارات الحربية والقدرات القتالية لقواته، ولا نشاط الجواسيس، طوال فترة الحصار، إلى النتيجة المرجوة. كما لم يتمكن أبو سعيد من إخضاع المدينة. ولم ينجح في ذلك قط، كما يشهد «تاريخ التيموريين»، إلا بفضل الثقل المعنوي والوضع الأدبي لرجال الدين: الحاج عبد الله أحرار وشيخ الاسلام برهان الدين، وغيرهما. وفي النهاية، قُضي على تمرد محمد جوكي بالوسائل السلمية، إذا صح التعبير. ولكن، وللعدل، يجب تقرير أن الضغط الأدبي الروحي، لرجال الدين، لم يكن السبب الرئيسي، الذي دعا محمد جوكي وبكواته إلى إلقاء السلاح. وبكلمات مسعود بن عثمان كوخستاني: «من المدينة المحاصرة، نفذ احتياطي المواد الغذائية والأعلاف، وعانى الناس والدواب معاناة جسيمة، الأمر الذي اضطر حماة الحصن: إلى اللجوء الى القواد الروحيين، طلباً للعون». وقد قام الحاج أحرار، كما روى السمرقندي، في البداية، بزيارة السلطان أبي سعيد، ثم توجه الى شاه روح المحاصرة، لمقابلة محمد جوكي وبكواته. ولكن محادثات حضرة إيشان مع محمد جوكي ونور سعيد بك ومزيد أرغين، لم تحقق نجاحاً، إذ لم يوافقوا على إقرار السلام طبقاً لشروط أبي سعيد في الاستسلام الكامل دون قيد أو شرط. وعند عودة الحاج أحرار، بهذا الرد الى أبي سعيد، واصل محادثاته معه، وتوصل إلى تنازلات من السلطان، وكذلك حصل على قَسَمٍ وتعهُّدٍ من قبله بالعفو عن الأسرى. ولذلك، وافق محمد جوكي وبكواته على إلقاء السلاح وفتح أبواب الحصن. وخرج محمد جوكي من حصنه، يرافقه أمراؤه، في الرابع من شهرأكتوبر ١٤٦٢م، وذهب الى معسكر السلطان أبي سعيد، الذي أظهر احترامه وتقديره للأمراء الثلاثة: محمد جوكي ونور سعيد بك ومزيد أرغين، سواء في شاه روح أو سمرقند، وخلف مزيد أرغين في سمرقند، واصطحب معه ميرزا محمد جوكي ونور سعيد بك الى جيرات. وهنا لم يستمر أبو سعيد في التمسك بما قطع من عهد، فوضع الأمور في نصابها، كما يرى. لقد قلد نور سعيد بك قيادة الجيش، واعتقل محمد جوكي في سجن حصن اختيار الدين، حيث قضى نحبه فيه كما ورد في «مطلع السعديين»

«وتاريخ أبي الخيرخان»، في ظروف غامضة جداً، ويرجح أنه قد قضي عليه سراً، بناء على تعليمات من أبي سعيد.

وهكذا تخلص السلطان أبو سعيد من واحد من أقوى معارضيه شكيمة.

وفي السنوات الأخيرة من حكم أبي سعيد، وبعد أن حازت امبراطورية التيموريين صيتاً ذائعاً، بدأت في فقد بريقها العالمي، وضعفت صلاتها القديمة مع جنوا و ڤنيسيا وأسبانيا وفرنسا، ومع غيرها من الدول. وعلاوة على ذلك، فقد تدعمت اتحادات الرحل، الكالمبيين والأوزبك، على حدود الامبراطورية، في الشمال والشمال الغربي، كما تدعمت آق كيونيل في الغرب. وفي عام ١٤٦٧م، أوقع أوزون حسن أحد مشاهير آل آق كيونيل (١٤٥٣ - ١٤٧٨م)، هزيمة بجاهان شاه زعيم الاتحاد الكونفدرالي لقاراكيونيل (١٤٣٨ - ١٤٦٧م)، واحتل تبريز. وكما هو ثابت، لقد كان أوزون حسن في عداوة مع السلطان التركي محمد الثاني، المشهور باسم محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١م). وعقد تحالفاً مع ڤينسيا عام ١٤٦٤م، فأمدته بالسلاح والمعدات الحربية، كما تحالف مع القارامانيين(٣٠) ومع حاكم الامارة الترابزونية (٣١)، وتلك الانجازات لم يكن لها مثيل بالطبع لدى السلطان أبي سعيد. وعلى كل حال، فقد بذل أوزون حسن عدة محاولات لتطبيع العلاقات مع السلطان أبي سعيد، بيد أن سفارته الى التيموري، لم تثمر. وعلاوة على ذلك، تميزت علاقته بأوزون حسن بالتوتر. وقد وضع أبو سعيد لنفسه هدفاً بأن يخضع غرب ايران وأذربيجان. وفي سبيل تحقيق هدفه هذا، زحف إليهما في ربيع ١٤٦٨م بجيش جرار، وخطّط لقضاء الشتاء في أذربيجان، ومواصلة مسيرته في الربيع التالي إلى أوزون حسن. ثم حدث أن توقف السلطان أبو سعيد في يراري موجان، حيث قرر

---

٣٠ - قارامانيون - قارامان، عائلة عظيمة، قادت الحكم في الأناضول الوسطى من عام ١٢٥٦م الى عام ١٤٨٣م.

٣١ - الامارة (الامبراطورية) الترابزونية - دولة كانت تقع الى الشمال الشرقي من آسيا الصغرى (تركيا) قامت في الفترة من عام ١٢٠٤ الى عام ١٤٦١م.

قضاء الشتاء فيها. وقد كانت الوقفة الأخيرة في حياته. حل شتاء ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩م قارسا، وتواصل سقوط الجليد، مع استمرار هبوب الريح العاتية، فعانى الناس والدواب معاناة كبيرة. ومع أواخر أشهر الشتاء، نضبت تموينات المواد الغذائية والأعلاف. وعلى رأس جيش عظيم العدد من الفرسان المنتقاة على ظهور كرام الخيل، تمركز أوزون حسن، في تلك المنطقة، معسكراً على مسافة قريبة جداً من موقع السلطان أبي سعيد. وكان الوضع حرجاً للغاية،وفي ظل هذه الظروف، طلب السلطان السلام، ولكن أوزون حسن رفض طلبه، واندلع القتال. اندحر جيش التيموريين، وكان النصر في جانب التركماني الآق كيونيلي، ووقع السلطان نفسه في الأسر، وطبقاً لرواية السمرقندي، كان ذلك في العشرين من شهر رجب ٧٨٣ هـ (٢ نوفمبر ١٤٦٩م). وبعد يومين جرى اعدام أبي سعيد.

واتحد السلطان محمود بن أبي سعيد، في مورغابة، مع السلطان احرار الذي خرج لمساندة والده. وفي السابع عشر من مارس ١٤٦٩م، خطب على منبر المسجد الجامع، في جيرات، باسم الأخوين، بيد أن محاولتهما في التمسك بالعرش باءت بالفشل، فقد وصل الى جيرات، بعد أسبوع، السلطان حسين باي قارا، وفي يوم الرابع والعشرين من الشهر نفسه، جرت الخطبه باسمه. وقد عزف الأخوان، في هذه الظروف، عن الصراع على عرش خراسان، ورحلا الى الضفة اليمنى لأموداريا، وسرعان ما انتقلت سيطرة التيموريين على الضفة اليسرى للنهر الى أيدي السلطان حسين باي قارا، وأولاده.

هكذا، بقي في أيدي خلفاء السلطان أبي سعيد، بلاد ما وراء النهر وحدها وصارت عبارة عن مجموعة من الجوتشي المنفصلة، المتناحرة فيما بينها. وقد لعب يونس خان المغولستاني دوراً بارزاً في تاريخ أبي سعيد، خصوصاً بعدما تصاهر، في السبعينات من القرن الخامس عشر، مع عمر الشيخ والسلطان ميرزا احمد. فعلى سبيل المثال، استقطع من عمر شيخ أوش أولاً، ثم طشقند وسايرام، في وعده بالمناصرة في الصراع ضد السلطان احمد.

أدت العلاقات المتوترة بين الأخوين، عمر شيخ وميرزا احمد، في نهاية الأمر، إلى نشوب الحرب بينهما. ففي عام ١٤٨٥م، وجه عمر الشيخ ميرزا، بالتحالف مع شقيق زوجته، السلطان محمود خان، حاكم طشقند (١٤٨٧ ـ ١٥٠٣م)، جيشاً إلى سمرقند. وبدوره، خرج السلطان أحمد، في جحفل كبير من جيشه، من سمرقند، لملاقاته. وتورد المصادر،خصوصاً السافي، تفصيلاً عن ذلك الصراع العظيم بين الحاكمين، غير البعيد عن شاه روح، بجيوشهما العظيمة العدد. وقد كان من أسباب سعادة البلاد والعباد، أن الأمر لم يكن قد وصل الى حد التحام الجيشين في قتال، حتى هب الحاج عبيد الله أحرار، تلك الشخصية الفذة، خادم السلام، الى القيام بدور الوسيط بين المتحاربين، وقد نجح في جمع الثلاثة معاً، عمر شيخ ومحمود خان وأحمد ميرزا، على بساط واحد، وحقق الصلح بينهم، وأقر السلام. إلا أن اتفاق السلام الذي توصل اليه بصعوبة كبيرة، لم يدم طويلاً. ففي عام ١٤٩٤م، هاجم السلطان أحمد، بجيش كبير العدد، أنديجان، وكما يتضح من الشواهد التاريخية، كان تحركه سريعاً. وبدون مقاومة تذكر، وصل حتى قووا الواقعة على مسيرة أربعة إيغاتش[٣٢] من انديجان. وكان لدى عمر شيخ وبكوات انديجان علم مسبق بذلك، فاستعدوا للحرب. ولكن، وخلال حمى الاستعداد للقتال، وقعت حادثة مؤسفة لحاكم فرغانة، حيث كان في أساكا، بمقره الصيفي، عندما صعد الى سطح مسكنه، مزاولا هوايته في الاستمتاع بأسراب الحمام التي يقتنيها، فسقط من فوق السطح ليلقى مصرعه فوراً. وطبقاً لرواية بابور، جرى ذلك في العاشر من شهر يونيو ١٤٩٤. وانتشر الاضطراب والفزع. غير أن السلطان احمد، لم يستغل تلك الفرصة السانحة، بل استدار بجيشه،وقفل راجعاً، ويبقى هذا الأمر دون تفسير واضح في مراجع التاريخ. ويظهر أن الذي حال دون تحقيق الهدف الأساسي لتلك الحملة، هو مرض السلطان احمد نفسه، والذي أودى بحياته، بعد ذلك، في أثناء عودته الى سمرقند، حيث قضى نحبه في أورانتبه. وعلى قول بابور، مات السلطان احمد، بعد مضي أربعين يوماً على وفاة عمر شيخ ميرزا، وان كان ذلك صحيحاً،

---

٣٢ ـ ايغاتش ـ وحدة الطول لقياس المسافات وهي تعادل حوالي ستة كيلو مترات.

فقد حدثت وفاته في التاسع عشر أو العشرين من شهر يوليو١٤٩٤م (منتصف شوال ٨٩٩ هـ).

وقد اعتلى العرش، خلفاً للسلطان أحمد، السلطان محمود، الذي حكم منذ عام ١٤٦٩م، مناطق ترمذ وتشاغانيان وخيسار وخوتالان وكوندوز وباتلار وبادخشان. ولم يمتد به الأجل بعد موت أخيه أكثر من ستة أشهر، إذ توفي في ديسمبر ١٤٩٤م، في ظروف بالغة الغموض. وطبقاً لما سجل خوندومير: لقد كان شخصاً بسيطاً، ولكنه سبّب الكثير من الغضب لدى عامة الناس، لم يكن في وفاق مع خلفاء الحاج عبيد الله أحرار، ذوي المكانة الرفيعة. ويورد بابور، العالم بالوضع الاجتماعي والسياسي جيداً في بلاد ما وراء النهر، خصوصاً في العاصمة سمرقند، خلال التسعينات من القرن الخامس عشر، عن ذلك الحادث رواية تستحق الاهتمام. وطبقاً لذلك، كان سقوط السلطان محمود مرزا السريع، نتيجة لسياسة الضريبة، التي طالت قادة المسلمين أنفسهم، والقسوة وعدم احترام القانون من جانبه ومن جانب حاشيته، حتى ضد ذرية الحاج أحرار. وعن ذلك نقرأ في بابورنامة: «كانت طبيعته تميل الى العنف والخيانة». وبدأ، عند قدومه سمرقند، فوراً، في وضع القواعد والنظم الجديدة، وفرض الضرائب. ولقد كان الناس الموالين للحاج أحرار، ومن بينهم كثير من الفقراء والمساكين، بمعزل عن التعسف في فرض الضرائب، بفضل حماية الحاج أحرار لهم، ولكنهم الآن صاروا يرزحون تحت وطأة الاضطهاد والعنف، الذي وصل الى أهل الحاج أحرار». ويشير بابور الى خلاصة أخرى: فقد أدى الموت المفاجئ للسلطان محمود الى التعجيل بالصراع بين التيموريين أنفسهم على العرش، ومنهم مالك محمد ميرزا بن منو تشخرا ميرزا وشقيق السلطان أبي سعيد، وميرزا آخر لم يرد اسمه. ويمكن اجمال القول إن السلطان محمود ميرزا قد راح ضحية الصراع بين المطالبين بالعرش ومؤيديهم من الزعماء الروحيين.

وقد كان للسلطان محمود ثلاثة أبناء: السلطان مسعود وبايسنكور والسلطان علي. وقد تولى الأول، في حياة أبيه، حكم خراسان، وحكم الثاني بخارى وأعمالها،

وحكم الثالث قارش. وقد اعتلى بايسنكور العرش خلفاً لأبيه، وكان له من العمر، حينذاك، ثمانية عشر عاماً.

لقد حفلت فترة حكم بايسنكور القصيرة باستشراء النزاعات الداخلية والشقاق بين ورثة الحكم، وقد أذكى هذه الأحداث، الأمراء والوجهاء من علية القوم، خصوصاً الزعماء الروحيين الذين تفرقوا فرقاً حول المتنافسين. وفي عام ١٤٩٥م، تبلور بوضوح، تشكُّل فرقتين، متضادتين متعاديتين، فوقف قسم من الأمراء: أحمد حاج بك ومحمد كولي كاأوتش وحسن شارباتشي وآخرون، برئاسة شيخ الاسلام حاج أبي المكارم، وقفوا إلى جانب بايسنكور ميرزا، في حين أيد الأمراء درويش محمد طرخان ومحمد مزيد طرخان وغيرهما، بالتحالف مع الحاج محمد ياقتوى ابن الحاج أحرار وخليفته، السلطان علي ميرزا.

وتزامن في ذلك الحين، قيام السلطان محمود خان، حاكم طشقند، بالهجوم على سمرقند، ضد السلطان بايسنكور ميرزا. ويذكر كمال الدين بيناي أنه لم تكن هناك شواهد عن الوضع الحقيقي في سمرقند، خصوصاً عن مدى امكانيات بايسنكور مرزا، الذي تجند، تحت لوائه، أكثر من ثلاثين ألف محارب، بقوادهم، من سمرقند وخيسار وشدمان. ومثل ذلك أورده بابور، وان لم يتعرض لتعداد الجند، فيكتب أن بايسنكور ميرزا قد هبَّ ضد المغول، أي السلطان محمود خان، بجيش قوي، كثير العدد جيد التسليح. وبحسب قول المؤرخ: كانت الموقعة بين بايسنكور ومحمود خان، في بلدة كون باي (كون باي دولدي)، قاسية ودموية، ونقرأ عنها في «بابور نامه» ما يلي: تقلد حيدر قوقك تاش، العمود الأساسي للجيش المغولي، قيادة الطليعة، وترجل جميع جنوده عن الخيل، وصاروا يرمون السهام. واهتاج الحماس الكثير من فرسان الايجيثين، من سمرقند وخيسار، فزجروا الخيل الى الأمام، ووقع المغول، الذين كانوا بقيادة حيدر بك، وقد ترجلوا عن خيلهم، تحت سنابك الجياد. وعندما قبضوا على حيدر بك، لم يستطع المغول أن يستمروا في القتال، وقهروا رغم كثرتهم. ويقدر كمال الدين بيناي، الرقم الصحيح لخسارة المغول، عند

كونباي، بثلاثة آلاف قتيل.

وكان أول من برز للهجوم من هاتين الفرقتين المتعاديتين، أمراء تارخان، الذين كما ذكر خوندمير» تمنطقوا بحزام العداوة، ورفعوا راية العصيان، في سمرقند»،وطبقاً لبابور، فإن تمرد الطرخانيين جرى في شهر محرم ٩٠١ هـ (سبتمبر - اكتوبر ١٤٩٥م). وفي بداية اندلاع التمرد، بعث بايسنكور الى خيسار سترمان الرسل، طالباً العون من ملازميه القدامى والأمراء، ويبدو أن مناصريه هناك كانوا أكثر منهم في سمرقند. ويسجل بابور «: لم يعمل بايسنكور ميرزا، ولم يتصل ولم يتصادق مع بكوات سمرقند ومحاربيها، كما كان يفعل مع الخيساريين». وتطورت، بعد ذلك، الأحداث على النحو التالي: «استدعى أمراء ترخان. والحاج محمد يحيى، السلطان علي ميرزا من قارش، واصطحبوه معهم الى باغيناو، ليلاً، حيث كان هناك، في الوقت نفسه، ميرزا بايسنكور. وبضربة خاطفة مفاجئة، انقضوا على الحرس والملازمين، وقبضوا على بايسنكور، أسيراً. واقتيد أمير العرش بايسنكور والسلطان علي الى سمرقند، حيث اعتقل بايسنكور في سجن كول سراي، ونودي بالمرزا علي، سلطاناً على بلاد ما وراء النهر. غير أن بايسنكور تمكن من الهرب، ونجح في الاختباء في بيت الحاج أبي المكارم الكائن في خوج كغشير. ويحكي بابور تفصيل ذلك: ذهب بايسنكور لقضاء حاجته، الى بناية في الجهة الشمالية الشرقية من بستان سراي، وعلى بابه وقف طرخانون، وقد رافق الميرزا محمد كولي كاأوتش وحسن شرباتشي. وكان في الجهة الخلفية، حيث ذهب الأمير لحاجته، باب موصد بالحجارة، يفضي إلى فناء خارجي، فقام لتوّه بهدم الحاجز، وانطلق في وحل المجاري، حتى جدران الحصن المطلة على غادفار، ورمى بنفسه من فوق الجدار، وأسرع يعدو باتجاه خوج كغشير، الى بيت جودجاجي خوجة». وحاول السلطان علي والأمراء الطرخانيون، جاهدين العثور على بايسنكور الهارب، فلم يفلحوا. ثم انه، بعد يوم او يومين، تحرك أنصار بايسنكور، ضد السلطان علي ومؤيديه، وتمكنوا من اعتقالهم في آرك. والمثير هنا، أنهم تلقوا

في نشاطهم هذا، تأييد العسكريين، وحظوا برضاء عامة الناس في البلد. وقد استولى على آرك، ولم يتمكن من أفراد الفريق المعادي من الفرار من المدينة، سوى محمد مزيد طرخان، أما الباقون، بمن فيهم السلطان علي ودرويش محمد طرخان، فقد قبض عليهم، وسيقوا إلى بايسنكور في خوجة كفشير. وقد أعدم درويش محمد طرخان في مكانه، في حين أمر بايسنكور بترحيل السلطان علي الى كول سراي، وسمْل عينيه. لكن السلطان علي تمكن من الافلات من العقاب والفرار من كول سراي. ونجح في الاختباء في بيت خوجة محمد يحيى أولا، ثم بعد مرور عدة أيام، واصل فراره الى بخارى. وبناء على خوندمير، فقد ساعده في فراره أحد مبشري بايسنكور.

وبمرور الزمن، ازدادت حدة الأزمة السياسية في ما وراء النهر. وفي الصراع على سمرقند، اقتحم الحلبة اثنان آخران من أدعياء الحق في الحكم هما السلطان مسعود ميرزا، حاكم خيسار شدمان وخوتالان، ومحمد ظهير الدين بابور. وكان مسعود ميرزا متمتعاً بقوى كبيرة، بالاضافة الى تأكيد الأمير الوالي، الأخ الأصغر، خسرو شاه، الموجود في شهر سابز. وعقد بابور تحالفا مع خوجة محمد يحيى، وفي أواخر رمضان ٩٠٢ هـ (مايو - يونيو ١٤٩٧م)، حل بسمرقند.

وعودة الى سلطان علي وبايسنكور: فانهما ومنذ ربيع عام ٩٠٢ هـ (سبتمبر - أكتوبر ١٤٩٦م)، وقفا بجيشهما في مواجهة بعضهما بعضاً، دون حراك. وكان بايسنكور في ساريبول، وغريمه في خوجة كردزان. وطوال الصيف و الخريف من عام ١٤٩٧م، دارت اشتباكات متبادلة، ولكن لم ينجح أي منهما في الاستيلاء على عاصمة ما وراء النهر. وقد رحل السلطان علي، بعد عدة اشتباكات مع بايسنكور، الى بخارى، أما بابور، فانه مع مقدم فصل البرد، رحل الى حصن خوجة ميدار.

وقد ساءت حالة بايسنكور، في المدينة المحاصرة، يوما بعد يوم، وأنهكت قواه، واشتد التنافر بين أمرائه. وقبل ذلك، وفي ربيع ٩٠١ هـ (١٤٩٦م)، فارقه جماعة

من أمرائه: قاسم دولداي وفايز لاجاري وحسن نابير وسلطان محمد سايقال، مع قواتهم، واتحدوا مع بابور، في مكان يقال له أبيار (كروك) (عند خوندمير: كروك زيبا). وفي العام التالي ١٤٩٧م، حانت أكثر الأوقات شدة بالنسبة لبايسنكور، وكان قد أرسل رسلاً كثيرين إلى شايباني خان، الموجود وقتها في تركستان، محاولا اغراءه لدخول الصراع، ومن ثم قرر الخان استغلال هذا الظرف، ووصل بجيشه الى قرب خوجة ميدار، ولكنه لم يلتحم مع جيش بابور في قتال، بل واصل مسيرته باتجاه سمرقند[٣٣]. قابله بايسنكور طبقاً لرواية بابور وخوندمير، ببرود شديد، فلم يسع الخان إلا أن يعود، يائساً، إلى تركستان. وكما يتضح من «شيباني نامة» لبنائي، لم يكن رجوع شيباني، فقط لهذا السبب، ولكن كانت هناك ملابسات أكثر جدية. كابد الخان، في ذلك الوقت، مشقة كبيرة، في ربيع ٩٠١ هـ (سبتمبر - أكتوبر ١٤٩٥م)، وخصوصاً صراعه الحاد ضد بوروندوق خان، الذي استولى على سورام، وأسر شقيق شيباني محمود سلطان، حاكم تلك المدينة الحصينة، وأرسل الى طشقند لدى السلطان محمود خان، حليفه، وعدو شيباني. هذا بالاضافة الى أن أمراءه القدامى، وفريقاً كبيراً من سلاطينه: سيونتش خوجه خان ولوتشكونجي خان وحمزه سلطان ومهدي سلطان، وغيرهم، كانوا، في ترحال جول داشت كبتشاك، وكان حمزة سلطان ومهدي سلطان، في الخدمة لدى بايسنكور، في سمرقند. وعلى ذلك، لم يكن لدى شيباني خان، القوة الكافية للصراع من أجل سمرقند، علاوة على تهديد حكمه في تركستان، من جانب بوروندوق خان، القوى المؤثرة، وأقربائه.

وقد عجل في نهاية الصراع، في ما وراء النهر، انحياز كثير من الأمراء الى جانب بابور، ومغادرة السلاطين الشيبانيين لسمرقند، بالاضافة الى حصار العاصمة من قبل بابور، الذي طال لمدة سبعة أشهر. وفي صيف ١٤٩٧م، استحوذ

---

٣٣ - توقف شيباني خان عند حصن سار أولانج، الواقع على ضفة نهر كوخاك (خوندمير).

بابور على سمرقند. وارتحل بايسنكور الى خسروشاه، واتحد معه في كوندوز، ثم إن قدره انتهى به نهاية مأساوية للغاية، فقد قتله خسروشاه لدى هجومهما المشترك على بلخ، وجرت هذه الأحداث، طبقاً لبابور، يوم العاشر من محرم ٩٠٥ هـ (١٨ أغسطس ١٤٩٩م)، على جسر آبقاج[٣٤]. وكان قد تخلص قبل ذلك بعامين عام ٩٠٣هـ (١٤٩٧م)، غدراً كذلك، من السلطان مسعود مرزا، حيث طعن عينيه بسيخ محمي. والآن صار خسروشاه حاكماً معلن السلطة على كوندوز وباجلان وخوتالان وبادخشان وخيسار شرمان. وبعد خروج بايسنكور من سمرقند، دخلها بابور وحكمها مدّة مئة يوم بالتمام. وقد غادرها يوم السبت من شهر رجب ٩٠٣ هـ (٢٤ فبراير ـ مارس ١٤٩٨م)، في حين دخلها في أول ربيع الثاني ٩٠٣ هـ (٩ ديسمبر ١٤٩٧م).

وقد جرى حكم بابور لسمرقند، خلال مائة يوم، في ظروف بالغة القسوة، من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. ويروي بابور نفسه عن ذلك: «نفذت الغنائم سريعاً، وعندما احتلت سمرقند كانت مدمرة لدرجة أن أهل البلد كانوا في مسيس الحاجة الى الحبوب والمال، فعانى المحاربون من هذا النقص الشديد، إضافة الى حنينهم لأوطانهم. ومن ثم بدأوا الهرب زرافات ووحداناً، وأول من فر كان خان قل ابن بيانقل، وبعده ابراهيم بكتشك. وقد فرّ المغول عن بكرة أبيهم، ثم السلطان احمد تنبل».

وهذا ما ينقله خوندمير، وكما هو معلوم، فإن غنائم الحرب احتلت مكاناً هاماً في حياة مجتمع الاقطاعيات وحكامها، وقد قدمت نفعاً كبيراً ليس للأشراف والأعيان فحسب، بل للجند وعسكر الجيوش. تحققت الغنائم من طريق الإغارة والحروب الإقليمية، والهجمات على البلاد المجاورة. وعلاوة على ذلك، فإن هذه

---

٣٤ ـ معبر في أموداريا على حدود اقليم كوباديان.

الغنائم والاسلاب كانت وسيلة مجدية، في أيدي أشراف الاعيان الاقطاعيين والخانات، لاخضاع بسطاء البدو، والسيطرة على الرحل، وعلو الشأن واسترداد النفوذ. ولهذا فإن أعيان الاقطاع، والأشراف، مثل بسطاء الجند، كانوا يساندون الخانات والباد شاهات، طالما قادوا حروباً انتصروا فيها، أما في الأحوال العكسية، فكانوا ينفضّون من حول الحكام. وقد حفظ التاريخ كثيراً من الشواهد على ذلك. وهذا ما حدث مع بابور، حيث لم يكن في حالة تمكنه من شن حرب يكتب له فيها النصر، ولم تَقْوَ سمرقند المخربة على اعالته واعالة جنده. وقد كانت الحالة السياسية متردية تنذر بالسقوط. وفقد، في هذه الأيام بالذات، سيطرته على فرغانة، حيث سلبها منه احمد تنبل وأوزون حسن، ولم يكن لدى عمه السلطان محمود خان، حاكم طشقند ، امكانية تقديم مساعدة فعالة له، نظراً لقلقه على مصير حكمه، وارتباطه بمساعدة بوروندوق خان وشيباني خان.

وبعد انتزاع الحكم على فرغانة، آلت السلطة في سمرقند الى أيدي محمد مزيد طرخان، في حين نجح السلطان علي في احتلال عاصمة ما وراء النهر، وصار حاكما ولكن بالاسم فقط، حيث كانت السلطة تامة وفعلية في أيدي باكي محمد طرخان ومحمد مزيد طرخان، الأول حاكم بخارى وكرمين وقاراكول وله جيش يقدر بعشرات الآلاف من المحاربين، والثاني حاكم سمرقند وأقاليمها. وعلى هذه الحال، كانت حياة سلطان علي مرزا وأوضاع بلاطه وحاشيته، متوقفة تماماً على الأمراء الطرخانيين. ويشير بابور: «لم يعط باكي طرخان أحداً فلساً واحداً من ثروة بخارى. وكذلك كان محمد مزيد طرخان، حاكما كامل السلطة على سمرقند، استولى على كل المقدرات لصالح أبنائه وأشياعه وأتباعه، وباستثناء قدر يسيرٍ من مدخول المدينة، خُصص للسلطان علي مرزا، لم يكن يصل اليه فلس واحد من أي طريق آخر».

وفي العام ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م)، حيكت مؤامرة ضد محمد مزيد طرخان، فيما يبدو، دون اشتراك خوجة محمد يحيى، وحينما استشعر ذلك، فر من سمرقند

تصحبه أسرته وخدمه وحراسه الخصوصيون وأمراؤه: سلطان حسين أرجون وبير أحمد وخوجة حسين وصالح محمد، وغيرهم. ويقول خوندمير إنه حمل معه الخزنة وكثيراً من النفائس.

ولما صار وضع السلطان علي ميرزا مزعزعاً. واصل محمد مزيد طرخان صراعه ضده، وجر معه في ذلك السلطان عويس ميرزا، شقيق السلطان علي، المشهور باسم ميرزا خان، والذي أيد السلطان محمود خان، وأمده بجيش بقيادة محمد حسين دوجلات، والد عالم التاريخ المعروف محمد حيدر ميرزا، وأحمد بك، وغيرهما من الأمراء. سار خان ميرزا والجيش المغولي الى سمرقند بخطى حثيثة، وسرعان ما وصلوا الى منطقة شاورار، الواقعة جنوب شرقي سمرقند، وهناك تمت المقابلة بين محمد مزيد وبكواته المرابطين، وحينذاك في حصن شاورار، وخان ميرزا وبكوات المغول. إلا أن التوجس بعدم الثقة المتبادلة، لم يؤدِّ الى عقد التحالف.

وكما سجل بابور: «انسحب بكوات محمد مزيد، لأسباب واهية، من الجيش المغولي». وفي إثر ذلك، غادر الموقع، خان ميرزا والمغول متوجهين الى يار يابلاك، ولم يشتبكوا مع القوات التي أرسلها ضدهم السلطان علي، وفروا باتجاه طشقند. وقد جرت هذه الأحداث، طبقاً لبابور وخوندمير، في ربيع ١٥٠٠م.

ولم يُلْقِ محمد مزيد طرخان السلاح بعد هذه الأحداث. وبعث الى انديجان مير مغول، واستنجد ببابور في سمرقند. وقد انقض بابور وجاهان جير ميرزا، في شهر ذي العقدة ٩٠٥ هـ (يونيو ١٥٠٠م)، على سمرقند. غير أن الأمور تطورت بسرعة بالنسبة لبابور ولمحمد مزيد، وقد صار معلوماً في أورا تيبا، أن شيباني خان قد ألحق الهزيمة بمحمد باكي طرخان، وتقدم لاحتلال بخارى. وصل بابور إلى القرب من سمرقند، وحاول جاهداً اقتحام المدينة، بمساندة خوجة محمد يحيى. وقد سافر خوجه محمد علي كتابدار، رسولاً لبابور، غير أن رد الايشان العظيم كان غير محدد ولم يعد بشيء، وكذلك عاد جور بارلاس من سفره للتجسس في

بخارى، بأنباء محزنة، مفادها أن شيباني خان، بعد أن استولى على بخارى، توجه فعلاً الى سمرقند. وهنا، لم يعد أمام بابور ما يمكنه عمله، ومن ثم رحل الى شهر سايز.

وبذلك أدت الحروب الداخلية، والخصومات، بالاضافة الى غياب السلطة المركزية القوية، إلى ضياع بلاد ما وراء النهر، في نهاية الأمر، ثم استحواذ الأوزبك الرحّل عليها، وعلى رأسهم شيباني خان.

وعلى وجه التقريب، ساد هذا الوضع قبيل غزو الأوزبك الرحل لخراسان. ولكن هذا الأمر، موضوع بحث آخر.

العلوم والثقافة والفكر العقائدي من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر

أدى الاجتياح المغولي إلى تدمير شديد في معظم النواحي الاقتصادية والثقافية لبلاد ما وراء النهر. وقد جاء في وصف المؤرخ ابن الاثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٤م) لهذه الأحداث أنها «مأساة بشعة، ومصيبة فادحة، لم ير مثلها ليل ولا نهار على سطح الأرض، عمت البلاد والعباد». وقد اكتسح هذا الغزو، في طريقه، جميع الوديان الخصيبة، والبلدان العامرة، والمدائن الزاهرة، وحوّلها إلى أطلال خربة.

وبداية من النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ابتدأ بعث بلدان ما وراء النهر بمدنها وقراها. ومن أبرز ما تم من المنجزات الأولى، ما قام به الوالي المغولي الاقليمي مسعود بك (١٢٣٩ ـ ١٢٨٩م)، حيث بدأ تشييد مدينة بخارى، وأقام مدرستين كبيرتين هما المسعودية والخانية في عام ١٢٦١م. وقد شيدت الخانية على نفقة أرملة تولوي خان، والدة كل من موفقي خان (١٢٥١ ـ ١٢٦٠م)، وهولاكوخان (١٢٥٦ ـ ١٢٦٥م)، مؤسس دولة الخانيين. ويرجح الباحثون، أن المدرستين كانتا ثنائيتي الطوابق، في كل منهما العديد من حجرات قاعات الدرس، واشتملتا على مساكن لمعيشة الدارسين، وأفنية واسعة. ولكن، لم يبق منهما أثر قائم حيث احترقتا جميعا في عام ١٢٧٣م، زمن اجتياح جيش هولاكوخان.

وكذلك تلاشى القصر العظيم، الذي شيده في ضواحي مدينة «لسف» أحد كبراء

ورثة تشاغاتاي، وهو كيك خان (١٣١٨ ـ ١٣٢٦م)، كما زال زنجير سراي (قصر السلاسل)، الذي شيده قازان خان (قتل عام ١٣٤٧م)، في مقاطعة قاشقا داريا.

والأثر الوحيد، الذي ظل باقياً، لعمارة ما وراء النهر، في القرن الثالث عشر حتى وقتنا الحالي، هو الضريح الشهير، للشيخ سيف الدين البخارزي (١٢٩٠ ـ ١٢٦١م)، خليفة الطريقة النقشبندية، وأستاذ المدرسة الخانية في بخارى ومُتولِّيْها، والتي سبقت الإشارة اليها.

ولقد سارت عمليات البناء والتشييد، في بلاد ما وراء النهر، منذ القرن الرابع عشر وحتى الوقت الحالي، في طريقها، من مدن سمرقند، وشهر سابز، وبخارى وجورجانج، وغيرها. وأكثر ما شيد كان حصوناً دفاعية، وقصوراً وأضرحة، وحدائق منتزهات تشارباغ.

لقد تم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إنشاء مجموعة أضرحة، في الناحية الجنوبية من مدينة «أفراسياب» عرفت باسم «شاهي زندا» (القيصر الحي). بدأ إنشاؤها في القرن الحادي عشر، حول قبر قصي بن عباس، ابن عم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومبعوثه، والذي استشهد في عام ٦٧٦م. وقد بني حولها تايغاتس يوغرا خان، وعلى جانبي السلم الرئيسي، عدداً من أضرحة الدفن لكل من: تو غلوك تيغين (١٣٧٨م) وشرين بكه، أختي تيمور، وتورقان أوغا وتومان أوغا، زوجتيه (١٤٠٥ ـ ١٤٠٦م)، وشخص مجهول (١٣٧٠م)، والحاج أحمد (القرن الرابع عشر)، وشادي ملك (١٣٧٢م)، وقازي زاده الرومي (١٤٣٧م).

كما شيدت قصور فارهة، رباعية الطوابق، في الأرجاء الحصينة من المدينة مثال، كوك سراي (القصر الأخضر)، وبستان سراي (قصر الحدائق). فكان الأول ترسانة حربية، ومخازن للأسلحة وورش تصنيعها، وداراً لصك النقود، وسجناً لعلية القوم، في حين ضم بستان سراي دواوين الحكم. وفي ذلك الحين، في سبعينات القرن الرابع عشر، وفي الجهة المقابلة لمبنى جور امير (قبر الأمير)، بُوشر بإنشاء أق سراي (القصر الأبيض)، ضريحاً لدفن تيمور، والتيموريين من بعده،

وقد ظلت دون اكتمال. كذلك، وخلال الأعوام من ١٣٩٩م وحتى ١٤٠٤م، شيدت بيبي هانم (زوجة تيمور لنك الأولى، والأثيرة لديه)، أعظم المساجد اتساعا في حينه، وهو المسجد الجامع.

وقد بذل الكثير من الجهد لإعمار مدينة سمرقند وازدهارها، في عهد أولوغ بك (١٤٠٩ ـ ١٤٤٩م)، ومن شواهد ذلك: متحف جاليري في شاه زندا، ومدرسة في بخارى (١٤١٧م)، ومدرسة في سمرقند (١٤٢٠م)، وفي غجدوان (١٤٣٣م)، والمرصد الفلكي في ضاحية تشوليان أتا (١٤٢٤ـ ١٤٢٨م).

وقد شيد الكثير في مدينة شهرسابز، من ذلك: مسجد كوك جومباز (القبة الخضراء) (١٤٣٥ ـ ١٤٣٦م)، والضريح الأثري التذكاري «دار التلاوات[1] في بداية عام ١٣٨٠م.

هذا بالاضافة إلى العديد من المنشآت الأخرى، التي يمكننا ذكر بعض منها مثل أضرحة دفن كل من: الحاج أحمد يَساوي في تركستان (بداية ١٣٩٨م)، وتورابك هانم في أورجنتش (السبعينات من القرن الرابع عشر)، وحضرة الشيخ الإمام معين في بشكنت (القرن الرابع عشر)، وبيانقل خان في بخارى (منتصف القرن الرابع عشر).

وينبغي هنا، أن نورد ذكر التجمعات العمرانية، التي وجدت في ذلك الحين، وكانت مدينية الطراز، وأطلق عليها أسماء البلدان العريقة الشهيرة مثل: مصر، دمشق، بغداد، سلطانية، شيراز. وكما جاء في تاريخ أوزبكستان: «كان هناك توجه سياسي معين، القصد منه أن تظهر هذه المدائن الصغيرة، خابية أمام سمرقند، المدينة العظيمة الغنية». كما قام تيمور بتصميم وانشاء عشرة منتزهات، ضمت قصوراً ونافورات ومسابح: باغ بالانت (الحديقة العالية) في شمال المدينة، وباغ بهشت (حديقة الجنة) في غربها، وباغ دولت أباد (حديقة دولة أباد) في الشرق،

---

١ ـ كان مشهوراً في ذلك الحين تشييد مكان خاص، غالبا بجوار أحد مشاهير الصوفية، يعتكف به شلة من مريديه لمدة أربعين يوماً، يتلون الأذكار والأوردة والأدعية.

وباغ دلكوشا (حديقة سعادة القلب) على بعد ٦ كيلومترات شرق المدينة، وباغ جاهان (حديقة العالم) في الجنوب، وباغ زبان (حديقة اللسان) في الشرق، وباغ ميدان (حديقة الميدان) في الشمال، وباغ نوا (حديقة الموسيقى) في الجنوب، وباغ تشنار (حديقة) في الجنوب الغربي، وباغ شمال (حديقة الشمال) في شمال المدينة.

في هذه الحقبة، وخصوصاً في بداية النصف الثاني من القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الخامس عشر، تطورت الفنون الجميلة والتطبيقية، وحققت تقدما كبيراً، الأمر الذي يعكسه كثير من الرسوم التي تصور المناظر الطبيعية على اللوحات الجدارية في الأجزاء المتبقية من المسجد الجامع الذي شيدته بيبي هانم، وفي مقبرتي شيرين بك وتومان أوغا، وفي مرصد أولوغ بك في سمرقند، وفي أق سراي في شهر سابز. وكذلك كانت الرسومات الدقيقة أو ما عرف باسم «فن المنمنمات»، رسومات متقدمة أيضا. ويجب القول إنه كان لسمرقند مدرستها الخاصة في فن المنمنمات، خلال الفترة من نهاية القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر، وكان من أشهر روادها الحاج عبد الحي. ويحفظ التاريخ، من بين فناني سمرقند الرواد، أسماء: بير أحمد باغ شمالي، وجاهان جر البخاري، ومنصور. كما كان فن الحفر على الخشب فناً متقدما، وكذلك كانت فنون تشكيل الأحجار والرخام ونقشها، والصناعات الخزفية، كالنقش بالجبس.

كما برع فن تجليد الكتب، وتحسين الخطوط، وكان من البارزين في هذا المجال عمر أوكتا.

ولقد استمر خلال عهد أولوغ بك، في بلاد ما وراء النهر، رقي العلوم الدينية، كعلم القرآن، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلم الشريعة الاسلامية وعلم الحساب (الرياضيات)، وعلم الفلك، وعلم الطب، والكثير من العلوم الانسانية والاجتماعية مثل: الفلسفة، والتاريخ، والأدب، وقواعد اللغة، وأوزان الشعر، والموسيقى وغيرها. ونجد في المصادر، خصوصاً لدى ابن العرب شاه، ونظام الدين الشامي، ودولت شاه السمرقندي، وميرخوند، وخوندمير، فصولاً جيدة، تسترعي الانتباه، عن منجزات الكثير من المشتغلين بتلك العلوم أمثال: عالم الدين جمال الدين احمد

الخوارزمي، والفقهاء: عبد المالك وعصام الدين والشيخ شمس الدين محمد بن جازاكري (المتوفى عام ١٤١٩م)، والفيلسوف سعد الدين التفتازاني (توفي عام ١٣٨٩م)، ومير سعيد شريف الجورجاني (١٣٣٩ـ ١٤١٣م)، ويوسف القاراباغي (توفي عام ١٦٤٦م)، واللغوي محمد عليم، والحاج فضل الله أبو الليثي، والأديب شيخ عريف الأزاري (١٣٨٢ ـ ١٤٦٢م)، وعلماء الرياضيات والفلك: قاضي زاده الرومي (توفي حوالى عام ١٤٣٦)، وغياث الدين الجامشيدي (توفي عام ١٤٢٩م)، وعلي قوستشي[٢] (١٤٠٤ ـ ١٤٧٤م)، والطبيب برهان الدين نفيس الكيوماني، (المشهور في عالم الطب حتى اليوم باسم «ابن النفيس»)، ورواد الموسيقى: عبد القادر المراغي، وابنه صفي الدين أردشير تشانجي، والفنان عبد الحي البغدادي، والشعراء: سكاكي، وهوائي، والحاج عصمة الله البخاري، وقابال بادخشا، وغيرهم.

أشرنا فيما تقدم إلى الكثير من العلوم البحتة والانسانية، والآن نتوقف قليلا مع العلوم الدينية، من قرآن وسنّة وفقه، وكذلك مع أعلام الطرق. فمن علماء القرآن، نخص بالذكر حافظ الدين أبا بركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفي (توفي عام ١٣١٠م) صاحب مؤلف «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، وأبا سعيد عبد الله بن عمر ابن محمد بن علي البيضاوي (توفي عام ١٣١٦م)، واضع مصنف «أنوار التنزيل وأسرار التأويل». وقد كان الامام النسفي رحمه الله من أتباع المذهب الحنفي، واشتهر كعالم دين وقانون، في القرن الرابع عشر، وعمل مدرسا بمدرسة القطبية السلطانية في كرمان، ومات ودفن في خوزستان. وقد حاز مؤلفه المذكور انتشاراً واسعاً خارج بلاد ما وراء النهر، خصوصاً في أفغانستان، وهندستان. وقد خط قلمه عملاً آخر، أسماه «الوافي من الفروع»، خاصاً بعلوم الفقه، تناول فيه مبادئ قواعد الفقه (الأصول) كما أوضح تطبيقاتها العملية (الفروع). وشن رحمه الله حملة شعواء على المفاهيم المرتدة والإلحادية المدسوسة على الاسلام، والتى كان

---

٢ ـ المساعد الأول لأولوغ بك. قام بحفظ كل أعماله وكتاباته، بعد أن قام ابنه باغتياله، وحفظها من الضياع والتخريب.

يروج لها المهرطقون. أما فيما يختص بالشيخ البيضاوي، فقد عمل قاضياً في شيراز، ويرجح أنه دفن في سيرام (أسفيجاب)، وذاع صيت كتابه الذي اشتهر عامة باسم «تفسير البيضاوي».

وقد حقق علم الفقه تقدماً كبيراً، وقدمت بلاد ما وراء النهر فريقاً من علماء الاسلام. ويحفظ التاريخ أسماء كثيرة لامعة لأقطاب هذا العلم الأجلاّء أمثال: أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمد النسفي (توفي عام ١٣١٠م) الذي جمع في كتابه «منار الأنوار في أصول الفقه» قواعد الاسلام والمبادئ الاساسية في أحكام الشريعة الاسلامية. وكذلك حظي كتاب لطف الله النسفي «فقه الكيداني» بالاهتمام في الشرق الاسلامي.

وظهر الكثير من المصنفات في مجال التصوف والصوفية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، نذكر منها: «الرسالة» و«الرسالة القدسية» و«مقامات خوجة علاء الدين العطار»، و«التحقيقات»، و«الرسالة المحبوبية» لخوجة محمد يارس (توفي عام ١٤١٩م)، و«مناقب خوجة علي عزيزان الراميتاني» لمحمد بن نظام الخوارزمي، وفيه سرد السيرة الذاتية وجمع أقوال الشيخ خوجة راميتاني (توفي عام ١٣٢١م)، و«سلك السلوك» لذائع الصيت مولانا الامام ضياء الدين النخشابي (توفي عام ١٣٥٠م)، ويشتمل على المصطلحات الصوفية، وروايات عن مناقب الصوفيين الأوائل مثل: ربيعة، والجنيد البغدادي وغيرهما، و«مناقب الأمير كولال» لشهاب الدين حفيد الأمير حمزة، عن حياة ومنجزات الأمير كولال من سخارة (من قرى بخارى)، تلميذ العالم الصوفي محمد يابائي ساماس (توفي عام ١٣٥٤م)، و«أنيس الطالبين وعدة السالكين» لصلاح الدين بن مبارك البخاري، عن سيرة حياة الشيخ بهاء الدين النقشبندي. كما ينبغي الاشارة في هذا المقام إلى أعمال الحاج عبيد الله أحرار« الرسالة الوالدية»، وعبد الرحمن جامي «نفحات الأنس»، و«نسائم المحبات»، وعلي بن حسين الواعظ الكاشفي «رشحات عين الحياة»، ومير عيد الأول «مسموعات»، وغيرهم.

ولقد لعبت الطريقة النقشبندية دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والسياسية لبلاد ما وراء النهر، خصوصاً نشاطات بهاء الدين النقشبندي، وعبد الخالق الغجدواني، والحاج عبيد الله أحرار. ونورد فيما يلي موجزاً عن سيرة كل منهم.

بهاء الدين محمد النقشبندي (١٣١٧ـ١٣٨٩م)

أبرز أعلام الطريقة، التي سميت باسمه وذاع انتشارها فيما وراء النهر وآسيا الوسطى، وكذلك في بلاد حوض نهر الأديل (الفولغا حاليا)، وتركيا، ومصر، وسوريا، واليمن، والهند، وتركستان الشرقية. اسمه بالكامل بهاء الدين بن محمد ابن برهان الدين محمد البخاري. ولد في قرية قصر هندوان، عرفت فيما بعد بقصر عريفان، على مسافة اثني عشر كيلو متراً من مدينة بخارى. والده السيد برهان الدين، وأمه بيبي عريفة، من فئات الحرفيين، وقد عملا وابنهما بهاء الدين في نقش المشغولات المعدنية، وتطريز المنسوجات، ومن هنا جاء لقب «نقشبندي» (صانع الزخرفة، نقاش).

تلقى بهاء الدين تعليمه في بخارى، ثم سلك الطريقة على الحاج محمد شاماس البخاري (توفي عام ١٣٤٠م)، ثم على الشيخ الكيش المشهور شمس الدين فقيري، المعروف باسم الأمير كولال (توفي عام ١٣٧١م)، ثم على مولانا عارف الدكجيراني، تلميذ الأمير كولال. كما تتلمذ على شيوخ الأتراك: كوسام شيخ، وخليل أتا. وقد أدى فريضة الحج مرتين، كان في الثانية بصحبة تلميذه الحاج محمد يارس والتقى كثيراً من علماء الاسلام من الجزيرة العربية وايران وتركستان وبخارى. وطبقاً لما جاء في سيرته، عن صلاح الدين ابن مبارك البخاري، في كتابه«أنيس الطالبين وعدة السالكين»، عاش بهاء الدين حياة الكفاف، يأكل من كسب يده.

وتتلخص تعاليم بهاء الدين في شجب التظاهر بالتدين، ومحاربة البدع مثل صيام الأربعين يوماً، والدروشة، وعقد حلقات المدح على صوت الموسيقى، وغيرها، ونهى الأتباع عن التكسي بالدين إلحافاً، وتعمّد إظهار الفقر، والتقرّب الى ذوي السلطان، والحضّ على الالتزام الكامل باحكام الشريعة الاسلامية، والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يذع صيت بهاء الدين الا بعد موته، حيث اعتبرته العامة مباركاً وصاحب معجزات، وإمام بخارى، وان قبره الذي شيده عام ١٥٢٤م الشيباني عبد العزيز خان (حاكم بخارى خلال ١٥٤٠ ـ ١٥٥٠م)، قد صار مزاراً[٣] يرتاده الكثيرون من محبيه.

يرجع الى بهاء الدين النقشبندي الفضل في ارساء قواعد الطريقة النقشبندية التي تطورت، بمضي الوقت، على أيدي مريديه أمثال: علاء الدين العطار (توفي عام ١٤٠٠م)، والحاج محمد يارس (١٣٤٥ ـ ١٤٢٠م)، والحاج عبيد الله أحرار (١٤٠٤ ـ ١٤٩٠م)، والحاج جلال الدين أحمد كاساني (١٤٦٢ ـ ١٥٤٢م)، والحاج محمد اسلام (١٤٩٣ ـ ١٥٦٣م).

عبد الخالق الغجدواني (توفي عام ١٢٠٠م)

أحد عُمُد الطريقة النقشبندية، وهو واضع أساس الهيكل التنظيمي والتربية الروحية للطريقة. وكما يورد فخرالدين علي بن الحسين، في مؤلفه «فصل الخطاب»، عن سيرة الغجدواني الذاتية، فهو أحد النواب الكبار الأربعة خلفاء الحاج يوسف همداني، رأس الطريقة الصوفية «النقشبندية»، قبل أن تسمى بذلك الاسم.

ولد في قرية «غجدوان» من أعمال ولاية بخارى، وتقع على مسيرة ستة فراسخ (حوالى أربعين كيلو متراً) من المدينة. والده عبد الجليل، اشتهر لاحقاً، بالسيد عبد الجليل الإمام، وكان من علماء الدين ذوي المكانة. ويتحدر نسل سيد عبد الجليل من الأروام (تركيا)، فالأم سليلة السلاطين الأروام. ومن تصاريف القدر رحيل سيد عبد الجليل من مسقط رأسه في رومية التركية، ليستقر به المقام في غجدوان البخارية. وقد ولد عبد الخالق في غجدوان، وتلقى تعليمه الأول فيها، ثم واصله في بخارى على يدي الإمام صدر الدين، حيث درس التفسير المقارن للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ثم أكمل تعليمه بإشراف الحاج يوسف

٣ ـ وما زال ذلك يحدث حتى وقتنا الحاضر، وقد يجاوز الأمر حد زيارة القبر الى تقديم النذور، والدعاء، وطلب العون، والتوسل، وهذا كله يعتبر من مظاهر الشرك والعياذ بالله.

الهمداني، الذي رحل إلى خراسان، حينما رحل نائبه الثالث، الحاج احمد يساوي، الى تركستان، ومن ثم شغل عبد الخالق رئاسة الطريقة.

ولدى عبد الخالق الغجدواني، في تعاليمه الروحية للطريقة، الكثير من الواقعية والتقدم، حيث إنه، على وجه الخصوص، ناشد الناس، بالاضافة الى ضرورة الالتزام بالشريعة المنزّلة، التمسّك بحب العمل، والعدل، والطهارة الروحية، والجود، والاحسان، والابتعاد عن التكبر والتعالي والتكالب على المناصب والشح، وغيرها من المعايب. ويحذر أتباعه من ضياع الدين، مقابل عدم الالتزام. ويحفظ عنه قوله الحكيم: «اجعل نفسك بمنأى عن القياصرة، والحكام، وذوي السلطة والقضاة، وما شابههم من أصحاب السلطان».
وما زال الكثير من أقواله محتفظاً بجديته حتى وقتنا الحاضر.

وقد سجل تاريخ حياته وجمع أعماله فضل الله بن روزب خان (١٤٤٨ ـ ١٥٣٣م) في كتاب أسماه «مقامات الحاج جاهان».

الحاج عبيد الله أحرار (١٤٠٤ـ١٤٩٠م)

أحد مشاهير شيوخ الطريقة النقشبندية، كان من كبار الملاك، وكان رجلاً من رجال الدين والسياسة في القرن الخامس عشر. ولد في مدينة طشقند، في مارس ١٤٠٤م، وكان أبواه من علية القوم. والده الحاج محمود، سليل محمد نامي أحد مشاهير بغداد في القرن العاشر، رحل إلى مدينة ساش، عندما سمع عن أمجاد العالم كغال الساشي (توفي في الفترة ما بين ٩٧٥ ـ ٩٧٧م)، حيث بقي فيها حتى آخر عمره. ووالدته حفيدة الشيخ المشهور خاوان طهور (توفي ١٣٥٠م). انقضت سنوات طفولته وشبابه في طشقند، وفي عام ١٤٢٧م، رحل بصحبة عمه الحاج ابراهيم، الى سمرقند لمواصلة تعليمه، فالتحق بمدرسة قطب الدين صدر، ولكنه لم يتمكن من اتمام تعليمه، بسبب مرضه، ومن ثم رحل عام ١٤٢٨م إلى «خيرات» ليمضي فيها خمس سنوات حتى عام ١٤٣٢م، وهناك التقى بكل من الشيخ الحاج بهاء الدين عمر الخراساني المشهور، وزين الدين خوافي. وفي عام ١٤٣٢م وصل

إلى تشاغانيان، في قرية خولجوت، وهناك زار الشيخ مولانا يعقوب شارخي (توفي عام ١٤٤٧م)، تلميذ بهاء الدين النقشبندي، وانخرط في سلك الصوفية، وأخذ عليه العهد، وبهذا اعتبر خليفته مدى الحياة. وعندما عاد عبيد الله أحرار إلى طشقند، اشتغل بالزراعة، وفي مستهل فترة حكم مرزا عبد الله (١٤٥٠ ـ ١٤٥١م)، سافر من جديد إلى سمرقند، ولما لم يوفق لدى الميرزا، عاد أدراجه الى طشقند. وعند مجيء السلطان أبي سعيد الى الحكم في عام ١٤٥١م، كان الحاج عبيد الله في سمرقند خلال الأعوام من ١٤٥٢ الى ١٤٥٤م، مقيما في حي خوجة كغشير. وبدأ منذ ذلك الحين تنامي تأثيره الايجابي في الحياة الاجتماعية والسياسية، إبان حكم التيموريين. وتوفي ـ رحمه الله ـ بعد أحد عشر يوماً من شهر فبراير عام ١٤٩٠م، ودفن في مقابر حي خوجه كغشير.

وفي تميّز واضح عن سابقيه، حض الحاج عبيد الله الدراويش على المساهمة النشطة في الحياة، والاهتمام بالانشطة البناءة المفيدة التي تعود بالخير على عامة المسلمين. وقد أخذ على عاتقه حماية المسلمين من العنت والتعسف، ورأى أن تحقيق هذه الحماية إنّما يتأتّى من الاتّصال المستمرّ بالملوك وحوز ثقتهم. ولم يبخل في سبيل ذلك بالوقت أو بالجهد أو بالمال. وتورد المراجع شواهد عديدة على ذلك، نورد منها: كان الحاج أحرار واحداً من أغنياء زمانه، إذ امتلك أكثر من ١٣٠٠ موقع زراعي، بالاضافة إلى الكثير من الحوانيت التجارية، ومشاغل المنتجات الحرفية، في كبريات مدن ما وراء النهر، وجابت قوافله الكثير من بلدان العالم. وقد أنفق جل ايرادات هذه الأملاك على عمارة المساجد، وبناء المدارس، والخانات، وغيرها من أعمال الخير ابتغاء لمرضاة الله، وفي مساعدة المساكين والأيتام. وفي «مناقب الحاج أحرار»، يروي المؤلف حقائق عن واقع أعماله، فمرة فرض عمر شيخ ميرزا ضريبة على أهل طشقند بمبلغ مائتين وخمسين ألف دينار، عجزوا عن دفعها، وخشوا مغبة ذلك، فأنقذهم شيخهم أحرار من هذه المحنة، ودفع عنهم عجزهم من حر ماله وزاد عليه سبعين ألفاً. وتكررت مثل هذه الواقعة مع السلطان أحمد ميرزا، عندما نضب لديه المال، فوضع على السمرقنديين ضريبة باهظة، فقام الحاج أحرار بتقديم عشرة آلاف مثقال من الفضة. وفي عام ١٤٥٤م، أغار أبو القاسم بابور (١٤٤٩ ـ

١٤٥٧م) بجيش جرار من خراسان على بلاد ما وراء النهر، وحاصر سمرقند، فقرر السلطان أبو سعيد تركها والفرار الى تركستان، وساد أمراءه حالة من الفزع والاضطراب، وهنا بذل الحاج عبيد الله جهوداً جبارة، فحفظ الوطن وحقق السلام. وفي عام ١٤٨٥م وقفت بلاد ما وراء النهر على شفا حرب ضروس بين عمر شيخ والسلطان محمود خان، قادة طشقند، من جهة، والسلطان احمد ميرزا من جهة أخرى، واحتشدت الجيوش بناحية آغانجران، ولكن، وفي هذه المرة أيضاً، أطفأت جهود سماحته نيران الحرب.

وقد جمعت آراء الحاج عبيد الله أحرار وأعماله ومنجزاته في مسائل الصوفية في مصنفاته: «فكرة العارفية» و«الرسالة الوالدية» و«رسالة الحرية»، هذا بالاضافة إلى ما ورد منها في مكاتباته مع عبد الرحمن جامي، ونوائي، وغيرهما.

آسيا الوسطى في مرحلة التفكك الاقطاعي

ادت النزاعات الاقطاعية والخلافات بين افراد الاسرة الحاكمة، التي بدأت فوراً بعد وفاة سلطان أبي سعيد (عام ١٤٦٩م)، الى تقويض أركان الدولة التيمورية التي كانت دولة موحدة، تقويضاً نهائياً. وفي نهاية ق ١٥م فقد التيموريون، الذين حكموا فرغانة (عمر شيخ وبابور)، سمرقند (سلطان احمد)، وحصار (سلطان محمود ميرزا)، السلطة السياسية بصورة نهائية، وأصبحوا ألعوبة في أيدي الأمراء الاقطاعيين ذوي السلطة المطلقة امثال: محمد مزيد طرخان، درويش محمد طرخان، محمد باقي طرخان، سلطان احمد تنبل وغيرهم. وكانوا يتصرفون وكأنهم الملوك، ويناوئ أحدهم الآخر ويعاديه، وورطوا في هذه النزاعات والحروب حكام داشتي كيبتشاك ومنغولستان (دولة من القبائل الرحل، تأسست في اربعينات ق ـ ١٤م بعد تصدع اولوس جغتاي).

واستغل خان منغولستان، يونس خان (١٤٦٢ ـ ١٤٨٧م) نزاع حكام فرغانة وسمرقند التيموريين، وقام في سبعينات ق ١٥م بالاستيلاء على إمارة فرغانة التيمورية وطشقند، ذات الأهمية السياسية الاقتصادية والاستراتيجية. وجعل من طشقند مقراً رئيسياً له.

لقد استفاد كثيراً من عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي في دولة التيموريين حاكما داشتي كيبتشاك، ابو الخير خان وشيباني خان. فمثلاً، قام أبو الخير خان

(١٤٢٨ ـ ١٤٦٨م)، الذي كان مقر قيادته الرئيسية آنذاك في مدينة سغناق الواقعة في اواسط وادي سرداريا، في عام ١٤٤٨م، مستغلاً غياب أولوغ عن ما وراء النهر (كان آنذاك في خراسان) باكتساح ما وراء النهر، حيث سلب ونهب العديد من المناطق، ووصل حتى ضفاف اموداريا. وقام ايضاً، عام ١٤٥١م، بتقديم دعم عسكري للسلطان أبي سعيد في نضاله ضد ميرزا عبد الله (١٤٥٠ ـ ١٤٥١م)، وساعده في ترسيخ اقدامه وتثبيت عرشه وتعزيزه في سمرقند.

وفي صيف ١٤٦٠م، قام أبو الخير خان هذا، بمؤازرة محمد جوكي ـ حفيد ميرزا أولوغ بك ـ ايضاً، المطالب بعرش سمرقند آنذاك، بمساعدة القوات الاوزبكية بقيادة بورك ـ سلطان وبيشكاد اوغلان. وقد استولى محمد جوكي على مدن: ياسي (تركستان) وسايرام وأخسيكيت و طشقند وشاهروخيا؛ أي إنه، باختصار، استطاع الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر برمتها تقريباً خلال فترة قصيرة جداً.

وذكر مسعود بن عثمان الكوهستاني، كاتب سيرة حياة ابي الخير خان، أن ولايات ما وراء النهر كافة سقطت في قبضة محمد جوكي، باستثناء سمرقند، بخارى، وبعض المدن المحصنة والقلاع. وبفضل خوجا عبيد الله احرار، الرجل المحب للسلام وذي السمعة والاعتبار، وشيخ الاسلام خوجا برهان الدين، استطاع أبو سعيد اخماد تمرد محمد جوكي بطريقة سلمية.

ولعب حفيد ابي الخير خان الآنف ذكره شيباني خان (١٤٥١ ـ ١٥١٠م)، دوراً هاماً حاسماً في مصير دولة التيموريين.

ففي مطلع ثمانينات ق ـ ١٥م، ظهر مع مجموعة من أنصاره ومواليه في خوارزم، التي كان يحكمها آنئذ التيموري سلطان حسين (١٤٧٠ ـ ١٥٠٦م)، واستولى على حصن «تيرساك» حيث ترك هناك حامية ثم توجه إلى اورغينتش، إلا أنه أخفق في احتلالها واضطر للتقهقر والانسحاب بضغط من جيش الأمير عبد الخالق المؤلف من عشرين ألف مقاتل، أرسله سلطان حسين لمواجهته. ولئن أخفق في ذلك، فإنه استطاع الاستيلاء على حصن آخر حصن «بولدومساز». وقام الأمير

خليل ـ حاكم «بولدومسان» ـ ووجهاء المدينة ونبلاؤها بتقديم الهدايا الثمينة ومفاتيح بوابات المدينة إلى شيباني خان. في حين قام اوزبكيو داشتي كيبتشاك بالاستيلاء على «اداك» ومن هناك راحوا يشنون الغارات، من حين لآخر. على أواسط استراباد وأعماقها.

وسرعان ما استدعى شيباني خان سلطان أحمد ميرزا التيموري للخدمة لديه، مقرراً الاستفادة من خدماته في نضاله ضد سلطان محمود خان، حاكم طشقند (المقتول عام ١٥٠٣م)، وابن يونس خان الآنف ذكره. بيد انهما اختلفا في نهاية المطاف. وفي العام ١٤٨٣م، وفي اثناء اجتياز الجيوش نهر تشيرتشيك، ترك شيباني خان وليّه وانضم إلى عدوه سلطان محمود خان. وفيما بعد، وبمساعدة سلطان محمود خان هذا، تمكن من احتلال المدن ـ القلاع الهامة على نهر سرداريا: اركوك، اوزغيند، سيغناك، وساوران، واتخذها فيما بعد كرأس جسر لاحتلال بلاد ما وراء النهر، وغيرها من الأراضي التابعة للتيموريين.

غزوات شيباني خان

كانت الاوضاع السياسية الداخلية في ما وراء النهر وخراسان في حالة يرثى لها عشية غزو الأوزبك الرحّل وشيباني خان لها. وبادئ ذي بدء، وكما سبق أن أشرنا آنفاً، كانت الدولة التيمورية في حالة تفتت وانقسام.

توفي سلطان أحمد في منتصف شهر شوال ٨٩٩هـ ـ ٢٠ يوليو ١٤٩٤م في اورا ـ تيبا، إبان عودته من حملته على انديجان. واعتلى العرش من بعده أخوه سلطان محمود ميرزا، الذي كان قبل ذلك (منذ عام ١٤٦٩م) حاكماً على مناطق ترمذ، تشاغانيان، حصار، خوتّالان، كوندوز، باغلان وبادخشان. ولدى توليه عرش سمرقند، قام بإعطاء ضيعته السابقة سويورغالنيي لسلطان مسعود، ومنح بخارى لميرزا بايسنكور، مقاسماً إيّاهما، هكذا، السلطة السياسية في ما وراء النهر. ولم يكد يمضي نصف عام، حتى توفي في ظروف غامضة في شهر ربيع الاول ٨٩٩هـ (ديسمبر ١٤٩٤م)، عن عمر لم يجاوز ٤٨ سنة.

وقد أدت وفاة سلطان محمود إلى ازدياد حدة نزاع التيموريين على العرش. ونقلاً عمّا ذكره بابور، كان من بين المتنازعين على العرش والمطالبين به مالك محمود ميرزا بن مينوتشيهرا ميرزا، وشقيق سلطان أبي سعيد المعروف بعض الشيء. وتولى العرش بايسنكور ـ ميرزا. الأمر الذي لم يرض به سلطان علي ميرزا والموالون له. وهكذا في العام ٩٠٠ ـ ١٤٩٥م برزت كتلتان متعاديتان متناحرتان، وانضم قسم من كبار المسؤولين والأمراء ذوي النفوذ أمثال: أحمد حاجي بك، محمد قولي كاوتشين، حسن شراباتجي وغيرهم، وعلى رأسهم شيخ الاسلام خوجا ابو المكارم، الى جانب سلطان بايسنكور، في حين انضم الى سلطان ميرزا علي امراء طرخان: درويش محمد ومحمد مزيد وباقي طرخان وغيرهم، الذين كان يتزعمهم خوجا محمد يحيى بن عبيد الله احرار وخليفته. وفي هذه الفترة بالتحديد، وفي سمرقند ثار سلطان محمود خان ـ حاكم طشقند ـ على سلطان بايسنكور. إلاّ أنّ ثورته أخمدت وقضي عليها في معركة دموية جرت في منطقة كونباي دولدي.

وبعد ذلك، اندلع الصراع على العرش بين الكتلتين الآنفتي الذكر ـ أي بين بايسنكور وسلطان علي ميرزا. الأمر الذي استغله السياسي الذكي الماكر خسروشاه. فخلال الفترة من ١٤٩٧ و١٤٩٩م، قضى وبالتوالي على سلطان مسعود ميرزا وبايسنكور ميرزا، واستولى على مناطق حصار، خوتالان، بادخشان، باغلان وكوندوز، تلك المناطق الغنية الثرية المترامية الاطراف.

ولم يستطع سلطان حسين، الذي كان يعد من اعظم التيموريين واكثرهم خبرة وتجربة، السيطرة على الأوضاع. ففي العام ١٤٩٥م، سيَّر جيشاً جرّاراً إلى منطقة حصار لمحاربة سلطان مسعود، وإلى كوندوز لمحاربة خسروشاه. إلا أنه لم يتمكن من التغلب عليهما، لقد فرّ سلطان مسعود إلى شهر سابز ناجياً بنفسه، في حين ألحق خسروشاه خسائر جسيمة فادحة بالقوات المرسلة ضده بقيادة مظفر حسين وفريدون حسين وبديع الزمان ميرزا. كذلك أخفقت الحملة التي ترأسها سلطان حسين شخصياً إلى كوندوز. وأشار بابور، ببالغ من الأسف إلى ذلك، قائلاً: «إن سبب صعود نجم خسروشاه عالياً إلى هذا الحد يعود إلى أن سلطان حسين ميرزا

جاء بحملتين فاشلتين وعاد دون التمكن من الاستيلاء عليها (أي على كوندوز)».

وبعد ذلك، ورّط سلطان حسين نفسه في نزاعات جانبية، لا ضرورة لها ولا حاجة، مع أبنائه الذين كانوا حكّاماً على بعض ولايات امبراطوريته وهم: بديع الزمان (بلخ) ومحمد حسين (استراباد) وأبو المحسن ميرزا (مرو وشاهي جيهان) ومحمد محسن ميرزا (ابو ورد) وغيرهم.

باختصار، أخذت امبراطورية سلطان حسين التي كانت امبراطورية موحّدة، تذوي من يوم لآخر. وقبيل عام ١٥٠٢م، كانت قد انفصلت عنها، كلياً، سيستان التي أصبح حاكمها وسيدها المطلق الأمير زنون ـ ارغين، حيث هزم الجيش المرسل ضده، وأصيب قائده ابن حسين ميرزا بجراح بليغة، وفرّ من بقي سالماً من أفراده إلى هراة.

انتهز شيباني خان الازمة والمصاعب التي يعاني منها التيموريون، وبادر في عام ١٤٩٨م إلى ارسال جيش إلى ما وراء النهر، بدون أن تتحقق الأهداف المرجوة، ولم يستطع ترسيخ أقدامه في البلاد، إذ قوبل بمقاومة عنيفة في بخارى وفي سمرقند بشكل خاص. صحيح أن شيباني خان تمكن آنذاك من احتلال نسف (كارشي) وكيش (شهرسابز)، إلا أنّ الأوزبك الرحّل لم يستطيعوا مواصلة التقدم وإحراز النجاحات، فقام شيباني خان بنهب نسف وكيش والمناطق الأخرى، وقفل عائداً الى بلاده داشتي كيبتشاك. ورغم هذا كان ذلك مجرد عملية استطلاع عسكري نوعية أظهرت لحكام داشتي ـ كيبتشاك أنّ احتلال ما وراء النهر والضياع التيمورية الأخرى، أمر ممكن جداً.

وفي مطلع ربيع الاول ٩٠٦هـ (٢٥ سبتمبر ١٥٠٠م) قام الاوزبك الرحّل وشيباني خان بحملة ثانية على ما وراء النهر. وكانت حملة أعدت بإحكام ودرست من جميع جوانبها وتفاصيلها.

ولكن في تلك الفترة التي حاصر فيها شيباني خان سمرقند من جميع الجهات، وصل نبأ تحرك محمد باقي طرخان، حاكم بخارى، لنجدة المحاصرين، فاضطر

شيباني خان إلى رفع الحصار والتوجه للقاء القوات المقاومة من بخارى. والتقى جيشا شيباني خان ومحمد باقي طرخان في موقعة دابوسيا (مدينة ـ حصن قديمة تقع قرب محطة سكة الحديد المعروفة حالياً بمحطة ضياء الدين)، حيث هزم فيها باقي طرخان ولجأ مع ما تبقى من قواته إلى الحصن للتواري وراء اسواره. لم يقم شيباني خان بمحاصرته، بل سارع إلى بخارى واستولى عليها بعد حصار ثلاثة أيام (في نهاية ذي العقدة ٩٠٦هـ (١٧ يونيو ١٥٠١م). وبعد أن ولّى على المدينة والمنطقة صديقه (محمود سلطان)، توجه شيباني خان إلى سمرقند. ولما سمع بذلك الأمراء والوجهاء المناوئون لسلطان علي ميرزا، انطلقوا هاربين من سمرقند واستنجدوا ببابور وخان ميرزا (سلطان عويس ميرزا)، المقيم آنذاك في طشقند. وهرع المطالبون بالسلطة العليا إلى سمرقند وكان شيباني خان من ضمنهم أيضاً. بَيْدَ أنّه ما كاد يصل الى تاتكنت (منطقة تقع بين كاتّا ـ كورغان وخاترتشي)، متجهاً الى سمرقند، حتّى تلقّى نبأً سيئاً من بخارى جاء فيه أن وجهاء المدينة ثاروا على الوالي الشيباني، ونووا تسليم المدينة إلى محمد باقي طرخان الموجود بجيشه على مقربة من المدينة. خاف شيباني خان أن يفقد هذه المدينة ذات الأهمية الاستراتيجية، فعاد لمعاقبة مدبري التمرد والثورة، ثم اتجه الى سمرقند. وفي طريقه إلى سمرقند قضى على ثورة اندلعت في كاراكول، التي منحها لأحد السلاطين الشيبانيين ألا وهو بوباي ـ سلطان (ابن محمد سلطان وحفيد ابي الخير خان).

في تلك الاثناء، كان صراع حاد على السلطة يجري في سمرقند نفسها، على أن خوجا محمد يحيى وغيره من الوجهاء ذوي النفوذ قطعوا على أنفسهم عهداً بمساعدة سلطان علي ميرزا. وفي الوقت نفسه قام خوجا محمد يحيى بإجراء اتصالات سرية مع بابور، الذي كان متمركزاً بجيش كبير في شهر سابز. ولم يكن الأمر مهماً بالنسبة للايشان فيما يتعلق بمن سيتولى عرش تيمور. ولم يكن يهمه سوى الاحتفاظ بمكانته ووضعه الاجتماعي. ولما علم سلطان علي ميرزا بذلك، أعلن هو وحاشيته الولاء لشيباني خان، وأعطاه مفاتيح بوابات المدينة.

حاول خوجا محمد يحيى تعبئة الأهالي للدفاع عن المدينة، إلا أنه لم يلق تأييداً منهم. وناهيك من ذلك أيضاً، سارع وجهاء المدينة، وأعلنوا طاعتهم وولاءهم للخان

الأوزبكي، اقتداء بسلطان علي ميرزا وفي اثره. وهكذا، استسلمت المدينة ووقعت في يد محتلها الجديد، أعدم سلطان علي ميرزا وخوجا محمد يحيى، وصودرت أموال التيموريين واقربائهم وممتلكاتهم. وعين شيباني خان جانوار ميرزا ـ أحد الامراء المخلصين له ـ حاكماً للمدينة. أما شيباني خان نفسه فتمركز بقواته الرئيسة خارج المدينة في بستان تيمور باغي بيخيشت في «كاينغيل»، وفي القرى المجاورة.

ولكن سرعان ما دبرت مؤامرة ضد المحتل، ترأسها رجل الدين السمرقندي المشهور خوجا أبو المكارم، الذي اتفق، سراً، مع بابور. وذات ليلة فتح رجاله بوابة المدينة لقوات بابور التي قضت على حامية أوزبكية مؤلفة من ٦٠٠ جندي. لم يستطع شيباني خان القضاء على المؤامرة واعادة النظام والاستقرار إلى المدينة. كما تعرضت للهجوم والقتل حاميات أوزبكية أخرى كانت متمركزة في بعض المدن الأخرى، إذ إن الهجوم كان شاملاً، ولم يبق أمام شيباني خان سوى أن يحمل عصاه على كاهله، ويتقهقر ميمماً شطر تركستان. وما لبث أن اعترف بسلطة بابور ليس فقط على مناطق سمرقند، بل على المدن المحصنة أيضاً مثل كيش ونسف وخوزار.

الا أن بابور لم يستطع ترسيخ اقدامه في سمرقند، إذ سرعان ما نفذت المواد الغذائية والمؤن، ولم تصل أي امدادات، ودبت المجاعة والغلاء. ويتذكر بابور: «حينما استولينا، بصعوبة بالغة، على سمرقند، ولمجرد دخولنا المدينة، نال المقاتلون بعض الغنائم (وسرعان) ما نفذت غنائم المقاتلين. بعد احتلال سمرقند كانت المدينة في حالة فقر مدقع يرثى له، حتى إن السكان كانوا بحاجة إلى الحبوب والقروض المالية... وفيما بعد عانى الجنود من العوز الشديد، أما نحن فلم نستطع أن نقدم لهم شيئاً». ويستطرد: «آن موعد نضوج الحنطة، إلا أن أحداً لم يجلب (إلى سمرقند) شيئاً من الحنطة الجديدة».

اغتنم شيباني خان هذه الاوضاع، وسارع بالتحرك الى سمرقند على رأس جيش كبير مزوّد بالعدة والعتاد بصورة جيدة. أما التيموريون المنشغلون في النزاعات والخلافات، فلم يتّحدوا في هذه المرة ايضاً. «كنا نعتمد على مساعدة وعون أمراء وحكام البلدان المجاورة منها والبعيدة، ـ يقول بابور متذمراً، ـ إلا أن كلّ واحد

منهم كانت له خطته الخاصة. ولم نر من سلطان حسين ميرزا، الملك الفائق الشجاعة والخبرة والحنكة، أية مساعدة، حتى إنه لم يرسل لنا مبعوثاً لتشجيعنا ورفع معنوياتنا، بينما أرسل إلى شيباني خان مبعوثه كمال الدين غازورغاخي، إبان محاصرة سمرقند».

باختصار، جمع بابور قواته، على عجل، وخرج من المدينة واتخذ مواقعه على ضفة زرافشان، وتأهّب للقتال. بَيْدَ أن النصر كان حليف شيباني خان والاوزبك الرحل. أما بابور فعاد متقهقراً، وتحصن خلف أسوار المدينة الحصينة. جرت تلك الأحداث في شهر ابريل ١٥٠١م. شدّد الاوزبك الرحّل الحصار المضروب حول المدينة وتوالت هجماتهم التي استمرت ١٢٠ يوماً وليلة. وحلّت بهم مجاعة شديدة. ويقول بابور متذكراً: «استمرت أيام الحصار والناس يتحمّلون الفاقة، لدرجة أن الفقراء والمحتاجين أخذوا يأكلون لحوم الكلاب والحمير». لذا، وإدراكاً منه لعدم جدوى المقاومة، ترك بابور سمرقند، في بداية شهر ربيع الاول ٩٠٧هـ ـ أواسط سبتمبر عام ١٥٠١م، ولجأ مع ما تبقّى لديه من مقاتلين وخدم، إلى طشقند طالباً الحماية من عمّه سلطان محمد خان. وهكذا، وفي هذه المرة، وقعت سمرقند كلياً، في أيدي الأوزبك الرحّل وشيباني خان.

وبعد أن استتبت له الأمور في سمرقند، سار شيباني خان في إثر بابور الى ضفاف سرداريا. ومتحدثاً عن فراره من سمرقند وقدومه إلى أورا ـ تيبا، كتب بابور: «بعد استشارة محمد حسين ميرزا (والد المؤرخ ميرزا محمد حيدر ـ ب. أ) قررت قضاء فصل الشتاء في إحدى القرى القريبة من اورا ـ تيبا والمعروفة بـ«ديخكات». وبعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن ظهور شيباني خان، آنئذ، في ضواحي اورا ـ تيبا، وأعمال النهب والعنف والفساد التي قام بها هناك. حينذاك، لم يحتل شيباني خان اورا ـ تيبا، وأسرع عائداً إلى سمرقند لدى سماعه بتحرك خسروشاه الذي انطلق من حصار لمحاربة الأوزبك الرحّل.

وبالفعل كان خسروشاه قد تحرّك على رأس جيش مؤلف من ٥٠ ألف مقاتل لمحاربة شيباني خان، وكان قد اخترق البوابة الحديديّة المشهورة (داري اخانين)،

واتّجه صوب كارشي. ولكن، نقلاً عن صاحب كتاب «زبدة العصر»، تشتت قواته في الطريق لأسباب ما، فاضطر إلى العودة إلى «حصار». الا انه خشي قدوم الاوزبك الرحل، وفرّ من «حصار» وانتقل الى الضفة اليسرى لنهر اموداريا، ومن ثم عبر «ايواج» إلى آرخانغ سراي حيث اتحد مع التيموري بديع الزمان ميرزا. ولاحقت قوات الشيباني خسروشاه حتى ارخانغ سراي وعادت بالكثير من الغنائم الثمينة.

ونقلاً عن ميرزا محمد حيدر، فإن شيباني خان لم يترك «حصار»، رغم العواصف الثلجية الشديدة (شتاء ١٥٠١ ـ ١٥٠٢م) بل حاصر حصنها الرئيسي الواقع في منطقة «حصاري شادمان» حيث لجأ سلطان قولي خان، أحد أمناء خسروشاه. واستمر الحصار طيلة فصل الشتاء. ولم تستطع القوات التي قدمت من خراسان لمساعدته بقيادة أمير والي، شقيق خسروشاه، اختراق الحصن أو إنقاذ المحاصرين، ومنيت بالهزيمة عند مشارف الحصن. ولكن، قبيل ربيع ١٥٠٢م، قامت القوات الشيبانية، التي أقلقتها تحرّكات المغول على ضفة سرداريا، بترك «حصاري شادمان»، وعادت إلى سمرقند.

بدأت حملة شيباني خان على سرداريا وفرغانة عام ١٥٠٣م، في أواخر فصل الشتاء. وفي اورا ـ تيبا هزُم محمد حسين جرجان على أيدي الأوزبك الرحّل، الذين سارعوا، بعد ذلك، بالتحرّك صوب أعالي سرداريا، وادركوا قوات المغول الموحّدة (سلطان احمد وسلطان محمود خان وبابور) وحلفاءهم القالميق، قرب مدينة ارخيان حيث ألحقوا بهم هزيمة ساحقة واحتلوا طشقند وشاهروخيا وغيرهما من المدن.

وجاء دور خراسان. أدرك سلطان حسين مدى الخطر المحدق في البلاد، إلا أن مرضه وعجزه، اضافة إلى انشغاله بابنائه المتمردين، عوامل منعته من المشاركة في محاربة شيباني خان. لذا وقعت أعباء الحرب كافة ضد الأوزبك الرحّل على كاهل بديع الزمان ميرزا، الذي حاول إقامة اتحاد مع خسروشاه والأمير زنون ارغين، حاكم قندهار، ضد الأوزبك الرحّل وشيباني خان، وتم الاتفاق معهما في نهاية ابريل ١٥٠٣م. وسار بقوات بلخ إلى ترمذ، حيث كان ينبغي للحلفاء الاتحاد

ومواصلة الحملة معاً إلى عمق ما وراء النهر. قدم الأمير زنون ارغين إلى ترمذ بفصيلة صغيرة، إلا أنهما لم ينتظرا خسروشاه. يقول خوندمير إنه كان يخشى، إذا انتصر بديع الزمان على شيباني خان، أن يزداد قوة وطمعاً في الاستيلاء على بلاده هو. وعاد الأمير عمر بك رسول بديع الزمان الى هراة صفر اليدين. لم تكن هناك، والحالة هذه، أي جدوى للحملة على شيباني خان، فعاد الحلفاء إلى بلادهم: عاد بديع الزمان ميرزا إلى بلخ، والأمير زنون إلى قندهار. كان تصرّف التيموريين، بحسب تعبير ميرخاوند: «عبارة عن فقدان تام لسمعتهم واعتبارهم، ما أدّى الى مختلف أنواع الاضطرابات، وشجع شيباني خان على مواصلة نشاطاته العسكرية».

اغتنم شيباني خان هذه الفرصة، وفي مطلع خريف ٩٠٩هـ ـ سبتمبر ١٥٠٣م، عبر أموداريا من خلال كيركي، واجتاح خراسان. كما إن باقي محمد طرخان لم يقاومه وسلم اندخود للاوزبك الرحل.

أما بديع الزمان، فكان، قبل اجتياز الاوزبك الرحّل اموداريا، قد ترك بلخ ولجأ إلى غورزوان المحصنة الواقعة في ثغر «جوز». يبدو أن خطّة توزيع القوى ومحاربة الأوزبك الرحّل على غرار الأنصار أو الفدائيين، كانت تعود إلى سلطان حسين شخصياً. فمثلاً، ذكر بابور ما يلي: «عن سلطان حسين ميرزا وردت إلى بديع الزمان ميرزا وإليَّ وإلى خسروشاه وإلى أمير زنون وثائق طويلة مسهبة ذات المحتوى نفسه.

وما تزال هذه الوثائق بحوزتي، وجاء فيها ما يلي: «حينما اتفق سلطان أحمد ميرزا وسلطان محمود ميرزا وأولوغ بك ميرزا وإخوانهم، وتحرّكوا نحوي، تحصنت على ضفة مرغاب، ولما اقتربوا عن كثب لم يستطيعوا عمل شيء واضطروا إلى التراجع. والآن، إذا أعاد الاوزبك الكرّة، فإنني سأتحصّن ثانية على ضفة مرغاب. فليبُقِ بديع الزمان ميرزا الرجال الأقوياء في حصون بلخ وشبيرغان واندخود، أمّا هو فليحصِّنْ غورزوان وداراي زانغ والبلاد الجبلية كافة. في حين كتب إلي قائلاً: «أمّا أنت فقم بتحصين كاخميرد وآجار، والمنطقة الجبلية بكاملها،

وأمّا خسروشاه فليترك حصون «حصار» وكوندوز لرجاله الأوفياء الذين يثق بهم وليتحصن هو مع أخيه «والي» في جبال بادخشان وخوتّالان. فلن يستطيع الأوزبك عمل أي شيء، وسيضطرون للتراجع».

كان ذلك خطأً شنيعاً فاحشاً. ففي تلك الأثناء ظهر شيباني خان والأوزبك الرحّل عند أسوار بلخ التي طوقوها من جميع الجوانب. أمّا فرسانه فوصلوا حتى شيبيرغان وكوندوز وباغلان وارخانغ سراي وغيرها من الأماكن. إلا أن الأوزبك لم يستطيعوا، آنذاك، الاستيلاء على بلخ. ولم تُجْدِ المباحثات لإخضاع المدينة بصورة سلمية. ومع حلول فصل الشتاء، رفع شيباني خان الحصار وعاد إلى ما وراء النهر. ويبدو أنّ أسباباً وجيهة كانت قد دفعته إلى القيام بذلك. وكان من اهمها:

١) حلول البرد القارس، ٢) خشيته من تحالف سلطان حسين مع القوى الأخرى وشنه حملة ضخمة، ٣) خشية شيباني خان من خسروشاه المعروف بخبثه ومكره، ٤) سماعه باستعدادات سلطان أحمد تنبل ومحمد خان سلطان طشقند.

لكنّ الاوضاع في فرغانة وطشقند لم تكن تبعث على الخوف أو تهدد بالخطر، بل كانت هادئة ومستقرة نسبياً. ومع ذلك قرر شيباني خان في العام التالي ١٥٠٤ القضاء على أحمد تنبل والمغول، وفي ٢٨ شوال ٩٠٩هـ (١٧ ابريل ١٥٠٤م)، انطلق بقواته الى انديجان حيث قضى على تنبل وعلى خانيْ المغول: سلطان محمود خان وسلطان أحمد خان، واتّخذ الاستعدادت اللازمة لاحتلال خراسان وبلخ بصورة نهائية.

وفي ربيع ١٥٠٥م سار بجيشه إلى حصار وتشاغانيان. لكن ولاة خسروشاه: بيروالي وميروالي والآخرين لم يبدوا أي مقاومة، بل هربوا إلى الضفة الثانية لأموداريا للانضمام إلى خسروشاه، ومن ثم للقيام معاً بمقاومة الأوزبك الرحل. إلا أنهم أصيبوا بخيبة الأمل، ذلك أن خسروشاه نفسه كان قد ترك كوندوز تحت رحمة الأقدار، وفر إلى بالخاب العليا حيث مثل أمام بابور في احدى المناطق الصغيرة المعروفة بـ «دوشي». كما كان قد فرّ محمد باقي - شقيق خسروشاه

الأصغر وحاكم تشاغانيان. إلا أن عدداً من حاميات خسروشاه الصغيرة كانت قد بقيت في بعض حصون حصار وتشاغانيان.

لذا قرر شيباني خان البقاء مع حمزة سلطان على الضفة اليمنى لأموداريا، في حين عبرت إلى الضفة اليسرى جيوش محمود سلطان ومحمد تيمور سلطان وغيرهما، وقد كلفت باحتلال باغلان وكوندوز وغيرهما من المناطق الخاضعة لسلطة خسروشاه.

وبدون أي صعوبات، انتقلت جيوش شيباني إلى الضفة اليسرى واستولت على كوندوز وباغلان وأرخانغ ـ سراي وجزء من بادخشان، كما استولت من ضمن ما استولت، على ايشكاميش وفرخار.

ولّى شيباني خان أقرباءه المقرّبين على المناطق المحتلة: فأعطى فرغانة إلى جانبيك سلطان، وطشقند إلى سويونتش خوجاخان، وتركستان إلى كوتشكونتشي خان، و«حصار» إلى حمزة سلطان، وتشاغانيان إلى مهدي سلطان، أما كوندوز والجزء المحتل من بادخشان فولّى عليهما محمود سلطان.

صحيح أن الموت المفاجئ لمحمود سلطان في كوندوز(في اوائل شتاء ١٥٠٥م) أدى إلى فقدان الأوزبك الرحّل لبادخشان، إذ انتزع شاهات بادخشان(مبارك شاه راجي) حصن «ظفر» من الأوزبك الرحل. واستولى محمد كورتشي ـ سلاحدار خسروشاه سابقاً ـ على روستاك، ثم قتل مبارك شاه واحتل حصن «ظفر»، عاصمة بادخشان. وقرر خسروشاه استغلال هذه الاوضاع، فقام في شهر محرم ٩١٠هـ (يونيو ـ يوليو ١٥٠٥م) بالتحرك إلى كوندوز، في حين نقل كانباربي ـ والي كوندوز الجديد ـ هذا النبأ إلى سلاطين الشيبانيين في «حصار»: حمزة ـ سلطان ومطلب ـ سلطان وغيرهم من القادة الشيبانيين العسكريين، الذين سارعوا إلى تجميع قواهم وحشدها في «سالي سراي»، وتوجهوا إلى كوندوز. حيث أسروا خسروشاه وسحقوا جيشه، ثم أجلسوه على حمار، ظهراً لوجه، ودهنوا وجهه بالفحم وطافوا به في أنحاء المدينة كافة مشهّرين به، وبعد ذلك قطعوا رأسه.

وعندما كان بديع الزمان وسلطان حسين، اللذان تصالحا بشكل نهائي وتام في

هذه المرة، يقيمان احتفالاً بهذه المناسبة، قام شيباني خان في شتاء ١٥٠٥م بمهاجمة خوارزم التابعة لسلطة التيموريين. صحيح أن الأوزبك الرحّل فيها (ولا سيما تورتكول واورغينتش) ابدوا مقاومة عنيفة، لكن خوارزم لم تتلق من سلطان حسين ما توقعته من دعم ومساعدة. واستمر تشين ـ صوفي في مقاومة هجمات الغزاة وصد هجماتهم لمدة ١٥ شهراً. إلى أن ضعفت قواهم ونفد ما لديهم من احتياطيٍّ المؤن والمواد الغذائية.

وكما جاء في كتاب «زبدة العصر»، أخذ الناس يموتون جوعاً في أورغينتش المحاصرة، وإضافة إلى ذلك أخذ أمراء تشين صوفي يفرون مع رجالهم وينضمون إلى الأوزبك الرحّل، وقد أدّى ذلك كلّه إلى سقوط عاصمة خوارزم، وقتل تشين صوفي على ايدي حرسه الخاص «بسهم ذي ازين» أصابه في ظهره».

ولّى شيباني خان على خوارزم كيباك بي كوستشي وقفل عائداً إلى ما وراء النهر.

لم يستطع سلطان حسين توحيد القوى التيمورية كافة تحت رايته خلال عام ١٥٠٥م ايضاً. وفي فبراير عام ١٥٠٥م أعلن عن تحديد ضفة نهر «مرغاب» مكانا لاجتماع الجيوش التيمورية كافة، وسار بديع الزمان ومظفر حسين ميرزا لمواجهة العدو. وكان من المقرر أن يأتي بابور إلى هناك قادماً من كابول، إلا أنه لم يأت. أما مظفر حسين فطلب اليه العودة إلى هراة لسبب ما. وسرعان ما غادر بديع الزمان بدوره المخيم متجهاً إلى بلخاب بحجة جمع قوات جديدة.

أما شيباني خان، الذي تتبع هذه الأمور كافة، فقرّر إجراء اختبار آخر للقوى. وأرسل في اغسطس ١٥٠٥م جيشاً الى خراسان، وعمل نهباً وسلباً في قريتي «ميمنة» و«فارياب» المجاورتين لخراسان، وتمكن في الجولة الاولى من سحق محمد قاسم ـ ميرزا، وشيرين جالاير والأمير باباجان الذين هبوا للدفاع عن هاتين المدينتين.

عندئذ فقط، أدرك سلطان حسين الخطأ الذي ارتكبه بحق بديع الزمان. ويقول

خوندمير إن السلطان العجوز الهرم ندم ندماً شديداً لإجحافه السابق وسوء معاملته لابنه الاكبر، وقرر استدعاءه إلى هراة وتسليمه طليعة جيشه ومقدمته، فأرسل إلى قندهار خوجا شمس الدين محمد منشي، الوجيه الذي يتمتع بنفوذ في قصر هراة. ثم أرسل زنون ـ أرغين إلى زامينداوار، مكلفاً اياه بالقدوم إلى «مرغاب» قبيل بداية ربيع ١٥٠٦م. ذهب بديع الزمان إلى هراة حيث مكث فيها عشرين يوماً، وفي مارس ١٥٠٦م، اتجه إلى «مرغاب» ومكث فيها حتى نهاية مارس ١٥٠٦م، وقبيل بداية شهر ابريل، سافر إلى سارييول تابان حيث راح ينتظر وصول والده بالقوات الأساسية. صحيح أن سلطان حسين كان قد غادر هراة في منتصف شهر ذي القعدة ٩١١هـ (١١ ابريل ١٥٠٦م)، إلا أنه لم يصل إلا إلى منطقة «بابا الله»، إذ اشتد به المرض وتوفي في ١١ ذي الحجة ٩١١هـ (٧ مايو ١٥٠٦م). في الحقيقة كانت البلاد ثنائية السلطة ويديرها بديع الزمان ومظفر حسين، وثارت فيها الاضطرابات والفوضى. وكان ذلك لصالح شيباني خان. وفي نهاية ابريل ١٥٠٦م اجتازت قوات الأوزبك الرحّل نهر أموداريا وسارت حتّى وصلت إلى ميروتشاك. ولم يصل نبأ ذلك إلى هراة الا في شهر المحرم ٩١٢هـ (٢٤ مايو ١٥٠٦م) وأثار ذلك، في بادئ الأمر، الاضطراب والارتباك في الأوساط الحكومية. وأرسل بديع الزمان ضد الاوزبك الرحل الأمير زنون على رأس جيش قوامه ١٢ ألف مقاتل. وكان النصر حليفه، إذ هزم الفرسان الأوزبك في «تشولي زرداك» وطردهم من ميروتشاك. واثبتت العملية العسكرية التي قام بها الأمير زنون أن العدو ليس بالامكان ايقافه فحسب، بل يمكن إلحاق الهزيمة به ايضاً إذا ما توافرت عناصر الوحدة وتراصت الصفوف، الأمر الذي كان، للأسف الشديد، يفتقر اليه التيموريون. إذ تركوا زمام المبادرة، كلياً، بيد شيباني خان، الذي قرر ـ لإخماد وإضعاف يقظة وخدر خلفاء سلطان حسين ـ البدء بإجراء المباحثات والحوار معهم، فأرسل مولانا خاتم إلى هراة. وتذرّع شيباني خان بأن والده ابا الخير خان كان قد ساعد الكثير من التيموريين ومن ضمنهم سلطان حسين، فطالبهم بالتنازل له عن خراسان طواعية وبالتي هي أحسن. بيد أن مولانا خاتم أخفق في إقناع الأمراء،

وفشل في بلوغ الهدف. بعد ذلك باشر الطرفان بحشد قواتهما. وتمكن شيباني خان من الوصول بقواته الرئيسة إلى ضفاف أموداريا، قبل وصول خصومه. أما بديع الزمان فحدّد ضفة نهر «مرغاب» مكاناً لتجمّع القوّات، بينما الرسول الأوزبكي احتجزه وأخّره في «هراة». ونقلاً عن بابور، فقد كان التيموريون متباطئين في استعداداتهم، إذ إن حشد القوات وحده استغرق منهم زهاء أربعة اشهر، أمّا «الميرزاوات ـ «جمع ميرزا» أنفسهم فقد أمضوا الوقت في الاجتماعات غير الضرورية وتبادل الزيارات واللهو والشرب.

في حين، قام شيباني خان، في مطلع جمادى الاولى ٩١٢هـ (١٩ سبتمبر ١٥٠٦م)، بتطويق أسوار بلخ من الجهات كافة، أرسل سلطان كيلينجاك ـ كوتڤال (ممثل) ـ بلخ رسولاً إلى «مرغاب»، وأطلع الميرزاوات على الوضع الناجم. إلا أن الميرزاوات التيموريين، الذين كانت لديهم قوات كافية، أبدوا تردّدهم وافتقارهم إلى عنصر المبادرة. اما الاجتماع، الذي عقدوه بعد وصول الرسول، فقد اقتصر على مجادلات ومناقشات باطلة متواصلة لا نهاية لها. باختصار لم تتلق بلخ اي مساعدة أو عون. وفي ظل هذه الظروف، اضطر سلطان كيلينجاك، الذي استبد به اليأس بعد حصار استمر اربعة أشهر، إلى تسليم المدينة إلى الأوزبك الرحل. ووفقاً لما ذكره سلطان محمد البلخي، جرى ذلك في ١٥ جمادى الآخرة عام ٩١٢هـ (٥ نوفمبر ١٥٠٦م). عيّن شيباني خان كانباراميرزا والياً على بلخ، وعاد إلى سمرقند، مكتفياً بما أحرزه من انتصارات. ومع ذلك ظل الميرزاوات التيموريون على خمولهم. في حين شن الفرسان الاوزبك غارات جريئة حتى إنهم كانوا أحياناً يصلون الى «مرغاب» و«تشيتشيكتو». باختصار، وللأسف الشديد، لم يقم الميرزاوات التيموريون بمقاومة الأوزبك الرحّل، بل حتى إنهم قاموا في بداية شهر رجب ٩١٢هـ (١٧ نوفمبر ١٥٠٦م) بترك مواقعهم على ضفة «مرغاب» وعادوا إلى ديارهم، مؤجّلين الحملة ضد الأوزبك الرحّل حتى ربيع العام التالي (١٥٠٧م). لقد أمضوا طوال خريف وشتاء عامي ١٥٠٦ ـ ١٥٠٧م في اللهو والتسلية والترفيه عن أنفسهم. وخلاصة القول، إن التيموريين أخفقوا في عام ١٥٠٧م مرة أخرى،

ولم يتمكنوا من الانضواء تحت راية واحدة. وعلاوة على ذلك، كان كل واحد منهم لا يفكّر إلاّ في مصالحه الشخصية. وهكذا أدى الانقسام والتشتت والاضطرابات السياسية السائدة في بلاد سلطان حسين إلى تمكين شيباني خان والأوزبك الرحل من القيام في بداية شهر محرم ٩١٣هـ (١٣ مايو ١٥٠٧م) بتوجيه ضربة قوية إليهم. وفي مطلع شهر محرم ٩١٣هـ (١٣ مايو ١٥٠٧م) اجتاز شيباني خان نهر اموداريا ودخل خراسان. وتجدر الاشارة هنا، إلى أن شيباني خان لم يضطر، في هذه المرة، إلى محاصرة مدن خراسان المحصنة، إذ ما كادت طليعة جيش شيباني خان أن تظهر، حتى قام الأمراء والنبلاء والوجهاء بإعلان ولائهم للشيباني خان وقدموا له مفاتيح بوابة المدينة. وذلك ايضاً ما فعله على سبيل المثال حكام اندخود وميروتشاك. وبعد احتلاله لهذه المدن، اجتاز شيباني خان، بسهولة وبدون اي مصاعب، نهر «مرغاب» ودخل حدود «بادغيس». ونقلاً عن صاحب كتاب «زبدة العصر» لم يتخذ بديع الزمان ومظفر حسين والتيموريون الآخرون التدابير أو الاجراءات اللازمة، وعلاوة على ذلك، لم يلتف الشعب حولهم. ومع ظهور طلائع الأوزبك الرحّل، تفرّق أولئك الذين كانوا معهم. وقام الميرزاوات بدورهم بترك المعسكر والاتجاه نحو هراة. وكانت منطقة «كارابات» الصغيرة وحدها هي التي قاومت الاوزبك الرحل، ولكن سرعان ما أخمدت هذه المقاومة وأسر شيخ علي تاغان، الذي كان يعد من أبرز امراء السلطان حسين، وسقطت في ايدي الجيش الاوزبكي كمّية كبيرة من الغنائم. وذكر خوندمير أن هذه الاحداث وقعت في السابع من شهر المحرم عام ٩١٣هـ، الموافق ٢٠ مايو ١٥٠٧م.

آنذاك، استولى شيباني خان ومحمد تيمور سلطان، بدون أيّ صعوبات أو عراقيل، على توكوز - ربض، «ربضي» وغيرها من المناطق، وفي اليوم التالي (٨ محرم ٩١٣هـ - ٢١ مايو ١٥٠٧م) كانوا على مشارف هراة.

ويتحدّث خوندمير - شاهد عيان هذه الاحداث - عن الهرج والمرج اللّذين سادا العاصمة آنذاك، وعن فرار الميرزاوات التيموريين وأمرائهم من العاصمة مذعورين فزعين. فمثلاً، فر سعيد عبد الله ميرزا مع أمرائه إلى مشهد حيث اتحد مع كيباك

ميرزا (محمد محسن ميرزا)، وفرّ أبو الباقي ميرزا، وأمير محمد بوروندوك - بارلاس العظيم إلى سابزيوار حيث اتحد مع حسين ميرزا. وبعد قضاء الليل في المدينة، وفي صباح ٢٢ مايو ١٥٠٧م، غادر المدينة ايضاً كلٌّ من بديع الزمان ومظفر حسين ميرزا، ففرّ الاول باتجاه قندهار وزاميندوار، أما الثاني ففرّ الى استراباد، وتركا حتى أمّاهما ونساءهما والاطفال، وألقيا بهم إلى نوائب الدهر وعبث الأقدار.

وهكذا سقطت المدينة الكبيرة الغنية، عاصمة دولة التيموريين، التي تركها أولئك الذين كان عليهم الدفاع عنها حتى آخر قطرة دم والاستماتة في سبيلها، في قبضة المحتل. وإلى اولانغ - كاخديستان، حيث معسكر شيباني خان، ذهب وفد ضم كبار الشخصيات: شيخ الاسلام قوام الدين عطاء الله حسين، الأمراء عبد القاضي وغياث الدين محمد، سيد صدر الدين يونس، القاضي اختيار الدين حسن، القاضي صدر الدين محمد، سيد راضي الدين عبد الله الأول، خوجا جلال الدين عطاء الله وخوجا نظام الدين عبد الله، وقدموا لشيباني خان هدايا ثمينة وسلموه مفتاح بوابة المدينة الخارجية (شاهري بيرون). وفرض على سكان المدينة ضرائب حربية حجمها ١٠٠٠٠٠ تنغة من فئة مثقال واحد و٢٠٠٠٠ تنغة كهبة للخان شخصياً و٥٠٠٠ لمولانا عبد الرحيم تركستان - وزير شيباني خان.

كما حصل شيباني خان ايضاً على الخزينة الغنية التي كانت تعود إلى السلطان حسين واولاده.

وفي يوم الجمعة الموافق ١١ محرم عام ٩١٣هـ (٢٤ مايو ١٥٠٧م) ألقيت في مسجد هراة خطبة أشير فيها الى اسم أبي الخير خان ومحمد شيباني خان.

لكن الحصن الداخلي (شاهري دارون) استمر في مقاومته لمدة ١٦ يوماً، وكان على رأس المدافعين عنه عاشق محمد كوليلتاش وعبد الله باكول وأناس آخرون، وبوشر بمهاجمة المدينة واحتلت خلال أربعة أيام.

وعين شيباني خان الأمير جان وفا ميرزا حاكماً على هراة، وأنعم على البهلوان درويش محمد بمنصب ممثل حصن اختيار الدين.

ولم يبق على شيباني خان سوى القيام بخطوة واحدة كي يصبح السيد المطلق على الامبراطورية التيمورية المترامية الاطراف. فأعطى قواته إجازة مدة نصف شهر للاستراحة، وبعد ذلك، تحرك من اولانغ ـ كاخديستان إلى «بولي سالار، ثم أرسل قواته الرئيسية إلى مناطق إيران الغربية: مروى ـ شاه جهان، جام ، مشهد وسابزيوار، بقيادة محمد تيمور سلطان وعبيد الله خان المشتركة، أما شيباني خان نفسه ، فلم يشارك في هذه الحملة وبقي في «بولي سراي» ـ احدى ضواحي هراة.

وبدون أي صعوبات، استطاع السلاطين الشيبانيون احتلال المناطق الآنف ذكرها، واستسلم لهم بدون أي مقاومة او طلقة، حصن نيراتو العظيم الصعب المنال، وجام ومروى ـ شاه جهان. وحّد ابو المحسن ميرزا ومحمد حسن ميرزا قواتهما في مشهد، وحاولا مقاومة الاوزبك الرحل، إلا أنهما سحقا. كما هزم في «سابزيوار» كل من ابن حسين ميرزا وبوروندوك ـ يارلاس. وفي العام التالي (١٥٠٨م) انتزع شيباني خان جرجان من بديع الزمان، و«دان غان» من فريدون حسين. فلجأ بديع الزمان إلى اذربيجان حيث اواه بايرام بيك ـ كاراماندو، أما فريدون فتراجع إلى عطرين.

وبعد توحيده جورجان ودامغان، قام شيباني خان بالإنعام بهما على الأمير أحمد ـ كونغورات، بينما أنعم بسابزيوار على سيد هادي، وبمروى شاه جهان على كانبار علي، و«جام» على الأمير محمد صالح، وبلخ ومحافظتها على ابنه الحدث خرام شاه المولود في عام ١٥٠١ من زوجته خان زادا بيجيم ـ شقيقة ظهير الدين محمد بابور الكبرى.

وهكذا استولى شيباني خان على مساحات شاسعة من الاراضي الواقعة على الضفة اليسرى لأموداريا. وكانت حدود ممتلكاته في خراسان تمتد غرباً محاذية لخط « سيمينان»، وشرقاً حتى بادخشان، وجنوباً حتى منطقتي كاخيندار وغوري الجبليتين في اواسط افغانستان.

إلا أن انشغال شيباني خان الدائم في محاربة الاوزبك ـ الكازاخيين وأبناء قبيلته في داشتي كيبتشاك، وحكام مغولستان، لم يمكنه من الاحتفاظ بهذه

الأراضي الشاسعة التي انتقلت سيادتها، بعد وفاة شيباني خان قرب مرو (عام ٩١٦هـ ـ ١٥١٠م)، إلى أسرة تركية أخرى ألا وهي الأسرة الصفوية، التي بدأت تحركها من «أردبيل» إلى الشرق في بداية ق ـ ١٦م. واستولت هذه الأسرة على خراسان بدون أي صعوبة تذكر. بدأت حملة الشاه اسماعيل (١٥٠١ ـ ١٥٢٤م) على خراسان في مطلع شهر رجب ٩١٦هـ (بداية اكتوبر ١٥١٠م)، واثارت ارتباكاً شديداً لا مثيل له لدى واليي شيباني خان ـ احمد سلطان وخوجا احمد كونغورات في دامغان واسترباد، فهربا إلى داورن ومنها إلى خوارزم، اما حاكما جرجان سيد رافع وبابا نوروز فذهبا بهدايا ثمينة إلى مقر قيادة الشاه اسماعيل في بسطام. وحذا حذوهما خوجا سيف الدين، حاكم اصفراعين. لقد ترك هذا النبأ اسوأ الأثر في نفس شيباني خان، الذي كان في هراة آنذاك، بعد حملته الفاشلة على الكازاريين صيف ٩١٥ ـ ١٥٠٩م، والغارات الفاشلة على داشتي كيبتشاك عام ١٥٠٨ ـ ١٥٠٩م، التي يتحدث عنها بالتفصيل روزبهان، بأنها أنهكت قوى الشيباني. وعلاوة على ذلك، ونقلاً عن ميرزا محمد حيدر، صرف شيباني جيشه لفترة الشتاء ولم يبق سوى فصائل حرس صغيرة. وفوق ذلك كله، ساءت علاقة شيباني خان بأقربائه في تلك الفترة نتيجة سلبه بخارى من عبيد الله خان، وتركستان من كوتشكونتشي خان، و«حصار» من حمزة سلطان... الخ «أدى ذلك ـ يكتب المؤرخ عبد الله نصر الله ـ إلى استياء الجميع منه». وبالفعل، لم يلبوا نداءه قبل موقعة مرو، وتركوه وحده يواجه العدو الذي كان يفوقه كثيراً قوة وعدداً.

وأسرع الشاه اسماعيل متجهاً نحو هراة، ملحقاً الهزيمة بشيباني خان، ومدمّراً استحكامات حصن مرو، ومعرضاً سكانها كافة للضرب. وعشية السابع من رمضان ٩١٦هـ (٨ ديسمبر ١٥١٠م) كانت وحدات طلائع كيزيلباشي على مشارف عاصمة خراسان. واستسلمت هراة بدون مقاومة.

بعد أن مكث الشتاء في هراة، وعيّن حسين بيك لالاباشي حاكماً (داروغا) على عاصمة خراسان، تحرك الشاه اسماعيل باتجاه بلخ واستولى بسهولة على فارياب وميمنة وغيرهما من مدن بلخ. أما سلاطين بني شيبان الأكثر حيوية ونشاطاً: عبيد

الله خان (حاكم بخارى) وجانبيك سلطان (حاكم ميان قلعة)، ومحمد تيمور سلطان (حاكم سمرقند)، فقد عقدوا اجتماعاً وقرروا عقد اتفاقية سلام مع الكيزيلباشيين، مهما كانت الشروط، وذلك كي يتمكنوا من الاحتفاظ بما وراء النهر. وتجدر الاشارة إلى أنهم افلحوا في ذلك. ووقعوا اتفاقية سلام مع الصفويين بفضل وساطة خوجا كمال الدين سوغارج، الوزير السابق لدى شيباني خان، والذي كان يخدم حينها لدى الشاه إسماعيل. وبموجب هذه الاتفاقية انتقلت الأراضي كافة الواقعة على الضفة اليسرى لأموداريا وخراسان من ايدي الشيبانيين إلى الصفويين.

وهنا خضعت لسيادة الشاه اسماعيل مدينة بلخ، فأعطى المدينة والمناطق (المحافظات) التابعة لها ـ اندخود، شيبيرغان، تشيتيشكتو، فارياب، بالا ـ مرغاب، وغارتشيستان ـ إلى بايرام بك كارامانل، وعاد الشاه إلى «قم». وقبل ذلك، وإبان وجوده في هراة، كان قد وهب «حصار» وخوتالان وبادخشان إلى ميرزا خان (سلطان عويس ميرزا) ابن التيموري سلطان محمود ميرزا الذي ربط مصيره في ما بعد بالصفويين.

ما وراء النهر في عهد أوائل الشيبانيين

إنه لمن الصعب إعطاء صورة دقيقة عن التطورات اللاحقة التي طرأت على بلاد ما وراء النهر في ما بعد.

بناء على المعلومات الضئيلة والمتناقضة أحياناً، المستقاة من المصادر التاريخية. فإنه بعد اتفاقية السلام مع الكيزيلباشيين، عقد السلاطين الاوزبك اجتماعهم الدوري في سمرقند، وفق العادات والتقاليد القديمة للشعوب التركية المغولية، وانتخبوا اكبرهم سناً توتشكونتشي خان (١٥١٠ ـ ١٥٣٠م) خاناً لعموم الاوزبك. فسارع هذا الخان المنتخب إلى تقسيم البلاد بين اقربائه، فأبقى طشقند لسويونتش خوجا سلطان، ومنح بخارى لعبيد الله سلطان، وميانكال لجانبيك سلطان، أما محمد تيمور سلطان فحصل على مناطق كيش ونخشاب وخوزار ودربند وضفة

اموداريا اليسرى بكاملها.

امتازت فترة حكم توتشكونتشي خان بالعداوات والخصام بين الشيبانيين انفسهم، وبينهم وبين تحالف وائتلاف بابور وميرزا خان والكيزيلباشي.

إن التنازع على السلطة بين الخان الجديد، ومنازعيه المطالبين بالعرش، ومحمد تيمور سلطان، بدأ فوراً بعد اجلاس توتشكونتشي على العرش. ونقلاً عن عبد الله نصر الله صاحب «زبدة العصر» بدأ محمد تيمور سلطان يقيم علاقات مع الشاه اسماعيل. حتى إنهم، ذات يوم، جاؤوا لزيارته من سفارة الشاه التي كان يترأسها سيدي بيك، وشخص آخر يدعى خوجا محمد.

وفي المباحثات التي جرت بينهم، تطرقوا إلى موضوع السلام والوفاق. «ان ذلك - يواصل المؤرخ المعاصر - لم يعجب توتشكونتشي خان». وجاء ذكر ذلك أيضاً في كتاب «بحر الاسرار» لمحمد بن والي، الذي قال إن خطوة محمد تيمور سلطان هذه أثارت استياءً شديداً في معسكر توتشكونتشي خان، وقد حذّره الخان بشدة لتصرفه على هواه. في هذه المرة استطاع توتشكونتشي ان يحول دون قيام تحالف محتمل بين الكيزيلباشي ومحمد تيمور سلطان، الذي كانوا بواسطته ينوون جعل بلاد ما وراء النهر تابعة لسيادتهم. ورغم ذلك ظلت الأوضاع سيئة جداً، والاخطار تحدق بالبلاد من الجوانب كافة: فمن الضفة اليسرى لأموداريا، كان بابور وميرزا خان يتأهبان لمحاربة الشيبانيين ويحظيان بالدعم العسكري من الحكام الصفويين، وفي شرق البلاد، في أنديجان وكاسان، نشطت تحركات المغول: سلطان سعيد وسعيد محمد ميرزا، عمّ المؤرخ ميرزا محمد حيدر، ومن الشمال كان يتوقع هجوم السلاطين الكازاخ.

ومع ذلك، كان مصدر الخطر الحقيقي من جنوب البلاد. وكما ذُكر آنفاً، فإنّ الشاه اسماعيل قد وعد، حينما كان في هراة شتاء ١٥١١ ـ ١٥١٢م، بمساعدة ميرزا خان، في حين أكد لرسول بابور أن «كل ما يحتله هو (بابور) في ما وراء النهر ستعود ملكيته إليه». وبعد الحصول على ضمانة الدعم، قرر ميرزا خان وبابور

استعادة ما وراء النهر من أيدي الشيبانيين وشنا الحرب عليهم. هنا ينبغي القول إن كليهما كان آنذاك يتمتع بقوات قوية بما فيه الكفاية. فمثلاً، احتل بابور منطقة كابول الغنية، أما ميرزا خان فاستطاع، علاوة على بادخشان، احتلال كوندوز، التي هرب حاكمها آنئذ، أوروس بك دورمان، من المنطقة فوراً بعد وفاة شيباني خان. وفوق ذلك كله، وبعد كارثة مرو عام ١٥١٠م، على ضفة اموداريا، انفصل ٢٠٠٠٠ الف من الفرسان المغول عن السلاطين الشيبانيين وانضموا إلى ميرزا خان. باختصار، اتحد آنذاك بابور وميرزا خان في كوندوز في أواسط شوال ٩١٦هـ (يناير ١٥١١م)، أما حملتهما على «حصار» فبدأت في أواخر فصل الشتاء، كما هو معلوم، وانتهت بانتصارهما. وهُزم السلاطين الشيبانيون (حمزة سلطان ومهدي سلطان ومحمد تيمور وغيرهم) في «بولي سانغين» على أيدي قوات بابور وميرزا خان والكيزيلباشيين، التي كانت بقيادة أحمد بك صوفي اوغلي وشاهروخ افشار. أما حمزة سلطان ومهدي سلطان، فتم أسرهما وقتلا؛ وتمكنّ محمد تيمور سلطان من الفرار بصعوبة بالغة.

لقد كان لمعركة «بولي سانغين» دور حاسم في تقرير مصير دولة الشيبانيين. وقام السلاطين كافة، والخان نفسه، بتنظيف خزائن ما وراء النهر وسلبها، وعبروا أموداريا، مدركين عدم جدوى المقاومة. وعندئذ حذا حذوهم الاوزبك الرحل، وقاموا بسلب خزائن فرغانة.

وهكذا، في اواسط شهر رجب ٩١٧هـ (بداية اكتوبر ١٥١١م) عاد ظهير الدين محمد بابور، فاعتلى عرش سمرقند مرّة أخرى.

في هذه المرّة، لم يدم حكم بابور لما وراء النهر سوى ثمانية اشهر. وعن حكمه في ما وراء النهر، فإننا نعرف ما يلي: انه فور احتلاله لسمرقند قام اولاً ـ نقلاً عن ميرزا محمد حيدر وروزبهان ـ بإصدار أمرٍ بإلقاء خطبة يذكر فيها أسماء أئمة الشيعة الاثني عشر، واسم الشاه اسماعيل واسمه هو، ما أثار سخط رجال الدين السنيين والسكان المحليين. ولم يكن بمقدوره التصرّف على نحو آخر، إذ إنه استطاع اعتلاء عرش آبائه بفضل مساعدة الكيزيلباشيين ودعمهم. إن مثل هذه

الخطوة كانت خطوة مؤقتة فرضتها عليه الظروف. وثمة معلومات تستحق الاهتمام، اوردها بهذا الصدد خوندمير، عن حياة بابور وأعماله، ولم ينتبه اليها دارسوها. وقد جاء فيها ان بابور سارع إلى تسريح الكيزيلباشيين وزعيميهم احمد صوفي أوغلي وشاهروخ بك افشار، وأعطاهما هدايا قيمة وثمينة. إلا أن الممثل الشخصي للشاه محمد خان ايشيك اغاسي، بعد عودته إلى إيران في إثر الأميرين الكيزيلباشيين الآنف ذكرهما، أخبر الشاه ان «صاحب الجلالة بابور ينوي شق عصا الطاعة وخيانته». «ونتيجة لذلك - يستطرد خوندمير - قرر الشاه ارسال جيش إلى ما وراء النهر بقيادة نجمي سافي وزين الدين بك، وغيرهما من الأمراء، وذلك لإعادة بابور إلى صوابه، وتصحيح وجهات نظره».

ومع ذلك لم يصمد بابور على عرش سمرقند، إذ قام الشيبانيّون، في خريف ١٥١٢م، بحشد قوات كبيرة في تركستان، وشنوا هجوماً عنيفاً عليه وعلى الكيزيلباشيين. ودارت معركة دموية طاحنة بين الأوزبك الرحل من جهة، وبابور وحلفائه الكيزيلباشيين من جهة أخرى، في غيجدوان في ٨ رمضان ٩١٨هـ (١٧ نوفمبر ١٥١٢م) في موقعة تشولي - ماليك، انتهت بانتصار القوات الشيبانية المتحدة، التي كان يقودها عبيد الله خان وجانبيك سلطان وبوباي سلطان. زد على ذلك، قيام السلاطين الشيبانيون باجتياح خراسان في ربيع ٩١٩ هـ (ابريل ١٥١٣م)، فاستولى عبيد الله خان وجانبيك سلطان على هراة، بينما زحف بوباي سلطان على بلخ. ولم يستطع خوجا كمال الدين محمود - زميل نجمي ساني - مقاومة هجمات الاوزبك الرحل، فاضطر إلى الفرار من المدينة واللجوء إلى بابور في كيش.

في تلك الاثناء، كان الشاه اسماعيل متمركزاً في مصيف (بايلاك) في بابا - حقي، إحدى ضواحي هراة، وبتصميم منه على عدم السماح لشيباني خان بمواصلة إحراز النجاحات والانتصارات، قرر الإسراع بإرسال قواته إلى اندخود وشيبيرغان وبلخ، بإمرة ديو سلطان وأمير سلطان.

ومع ذلك لم يستطع الصفويون الصمود في الجزء الشرقي من خراسان. في

شهر ربيع الثاني (مايو ١٥١٦م)، كانت هذه المنطقة الشاسعة خاضعة للميرزا التيموري محمد زمان - ابن بديع الزمان ميرزا - ولكن في خريف العام التالي (١٥١٧م) انتقلت بلخ والاراضي التابعة لها إلى يد بابور، الذي ولّى عليها احد رجاله المقرّبين منه المدعو ابراهيم تشابوكا. وفي العام نفسه جاء محمد زمان، الذي فقد قواته وجنوده، إلى بابور في كابول، فغفر له أخطاءه كلها، وبعد شهرين أعطاه بلخ. فحكمها حتى شهر ذي العقدة ٩٢٩هـ (سبتمبر ١٥٢٢م)، متملّقاً لبابور تارة، وللشاه اسماعيل تارة أخرى.

واعتباراً من ربيع ١٥١٣م، كما هو معلوم، بدأ الاوزبك الرحل يشددون هجماتهم وضغطهم على مناطق الضفة اليسرى لأموداريا، وكان يرافق ذلك انتشار الخراب في مناطق اندخود وشيبيرغان وهراة ومرو، ومشهد. وقد كانت هجمات الشيبانيين عنيفة، لدرجة أن الشاه اسماعيل وبابور القلقين على مصير ممتلكاتهما وأراضيهما، أخذا يحصّنان الحدود القريبة من مناطق أموداريا. فقد قام الشاه بإرسال إبنه توخماسن إلى خراسان، وأرسل معه أمير سلطان وغياث الدين محمد وجيشاً كبيراً، في حين أرسل الى فيروز كوخ كلاً من درميش خان وزينال خان، وذلك لتنظيم أمور حماية مناطق إيران الغربية. أما الشاه نفسه، فقد ذهب إلى همذان حيث اقام معسكراً. كذلك قام بابور، بتعزيز حماية باميان وكاخميرد وغوري ومناطق افغانستان الجبلية الأخرى.

وفي ربيع ١٥٢١م، اجتاح عبيد الله خان خراسان مرة أخرى، على رأس جيش قوامه ٣٠٠٠٠ مقاتل. وآنذاك طوق الاوزبك الرحّل هراة وعملوا سلباً ونهباً في مناطقها لمدة شهرين. وبعد سنة، (ربيع ١٥٢٣م)، قام الشيبانيون، للمرة الثانية، باقتحام حدود خراسان، وكان على رأسهم في هذه المرة أيضاً، سويونتشي خوجا خان نفسه - والي الشيبانيين في طشقند - صحبة عبيد الله خان وجانبيك - سلطان وغيرهما. فاحتلوا بلخ، ثم انطلقوا إلى هراة، فاستبدّ الذعر بطهمساب ميرزا وغيره من كبار الشخصيات الكيزيلباشية. كان الشيبانيون على

وشك الانتصار، ولكن، وكما ذكر محمد بن والي بأسلوب مجازي، فان الرياء والنفاق والتعسف وازدواجية الوجه لدى السلاطين، قد خيبّت أمل سويونتشي خوجا خان، وأوقعته في مأزق حرج، إذ تخلوا عنه في اللحظة الحاسمة وتركوه وحيداً وعادوا إلى «مرغاب». فاضطر سويونتشي خوجا خان إلى رفع الحصار عن حدود هراة، والانسحاب منها.

في ربيع ١٥٢٦م، قام الجيش الشيباني بقيادة عبيد الله ـ خان باجتياح خراسان، مجدداً، واحتل مرو والعديد من مناطق هراة. ولئن عجزوا عن تثبيت أقدامهم فيها، إلا أنهم نجحوا في ذلك تماماً في المناطق الواقعة شرقي «مرغاب».

وفي العام نفسه ١٥٢٦م الموافق ٢١ رمضان ٩٣٢هـ ـ ٢ يوليو ١٥٢٦م استولى كيستين ـ كارا سلطان ـ الابن الثاني لجانبيك ـ على بلخ والمناطق التابعة لها، والتي ألحقت، منذ ذلك الوقت، بصورة ثابتة، بدولة الشيبانيين. وبعد أن جاء الاستراخانيون الذين حلّوا محلّ الشيبانيين منذ عام ١٦٠١م، وبعد اتحاد طخرستان وبادخشان وكلاب والمناطق الجبلية الواقعة في أواسط أفغانستان، نشأت مقاطعة مستقلة عرفت في التاريخ بـ «خانية بلخ»[١].

واستمرّ الشيبانيون في اثارة قلق الكيزيلباشيين في الأعوام اللاحقة أيضاً كما يقول محمود زين الدين واصفي (١٤٨٤ ـ ١٥٥١ أو ١٥٦٦م)، صاحب كتاب «بديع الوقائع»، متطرّقاً إلى حملة كيلدي محمد ـ حاكم طشقند الشيباني وابن سويونتشي خوجا خان وخليفته ـ على خراسان عام ٩٣٥هـ ـ ١٥٢٨ ـ ١٥٢٩م، واحتلاله مروى شاه جهان.

لم يستطع الكيزيلباشيون، المنهمكون في النزاعات الداخلية وحروبهم في ما وراء القوقاز وضد تركيا، مقاومة هجمات الاوزبك الرحل. زد على ذلك، في عام

١ـ لمزيد من التفاصيل انظر ـ ب. أ. احمدوف. خانية بلخ (ق ١٦م ـ النصف الاول من ق ـ ١٨م) طشقند، ١٩٨٢م.

٩٤٢هـ (١٥٣٥م) فقد الصفويون، بصورة نهائية، هراة التي استولى عليها عبيد الله خان.

ولم يكن حليفهم ظهير الدين محمد بابور أحسن حالاً، إذ كان مشغولاً في محاربة القبائل الأفغانية المتمرّدة، وفي حملاته على الهند الشمالية.

وباختصار، في عام ١٥٢٦م، استطاع الشيبانيون فرض سيادتهم، إضافة إلى ما وراء النهر، على كامل مناطق الضفة الشمالية جنوب تركستان، من نهر «مرغاب» غرباً حتى مصب نهر كوكتشا شرقاً.

خانية بخارى

الاحداث السياسية الأساسية: توفي كوتشكونتشي خان في عام ٥٣٠هـ. وإبان فترة حكم ابنه وخلفه أبي سعيد القصيرة (٥٣٠ ـ ٥٣٤هـ) لم تحصل أحداث مهمة تذكر، سوى موقعته عام ١٥٥٤م في فاراب الأمودارية، تلك الموقعة التي دارت بينه وبين الشيباني عبد الله سلطان، الذي قدم من الضفة اليسرى لأموداريا.

في عام ١٥٣٤م، انتقل الحكم في الدولة الشيبانية إلى يد عبيد الله خان (١٥٣٤ ـ ١٥٤٠م)، الحفيد المشهور لشيباني خان. وفي عهده نقلت عاصمة الدولة الشيبانية من سمرقند إلى بخارى. ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقي والفعلي لخانية بخارى. وجاء في المصادر والمراجع التاريخية أنه كان محارباً شجاعاً منذ ايام شبابه: شارك، تقريباً، في كل الحروب التي قام بها شيباني خان، وبعد مصرع شيباني خان، وفي عهد كوتشكونتشي خان، لعب دوراً كبيراً في حماية الدولة الشيبانية وتعزيزها.

وإضافة إلى ذلك كله، كان عبيد الله خان رجلاً مثقفاً ويجيد، فضلاً عن اللغة التركية، اللغتين العربية والفارسية، ويكتب الأشعار الرائعة ويوقعها باسم مستعار «عبيدي». وترك بعد وفاته ديوان شعر رائع. وقال عنه زين الدين واصفي إنه كان ملكاً مثقفاً وحامياً للعلوم والأدب. وكما هو معلوم، بعد عام ١٥١٢م، ومن جراء

مضايقات الكيزيلباشيين، اضطر كثيرون إلى الفرار من خراسان. وكان من بينهم «واصفي» الذي كان عبيد الله يقيم عبقريته وموهبته تقييماً عالياً، ووهبه كتاباً مكتوباً بخط يده شخصياً بعنوان «شاطفي»، ومئة «عبيدي»، وحصاناً وثياباً. وفي عام ١٥١٤م عينه كبيراً لمدرسي المدرسة التي شيدها في «ساوران». ونقلاً عن «واصفي» كان عبيد الله قد بنى، ايضاً، مسجداً وقام بإصلاحات في المدينة. وكسياسي ورجل دولة، وضع عبيد الله حداً للحركات الانفصالية والتقسيم والتجزئة الاقطاعية. كما إنه استطاع إخضاع خراسان وخوارزم لبعض الوقت.

ثمة قصة طريفة لحسن بك روملو، صاحب كتاب «أحسن التواريخ»، تسلط الاضواء على سيرة حياة هذا الملك. إن النزاع المستمر بين افراد السلالة الحاكمة في عام ٩٤٤ هـ (١٥٣٧ ـ ١٥٣٨م)، أثار الاضطرابات التي شملت خوارزم: «أصبح كل مسؤول ـ يقول المؤرخ ـ يطمع في الملك، وامتدت أيدي التعسف والظلم إلى كل زاوية، كل متسول يريد أن يصبح وزيراً، وكل خسيس دنيء يبغي ان يكون مسؤولاً كبيراً. لقد تردّت الاوضاع في الولاية وتدهورت». وأدت هذه الاوضاع ـ كما يُرى من تتمة القصة التي يسردها لنا المؤرخ ـ إلى قيام أبناء سفيان خان (يوسف سلطان وعلي سلطان و إش سلطان وبهلوان سلطان واكيش سلطان) بقتل عمر غازي خان ملك خوارزم، والاستيلاء على السلطة العليا. أما سلطان غازي، ابن عمر غازي المقتول، فقد لجأ إلى طشقند طالباً العون من باراك خان. فقام الأخير ومعه عبيد الله خان وعبد اللطيف سلطان ـ حاكم منطقة سمرقند ـ بمهاجمة خوارزم. لجأ علي سلطان إلى خراسان، وفر الآخرون إلى أماكن مختلفة، وبسهولة بالغة احتل السلاطين الشيبانيون خوارزم وعاصمتها. أما علي سلطان فقد حشد جيشاً جديداً في خراسان، بمساعدة الكيزيلباشيين على ما يبدو، واعتدى على خوارزم، وفي الطريق اليها انضم اليه السلاطين الباقون. إلا أنهم لم يستطيعوا التغلب على الشيبانيين. وعلى ضفة أموداريا مني السلاطين بالهزيمة، فترك عبيد الله عبد العزيز سلطان في أوغينتش وعاد إلى بخارى، وأعاد اليها كلاً من نوروز أحمد خان وعبد اللطيف سلطان.

وللأسف لم يستطع خلفاء عبيد الله ـ خان: عبد العزيز (١٥١٠ ـ ١٥٥٠م) وبرهان سلطان (١٥٥٤ ـ ١٥٥٧م) إيقاف انقسام دولة الشيبانيين التي أخذت تتجزأ إلى (دويلات) «اولوسات» مستقلة. فولاة الأمس والاتباع، في سمرقند وميّان قلعة (في افارينكينت) ونسف و«حصار» وكيش، شقوا عصا الطاعة وتمرّدوا وأخذوا يتنافسون على السلطة. وكان اشدهم عناداً عبداللطيف ـ الابن الثالث من ابناء كوتشوم خان ـ الذي حاول اعتلاء عرش خان عموم الاوزبك (١٥٤٠ ـ ١٥٤١م)، وبير محمد خان، الذي كان في بلخ حينذاك.

بعد وفاة عبد العزيز خان (٢٦ ربيع الثاني ٩٥٧هـ ـ ١٦ مايو ١٥٥٠م) خلفه على العرش محمد يار سلطان ـ حفيد شيباني خان ـ وكان ضعيف الشخصية عديم الكفاءة. فجاء إلى بخارى معزياً، واستولى على العرش (٣ شعبان ٩٥٧هـ ـ ١٨ أغسطس ١٥٥٠م). إلا أنّ رجال الدين المسلمين، بل بشكل ادق، الشيوخ الجويباريين لم يعترفوا بالخان الجديد.

بعد ذلك حاول بير محمد خان أن يولّي على العرش أحد رجاله ـ عمر غازي سلطان ـ المشهور باسم أوزبك سلطان، وهو ابن الشيباني رستم سلطان. وعن الأمير تيمور قولي، عن بدر الدين كشميري (قيم الصيارفة ـ داروغاي صراف خانة) أنه قال: «إن كبار الأمراء تقدموا ذات يوم بطلب التماس إلى فضيلته (خوجا محمد إسلام) بشأن اوزبك ـ خان، ذاكرين بأن ياسا جنكيزخان قد أرسلهم. لكنه اجابهم قائلاً: «إن الدراويش لا يمتثلون لقوانين جنكيزخان، ولا يمتثلون إلا لإرادة الله». ولما أخبر الأمراء الإيشان (فضيلة الشيخ) أن بير محمد خان يؤيد أوزبك خان لأنه أكبر سناً من الآخرين ويمتاز بالحزم والشجاعة، أجابهم الخوجا محمد اسلام بلهجة جازمة: «إذا كان بير محمد خان يبجل أوزبك خان، فإن عبد الله خان يبجِّل الله». باختصار، باءت خطة بير محمد خان بالفشل في هذه المرة، وفي اواسط عام ٩٥٨هـ (يونيو ـ يوليو ١٥٥١م) غادر بخارى، معيداً السلطة لمحمد يار سلطان.

استغل نوروز أحمد خان، حاكم طشقند، عدم الاستقرار في ما وراء النهر.

وبعد وفاة عبد اللطيف (١٥٥١م) حاكم سمرقند، اكتسح ما وراء النهر وبسط سلطته على قسم كبير منها.

يقول حفيظي تايتش بخاري، صاحب كتاب «شرف نامه شاهي»، إن السلاطين الشيبانيين لم يكونوا متحدين، وفر كثيرون منهم من دويلاتهم (مقاطعاتهم). فمثلاً، هرب رستم خان وابنه اوزبك سلطان باتجاه بخارى، وفر اسكندر خان مع ابنائه، ما عدا عبد الله خان، باتجاه بلخ. بينما توارى عبد الله خان وبكواته ومقاتلوه وراء اسوار كيرمين المنيعة. وعن ذلك اورد حسن بك روملو في كتابه «أحسن التواريخ» معلومات جديرة بالاهتمام، غير متوافرة، مثلاً، في «شرف نامة شاهي» لحفيظي تاينش بخاري، ولا في «مسخر البلاد» لمحمد يار بن عرب كاتاغان. واورد من ضمن ما اورده، ان باراك خان، ابن سويوتشاك - خان، بعد انتزاعه سمرقند من خلفاء أبي سعيد خان، ومحافظة بخارى، باستثناء بخارى نفسها، من برهان سلطان، حفيد عبيد الله خان، وميانكال من اخلاف جانبيك سلطان (المتوفى في نهاية شوال ٩٣٤هـ (١٧ يوليو ١٥٢٨م)، وشهر سابز وكارتشي من خلفاء بولاد سلطان، يبدو ان برهان سلطان، في ظروف جائرة، لم يستطع الاحتفاظ لنفسه إلا بمدينة بخارى، في حين انتقلت بقية اراضي خانية بخارى إلى باراك خان، الذي ألقيت الخطب باسمه في مساجد ما وراء النهر كافة لدى أداء صلاة الجمعة، وصكت باسمه النقود. لقد بذل نوروز احمد خان قصارى جهوده للاحتفاظ بعرش الخان الأعلى (الاكبر) لعموم الاوزبك. فمثلاً، تحالف في عام ١٥٥٣م مع برهان سلطان، وقرر القضاء على من بقي من المطالبين بالعرش ومن جملتهم وأبرزهم: عبد الله سلطان (المولود عام ١٥٣٣م) الشاب المفعم حيوية ونشاطاً.

وبموجب خطة مدروسة، قام باراك خان بمحاصرة كيش، بينما حاصر برهان سلطان «نسف» التي كانت خاضعة لعبد الله خان. إلا أن بير محمد خان هبّ من بلخ لنجدة المحاصرين وأنقذهم في حين دارت في تلك الاثناء، في ضواحي كاسان التابعة لـ «نسف»، معركة دامية طاحنة بين عبد الله خان وبرهان سلطان، هُزم فيها برهان سلطان وتراجع صوب بخارى. أما عبد الله خان وبير محمد خان فقد سارا

بالجيش إلى كيش، ما اضطر باراك خان إلى رفع الحصار والانسحاب ميمماً باتجاه سمرقند. ولكن بعد سنة ١٥٥٤م اتيح لباراك خان انتزاع ميانكال ونسف وكيش من أخلاف جانبيك سلطان. وفي موقعة كارشي التي جرت في ١٠ ديسمبر ١٥٥٤م، قتل رستم سلطان، وهرب كل من عبد الله خان وأوزبك سلطان وخسرو سلطان ودوستم سلطان وعبد الله سلطان إلى بلخ حيث اعطاهم مير محمد خان اندخود وشيبيرغان. قرر بير محمد خان الثأر لأبناء إخوانه الذين هزموا في موقعة كارشي، وسار شخصياً لمحاربة نوروز احمد خان، ودارت بينهما معركة في مكان صغير يعرف بـ «فراخين» (ميانكال) في ٢١ جمادى الاولى ٩٦٢هـ (١٥ ابريل ١٥٥٥م)، الا أنه هزم فيها.

بعد ذلك،قرر نوروز احمد خان القضاء على برهان سلطان. وفي شهر رجب ٩٦٢هـ (مايو - يونيو ١٥٥٥م)، سار على رأس جيش إلى بلخ، فحاصرها مدة ثلاثة أشهر. وهنا أرسل برهان سلطان رسولاً إلى شيبيرغان مستنجداً بعبد الله خان وواعداً إياه مقابل ذلك بالتخلي له عن بخارى والذهاب إلى حيث يأمره. سارع عبد الله الى جمع قواته، وعبر أموداريا إلى ضفتها اليمنى عبر بوردااليك، وأحرز انتصاراً قرب فاراب على القوات التي حشدها هناك نوروز باراك خان، وأسرع بمواصلة انطلاقه إلى بخارى، فاستقبله برهان سلطان في شهري اسلام الواقعة بين بخارى وكيرمين، وسلمه مفاتيح بوابة بخارى. وقام عبد الله خان بتعيين برهان سلطان حاكماً على كاراكول. ولكن بعد مرور ٤٠ يوماً، نقض عبد الله خان الاتفاقية وتحالف مع نوروز احمد خان وبواسطة الجيش المساعد او الاحتياطي، الذي وضعه بتصرفه، حاصر بخارى. لم تكن القوى متكافئة، لذا ترك عبد الله خان بخارى ولجأ مرة أخرى إلى بلخ. وعينه مير محمد خان حاكماً على ميمنة وتشتشيتكه، حيث مكث حتى ربيع ١٥٥٦م.

في أوائل ربيع ١٥٥٦م، أرسل عدد من الأمراء المتمردين على برهان سلطان، ومن ضمنهم: (جانكيلدي آتاليك كونغورات وخلكلي اتاليك وتيمور قولي وغيرهم)، دعوة إلى عبد الله خان، وسلّموه كاراكول. فثار عليه برهان سلطان ونوروز أحمد

خان. وبعد حصار طويل، وقعت معاهدة سلام طهّر عبد الله خان، بموجبها، كاراكول ورجع، مجدداً، باتجاه ميمنة وتشيتشيتكه.

في ربيع ١٥٥٦م سنحت فرصة مؤاتية لعبد الله خان ومؤيديه لاحتلال بخارى. ومساء ١٨ ذي القعدة ٩٦٣هـ (٢٤ سبتمبر ١٥٥٦م)، توفي نوروز أحمد خان في «ربضي خوجا» بزرافشان. فقام الأمير ميرزا اكابي كوشتشي بتدبير مؤامرة ضد برهان سلطان لاغتياله. وتمت المؤامرة ونفذت بنجاح في ٧ شعبان ٩٦٤هـ (٦ يونيو ١٥٥٧م).

استغل عبد الله خان هذه المناسبة واستولى على بخارى. وساعده في ذلك بير محمد خان وعدد من الأمراء المناوئين لبرهان سلطان. ونقلاً عن مؤلفي كتابي «شرف نامه شاهي» و«مسخر البلاد»: كان إنساناً قاسياً خبيثاً، يعدم المواطنين لأتفه الأسباب وقتل، علاوة على محمد يار سلطان العديد من الحكام والأمراء؛ حاشيته تتألف من أناس عديمي التقوى، يضطهد الناس وخوجات الجويبريين. في الجمعة الثانية من شهر شعبان ٩٦٤هـ (١٣ يونيو ١٥٥٧م) خطب في مسجد بخارى باسم بير محمد خان، الذي كان اكبر الشيبانيين سناً، وبقي الخان الاعلى لعموم الاوزبك حتى مطلع شهر شعبان ٩٦٨هـ (١٧ـ١٨ ابريل ١٥٦١م)، وعرف باسم بير محمد خان الاول. ورغم إلقاء الخطبة وصكّ النقود باسمه، فإن سلطته كانت اسمية بحتة. كانت الاوضاع في بلخ غير مستقرة (نشط التيموريون على حدود خانية بلخ، وبدأ دين محمد خان تمرده)، ودبت الفوضى الداخلية ولم يستطع بير محمد خان القدوم من بلخ إلى بخارى. لذا كان الحاكم الأعلى الفعلي، منذ عام ١٥٥٧م، هو عبد الله خان، الذي دخل التاريخ باسم عبد الله خان الثاني.

في العام ١٥٦١م دب خلاف بين مير محمد خان وعبد الله خان الثاني. وكان سبب ذلك، بناءً على ما ورد في كتابي «شرف نامه شاهي» و«مجمع الغرائب»، سعي مير محمد خان لأخذ بخارى من ابن أخيه بتبديلها ببلخ. في هذا الشأن، كان الطرفان قد وقّعا اتفاقية في ربيع ١٥٦١م، في شيبيرغان. بيد أن الصفقة لم تتم نتيجة رفض خوجا محمد اسلام لها، إضافة إلى رفض زعيمي الشيوخ الجوبيريين

والطريقة النقشبندية منذ ١٥٤٢م. ولما قدم بهذا النبأ احد مقربي عبد الله خان إلى جويبار كولبابا كوليلتاش، أجابه حضرة الإيشان فوراً: «لقد خطر ببال خاننا أن يستبدل بخارى ببلخ دون استشارتنا، وإذا كان يعتقد إن بخارى خاضعة لسلطته بدون أي مساعدة او دعم، فليتصرف كما يشاء وليعطها لمن يريد، سنعيش وسنرى ماذا سينجم عن هذا التصرف المتهور».

وفور عودته إلى بخارى، سافر عبد الله خان الثاني إلى جويبار، واعتذر لفضيلته. وبعد ذلك، استدعى والده اسكندر خان من كيرمين، وفي شهر شعبان ٩٦٨هـ (ابريل، مايو ١٥٦١م) أجلسه على العرش. أما اسم مير محمد، وبتعبير المؤرخ المعاصر: «فقد شطب من الخطبة». وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت مقاليد السلطة بيد عبد الله خان الثاني الذي توّج خاناً، بصورة رسمية، عام ١٥٨٣م، بعد وفاة اسكندر خان.

وباسم عبد الله خان يرتبط تأسيس الدولة الاقطاعية الكبيرة، التي ضمت ما وراء النهر، تركستان الجنوبية وبادخشان وخوتّالان (منذ ق ١٦م) وكُلاب وهراة والجزء الشرقي من داشتي كيبتشاك وخوارزم. بدأ النضال في سبيل توحيد البلاد فوراً بعد الاستيلاء على بخارى عام ١٥٥٧م. حيث استولى على تشارجو ذات الأهمية السياسية الاقتصادية والاستراتيجية والواقعة على الطريق المؤدية إلى أموداريا. وفي خريف ١٥٦٧م حاصر مرو. وفي عام ١٥٧٠م، أخضع لسلطته اندخود وشيبيرغان الواقعتين على الضفة اليسرى لأموداريا. وفي عام١٥٧٢ استولى على ترمذ. وفي عام ١٥٧٣، بعد حصار طويل دام تسعة أشهر، واشتباكات وحروب عنيفة ضارية، اخضع بلخ عاصمة تركستان الجنوبية. وبين ١٥٦٧ ـ ١٥٨٣م، وبعد حرب استنزاف دموية، وضع عبد الله خان الثاني حداً للنزعة الانفصالية لدى خانات الشيبانيين والسلاطين، ووحّد ما وراء النهر وفرغانة وتركستان. وفي ١٥٨٤ ـ ١٥٨٩م، بسط سيادته على بادخشان وخوتّالان، وفي عام ١٥٨٧م، طردت القوات الشيبانية الكيزيلباشيين، واستولت على هراة.

بعد عام ١٥٨٧م، فترت العلاقات إلى حد ما بين الأب (عبد الله خان) والابن

(عبد المؤمن). وسبب ذلك، أنّ عبد الله خان، بعد احتلاله هرات، لم يمنحها له بل لـ «كولبابا كوكيلتاش». وهكذا تطورت هذه العلاقات الفاترة، وتحولت إلى عداء بين الأب وابنه، لدرجة أنهما أخذا يحشدان قواتهما في خريف ١٥٩٨م: قوات عبد المؤمن على الضفة اليسرى لأموداريا، وعبد الله خان في سمرقند وكارشي. وفي شهر يناير ١٥٩٨م، عبر عبد المؤمن بقواته إلى الضفة اليمنى، وسار مندفعاً صوب كارشي. وعاد عبد الله خان من كارشي إلى سمرقند، على جناح السرعة، وباشر بتحصين المدينة. إلا أن وفاة عبد الله في ٢ رجب ١٠٠٦هـ (٨ فبراير ١٥٩٨م) حالت دون إراقة الدماء.

لم يدم حكم عبد المؤمن سوى ستة اشهر، وقتل على يد أنصار أبيه. وبعد ثلاث سنوات من الحكم (١٥٩٨ـ ١٦٠١م) مكث فيها بير محمد خان الثاني الشيباني على العرش، انتقلت السلطة الى الأستراخانيين، خلفاء الابن الثالث عشر لـ «جوتشي خان توغا تيمور، الذي حكم قبل ذلك حاجي طرخان (استراخان).

توفي جاني محمد خان، مؤسس الأسرة الاستراخانية، في ٦ جمادى الآخرة ١٠١٢هـ (١٢ نوفمبر ١٦٠٣م) وبعد سبعة أيام من الحداد، قام السلاطين وزعماء المسلمين، بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة (١٨ نوفمبر ١٦٠٣م)، بإجلاس باقي محمد على اللباد الأبيض. وفي فترة حكم باقي محمد (١٦٠٣ ـ ١٦٠٦م) ووالي محمد (١٦٠٦ ـ ١٦١١م)، فقد الأستراخانيون تركستان، وسايرام، وسوزاك، وطشقند، وفرغانة، التي استولى عليها السلاطين القازاخيون بالتحالف مع خلفاء سويونتشي خوجا خان. واشتدت غارات القازاخيين والكاراكالباكيين، والقيرغيز والكالميك على مناطق ما وراء النهر الداخلية، كما اشتد التناحر والمنازعات الاقطاعية والفوضى في «حصار»، وتشاغانيان، وكوندوز، وبادخشان.

واستطاع إمام قولي خان، أكثر الأستراخانيين موهبة وحيوية ونشاطاً، إعادة الأمن والاستقرار، وتقوية جهاز الدولة المركزي وتوطيده. كما شن حروباً ناجحة على الرحل (الكالميك، القازاخ وغيرهم)، ومنع حدوث الانقسامات الاقطاعية المحلية.

وفي عام ١٦٤٢م، فقد إمام قولي خان بصره. وفي دولة الاستراخانيين ـ نقلاً عن مؤلف كتاب «تاريخ مقيم خاني»: «ظهرت الاضطرابات والفوضى». ولإنقاذ الاسرة الحاكمة استدعى إمام قولي أخاه، نادر محمد خان، من بلخ وتنازل له عن السلطة العليا. وبعد إن حكم ٤ سنوات دبر الأمراء المستاؤون منه مؤامرة ضده، وأطاحوا به عام ١٦٤٥م. وكان استياؤهم ـ كما ورد في كتاب «تاريخ كيبتشاك خاني» ـ ناجماً عن موالاة نادر محمد خان لأمير بلخ، واستخفافه وعدم تقييمه لخدمات امراء بخارى. ويقول محمد يوسف، صاحب كتاب «تاريخ مقيم خاني»، إن نادر خان كان يضطهد الأمراء والأغنياء الذين «اعتادوا على الحرية والرفاهية».

أُجلس على العرش عبد العزيز خان، الذي أعدَّه المتآمرون منذ زمن طويل قبل التمرد في خوجند، بحجة ضرورة محاربة السلاطين الكازاخ، الذين كانوا قد احتلوا قبل ذلك مناطق سرداريا.

علم نادر محمد خان بالمؤامرة، إبان وجوده في كارشي، فهرب فوراً إلى بلخ حيث باشر بتحصين العاصمة (بلخ) والمناطق التابعة لسلطته. إلا أن أبناءه وأحفاده: خسرو ـ سلطان، وبهرام سلطان، وسبحانقولي سلطان، وكوتلوغ سلطان، وقاسم سلطان، وغيرهم، شقوا عصا الطاعة. ففر قاسم سلطان، وسبحانقولي، إلى بخارى واتحدا مع عبد العزيز خان. ونتيجةً لتمرّد الأبناء والأحفاد، والأخطار المحدقة بخانية بلخ من قِبَل عبد العزيز خان، الذي كان قد عبر أموداريا وبلغ ساريبول، استنجد نادر محمد خان بالبابري، شاه جهان (١٦٢٨ ـ ١٦٥٧م)، الذي سرَّ للمناسبة المتاحة له، وسيَّر إلى بلخ جيشاً كبيراً بقيادة مراد باهشا و علي مروان خان. كان هدف البابري في غاية الوضوح: لقد كان يخطط للقضاء على حكم الاستراخانيين، وبسط سلطته على بلخ والضفة اليسرى لأموداريا بأسرها. ولأن نادر محمد كان مدركاً للنوايا الحقيقية لشاه جهان، فر إلى ميمنة اولاً، ومنها لجأ إلى أصفهان، وفيها الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ـ ١٦٦٦م).

ساد رجال شاه جهان في بلخ أكثر من سنتين (١٦٤٦ـ ١٦٤٨م)، بيد أنهم لم يتمكنوا من ترسيخ أقدامهم فيها. والمهم هنا أنهم لم يلقوا دعماً من الشعب. وإضافة

إلى ذلك، فقد دبت المجاعة، الأمر الذي استغله عبد العزيز خان، فأرسل جيشاً كبيراً (تشير المصادر إلى أن قوامه كان زهاء ٢٠٠٠٠٠ مقاتل، وهذا غير صحيح بتاتاً) عبر إلى ضفة أموداريا الجنوبية، وعسكر في منطقة «باتكاك كولي اختشي». وأمام هذا الواقع، رأى شاه جهان أنه من الحكمة سحب جيشه من خانية بلخ، قبل حلول برد الشتاء (١٦٤٨م)، وإعادة السلطة إلى نادر محمد خان.

دامت فترة حكم نادر محمد خان الأخيرة في بلخ ما يقارب السنتين. وفي ربيع ١٦٥١م، حاربه سبحانقولي سلطان وأبوه، الذي تنازل عن السلطة لابنه، واضطر إلى اللجوء إلى مكة.

كانت فترة حكم سبحانقولي خان لخانية بلخ (١٦٥١ - ١٦٨١م) قد مضت في نزاع دائم مع الخان الاعلى - عبد العزيز خان، ومن أبنائه: اسكندر سلطان، عباد الله خان... ألخ.

كانت أيام حكم عبد العزيز خان (١٦٤٥ - ١٦٨١م)، أياماً شاقة صعبة. وكما اشرنا آنفاً، اضطر لمحاربة سبحا نقولي - خان. وقد أثّرت تأثيراً جسيماً، وألحقت أبلغ الاضرار، حروبُ النهب والسلب المتكررة بانتظام، والتي كان يشنها الخيويون على خانية بخارى. ففي عام ١٦٥٥م، شن هؤلاء الخيويون بقيادة أبي الغازي خان نفسه (١٦٤٤ - ١٦٦٧م)، مرتين الغارات على واحة بخارى وكراكول، بصورة مدمرة، وعادوا بكميات كبيرة جداً من الغنائم، وبأعداد كبيرة من الأسرى. استمرت غارات الخيويين في السنوات اللاحقة أيضاً، وامتدت عمليات نهبهم وسلبهم، آنذاك، حتى كيرمين. وفي عام ١٦٥٨م نهبوا مدينة وردانزي. وفي عام ١٦٦٢م، بلغوا بخارى ونهبوا القرى القريبة منها. وقد اقتحموا، غير مرة، حدود خانية بخارى، في عهد انوشا خان بالذات (١٦٦٤ - ١٦٨٧م)، حتى إنهم تمكنوا في عام ١٦٨٠م، من احتلال سمرقند. أعرب الوجهاء والأغنياء (الذين ظلوا وجهاء واغنياء في انظمة الحكم كافة) عن رفضهم لذكر اسم انوشا خان في الخطبة، ولصك النقود باسمه. كذلك فإنّ عدداً من الأمراء المعارضين لسبحانقولي، حرضوا شعوبهم ضده: ونقلاً عن محمد يوسف منشي، أنّ أبا الغازي خان وانوشا خان شنّا على حدود خانية

بخارى زهاء ١٨ غارة. لقد تركت هذه الغارات المتكررة المنتظمة أسوأ الأثر في الاوضاع السياسية والاقتصادية في خانية بخارى، وادت إلى ازدياد توتر الاوضاع الداخلية المتوترة أصلاً.

وجلبوا معهم ـ بعبارة مؤرخ ذاك العصر ـ «النهب والدمار لمناطق ما وراء النهر، وتشريد سكانها وتشتيتهم».

اضطر عبد العزيز، نتيجةً لكبر سنه وعجزه عن إدارة شؤون البلاد، وتحت ضغط الأمراء والوجهاء، إلى التنازل عن العرش لسبحانقولي خان (١٦٨١ ـ ١٧٠٢م)، الذي توجب عليه محاربة الخيويين من جهة، والحكام الانفصاليين من جهة أخرى، ومن جملتهم حكام بلخ ـ اسكندر سلطان وصدّيق محمد. صحيح انه بفضل مساعدة محمود بي كاتاغان الفعالة، استطاع تحرير سمرقند ونواح أخرى من قوات انوشا خان، إلا أنه لم يتمكن من إقامة الاستقرار والنظام في بلخ والمناطق الخاضعة لسلطته. وفي مطلع شهر مايو ١٦٨٣م، قام الأمراء وزعماء القبائل الرحل المتمردون بالاطاحة باسكندر سلطان، ولي عهد بلخ وخانها، ثم قتلوا اخاه عبد الله سلطان. وهنا قام صدّيق محمد بالاستيلاء على زمام الحكم. وفي عام ١٦٨٧م عزله سبحانقولي خان عن الحكم وعهد بإدارة بلخ إلى محمد خان ـ آتاليك، زعيم قبيلة «يوز»، ولم تمر عدة ايام حتى نُحّي عن منصبه، وعُيِّن مكانه جاويم بي آتاليك. وفي عام ١٦٨٨م، في مطلع شهر اغسطس، انعم سبحانقولي خان ببلخ على محمد بي آتاليك العظيم. وفي اغسطس ١٦٩٧م، تم عزله ايضاً، وعين مكانه محمد مقيم سلطان (حتى عام ١٧٠٧م). وهكذا استمرت الحروب ضد غزو الخيويين حتى عام ١٦٨٦م، وضد حكام الأولوس الانفصاليين، طيلة فترة حكم سبحانقولي خان.

ويكمن الانتصار الوحيد في تحرير بالا ـ مرغاب من ايدي ايران الصفوية في عام ١٦٨٩م وإعادة ضمها إلى خانية بلخ.

كان النصف الاول من ق ١٨م مرحلة انحطاط وتدهور اقتصادي وسياسي،

وذلك من جراء نمو الملكية الاقطاعية الكبيرة، وإفقار صغار الفلاحين. وأدى ذلك، بدوره، إلى تعزيز الحركة الانفصالية، وإضعاف جهاز الدولة المركزي. زد على ذلك، تمرد قبيلة «يوز» في سمرقند، والكينيغيس والمانغيت في شهرسابز، واشتباك النيمانيين والسرايين في سمرقند، واستمرار غارات القبائل الرحل من الشمال، بالاضافة إلى، ازدياد اضطهاد الشعب على ايدي المقربين من الخان، ولاسيما بالتوي سراي ومختار شفيع من قبيلة جوغي وغيرهما. ونقلاً عن مير محمد أمين بخاري، مؤلف كتاب «عبيد الله نامه»: بدأوا باضطهاد طبقات الشعب كافة تقريباً، مستغلين دعم عبيد الله خان نفسه (١٧٠٢ ـ ١٧١١م). فمثلاً استولوا على «التانخاخ» (الاراضي الممنوحة لصغار العسكريين والموظفين، أو ايراداتها) العائدة للعسكريين، وكانوا يشجعون المرابين الهندوس بمختلف السبل، ويفرضون الإتاوات والضرائب الجديدة كما يحلو لهم، كما اصدروا وحدة نقد ذات عيار منخفض (في عام ١٧٠٧م)، فأدى ذلك، ليس إلى إلحاق الاضرار بمصالح طبقة التجار فحسب، بل أضّر بالفلاحين وبأصحاب الحرف اليدوية ايضاً، حتى إنهم تطاولوا واعتدوا على الأراضي العائدة لرجال الدين المسلمين بالوراثة، فارضين عليها «بيراتات» (اوراق دفع خاصة)، وإتاوات وضرائب وخراج . باختصار، كان عبيد الله خان ألعوبة بأيدي حفنة من الإقطاعيين. كما ازداد الوضع الاجتماعي والاقتصادي انحطاطاً وتدهوراً، نتيجة اندلاع الحرب بين بخارى وبلخ منذ عام ١٧٠٢م. وخلال سبع سنوات (١٧٠٢ ـ ١٧٠٩م) قاد عبيد الله الجيش خمس مرات إلى بلخ، الأمر الذي ألحق خسائر فادحة، لا تحصى ولا تقدر، بكلا الجانبين.

قتل عبيد الله خان في «تشاباغي فتح أباد» بـ «بولي ميرزا » في ليلة ١٦ / ١٧ مارس ١٧١١م، في مؤامرة دبرها له الأمراء والقادة العسكريون. خلفه على العرش أخوه أبو الفايز سلطان (١٧١١ ـ ١٧٤٧م) وكان شخصاً عديم الكفاءة ضعيف الشخصية. إلا أنه لم يستغل السلطة، إذ إن مقاليد الحكم بأسرها كانت في يد جاوشان كالماك، في بادئ الأمر، وبعد مقتله انتقلت إلى يد الكوشبيغ الاعلى عبد الله بي، وفي السنوات الأخيرة من حكمه ، صارت بيد محمد حكيم بي مانغيت.

في عهد أبي الفايز خان، بلغت الأزمة الاجتماعية السياسية في خانية بخارى، ذروتها. ومن أهم الأحداث السياسية في عهده نذكر ما يلي:

كما هو معلوم، في الاعوام الأخيرة من حكم عبيد الله خان، انفصلت عن خانية بخارى فرغانة دولة جديدة عرفت في التاريخ بخانية خوقند. وكان مؤسسها شاهروخ بي من قبيلة مينغ. لم يستطع أبو الفايزخان أن يحول دون نشوء هذه الدولة الجديدة، التي ما لبثت أن أصبحت دولة قوية ذات نفوذ وهيبة.

ورغبة في إضعاف نفوذ محمد حكيم بي آتاليك، واغتصاب السلطة منه، تآمر ابراهيم بي كينغيس ـ حاكم شهر يسابز ـ مع شيرغازي ـ خان خيوة ـ. وفي عام ١٧٢٢م عيّن شخصاً يدعى رجب خان، خاناً أعلى وأجلسه على العرش. وادى ذلك إلى انفصال محافظات سمرقند ونسف وشهر يسابز، عن خانية بخارى. وسرعان ماقام رجب خان هذا، بمساعدة امراء أبي الفايز الذين انضموا إليه، لاحتلال بخارى، وفي طريقه إليها اصطدم بقوات آتاليك محمد حكيم بي، فهزمها وهرب آتاليك ولجأ إلى اسوار بخارى المنيعة ليحتمي بها. حاصر رجب خان بخارى، إلا أنه لم يستطع احتلالها، فطلب المساعدة من الكازاخيين الفارين من اضطهاد الكالميك، والمستقرين على ضفة سرداريا. فقام الكازاخيون، الذين كانوا يعانون من الظروف الاقتصادية السيئة، بالمجيء بأسُرِهم وماشيتهم، واقتحموا ما وراء النهر واحتلوا ميانكال. وقام هؤلاء الرحل بسلب ونهب تومانات بخارى وسمرقند، خلال ٧ سنوات (حتى عام ١٧٢٨م)، وأتلفت ماشيتهم البساتين والحقول، ولم يجد رجب خان و أبو الفايزخان سبيلاً للتخلص منهم في ما بعد.

استغل الحاكم الايراني العظيم، نادر شاه افشار (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧م) تدهور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في خانية بخارى، وقرر احتلال الضفة العائدة لسلطة الاستراخانيين. فأرسل لهذا الهدف ابنه رضا قولي، الذي احتل، بدون إراقة كثيرٍ من الدماء، اندخود وشيبيرغان. وفي عام ١٧٣٧م استولى على بلخ. وفي السنة نفسها، وبناءً على أمر والده، عبر رضا قولي أموداريا قاصداً

كارشي. وانضم إليه حاكم خوزار باباخان بقواته المؤلفة من ٣٠٠٠ مقاتل. وبمساعدة هذه القوات، قام رضا قولي بمحاصرة كارشي. ولكن ـ نقلاً عن محمد كاظم ـ تمكن محمد حكيم بي، وأبو الفايز خان، الذي هب لنجدته بستين الف مقاتل، من الدفاع عن كارشي. ورغم ذلك، في المعركة الاساسية الفاصلة التي جرت قرب كارشي في ٢٤ نوفمبر، هزمت قوات الاستراخانيين، ولجأ محمد حكيم بي وأبو الفايزخان، وما تبقى لديهما من جند، إلى قلعة كارشي.

وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه رضا قولي، فإنه لم يحاصر كارشي وقصد بلخ. ما أسباب هذا الانسحاب السريع؟ يعلل مؤلف كتاب «تحفة الخاني»: ذلك بأنه ، في الوقت نفسه، وصل ايلبارس خان قادماً من خوارزم، لنجدة أبي الفايز خان. وذلك ايضاً ما يقوله المؤرخ نادر ـ شاه محمد كاظم، ونقلاً عنه جاء إيلبارس لنجدة الاستراخاني بـ٦٠٠٠٠ مقاتل من الأوزبك، والأراليين، والكاراكالباك، والكازاخيين. لكن، مؤلف كتاب «تاريخ نادري» يقول في مكان آخر إن رضا قولي خان، تصرَّف بناء على أمر نادر شاه، الذي تلقّاه من قندهار.

هنا قرر نادر شاه إنجاز المهمة بنفسه. ووصل إلى بلخ في مطلع عام ١٧٤٠م، وفي بداية سبتمبر من العام نفسه عَبَر أموداريا. ولكن مما يؤسف له أن أبا الفايز، الجبان عديم الكفاءة، أرسل محمد حكيم بي آتاليك إلى نادر شاه، يعرض السلام. وبموجب الاتفاقية المعقودة بين نادرشاه وأبي الفايز في «تشاربكر»، فرضت على بخارى جزية ٢٠٠٠٠٠ صاع من القمح والشعير، إضافة إلى أنواع الماشية. وعلاوة على ذلك تعهد ابو الفايز بتخصيص ١٠٠٠٠ من الفرسان لجيش نادرشاه. فضلاً عن ضمّ سمرقند، ونسف، وكيش، و«حصار»، إلى مملكة نادرشاه.

عيّن نادر شاه محمد حكيم بي في بخارى، وارسل شقيقه دانيال بي إلى كيرمين، ثم قاد جيشه إلى خوارزم مصطحباً معه محمد رحيم بي، ابن محمد حكيم بي.

قتل أبو الفايز خان في ٩ يوليو ١٧٤٧م، بناءً على أمر من القائد العسكري

الايراني بيخبود خان ومحمد رحيم بي، الذي أسس فيما بعد أسرة جديدة، هي اسرة المانغيت. وفي اليوم التالي (١٠ يوليو ١٧٤٧م) أجلس على العرش ابن ابي الفايز عبد المؤمن سلطان (١٢ سنة)، الذي لم يكن يتمتع بأي سلطة، إذ كانت مقاليدها جميعاً في قبضة محمد رحيم خان.

في عام ١٧٤٨م، خُلع عبد المؤمن خان، وأُجلس مكانه على العرش ابن ابي الفايز عبيد الله سلطان (٩سنوات). إلا أنه، شأنه شأن سلفه، لم يكن يتمتع بأي سلطة ولا يلعب أي دور في إدارة شؤون البلاد. وفي ٢٦ ربيع الاول ١١٧٠هـ (١٩ ديسمبر ١٧٥٦م)، وكما جاء في كتاب «بحر الاسرار» و«تحفة الخاني»، أجلس على عرش خانية بخارى محمد رحيم المانغيتي وخلع عليه لقب (الأمير الكبير).

حكمت الأسرة الجديدة حتى شهر سبتمبر ١٩٢٠م، تاريخ الاطاحة بهذه الدولة الاوزبكية على أيدي الروس البلاشفة بقيادة م. ف. فرونزه.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ونظام الحكم في خانية بخارى

إبان حكم شيباني خان، جرت اعادة توزيع الاراضي، وإنعاش طبقة الاقطاعيين: صودرت الاراضي وجميع الممتلكات التابعة لأولئك الوجهاء - وجهاء العهد التيموري - وكبار رجال الدين المخلصين للتيموريين، واعطيت للرحل والأمراء ورجال الدين والاقطاعيين المحليين والرُّحل، فسارعوا بالانضمام إلى شيباني خان، يعرضون خدماتهم فور ظهوره عند اسوار بخارى وسمرقند. كانت الأراضي الشيبانية وأراضي الطبقة الاقطاعية الملتفة حول السلطة الجديدة، ملكاً للفارّين من البلاد، إضافة إلى الاراضي الخالية المقفرة التي استصلحت بواسطة الري، وتلك التي تم الحصول عليها بمختلف انواع المكائد والاحتيال. وهنا شغل الرحل افضل الأراضي وأخصبها. إن هذه العملية، إضافة إلى الأعمال العسكرية، تركت اسوأ الآثار على الناس البسطاء. ولكن بعد تعزيز السلطة السياسية في البلاد، بادر شيباني خان إلى إصلاح الأوضاع الاقتصادية، ووضع تلك الأراضي التي تركها أصحابها، وتلك التي لم يظهر ورثة يطالبون بها، بناءً على قرار من المشرعين

(الفقهاء)، بتصرف ديوان الدولة، إذ كان لا بد من استغلالها. ولكن وردت نقطة تنص على أنه في حال ظهور صاحبها أو الوارث لها، خلال مدة ١٠ سنوات، فإن هذه الأملاك (الأراضي، المحلات التجارية، المطاحن الخ) تعاد لأصحابها مع قسم من الإيرادات التي درتها. ولإنعاش الزراعة اتخذت تدابير أخرى: ففي عام ١٥٠٢م أنشئت في زرافشان محطة لتوزيع المياه، وجرى تنظيم ممتلكات الاوقاف، وفي عام ١٥٠٧م أجري إصلاح نظام العملة.

كان الفلاحون يكوّنون الغالبية العظمى من سكان الخانية. وكانوا يزرعون القمح والشعير والذرة والأرز والجوغارا والماش والحمص والبازيلا والفاصوليا والقطن والفصفصة (او القرط) والعنب والخضار (البطيخ الاحمر والأصفر، الخيار والجزر واللفت والقرع)، وكانت البستنة وتربية الماشية متطورتين.

إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، سادت الأنواع التالية من ملكية الاراضي الاقطاعية: ملكية الدولة (مملكة او ملكي سلطاني)، الملكية الخاصة (مُلك) الاوقاف والمشاعية. لقد كان قسم من الاراضي، ولاسيما العائدة ملكيتها لعائلة الخان وبعض رجال الدين الاقطاعيين من الضرائب والخراج، يسمى بـ«ملك حرخالص». هنا، ينبغي القول، إذا كانت أراضي الدولة (الاراضي الحكومية) تحتل مكانة خاصة في القرن السادس عشر، فخلال ق ـ ١٧م والنصف الاول من ق ـ ١٨م، تعززت الملكيَة الخاصة نتيجةً لبيع الاراضي الحكومية (الأميرية)، ما دعم استقلال الفلاحين وتعلقهم بأراضيهم. وكان جزء من الأراضي الحكومية قد وُهِب لأفراد اسرة الخان (السلاطين) والقادة العسكريين البارزين والوجهاء، وذلك لقاء بعض الخدمات الجليلة التي قدموها للعرش. وكانت ملكية الأرض هذه تُعرف بـ «سويور غالوم». وإبان حكم الشيبانيين، ولا سيما إبان حكم الاستراخانيين، عرفت ملكية للأرض باسم «تانخاخ»، وكانت تمنح للعسكريين، وصغار موظفي الدولة.

فرض على السكان دفع الخراج (كان يعرف ايضاً بـ «المال» أو «مال جهات»)،

والاخراجات (ضرائب مخصصة لمصروفات القصر، تكاليف)، و(ياساك ـ ضرائب لإعاشة الجنود)، و («عوارضات» وهي ضرائب استثنائية على الحوادث والنكبات)، (ضرائب الـ «ميرابان» لإعاشة مراقبي مصادر المياه)، («مشريفان»: ضرائب تجمع لدفع رواتب بعض مسؤولي الدولة)، («كوتفالي» ضرائب تجمع لقوميندان الحصن) وهَلُمّ جراً. كذلك كان على السكان المساهمة في بناء الطرق والجسور والحصون ومصادر المياه. إن مثل هذه المساهمات الاجبارية معروفة في المصادر والمراجع باسم «مرديكار». في أثناء الحرب، كان الخانات والسلاطين يجمعون من السكان العلف والمؤونة بالقوة. وكانت هذه الجباية تعرف بالـ«اشليغ». كذلك كان السكان يساهمون في الـ «كوتالغا»، والـ «اياندا» والـ «رافاندا»، أي في تأمين المبيت والطعام ورعاية الخيول التابعة لرُسُل الخان وسُعاته.

كذلك اشتهرت مدن خانية بخارى وقراها، إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، بالصناعات اليدوية والتجارة. وجاء في «وثائق القضاة» والمراجع معلومات تفيد أنه كان في خانية بخارى زهاء ٧٠ فرعاً من الحرف اليدوية. ومن اشهرها، صناعة النسيج والخزف اليدوية. وصب حديد الزهر والصياغة وصناعة الاسلحة والورق والنقش على الخشب والحجر والجص، وصناعة الصابون ومخض الألبان... الخ. كذلك امتاز الورق، والاقمشة الحريرية وشبه الحريرية، والمنتجات المصنوعة منها، بالجودة العالية والشهرة، في الاسواق الداخلية والخارجية ايضاً. وكان حرفيو بخارى وسمرقند وكيش وطشقند ومرجيلان وانديجان، ينتجون المصنوعات الرائعة من الحديد وحديد الزهر والذهب والفضة والبرونز والنحاس، كالأسلحة (السيوف والخناجر والدروع والتروس والخوذ)، والمصنوعات الزخرفية من الخزف المصقول والورق الممتاز المتعدد الانواع مثل: «مير ابراهيمي» و«سلطاني»، وغيرهما من الأنواع ذات الشهرة العالمية.

كان الحرفيون، شأنهم شأن الفلاحين، عرضة لأسوأ أنواع الاستغلال، ويدفعون ضرائب مختلفة («بارج»، «زكاة»، «سوسان» والخ)، ويرغمون هؤلاء لبيع سلعهم بأسعار زهيدة للتجار الاغنياء وكبار المسؤولين، وإهدائهم لهم افضل ما

ينتجون. واضافة إلى ذلك كان الحرفيون المهرة يستغلون، بدون شفقة او رأفة، الحرفيين العاديين البسطاء المتدربين لديهم. وتجدر الاشارة هنا، إلى ان الغالبية العظمى من الحرفيين لم تكن لديهم ورشاتهم الخاصة ولا المواد الخام، ويشتغلون لدى الحرفيين الاغنياء في ظروف من الإجحاف والعبودية.

إن تطور الحِرَف، أدى بدوره ايضاً إلى تطور التجارة، محلياً وعلى المستوى الخارجي. وعرفت المدن الكبيرة، أسواقاً كثيرة: اسواق الحدادين، والنساجين، واللباد، والخيول ... الخ.

كانت خانية بخارى، ترتبط بعلاقات تجارية نشطة، مع الهند والصين وايران وتركستان الشرقية وروسيا، وغيرها من البلدان. وكانت مدن خانية بخارى، تصدر الاقمشة المختلفة (ميتكال وزاندانانتشا والاتشا وكندياكي والخ من الاقمشة)، والمنسوجات الحريرية وشبه الحريرية، والورق والسجاجيد والمصنوعات المعدنية، المخمل، والخيول، الفواكه المجففة والخ؛ وتستورد من البلدان الأخرى المعاطف المصنوعة من فراء السمور والسنجاب، والسهام والرماح المصنوعة من الحور الابيض (تيري خادان)، والجوخ، والشاش والأقمشة المقصبة والاصباغ، والأفاويه، والاواني الصينية، والأدوية. واللؤلؤ، الشاي والأقمشة الحريرية الزاهية الخ..

ونقلاً عن المؤرخين، فقد أسهم كبار الحكام والمسؤولين والقيادة العليا للبلاد إسهاماً فعالاً في تنشيط التجارة الدولية وتطويرها، إذ وفروا الأمن للقوافل التجارية، وأحاطوا التجار بالعناية والرعاية، ونظّموا جباية الضرائب.

وعن نظام الحكم في خانية بخارى، يمكننا القول: انه كان على رأس الدولة خان ذو سلطات مطلقة غير محدودة. وكانت تعتبر ملكه الخاص، ويشرف على ادارة شؤونها، بمساعدة المؤسسات الحكومية المقربة اليه، وتعرف، عادة، بالدواوين.

ومن المعلوم، أنه إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، كان نظام الاقطاع سائداً في البلاد، فقسمت البلاد إلى أقاليم «اولوسات» يحكمها سلاطين، وفي أحوال نادرة يحكمها أمراء كبار يحظون بثقة خاصة لدى الملك او الخان. وكان هؤلاء

الحكام كما هو مألوف، مستقلين نسبياً.

وكان الدور الأكبر في إداراة شؤون البلاد، وتوجيه دفة الحكم يعود إلى مجلس الدولة، الذي ورد في المراجع باسم «كينجيش» او «مشفارات مجلس عالي»، والذي كان يضم زعماء القبائل الرحل، وممثلي كبار رجال الدين المسلمين، السلاطين والـ «أوغلان»، وذوي المناصب العسكرية والمدنية. وكانت القضايا المصيرية المتعلقة بالحرب والسلام، تعالج في المؤتمرات («الكورولتاي» او «الـ «جيرغا»).

ومن المؤسسات الحكومية العليا، ورد في المراجع ذكر «ديواني عالي»، «ديواني مال»، «ديواني مشرف»، «ديواني تواتشي»، «ديواني سركاري خاصة». وكان «ديواني عالي» يُعَدُّ الديوان الاعلى، ويشرف على نشاطات جميع المؤسسات أو الدوائر التابعة للقصر وشؤونها: «ديواني مال» ـ بيت مال الحكومة، أي مصلحة الضرائب، أما «ديواني مشرف» فهو دائرة مباحث مهمة، تزاول مراقبة ادارة الأمور ومنع الاستهتار والتعسف، والتحري والتجسس على بعض افراد الأسرة الحاكمة والمسؤولين. أما «ديواني تواتشي» فهو إدارة عسكرية. وفيما يتعلق بـ «ديواني سركاري خاصة»، فانه ـ كما ورد في قائمة درجات المقامات ـ «يجمع الايرادات من الاراضي الحكومية والمطاحن والمحالّ التجارية التي تدخل ضمن الادارة السامية... ويحصّل منها المصروفات الضرورية التي يتطلبها الخان.

بناءً على المعلومات الواردة في المراجع، كان يخدم في هذه المؤسسات والدوائر الحكومية العليا وغيرها، نقباء (يشرفون على تنظيم الجيش وتجهيزه بالمعدات وتنسيق مواقعه)، صدر (مسؤول عن أحوال أموال الاوقاف)، قاضي (قضاة مدنيون) قاضي عسكر (قضاة عسكريون)، عالم (كبير المفتين)، رئيس (مسؤول عن السلوك الخلقي للموظفين او المأمورين)، ديوان بيت (مسؤول عن الديوان الحكومي)، باروانا تشي (مسؤول عن ايصال البطاقات والقرارات والأوامر السامية إلى اصحابها)، وادخاخ (المسؤول عن النظام العام في البلاد)، ايشيك آغا باشي (رئيس كبار خدم القصر)، ميراخور (كبير سائسي الخيل)،

شيغاول (رئيس التشريفات في القصر)، ميرزا ـ باشي (كبير الكتبة)، خزيناتشي (أمين الصندوق)، كوشبيغي (صقّار)، يورتشي (المسؤول عن إقامة خيام الخان او الملك ومعسكره).

وفي مناطق الادارة، أنشئت «اولوس بيغي» من قِبل الولاة والـ «اربابين» والـ «كالانتار».

الحركات الشعبية: أثقلت الحروب، والنزاعات الاقطاعية، والضرائب الباهظة، والفوضى التي يثيرها الحكام الاقطاعيون وجباة الضرائب، كاهل الشعب وأدت الى تدهور الاوضاع في البلاد، وبالتالي إلى استياء الجماهير وسخطها. للأسف لم تحتفظ المراجع بمعلومات وافرة عن ثورة الجماهير الكادحة، احتجاجاً على سياسة الاستغلال الفاحش ودفاعاً عن حقوقهم وكرامتهم. ومن المعلومات الطفيفة الضئيلة الخاطفة التي وردت في المراجع، نذكر على سبيل المثال، انتفاضة سكان كاراكول في بداية ق ١٦م وانتفاضة بلخ عام ١٦٠٥م، ضد استبداد حاكم المنطقة شاهبيك كوكيلتاش، والانتفاضة الشاملة في وادي زرافشان عام ١٦٨١م، واضطرابات بخارى عام ١٧٠٨م، وتمرد السمرقنديين عام ١٧١٢م، وحركات عصيان عشرينات وأربعينات ق ١٨م، في كل من كيرمين وميانكال وشهرسابز، وغيرها من مدن الخانية، ضد ظلم الحكام المحليين واستبدادهم.

العلوم والثقافة: تطورت العلوم والثقافة والفنون في خانية بخارى رغم كثرة الحروب والنزاعات والخلافات بين الاقطاعيين، ورغم الخصومات والعداوات بين افراد الاسرة الحاكمة في الفترة من ق ١٦ م والنصف الاول من ق ١٨م.

لدى التطرق إلى العلوم، لا ينبغي مقارنة وضعها بما كانت عليه ابان حكم السامانيين وملوك خوارزم، وتيمور والتيموريين. ونظراً للازدياد القوي المتعاظم لنفوذ رجال الدين، المسلمين و النقشبنديين، في الميدان السياسي في هذه المرحلة من التاريخ، تطورت العلوم الدينية، كما تطورت، ولو على مستوى أقل، العلوم الطبيعية ايضاً كالرياضيات والطب والجغرافيا التاريخية. كما تم تأليف عدد من البحوث:

«طرق الحساب» و موسوعة في الجغرافيا وسير الحياة «خفت نامة» لأمين أحمد رازي ومؤلف موسوعي لمحمود بن والي «بحر الأسرار»، وكتب في الطب «طبائع الحيوان» و«المرشد في الطب» لسلطان علي، «بحث في الطب والصيدلة» لمحمد حسين السمرقندي وغيرها من المؤلفات. وتجدر الاشارة هنا إلى الدور المهم، الذي لعبته في تطور الطب دار الشفاء التي افتتحها سبحانقولي خان في بخارى، إضافة إلى دور شفاء (مستشفيات)، أخرى مماثلة في كبرى مدن الخانية الأخرى. وعاش في المدن الكبيرة (سمرقند، بخارى، طشقند) عدد كبير من الاطباء الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص، وكان منهم اطباء العيون، الامراض الباطنية، وتجبير العظام.

ما بين ق ـ ١٦ ـ ق ١٨، وضعت مؤلفات عدة في الدين والتصوف. وما تزال تلك المؤلفات تحظى بأهمية كبيرة حتى يومنا هذا، ونذكر منها على سبيل المثال: «رشحات عين الحياة» لعلي بن حسين واعظ الكاشفي (المتوفى عام ٩٣٩ ـ ١٥٣٢م)، «ثمرات المشايخ» الذي ألّفه، في عام ١٠٩١هـ ـ ١٦٨٠م، سيد زندا علي المفتي بن خوجا مير حسين البخاري، «اشجار الخلود» تأليف عام ١٧٢٦م، لمحمد أعظم، («سلسلاي خوجاغاني نقشبندية» ـ سلسلة نسب خوجات الطريقة النقشبندية ـ) لمحمد طاهر إيشان الخوارزمي (تاريخ التأليف ١٧٤٤م)، ويورد المؤلف سيرة حياة ٣٢١ شيخاً من شيوخ الطريقة النقشبندية.

تجدر الاشارة هنا، إلى الدور التنويري الكبير الذي لعبه زعيم شيوخ النقشبندية في ق ـ ١٦م، مخدومي اعظم كاساني وخليفته خوجا محمد إسلام، في الحياة الاجتماعية والسياسية لشعوب آسيا الوسطى.

مخدومي أعظم كاساني (١٤٦٢ ـ ١٥٤٢م): عالم دين بارز، وأحد أقطاب الطريقة النقشبندية. اسمه الكامل: سيد احمد بن جلال الدين كاساني، بيد أنه اشتهر باسم «مخدومي اعظم كاساني (أي السيد الاعظم من كاسان). أصله من كاسان الفرغانية التي كانت خاضعة لسلطة اخسيكيت وتابعة لأسرة السادة. ونقلاً عن «جامع المقامات»، كتبت سيرة حياة مخدومي اعظم عام ١٦١٧م من قبل حفيده،

خوجا ابو البكا بن بهاء الدين ومحمود بن والي، مؤلف كتاب «بحر الاسرار» (وهو، بالمناسبة، من كاسان الفرغانية ايضاً). وينتمي سيد احمد بن سيد جلال الدين كاساني بنسبه بحسب سيد برهان كليتش (عاش في اوزغيند في ق ـ ١١م) الى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). وكان مخدومي اعظم كاساني، قد استدعاه إلى ميانكال جانبيك سلطان الشيباني (المتوفى عام ١٥٢٨م) وفي مطلع ق ١٦م، انتقل إلى داخيدا التي اسسها هو، حيث عاش حتى آخر أيام حياته.

تتلمذ مخدومي اعظم كاساني على مولانا محمد قاضي (المتوفى عام ١٥١٥)، مؤلف ترجمة حياة خوجا احرار ذات الشهرة الواسعة والمعروفة بعنوان «مقامات خوجا عبيد الله احرار» (مارس ـ ابريل ١٤٠٤م ـ ١٤٢٠م فبراير ١٤٩٠م)، فسار في أعماله على خطى أستاذه في طريقة خوجاغان النقشبندية، التي أصبح زعيمها عام ١٥١٥م.

وبالاضافة إلى كونه زعيم الطريقة، فقد اشتهر مخدومي اعظم كاساني كعلَمٍ من اعلام علوم الدين، إذ وضع أكثر من ٣٠ كتاباً، كرست غالبيتها لطريقة خوجاغان النقشبندية، وأدب الدراويش وأخلاقهم وسلوكهم، والسبل إلى مبادئ الكمال الصوفية، وعلاقة العالم بالحكام، وسيرة حياة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) والاعمال التي قام بها الخلفاء الراشدون، والفقه (في الزواج). وتبحث هذه المؤلفات وتعطي البراهين والاثباتات جول بعض المسائل، مثل: الوجود الحقيقي لله وحده، أما الآخرون فمصيرهم الزوال والفناء، (و«رسائل الوجودية»)، كل نفس ينبغي لها ان تشع «بالحب الحقيقي» («أدب الصديقين» «نصيحة الصالحين»)، إن أكمل صيغة لذكر الله ـ «لاإله إلا الله» («رسالة الذكر»)، الحياة الحالية بذور لحياة الآخرين («رسالة»)، الغوص في عالم الغيب الصوفي (رسالة)، الصوفي الحقيقي هو الذي تقترن أقواله بأعماله، ويكون قلبه وجسده على الطريق ذاته دائماً («مرشد السالكين»). وفي بعض مؤلفاته («رسالة بياني، سلسلة الصديقين») ترد سلسلات قصيرة خاطفة متتابعة لـ«شيوخ» طريقة خوجاغان النقشبندية. وكذلك شرح للمثل («الولد سر أبيه»، «رسالة تشهار كلام» و«رسالة بابريه») حيث يجري تفسير للآية

١٨ من سورة الكهف من القرآن الكريم، الوصايا الأربع (تبصر، غض الطرف، رحلة (بالقلب) إلى الوطن والتأمل على انفراد) لعبد الخالق غيجدواني. وفي كتاب «زبدة السالكين وتنبيه السلاطين» يعطي المؤلف تفسيراً لحديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) بما معناه: إن افضل الحكام هم اولئك الذين يزورون العلماء، وأسوأ العلماء هم اولئك الذين يزورون الحكام.

ولا تزال المكتبات - في وقتنا الحاضر - تحتفظ بكثير من مؤلفات هذا العالم.

خوجا محمد اسلام (١٤٩٨ - ١٥٦٣): هو من الممثلين البارزين للجويباريين (نسبة إلى بلده جويبار الواقعة إلى الغرب من بخارى). تلميذ مخدومي اعظم الكاساني الآنف الذكر، ومساعده. في «روضة الرضوان وهداية الغلمان» لبدر الدين النقشبندي، نجد المزيد من تفاصيل سيرة حياة خوجا محمد اسلام وأخلاقه؛ يرجع بنسبه إلى علي بن ابي طالب (كرّم الله وجهه). ويعود بنسبه الروحي، إلى خوجا عبيد الله احرار، خوجا بهاء الدين النقشبندي، خوجا يوسف همذاني وابي يزيد البسطامي (المتوفى عام ٨٧٥هـ).

ولقد اتاح الحسب والنسب العريقان، الامكانية للشيخ الجويباري ان يشغل المناصب المهمة في الدولة منذ عهد السامانيين (٨١٩ - ١٠٠٥م). فشغل منصب نقيب النقباء، وشيخ الاسلام. وجاء مثلاً في كتاب «سعدية» لمير حسين السراخسي - تلميذ خوجا محمد اسلام - نسخة من رسالة الايلخان خلق - خان (١٢٥٦ - ١٢٦٥م) إلى الامام ابي بكر احمد، حيث اشير فيها إلى الأخير كنقيب نقباء؛ في حين يتحدث بدر الدين كشميري صاحب كتاب «روضة الرضوان» عن قيام جنكيزخان بالإنعام على أبي بكر هذا ببخارى كاملة. كان خوجا محمد إسلام وخليفته خوجا سعيد، قد شغلا منصب شيخ الاسلام في خانية بخارى في ق ١٦م. وفيما بعد في عهد امام قولي خان الاستراخاني (١٦١١ - ١٦٤٢م) ونادر محمد خان (١٦٤٢ - ١٦٤٥م) شغل هذا المنصب حسن خوجا وخوجا عبد الرحيم. وفي عهد عبد العزيز خان (١٦٤٥ - ١٦٨١م)، وسبحانقولي خان (١٦٨١ - ١٧٠٢م)، وعبيد الله خان

(١٧٠٢ ـ ١٧١١م) احتل هذا المنصب محمد باكير خوجا وخانيم خوجا الجويباري.

كان خوجا محمد إسلام في العشرين من عمره حين اصبح احد مريدي مخدومي اعظم، وامضى كثيراً من الوقت عنده في داخبيد، وشاركه في تجواله وسفراته، وازدادت شهرته بعد وفاة معلمه، وشغل مكانه بناءً على وصيته، وتزعم «طريقة خوجاغان النقشبندية».

وعندئذ جاء اليه مريدو مخدومي اعظم كاساناني كافة. كان خوجا محمد اسلام رجلاً ثرياً، وعلاوة على المبالغ النقدية والاشياء الثمينة المحفوظة لديه في الصناديق و المخازن بكميات كبيرة، كان يملك ٣٠٠ جوفتي غاو (٢٥٠٠ هكتار) من الاراضي في بخارى وسمرقند ونسف ومرو وطشقند والمناطق الأخرى، ١٠٠٠٠ رأس من الغنم و٧٠٠ رأس من الخيول و٥٠٠ جمل و١٠٤ من الورش والمحالّ التجارية، و٧ مطاحن، والعديد من الحمامات وخانات القوافل ... الخ.

وبعد خوجا محمد اسلام، خلفه في زعامة «طريقة خوجاغان النقشبندية» ابنه خوجا سعد («١٥٣١ ـ ١٥٣٢» ـ ١٥٨٩م).

ومن باب الانصاف والعدل، ينبغي القول إن علوم التاريخ والأدب والموسيقى كانت أكثر تقدماً وتطوراً إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين. وبلغنا مما كتبه علماء آسيا الوسطى المؤلفات التالية في التاريخ: «تواريخ غوزيدي، نصرات نامة»، «زبدة العصر، كتابا «شيباني ـ نامة» (محمد صالح وكمال بنائي)، ميخمان نامي بخارى»، «تاريخ أبو الخير خان»، «شرف نامة شاهي» «بحر الاسرار»، «تاريخ مقيم خاني»، «عبيد الله نامة»، «تحفة خاني»، «محيط التواريخ» ومؤلفات أخرى كثيرة. ومن المذكرات وسير الحياة، المكتوبة في الفترة ما بين القرنين ١٦ ـ ١٨م، نذكر ما يلي: «واقعة بابورية» لظهير الدين محمد بابور، «بدائع الوقائع» لزين الدين واصفي، «مذكر الأحباب» لسيد بهاء الدين حسن نساري، «تذكر الشعراء» و«نسخة ظباء جها نغيري» لمطربي،«مذكر الأصحاب» لمحمد بديع سمرقندي، «جامع المقامات» لأبي البكا بن بهاء الدين، «روضة الرضوان وهداية الغلمان» لبدر الدين كشميري. «مطلب

الطالبين» لأبي العباس محمد طالب صديقي الخ... وما تزال المراجع تحتفظ باسمي الشاعر الكبير والفيلسوف يوسف كاراباخي، والعالم الجليل والمشرّع ناصر الدين بخاري واضع «رسالة الإخفاء»، وأسماء أخرى كثيرة. وفي عام ١٥٨٧م، وضع درويش محمد بخاري، مؤلفاً فريداً من نوعه، في نظرية فن الخط.

إبان عهد الشيبانيين والاستراخانيين، تُرجم العديد من المؤلفات في التاريخ والادب إلى اللغة الاوزبكية (الطبري لرشيد الدين، شرف الدين علي يزدي ... الخ).

ومن ممثلي الادب الكلاسيكي نذكر: مشفقي سعيد نسفي، توردي، بيدل، نشراب، وغيرهم ممن تحظى ابداعاتهم بشعبية وشهرة واسعتين حتى يومنا هذا. ينبغي القول إن الحكام الشيبانيين والاستراخانيين قد أسهموا في الحياة الادبية إسهاماً فعالاً وخاصاً.

فمثلاً، لم يكن محمد شيباني خان وعبيد الله خان، يشجعان ويرعيان العلوم والآداب فحسب، بل كانا يجيدان نظم الاشعار، وقد تركا من بعدهما ديوان شعر (ديوان شعر شيباني خان «بحر الهدى» توجد نسخ عنه محفوظة في مكتبات تركيا وبريطانيا والمانيا).

في مدن خانية بخارى، ولا سيما في بخارى العاصمة وسمرقند وطشقند، ازدهرت فنون الخط والمنمنمات والرسم والتصوير. وكان من اشهر المبدعين في هذه الميادين: الخطاطون سلطان علي مشهدي، مير علي هروي، محمود شباهي، وخوجا يادغار، وفنانو المنمنمات: محمود مذهب والمصورون: جلال الدين يوسف، محمد تشاغري موسسي، محمد مراد سمرقندي، محمد نادر، محمد جهانغير، بابا نقاش وغيرهم.

كذلك نال فن الموسيقى قسطاً من التطور. ففي كتاب «شرف نامة شاهي» تكاد تصادفنا اسماء الآلات الموسيقية كافة، واسماء العديد من الموسيقيين، وفي ق ١٧م، كتب درويش علي بحثاً خاصاً في الموسيقى.

وفي عهد الشيبانيين والاستراخانيين تطور فن هندسة المدن تطوراً كبيراً، فتم

تشييد الكثير من المعابد والمساجد والمباني المختلفة مثل : مدرسة شيباني خان في سمرقند، وهي بناية فخمة مهيبة سقفها مطلي بالذهب؛ ومدرسة الصدر عبد الرحيم، وصوفا شيباني خان الرائعة في ريجيستان السمرقندية، ومسجد وجامع كالان الفخم، ومدرسة مير عرب، والمدرستين الكبيرتين اللتين بناهما عبد الله خان الثاني، مدرسة كوكيلتاش في طشقند، مدرسة شيردار وطلاقاري في سمرقند، مدرسة ومسجد نادر ديوانبيغي في خوجا كافشير، مدرسة عبد العزيز خان في بخارى، مسجد بالا ـ حاووز، ضريح كفال شاشي، في طشقند (بني ما بين ١٥٤١ـ ١٥٤٥م)، وغيرها من البنايات والمنشآت الدينية.

أما فيما يتعلق بالمنشآت المدنية غير الدينية، فقد اقيم الكثير من خانات القوافل، والاسواق المسقوفة، مثل تيمي كالانا في بخارى، والعديد من آبار المياه على طرق القوافل الكبيرة. ومن منشآت الري ومشاريعه، نذكر محطة شيباني خان المشهورة، لتوزيع المياه والمقامة في زرافشان قرب سمرقند، وسد عبد الله خان الثاني المشهور، والواقع على اكتشاب ساي، بالقرب من نور ـ آتا، واعداداً كبيرة من القصور والحمامات والاقنية.

إن كل هذه الانجازات، تشير الى التطور الاقتصادي والثقافي في خانية بخارى، إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين.

خانية خيوة

أهم احداث التاريخ السياسي: في بداية عام ١٤٠٦م، خضعت خوارزم، مرة أخرى، للأورطة الذهبية. وقام شادي ـ بك بتعيين الأمير «آنكا» على خوارزم، وفي عهد فولادخان (١٤٠٨ ـ ١٤٠٩م) حكمها الأمير «كالجا». وفي الفترة (١٤١٠ ـ ١٤١١م) كانت السلطة في خوارزم لمبارك شاه، ابن ايديك اوزبك (يديغي) المشهور. وبعد ثلاث سنوات (عام ١٤١٤م) استغل التيموري شاهروخ استفحال الخلافات والنزاعات، وازديادها حدة في الاورطة الذهبية، واقام سلطة تيمورية في خوارزم. وباستثناء فترة قصيرة، أي فترة حكم الاوزبك الرحل وأبي الخيرخان (١٤٣١م)،

بقيت السلطة في البلاد خاضعة لدولة التيموريين حتى عام ١٥٠٥م. صحيح أنه في منتصف ق ـ ١٥م، كان الجزء الجنوبي الغربي من خوارزم، قد استولى عليه مصطفى خان، الذي كان قد هزم، قبل ذلك، على يد ابي الخيرخان على ضفة نهر «اتباصار» وهرب إلى مينغكيشلاك. ونقلاً عن خوندمير، قام آنذاك بالاستيلاء على اورغينتش، ورحّل قسماً من سكانها الى مدينة «وزير»، التي قام بإعادة بنائها، وهي تقع على بعد ٦٠ كلم غربي كوخنا ـ اورغينتش. في عام ١٤٦١م، انتقلت السلطة في خوارزم إلى احدى العائلات المحلية، ألا وهي عائلة الصوفية، والتي كانت تابعة، منذ العام ١٤٧٠م، للتيموري سلطان حسين ميرزا تبعية اسمية.

في عام ١٥٠٥م، كما سبق ان اشرنا آنفاً، وبعد حروب استمرت أحد عشر شهراً، سقطت خوارزم في قبضة شيباني خان. وبعد خمسة اعوام، وعقب وفاة هذا الخان في خريف ١٥١٠م، خضعت البلاد لسلطة الصفويين، إلا أن سلطة الكيزيلباشيين لم تدم طويلاً. ففي عام ١٥١٢م، تآمر الوجهاء الذين كانوا يمقتون الكيزيلباشيين، ووفقاً لخطة مؤامرتهم، استدعوا من منطقة دلتا امورداريا اثنين من الأمراء الشيبانيين: ايلبارس سلطان وبيلبارس سلطان، ابني بورك سلطان الذي قتل في ثمانينات ق ـ ١٥م في اثناء حربه مع شيباني خان. استقبل الاميران (او السلطانان) في «وزير» بالخبز والملح، واعلن كلاهما خاناً؛ أما بالنسبة لأورغينتش وخيوة وخزراسب وكيش، فترتب إخضاعها بالقوة. ومع ذلك، لم يستطع الأخوان إقامة دولة ذات حكم مركزي. وظلت البلاد مجزأة إلى اقسام لا تربطها علاقات متينة. وسرعان ما دبت النزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، واشتدت حدة، ولاسيما بعد وفاة ايلبارس (في مطلع ثلاثينات ق ـ ١٦م).

أما عن الاوضاع في البلاد، فبالامكان ادراك ذلك، لدى معرفتنا توالي اربعة خانات، خلال فترة قصيرة جداً. فخلف ايلبارس خان سلطان حاجي ـ حفيد يدغار خان ـ الذي كان اولوساً في يانغي شهر. ولم يستمر حكمه سوى سنة واحدة (١٥٣٨ ـ ١٥٣٩م). وخلفه على العرش حسن قولي خان، ابن ابولاك خان، وجاء بعد هذا سفيان خان، اكبر ابناء اماناك ـ خان، إلا أن سلطته كانت تقتصر على «وزير»

وأورغينتش ولا تتجاوزهما، إذ كان القسم الاعظم من خوارزم، ولاسيما يانغي شهر، تيرساك، خرسان الشمالية، دورون، ومينغكيشلاك، قد وقع في أيدي سلطان غازي سلطان ـ حفيد بورك خان ـ؛ أما خيوة، خزراسب، كيات، بولدومسان، بينغيشكا، بغباد، نسى، «أبي ورد»، تشاخارديخ، ميخنا، وأبو لخان وديخيستان الواقعتان على أموداريا والمسكونتان بالتركمان، فتقاسمها أبناء اماناك خان الأربعة. وبعد مرور عدة سنوات توفي سفيان خان، وعندئذ تولّى العرش اورغينتش بـ «بوتشغا خان» ـ الابن الثاني لأماناك خان وشقيق سفيان خان.

وبعد بوتشغاخان، اعتلى العرش اوانيش ـ خان، الابن الثالث لأماناك خان الآنف الذكر. وفي عهده، بالتحديد، استولى الشيباني عبيد الله خان على خوارزم. وجرى ذلك ـ كما جاء في «أحسن التواريخ» لحسن بك رومل ـ عام ٩٤٤هـ، ١٥٣٨م. وابان ذلك قتل اوانيش وعدد كبير من أمرائه، أما الباقون الذين نجوا ومنهم محمد سلطان وعلي سلطان فهربوا إلى «دورون» قاصدين دين محمد خان، ابن اوانيش خان، وتبعهم ابنا اوانيش خان: يوسف ويونس. كما جاء في اثرهم «الى «دورون» » هاجم خان ـ ابن اكتاي خان. وفي العام نفسه، قصد دين محمد خان خراسان واحتلها بمساعدة التركمان. وفي طريقه انضم اليه ١٠٠٠ فارس من خيرة فرسان قبيلة «اراكلي». ونقلاً عن ابي الغازي، بلغ قوام جيشه ٣٠٠٠ مقاتل. في بادئ الأمر، احتل خيوة وخزراسب، وما ان سمع عبد العزيز سلطان بهذا النبأ، حتى ترك اورغينتش هارباً إلى بخارى. كما قام عبيد الله خان بإرسال جيش ضد دين محمد خان، على ان الأخير هزمه في موقعة «شيكاست قلعة».

قصارى القول، لقد استطاع، دين محمد خان الاستيلاء على خوارزم، آنذاك، لكنه اخفق في القضاء على التفتت الاقطاعي، كما أخفق في توحيد البلاد. وفي النزاع الدائر على السلطة، كانت كفة بولاد سلطان وتيمور ـ إبني اكتاي خان ـ هي الأرجح. يصف أبو الغازي، بولاد سلطان كرجل متهور حادّ الطبع، يفتقر الى عنصر المبادرة. وفي عهده اقتحم خان بخارى، عبد الله خان الثاني خوارزم، إلا أنه لم يستطع احتلالها، وعاد من يانغي اريك.

تمكن هاجم خان (١٥٥٨ ـ ١٦٠٢م)، الابن الاكبر لأكتاي خان، من إخماد نار الحروب الداخلية والنزاعات التناحرية على السلطة لبعض الوقت، بيد أنه فشل في تعزيز وضع الحكومة المركزية. وأقام علاقات دبلوماسية ـ تبادل سفراء ـ وتجارية مع ايران وروسيا. في عهد هاجم خان ـ عام ١٥٧٥م ـ استغل عبدالله خان الثاني غياب هاجم خان عن البلاد (كان على رأس حملة إلى خراسان)، وقام، مجدداً، بمهاجمة خوارزم. وفي هذه المرة استولى على اورغينتش، بَيْدَ انه لم يتمكن من تثبيت أقدامه فيها؛ وعقد اتفاقية سلام مع أخويه (بولاد سلطان وتيمور سلطان)، وعاد إلى بخارى. ولم يستطع عبد الله خان بسط سلطته على خوارزم، إلا في المحاولة الثالثة التي قام بها (١٥٩٤م). وهرب هاجم خان إلى ايران والتجأ إلى الشاه عباس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩م). أما أبناؤه (محمد سلطان، وعرب محمد خان ومحمد قولي سلطان) فاقتادهم عبد الله خان الثاني إلى بخارى. وفي عام ١٥٩٥م، أي بعد مرور سنة، قام هاجم خان وسلاطين خيوة، بمساعدة التركمان، وسكان بعض مدن خوارزم، بمحاولة لاستعادة البلاد، حتى إنه استطاع احتلال أورغينتش ومدن أخرى. إلا أن عبد الله خان سار مجدداً على رأس جيش وبسط سيادته ثانية على تلك المدن المحتلة. وللمرة الثانية هرب هاجم خان إلى ايران، كما أُعدم عددٌ كبير من قادة التمرد. ولم تمض فترة طويلة، حتى اغتنم هاجم خان وفاة عبد الله خان الثاني، واستعاد خوارزم التي ظلت تحت سيادته حتى وفاته عام ١٦٠٢م. يستدل بما ذكره أبو الغازي خان على أنّ الشاه عباس ساعده آنذاك في حروبه ضد عبد الله خان الثاني.

عقب وفاة هاجم خان، خلفه على العرش ابنه عرب محمد خان (١٦٠٢ ـ ١٦٢٨م) ـ والد المؤرخ المشهور، أبي الغازي خان ـ ومن الاحداث التي جرت في عهد عرب محمد خان، تشير المراجع إلى الغارات التي كان يشنها الكازاخ والكالميك وقوزاق يايتس على مدن وقرى خوارزم، واعمال السلب والنهب التي كانوا يقومون بها. وتشير المراجع ايضاً إلى ازدياد حدة النزاعات بين الاقطاعيين، وإلى الخلافات بين افراد الأسرة الحاكمة.

لقد لحقت بالبلاد خسائر فادحة، ولاسيما من قبل قوزاق اليايتس. وكانت غارتهم الاولى على خوارزم قد شنت بعد مرور ٦ أشهر على حكم عرب محمد خان. ففي أيام الصيف القائظة، وحينما كان الخان خارج المدينة (في المصيف)، جاء نتشاي ـ زعيم القوزاق ـ على رأس ١٠٠٠ من القوزاقيين وهاجم خوارزم واحتل أورغينتش. وقاموا آنذاك ـ نقلاً عن ابي الغازي ـ بسلب المدينة ونهبها عن بكرة ابيها، وأخذوا معهم الأسرى من النساء والأطفال، وحرقوا البيوت والمدينة. ولم تمر عدة أسابيع على ذلك، حتى لحق بهم، على الطريق، فرسان الخان وهزموهم. كما انتهت حملتهم الثانية بالفشل، وعندئذ تزعمهم ـ زعيم القوزاق ـ الاتمان شاماي، ولدى إعادتهم الكرة هزموا مرة ثانية على شاطئ بحر الأرال. وسقط شاماي ورجاله في الاسر.

وفي آخر سنوات حكم عرب محمد خان. أعلن ابناه (حبش سلطان وايلبارس سلطان) تمردهما عام ١٦١٦م، وذلك بمساعدة النيمانيين والإيغور. وعندئذ منحمهما عرب محمد «وزير»، وهكذا أزيلت الخلافات. ولكن ما كادت تمر خمس سنوات، (عام ١٦٢١م) حتى اعلن الاخوان حرباً مكشوفة على ابيهما، هزم فيها عرب محمد خان، الذي أسر، ونقل إلى أورغينتش، حيث سجن، وفقد بصره، وتوفي بعد مرور وقت قصير.

لم يدم حكم حبش سلطان وإيلبارس سوى عامين. ففي عام ١٦٢٣م، قام اسفانديار سلطان، يدعمه الشاه عباس الاول، باحتلال خيوة واعتلى عرش والده، وحكم البلاد عشرين سنة (١٦٢٣ ـ ١٦٤٣م)، إلا أنه لم يستطع القضاء على الروح الانفصالية لدى الإقطاعيين، وعلى نزوات التركمان واستبدادهم. وإضافة إلى ذلك، انفصل اوزبك الأرال، واعلنوا استقلال الأرال. كما قام التركمان ايضاً بتعزيز استقلالهم، فضلاً عن استمرار النزاعات بين افراد الأسرة الحاكمة. وكان اوزبك الارال والتركمان هم الذين يدعمون أبا الغازي خان ـ احد المطالبين بالسلطة العليا ـ وفي عام ١٦٤٣م، أعلنوه خاناً.

وفور اعتلائه العرش، قرر أبو الغازي خان (١٦٤٤ ـ ١٦٦٤م) التخلص من النفوذ القوي للتركمان، ولهذا الهدف قام برفع مستوى القبائل والعشائر الاوزبكية، ودعم وضعهم الاجتماعي والسياسي. وتعرض التركمان لاضطهاد عسكري وسياسي، كما حُرِموا من الأراضي والماء. وقام الخان بمنح مراعيهم واراضيهم للقبائل الاوزبكية المتحالفة في اتحاد الـ«كيات الكونغراتيين»، «الايغوار النيمانيين»، «الكانغلي الكيبتشاك» و«النكوز المانغيت». كما مُنِحَت المناصب الحكومية للقبائل الاوزبكية. باختصار، أُجبر التركمان على الانتقال حتى الحدود الحالية كتركمانيا الجنوبية. ومن الاحداث الأخرى التي جرت إبان حكم أبي الغازي خان: غارات الكالميك المتكررة على خوارزم، والنضال ضدها، تدهور العلاقات البخارية الخوارزمية، هجمات الخيويين المتكررة على خانية بخارى، واجتياحهم لمناطقها حتى بخارى نفسها وسمرقند. وبحسب المعطيات الواردة في المراجع، فإنّهم قاموا، فقط في عهد أبي الغازي، بالاعتداء على حدود خانية بخارى سبع مرات. ولم يكن هدف الخيويين السلب والاستيلاء على الغنائم الكثيرة والأسرى فقط، بل كانوا يسعون ايضاً إلى إضعاف قوة خانات بخارى في خوارزم، وضرب نفوذهم.

استمرت هجمات الخيويين وغاراتهم على ممتلكات بخارى وأراضيها، حتى في عهد انوشا خان (١٤٦٤ ـ ١٦٨٧م) ابن أبي الغازي وخليفته (آنذاك، استطاع انوشا خان احتلال جويبار، إحدى ضواحي بخارى. وفي عام ١٦٨٥م تمكن من الاستيلاء على سمرقند ايضاً. صحيح أن جيوش بخارى هزمته قرب غيجدوان، إلا أن خطورة تكرار هذه الهجمات ظلت قائمة. وهنا استطاع سبحانقولي خان، بمساعدة الفئات المناوئة لأنوشا خان في خيوة نفسها، الاطاحة بأنوشا خان، وبذلك وضع حداً لغارات الخيويين على الممتلكات البخارية، ولعمليات السلب والنهب التي كانوا يقومون بها. واعتلى العرش ارينغ (ارناك) ـ خان، ابن انوشا، إلا أن حكمه لم يدم إلا قرابة سنة واحدة: إذ قام سبحانقولي خان بتعيين شاه نياز ايشيك آغا باشي، أحد رجال الخان، حاكما على خوارزم.

لكن شاه نياز هذا (١٦٨٨ ـ ١٧٠٢م) سرعان ما حاول التخلص من وصاية

بخارى عليه، ولهذا الغرض، قام عام ١٧٠٠م بطلب دعم من روسيا. ورداً على ما طلبه، تلقى من بطرس الاول وثيقة خاصة، يعبر فيها عن موافقته على منحه ومنح خوارزم حق التبعية لروسيا.

إبان حكم عرب محمد خان (١٧٠٢ ـ ١٧١٤م) وشير غازي (١٧١٥ ـ ١٧٢٨م)، وجدت خانية خيوة نفسها في ازمة سياسية حادة: ازدادت الحروب شدة بين الاوزبك والتركمان، وبلغ الانقسام والتفتت الاقطاعي ذروته، واوجه. أخذ الكازاخيون والكالميكيون يُصعِّدون هجماتهم وغاراتهم على خوارزم، وبدأ الضغط الروسي عليها، فأرسلت روسيا عام ١٧١٤م حملة عسكرية بقيادة الأمير بيكوفيتش الشركسي (١٧١٤ـ١٧١٧م).

وفي عهد إيلبارس خان (١٧٢٨ ـ ١٧٤٠م)، خليفة شيرغازي، قام نادر شاه الايراني باحتلال خانية خيوة. أما ايلبارس، الذي هزم في موقعة خزراساب، فالتجأ إلى خانكي للاحتماء بأسوارها المنيعة، إلا أنه لم يصمد فيها طويلاً، إذ احتلت القوات الايرانية هذه المنطقة المحصنة بعد حصار قصير، واشتباكات قتل فيها إيلبارس. وعندئذ استدعى الخيويون إلى خوارزم الخان الكازاقي، أبا الخير، الذي كان حاكم «مالوجوزا» الكازاخية، واعلنوه خاناً عليهم. تذرّع أبو الخير بأنه من مواطني الامبراطورية الروسية (نال الجنسية او حق المواطنية الروسية عام ١٧٣٠ ـ ١٧٣٢م)، فحصل على موافقة نادر شاه على عقد معاهدة سلام، إلا أن خشيته من خبث الشاه ومكره، حملته على الفرار إلى السهب. وهنا احتل نادر شاه خيوة، وفرض سلطته على خوارزم.

لم تطل فترة خضوع خوارزم لنادر شاه. ففي عام ١٧٤١م استولى على الحكم في خوارزم نور علي ـ ابن أبي الخير الآنف ذكره ـ إلا أنه ما لبث أن فر إلى السهب، خوفاً من حملة نصر الله ميرزا ـ ابن نادر شاه في مرو ونائبه ـ ، ونتيجةً لخيانة وجهاء خيوة له. وقام نادر شاه بتعيين أبي محمد سلطان ـ ابن إيلبارس السالف ذكره ـ على عرش خيوة.

وفي عهد هذا الخان ايضاً، لم تتوقف النزاعات بين الاقطاعيين في خانية خيوة. وفي عام ١٧٤٧ أُعلن خاناً، إقطاعي يدعى «كاين» (١٧٤٧-١٧٥٧م)، كان واحداً من التكتلات الاقطاعية الكازاخية المعادية لابي الخير و نور علي. وقد بدأ حكمه بعزل المسؤولين الذين لا يلائمونه، وبالدرجة الاولى، زعماء القبائل الاوزبكية والأتاليك العظيم المرهوب الجانب خروزبك، ثم قام بفرض ضرائب باهظة. إلا أن هذه التدابير لم تمكنه من تعزيز وضعه في البلاد. وفي عام ١٧٥٧م، هب الشعب الساخط، حاملاً السلاح، وخلع «كاين» عن العرش. وشغل مكانه عبد الله - شقيق الخان المخلوع - . على ان الشعب لم يذعن له، واستنجد بحاكم بخارى - محمد رحيم خان - المانغيتي. اطيح بعبد الله، وقام محمد رحيم خان وأجلس على العرش تيمور غازي خان، الذي كان احد أذنابه وصنائعه، الذين توالى عدد منهم على العرش خلال الفترة من ١٧٥٧-١٧٦٣م.

وفي عام ١٧٦٣ انتقلت السلطة في خانية خيوة إلى ايدي الايناكيين المنتمين الى قبيلة كونغورات الاوزبكية ذات النفوذ، والذين يحظون بدعم التجار ورجال الدين المسلمين. وكان محمد أمين اول حاكم من هذه الأسرة (١٧٦٣ - ١٧٩٠م)، فلم يعلن نفسه خانا، وادار دفة الحكم باسم الخان الصوري. ورغم ذلك كانت السلطة الفعلية بأسرها في يد الايناكي والكوشبيغي واليختار ذوي النفوذ العظيم. كما استطاع محمد أمين القضاء على الإقطاعيين المتمردين، وصد بنجاح هجمات التركمان (عام ١٧٧٠م) والبخاريين (عام ١٧٨٢م) وأعاد إعمار القرى والأرياف، التي هجرها سكانها ايام الاضطرابات. باختصار، في عهد هذا الحاكم، ساد الاستقرار، وأحرزت البلاد شيئاً من التقدم والازدهار.

في عهد إيلتوزارخان (١٧٩٠ - ١٨٠٦م)، انتقلت السلطة كاملة إلى الإيناكيين بعد أن أزاحوا من طريقهم الخانات الصوريين. واعتباراً من عام ١٨٠٤م، بدأت فترة الحكم الفعلي لأسرة الكونغراتية. وواصل ايلتوزار النضال، الذي بدأه محمد امين لتوحيد البلاد، حتى إنه قام بغزو بخارى (١٨٠٤م).

كان محمد رحيم خان الاول (١٨٠٦ - ١٨٢٥م) من ابرز ممثلي الأسرة

الكونغراتية، فقد استطاع إتمام عملية توحيد البلاد، وأجرى اصلاح نظام الضرائب، وموارد خزينة الدولة. وشن عدة حملات على خراسان، ومواقع التركمان الرُّحل، ومخيمات الكازاخيين الرحل في حوض سرداريا، وعلى ممتلكات إمارة بخارى.

إبان حكم الله قولي خان (١٨٢٥ ـ ١٨٤٢م)، واصل الخيويون اجتياحهم واعمالهم التخريبية في خراسان، وجرت انتفاضة التركمين ـ ساريك، التي انضمت إليها القبائل والعشائر التركمانية الأخرى. لكن هذه الانتفاضة أخمدت وسحقت بصورة فظة قاسية.

وفي عهد خليفة الله قولي خان، رحيم قولي خان (١٨٤٢ـ١٨٤٥م)، استمرت العلاقات الخيوية البخارية في تدهورها. فمثلاً، عام ١٨٤٢م، اغتنم خليفة الله قولي وجود نصر الله خان (١٨٢٦ـ ١٨٦٠م) في بخارى، واعتدى على تشارجوي، وفي السنة التالية (١٨٤٣م)، اجتاح البخاريون حدود خوارزم، إلا أن الأمير نصر الله هزم في موقعة خزراسب. وفي سنة ١٨٤٤م حاول رحيم قولي خان، انتزاع محافظة مرو من بخارى، على انه فشل في ذلك.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ونظام الحكم

بسطت الخانية سلطتها على مساحات شاسعة ضمت خوارزم نفسها (حوض أموداريا السفلى)، ومنطقة جبال بلخ (أبو خان)، وديخيستان (مشهد ومسريان) والأراضي المحاذية لـ «اوغبو» والواقعة إلى الشمال منه، وسفوح كوبيت داغ شمالاً، وكوران داغ الداخلة حالياً ضمن تركمانستان وقسماً من تركمانيا. وكان سكانها يتألفون من الحرفيين والمزارعين التركمان الذين قطنوا جنوب البلاد وغربها، وزاولوا، بصورة رئيسية، رعاية الماشية. ومن الاوزبك الداشتي كيبتشاك، الذين جاؤوا إلى خوارزم في مطلع ق ـ ١٦م، وما لبثوا ان تحضروا.

كانت خوارزم، ولاسيما الواحات، بلاداً ذات ثقافة رفيعة. فمنذ عهد أبي الغازي خان، وفي عصر التفتت والانقسام الاقطاعي، كانت المدن حسنة التنظيم، كثيرة العدد مزودة بأسباب الراحة إلى حد ما، نذكر منها على سبيل المثال: وزير، تيرساك،

يانغي شهر، بولدومساز، باغاباد، كيات، دارون، كومكينت، ميزداهقان، دراوغان آتا، بكيرغان، خاص منارا، تشيليك ... الخ. كذلك كانت المنطقة الشاسعة الممتدة من أورغينتش وحتى ابول - خان جيدة التنظيم. آنذاك يقول ابو الغازي خان: «كان الذهاب من أورغينتش إلى ابول - خان (ابو خان) كالذهاب من قرية إلى أخرى، ذلك بأن نهر امو داريا كان، آنئذ، يمر بسفح قلعة اورغينتش، متجهاً إلى الطرف الشرقي لجبال ابول خان، ولدى اقترابه من سفوح الجبال، كان يتجه من الجنوب الغربي إلى الغرب، ويصل إلى اوغورتشا ومن ثم يصب في بحر مازنداران (القزوين). «وهذه معلومات جديرة بالاهتمام اوردها المؤرخ:» على ضفتي النهر (من اورغينتش) حتى اوغورتشا، كانت الاراضي الخصبة المزروعة بكروم العنب، والاشجار المثمرة. على الاماكن العالية والمرتفعات، كانوا يشيدون الـ «تشيغيري». وفي موسم كثرة ذباب الخيل والبعوض، كان الناس يقصدون الآبار، الواقعة على بعد مسيرة يومين تقريباً، ولدى اختفائها - أي ذباب الخيل والبعوض - كانوا يعودون إلى ضفاف النهر. لم يكن للازدحام السكاني والازدهار حد في هذه المنطقة من بيشغال إلى منطقة كارا - كيتشيت، كانت كلتا ضفتي النهر مأهولة (بقبائل) الـ «اواكلي» و«خضر يدي»، ومن كاراكيتشيت حتى الاطراف الغربية لجبال ابول خان كانت مأهولة بقبائل آلي ايلي، ومن هناك وحتى مصب النهر في البحر (بحر القزوين) كانت شعوب تيواتشي».

ويستدل من هذه الأقوال المقتطفة، أن الاوزبك ليسوا وحدهم الذين كانوا يعيشون حياة الحضر، بل طالت حياة الحضر جزءاً من التركمان ايضاً.

يستدل بما اورده أبو الغازي في «شجري ترك»، على المستوى العالي للتطور في ميادين الزراعة والحرف اليدوية، والبستنة، وزراعة الكروم والفاكهة والخضروات. وبحسب المعلومات الواردة في المراجع، كانوا يزرعون الحبوب، ولاسيما القمح والعنب والخضر وغيرها من المحاصيل الزراعية. كذلك تطورت تربية دودة القز.

وفي خانية خيوة، وكما هو الأمر في سائر خانيات آسيا الوسطى، - نقلاً عن

المراجع الوثائقية ـ كانت منتشرة جميع انواع الملكية الاقطاعية للاراضي: الحكومية («مملكة، ملكي سلطاني» او «باديشا ـ هليك»)، الملكية الخاصة («ملك»)، ملك الاوقاف والملكية المشاعية.

الاراضي الحكومية: على العموم، كان الذين يشتغلون فيها من الفلاحين المحاصصين، وكانوا مجبرين على التخلي عن القسم الاعظم من المحاصيل وفقاً لتحديد المشرف الحكومي، وعلى دفع ضريبة استئجار الارض. كانت الدولة تعطي قسماً من اراضيها للفلاحين الذين يفلحونها، ويعود إنتاجها إلى الأمراء وكبار المسؤولين، ولقاء الخدمات الجليلة التي يقدمونها للعرش، كان قسم من هذه الأراضي يعفى من الضرائب. وهكذا كان لقسم من أراضي الحكومة طابع الملكية المجزأة، أي انها كانت بتصرف الحكومة التي تجمع الضرائب المفروضة عليها، وتدفع ضرائب الايجار للاقطاعيين، في حين يفلحها (ويملكها بالوراثة) صغار الفلاحين.

الملكية الخاصة: كانت الأراضي من حيث مساحاتها كبيرة وصغيرة. وكان كبار الملاكين، وكما هو مألوف، ينعمون بالرفاه. وشأنهم شأن ما تفعله الدولة، كانوا يستغلون اراضيهم معتمدين على الفلاحين المحاصصين، ويستولون بمختلف السبل على افضل الأراضي التابعة ملكيتها للآخرين، ولا سيما اراضي صغار الملاكين، ومن ثم يجرون صفقات مع الدولة، تعفى بموجبها هذه الأراضي من الضرائب والخراج.

كان كبار الملاكين يتألفون من رجال الدين الاقطاعيين، ومن المؤسسات الدينية: المدارس الدينية، المساجد، مساكن الدراويش (خانا كاخ)، ومزارات الاولياء. وجاء في ارشيف خانات خيوة أن أملاك الأوقاف كانت تشكل زهاء ٤٠ ٪ من الاراضي المروية في الخانية، وهي جميعاً في تصرفهم. وكانت اراضي الأوقاف تفلح أيضاً وتستغل بواسطة الفلاحين المحاصصين.

أما كبار الاقطاعيين، ورجال الدين، فيستخدمون العبيد في فلاحة اراضيهم

وزراعتها. وهؤلاء هم أسرى الحروب من الروس والايرانيين والنوغاي والكالميك، وغيرهم من الذين أسروا في أثناء الغزوات، والذين كانوا يباعون في أسواق خوارزم.

أما فيما يتعلق بالاراضي المشاعية، فكانت تشكل المراعي العامة، وتعود ملكيتها للجميع.

كما هو معروف، فإن الزراعة في آسيا الوسطى كانت تعتمد منذ القدم على الري الاصطناعي. وانطلاقاً من ذلك، كان المزارعون والحكام يولون عناية دائمة شبكات الري: يصلحون منشآت الري القديمة، ويقيمون المنشآت الجديدة. وفي منتصف ق ـ ١٦م، جفّ «دير ياليك» أحد فروع دلتا امودداريا الرئيسة، الذي كان يصب في بحيرة «ساريكاميش»، وبقي العديد من مناطق خوارزم بلا ماء، ومن ضمن هذه المناطق: مدينة «وزير» واورغينتش. وفي عام ١٥٧٨م، تغير مجرى نهري اموداريا وسرداريا، اللذين كانا يصبان في بحر القزوين، ما ألحق خسائر فادحة بزراعة البلاد. وإليك ما يقوله في هذا الصدد محمود بن والي في كتابه «بحر الاسرار»: «كان نهر «أمويا»، المعروف (ايضاً) بنهر بلخ، خوارزم وجيحون (سابقاً) يمر بالقرب من اورغينتش القديمة. ويصل حتى الاطراف الشرقية لجبال بلخ، منعطفاً إلى غرب القلعة (المقامة على بالخان)، كان يصل إلى اغورتش، ومن ثم يصب في بحر مازندران، حيث تصب مياه الخليج المعروف ايضاً باسم «كوك اوزين». في عام ٩٨٦هـ، ايام هاجم خان (١٥٦٢ ـ ١٦٠٢م) شق نهر «امويا» لنفسه مجرى في اعالي مدينة «خاص مينار» وخلال ادغال «كارا ايغير»، مروراً بقلعة «توك»، غير مجراه السابق». وذلك ما يقوله ايضاً ابو الغازي خان. لذا، وبحسب قول عرب محمد، بذل حكام خيوة جهوداً عظيمة للعناية بمنشآت الري وتطويرها. فمثلاً، في عهد علي سلطان (١٥٥٨ ـ ١٥٦٧م)، تم حفر قناتي «يانغي اريك» و «تاشكي يارميش»، وفي عهد عرب محمد خان شقت قناة قرب قلعة «توك»، كما قام ابو الغازي خان، في بداية حكمه، ببناء اورغينتش الجديدة، وأسكن فيها ما تبقى من سكان «وزير» واورغينتش القديمة. وفي ستينات وسبعينات ق ١٨م، كانت قد

حفرت أقنية جديدة لجلب المياه من اموداريا، واقيمت سدود وشبكات ري على نهر اموداريا وترعه.

أما فيما يتعلق بالصناعات اليدوية والتجارة في الخانية خلال المرحلة التي نحن بصدد دارستها، فبإمكاننا القول ان الصناعات اليدوية في العديد من مناطق خوارزم لم تكن قد انفصلت بعد عن الزراعة. اضافة إلى ذلك، كانت أشكال الاستعباد والاستغلال الجائرة سائدة، وكان الحرفيون البسطاء في مدن خوارزم، ينتجون الحرير والقطن والأقمشة شبه الصوفية ويصنعون منها الملبوسات. فمثلاً، في بخارى وخيوة، رأى ف. يفريموف «كميات كبيرة من الحرير، الذي كانوا ينسجون منه الاقمشة المقصبة المطرزة بالذهب والفضة، وأقمشة الاطلس والمخمل، والقطنية المزخرفة الموشاة بأعشاب ذهبية، وانواعاً أخرى مختلفة من الأقمشة، لكنها ليست عالية الجودة.

تشتهر هذه المنطقة بوفرة القطن، الذي ينسجون منه البراقع والخيش العريض، ويصنعون منه عندنا البفت، والشاش، والكتان الخشن الملون، والبفت غير الملون، وطرحة العروس، والاقمشة القطنية الغليظة، وغيرها من الاقمشة التي ترسل إلى البلدان الأخرى».

كذلك كانت تصنع في خوارزم المصنوعات الأخرى، كالدروع والخوذ وادوات العمل (الفؤوس، المعاول، المحاريث)، إضافة إلى الصناعات الفخارية.

كانت تجبى من السكان الضرائب التالية: علاوة على الخراج (الذي كان يدفع نقداً او عيناً)، كان السكان يدفعون الزكاة (ضريبة الاملاك والماشية وتساوي ١/ ٤٠ من الدخل)، «والجدل» (ضرائب استثنائية تدفع للأعمال الحربية) والـ«باج» (ضريبة التجارة)، و«نوكيرليك»(الخدمة العسكرية في الحرب)، الـ«كازو» (التعبئة الاجبارية للسكان لتنظيف منشآت الري وبنائها)، الـ «كاتشو» (تعبئة اجبارية للقادرين على العمل للمشاركة في إقامة السدود)، الـ«كافصان» (تخصيص جزء من المحاصيل لإعاشة عمد القرى ومراقبي توزيع المياه) وهلّمَ جراً.

نظام الحكم في خانية خيوة: رئيس الدولة هو الخان، الذي يتحكم بمصير

الشعب. ثم يليه الأناك ـ كان كبير المسؤولين حتى ق ـ ١٩م ـ الشخصية الثانية بعد الخان، او ما يسمى بالممثل المفوض. يليه «الكوشبينغ» المسؤول عن شؤون السكان الحضر كافة في الجزء الجنوبي من خوارزم. أما السكان الرحل و(الكازاخ، التركمان، الكاراكالباك) فكان يدير شؤونهم شيوخ وزعماء القبائل او العشائر ـ البايات، البكوات، الوكلاء. وكان يلي الكوشبيغ المختار الذي كان يشرف على السكان الحضر في شمال الخانية. اما إدارة شؤون المدن، فكانت في ايدي الحكام وقادة المئة (يوزباشي). فيما يشرف الكادخودا على ادارة أمور القرى. كانت السلطة القضائية في المركز والولايات والمناطق الأخرى بيد القضاة (وكان قاضي القضاة او كبير القضاة يعرف بـ«قاضي كاليان»). وكان يشرف على تطبيق تعاليم الشريعة من قبل المواطنين، مسؤول يعرف بـ«رئيس» (وكان يسمى ايضاً بـ«محتسب»)؛ أما السلطة السياسية، فكانت بيد الـ«مشراب».

العلم والثقافة: كانت الثقافة والعلوم ـ في هذه المرحلة التي نحن بصددها ـ في حالة انحطاط وتخلُّف. ولا يمكن مقارنتها، مثلاً بما انجز في هذا الميدان في خانية بخارى ابان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، وفي خانية خوقند ايام اسرة المينغ. من المنشآت والابنية الاثرية في مدن خانية خيوة في الفترة ما بين ق ١٦ ـ ق ١٨م، نذكر مدرسة عرب محمد خان (عام ١٦١٦م) الاسلامية والمسجد الواقع إلى جنوب المدرسة المذكورة، والمسجد والحمامات التي انشئت ايام انوشا خان، والمدرسة المؤلفة من طابقين والمبنية في عهد شير غازي خان. لقد كانت العلوم متخلفة، فمثلاً لم يكتب أي مؤلف تاريخي حتى مجيء ابي الغازي خان إلى سدة الحكم. ويرى ابو الغازي أن سبب ذلك يكمن في عدم وجود تشجيع ورعاية للعلوم، من قبل الخانات والسلاطين وكبار الاقطاعيين.

وكتب في هذا الشأن: «نظراً لعدم توافر الرعاية للعلوم من قبل اجدادنا واقربائنا، ونظراً لجهل الشعب الخوارزمي، لم تكتب مؤلفات تاريخية عن الحكام من اسرتنا، منذ انفصال عبد الله خان (عبد الله خان الثاني الشيباني ـ ب. أ) عن

أجدادنا، وحتى يومنا هذا. ولذا بذلت ما بوسعي لإيجاد من يكتب مثل هذا التاريخ، ولما اخفقت في العثور على شخص أهْلٍ لذلك، اتبعت المثل التركي القائل: «اليتيم هو قابلة نفسه ـ أي حينما يولد، يولد بلا قابلة، فيكون هو الوليد والقابلة في الوقت نفسه «المترجم» ـ وقررت كتابة تاريخ اسرتي بيدي. » اجل، حقاً أنّ أبا الغازي خان قد أسهم بقسط كبير في تطوير علم التاريخ. وترك للاجيال اللاحقة مؤلفين: «شجرئي ترك» (١٦٦٨م) و «شجرئي تراقيم» (ألفه على وجه التقريب في عام ١٦٥٨ ـ ١٦٦١م)، ويعدان من المصادر التاريخية الهامة القيمة. إن العمل الذي بدأه أبو الغازي خان واصله مؤنس (١٧٧٨ ـ ١٨٢٨م) واغاخي (١٨٠٩ ـ ١٨٦٤م)، إذ وضعا مؤلفاً رائعاً بعنوان «فردوس الاقبال»، الذي ضمَّناه تاريخ خانية خيوة ق ١٦ ـ ق ـ ١٨م.

خانية خوقند

كما اشرنا آنفاً ، في عام ١٧٠٩م، انفصلت فرغانة عن خانية بخارى، مكونة دولة مستقلة، دخلت التاريخ باسم خانية خوقند.

أهم الاحداث السياسية: يعتبر مؤسس هذه الخانية شاهروخ بي (١٧٠٩، ١٧٢١ ـ ١٧٢٢م)، من قبيلة مينغ الاوزبكية. كان ينتمي إلى الطبقة المتوسطة من الاقطاعيين. اقتصرت الممتلكات الخاضعة لسلطته آنذاك على قرى تارغاوا وجوماش بي، يانغي كينت، بالاخان، توكاي تيبا، بارتاك وتيبا كورغان الخ. أما فيما يتعلق بالأحداث التي جرت في عهده، فلم يرد لها ذكر في المراجع، سوى ما جاء في «تاريخ شاهروخي» عن بناء حصن ايسكي كورغان غير الكبير.

أما أهم الاحداث التي وقعت ابان حكم عبد الرحيم بي (١٧٢٢ ـ ١٧٣٣م) ابن شاهروخ بي وخليفته، فإن المراجع التاريخية تشير إلى إخضاعه خوجند (١٧٢٥م) واوراتيوبا(١٧٢٦م) واخضاع سمرقند له مؤقتاً (عام ١٧٣٢م)، وإلى تحالفه مع كينيغيسي شهرسابز ضد الاستراخانيين، منتهزاً صعوبة الاوضاع الداخلية.

خلال حكم عبد الكريم خان (١٧٣٣ ـ ١٧٥٠م)، أُعيد إعمار مدينة خوقند وتحصينها بالاسوار. ومن الاحداث الأخرى التي حصلت إبان حكم هذا الحاكم: هجمات الكالميك (الجونغار) المتكررة على حدود خانية خوقند في الفترة من ١٧٤١ـ ١٧٤٥م.

وفي تصدِّيه لهؤلاء، اعتمد عبد الكريم خان على مساعدة القيرغيز والكيبتشاك، ولا سيما «فاضل بي»، حاكم خوجند. كما توجب عليه محاربة الاقطاعيين الكيبتشاك، الذين أعلنوا شيغاي (ابن باراك ـ حاكم «جوز» الوسطى) خاناً على البلاد (نهاية ق ـ ١٨م)، وصد الهجمات التي شنت على المناطق المحيطة بقرية خوقند. وتجدر بنا الاشارة أيضاً، إلى تدخله في الصراع الدائر في خانية بخارى. فمثلاً، جرد (في عام ١٧٤٥م) حملة عسكرية على ميانكال حينما تمرد خيطاي الكيبتشاك. وبعد سنة (١٧٥٢) عاد إلى السلطة ايردانا بي السالف ذكره.

وفي زمن ايردانا بي (١٧٥٤ ـ ١٧٦٢م) اكتسبت خانية خوقند، بصورة نهائية، شكل دولة كاملة متكاملة. أما عن احداثها السياسية الرئيسة في عهد هذا الخان، فباستطاعتنا ذكر حملته على اورا تيوبا، بالتحالف مع أمير بخارى، محمد رحيم، والاقطاعي القيرغيزي «كاواد بي» عام ١٧٥٤م. إلا أن الحملة فشلت بسبب خلافات دبت بين المتحالفين، بل انها منيت بالفشل. ولكن، رغم ذلك، نجح ايردانا بي في إخضاع «إسفاري» و«أوش» في بداية الستينات، كما إنه حاول إخضاع خوجيند، ولكنه مني بالفشل، وسرعان ما قام حاجي بي باسترداد «اوش» منه. ومن أهم الأحداث في زمن حكم ايردانا بي، تبادل السفراء مع الصين التسينغية.

بعد ستة أشهر من حكم سليمان خان ـ حفيد شاهروخ بي ـ أجلس على العرش كارابوتا خان (١٧٦٣ ـ ١٧٩٨م)، ابن عبد الرحمن خان وله من العمر أربع عشرة سنة. ومضت اعوام حكمه، وهو يحارب أخاه المتمرد خوخي بي، والقيرغيز؛ ويكافح الحكام المحليين الانفصاليين، ليسحقهم في تشوست ونامنغان، وأماكن أخرى.

لم يستطع توحيد فرغانة وتنظيم جهاز الدولة فيها، سوى عليم خان (١٧٩٨ـ

١٨١٠م) وعمر خان (١٨١٠ ـ ١٨٢٢م). في البداية ـ وكما جاء في هذا الصدد في كتاب «تاريخ شاهروخي» ـ قام بتعزيز الجيش والتخلص من المسؤولين الذين لايرتاح لهم (بير محمد باسولا، طاشمحمد ميرزا وحاجي بيك وغيرهم)، والقضاء على الفتن، وإخضاع أورا تيوبا (١٨٠٠م) وطشقند (١٨٠٩م) وتشيمكينت (١٨٠٩م). قتل عليم خان عام ١٨١٠م في مؤامرة دبرتها ضده الارسطقراطية الخوقندية القديمة، بمشاركة ممثلي رجال الدين المسلمين.

في عهد عمر خان (١٨١٠ ـ ١٨٢٢م) وابنه محمد علي خان (١٨٢٢ ـ ١٨٤٢م) بلغت خانية خوقند اعلى مستوى من التطور، إذ اتسعت مساحتها، وقوي جهاز الدولة، وساد الأمن والاستقرار البلاد إلى حد ما، وتطورت العلوم والثقافة.

أما عن التوسعات والمكتسبات الاقليمية للخانية، فإن المعلومات الواردة في المراجع تفيد بنه في عام ١٨١٨م أعيد ضم اوراتيوبا إلى خانية خوقند، ثم ضمت اليها كوراما، كاراتيغين، وداروز (١٨٨٨م). وفي عام ١٨٢١م تحرك الجيش الخوقندي حتى سيميريتشي. وقبل ذلك (أي عام ١٨١٣ ـ ١٨١٥م) كان قد تم اخضاع جانك على ضفة اموداريا وعدد من المناطق الواقعة على نهر تالاس وتشومغ ألاي ووادي تشوي، حيث شيدت منشآت آل ميتشيت، تشولاك كورغان، اوليا آتا، أولوغ كورغان، داراوت كورغان، ميركي، كارابالتا، بيشكيك، توكماك والخ... وشرقاً بين أوش وكاشغار، شيدت صوفي ـ كورغان وكيزيل كورغان.

ومن الأحداث الأخرى، تشير المراجع التاريخية إلى اجتياح القوات الخوقندية كاشغار مرتين (١٨٣٠ و١٨٣١م)، وكان محمد علي خان قد شارك شخصياً في الاجتياح الثاني، وتم ،آنذاك، استرجاع كاشغار وقلعتها الرئيسة «جولباغ» من الصينيين. وبعد مرور خمسة عشر يوماً أجلس محمد علي خان على العرش جهانغير خوجي، تاركاً لديه خاكوكي مينغباشي، وعاد الى خوقند. وبموجب الاتفاقية التي وقعت بين الإدارة الصينية التسينغية وخانية خوقند، تعهد الصينيون بألا يضعوا العراقيل في طريق تجار آسيا الوسطى خلال تجارتهم في تركستان الشرقية، وبمنح عمد خوقند حق فرض الضرائب (زكاة وباج) على التجارة في أسواق كاشغار.

في تلك الأثناء، دبت الحيوية مجدداً في العلاقات التجارية الخوقندية ليس مع الصين فحسب، بل مع تركيا وروسيا والبلدان الأخرى.

انهارت سلطة محمد علي خان، نتيجة استياء غالبية وجهاء خوقند من محمد علي خان شخصياً، الذي انغمس في اللهو والترف في نهاية حكمه ولم يعد يهتم بشؤون البلاد كما ينبغي. فاتصل قسم من الوجهاء بأمير بخارى، نصر الله خان (١٨٢٦ - ١٨٦٠م)، وطلبوا منه المجيء للاستيلاء على خوقند، وفي ابريل ١٨٤٢م، جاء الأمير نصر الله على رأس جيش جرار، واجتاح فرغانة، واستولى على خوقند بعد حصار ومعارك قصيرة لم تدم طويلاً.

لكن سلطة الأمير البخاري على خانية خوقند، لم تدم سوى شهرين ونصف الشهر. ففي شهر اغسطس ١٨٤٢م، وبمساعدة المتمردين الاوزبك والقيرغيز والكيبتشاك، تولى العرش شير علي خان (١٨٤٢ - ١٨٤٤م)، ابن شقيق ناربوت - بي. إلا أنه لم يستطع ان يعيد إلى البلاد ازدهارها السابق. أما في زمن خودايار خان (١٨٤٤ - ١٨٥٨، ١٨٦٢ - ١٨٦٣، ١٨٦٥ - ١٨٧٥م) و«مالاخان (١٨٥٨ - ١٨٦٢م)، فقد وقعت خانية خوقند فريسة النزاعات بين الاقطاعيين، ودسائس القصر ومكائده، والثورات والانتفاضات الشعبية، ما أدى إلى أفول نجمها، فاستغلت روسيا ذلك وفرضت سلطتها الاستعمارية على فرغانة (٢٢ سبتمبر ١٨٧٥م).

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ونظام الحكم في خانية خوقند

كان النشاط الاقتصادي للسكان مرتبطاً بالظروف الطبيعية. وكما هو معلوم، فإن تضاريس وادي فرغانة الطبيعية تتألف من الجبال والسهول، حيث تتوافر المياه والمناخ الجيد. ففي المناطق الجبلية والسهوب، كانوا يزاولون تربية الماشية، أما في الأراضي السهلية، فكانوا يمارسون الزراعة والبستنة.

وكان سكان القرى والأرياف (الاوزبك والطاجيك) يزرعون القمح وحبوب

الدجوغارا والدخن والشعير، وزرعوا في مساحات شاسعة القطن والفصفصة. كذلك كانوا يزرعون بساتين كثيرة، من الكروم، والتفاح، والبرقوق، واللوز، والكرز، والاجّاص، والرمان، والدراق، والمشمش، والتين. إضافة إلى القرعيات؛ كالبطيخ بنوعيه الاصفر والاحمر واليقطين، والخضروات كالبصل والجزر والخيار... الخ.

وهنا، وكما كان يحصل في سائر خانيات آسيا الوسطى، سادت جميع انواع الملكية الاقطاعية للاراضي، وهي: ملكية الدولة والملكية الخاصة والاوقاف والمشاعية. وكان اكبرها: ملكية الدولة والاوقاف، يعمل فيهما ويعيش عليهما الفلاحون. وكان اصحابهما واصحاب الاملاك الخاصة والاقطاعية يملكون، علاوة على الأراضي ومصادر المياه، خانات القوافل، ومحالّ الحرف اليدوية والمحالّ التجارية والمطاحن والمجارش والحمامات وغيرها من المنشآت المدرّة للأرباح. أما في حال زيادة مساحات الأراضي الحكومية، فإن الزيادة كانت تتم على حساب استصلاح الأراضي الجديدة والشراء والبيع، وأما توسع الأراضي الاوقاف، فكان يتأتّى من التبرعات.

لقد أدّى التحضر والاستقرار الجماعي للرحل (القيرغيز والكيبتشاك) إلى تطوّر المدن. وفي نهاية ق ـ ١٨ وبداية ق ـ ١٩م، برزت أمام الحكومة مهمة جديدة هي ضرورة تطوير شبكات الري وتوسيعها. وهكذا، جرى في نهاية ق ـ ١٨م تنفيذ مشروعي قناة انديجان ـ ساي وشهريستان ـ ساي للحصول على المياه من أموداريا، وعلى ضفتي هاتين القناتين اقيمت مستوطنات مختلفة كبيرة وصغيرة، مثل: سلطان اباد ومعمور اباد وشهريخان... الخ. وفي تلك الفترة بالذات، بوشر بتطوير شبكات الري في المنطقة الواقعة بين نهري «نارين» و«كاراداريا»، والمعروفة باسم «ايكي سوو اراسي»، التي تعني «ما بين النهرين»، والتي كانت مشهورة بوفرة ينابيعها، وتعود ملكيتها لقبائل الكيبتشاك المتحضرة. وفي عام ١٨٣٦م قام الحاكم الخوقندي المؤقت «مسلمانقول» بحفر قناة من نهر تاشبتشان ـ ساي، وخلال فترة قصيرة جداً، استطاع استصلاح ٢٧٠٠«تابان» من الأراضي الجديدة. وفي فرغانة المركزية، قام هذا الاقطاعي بشق قناة لإيصال المياه من أموداريا، لاستصلاح أراض

جديدة في منطقة بوز (١٨٤٩ ـ ١٨٥١م). وفي عام ١٨٥٣م، وبتكليف شخصي من خودايار خان نفسه، حفرت أقنية عند المجرى السفلي لشهريخان ساي وفايزاباذ ساي. واستمرت عملية حفر الأقنية التي توصل المياه إلى السُّهْبِ القاحلة، حتى بعد خمسينات ق ـ ١٩م. ونذكر من هذه الأقنية قناة اولوغ نهر (١٨٧٠ ـ ١٨٧٧م).

كذلك اشتهرت مدن خانية خوقند (خوقند، مرغيلان، انديجان، اوش، شاش وغيرها) بالحرف اليدوية. وجاء في المراجع التاريخية ان عدد الصناعات والحرف اليدوية في فرغانة كان اكثر من ٤٠ حرفة، واشتهرت فرغانة في انتاج المصنوعات اليدوية من الحرير والمعادن والخشب والخزف الخ. وكان حرفيو فرغانة المهرة يصنعون الحلي الرائعة من الذهب والفضة، ويصنعون الأسلحة، والعربات المختلفة وعُدد الخيول، والملابس الصوفية، والأقمشة الحريرية الثمينة. وكانت المصنوعات الفرغانية تلقى رواجاً كبيراً في الأسواق الداخلية والخارجية، ومنها: الاطلس والابريشين، والزجاج، والعربات، والكارباس، والأواني، والمغاسل، والاحذية، ومعاطف الفرو، وسجاجيد السوزاني المزخرفة والمصنوعة من الحرير والقطن، والقبعات، والخيام، وغيرها من المصنوعات الكثيرة .

كذلك كانت التجارة مزدهرة. ونذكر من أهم المدن التجارية الخوقندية: خوقند العاصمة، طشقند، خوجند، مرغيلان، نانغان، انديجان، اوش وغيرها. كانت هذه المدن، تقيم علاقات تجارية نشطة، مع بخارى، وخيوة، وتركستان الشرقية، وايران، وافغانستان، وروسيا. فكانت تستورد من الخارج: الأواني الصينية، والمنسوجات الحريرية، والشاي، والمنتجات المصنوعة من الحديد وحديد الزهر والفولاذ؛ وتصدر من مدن خانية خوقند: الأصباغ، والأقمشة القطنية، والحرير، والقطن، والفواكه المجففة ... الخ.

النظام الاداري في خانية خوقند: لم يحظَ بدراسة كافية، شأنه شأن الانظمة الإدارية في الخانيات الاقطاعية الأخرى في آسيا الوسطى. وكلّ ما يمكننا قوله في

هذا الصدد هو مجرد معلومات عامة.

كانت السلطة بأسرها في يد الخان، الذي يقرر مصير الشعب والبلاد، وكان لديه مجلس هو بمثابة هيئة استشارية. أما الحكومة المركزية فكان يدير شؤونها «مينغ باشي» يعادل رئيس الوزراء أو الوزير الأعظم، و«كوشبيغي» هو القائد العام لجيش الخان، وزير البلاط، وكانت المناصب التالية معروفة في القصر: كووشبيغي (صقّار)، «آتاليك» (وصي عرش)، ديوان - بيغي (رئيس الديوان الحكومي)، «باراوانتشي» (المسؤول عن إيصال مراسيم الخان وأوامره إلى الجهات المعنونة إليها)، «كوربَاشي» (المسؤول عن مخزن الأسلحة)، «شيغاول» (رئيس التشريفات)، «ايشيك آغاباشي» (المسؤول الاكبر عن التشريفات)، «كاراوول بيغي» (رئيس الحرس الخاني)، «قاضي قلم» (كبير القضاة)، «ميراخور» (كبير السائسين - او المسؤول عن الاصطبل)، «باكول باشي» (كبير المشرفين على المطبخ)،«ميرزا باشي» (كبير الكتبة)، رئيس (المشرف على سلوك الموظفين، والتقيد بتعاليم الشريعة الاسلامية)، «وستارخانتشي» (معد المائدة او المشرف عليها)، ومن المناصب الدينية - شيخ الإسلام (رئيس الطوائف الاسلامية)، الصدر (مسؤول عن شؤون الأوقاف)، «عالِم» (كبير المفتين).

أما بالنسبة للتقسيم الاداري لخانية خوقند، فكانت تتألف من أقاليم (انديجان، يارمازار، أوتش كورغان، خوجند، كورامين، طشقند، داشتي كيبتشاك)، وفي السنوات الأخيرة للخانية، كانت تتألف من خمسة عشرة منطقة يحكمها البكوات تعرف بـ «البيكية» وهي: خوقند، مرغيلان، شهري خان، انديجان، نامنغان، سوخ، محرم، بولاك باشي، اراوان، باليك، تشارتاك، ناوكينت، كاسان، تشوست، بابادارخان. وكان على رأس الادارات الاقليمية حكام وبكوات؛ أما المناطق الريفية والقروية، فكان يشرف عليها الـ «اكساكاليون - جمع اكساكال، شيوخ أو عمد».

كان للجيش دور كبير في الحياة الاجتماعية السياسية، في خانية خوقند وفي الخانيات الاقطاعية الأخرى في آسيا الوسطى، وكان واضع مبادئ هذا الجيش وقواعده هو الأمير عليم خان. وكان الجيش يتألف من: الفرسان (سيباي)، افواج

المشاة (الـ «سربان») والمرتزقة، المؤلفة من الشوغناي والبادخشان والكاراتيغ. والمدفعية (توبتشي). وكان يقوده «أميري لاشكار» (قائد عام)، و«مينغ ـ باشي» (قائد الف)، و«يوزباشي» (قائد مئة)، و«توغ بيغي» (حامل راية)، و«توبتشي باشي» (قائد مدفعية) وغيرهم من القادة.

في المراجع التاريخية، تصادفنا معلومات شحيحة وضئيلة جداً عن وضع الـ «رايات» واشكال الاستغلال الاقطاعي. ويلاحظ من خلال المعلومات الواردة في وثائق وشهادات الاوقاف الممنوحة لمزار سلطان سعيد اوليا في إقليم نامنغان، أن نظام الرق كان موجوداً في ممتلكات رجال الدين الاقطاعيين، وان الفلاحين المنتجين الرئيسيين للمحاصيل الزراعية والحرفيين ايضاً، كانوا يدفعون ضرائب باهظة جداً. فعلاوة على الخراج ـ الضريبة الرئيسة على الأرض والتي تساوي ١/٣ حجم المحصول ـ كانوا يدفعون «الباج» (ضريبة يدفعها الحرفيون والتجار)، وضريبة الزكاة وغيرها، جميعها موحدة تحت اصطلاح مشترك « ـ الوغات ـ و ـ سالوغات». وفوق ذلك كله، كانوا يرغمون الفلاحين على العمل في مشاريع البناء: بناء الأقنية وصيانتها، الطرق، الجسور، الحصون، الخانات ... الخ.

ثارت الجماهير الكادحة عدة مرات احتجاجاً على استعباد الخان والاقطاعيين وجباة الضرائب، وجورهم وتعسفهم. ونذكر من تلك الثورات والانتفاضات، تلك التي جرت في ضواحي أوش وطشقند عام ١٨٤٥م، انتفاضة كادحي جنوب قيرغيزيا (عام ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨م)، وثورة سكان المناطق الشمالية التي امتدت لتشمل مناطق أخرى من الخانية، والانتفاضة الشاملة للجماهير الكادحة احتجاجاً على ظلم واستغلال خودايار ـ خان والمحيطين به في سبعينات ق ـ ١٩م.

العلوم والثقافة: تحتفظ المصادر والمراجع بأسماء العديد من علماء فرغانة (ق ١٨ ـ النصف الاول من ق ١٩م)، (ولا سيما المؤرخين) والأدباء والشعراء. ومن المؤرخين نذكر: حكيم خان تيوري، مؤلف الكتاب القيّم في التاريخ: «منتخب التواريخ» (ألفه عام ١٢٥٩ ـ ١٨٤٣م)، نياز محمد كوكاندي، مؤلف الكتاب الرائع

في تاريخ خانية خوقند، بعنوان «تاريخ شاهروخي» (تم تأليفه عام ١٢٨٨، ١٨٧١، ١٨٧٢م)، توراخوجا - إيشان انديجاني، مؤلف «مرآة الفتوح» (تم تأليفه في سبعينات ق - ١٩م)، ميرزا عزيز مارغيناني، مؤلف الكتاب القيّم في تاريخ فرغانة ومارغينان «تاريخي عزيزي»، ملاً عوض محمد عطار خوقندي، مؤلف «تحفة التواريخ خاني» (كتب في ق - ١٩م)، وأخيراً تجدر الاشارة إلى ميرزا سانع محمد بادخشي، الذي كتب مؤلفاً رائعاً جداً في تاريخ بادخشان (عام ١٩٠٨م).

وحري بنا ايضاً أن نذكر المؤلَّفين المهمين: «بحث في علم مغمى كامي» و«تحفة الطيب».

وهنا، ينبغي لنا ذكر عدد من اسماء الشعراء والادباء البارزين: مجذوب نامنغاني (ق - ١٨م)، عمرخان (١٨١٠ - ١٨٢٢م)، ملاً باسيجان منظور (ق - ١٨م)، مخلار ايّم (نادري)، فاضلي نامنغاني (ق - ١٨، بداية ق - ١٩م)، ملاً شمس شوقي (ق - ١٩م) وغيرهم.

مجذوب نامنغاني: (اسمه الكامل: خليفة عبد العزيز نامنغاني - شاعر كبير ترك ديوان شعر. ولكن بالنسبة للمؤرخين، فإن الأثر الأهم هو في تراجم حياة الأولياء «تذكر حضرة مجذوب نامنغاني» حيث تصادفنا، علاوة على تراجم الحياة، مواد تاريخية كثيرة، ومفيدة لدراسة الحياة الاجتماعية السياسية في البلاد.

أما **عمر خان** المعروف باسم «أميري»، و**نادري**، فإنهما ترأسا الحركة الأدبية في فرغانة في النصف الاول من ق - ١٩م، وأسهما بمؤلفاتهما وابداعهما إسهاماً كبيراً في تطور الشعر في آسيا الوسطى.

وفي ما يتعلق بالشعراء: فاضلي وملاً واسيجان، ومنظور شوقي، فإن اشعارهم امتازت بمواضيعها التاريخية. وذلك بالتحديد ما تمتاز به الاشعار التاريخية في «عمر نامة» (او «شاهنامة» او «ظفر نامة»)، والمؤلفة من ٥٠٠٠ بيت من

الشِّعر، تتحدث عن تاريخ حكم عمر خان، احد اعظم حكام أسرة المينغ. أما قصيدة شوقي، فيشغل الحيز الاكبر منها «جانغ نامة» (فرغ منها عام ١٢٩٦هـ - ١٨٣٥م) وتتحدث القصيدة عن انتفاضة الكيبتشاكيين في عهد خودايار خان. في حين يتطرق ملاً واسيجان منظور في اشعارهما، إلى عرض تاريخ حكم آخر حاكم من اسرة مينغ «خودايار خان».

ومن الآثار المعمارية، التي اقيمت في فرغانة ابان حكم الحكام من أسرة الـ«مينغ»، حري بنا الاشارة إلى مدرسة ناربوتابي الاسلامية الفخمة (نهاية ق ١٨م)، نيكروبول داخمائي شاهان ومداري خان (ثلاثينات ق ١٩م)، المسجد الجامع ذي المأذنة الشامخة (١٨١٠ - ١٨٢٢م)، اورطة خودايار المشهورة (١٨٧٠م). ونقلاً عن ف. ف. فيليامينوف زفيرنوف، كانت خوقند تضم اثنتي عشرة مدرسة دينية، تسعة خانات للقوافل، ستة حمّامات، سوقاً مسقوفة أنشئت في عهد خودايار خان. وجدير بالذكر حضرة خوجا أمين - كاري (ق - ١٨م) ومولوي آتا والي خان - تيوري (بداية ق - ٢٠م)، وفي نامنغان: السوق المسقوفة في اوش، الجامع، الحمام في مرغيلان، المدرسة الدينية والجامع في انديجان...الخ.

تركستان - مستعمرة روسية

الاستيلاء على آسيا الوسطى

إن انحلال دولة التيموريين في منطقة آسيا الوسطى ونشوء ثلاث دول مستقلة مكانها، هي: خانيات خيوة، بخارى، وخوقند، قد أدّيا إلى تمهيد الطريق أمام روسيا إلى هذه المنطقة الغنية والاستراتيجية في آسيا الوسطى، تلك المنطقة التي كانت محط أطماع روسيا القيصرية، ليس كمورد هام للخامات لصناعتها الخفيفة الآخذة في التطور والنمو وكسوق لترويج السلع، بل كجسر للتوغل في المناطق الغربية من الصين (تركستان الشرقية)، وفي أفغانستان والهند.

بدأت روسيا خطتها العدوانية بالاستطلاعات، وجمع اكبر قدرٍ ممكن من المعلومات عن شعوب هذه المنطقة، وعن مواردها وثرواتها الطبيعية، وعن الاوضاع العسكرية - السياسية في هذه الخانيات. كانت الحكومة الروسية قد بدأت نشاطاتها هذه منذ أواسط ق ١٦م، أي قبل استيلائها على هذه المنطقة بثلاثمئة سنة. ولهذا الهدف أخذت ترسل وكلاء شركاتها التجارية (مثلاً «الشركة التجارية الموسكوفية»)، ومن ثم الرسل، التجار، وضباط القيادة العامة، ورسامي الخرائط الجغرافية وغيرهم. وكانت أمامهم مهمات واضحة وهي: جمع معلومات عن الاوضاع الاقتصادية والسياسية في الخانيات، وتحصيناتها وقواتها العسكرية، وعلاقاتها مع الدول الأخرى، ولا سيما ايران وتركيا. فمثلاً كلف السفير إ. د. خوخلوف الموفد

إلى خانية بخارى عام ١٦٢٠م بـ «بذل كل ما في وسعه للتحري غن وضع أمير بخارى وعلاقاته بالسلطان التركي والشاه الايراني والقيصر الجورجي الاورغيني (الاورغينتشي - ب. أ)، ومن هم أصدقاؤه ومن هم أعداؤه؟ وما عدد قواته العسكرية وما مدى امكانياته المادية، وعما إذا كان يتأهب لمحاربة ملك ما او مصادقة قيصرٍ ما وتوطيد علاقاته معه. وقد طلب من السفير أن يكون التحري عن هذه الأمور في منتهى السرية». وبمثل هذه المهمات أرسل الى اورغينتش وبخارى وبلخ الاخوان ب. أ و س. إ. بازوخين (١٦٦٩ ـ ١٦٧١م)، وف. أ. داوودوف ومحمد يوسف قاسموف، وفلوريو بينيفيني وسكرتير اللجنة الشرقية لدى الشؤون الخارجية (١٧٢٥م) وغيرهم. وجاء في التوجيهات الخاصة الموقعة بخط بطرس الاول بتاريخ ١٣ يوليو ١٧١٨م والمسلمة باليد لفلوريو بينيفيني: «.... لدى وصولك إلى هناك، ادرس وابحث جميع السبل المؤاتية لمعرفة عدد استجكامات وحصون الخان، واماكن وجود اعداد كبيرة من القوات العسكرية والفرسان والمشاة، والمدفعية، وغير ذلك من الأسلحة. وما حال هذه القوات، وما مدى حراسة الاستحكامات والقلاع، وعن تنظيم القوات العسكرية والمدفعية، وغير ذلك من الأمور. ومعرفة أي الملوك يتعامل مع الفرس والخيويين وغيرهم من حكام الدول المجاورة، وهل يتعامل مع الأتراك؟ وهل من أخطار تهدده؟ وهل يحظى بتأييد ودعم شعبي؟ وهل هو حاكم مطلق؟ وهل توجد ميول للتمرد، وما نوعية نظام الحكم. وما الدول المجاورة، وأي دولة تشكل خطراً كبيراً بالنسبة إليه، هل يحتاج إلى مساعدة القيصر العظيم...، ما السلع المنتجة في بخارى ومع من يتاجرون بها....».

كذلك كلف بطرس الاول سفيره، بالبحث عن إمكانية او وسيلة لتوقيع اتفاقية دفاع مشترك مع خانية بخارى، وأعرب عن استعداده لارسال قوات من الحرس الروسي إلى بخارى قوامها عدة مئات، او اكبر عدد من الجنود لحمايته وحراسته...

وهنا، تجدر الاشارة إلى أنه قبل ذلك ـ أي عام ١٧١٧م، كان بطرس الاول قد ارسل إلى خيوة قوات عسكرية مسلحة بصورة جيدة، يربو عددها على ستة آلاف عسكري وضابط مزودين بالمدفعية، وذلك لاخضاع الاقطاعيين الخيويين له، وإعطائهم الجنسية الروسية. إلا أن خطته منيت بالفشل، إذ لم يخف شيرغازي ـ

خان (١٧١٥ ـ ١٧٢٨م) من «أخيه الزهيب» وقام بتدمير القوات الروسية، وقَتَلَ منهم عدداً كبيراً، من ضمنهم قائد القوات الروسية الأمير بيكوفيتش ـ تشير كاسكي.

وعلى الرغم من ذلك لم تكف روسيا عن محاولاتها، ولم تترك خانيات آسيا الوسطى وشأنها. وسنتحدث عن ذلك بالتفاصيل.

كذلك مارست روسيا سياستها التوسعية ضد كازاخستان، التي كانت آنذاك مجزأة إلى ثلاث دويلات «جوزات»: (الجوزة الكبرى والمتوسطة والصغرى) وما تزال مثخنة بالجراح، وتعاني من آثار الغزو «الجونغاري» لها.

ولاستغلال هذه الاوضاع، ضاعفت روسيا نشاطاتها السياسية في هذه المناطق، وتوغلت الدبلوماسية والخبراء العسكريون في آسيا الوسطى وكازاخستان. من ثلاث جهات: استراخان واورينبورغ وسيبيريا.

ومن الأمور، التي مهدت السبيل، إلى حد كبير، أمام روسيا لتنفيذ خطتها التوسعية والاستيلاء على آسيا الوسطى وكازاخستان، كان الانضمام الطوعي للجوزة الصغرى (عام ١٧٣١م) والمتوسطة (عام ١٧٣٤م) إلى روسيا. وبعد ذلك، وفي ثلاثينات وبداية خمسينات القرن الثامن عشر، اقامت روسيا العديد من الحصون والاستحكامات على أنهار «يايك»، «ايشيم» و«ايرتيش» وأسكنت فيها القوزاق الروس والبشكريين والميشيرياكيين الموالين لروسيا. وهنا ظهرت المدن ـ القلاع الكبيرة مثل اورينبورغ وبيتروبالوفسك، ترويتسك، بختارما، كازالينسك، بيتروفسك، وسيميبالا تينسك. ولقد ساعدت هذه الحصونُ والقلاع الروسَ في التغلغل إلى داخل كازاخستان، واحتلال مناطقها الداخلية والاستيلاء على آسيا الوسطى فيما بعد.

كانت روسيا قد شنت الحرب ـ بصورة فعلية ـ في بداية عام ١٨٣٩م، إذ أرسلت ما يربو على ٥٠٠٠ جندي وضابط، تدعمهم بطاريتا مدفعية، خرجوا من أورينبورغ، ومن خلال استحكامات نوفو اليكسندروفسكوي على مانغيشلاك اتجهوا إلى خيوة. وكانت هذه الحملة بقيادة ف. أ. بيروفسكي حاكم أورينبورغ

العسكري شخصياً. وجرت أول معركة حاسمة بين القوات الروسية والخيوية في موقعة اكبولاك. إلا أن القوات الروسية لم تستطع احراز انتصار فوري، واستمرت المعركة مدة أربعين يوماً بين كرّ وفرّ، اخفقت القوات الروسية بعدها في تحقيق أي نجاح، فقد أخذت الثلوج تتساقط وجاءت موجات من الصقيع، مما حال دون تقدم الروس، إضافة إلى المجاعة التي عانوا منها، والأمراض التي تفشت بين الجنود، فاضطر بيروفسكي للعودة من حيث اتى الى اورينبورغ. وفي هذه الحملة فقد خمس الجنود والجمال. وادت هزيمة بيروفسكي وفشله الى الاساءة لسمعة روسيا وهيبتها. الا انها رغم ذلك لم تتخلّ عن خطتها في اخضاع خانيات آسيا الوسطى. فواصل رجال سلاح الهندسة الروس اقامة المزيد من الاستحكامات والقلاع في اليكسندروفسك، ومانغيشلاك وكازالينسك (عام ١٨٤٥م)، وفي سرداريا السفلى. وبعد مرور سنتين (في عام ١٨٤٧م) قامت القيادة الروسية بالمناوشات بهدف الاستطلاعات العسكرية، وتمكنت من احتلال حصني جان خوجا وخوجا ـ نياز الخيويين. وهنا باشرت روسيا بإنشاء أسطولها البحري في بحر الأرال بقيادة الكونت ادميرال د. ا. بوتاكوف. وفي عام ١٨٥٠م استولى الجيش الروسي على الاستحكامات العسكرية التابعة للخانين الخيويين تويتشي بيك وكوش كورغان. وقبيل بداية ستينات القرن ١٩م احتل الروس استحكامات أخرى على نهر سرداريا: «اكبولاك»، كوموش ـ كورغان، تشيم ـ كورغان، كوش ـ كورغان وآك ـ ماتشيت (كزيل ـ اوردا).

كذلك انجز الجنرالات الروس أعمالاً كثيرة على خط «ايل»، حيث اقاموا في عام ١٨٥٤م استحكامات «فيرني»، التي ساعدتهم فيما بعد على إخضاع القبائل في الجوزة الكبرى، في مدن اوليا ـ آتا وتشيمكيت وبيشكيك وطشقند ومدن أخرى في آسيا الوسطى.

في مطلع ستينات ق ـ ١٩ أجرت القيادة العامة الروسية بعض التعديلات على خطتها لاحتلال آسيا الوسطى، إذ اخذت تركز اهتمامها على خطي اورينبورغ وسيبيريا، واصدرت الحكومة الروسية أوامرها لجنرالاتها باحتلال المدن الكبيرة

القريبة الواقعة على مشارف طشقند. وفي عام ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣م، استولت روسيا على اوليا ـ آتا وبيشكيك وتوكماك وسوزاك وياسى (تركستان). وهكذا التقت قوات الخطين ـ اورينبورغ وسيبيريا ـ على مشارف تشيمكينت قبيل حلول عام ١٨٦٤م. ومنذ ذاك الحين جرى غزو آسيا الوسطى على نطاق واسع، إذ احتلت في البداية خانية خوقند، ثم خانيتا بخارى وخيوة. وتجدر بنا هنا الاشارة الى الاسباب التي علل بها نائب المستشار أ. م. غورتشاكوف عام ١٨٦٤م، في خطابه الموجه إلى الحكومات الأوروبية، دوافع هذه العملية العسكرية ـ السياسية، إذ ذكر من ضمن ما ذكر: «... أن مصالح حماية الحدود والعلاقات التجارية تتطلب دائماً أن تكون للدول الاكثر رقياً سلطة معلومة على جاراتها». لا نرى هنا اي داع للتعليق. إلا أن التاريخ لم يشهد، ولا يكاد يعرف، قيام دولة عظيمة بحماية حدودها خارج أراضيها باخضاع الشعوب والبلدان الأخرى المستضعفة والأقل منها حضارة. هنا تتجلى بوضوح السياسة التوسعية التي اتبعتها روسيا في علاقاتها بجاراتها من الدول والشعوب، وذلك ما فعلته بالنسبة إلى آسيا الوسطى وكازاخستان.

باختصار، قبيل خريف ١٨٦٤م، التقت قوات الخطين ـ السيبيري بقيادة الجنرال تشيرنيايف والسرداري بقيادة العقيد فيريوفكين عند مشارف تشيمكينت. كانت قوات كل خط تتألف من ١٣ سرية مشاة وخمسمئة قوزاقي وعشرين مدفع ميدان للاستعمال في الجبال. وقد سقطت تشيمكينت في ٢٢ سبتمبر ١٨٦٤م بعد حصار طويل وقتال، مما أدى إلى انفتاح الطريق مباشرة إلى طشقند. الا أن الحكومة القيصرية أصدرت أوامرها لجنرالها بالتريث وعدم مساس هذه المدينة، نظراً لعلاقاتها التجارية الاقتصادية الوثيقة مع روسيا، وتزايد شعور النقمة واستياء السكان من سلطة الخانية الخوقندية فيها، ورأت أن طشقند ستنفصل من تلقاء ذاتها عن خوقند، وستطلب حماية روسيا.

وعلى الرغم من ذلك، وفي الخطاب الدوري سمح الحاكم العسكري العام لأورينبورغ ن. أ. كريجانوفسكي للجنرال تشيرنيايف باحتلال طشقند، إذا ما حاول الأمير البخاري مظفر (١٨٦٠ ـ ١٨٨٥م)، الذي كان آنذاك موجوداً مع جيشه

في خوجيند، احتلال المدينة المذكورة.

ذلك ما كان يريده الجنرال تشيرنيايف. وفي ربيع ١٨٦٥ سار بقواته نحو طشقند. وفي ٢٨ ابريل احتل قلعة نيازبيك المشرفة على شبكة الري، وعلى الطريق التي تزود طشقند بالمؤونة. بيد أنّ تشيرنيايف اخفق في الاستيلاء على المدينة، إذ لقي مقاومة بطولية عنيفة من قبل كبير الأمراء والأمير «عليم قل» الذي كان على رأس الطشقنديين والقوات التي هبت لنجدتهم، ودافعوا دفاعاً مستميتاً عن كل شارع ومسجد وبيت. وهنا لجأ الروس إلى أبشع الأساليب البربرية لتحطيم عناد المدافعين عن المدينة وصمودهم، فأقفلوا قناة كايكاوس وقطعوا الماء عن المدينة، إلا أن محاولتهم البربرية هذه منيت بالفشل، وصمد المقاومون صمود الابطال أمام الغزاة مدة اثنين وأربعين يوماً. لكن الاضطرابات التي دبت في القوات الخوقندية بعد وفاة «عليم قل» وخيانة بعض الاغنياء والوجهاء أجبرت الطشقنديين على الاستسلام، وعقد صلح مع الجنرال تشيرنيايف.

وحصل ذلك ـ نقلاً عن مؤلف كتاب «تاريخ طشقند الجديد» ـ في ١٢ صفر ١٢٨٢هـ (٨ يوليو ١٨٦٥م).

لم تسقط طشقند بسبب سوء التسلح او تقاعس المدافعين عنها، بل بسبب ضعف إرادة الخان الخوقندي سلطان سعيد وجبنه (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥م) وسوء تصرف قادته العسكريين، وخيانة فئة من طبقة ذوي الامتيازات، والتجزئة الاقطاعية وغياب التضامن بين خانية خوقند وإمارة بخارى.

لقد أدّى سقوط طشقند إلى تمهيد السبيل أمام الغزو الروسي واحتلال الجزء المتبقي من الخانية الخوقندية، ثم إخضاع إمارة بخارى وخانية خيوة لسلطة روسيا القيصرية. وفي عام ١٨٦٦م دخلت القوات الروسية إمارة بخارى واحتلت خوجيند، اورا ـ تيبا، وجيزاك، وفي عام ١٨٦٨ استولت على سمرقند «وكتا ـ كورغان». وبعد هزيمة «زير ـ بولاق» (٢ يونيو ١٨٦٨م) اضطر الأمير مظفر إلى توقيع اتفاقية السلام المشينة المذلة التي خضعت بموجبها جميع الاراضي المحتلة من بخارى بمدنها خوجيند واورا ـ تيبا، وجيزاك وسمرقند وكتاكورغان، وحتى

زير ـ بولاق للسلطة الروسية. وفرضت على بخارى جزية قدرها ٥٠٠٠٠٠ روبل، ونال التجار الروس حق التجارة الحرة (بدون دفع جمارك او ضرائب) في جميع انحاء إمارة بخارى، وحق افتتاح وكالات تجارية ـ صناعية فيها وفي المدن التابعة لها، وبموجب اتفاقية ١٨ سبتمبر ١٨٧٨م اضطر أمير بخارى إلى الاعتراف بالحماية الروسية.

وبعد ذلك تفرغت روسيا إلى خانية خيوة، وفي عام ١٨٦٩م أنزلت روسيا قواتها بقيادة العقيد ن. غ. ستوليتوف ـ على الشاطئ الشرقي لبحر قزوين، حيث أقامت استحكامات كراسنوفودسك، وفي الفترة ما بين ١٨٦٩ ـ ١٨٧٣م اخذت تشن انطلاقاً منها حملات استطلاعية وعسكرية وصولاً إلى عمق تركمانيا الحالية.

وباختصار حتى بداية عام ١٨٧٣م، كانت القوات الروسية تطوق خانية خيوة من ثلاث جهات: من الغرب ـ قوات منطقة القوقاز، من الشمال ـ قوات منطقة اورينبورغ، ومن الشرق ـ قوات منطقة تركستان. وبدأت الحملة العسكرية على خيوة في ربيع ١٨٧٣م، بقيادة مشتركة برئاسة الجنرال ك. ب. كاوفمان، وشارك فيها ما يزيد على ١٢٠٠٠ جندي وضابط، وسفن وبوارج اسطول القزوين و ٢٦ مدفعاً من العيارات المختلفة. وحتى ٢٦ من مايو ١٨٧٣م كانت قوات اورينبورغ من الشمال وقوات تركستان من الجنوب الشرقي قد اقتربت من مشارف خيوة. اما قوات منطقة القوقاز، فلم تتمكن من الوصول إلا الى عين «ايغدي»، ولم تستطع مواصلة السير في السهب القاحل العديم الماء، فاضطرت إلى العودة إلى كراسنوفودسك، وبعد معارك استمرت مدة يومين (٢٨ و ٢٩ مايو) هزمت القوات الخيوية.

وبموجب اتفاقية السلام المبرمة بين خيوة وروسيا، أعادت روسيا سعيد محمد رحيم خان الثاني (١٨٦٥/ ١٩١٠م) إلى العرش، وصارت خيوة تدفع جزية كبيرة لروسيا، واعترفت بالحماية الروسية، وعلاوة على ذلك ضم الساحل الجنوبي من خيوة بكامله إلى روسيا.

وكما حصل في إمارة بخارى، كانت أسباب سقوط خيوة واعترافها بالحماية

الروسية، تكمن في انعدام الوحدة بين الأمراء والوجهاء وكبار المسؤولين، والصراع الاقطاعي، والتنافس على السلطة (تنازع سعيد محمد رحيم خان واخوه آتاجان تيورا على العرش).

وبعد ذلك تفرغت روسيا، من خلال الجنرال كاوفمان، الحاكم العسكري لتركستان، لاخضاع خانية خوقند، إذ كان الوقت مناسباً، والخلافات قد دبت في الأسرة الحاكمة المتنازعة على السلطة والعرش. فاستغل كاوفمان الفرصة. وفي عام ١٨٦٦م، أجبر هدايار خان (١٨٦٥ - ١٨٧٥م) على توقيع اتفاقية جائرة، منحت التجار الروس الحق، في أن يقيموا في مدن الخانية المراكز التجارية والخانات، وقدمت لهم تسهيلات جمركية، تتيح لهم نقل سلعهم، بدون عوائق عبر مدن الخانية إلى البلدان الأخرى. وآنذاك اعترف هدايارخان بضم جزء من اراضي الخانية (مدينة طشقند، الاراضي المحاذية لسرداريا، جنوب كازاخستان والمحافظات الشمالية من قيرغيزستان) إلى روسيا.

وفي الفترة ما بين ١٨٧٣ - ١٨٧٦م جرت انتفاضة شعبية عارمة برئاسة الملاّ اسحاق (بولادخان)، قام هدايا خان بالقضاء عليها مستعيناً بالجنود والضباط الروس، ولم يستفد من ثمارها سوى الجنرال الروسي كاوفمان.

في ١٩ فبراير ألغيت خانية خوقند، وأعلنت مكانها محافظة فرغانة، التي ألحقت بمحافظة تركستان، التي بقيت حتى ١١ يوليو تعرف بمقاطعة تركستان.

الادارة الاستعمارية

بعد اخضاع آسيا الوسطى برمتها، باشرت الحكومة الروسية بانشاء ادارتها الاستعمارية، الأمر الذي لابد منه لتحويل البلدان المحتلة إلى مستعمَرة.

كانت السلطة العليا في المنطقة في قبضة الحاكم العسكري العام لتركستان، الذي تمتع بسلطات واسعة النطاق: تحديد العمليات العسكرية وإجراؤها، وإقامة علاقات دبلوماسية مع البلدان الأخرى ... الخ.

وكانت ولاية تركستان (المعروفة ايضاً بمقاطعة تركستان) تشغل مساحة كبيرة من الأراضي: آسيا الوسطى باكملها، وجزءاً من كازاخستان يشمل محافظات

سرداريا، سيميريتشي، فرغانة، زرافشان وما وراء القزوين. وبحسب احصائيات عام ١٨٩٧م، كان عدد سكانها ٥٢٨٠٩٨٣ نسمة، منهم ٣٥,٧٧٪ من الاوزبك، و٤٤,٣٦٪ من الكازاخ والقيرغيز، و٦,٧٪ من الطاجيك، ٤,٩٨٪ من التركمان، و٢,٢٦٪ من الكاراكالباق، ٣،٧٥٪ من الروس.

خضع الحاكم العام لتركستان مباشرة لوزير الحربية، ومن مهامه إدارة المنطقة عسكرياً ومدنياً. وكان النظام الاداري على النحو التالي: يستعين الحاكم بمساعد، وبمجلس خاص يتألف من العسكريين والمدنيين. ويدير الجهاز التنفيذي شؤون البلاد. وتتألف الإدارة من أقسام، مهمتها تتعلق بـ: ١) قضايا الادارة والاعضاء العاملين فيها، ٢) القضايا المتعلقة بالاراضي وجبي الاتاوات والضرائب، والبناء وشبكة الاتصالات، والتعليم والشؤون الصحية؛ ٣) المسائل المتعلقة بالشؤون المالية وضريبة الأراضي، والاوقاف، ومراقبة الرعايا الأجانب، ٤) الشؤون الدبلوماسية والعلاقات الخارجية (أبدلت في ما بعد في عام ١٨٩٩ بالوزارة المفوضة بالشؤون الخارجية)، وكانت مهمتها الاساسية معالجة القضايا المتعلقة بالمحميات الروسية (بخارى وخيوة).

أما الإدارة المحلية فتتألف من حكام المحافظات العسكريين والمدراء، في الأقضية مدراء أقضية، وفي النواحي مدراء نواح، وفي القرى عُمد. مهمة الادارة المحلية الإشراف على شؤون السكان، الحضر منهم والرحل، وجمع الاتاوات والضرائب، والاهتمام بشبكات الري، إضافة إلى القضاء والشؤون الاقتصادية. وكان هؤلاء الحكام والمدراء من العسكريين.

إستغلال منطقة تركستان

كان الهدف الرئيس للادارة الروسية، كما ذكرنا آنفاً، يكمن في تحويل تركستان إلى مصدر أساسيّ للخامات الرخيصة وإلى سوق لترويج سلعها، واخضاع شعوبها إخضاعاً تاماً لارادتها، وجعلها آلة طيعة في ايدي الروس. كانت السلطة الروسية، تعامل السكان المحليين الذين كانت تنعتهم «بالسكان الأصليين»، معاملة السادة للعبيد. ونقلاً عن الحاكم العسكري س. د. دوخوفسكي (١٨٩٨ ـ

١٩٠١م) كان من الضروري «على السلطات الروسية فرض رقابة شديدة صارمة على السكان الاصليين، إذ انهم اعتادوا الخضوع للسلطة المطلقة الصارمة لملوكهم وحكامهم السابقين؛ وليس من الجائز التعامل معهم وفق المبادئ الانسانية».

بوشر بـ «استصلاح» تركستان بإرسال فلاحين روس من أواسط روسيا، وإسكانهم في مناطق سيميريتشي، فرغانة، وسرداريا، حيث أقاموا العديد من المستوطنات والمدن. فمثلاً، حتى عام ١٨٩١م، في قضاءي «اوليات» و«طشقند» ظهرت ١٩ مستوطنة روسية يبلغ عدد سكانها ١٢٩٨ نسمة، وفي عام ١٨٩٦م كان عدد سكان المستوطنات الروسية الست في قضاء خوجند يبلغ زهاء ١٠٠٠ نسمة، واستقر معظم الناطقين باللغة الروسية في الجزء الجديد من طشقند، وبُنيت للروس مدينة سوبيليف (فرغانة حالياً) بالقرب من مدينة مرغيلان.

وللأسباب نفسها أقيمت في مدن تركستان، وفي بخارى وخيوة شبه المستقلتين وكالات لشركات النسيج الروسية والتجارة، ومستودعات للخامات والسلع. وكانت مهمتها، تكمن في شراء أهم الخامات اللازمة للنسيج: القطن، الحرير، الصوف والجلود. كذلك كانوا يبيعون المنسوجات الروسية.

وبهدف تأمين احتياجات الصناعات الروسية، وسعياً وراء الاهداف السياسية والاستراتيجية، باشرت روسيا ببناء المصانع في مدن آسيا الوسطى، وإنشاء السكك الحديدية. فمثلاً في الفترة ما بين عامي ١٨٨٠ ـ ١٨٩٩م، أقيمت سكة حديد آسيا الوسطى الممتدة مسافة ١٧٤٨ كلم ما بين الساحل الشرقي لبحر قزوين ومدينة انديجان الفرغانة، وفي وقت لاحق مُدَّ خط لسكة الحديد من أورينبورغ الى طشقند، وفي عام ١٩٠٦م أقيمت سكة الحديد التركستانية السيبيرية الممتدة من مدينتي أورينبورغ وطشقند إلى اوليا ـ آتا و....

وكان بناء المؤسسات الصناعية يجري على قدم وساق. وكما هو معلوم، حتى عام ١٨٨٦م، كان عدد المصانع هنا واحداً وعشرين مصنعاً فقط: لحلج القطن، الجلود، تقطير الكحول، صناعة البيرة، ومعالجة الأرز وغيرها، وفي حين تم خلال عشر سنوات فقط (١٨٨٠ ـ ١٨٩٠م) بناء ستة وثلاثين مصنعاً جديداً، وما بين

١٨٩٠ـ ١٩٠٠م ارتفع عددها إلى مئة وأحد عشر مصنعاً تعمل بصورة رئيسة في ميدان حلج القطن وإنتاج الزيوت. وحتى عام ١٩١٤م كان عدد هذه المصانع قد بلغ أربعمئة وخمسة وعشرون مصنعاً. إلا أن هذه المؤسسات كانت متخصصة في إنتاج الصناعات الخفيفة، ومعظمها يعود لرأسماليين روس وأجانب.

وسعياً لتلبية احتياجات صناعاتها الخفيفة أولت الحكومة القيصرية اهتماماً كبيراً تطوير زراعة القطن في منطقة تركستان، وبادرت بالدرجة الاولى إلى تحسين أنواع القطن المحلي السائدة زراعته فيها منذ قرون، وأبدلت هذه الانواع بأنواع أخرى اميركية عالية الجودة. وادخلت تقنية جديدة في ميدان الزراعة: المحاريث الحديدية، المذاري، المسلفات، حاصدات الحشائش وغيرها من الآلات الزراعية. ونظرا للمهمات المشتركة العامة لتطوير زراعة القطن، ازدادت المساحات المخصصة لزراعة القطن بشكل ملحوظ، فمثلاً في الفترة من ١٩٠٠ـ ١٩١٥م، أي خلال خمس عشرة سنة ازدادت المساحات المزروعة بالقطن في وادي فرغانة من ١٨٨٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠٠ ديساتينا (الديساتينا كانت تعادل ١,٠٩ من الهكتار) ومن ١٥,٥ ألف ـ ٦٧ ألف ديساتينا في محافظة سرداريا. اما في عموم منطقة تركستان فمن ٣٤٦ ألف إلى ٤٩٦ ألف ديساتينا. وكانت هذه الزيادة التدريجية المتنامية تتم على حساب المساحات التي كانت تزرع بالحبوب والمحاصيل الزراعية الأخرى. فمثلاً بلغت نسبة الاراضي المزروعة بالقطن عام ١٨٨٥م ما يعادل ١٤٪ من مجمل الاراضي الصالحة للزراعة، وفي عام ١٩١٤م ارتفعت هذه النسبة الى ٤٤٪، في حين انخفضت نسبة المساحات المخصصة لزراعة الذرة الصفراء من ٢٢٪ إلى ١١٪، والفصفصة من ١٥٪ إلى ٨٪، والأرز من ١٦٪ إلى ٧٪. ولم تشذ عن هذه الصورة محافظات تركستان كافة، ونذكر على سبيل المثال محافظتي سرداريا وزرافشان.

إن عدداً من الاجراءات المتخذة من الادارة الاستعمارية لشؤون الاراضي والضرائب، أدى الى المساس بشرف السكان المحليين وكرامتهم، ليس السكان البسطاء وحدهم بل الاغنياء والوجهاء أيضاً، ومن ضمنهم رجال الدين، إذ استولت الدولة على أجزاء من أراضيهم لتستغلها لمصلحتها الخاصة. ومثل ذلك ايضاً حصل

لأراضي الاوقاف التي لا يترك سوى جزء منها لاصحابها السابقين، وعلاوة على ذلك فرضت عليها الضرائب. كما استولت الدولة على الأراضي المشاعية.

الحركات الشعبية

إضافة الى ظلم الاقطاعيين المحليين واستبدادهم، ظهر ظلم الادارة الاستعمارية الروسية واستبدادها.

فعمال المصانع يتعرضون لاستغلال بشع، فقد مددت ساعات العمل من ١٢ الى ١٤ ساعة في اليوم.

والرواتب منخفضة، ولا توجد أية انظمة لحماية العمال. كما اظهرت نتائج عملية التفتيش التي قام بها الكونت «بالين» في عام ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م، أن اوضاع العمال في تركستان، ولا سيما السكان الاصليين المحليين، كانت رديئة جداً، وأسوأ بكثير من اوضاع عمال روسيا.

أدت هذه المعاملة إلى استياء العمال واحتجاجهم. ففي عام ١٨٨٥م، أعرب عمال مناجم الفحم في بيانجيكينت عن استيائهم ايضاً نتيجة رفض الادارة الاستعمارية تحسين ظروف العمل وزيادة رواتبهم. وقامت مجموعة من العمال الساخطين بالاعتداء بالضرب على رئيس الادارة الاستعمارية للمنجم وعلى اثنين من المراقبين. وأقدمت على تحطيم بعض من المعدات. وفي عام ١٨٩٨م، وللأسباب نفسها، تقدم مئة وثلاثون عاملاً من عمال البناء بطلبات مماثلة، في خوقند، وفي العام نفسه حصلت اضطرابات في مصانع تقطير الكحول.

كانت هذه أول مرة يحتج فيها عمال تركستان، مطالبين بحقوقهم.

وقبيل تسعينات القرن الماضي تدهورت ايضاً اوضاع الفلاحين. إذ ادى تجميع القسم الاعظم من الاراضي في أيدي الإقطاعيين المحليين وكبار التجار إلى ازدياد عدد الفلاحين المعدمين وملأكي الأراضي الصغار، وتزايد استغلال مستأجري الأراضي. كما أدت زيادة مساحات الاراضي المخصصة لزراعة القطن وتقليص الأراضي المزروعة بالحبوب إلى ارتفاع اسعار الخبز. وعلاوة على ذلك، ازداد ظلم

المرابين وجورهم. فكثيراً ما كان صغار الفلاحين يلجأون إليهم للاستدانة، كما ازدادت وطأة الضرائب من العشر إلى ٣٥٪ من مجموع الدخل. وارتفعت ضريبة المسقّفات على البيوت من نوع كيبيتكا إلى ٦ روبلات للبيت الواحد، وضريبة شبكة الري الى روبلين لكل بيت، وضريبة مراقب او حارس شبكة الري إلى روبل و ٧٠ كوبيكا لكل فرد، وهلمّ جراً.

لقد أدى الظلم الاجتماعي والاستعماري إلى قيام حركات فلاحية ظهرت بصورة عفوية. ففي مبنى إدارة فرغانة، مثلاً، وفي شهر نوفمبر ١٨٧٩م اجتمع حوالى ٦٠٠ من فلاحي قضاء فرغانة، وطالبوا، بصورة قاطعة، بتخفيض الضرائب. وفي مثل هذا الوقت من عام ١٨٨٠م أعرب عمال قضاء خوجند عن استيائهم من جراء الضرائب الاضافية التي فرضها مدير القضاء بوتينشيف على الأراضي، وفي مطلع عام ١٨٨٢م احتج سكان قضاء نامنغان على الضرائب الاضافية. وفي سبتمبر من العام نفسه أعرب سكان «أوش» عن احتجاجهم إزاء التصرفات التعسفية للادارة الروسية المحلية. وحدثت اضطرابات وعمليات تمرد وعصيان في «تشوست» عام ١٨٨٦م.

وكانت أضخم عملية تمرد تلك التي قام بها شعب وادي فرغانة في شهر يونيو١٨٨٢م. حيث قام الفلاحون بالاعتداء على ممتلكات الاغنياء المحليين ومكاتب الادارة الروسية، حتى أن فلاحي بعض القرى والأرياف مثل قرية كورغان تيبا في قضاء انديجان وفي عدد من القرى القيرغيزية، انتفضوا بقيادة شخص يدعى درويش خان الذي اطلق على نفسه لقب «جيتيم خانوم» (أي - ايتام الخانات)، منادين باعلان الجهاد. كان يترأس هذه الحركات ممثلو طبقات الاقطاعيين، ورجال الدين الراغبون في استعادة بعض من امتيازاتهم السابقة، من خلال الحركات الفلاحية.

في التسعينات من ق ١٩م ازدادت حركات الاحتجاج، وأصبحت أكثر تنظيماً من السابق، وشملت العديد من قرى أنديجان وخوقند وأوش ومرغيلان والاقضية التركستانية الأخرى.

لكن عملية التمرد التي أقلقت الادارة الروسية قلقاً شديداً، هي التى عرفت بـ«تمرد الكوليرا» في طشقند عام ١٨٩٢م، تَلَتْها «انتفاضة أنديجان» ١٨٩٨م، ثم عصيان عام ١٩١٦م (للمزيد عن الحركة الأخيرة، انظر لاحقاً).

شكل الفلاحون والرعاة وفقراء المدن، والمستاؤون من سياسة الضرائب المفروضة من قبل الادارة القيصرية، والمضطهدون على ايدي الاغنياء المحليين والمسؤولين الروس، قوام حركات التمرد.

لقد تم القضاء على هذه الانتفاضات ونظيراتها الأخرى من قبل الادارة القيصرية، حيث استخدم السلاح في القضاء على بعضها كـ «تمرد الكوليرا» في طشقند، وانتفاضة انديجان في عام ١٨٩٨م.

فمثلاً، أدى القضاء على «تمرد الكوليرا» في طشقند، إلى قتل ثمانين شخصاً، واصدرت المحكمة العسكرية أحكاماً بمدد مختلفة من السجن بحق ستين شخصاً، كما اصدرت حكمها بالإعدام على ثمانية اشخاص. وفي اعقاب القضاء على انتفاضة انديجان اعتقل سبعمئة وسبعة وسبعون شخصاً شنق تسعة وتسعون منهم. وحكم بالاعمال الشاقة في سيبيريا ولمدد مختلفة على ثلاثمئة وستة وثمانين شخصاً. أما قرى طاجيك و كاشغار، وكوتشي في قضاء مينغ - تيبا (مرحماتسكي) التي كانت مراكز الانتفاضات الضخمة، فسويّت بالارض، وطرد أهلها منها. وجدير بالذكر أن الادارة القيصرية شددت قبضتها فأصبحت أكثر ضراوة وصرامة، إذ استبدلت رجال البوليس المحليين بآخرين من الروس.

وكما هو معلوم، كانت الحكومة النمساوية - الهنغارية قد أعلنت الحرب على الصرب في ١٥ يوليو ١٩١٤م. وكان سبب ذلك مقتل ولي عهد الامبراطورية النمساوية الهنغارية - الايكتس هيرتسوغ فرانس فيرديناد في ١٥ يونيو ١٩١٤م في سراييفو. أما السبب الرئيسي، في اندلاع الحرب العالمية الاولى فيكمن في سياسة الدول الامبريالية: الامبراطورية النمساوية الهنغارية ، انجلترا، فرنسا وروسيا، الرامية إلى تقسيم العالم، ونيل مستعمرات جديدة، وفرض سيطرتها على العالم.

ونظراً لدخول روسيا في هذه الحرب، وتورّط مستعمراتها فيها ايضاً، وبناء

على مرسوم القيصر، اعلنت حالة الطوارئ في منطقة تركستان ايضاً. واتخذت تدابير احتياطية تحسباً من حدوث الاضطرابات والفوضى: فرض حظر على نشاطات المنظمات السياسية، واتخذت تدابير معينة بحق السكان المحليين، إذ فرضت - مثلاً - رقابة شديدة على نشاطاتهم وتحركاتهم، وكانوا يحاولون غرس القومية الروسية في أنفسهم بالاكراه، ويحملونهم على القاء الخطب في المدارس والمساجد، وتمجيد القيصر وحاشيته وأسرته.

كانت تركستان، تزود الجبهة بالقطن والماشية والخبز. وبشكل ملحوظ ازداد دور تركستان، كمصدرة للخامات اللازمة لصناعة النسيج والمعدات العسكرية في روسيا. ونتيجة تقليص حجم السلع المستوردة، وإنتاج القطن في أذربيجان، زيدت في تركستان المساحات المزروعة بالقطن. فمثلاً كانت هذه المساحات في عام ١٩١٤م تبلغ ٥٧٩٢١١ ديساتين، واصبحت في عام ١٩١٥م تبلغ ٦٦٩٤١٧ ديساتين. وبالتالي زاد الحجم الاجمالي للقطن، إذ بلغ في عام ١٩١٥م، ٦١ مليون بود (١٨,٥ مليون بود من الياف القطن).

لابد لنا هنا من الاشارة إلى أن زيادة المساحات المزروعة بالقطن، لم تكن نتيجة استثمار اراض جديدة أو استصلاحها، بل كانت تحصل على حساب الاراضي التي كانت تزرع بالحبوب والقرعيات وأعلاف الماشية. وعلى سبيل المثال فقد ارتفعت نسبة زراعة القطن في سنوات الحرب إلى ٧٥ - ٨٠٪ من مجمل الاراضي الزراعية في بعض القرى، وفي قرى أخرى بلغت هذه النسبة من ٩٠ إلى ١٠٠٪. ولقد ادى الغاء زراعة المحاصيل الزراعية الأخرى، الى ارتفاع أسعار الخبز وتبعية مربي الماشية إلى المناطق الأخرى. فمثلاً ازدادت اسعار الخبز في عام ١٩١٦م، بالمقارنة مع ما كانت عليه في عامي ١٩١٣ - ١٩١٤م، بمعدل أربعة اضعاف. كذلك ارتفعت اسعار السكر والحبوب والتبغ والثقاب، والسلع الاخرى كالأحذية والثياب والأقمشة القطنية. فمثلاً، ارتفعت أسعار السكر في عام ١٩١٦م بنسبة ٢٥٠٪، والثياب بنسبة ٢٠٠ - ٣٠٠٪ والأحذية من ٣٠٠ - ٤٠٠٪. فكانت حياة الكادحين تزداد سوءاً وتدهوراً.

وهنا تجدر الاشارة إلى نقطة أخرى، ألا وهي زيادة عدد سكان تركستان خلال الفترة من عام ١٩١٤ إلى ١٩١٦م، وذلك نتيجة قدوم اعداد كبيرة من اللاجئين من المناطق الواقعة على الجبهة، واعداد أخرى من الأسرى العسكريين؛ إذ بلغ عدد هؤلاء الأسرى حتى ربيع ١٩١٦م حوالي ٢٠٠ ألف أسير، أما عدد اللاجئين فوصل إل ٧٠ ألف نسمة، فاستقبلت طشقند وحدها ٤٥ ألف من الأسرى العسكريين و ١٣,٥ ألف من اللاجئين، معظمهم من النساء والأطفال، ما أدى الى ازدياد سوء الاحوال المتردية لدى الناس البسطاء.

ومن أجل إخماد موجة السخط التي عمت الجماهير، ولمنع وقوع الاضطرابات والقلاقل، شددت الادارة القيصرية الرقابة، واوجدت اضافة إلى رجال البوليس، إدارة عرفت بـ «الادارة البلدية».

ازداد استغلال الشعب الكادح اعتباراً من بداية ١٩١٥م. إذ فرضت ضرائب إضافية تعادل ٢١٪ من مجمل الضرائب كافة، لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية. وبحجة تقديم المساعدة للجبهة، بوشر بجمع «التبرعات من أجل الوطن»، واعتباراً من شهر يونيو ١٩١٦م عمد الروس إلى تعبئة الرجال القادرين على العمل في الخطوط الخلفية. وتضاعفت نشاطات المسؤولين عن تأمين الخامات والمواد الغذائية اللازمة للمصانع والجيش، وازداد عدد المبتزين بمختلف ألوانهم وأصنافهم، وانتشرت الرشاوى على نطاق واسع، واستخدمت المناصب من أجل المآرب الشخصية. وقد ادت كل هذه الضغوطات مجتمعة إلى انفجار شعبي عام. وفي عام ١٩١٥م، بدأت الاضرابات التي اعلنها عمال المصانع وسكك الحديد في بخارى وانديجان ونامنغان، وكثرت الاحداث «المخلة بالنظام والاستقرار الاجتماعي»، وازداد اهتمام الفلاحين بالاحداث الجارية على الجبهة، وراحت الصحف تتحدث عن الاخطار المحدقة بالمصير السياسي للبلاد.

باختصار، واعتباراً من النصف الثاني لعام ١٩١٥م، بدأ السخط الشعبي على الادارة القيصرية، واصحاب المصانع والتجار يتعاظم ويزداد حدة. وفي سنة ١٩١٦م سادت تركستان برمتها «اضطرابات تموينية»، وجرت «انتفاضة نسائية»

في طشقند، واصطدامات في نامنغان من اجل السكر، وما الى ذلك من الاضطرابات والعصيان.

وكانت أعظم الانتفاضات في تركستان تلك التي جرت في شهر يوليو ١٩١٦م، والتي دخلت التاريخ باسم «انتفاضة عام ١٩١٦». انطلقت الانتفاضة احتجاجاً على تعبئة الرجال للعمل في الخطوط الخلفية للجبهة، بدءاً من خوجند في ٤ يوليو ١٩١٦، وسرعان ما شملت تركستان قاطبة: محافظات سمرقند، فرغانة، وسرداريا (طشقند)، كما امتدت إلى القرى القازاخية والقيرغيزية. وعلى العموم فقد كانت انتفاضة عام ١٩١٦ انتفاضة شعبية عامة، ضد الحرب والحكم القيصري.

قررت الادارة القيصرية في تركستان سحق الانتفاضة بقوة وعنف، فقام الحاكم العسكري أ. ن. كوراباتكين (١٩١٦ ـ ١٩١٧م) بفرض الاحكام العرفية واعلان حالة الطوارئ. وللقضاء على الانتفاضة استدعى افواجاً وكتائب من المناطق الحدودية: ترمذ، مرو وكوشكاخ، فضلاً عن الحاميات والشرطة المحلية. وأُصدرت الأوامر للفصائل العسكرية بسحق الانتفاضة بقوة السلاح، فراحت هذه الفصائل تطلق النار مباشرة وعن كثب، وبصورة وحشية بدون أي رأفة او شفقة على أحد، وأحرقت القرى. فمثلاً، في ١٠ يوليو ١٩١٠ قتل «أحد عشر» شخصاً وجرح خمسة عشر؛ آنذاك، أطلق القوزاقيون النار مباشرة على المستائين، فقتلوا خمسة أشخاص، وجرحوا خمسة عشر. وفي منطقة ربض «جيزاك»، استخدمت إحدى الفصائل التي كان يقودها المقدم فودوبيانوف، المدفعية لقمع «المتمردين». ونكّلت القوات القيصرية بسكان تشيمباي (محافظة سمرقند)، في ١٥ يوليو. وقد أخفقت محاولة القضاء على الاضطرابات، وحمل سكان تركستان على الامتثال للمرسوم القيصري الصادر بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩١٦م. نص هذا المرسوم على حمل الرجال من المدن الأخرى للامبراطورية، على العمل في إقامة الاستحكامات العسكرية وحفر الخنادق في منطقة القتال، وإنجاز الأعمال الأخرى اللازمة للدفاع عن الدولة. أعقب ذلك موجة جديدة من الانتفاضات استمرت حتى بداية شهر أغسطس من ذاك العام، وشملت محافظات طشقند، سمرقند، وسرداريا. وفي هذه المرة ايضاً نكلت الفصائل

الروسية بالمتمردين كما حصل في المرة السابقة.

إلا أن النار والحديد وحرق البيوت والقرى وأعمال العنف جميعها، لم تستطع إيقاف الشعب الثائر، الذي استمر في انتفاضته وثورته. وفي نهاية، المطاف اضطرت قيادة أركان الجيش الروسي إلى إيقاف حملاتها التأديبية. أما الادارة القيصرية في تركستان فاضطرت مؤقتاً إلى إيقاف عملية تجنيد السكان المحليين للخدمة في الخطوط الخلفية. بيد أن الحاكم العسكري لمنطقة تركستان اصدر في ٢٣ اغسطس ١٩١٦م أمراً باعادة عملية التجنيد؛ واستمر الأمر على ذلك حتى ثورة شباط (فبراير) ١٩١٧م. إلا أن نسبة التجنيد كانت اقل مما كانت عليه.

وعلى الرغم من إخماد انتفاضة عام ١٩١٦، في نهاية الأمر، فإنها تركت أثراً كبيراً على مستقبل التطور السياسي في المنطقة، اذ عجّلت في إحداث التأزم في بنية النظام القيصري، وأثرت بصورة ملموسة على الوضع السياسي في آسيا الوسطى وكازاخستان عشية ثورة فبراير ١٩١٧م.

العلم والأدب والفن والاجتماع السياسي لدى شعوب أوزبكستان في النصف الثاني من القرن ١٩ وبداية القرن العشرين

أدخلت الادارة القيصرية الاستعمارية بعض التعديلات على قانون الأراضي والمياه، وأجرت تغييراتٍ جزئيةً على نظام الضرائب، إلا أنها لم تمسّ العادات والتقاليد.

يلاحظ من خلال المؤلفات المخطوطة التي وصلتنا، أن العلوم في مدن تركستان المستعمرة: بخارى، خيوة وخوقند كانت تتطور في ميادين الرياضيات وعلم الفلك، والتعدين والطب والتاريخ والفلسفة، وكُتبت أبحاث في الرياضيات «خلاصة الحساب»، وفي الفلك «منظر الكواكب»، وفي الطب «جامع الفوائد في الطب» و«عين اللذات ومائدة الهبات» و «شرح ميزان الطب»، وفي الفقه «تحفة الأمير» و«رسالة في الوصية» وغيرها.

وتطور علم التاريخ تطوّراً كبيراً، إذ كان في بخارى عدد من المؤرخين أمثال: عبد الرحمن تامكين البخاري (المتوفى عام ١٩١٨م)، وأحمد داينش (١٨٢٧ ـ ١٨٩٧م)، مير عليم البخاري (كان لا يزال على قيد الحياة عام ١٨٨٥)، ميرزا عبد العظيم سليم بيك (عاشق في ثلاثينات القرن العشرين) وغيرهم.

وفي كتاب عبد الرحمن تالكين (يقع في ٤٥٣ صفحة) «مطالع الفاخر ومطالب الظاهر» في التاريخ الجغرافي نجد معلومات عن بناء مسجد «كالان» في بخارى، والكوارث الطبيعية التي حصلت في بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلدان، وعن الخانات وعشرات التومانات البخارية، وغيرها.

ويحظى بمكانة خاصة بين مؤرخي بخارى، المؤرخ دانيش الذي وضع عدداً من المؤلفات، مثل «نوادر الوقائع»، «ترجمة أحوال أمير بخارى» يتحدث فيه عن تاريخ المنغيت.

وعن قضايا الفلسفة والأخلاق، والحياة الاجتماعية السياسية، ومستوى الثقافة («حادثة نادرة جداً»)، و«رسالة في نظام الدولة» ... الخ.

ومن مؤرخي بخارى المشهورين، نذكر ميرزا عبد العظيم سامي، الذي ألف كتاباً قيِّماً في التاريخ بعنوان «تحفة الشاه»، يشتمل على عرض لتاريخ أسرة المنغيت الحاكمة، اعتباراً من محمد رحيم خان (١٧٥٧ ـ ١٧٥٩م) وحتى السنة الرابعة عشرة (١٨٩٩) من حكم الأمير عبد الاحد خان (١٨٨٥ـ ١٩١٠م)، كما تصادفنا في الكتاب المذكور آنفاً، حقائق طريفة مهمة عن القصص والأحداث التي كانت تجري يومياً في القصر، وعن عيوب بعض الأمراء ورجال الدولة وكبار المسؤولين.

ونذكر من المؤرخين البخاريين البارزين المؤرخ سعيد محمد ناصر، الذي كان موضع سخط أبيه الأمير مظفر (١٨٦٠ ـ ١٨٨٥م)، والذي ترك من بعده عدداً من المؤلفات القيمة التي تشتمل على السير والتاريخ: مثل «تحفة الزائرين»، «كنوز الاتقياء»، «آثار السلاطين» وغيرها من المؤلفات. ومن أهم مؤلفاته نشير الى كتابه«تحقيق في قنطرة بخارى وسلاطينها وامرائها» حيث يجري الحديث عن

قنطرة بخارى منذ بنائها، وعن قصورها ومساجدها وأحيائها ومعالمها الأخرى، إضافة إلى معلومات عن أسوار مدينة بخارى.

وهنا، تجدر الإشارة إلى المؤلَّف القيم الذي لم يحظ بدراسة كافية، ألا وهو كتاب الملا عباد الله والملا محمد شريف وعنوانه «تاريخ الأمير حيدر»، الذي يحتوي على عرض مفصل لتاريخ خانية بخارى في الربع الاول من القرن ١٩م. وقد ترجمه الى اللغة الروسية أ. أ. سيمينوف (١٨٧٣ـ١٩٥٨) الا أنه لم يصدر لاسباب مجهولة.

وفي ق ـ ١٩م أُلِّف في بخارى عدد من كتب الرحلات عن البلدان المجاورة، مثل إيران وأفغانستان، والجزيرة العربية، نذكر منها: «غرائب الاخبار في عجائب الأسفار» لقاري رحمت الله البخاري، و«تحف أهل بخارى» لميرزا سراج الدين، و«سفرنامائي قاضي هادي خواجه آز بخاري با ايران»، وتحتوي على معلومات طريفة، عن الحياة والأوضاع الاجتماعية السياسية في البلدان المذكورة، وعن شعوبها ومعالم مدنها.

كذلك كان علم التاريخ متطوراً في خوارزم، إذ واصل المؤرخون السيْر على التقاليد القديمة، التي بدأها ابو الغازي خان (١٦٠٣ ـ ١٦٦٤م)، ووضعوا تاريخ بلادهم مدوناً سنوياً. وهنا، نشير إلى كتب شير محمد «مونس» (١٧٧٨ ـ ١٨٢٩م) وابن أخيه محمد رضا «آغاهي» (١٨٠٩ ـ ١٨٧٤م) التي كانت تحتل مكانة بارزة بين سائر المؤلفات.

باشر مونس بكتابة تاريخ خوارزم منذ العصور الغابرة وحتى تتويج خليفة الله قلي خان (١٨٢٥ ـ ١٨٤٢م). الا أنّ وفاته المفجعة حالت دون إتمامه للكتاب، ولم يتمكن من التأريخ إلا بدءاً من السنة السابعة (١٨١٢م) من حكم محمد رحيم خان الاول، وقام بإتمامه آغاهي (١٨٤٠م) والكتاب معروف بعنوان «فردوس الإقبال».

كان آغاهي من اكثر مؤرخي خوارزم إنتاجاً: إذ كتب خمسة مؤلفات في التاريخ: «رياض الدولة»،«زبدة التواريخ»، «جامع المقامات السلطانية» «جنينة

الدولة» و«شاهد الإقبال». تناول فيها تاريخ خوارزم (١٨٢٥ـ ١٨٦٥م).

أما تاريخ خوارزم لما بعد تلك الفترة، فجاء في الكتب التالية:

«جنينة السعادة» لملاّ حسن مراد قاري، المشهور في الوسط الأدبي باسم «كامكار العشاق»، (تاريخ التأليف عام ١٨٨٦م)، ويجري فيه عرض للاحداث الاجتماعية السياسية في خوارزم، إبان حكم اصفان ديارخان (١٩١٠ـ ١٩١٨م).

«شجرة نسب ملوك خوارزم» للمؤرخ الكبير باباجان بيك «بياني» (المتوفى عام ١٩٢٣م)، وهو عبارة عن كتاب في التاريخ العام اعتباراً من عهد آدم وحتى عام ١٩١٤م، ركز المؤلف فيه اهتمامه الرئيسي على شجرة نسب الملوك الخوارزميين.

وكتب سيد حكيم جان تورا «كيّاب»، شاعر ومؤرخ بلاط محمد رحيم خان الثاني (١٨٦٥ـ ١٩١٠م)، كتاباً تناول فيه سير خانات خيوة في ق ـ ١٩م، بعنوان «تواريخ خواني» (تاريخ الملوك، أي ملوك خوارزم).

وثمة كتاب آخر صغير الحجم، تجدر الاشارة اليه، وضعه جمعة نيازحاجي الخوارزمي (المولود عام ١٨٧٨م) بعنوان «رسالة»، وهو ذو أهمية خاصة لدراسة تاريخ خانية خيوة أيام حكم اصفان ديار، ولاسيما فيما يتعلق بأحداث عام ١٩١٩م.

هنا ينبغي القول إنه في ق.١٩م وبداية ق ٢٠م، وبتكليف من محمد رحيم خان الاول (١٨٠٦ـ ١٨٢٥م) والله قلي (١٨٢٥ـ ١٨٤٣م) واصفان ديارخان، ترجم إلى اللغة الاوزبكية عدد من المؤلفات الضخمة في التاريخ، من اللغة العربية والفارسية، منها: «الكامل في التاريخ» (يتألف من عشرة مجلدات) لمؤرخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر إبن الأثير. والمؤلف الضخم «روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» لميرخوند (١٤٣٣ـ ١٤٩٧م). وكتاب «شيباني نامه» لكمال الدين بنائي (١٤٥٣ـ ١٥١٢م)، وهو كتاب صغير من حيث الحجم، ولكنه ذو أهمية وقيمة علمية، ثم كتاب «بدائع الوقائع» لزين الدين واصفي (١٤٨٥ـ ١٥٥١م).

في علم تاريخ آسيا الوسطى (ق ١٨ ـ ١٩م) يحتل علم تاريخ خوقند مكانة

خاصة. ومن المؤلفات التي وضعت في المدن الخوقندية ـ انديجان، طشقند ومدينة خوقند ذاتها، نذكر ما يلي:

ـ «تاريخ شاهروخ» لملاّ نياز محمد الخوقندي (تاريخ التأليف ـ عام ١٨٧١م) ويحتوي على تاريخ فرغانة منذ عهد مؤسس خانية خوقند شاهروخ بي (١٧٠٠م) وحتى نهاية ق ١٩ م، صدر المؤلَّف عام ١٨٨٥م من قبل ن. ن. ناتوسوف. وفي عام ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م ترجمه الى الروسية على شكل ملخصات ف. ف. بارتولد وما ليتسكي. ودرس المؤلَّف دراسة عميقة مؤرخنا ت. ك. بيسيمبييف.

ـ «تاريخ مكمل فرغانة» لمحمد فضل بيك. وصنّف بتكليف من الحاكم العسكري لفرغانة أ. إ. غيبوس، ويشتمل الكتاب على تاريخ خانية خوقند منذ تأسيسها، وحتى عهد خان خوقند ما قبل الخان الأخير حيدر خان.

ـ «أنساب السلاطين وتواريخ الخواقين» ـ تاريخ فرغانة اعتباراً من ق ١٥ وحتى وقوع الخانية الخوقندية تحت الاحتلال الروسي (عام ١٨٧٦م)، والكتاب من تأليف الملا ميرزا عليم بن داملا ميرزا رحيم طشقندي.

ـ «حدائق الأنوار» ـ تاريخ فرغانة (الخانية الخوقندية) عهد عمر خان (١٨٠٩ ـ ١٨٢٢م) ومحمد علي خان (١٨٢٢ ـ ١٨٤٢م) قام بتصنيفه الملا الخوقندي ـ يونس شيغاول دادخاه.

إن فترة محمد علي خان المشار إليه آنفاً، ذات أهمية تاريخية خاصة. إذ إنها تقدم تاريخي عندليب ومطرب بعنوانين متطابقين «شاه» «نامه» (كتاب انتصارات الشاه). ومن الكتب القيمة ايضاً «جانغ نامه» (كتاب الانتصارات) للشاعر النامنغاني شوقي (صنف عام ١٨٥٣م). وتصف هذه القصيدة انتفاضة الكيبتشاكيين وقضاء حيدر خان عليها.

ومن الكتب ذات الأهمية التاريخية الكبيرة، ذلك الكتاب الذي ألفه المؤرخ الطشقندي محمد صالح بعنوان «تاريخ طشقند الجديد»، والذي يقع في مجلدين؛ وتجدر الاشارة إلى المجلد الثاني منه، حيث يجري الحديث عن تاريخ خانية خوقند

حتى عهد سعيد نصر الدين خان (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦م). ومن الأمور القيمة تطرق المؤلف إلى عملية محاصرة الروس لطشقند و مرجيلان و نامنغان و انديجان، وسمرقند واحتلالها، و الى طوبوغرافيا ومعالم طشقند وضواحيها.

يستدل بالمراجع التي وصلتنا (دواوين مختلف الشعراء والمؤلفات في السير) على أن الحياة الأدبية في آسيا الوسطى في القرن ١٩، شهدت نشاطاً عظيماً.

وفي القرن ١٩م عاش في بخارى عدد كبير من الكتاب العباقرة الموهوبين، وحسبنا أن نذكر منهم الشعراء والادباء: حشمت، مجرم عابد، شوقي كاتاكورغاني، مير شمس الدين البخاري، أفضل مخدوم بيرماستي وميرزا محمد شريف «صدر ضياء»

لقد سُجن مير صديق «حشمت» ـ ابن الأمير مظفّر (١٨٦٠ ـ ١٨٨٥م) الذي غضب عليه أبوه، ولم يطلق سراحه الا بعد انقلاب عام ١٩٢٠م، وسرعان ما توفي في الغربة. ترك حكمت ديوان شعر ـ احدى قصائده محفوظة في معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية ـ واشتهر كشاعر واديب ناقد، وله تذكرة بعنوان «نامي خسروان» (التذكرة معروفة أيضاً بعنوان آخر: «تذكرة سعيد مير صديق تورا حشمت»)، تحتوي على تراجم ونماذج ابداع حكام آسيا الوسطى وايران اعتباراً من ١٤٩٥م وحتى تاريخ تصنيف المؤلّف (فرغ منه عام ١٩١٤م).

ومن أدباء بخارى البارزين في القرن ١٩، وشعرائهم، الشاعر محرم عابد (اسمه الحقيقي عابد خواجه ابن مبارك خواجه)، المولود في اواسط ق ـ ١٨م في قرية كوموشكينت الواقعة في ناحية وابكينت، درس ببخارى في مدرسة ميرعرب، عاش حوالي ثمانين سنة وتوفي في ثلاثينات ق ـ ١٩م. له غزليات، مُعَمَّيات، ورباعيات ـ وله ديوان شعر (نسخة منه محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية).

ـ شوقي كاتّاكورغان (اسمه الحقيقي محمد شريف) ترك أثراً ملحوظاً في الحياة الأدبية في بخارى القرن الماضي، ولد شوقي عام ١٧٨٥م في قرية اليجان،

ناحية كاتّاكورغان، أنهى الدراسة في مدرسة غاوكاشان ببخارى، زاول الزراعة وتعليم اطفال قريته، ونقلاً عن الناقد عبد الحميد ماجدي، ألف ديوان شعر، الا انه لم يصلنا للأسف.

الشاعر الملحمي البارز ميرزا قربان «حرامي»، المولود عام ١٨٩٦م بقرية «كتاب» في أسرة مارست حرفة دباغة الجلود وكان يحظى بمكانة وشعبية كبيرتين. درس ميرزا قربان في مدرسة «مير عرب» ببخارى، ومارس مهنة الدباغة كوالده، كما مارس الطب ونسخ الكتب، وتوفي في ستينات القرن ١٩ م. له ملاحم شعرية لاقت رواجاً كبيراً لدى الجماهير، مثل: «تشار درويش» (الدراويش الأربعة)، «وعنة وزيبا»، «طوطى نامة» (رواية الببغاء) و «مخفيلار» (زينة المجالس).

لقد خطا الشعر خطوات واسعة في خوارزم ايضاً، وكان من أبرز شعرائها في القرن ـ ١٩م الشاعران والمترجمان مونس وآغاهي ومن اشهر دواوينهما: «مؤنس العشاق» لشير محمد مؤنس (ألّفه عام ١٨٠٤ـ١٨٠٥م) و«تعويذ العشاق».

ومن ابرز شعراء خوارزم في القرن التاسع عشر نذكر: راجي، ميرزا، فيروزه وشيناسي.

ـ اسم راجي الحقيقي محمد يوسف مخدوم. كان شاعراً موهوباً، ترك ديواناً (نسخة عنه محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية) يحتوي على غزليات، مستزادات، مخمسات، وقصائد مكرسة للخان محمد رحيم الثاني، وصدر الديوان في خيوة عام ١٨٧٩م.

ـ محمد رسول ميرزا ـ باشي (المتوفى عام ١٩٢٢م): ترك ديوان شعر يحتوي على غزليات، مسدسات، رباعيات (سجلات تاريخية)، قصائد ، رباعيات ومثنوي (نسخة جيدة عن الديوان محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الاوزبكية، تتألف من ٩٥ ورقة).

ـ شيناسي (اسمه الحقيقي شيخ نظر ـ بي ابن محمد مراد) ـ شاعر خيوي، ترك ديوان شعر (نسخة عنه محفوظة في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم

الأوزبكية)، صدر في خيوة عام ١٩٠٩م.

- محمد رحيم خان الثاني، الذي انتحل اسماً ادبياً مستعاراً «فيرون»، وترك اثراً شعرياً ضخماً عبارة عن ديوان يضم أشعاراً حظيت آنذاك وما تزال تحظى حتي يومنا هذا، بشعبية كبيرة. إلا أنه أيام السلطة السوفييتية، حيث كانت تسود الافكار الماركسية، كانت ستائر النسيان قد اسدلت على اسم هذا الشاعر العظيم، الذي قدم الكثير من اجل الثقافة والتنوير.

وأخيراً ينبغي لنا الاشارة ايضاً الى ثلاثة من شعراء خوارزم البارزين، إضافة إلى ما أوردنا آنفاً، ألا وهم: خالص، كميل الخوارزمي ودعن خالص (اسمه الحقيقي محمد يعقوب خواجه بن ابراهيم خواجه عاش في النصف الثاني من ق - ١٩م). اشتهر بغزلياته وقصائده ورباعياته، وصدر له ديوان شعر إبان حياته عام ١٨٨١م.

- كميل الخوارزمي (١٨٢٥ - ١٨٩٩م)، اشتهر كشاعر بارز وكخطّاط وموسيقي ومترجم، وخدم في قصر محمد رحيم خان الثاني برتبة ميرزا - باشي، ثم رقي إلى ديوانبيغي. جال في البلاد العربية وتركستان وروسيا وزار مدن طشقند، موسكو، وبترسبورغ. ذاع صيته واكتسب شعبية واسعة، لدرجة أنه كان بالامكان مطالعة اشعاره في الكتب والدواوين كافة. وبعد وفاته ترك ديواناً ضخماً (نسخة عن الديوان محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية، وتتألف من ١٤٠ صفحة) يشتمل على مثنوي، قصائد، تواريخ ومخمسات، عارض فيها أشعار نوائي، مونس، اغاهي، فيروزه وداعي.

- داعي (اسمه الحقيقي حاجي يوسف آخوند). شاعر مخضرم عاش في النصف الثاني من القرن - ١٩ و بداية ق - ٢٠م، تلقى علومه في بخارى، وعمل مدرساً في مدرسة عرب محمد خان في خيوة. وكان ديوانه - الذي يحتوي على غزليات ومستزادات ومخمسات (يعارض فيها أشعار نوائي وفيروزه) - يلاقي رواجاً كبيراً لدى القراء.

وفي القرنين ١٨ ـ ١٩م كان الادب متطوراً في فرغانة أيضاً، إذ تعدّت شهرة مؤلفات غازي، محروم، جول هاني، عويسي، نادري، حاذق، معدن وغيرهم مدن خانية خوقند إلى خارجها أيضاً، واحتلت مكانة لائقة بها في كنوز الادب الكلاسيكي الاوزبكي. ومن الشعراء الفرغانيين في النصف الثاني من ق ١٩، نشير هنا إلى: مقيمي، فرقان، محيي، راجي المرغيناني وقاري.

ـ مقيمي (اسمه الحقيقي أمين خواجه بن ميرزا خواجه، ١٨٥٠ ـ ١٩٠٣م). شاعر ديمقراطي بارز. سار على أفضل تقاليد الأدب الكلاسيكي الأوزبكي. درس في خوقند وفي مدرسة بخارى، عمل سكرتيراً في مديرية استصلاح الأراضي (١٨٧٦م)، ثم عمل في عام ١٨٧٧م جابياً للضرائب في باروم آق ـ جار، على نهر سرداريا. أمضى معظم حياته في حجرة صغيرة في مدرسة «حضرت».

امتازت أشعار مقيمي بمعظمها بالطابع العاطفي، وفي إبداعه الشعري كان الهجاء يحتل مكانة ظاهرة. كانت اشعار مقيمي ذات رواج عظيم حتى فترة ما قبل «الثورة». ومصنفو الدواوين يدرجونها، بسرور وارتياح، في كتبهم، وينشرونها في نشراتهم الدورية. وفي عام ١٩٠٧م، أصدر ن.ب. استرواوموف ديوان مقيمي في طشقند، ولا تزال اشعار مقيمي تنال الإعجاب حتى يومنا هذا.

ـ فرقات (اسمه الحقيقي زكير جان بن محمد خال ـ محمد (١٨٥٩ ـ ١٩٠٩م) شاعر وكاتب من رجال الادب الاوزبك المرموقين. أنهى الدراسة في مدرسة خوقند. كان يجيد اللغات الفارسية والعربية والروسية، إضافة الى لغة مسقط رأسه ووطنه خوقند، عاش في مرغيلان و طشقند وخوجند؛ ومكث طويلاً (١٨٩١ ـ ١٩٠٩م) في الغربة: تركيا والبلاد العربية والهند و كشمير، وكاشغار.

اشتهر فرقات بأشعاره العاطفية، وكتب مخمسات عارض فيها نوائي، وكان هذا الشاعر في قصائده ومؤلفاته، يسلط الاضواء على أهمية العلم والثقافة.

ـ محيي (اسمه الكامل خواجه محيي الدين بن محمد رضا؛ ١٨٣٥ ـ ١٩١١م). من شعراء فرغانة المرموقين، هروي المولد، إلا أنه أمضى معظم حياته في آسيا

الوسطى. كان ديوانه الشعري يحظى برواج منقطع النظير بين القراء المعجبين بأشعاره. وصلتنا نسخة من ديوانه (لعلّها نسخة اصلية مكتوبة بخطه) صنفت في مدرسة محمد علي خان، وهي محفوظة الآن في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم.

- راجي المرغيناني (خواجه - جان)، ولد في مرغينان، شاعر مشهور عاش في النصف الثاني من ق - ١٩م وبداية ق - ٢٠م. له أشعار عاطفية، وأخرى في الهجاء والتاريخ، وديوان شعر ايضاً.

- قاري (مَلاّ مير محمد بن ملاّ مير شمس الدين خوقندي)، نال شهرة واسعة كشاعر واقعي. الا ان معظم غزلياته تتسم بطابع صوفي. له ايضا مخمسات عارض فيها جامي و حفيظ و مشرب وأميري (عمر خان) وبيدل وغيرهم، من مؤلفاته وصلنا ديوانه (نسخة أصلية) الذي جرى نسخه عام ١٩٠١م، وهو محفوظ في مكتبة معهد الاستشراق - أكاديمية العلوم الأوزبكية.

وفي بخارى وخيوة وخوقند كتبت عدة مختارات شعرية. إذ ظهرت في بخارى - مثلاً - في ق ١٩م مختارات شعرية لحاجي عبد العظيم شرعي، أفضل مخدوم بيرماستي، صدر ضياء، ومير محمد صديق.

وكما جرت العادة، كانت «تذكرة - او مختارات - حاجي عبد العظيم شرعي تعرف لدى العامة بـ «تذكرة الشعراء»»، وتحتوي على معلومات عن شعراء بخارى الناطقين باللغة الفارسية، في عهد أمير مظفر (١٨٦٠ - ١٨٦٨م)، أمثال: اكمل خواجه الطشقندي، إمام مالك صاحب شيخ نقشبندي، إيشان خواجه مفتي بخارى وغيرهم.

وفي «أفضل التذكار في ذكر الشعر والشُّعّار»، الذي كتبه أفضل مخدوم بيرماستي (المتوفى عام ١٩١٥م) في عهد الأمير عبد الأحد (١٨٨٥ - ١٩١٠م)، وردت معلومات عن شعراء ق ١٩م الناطقين بالفارسية.

صدرت هذه المختارات بطشقند عام ١٩١٨م (عدة مخطوطات لهذا المؤلَّف

محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية).

في مختارات مير محمد صديق حشمت «نامه خسروان» (رسائل الملوك) تصادفنا معلومات عن شعراء حكام آسيا الوسطى وايران اعتباراً من عام ١٤٩٥م وحتى عصر المؤلِف (نهاية ق - ١٩م).

وفي «تحقيرات الشعراء» لقاضي بخارى - ميرزا محمد شريف «صدر ضياء - جاءت معلومات عن شعراء بخارى في النصف الثاني من ق - ١٩ و الربع الأول من ق - ٢٠م.

يحتوي هذا المؤلَّف، على معلومات هامة عن الخطاطين المشهورين في آسيا الوسطى وبلدان الشرق المجاورة لها، ولا سيما الجزء الأخير حيث أوردت معلومات عن خطاطي بخارى، إبان حكم آخر أمراء سلالة المنغيت: مظفر وعبد الأحد، وسعيد عليم خان (١٩١٠ - ١٩٢٠م).

ومن مؤلِّفي السير والتراجم الخيويين، ينبغي لنا هنا الاشارة إلى أحمد طبيبي (١٨٦٨ - ١٩١٠م)، صاحب تذكرتي «الكتاب الجامع لسير ثلاثين من شعراء الشاه فيروز» و«مخمسات مجموعة شعراء الشاه فيروز». المكتوبتين - أي التذكرتين - في الفترة ما بين ١٩٠٨ و ١٩٠٩م.

في التذكرة الاولى وردت معلومات موجزة عن حياة ثلاثين من شعراء عهد محمد رحيم خان الثاني ومقتطفات من أشعارهم، ونذكر من هؤلاء: سيد نصر تورا وعقيلي وشيناسي ونيازي وخيالي وغيرهم. أما المذكرة الثانية، فعن الشعراء الذين كتبوا مخمسات ومسدسات، عارضوا فيها الشاعرين فيروز ومحمد رضا أغاهي.

ومن التذاكر المكتوبة في خانية خوقند تعتبر «مجموعة الشعراء»، التي وضعها عدد من المؤلفين: فازليسي نامنغاني وميرزا كالندار فكري ومشرف اسفراينا وعبد النبي خوجندي، ذات قيمة كبيرة، فهي تحتوي على مجموعة من المعلومات، المتعلقة بشعراء آسيا الوسطى المرموقين، وشعراء أفغانستان، وشرق تركستان، الذين ابدعوا في الربع الأول من ق - ١٩م. و«مجموعة الشعراء» هذه كانت تحظى برواج

كبير بين القرّاء. وإلى جانب النسخ المخطوطة، ثمة نسخة أخرى مطبوعة صدرت عام ١٩٠٢م.

ولدراسة الشعر في خانيتي بخارى وخوقند في الفترة ما بين ق ١٨ ـ ١٩م. يجدر بالدارس الاطلاع على مختارات قاري رحمت الله «وازع» (المتوفى عام ١٨٩٣م) «تحفة الأحباب في تذكرة الاصحاب» لمحمد شريف شوقي البخاري. وقد صدرت هذه التذكرة في طشقند عام ١٩١٤م.

في مدن خانيات بخارى وخيوة وخوقند، كانت الثقافة الاصيلة والاقليمية في حالة تطور: أنشئت المساجد والمدارس، والأضرحة، وخانات المسافرين، والسراديب، والاسواق المسقوفة، وغيرها؛ وأسطع دليل على ذلك آثار مدينة خيوة.

وللمحافظة على التقاليد العريقة، كان الحرفيون (النحاتون، والنقاشون على الخشب والجص والنساجون والنساء المطرِّزات، وصانعو الحليّ والأواني المعدنية) يطورون الفنون الجميلة. وكانت فنون المنمنمات ايضاً في حالة متقدمة. ووصلتنا المعلومات عن هذه الفنون بفضل المؤلفات المخطوطة مثل: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» لزكريا بن محمد القزويني (حوالى ١٢٠٣ ـ ١٢٨٣م)، حيث توجد صور واقعية وأخرى خيالية. وفي «فتوح الحرمين» لمحيي الدين لاري، يمكننا رؤية مخططات وخرائط مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأضرحة الأولياء، وما الى ذلك..

وكان فن الموسيقى راقياً، إذ حافظ بالدرجة الاولى في تطوره على التقليد الكلاسيكي، ووضعت رسائل وبحوث في الموسيقى النظرية والتطبيقية. ومن مؤلفات ق ـ ١٩م وصلتنا رسالتان في الموسيقى، من غير أن يعرف واضعهما: «رسالة في جواز الاستماع إلى الأنغام والموسيقى المحببة وعزف الدف» و«رسالة قيمة في الموسيقى»، كذلك تطورت فنون الرقص والمسرحيات الهزلية، ومسارح الدمى.

في المجتمع التركستاني في الفترة ما بين ق ١٩ ـ بداية ق ٢٠م، كان بالامكان ملاحظة حركات اجتماعية ثلاث: الإقطاعية الدينية، البورجوازية التجارية الصناعية المحلية، وحركة التجديد. كانت جذور الاقطاعية الدينية تعود الى القرون الوسطى،

وتعبر عن مصالح الإقطاعيين وملأكي الاراضي الكبار. أما حركة البورجوازية التجارية الصناعية المحلية، فظهرت نتيجة التناقض ما بين البورجوازيتين الروسية و المحلية. إلا أنها كانت حركة ضعيفة بسبب تبعيتها للرأسماليين الروس. أما الحركة الثالثة «التجديد»، فكانت قوية بالمقارنة مع الحركتين الآنف ذكرهما. (ظهرت هذه الحركة عام ١٩٠٥م). كانت ذات إيديولوجيا محلية بورجوازية، وأكثر جدية وديمقراطية من الحركتين الآنفتين. وكان أول ما أقدمت عليه، أنها تقدّمت ببرنامج معين واضح: إجراء اصلاحات على نظام التعليم القديم. الغاء بعض البنود في ما يتعلق بـ «نظام الإدارة في منطقة تركستان»، اتخاذ بعض التدابير لالغاء النظام الأمني المتشدد في تركستان، وإيقاف تدفق الفلاحين الروس على منطقة تركستان، والحد من حجم الضرائب والإتاوات المفروضة على السكان المحليين، وما الى ذلك... وكان يتزعّم الحركة اسماعيل غاسبيرين (١٨٥١ ـ ١٩١٤م)، ومنوّر عبد الرشيد خان قاري (١٨٧٨ـ ١٩٢٣م)، بيخودي. وكانت هاتان الحركتان تصدران الصحف والمجلات: «الترقّي»، «خورشيد»، «تجار»، «سمرقند»، «سعادة تركستان»، «اينا»، وغيرها من المنشورات التي أسهمت في نشر أفكار، تدعو إلى الحرية والاستقلال الوطني لتركستان.

الفصل الرابع عشر

أوزبكستان في عهد الحكم السوفييتي

إن إقامة السلطة السوفييتية وآثارها السياسية التشريعية، جرى عرضها، بحسب التاريخ العلمي السوفييتي التقليدي، كما يلي: أثَّر انتصار الانتفاضة المسلحة للعمال والجنود في بيتروغراد، وإقامة السلطة السوفييتية فيها، تأثيراً بالغاً على تطور الحركة الثورية في اطراف روسيا، ومن ضمنها تركستان المستعمرة. ففي ١٤ نوفمبر ١٩١٧م، انتصرت الانتفاضة البلشفية المسلحة في طشقند، وكان قد أسهم فيها إسهاماً فعالاً العمال الروس والجنود والعمال المحليون. وقد حكمت السلطة السوفييتية في تركستان اعتباراً من نهاية عام ١٩١٧ وحتى ربيع ١٩١٨م. وفي شهر أبريل ١٩١٨م، أنشئت جمهورية تركستان السوفييتية الاشتراكية، ذات الحكم الذاتي ضمن جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية.

وتحت تأثير ثورة أكتوبر، و«تدابير» السلطة السوفييتية في روسيا وتركستان، تشبعت شعوب خانية خيوة وإمارة بخارى بـ «الروح الثورية»، ما أدّى الى الإطاحة بالحكم في خيوة (في «٢» فبراير ١٩٢٠م) وبخارى («٢» سبتمبر من العام نفسه)، وذلك، طبعاً، بفضل دعم «القوى الثورية» الروسية السوفييتية، التي لعبت الدور الحاسم في ذلك.

كانت الجبهة الشرقية ـ بحسب المصادر البلشفية ـ من أشد الجبهات خطورة على روسيا السوفييتية، ومن ضمن تلك الجبهات التي فتحت قبيل صيف وخريف

١٩١٨. إذ لوحظ تصعيد ملحوظ في صفوف التركستانيين المناوئين للثورة، والساعين إلى انفصال آسيا الوسطى عن روسيا. وكانت نشاطاتهم تلقى دعماً قوياً من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، اللتين كانتا تسعيان إلى تحقيق خططهما ومصالحهما في آسيا الوسطى. فنظمت في طشقند حركة سرية «الاتحاد التركستاني لمحاربة البلشفية»، بدعمٍ قويٍ من أعضاء البعثة الدبلوماسية البريطانية ف. بيلي، ي. بليكير، وقنصل الولايات المتحدة في طشقند ر. تريدويل وغيرهم. وبحسب اجماع المصادر السوفييتية، كان من أبرز الحركات في المناطق الأوزبكية في تركستان تلك الحركة التي نعتت بـ«البسماتشية»، وهي حركة قومية بورجوازية إقطاعية، كان مقرها الاساسي في وادي فرغانة.

وبحجة المحافظة على الاستقرار، وبناءً على أمر لينين، أرسلت أول مفرزة تتألف من ٦٠٠ مقاتل، مزودة بكميات من الأسلحة والذخيرة، و٣٨ مليون روبل. وفي نهاية العام ١٩١٨م، تأسس مقر لتشكيل الوحدات القومية للجيش الأحمر في تركستان. في حين أخذت المقاومة تتصاعد ضد البلاشفة.

وفي خريف ١٩١٨م، أخذ البسماتشيون يشددون، بشكل ملموس، هجماتهم على قرى ومدن وادي فرغانة. وفي نهاية عام ١٩١٨ وبداية ١٩١٩م، ازدادت نشاطات منظمة الحرس الابيض السري المناوئة للنظام السوفييتي في طشقند. وفي ١٩ يناير ١٩١٩م، حدث تمرد مناوئ للبلاشفة، قام المشاركون فيه باختطاف ٣٤ من ناشطي زعماء البلاشفة، ومن ضمنهم ١٤ من مفوضي تركستان، وأعدموا جميعاً ، ما أدّى إلى ازدياد الوضع حدّة وتأزّماً.

وبناءً على مبادرة من زعيم البلاشفة لينين، وفي شهر اكتوبر ١٩١٩م، أرسلت الى تركستان لجنة من مفوضية الشعب واللجنة المركزية التنفيذية لعموم روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية، وضمت اللجنة عدداً من كبار البلاشفة أمثال غ. ف. بوكي، ف. إ. غولوشيكين. ف. ف. كويبشيف، م. ف. فرونزه وغيرهم، إلا أن تدهور الاوضاع ظل مستمراً.

وقبيل بداية العام ١٩٢٠م، كانت المهمة الاولى ـ بحسب المخططات العسكرية الاستراتيجية للبلاشفة ـ تكمن في تطهير منطقة ما وراء القزوين من المتدخلين الإنجليز، وقد أنجزت هذه المهمة في مطلع العام ١٩٢٠م. وفي الوقت نفسه تقريباً، أنزلت ضربة موجعة بقوى البسماتشيين الرئيسية، التي كانت في الحقيقة تمثل الحركة الوطنية التحررية في وادي فرغانة، وفي شهر مارس، تم القضاء على مجموعات الحرس الابيض على جبهة سيميريتشي. وأفسح ذلك كله في المجال لحشد وحدات عسكرية كبيرة لمساعدة القوى «الثورية» في بخارى وخوارزم. وحتى نهاية العام ١٩٢٠م، كان المجموع العام لقوات الجيش الأحمر في تركستان حوالي ١٥٠ ألف مقاتل. وقد أقيمت السلطة السوفييتية في خوارزم نتيجة الدعم المباشر الفعّال من قبل الجيش الأحمر الخوارزمي، الذي أسسه بلاشفة المركز، في شهر نوفمبر ١٩٢٠م. وبعد انقلاب سبتمبر عام ١٩٢٠م، رسّخ الجيش الأحمر اقدامه في بخارى، حيث تمركز حوالي ٢٠ ألف مقاتل من الجيش الأحمر، بلغ عددهم ـ حتى قبيل العام ١٩٢٣م ـ زهاء ٤٠٠ ألف. وتجدر الإشارة إلى أن المركز كان قد خطط مسبقاً لدور حاسم يضطلع به الجيش في إقامة السلطة السوفييتية في أوزبكستان. إذ جاء في أحد قرارات مجلس الدعاية الأممية في الشرق ما يلي: «إن اللجنة المركزية لتركستان تعتبر أن حركة (الثوريين) في بخارى يجب أن تكون مجرد مقدمة أولى، أمّا ما تبقّى ـ أي ما يعادل ٩٠٪ من الأمور ـ فيجب أن يقوم به الجيش الروسي الأحمر».

وهكذا، لم تكن المزاعم التقليدية للمؤرّخين السوفييت، القائلة ببلوغ الثورة مرحلة النضوج في منطقة تركستان في مطلع عشرينات القرن العشرين سوى مبرر للجوء إلى العنف لإقامة السلطة البلشفية في هذه المنطقة المترامية الأطراف، ذات الأهمية الاستراتيجية، سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، أو بعبارة أخرى لتصدير الثورة الشيوعية إلى آسيا الوسطى.

وهكذا، من طريق العنف، أقيمت في منطقة آسيا الوسطى جمهوريات تركستان، بخارى وخوارزم، ووزّعت كلّ قومية على الجمهوريات الثلاث هذه،

وفصّلت بينها حدود اصطناعية رسمتها الإدارة الروسية.

وكما هو معلوم كان سكان جمهورية تركستان من الأوزبك (٤١,٥٪)، الكازاخ (١٩,٣٪)، القيرغيز (١٠,٨٪)، والطاجيك (٧,٧٪) وقوميات أخرى. أما سكان جمهورية بخارى فكانوا من الأوزبك (٥٠,٧٪)، الطاجيك (٣١,١٠٪) التركمان (١٠,٣٪) ومن القوميات الاخرى. في حين كان سكان جمهورية خوارزم من الأوزبك (٦١,١٪)، التركمان (٢٣,٨٪)، القاواقالباق (٦,٤٪)، الكازاخ (٣,٥٪)، وقوميات أخرى.

لاقت عملية اقامة السلطة السوفييتية في منطقة تركستان، مقاومة مسلحة عنيفة من قبل القوى السياسية الوطنية، التي كانت تشغل المناصب الاجتماعية والروحية في حياة المجتمع التركستاني. واستمرت هذه المقاومة حتى بعد انتصار الثورة «الشعبية» في بخارى وخيوة. إذ تمركز الأمير السابق سعيد عليم خان وجنيد خان، في مناطق طاجيكستان الجبلية، وفي سهوب قاره قوم، وراحا يبذلان قصارى جهودهما لاستعادة ممتلكاتهما المسلوبة، وفرض سيادتهما عليها مجدداً، وبالتالي تألفت من القوى، التي أبدت مقاومة عنيفة ضد النظام السوفييتي، الحركة الآنفة الذكر، التي عرفت في تاريخ أوزبكستان بحركة «البسماتشيين».

وكانت هذه الحركة ذات تنظيم جيد، ونفوذ كبير، لدرجة أن السلطة السوفييتية لم تتمكن من القضاء على قوّاتها الاساسية إلا في نهاية العام ١٩٢٣م.

كانت التغييرات الجذرية، سياسياً واقتصادياً وروحياً وثقافياً، التي أسفرت عن الثورات «الشعبية» في جمهوريتي خوارزم وبخارى، موجّهة لإعداد الظروف الاجتماعية والسياسية المناسبة في هاتين الجمهوريتين للانتقال إلى نظام اشتراكيّ. وكانت النشاطات السياسية كافة ترمي الى الإسراع في إعلان خوارزم وبخارى «جمهوريتين سوفييتيتين». وقد أنجزت هذه المهمة في خوارزم في شهر اكتوبر ١٩٢٣م، حينما أعلن مؤتمر سوفيتات عموم خوارزم قيام جمهورية خوارزم الشعبية الاشتراكية السوفييتية. وفي شهر سبتمبر ١٩٢٤م، اتخذ مثل هذا القرار في بخارى حيث أعلن مؤتمر سوفيتات عموم بخارى قيام جمهورية بخارى

الشعبية الاشتراكية السوفييتية.

لم يكن التقسيم الاداري القومي لتركستان يتماشى والميزات القومية للمنطقة، ولا يتفق ومهمّات تطوّرها السياسي الاقتصادي ضمن الدولة السوفييتية.

فأدى ذلك الى تنشيط عملية احياء مسألة تقسيم آسيا الوسطى إلى عدة جمهوريات قومية، تلك المسألة التي ظهرت للمرة الاولى عام ١٩٢٠. وخلال السنوات الأربع (١٩٢٠ - ١٩٢٤)، كانت قد اتخذت بشأن هذه المسألة عدة قرارات من قبل الأجهزة الحزبية الحكومية، إلا أنها كانت في غاية التناقض والتضارب.

وفي عام ١٩٢٤، ولرسم حدود آسيا الوسطى، أسِّست لجنة مركزية اقليمية، شارك فيها ثلاثة ممثلين عن كل جمهورية من الجمهوريات الخمس التي شكلت حديثاً.

وكانت هذه اللجنة ،تضم لجاناً (او مكاتب) مؤقتة أوزبكية، تركمانية، قيرغيزية، كازاخية لرسم حدود جمهوريات آسيا الوسطى. كما اسِّست لجنتان فرعيتان - طاجيكية وقارة قالباقية. وحتى مطلع شهر سبتمبر ١٩٢٤ كانت اللجنة الاقليمية المكلفة باعداد مشروع مخطط تمهيدي لتحديد أراضي الجمهوريات، والمحافظات الجديدة، ورسم حدودها، قد فرغت من أعمالها. وفي ٢٧ اكتوبر ١٩٢٤، وافقت الدورة الثانية للجنة المركزية التنفيذية للاتحاد السوفييتي على توصية اللجنة المركزية التنفيذية التركستانية، ومؤتمري سوفيتات عموم خوارزم وبخارى، المتعلقة بالتقسيم القومي لجمهوريات آسيا الوسطى الجديدة ومحافظاتها. وبموجب ذلك، تأسست، بدلاً من جمهوريات تركستان وبخارى وخوارزم، جمهوريتا تركمانيا وأوزبكستان، وقد ضمت إليهما جمهورية طاجيكستان ذات الحكم الذاتي، التي اصبحت في عام ١٩٢٩ جمهورية اتحادية سوفييتية. أما منطقة قاراقالباقستان، ذات الحكم الذاتي، فقد أدرِجت ضمن جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية. وفي عام ١٩٢٥، عقد المؤتمر الثالث لسوفيتات الاتحاد السوفييتي، واتُّخذ قرار بضم جمهورية اوزبكستان إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي.

وهكذا تكونت جمهورية اوزبكستان، التي تألّف سكانها ـ بحسب إحصائيات عام ١٩٢٦ ـ من ٥٢٦٧٦٢٨ نسمة ينتمون إلى ٩٠ قومية وإتنية، ومن ضمنهم ٣٤٧٥٣٤٠ أوزبكي، ٩٦٧٧٢٨ طاجيكي، ٢٤٦٥٢١ روسي، ١٠٦٩٨٠ كازاخي، ٩٠٧٤٣ قيرغيزي، ٣٤٩٤١ أويغوري، ٢٨٤٠١ تتري، ٢٥٩٥٤ قاراقالباقي، وقوميات أخرى.

وكان رسم الحدود الدولية للقوميات، وتأسيس الجمهوريات القومية «ذات السيادة»، ودخولها ضمن الاتحاد السوفييتي، تُقدَّم من قبل السوفيات للرأي العام العالمي كعملية هدفها تحقيق المساواة بين القوميات والشعوب، وتهيئة الظروف «للشعوب التي عانت من اضطهاد الحكم القيصري» لتحقيق تقدم سريع اقتصادياً وثقافياً». وقيِّمت هذه العملية كأفضل حلٍّ، أوجده الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية للمشكلات القومية في المنطقة.

لكن التطورات اللاحقة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية، أثبتت أنّ اللجنة أخفقت في إيجاد حلّ شاملٍ للقضايا الحدوديّة، حيث أشير الى «ضرورة إجراء رسم جديد دقيق للحدود بعد التشكيل الحكومي للجمهوريات المؤلفة». وبقيت مشكلة الحدود بين بعض جمهوريات آسيا المركزية، من أهم المشاكل وأخطرها خلال ٦٥ سنة من العهد السوفييتي.

لم تكن الأمور كلها على هذا النحو من السهولة، كما كانت الدعاية الرسمية تروّج لها. ولم يكن من السهل إقرار الحقوق الشرعية لـ «الشعوب التي عانت من اضطهاد الحكم القيصري». وكانت الشعارات التي أعلنتها السلطة السوفييتية وحزب البلاشفة في السنوات الاولى لقيام هذه السلطة، الانسانية والديمقراطية والأفكار الأممية، قد بقيت مجرد حبر على ورق، إذ كانت اقوال البلاشفة تختلف عن اعمالهم.

ففي عام ١٩١٧، وكما هو معلوم، أعلن «بيان حقوق شعوب روسيا»، الذي نصّ على مساواة الشعوب وسيادتها، وحقّها في تقرير مصيرها، وتأسيس كل

شعب لدولته المستقلة، وقدرته حتى على الانفصال عن الاتحاد السوفييتي، وإلغاء انواع الامتيازات القومية والدينية كافة، ومنح حرية التطور للأقليات القومية.

إلا أنّ تجربة أوزبكستان، وسائر الجمهوريات القومية الأخرى السوفييتية، اثبتت مدى غياب المنطق في سياسة البلاشفة المتناقضة. والآن تبدو لنا الكلمات التي وردت في نداء مجلس مفوضي الشعب «إلى جميع المسلمين الكادحين في روسيا والشرق» والذي نشر في ٢٢ نوفمبر ١٩١٧، مهزلة لاذعة من مهازل التاريخ، حيث ورد فيه: «... إنّ معتقداتكم وتقاليدكم، ومؤسساتكم القومية والثقافية كافة تعتبر حرة، ولا يحِقّ المساس بها. نظّموا حياتكم القومية بحرية بدون عراقيل». أو: «عليكم بناء حياتكم بأنفسكم، كما يليق بكم ويحلو لكم. هذا حقكم، لأنّ مصائركم في ايديكم». تجدر الاشارة الى ان هذا النداء، كان يحمل توقيعي لينين، وستالين الذي اصبح فيما بعد «والد الشعوب».

اما في الحقيقة فقد كانت السلطة بيد نخبة من البلاشفة، لا تنتمي أصلاً الى السكان المحليين الأصليين. وكان معظمهم من أعضاء الحزب الشيوعي الروسي. وبصدد هذا، قال: أ. غولوفانوف كلمة حق: «انتقلت دفة الادارة في تركستان الى أناس بعيدين كل البعد عن السكان المحليّين واحتياجاتهم. وبدافع جهلهم لخصائص المنطقة، وأهمية القضية القومية، راحوا ينتهجون سياسة، تتنافى مبادئها وتتناقض، مع نمط حياة سكان آسيا الوسطى، وتقاليدهم العريقة، التي تمتد جذورها إلى القرون الغابرة».

امتازت الحكومة التركستانية الأولى التي شُكِّلت بأنها لم تكن تضمّ أيّ شخص من ممثلي السكان الاصليين. وكانت الإدارات المحلية بإشراف عسكريين، ومنظمات عمالية تتألف غالبيتها من غير السكان المحليين. وبصدد ذلك ذكر بافليوتشينكو، أحد كبار مسؤولي مجلس مفوضي الشعب التركستاني: «إننا نعتبر أنفسنا من الفصائل الطليعية للثورة، ومن مناضليها الواعين المخلصين. وبالتالي فإننا نرى أنه من واجبنا ان نكون قادة للمسلمين، الذين ينقصهم النضج السياسي». وذكر«زعيم» بلشفي آخر بشكل أكثر انكشافاً: «ايها الرفاق المسلمون، عليكم أن تعلموا بأننا بمثابة

الأخوة الكبار. نحن الأكبر، ومن المفهوم انه عليكم الإذعان لنا».

وهكذا يستنتج مما ذُكر ان التأكيدات والدعايات الرسمية كافة، والقائلة بانتهاء عصر الاستعمار الروسي في تركستان بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، لم تكن سوى تصريحات جوفاء. ولم تغير «الثورة» شيئاً في الطابع الاستعماري لادارة المنطقة وتطورها، وظلت مُسخَّرة لاحتياجات روسيا ومصدر خاماتٍ لها.

وعلاوة على ذلك، وبحجة تقديم «المساعدة الأخوية» لادارة المنطقة، أرسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي الى تركستان، ٨٨٩ خبيراً حزبياً سوفييتياً، تسلموا جميع المناصب المهمة في الجهاز الحكومي الحزبي، في منطقة تركستان. وحتى بعد مرور أكثر من ١٠ سنوات على «ثورَة» أكتوبر، وفي أواخر عشرينات القرن العشرين، كانت أجهزة الادارة السوفييتية في اوزبكستان، تتألف من أكثر من ٦٠٪ من الروس، وحوالي ٢٥٪ فقط من السكان المحليين.

أثار هذا الوضع استياءً شديداً لدى السكان الأصليين، ما ادى الى ظهور احزاب سياسية مناوئة لسلطة البلاشفة في السنوات الاولى للسلطة السوفييتية. وكان من ضمن هذه الأحزاب«الحزب الاشتراكي ـ ايرك (أي الحرية)». وكان هدفه تحرير تركستان من الاستعمار البلشفي الجديد ومنح شعوب المنطقة حرية تقرير مصائرها. وكان الحزب قد وضع نصب عينيه ـ في ميدان السياسة الوطنية ـ اقامة المساواة بين قوميات وشعوب المنطقة كافة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية السياسية، وتأمين حقوق الاقليات القومية وحرياتهم.

ولكن، كان ثمة حزب معارض آخر مشهور، يحظى بشعبية كبيرة لدى جماهير تركستان، ألا وهو حزب «التجديد». وكان برنامجه اكثر شمولية ودقة من برنامج حزب «ايرك» الآنف ذكره. فأولى اهتمامه القضايا السياسية، وفي طليعتها استقلال تركستان؛ كما ظهرت أحزاب اخرى ذات أهداف مماثلة.

وفي بداية عام ١٩٢١، اجتمع ممثلو الحركات السياسية المعارضة، في مدينة بخارى، بهدف إيجاد قاعدة مشتركة للنضال الفعلي، واسفر الاجتماع عن ايجاد قاعدة عامة مشتركة للجميع. وفي شهر اغسطس ١٩٢١، عقد في بخارى مؤتمر الوحدة الوطنية، حيث اعلن تأسيس اتحاد الجمعيات الوطنية الاسلامية لـ(جمهوريات) آسيا الوسطى. الذي أبدل اسمه باسم آخر: «الاتحاد الوطني التركستاني». ونتيجة الملاحقة والاضطهاد فيما بعد، اضطرت غالبية اعضاء هذه المنظمة لمغادرة البلاد والهجرة. أما الجزء المتبقي، فاتّحد في منظمة «ميلي اتحاد» (لجنة الاتحاد الوطني)، التي أسست في طشقند في شهر سبتمبر ١٩٢٠، والتي تم القضاء عليها عام ١٩٢٢ على أيدي لجنة الطوارئ.

ولا بد لنا من وقفة على نشاطات ما يسمى بـ «الشيوعيين الوطنيين»، الذين شغلوا بعض المناصب في الاجهزة الحزبية والسوفييتية، وتعاونوا مع البلاشفة الروس، على أمل أن يتمكنوا من استخدام افكار «ثورة» اكتوبر والحزب البلشفي لصالح شعبهم. كان فيض الله خوجايف من ابرز هؤلاء الزعماء المنتمين إلى «الشيوعيين الوطنيين»، والذي القى كلمة في شهر يناير ١٩٢٤ بمناسبة وفاة ف. إ. لينين، في الموكب الجنائزي الذي ضم حوالي ٥٠ ألفاً، وجاء في كلمته: «ان بخارى الكادحة لن تنسى ابداً وصايا فلاديمير ايليتش. وستبذل قصارى جهودها لانجاز هذه الوصايا. إن بخارى تؤمن بانتصار افكار لينين. وثمة زعيم تركستاني بارز آخر يدعى تورار ريسكولوف، كان قد كتب في مقالته المكرّسة لوفاة «الزعيم العظيم» ف. إ. لينين ما يلي: إن وفاة زعيمنا العظيم العزيز يفرض علينا نحن أنصاره في الشرق، ان نرص صفوفنا اكثر فاكثر حول الحزب الشيوعي، والسير بثبات على النهج الذي رسمه لنا فلاديمير ايليتش حول مسائل الفلاحين والاستعمار القومي، وذلك لتقديم مزيد من الدعم، ولتعزيز اتحاد البلوريتاريين مع الفلاحين والثوريين في الشرق.

لكن السياسة العملية للكريملين في آسيا الوسطى، سرعان ما ارغمت الشيوعيين الوطنيين على التفكير جيداً بمصير شعوب المنطقة. وفي بادئ الأمر

اعربوا عن رفضهم للنقل الاوتوماتيكي لتجربة البناء السوفييتي في مناطق اواسط روسيا، إلى آسيا الوسطى. إلا أنهم لم يرفضوا كلياً أفكار السلطة السوفييتية، وطالبوا بتطبيقها، بشكل يتماشى والظروف الاجتماعية والقومية والثقافية والاقتصادية للمنطقة. وهنا تجدر الاشارة الى الرسالة التي بعث بها، خوجايف الى لينين في يونيو ١٩٢١م، والتي تضمنت اقتراحاً بتطبيق افكار السلطة السوفييتية، مع مراعاة الظروف الخاصة في بخارى. إلاّ أنّ هذا الاقتراح والاقتراحات الأخرى المقدّمة من الشيوعيين الوطنيين، لم تلق اهتمام القيادة العليا للدولة السوفييتية. لكن الشيوعيين الوطنيين لم يتخلّوا عن النهج الذي اختاروه، إذ اعرب احد زعمائهم البارزين ـ اكمل اكراموف ـ في كلمة ألقاها عام ١٩٢٣ في اجتماع الموظفين المسؤولين عن الجمهوريات والمحافظات القومية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، بصراحة، أنه لم تجْرِ اي تغييرات في عهد السلطة السوفييتية في تركستان، بالمقارنة مع العهد الاستعماري، سوى تغيير اللائحة واللافتات، وبقيت تركستان على ما كانت عليه، إبان حكم القيصر الروسي.

إن مثل هذه الاعلانات كانت تلقى أصداء عدائية من اللجنة المركزية الشيوعية الروسية، ومن قادة الدولة السوفييتية، وبالتالي شنت حملة من الاضطهادات ضد هؤلاء الشيوعيين الوطنيين، واتهموا بالعنصرية القومية، والتطرف الاسلامي، والتعصّب التركي، والتخريب وهلم جراً. فاضطر جزء من الشيوعيين الوطنيين ـ ومن ضمنهم شخصيات بارزة امثال: بولات خوجايف، عريفوف، علي رضا وغيرهم ـ إلى الانضمام إلى «البسماتشيين» وخاضوا النضال المسلح ضد البلاشفة من اجل استقلال تركستان.

وفي ثلاثينات ق ٢٠م، اضطهد جميع الذين كانوا على علاقة بالمنظمات التحررية الوطنية السرية مثل: «ميلي استقلال»، «ميلي اتحاد»، و«اتحاد اسلامي» وأعدم حوالي ٧٠٠٠ شخص معظمهم من المثقفين، وسجن اكثر من ٤١٠٠٠ مواطن في السجون ومخيمات الاعتقال. واستمرت عمليات الاضطهاد اعتباراً من الثلاثينات وحتى خمسينات القرن العشرين، بأفظع أشكالها، وذلك للحيلولة دون

تحقيق الشعوب الأوزبكية لأمانيها، ونيلها لحقوقها القانونية المشروعة.

وكان أهم احداث العشرينات في الميدان الروحي الثقافي للشعب الاوزبكي، يكمن في إبدال الحروف العربية في الكتابة بالحروف اللاتينية عام ١٩٢٩م. لقد ادى الغاء الحروف العربية ـ التي استخدمت في تركستان منذ القرن الثامن في كتابة المؤلفات الأدبية والتاريخية ـ الى إحداث شروخٍ عميقة في التطور الثقافي. فمن ناحية ادت هذه العملية إلى حرمان شعوب هذه المنطقة، ولا سيما الجيل الناشىء، من الاطلاع على التراث العلمي الثقافي الغني، الذي يعد حصيلة ما أنجزه الأجداد خلال العديد من القرون. ومن ناحية اخرى، وكما اثبت التطور اللاحق للسياسة اللينينية الماركسية في ميدان اللغة، مهَّدت السلطة البلشفية للانتقال إلى الكتابة الاوزبكية بالحروف الروسية «الكيريلية»، واتّخذ القرار بهذا الشأن عام ١٩٤٠م. ومن وجهة النظر هذه، ومن خلال استخدام الحروف اللاتينية في الكتابة الأوزبكية، يمكننا اعتبار ذلك خطوة لتحويل الكتابة الأوزبكية إلى الروسية.

وعلى كل حال، فإن هذه العملية أدت الى فقدان جزء من التقاليد القومية، وحدَّت من امكانية التفاعل الثقافي مع المناطق الاسلامية في العالم، تلك الإمكانية التي كانت محدودة اصلاً من جراء الاوضاع السياسية الخارجية، التي لاتزال قائمة حتى فترة تاريخية قريبة.

تكمن احدى الإمات التي امتازت بها السياسة البلشفية الداخلية من العشرينات الى بداية الثلاثينات من ق ٢٠م، في الدعاية الإلحادية الهادفة في اوزبكستان وسائر مناطق آسيا الوسطى. وهي موجهة بالدرجة الاولى ضد الدين الاسلامي الذي كان سائداً في هذه المناطق، والذي يتجلى نفوذه بجلاء ووضوح في الارقام التالية: في بداية ق ـ ٢٠ كان عدد الجوامع والمدارس الدينية ـ في بخارى وحدها ـ ٢٠٠ مسجد، ١١٠ مدارس دينية يدرس فيها عشرة آلاف طالب، ويُدرِّس فيها اكثر من ٣ آلاف مدرس من مختلف المستويات (بمعدل مدرس واحد لكل ١٠ من السكان البالغين). وفي خوقند حتى عام ١٩١٧ كان يوجد٣٨٢ مسجداً، ٤٢ مدرسة دينية وحوالي ٦ آلاف يعملون في خدمة الدين الاسلامي.

وقامت السلطة السوفييتية منذ أيامها الاولى، بشنّ حرب شعواء ضد الاسلام. وخلال الفترة من عام ١٩١٨ وحتى ١٩٣٣، تم إغلاق حوالى ٣٦٠٠ مسجد في الاتحاد السوفييتي، إضافة إلى حل جمعيات اسلامية. وكانت معظم المساجد والجمعيات هذه، موجودة في آسيا الوسطى. إنّ الإغلاق الجماعي للمساجد والمدارس الدينية، وعدم رغبة السلطات السوفييتية بالترخيص للاتحادات الدينية في اوزبكستان، كل هذه الأمور كانت توحي بنشر الإلحاد في البلاد. ولكن في الحقيقة، نتج عن مثل هذه السياسة، ظهور منظمات سرية مكرسة لخدمة الدين والتعبّد، تعرف اليوم بالاسلام «غير الرسمي» ـ علاوة على المساجد ـ الاتحادات الدينية، والادارات الاسلامية المسجلة رسمياً.

في ثلاثينات ق ٢٠م وجهت ضربة قوية الى المثقفين الاوزبك، إذ اعدم رمياً بالرصاص آلاف العلماء والشعراء ووجوه المجتمع، من بينهم: عبد الله قادري، تشولبان، فرقات، البيك، باتو وكثيرون غيرهم. وقد فقد الكثيرون منهم دون أن يعثر لهم على أي اثر في سجون ستالين، ومنافي سيبيريا والشرق الاقصى. وقضي على نخبة المثقفين وخيرتهم، ممن كانوا يناضلون من اجل حقوق شعبهم بمختلف الأساليب والسبل.

ما من شكّ ان القيادة العليا في موسكو، أدركت ضرورة تطوير اقتصاد جمهوريات آسيا الوسطى، ومن ضمنها اوزبكستان، وقد أولت، بالدرجة الاولى، الاهتمام تطوير أوزبكستان في الميادين المتعلقة بالزراعة، صناعة الآلات الزراعية، حلج القطن، صناعة الزيوت والألبان، وصناعة الحرير والمعلبات والخمور. خلال الفترة من عام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٨م وظّف في الاقتصاد الوطني الاوزبكي ٧٩ مليون روبل. وفي شهر نوفمبر ١٩٢٥م، اصدر المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي (البلشفي) الاوزبكي قراراً حول الاصلاحات المتعلقة بالأراضي والمياه، يهدف الى الاستيلاء على الاراضي الزائدة الموجودة بحوزة السكان الميسورين، وذلك بذريعة القضاء على مخلفات الاقطاع. وادت الاصلاحات التي جرت (عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٩م)، الى حدوث تغيُّرات ملموسة في البنى الاجتماعية للقرى، إذ بوشر على

نطاق واسع بإنشاء الكولخوزات والسوفخوزات.

وإذا كان في اوزبكستان «٦٢» كولخوزا و «١٥» سوفخوزاً عام ١٩٢٤، فقد ارتفع عدد الكولخوزات في عام ١٩٢٨ الى ٦٧٨ كولخوزاً. وهكذا يمكننا القول إنّ فترة نهاية العشرينات، وبداية الثلاثينات في اوزبكستان، كانت فترة «كلخزة»، بصورة رئيسية، طبقت بالقوة والعنف.

كانت الخطة الخمسية الثانية، لتطوير الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي، في الفترة (١٩٣٣ ـ ١٩٣٧)، تعتبر مهمتها السياسية الأساسية، هي القضاء التام على العناصر الرأسمالية، لأنها ـ بحسب زعم البلاشفة ـ «تولد استغلال الانسان للانسان». في هذه المرحلة كان من المقرر تشغيل عدد من المشاريع الصناعية الضخمة، ومن ضمنها مجمع تشيرتشيك لصناعة الآزوت، محطة كوواميسك الكهرومائية، وبالدرجة الاولى مجمع طشقند للنسيج، ومصانع نسيج الحرير في بخارى وسمرقند والمدن الاوزبكية الأخرى. وخلال الخطة الخمسية الثانية كانت عملية «الكلخزة» قد أُنجزت تماماً. وفي عام ١٩٣٧ كانت قد ضمت إلى الكولخوزات نسبة ٩٥٪ من اراضي الفلاحين و ٩٩,٤٪ من الحقول الزراعية.

كان الدخل الوطني خلال ٥ سنوات قد تضاعف أكثر من مرتين، وبلغ في عام ١٩٣٧ ملياراً و٤٥٧ مليون روبل، ما اتاح تطبيق مشاريع زيادة بناء المساكن. مثلاً، في عام ١٩٣٧ـ١٩٣٨م، وُظِّف لبناء المساكن حوالي ٣٠ مليون روبل.

في عام ١٩٣٧، تمت المصادقة على اول دستور لجمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية، وكان نصه مطابقاً تماماً لنص الدستور السوفييتي لعموم الاتحاد السوفييتي، وجاء ذلك تأكيداً قانونياً لـ «انتصار» الاشتراكية في اوزبكستان، التي أعلِنت دولة اشتراكية للكادحين والفلاحين، تتألف قاعدتها السياسية من سوفيتات (مجالس) نواب الكادحين، وقاعدتها الاقتصادية نظام اشتراكي وملكية اشتراكية لآلات الانتاج ووسائله، وسلطتها العليا الاسمية المجلس الاعلى لجمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية الاتحادية، في حين بقيت

السلطة الفعلية في قبضة الحزب الشيوعي.

أما الخطة الخمسية الثالثة (١٩٣٨ ـ ١٩٤٢)، فقد نصت على تطوير كبير ملحوظ للصناعات الثقيلة: تقرر بناء مصنع تشيرتشيك لإنتاج الآزوت، مصانع تكرير النفط في محافظات فرغانة، أنديجان، وسورخانداريا، ومجمع صهر النحاس في الماليق، وغيرها من المشاريع. وفي خلال السنوات الثلاث الأولى من الخطة الخمسية تم تعبيد ١٥٠٠كلم من طرق السيارات.

ورغم ذلك، كانت الخطة قد ركّزت اهتمامها على توسيع نطاق زراعة القطن، التي كانت مشاريع بناء شبكات الري تلعب فيها دوراً مهماً. كانت الدولة تولي عناية كبيرة زيادة حجم إنتاج القطن، باعتبار أنّ اوزبكستان، كانت قد حُوِّلت منذ أمد بعيد، إلى مصدر رئيسي لتزويد مصانع النسيج الروسية بخامات القطن، ولا بد لها من مواصلة أدائها لهذه المهمة. وسعياً لإنجاز ذلك، انشئت قناة فرغانة العظيمة، التي شارك في انجازها حوالي ١٦٠ الف عامل عملوا بصورة يدوية، واستغرقت العملية ٤٥ يوماً، وشقت قناة اصطناعية، طولها ٢٧٠كلم وعرضها ٢٥ ـ ٣٠ م وعمقها ٤ ـ ٥ م.

ونتيجة لاستصلاح مزيد من المساحات الجديدة المزروعة بالقطن، ازداد حجم الانتاج. وقد أدى الاهتمام البالغ بذلك الى تحويل معظم الأراضي إلى مزارع للقطن. وفي الفترة من عام ١٩٣٧ إلى ١٩٤١ ازداد حجم إنتاج القطن في اوزبكستان من ١٥٢٤,٥ الف طن الى ١٦٤٥,٨ الف طن. وبالمقارنة مع عام ١٩٢٨ ازداد الانتاج الاجمالي من القطن الخام أكثر من ثلاث مرات. وكانت الدعاية الرسمية، تؤكد أنّ اوزبكستان سبقت الولايات المتحدة بانتاج القطن، واحتلت الدرجة الاولى في العالم.

وفي عام ١٩٣٩، نالت اوزبكستان أول وسام «وسام لينين»؛ وذلك لقاء ما أحرزته من نجاحات في ميدان انتاج القطن. إلاّ أن شيئاً لم يذكر، عن الآثار السلبية الناجمة عن زيادة حجم انتاج القطن.

كانت الحرب العالمية الثانية قد أحدثت تحوّلاً في تطور أوزبكستان. إذ ظهرت

ضرورة لإعادة النظر بسرعة في خطط تطوير الاقتصاد الوطني للفترة من ١٩٣٨ - ١٩٤٢. فبوشر فوراً، بتوجيه الاقتصاد الوطني نحو الانتاج الحربي، وتعبئة الطاقات العاملة، والموارد الاقتصادية، لتلبية متطلّبات الحرب.

لقد حارب على جبهات الحرب العالمية الثانية زهاء مليون مواطن اوزبكي، إذ شاركت في الحرب الوطنية العظمى وحدات عديدة شكلت في اوزبكستان ومن ضمنها ٩ الوية مشاة من الاوزبك، و٥ حاميات من الفرسان، الـ «٤٤» و «٢١»، من الفرسان الأمميين من مختلف القوميات، والـ «٣٨٩» و«١٦٢» مشاة من قوميات مختلفة، والـ ٣٦ والـ «٣٩»، من طلاب الكليات العسكرية، وغيرهم. وعلاوة على ذلك، كانت الامدادات البشرية تصل إلى الجبهة، على شكل مجموعات متفرقة.

لقد أسهمت وحدات الاحتياط العسكرية في آسيا الوسطى وسبع اكاديميات عسكرية، و٣٥ كلية عسكرية، و١٩ كلية طيران وغيرها، إسهاماً فعالاً في إعداد الاحتياطات العسكرية في اوزبكستان، للعمل في الجبهة.

نال ١٢٠ الف مقاتل اوزبكي أوسمة وميداليات، تقديراً لشجاعتهم على جبهات القتال. ومنح ٣٠٠ منهم لقب «بطل الاتحاد السوفييتي» الذي كان يعتبر أرفع الألقاب.

وكانت اوزبكستان، أثناء سنوات الحرب قد أرسلت إلى الجبهة ٢٠٩٠ طائرة، ١٧٣٤٢ محركاً للطائرات، ٢٣١٨٠٠٠ قنبلة، ملايين الالغام والقذائف والقنابل اليدوية، وغيرها من الاعتدة.

كما قدمت أوزبكستان للبلاد ٤ ملايين و ٨٠٦ آلاف طن من القطن، وأكثر من ٥٤ ألف طن من الحرير الخام، وأكثر من مليون طن من الحبوب، و٤٨٢ الف طن من البطاطس، و١٥٩ ألف طن من اللحوم، واكثر من ٢٢ الف طن من الصوف، وغيرها من المنتجات الزراعية الكثيرة.

كما أسهمت أوزبكستان في صندوق الدفاع بـ ٤٧٥ مليون ٣٨٧ الف روبل،

وأسهُمِ قروض حكومية تعادل قيمتها ٣ مليارات و٦٦٩ مليون روبل، ومجوهرات وحلي تعادل قيمتها ٢٢,٤ مليون روبل، وحوالي ٥٦ كلغ من المعادن الثمينة وغيرها.

في الايام الحرجة التي عانتها مدينة لينينغراد اثناء الحصار، أرسل الأوزبك مدّخراتهم والمواد الغذائية الموجودة لديهم، إلى المدافعين عن المدينة البطلة. فمثلاً، في ١٧ ابريل ١٩٤٢ أرسل إلى لينينغراد ٥٥ عربة قطار، تحتوي على مواد غذائية وحاجات أخر ى.

وخلال فترة وجيزة (قبيل الاول من سبتمبر ١٩٤١) افتتح في اوزبكستان ٥٦ مستشفى عسكرياً، تتّسع لـ ١٦٩٥٩ سريراً. وفي العام١٩٤٢ ارتفع عدد المستشفيات في اوزبكستان إلى ١١٣ مستشفى، تتسع لـ ٣٩١٤٠ سريراً.

في سني الحرب نقل من المناطق الغربية والمركزية للبلاد ٩٠ مصنعاً ومعملاً، وأسست على قاعدتها مصانع ضخمة، معظمها لصناعة الطائرات والمحركات والآلات. لقد أسهمت متطلبات الجبهة في تسريع تشغيل العديد من المشاريع الصناعية الضخمة، ومن ضمنها ٦ محطات كهربائية ضخمة، و١٤ مصنعاً عملاقاً، لصناعة الآليات ومعالجة المعادن، وغيرها من المؤسسات الكثيرة. وبشكل عام، ازداد عدد المصانع الأساسية في أوزبكستان خلال الفترة ما بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥، حوالي الضعفين.

وفي اثناء الحرب الوطنية العظمى استقبلت اوزبكستان حوالى ٢٠٠ ألف طفل، ممّن تشردوا وتيتّموا، وعشرات الآلاف من المهجرين ومعوّقي الحرب. وقامت اسرة شاه احمد شاه محمودوف وحدها بإيواء ١٤ طفلاً وتربيتهم، وهؤلاء ينتمون إلى قوميات مختلفة.

انّ الحقائق التي أوردناها، تظهر مدى القسط الكبير الذي ساهمت به اوزبكستان وشعبها من أجل انتصار الاتحاد السوفييتي على المانيا الفاشية، وعلى جبهات الحرب العالمية الثانية الأخرى.

وكانت الظروف صعبة في اوزبكستان، ابان الحرب، بالنسبة للتطوّر العلمي والثقافي، إذ خفضت الاعتمادات المخصصة للعلوم والثقافة. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى نقطة معينة، ألا وهي انتقال العديد من المؤسسات العلمية من موسكو، ولينينغراد و كييف ومينسك، وأوديسا الى أوزبكستان. فتأسّست في طشقند وحدها ثمانية معاهد تابعة لاكاديمية العلوم السوفييتية: معاهد علم التربة، الزلازل، تاريخ الثقافة المادية، التاريخ، القانون، الاقتصاد العالمي والسياسة، الادب العالمي، مرصد بولكوفسك. لقد اتاحت هذه المؤسسات كلها، فرصة تأسيس اكاديمية العلوم الاوزبكية، التي احتفل بافتتاحها في ٤ نوفمبر ١٩٤٣. وحريّ بالذكر، أنه في فترة الافتتاح، كانت قد تكونت في اوزبكستان قاعدة متطورة للابحاث العلمية، ضمت تسعة عشر معهداً للابحاث العلمية، وعشرات المؤسسات والمتاحف العلمية.

من البديهي، أن محور اهتمام هيئة الاكاديمية، آنذاك، كان القضايا الملحة المتعلقة باحتياجات الجبهة الحربية. كما بوشر باعمال واسعة النطاق للتنقيب عن الحديد والنفط والفحم والغاز وغيرها. وقبل ذلك، أي في عام ١٩٤١، كان قد عقد اجتماع آسيا الوسطى للتنقيب عن الذهب، إلا ان عملية التنقيب ازدادت سرعة بعد تأسيس الاكاديمية.

وصادقت الدورة الثامنة لمجلس السوفييت الاعلى الاوزبكي، التي جرت خلال الفترة من ٣٠ أغسطس ـ ٢ سبتمبر ١٩٤٦، على الخطة الخمسية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٠م) للنهوض بالاقتصاد الوطني الاوزبكي وتطويره، وقد بوشر بتحويل الاقتصاد الاوزبكي نحو الاهداف السلمية، وارتفع الحجم الاجمالي للمنتجات الصناعية خلال الفترة من ١٩٤٦ ـ ١٩٥٠ بنسبة ٧١٪، في حين وصل الثقل النوعي للصناعة في عام ١٩٥٠ الى ٧٤,٢٪. لكن عملية اعادة البناء الاقتصادي لم تكن سهلة، اذ إن الخسائر البشرية الفادحة إبّان الحرب، أحدثت نقصا كبيراً في الأيدي العاملة. ويكفي القول إن اوزبكستان خسرت في الحرب ٣٠٠ الف من الايدي العاملة؛ ولكن رغم ذلك، استمر نمو الصناعة بوتائر سريعة في فترة الخمسينات ايضاً. وإذا كان عدد الايدي العاملة في صناعة اوزبكستان يعادل

١٢٩٣٠٠، فقد ارتفع هذا العدد عام ١٩٥٨ الى ٢٧٨٠٠. إلاّ أنّ المقام الاول هنا، كانت تحتله المصانع المختصة في المعالجة الاولية للمحاصيل الزراعية. ففي العام ١٩٥٨، كانت الحصص المستحقة على اوزبكستان تساوي ٦٤,٦٪ من الحجم العام المتوجب على عموم الاتحاد السوفييتي، من الياف القطن، و٧٢٪ من المغزولات، وغيرها.

بعد الحرب، وفي ميدان التطوير الزراعي لاوزبكستان، تركز الاهتمام، بصورة رئيسة، مرة أخرى على توسيع مزارع القطن وزيادة حجم انتاجه، وادت هذه السياسة الى تحويل اوزبكستان الى شبه مزرعة للقطن. وكان من أهم المراحل الحاسمة لهذه العملية، استصلاحُ السهوب الاوزبكية القاحلة، حيث استصلح ٩٠ الف هكتار، خلال الفترة ما بين ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩م، وتحوّلت هذه المساحات الجديدة المروية اصطناعياً، والى مزارع قطن جديدة.

في العام ١٩٥٢م، انتجت اوزبكستان ٢٣٦٧٠ الف طن من القطن؛ إلا أن هذه الكمية، كانت أقل من الحجم الذي حددته الخطة الخمسية الخامسة، لتطوير الاقتصاد الوطني. وراحت تصدر تباعاً القرارات الحزبية الحكومية، المطالبة بزيادة انتاج الياف القطن ومضاعفته على حساب المحاصيل الزراعية الأخرى. حتى اصبح القطن، الموضوع الاساسي، ليس في الميدان الاقتصادي فحسب، بل في الحياة الاجتماعية والسياسية في اوزبكستان.

وفي المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الاوزبكي، المنعقد في شهر يناير ١٩٥٩م، جرى بحث مشروع قرار الخطة الخمسية السابعة، لتطوير الاقتصاد الوطني الاوزبكي (١٩٦١ ـ ١٩٦٥م). وخلال هذه الأعوام، تم توظيف ٧٦١٧ مليون روبل في الإقتصاد الوطني. امتازت هذه المرحلة، بازدياد حجم الانتاج الصناعي الذي تضاعف مرة ونصف المرة. وطرأت تغيّرات ملحوظة على صناعة الوقود. ويمكننا القول إنّ صناعة الغاز أعيدت مجدداً، وبلغ الحجم العام لانتاج الغاز والنفط ٩٠٪ من الحجم الاجمالي للانتاج الصناعي، إلا أن معظم متطلبات الاتحاد

السوفييتي كان مصدره سيبيريا والأرال.

كما أنشئت صناعة كيماوية ضخمة، أتاحت زيادة المنتجات الكيماوية السنوية بنسبة ٢٠٪. ومن ثم أصبحت ميتالورجيا المعادن غير الحديدية من الصناعات المستقبلية، وتضاعف إنتاجها اكثر من ٦ مرات. كذلك تضاعف حجم استخراج الذهب. إلا ان حجم إنتاج الذهب الاوزبكي، كان يتم بإشراف مباشر من موسكو، وفي غاية السرية، ولا يعرف حجمه الدقيق، حتى كبار مسؤولي اوزبكستان. وظل الامر على هذا النحو، حتى نهاية الثمانينات.

كان تطور الانتاج الزراعي المطّرد إلى ازدياد مردود الكولخوزات والسوفخوزات بنسبة ٧٤٪ في حين لم ترتفع أجرة العامل إلاّ بنسبة ١,٣ مرة.

كانت فترة النصف الثاني من الستينات فترة عصيبة جداً بالنسبة لأوزبكستان؛ اذ تعرضت طشقند، في ٢٦ ابريل ١٩٦٦م، إلى هزة أرضية عنيفة، ألحقت خسائر مادية فادحة بالمدينة. آنذاك اتخذ مجلس الوزراء السوفييتي قراراً خاصاً لمساعدة المدينة المنكوبة، وخصص مبلغاً إضافياً (٧٢ مليون روبل) لميزانية اوزبكستان لعام ١٩٦٦م، كما أُسِّس صندوق خاص لمساعدة طشقند جُمع فيه عام ١٩٦٦م حوالي تسعة ملايين روبل. وقدم الى طشقند ما يربو على ٣٠ الف من البنّائين جاؤوا من مختلف انحاء الاتحاد السوفييتي، وقاموا ببناء ١٥٦ مسكناً مساحتها الإجمالية٧٩٧٠١م^{2}.

ما من شك في أنّ اعادة اعمار طشقند بعد الزلزال المدمّر، كانت من أسطع صفحات اوزبكستان التاريخية، التي ظلت عالقة في ذاكرة الشعب الاوزبكي، واصبحت دليلاً فعلياً ساطعاً على مدى أهمية وفعالية التعاون والتعاضد بين شعوب الإتحاد السوفييتي سابقاً. ولكن من الآثار الاجتماعية الملحوظة التي تركتها الهزة الأرضية في عام ١٩٦٦، قدوم عدد كبير من السكان من أنحاء الاتحاد السوفييتي كافة، ليستقروا في طشقند، وليصبحوا من سُكانها الدائمين.

جرت العادة، في الفترة الأخيرة، وصف سبعينات ق ٢٠م بأنها فترة الركود الاجتماعي الاقتصادي والسياسي، في الاتحاد السوفييتي السابق. ولكن رغم ذلك وبحسب الاحصائيات السوفييتية، لم يرتفع دخل أوزبكستان خلال الخطة الخمسية التاسعة (١٩٧١ ـ ١٩٧٥) إلا بنسبة ٣٥٪ لا أكثر. وفي عام ١٩٧٥، كان حجم الدخل الوطني يعادل ٨,٧ مليارات روبل؛ وتجلت في أوزبكستان، سلبيات الاتحاد السوفييتي السابق الاجتماعية الاقتصادية كلّها.

أمّا الميزة الخاصّة (بالمقارنة مع الجمهوريات الأخرى) للتطوّر الاجتماعي الاقتصادي في السبعينات، فظلّت منحصرة في تركيز الاهتمام على زراعة القطن، وتحسين مكننة الزراعة، وبالدرجة الاولى زراعة القطن، اذ استلم القطاع الزراعي في اوزبكستان، خلال الفترة من عام ١٩٧١ ـ ١٩٧٥، ٨٦,٧ الف جرار زراعي، واكثر من ٢٠ الف حالجة قطن، وحوالي ٢٨ الف شاحنة. وازداد إنتاج القطن الخام، ليجاوز الخمسة ملايين. إلاّ أنّ ذلك، جرى على حساب الاستغلال القاسي، للموارد الطبيعية و البشرية في اوزبكستان. وازدادت الامكانيات والظروف، التي تساعد على ظهور العديد من الظواهر السلبية، اجتماعياً وبيئيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً. وأدّى الضغط المستمر للمركز، الذي ما فتئ يطالب بزيادة إنتاج القطن مهما كان الثمن، الى تحول العبارة التي كانت رائجة في أوزبكستان: «القطن ـ رمز اعتزاز أوزبكستان» إلى: «القطن ـ مصيبة اوزبكستان العامة». وكان ذلك يتطلب عمل السكان البالغين جميعاً، ويستهلك الكثير من الموارد الطبيعية والمائية. إلاّ أن الملايين المتزايدة من أطنان القطن، لم تؤدِّ الى تحسين الأوضاع المادية والمعيشية في الأرياف، ما ترك انطباعاً سيئاً في وعي الجماهير، وازدياداً في الاستياء، والسخط الخفيّ على سياسة القيادة السوفييتية العليا، إزاء اوزبكستان وشعبها.

امتاز النصف الثاني من سبعينات ق ٢٠، بحصول تقدم في ميدان الصناعة، فازداد حجم الانتاج الصناعي في عام ١٩٧٩م بنسبة ٢٠٪، بالمقارنة مع ما كان عليه في عام ١٩٧٥م. ومن الأحداث المهمة في تلك الفترة، افتتاح مترو طشقند في عام

١٩٧٧، الذي كان الاول من نوعه في آسيا الوسطى. أما أهم احداث تلك الفترة في المجال السياسي، فهو تبني الدستور الاوزبكي الجديد في عام ١٩٧٨.

كانت الثمانينات مرحلة مفعمة بالتناقضات الاجتماعية السياسية. إذ تركت وفاة ل. إ. بريجنيف، والصراعات السياسية على السلطة في الاتحاد السوفييتي، آثارها المباشرة على الحياة السياسية في أوزبكستان، وازدادت الاوضاع حدّة، بعد وفاة شرف رشيدوف (السكرتير الاول للحزب الشيوعي الاوزبكي) في شهر نوفمبر عام ١٩٨٣. وفي اواسط ثمانينات ق ٢٠م، أثيرت ضجة كبيرة عرفت بضجة قطن اوزبكستان.

وبناء على جهود المركز السابق، تضرّر عدد كبير من الناس الأبرياء من جراء هذه الضجة المصطنعة، في حين قامت موسكو بمكافأة رجال التحقيق الذين ارسلتهم إلى أوزبكستان، للتحقيق في قضية القطن... وأدى ذلك كله الى اضطراب وقلق شديدين في المجتمع، ما أثّر تأثيراً سلبياً في الحياة الاجتماعية السياسية.

أما القادة الاوزبك الذين خلفوا رشيدوف، فأظهروا أنفسهم رجالاً عديمي الارادة، لا رأي لهم فيما يجري في أوزبكستان. وقد استمر الوضع على هذا النحو، حتى بعد إعلان سياسة البيريسترويكا (إعادة البناء) لميخائيل غورباتشيف في شهر ابريل ١٩٨٥، وحتى مجيء الزعيم السياسي الجديد الأوزبكي إسلام كريموف، إلى السلطة عام ١٩٨٩م.

أوزبكستان المستقلة

استلم الزعيم السياسي الجديد زمام السلطة في أوزبكستان السوفييتية سابقاً، في فترة كانت فيها البلاد تعاني من وضع اجتماعي سياسي في غاية التعقيد، وتجتاز عمليات اختبار سياسية صعبة، نظراً لاشاعة الديمقراطية، وترسيخ مبادئ التعدّدية وتعميقها، وتعزيز سياسة إعادة القيم القومية والروحية وإحيائها، وإعادة المكانة اللائقة للإسلام في الحياة الاجتماعية الثقافية، والسعي لإحياء التقاليد القومية العريقة لنظام الدولة، التي الغيت منذ سقوط آسيا الوسطى تحت استعمار الامبراطورية الروسية واستعبادها. وتجدر الاشارة الى ان العمليات المذكورة آنفاً كانت تجري أحياناً بصعوبة بالغة، ما حمل الأوساط الداخلية والدولية على اتخاذ مواقف مختلفة بهذا الصدد. وادت محاولات المركز السابق، الذي أفلت منه زمام الحكم في أوزبكستان، ومقاومة بعض القوى السياسية الداخلية، الى ظهور أزمة سياسية تجلت في الإخلال بالوفاق القومي. إذ جرت في اوزبكستان، حيث يعيش ممثلو عشرات القوميات والشعوب بوفاق ووئام جنباً إلى جنب، ومنذ غابر القرون، اشتباكات دموية ذات طابع قومي، أثارتها بعض القوى السياسية المعارضة. نذكر من هذه الاشتباكات تلك التي جرت عام ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ في وداي فرغانة وبعض نواحي طشقند، إلاّ أنّها شكلت خطوات صعبة نحو الاستقلال السياسي، تطلبت دهاء وحكمة، وحلولاً ناجحة من الزعيم الجديد للجمهورية الاوزبكية، وتطلّبت بالدرجة الأولى شجاعة وجرأة سياسية.

وكما أثبتت تجربة التطوّر التاريخي لأوزبكستان في النصف الأول من تسعينات القرن ٢٠م، فإن الزعيم الاوزبكي إسلام كريموف يتمتع بهذه السمات والميزات كافة.

ولعل أهم المسائل الملحّة التي واجهتها اوزبكستان عام ١٩٨٩، كانت تكمن في ضرورة ايجاد السبل لتأمين الاستقرار الاجتماعي والسياسي، ولا سيما بعد تأزم العلاقات بين القوميات. وتطلّب الأمرُ العملَ في ظروف كانت في غاية التعقيد، حيث القوى السياسية المتناقضة وعملية التحريض في المجتمع، وظهور عدد من الحركات الاجتماعية السياسية ذات الاتجاهات المختلفة. وقد أدى ذلك كله الى ظهور مزيد من العراقيل والصعوبات أمام التدابير العملية الرامية إلى إحلال الاستقرار السياسي الداخلي. إلاّ أن التدابير الحكيمة الحازمة التي اتُخذت في الفترة ما بين النصف الثاني من عام ١٩٨٩ والنصف الاول من عام ١٩٩٠، اعطت ثمارها رغم كل ما ذكرناه آنفاً، ورغم العوامل الأخرى، الموضوعية منها وغير الموضوعية. واستطاعت اوزبكستان القضاء كلّياً على موجة العنف، وعادت العلاقات بين القوميات المختلفة تدريجاً الى مجاريها الطبيعية، وانخفضت نسبة المهاجرين من اوزبكستان، ومن ضمنهم ممثلو السكان الناطقين باللغة الروسية.

وعلى العموم، امتازت الحياة الاجتماعية في اوزبكستان في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات باكتسابها صبغة سياسية شملت التطورات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية. ورغم ظهور مختلف الحركات والمنظمات الاجتماعية السياسية ذات الاهداف والاتجاهات المختلفة المتناقضة، ورغم احتواء صفوفها عناصر ذوي نزعات قومية عنصرية ومتطرفة، الا ان هدفها الرئيسي كان يكمن في الاستقلال التام لاوزبكستان سياسياً واقتصادياً. فقدّمت اقتراحات بإلغاء الاقتصار على زراعة القطن في اوزبكستان دون المحاصيل الزراعية الأخرى، وإنقاذ بحر الآرال، ومكافحة تلوث البيئة في منطقة الآرال، وجعل المصادر الطبيعية، والمؤسسات الواقعة ضمن الاراضي الاوزبكية، والخاضعة لإشراف موسكو بتصرف الشعب الاوزبكي، وانفصال اوزبكستان عن الاتحاد السوفييتي، وجعل اللغة الاوزبكية اللغة الرسمية للدولة، وغيرها من الاقتراحات.

وكان يوم ٢١ اكتوبر ١٩٨٩م يوماً مشهوداً في تاريخ اوزبكستان، إذ أُعلن في ذلك اليوم قرار اصبحت بموجبه اللغة الاوزبكية اللغة الرسمية لاوزبكستان. فنضجت وتبلورت بسرعة فكرةُ الانفصال عن الاتحاد السوفييتي، وتهيأت الظروف المؤاتية لذلك، وفي ٢٤ مارس ١٩٩٠، استحدث منصب رئيس الجمهورية لاول مرة في تاريخ اوزبكستان، واختير إسلام كريموف لهذا المنصب. وراحت القيادة الاوزبكية، في نشاطاتها الفعلية، تولي مزيداً من الاهتمام لإحياء القيم القومية والروحية، ومن ضمنها القيم الاسلامية والعودة إلى هذه القيم. وهكذا، صدر في ٢ يونيو ١٩٩٠م مرسوم رئاسي، ينص على تنظيم سفر الحجاج إلى الاراضي المقدسة لاداء فريضة الحج، وفي ٢٠ يونيو من العام المذكور اعتبر «عيد الاضحى» عيداً رسمياً في البلاد. واتخذت خطوات حاسمة نحو الاستقلال السياسي:

ففي ٢٠ يوليو ١٩٩٠، أُعلن استقلال اوزبكستان السوفييتية، وبذلت جهود مكثفة لإعلان الاستقلال السياسي التام لاوزبكستان، وخروجها من الاتحاد السوفييتي. وجاء بيان مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية اوزبكستان الصادر في ٣١ أغسطس ١٩٩١، الذي اعلن الاستقلال التام للبلاد، واعتبار الاول من شهر سبتمبر يوم استقلال جمهورية أوزبكستان، خطوة تاريخية هامة، وتتويجاً لهذه الجهود كافة.

وكانت المصادقة على المبادئ الاساسية للديمقراطية وسياسية التعددية الحزبية، من أهم الاتجاهات في الحياة السياسية الداخلية. إذ جرت ـ للمرّة الأولى في تاريخ البلاد ـ انتخابات رئاسية مباشرة مبنية على مبدأ المنافسة، واسفرت هذه الانتخابات، التي جرت في ٣٠ ديسمبر ١٩٩١، عن فوز السيد إسلام كريموف، الذي نال ٨٦٪ من الاصوات، على منافسه الشاعر محمد صالح، الذي لم ينل سوى ١٢,٣٪ من الأصوات.

ولم يكن إعلان الاستقلال، سوى خطوة أولى، في الدرب الشائك المؤدي لبناء

دولة مستقلة ذات سيادة.

ولا يخفى على احد ان اوزبكستان، ذات الطاقات البشرية الهائلة والثروات الطبيعية الضخمة، ظلت مصدر خامات للمناطق المركزية من الاتحاد السوفييتي المتطورة صناعياً. وكان لابد لاوزبكستان من التخلص من المخلفات العديدة التي ورثتها عن النظام السوفييتي، كالملكية اللامحدودة للدولة لوسائل الانتاج كافة، واحتكارها المطلق لها، مما كان يحول دون تطور روح المنافسة، كذلك التدخل السافر لأجهزة السلطة في الشؤون المالية ونظام القروض والاعتمادات المالية، وفي الشؤون الاقتصادية لمؤسسات ادارة الأعمال، واحتكار الدولة المطلق للنشاطات الاقتصادية الخارجية، وضعف البنية التحتية للاقتصاد، والتفاوت الكبير بين المؤسسات الصناعية والانتاج الزراعي. الأمر الذي لا يتماشى مع ما يتطلبه التطور الاستراتيجي لاوزبكستان واحتياجاتها الاجتماعية.

بعد نيل الاستقلال، برزت أمام اوزبكستان مهمة عسيرة تكمن في تنظيم علاقاتها الاقتصادية والسياسية والثقافية مع البلدان الأجنبية. وكانت الصعوبة الرئيسية هنا تنحصر في كيفية ايجاد الحل الوسط، الذي يوفر جذب التكنولوجيا ورؤوس الاموال من البلدان المتطورة، وتهيئة الظروف للتطور الطبيعي على الصُّعد السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية لماشاة أعضاء الأسرة الدولية، وبالدرجة الاولى توثيق الروابط مع البلدان الاسلامية التي تمُّت اليها اوزبكستان بصلات كثيرة وقواسم مشتركة تاريخياً وثقافياً وروحياً ودينياً.

كانت معالجة جميع هذه المهمات المختلفة، تتطلب خطوات حاسمة حكيمة. ففي ميدان بناء الدولة، عرضت، اولاً، فكرة إقامة دولة الشرعية المبنية على الأسس الديمقراطية؛ وإيجاد جهاز رقابة حقيقية شعبية يعمل دون عراقيل، ويشرف على عمل جميع اجهزة السلطة والمسؤولين، فصل السلطات الى سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية، وتأسيس برلمان يضم نواباً محترفين، واقرار الادارة الرئاسية للبلاد (أي التي يديرها رئيس الجمهورية)، واجراء الانتخابات النيابية والرئاسية، بناءً على المنافسة بين الأحزاب والمرشحين لرئاسة الجمهورية.

وعلى العموم، فقد جرى عرض لمبادئ الاسلوب الخاص ببناء المجتمع الجديد في كتاب الرئيس الاوزبكي اسلام كريموف: «اوزبكستان واسلوبها الخاص في الانتقال الى الاقتصاد الحر». ويكمن جوهره الاساسي في ضرورة التقيد بخمسة مبادئ اساسية:

١) جعل العلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية فوق المصالح الايديولوجية.

٢) الدولة هي المصلح الاساسي، أي انها هي التي تحدد الاتجاهات ذات الاولوية في الاصلاحات.

٣) سيادة القانون في الحياة الاجتماعية السياسية.

٤) الضمان الاجتماعي الجيد لشرائح الشعب ذات المداخيل المحدودة.

٥) الانتقال المرحلي الى الاقتصاد الحر. وتجدر الاشارة الى انه لدى اعداد برنامج التطور الاجتماعي السياسي والاقتصادي لاوزبكستان المستقلة والمبني على المبادئ الخمسة الآنف ذكرها، أخذ في الاعتبار تجارب الدول المتطورة والميزات الاجتماعية الاقتصادية لاوزبكستان. واثبتت تجارب النصف الاول من التسعينات مصداقية هذه المبادئ الخمسة، وبفضلها انضمت اوزبكستان الى الأسرة الدولية، اذ اعترفت بها ـ حتى نهاية عام ١٩٩١ ـ عشرات الدول من ضمنها: تركيا، جمهورية مصر العربية، الولايات المتحدة، اليابان، جمهورية ايران الاسلامية، جمهورية كوريا، وغيرها من الدول. وفي العام ١٩٩٢، انضمت اوزبكستان الى المنظمات الدولية المرموقة سياسياً ومالياً واقتصادياً مثل الأمم المتحدة، اليونيسكو، اتفاقية هيلسنكي، الصندوق الدولي، البنك الدولي للانشاء والتعمير وغيرها من المنظمات. وكان عدد الدول المعترفة باوزبكستان عشية الذكرى السنوية الاولى لاستقلالها قد جاوز الـ ١٢٠ دولة. وحتى شهر يونيو ١٩٩٣، قارب هذا العدد الـ١٦٠ دولة، وأقامت علاقات دبلوماسية مع ٦٠ دولة منها. وهكذا اصبحت اوزبكستان دولة ذات مكانة بين سائر الدول تتمتع بكامل حقوقها.

يعتبر التطور الاجتماعي السياسي والاقتصادي لاوزبكستان بعد استقلالها

صفحة جديدة ناصعة مشرقة في تاريخها، تختلف عن الصفحات السابقة. وها هي اوزبكستان، ذات الحضارة العريقة التي أسهمت بقسط وافر في الحضارة البشرية، تتمتع اليوم بكامل المقومات الروحية الثقافية والطبيعية الاقتصادية، مما يبشرها بمستقبل مشرق باهر وعظيم.

أهم الاحداث التي تلت الاستقلال

٣١/أغسطس/١٩٩١ - اعلان بيان مجلس السوفييت الاعلى الاوزبكي الذي نص على استقلال اوزبكستان، والمصادقة على قانون اوزبكستان بشأن مبادئ استقلال الدولة، اعتبار الاول من سبتمبر يوم عيد استقلال اوزبكستان.

١٧/سبتمبر/١٩٩١ - صدور المرسوم الرئاسي بالغاء سيطرة الحزب الشيوعي على اجهزة السلطة الحكومية وادارات التعليم وأجهزته.

٣٠/اكتوبر/١٩٩١ - زيارة رئيس جمهورية قبرص السيد غيورغيس فاسيليو الى اوزبكستان.

١٨/نوفمبر/١٩٩١ - قانون جمهورية اوزبكستان باتخاذ العلم الوطني للدولة.

١٦-١٩ ديسمبر/١٩٩١-زيارة الرئيس الاوزبكي الى تركيا.

٣٠ - ديسمبر/١٩٩١ - جرت الانتخابات الرئاسية الاولى المبنية على مبدأ المنافسة، صوت فيها ٢٣٦ , ٥١٤ , ٨ نسمة او ٨٦,٠٪ لصالح ا. ع. كريموف، و١,٢٢٠,٤٧٤ نسمة (او ١٢,٣٪) لمنافسه السيد محمد صالح. انتخاب ا. ع. كريموف اول رئيس لجمهورية اوزبكستان المستقلة.

٣١ أغسطس - ٣١ ديسمبر ١٩٩١ -كانت تركيا، جورجيا، سويسرا، منغوليا، ليتوانيا، رومانيا، جمهورية مصر العربية، الولايات المتحدة الأميركية، اليابان، جمهورية كوريا، جمهورية ايران الاسلامية، والجزائر، من اوائل الدول التي اعترفت باستقلال اوزبكستان.

٢٦ فبراير/١٩٩٢ ـ وقّعت اوزبكستان على الوثيقة الختامية لمؤتمر الأمن والتعاون في اوروبا (اتفاقية هيلسنكي).

٢/مارس/١٩٩٢ ـ قبول اوزبكستان في عضوية الأمم المتحدة.

١٢ ـ ١٤/مارس/١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الاوزبكي اسلام كريموف بزيارة رسمية الى جمهورية الصين الشعبية.

٢٠/مارس/١٩٩٢ ـ اقامة علاقات دبلوماسية بين اوزبكستان وروسيا الفيدرالية.

٢٧/مارس/١٩٩٢ ـ صدور مرسوم رئاسي باعلان «عيد الفطر» عطلة رسمية.

١١ ـ ١٣/ابريل/١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الاوزبكي بزيارة رسمية الى المملكة العربية السعودية.

٢٧ ـ ٢٨/ابريل/١٩٩٢ ـ قيام رئيس الوزراء التركي السيد سليمان ديميريل بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

١٦ ـ ٢٣ يونيو/١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الاوزبكي بزيارة رسمية الى كل من كوريا، ماليزيا، واندونيسيا.

٢٧ ـ ٢٨ يونيو/١٩٩٢ ـ قيام رئيس الوزراء الباكستاني محمد نواز شريف بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

يونيو ـ سبتمبر/١٩٩٢ ـ انضمت اوزبكستان الى عضوية عدد من المنظمات المالية الاقتصادية العالمية الكبيرة مثل: الصندوق الدولي، البنك الدولي للانشاء والتعمير والخ...

١٨ ـ ٢٠/ سبتمبر/١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة عمل الى النمسا.

حتى ١/سبتمبر/١٩٩٢ ـ بلغ عدد الدول المعترفة باستقلال اوزبكستان اكثر من ١٢٠ دولة.

١ ـ ٢ / اكتوبر / ١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الفنلندي ماونو كويغيستو بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

١٣ ـ ١٥ / اكتوبر / ١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الافغاني برهان الدين رباني بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٢٨ ـ ٣١ / اكتوبر / ١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى تركيا.

٢٤ ـ ٢٥ / نوفمبر / ١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى ايران.

٨ / ديسمبر / ١٩٩٢ ـ تبني الدستور الاوزبكي.

١٥ ـ ١٧ / ديسمبر / ١٩٩٢ ـ قيام الرئيس الاوزبكي ا. ع. كريموف بزيارة رسمية الى جمهورية مصر العربية.

٣١ / مارس ـ ٣ ابريل / ١٩٩٣ قيام رئيس الوزراء الماليزي مهاتهير بن محمد بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٤ ـ ٦ / ابريل / ١٩٩٣ ـ قيام رئيس جمهورية تركيا السيد تورغوت اوزال بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٢٧ ـ ٣٠ / ابريل / ١٩٩٣ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى المانيا الاتحادية.

٢٣ ـ ٢٤ / مايو / ١٩٩٣ ـ قيام رئيس الوزراء الهندي ناراسيمهي واو بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

حتى يونيو / ١٩٩٣ ـ اعترفت باستقلال اوزبكستان حوالي ١٦٠ دولة. و٦٠ منها اقامت علاقات دبلوماسية مع اوزبكستان.

- قيام الرئيس كريموف بزيارة رسمية الى المملكة الهولندية.

٢٨/ سبتمبر/١٩٩٣ - القى الرئيس الاوزبكي كريموف كلمة في الدورة الـ ٤٨ للجمعية العامة للأمم المتحدة.

١٨-١٩/اكتوبر/١٩٩٣ - قيام الرئيس الايراني علي اكبر هاشمي رفسنجاني بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٢٧ - ٣٠/اكتوبر/١٩٩٣ - قيام الرئيس الاوزبكي ا. ع. كريموف بزيارة رسمية الى فرنسا.

٢٢ - ٢٥/نوفمبر/١٩٩٣ - قيام الرئيس الاوزبكي اسلام كريموف بزيارة رسمية الى كل من بريطانيا وايرلندا الشمالية.

٣ - ٥/يناير/١٩٩٤ - قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى الهند.

١٨-٢٠/ابريل/١٩٩٤ - قيام رئيس الوزراء الصيني لي بنغ بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٢٥ - ٢٧/ابريل/١٩٩٤ - قيام الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتيران بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

١٦-١٩/مايو/١٩٩٤ - قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى اليابان.

٤-٦/يونيو/١٩٩٤ - قيام رئيس جمهورية كوريا السيد كيم ين سام بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٢٣-٢٤/يونيو/١٩٩٤ - قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى تركيا.

١٥/سبتمبر/١٩٩٤ ـ قيام رئيس منظمة التحرير الفلسطينية السيد ياسر عرفات بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٢٨/سبتمبر/١٩٩٤ ـ قيام الأمين العام لمنظمة الأمن والتعاون الاوروبي فيلغيلم هويكه بزيارة رسمية لاوزبكستان.

٢٤ ـ ٢٦/اكتوبر/١٩٩٤ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى الصين الشعبية.

١١ ـ ١٢/يناير/١٩٩٥ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى بولندا.

١٥ ـ ١٧/فبراير/١٩٩٥ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى جمهورية كوريا.

٧ ـ ١٠/ابريل/١٩٩٥ ـ قيام الرئيس الاندونيسي سوهارتو بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

١١ ـ ١٣/ابريل/١٩٩٥ ـ قيام الرئيس الألماني رومان هيرتسوغ بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

٢٢ ـ ٢٣/مايو/١٩٩٥ ـ قيام رئيسة وزراء باكستان السيدة بنازير بوتو بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

١١ نوفمبر/١٩٩٥ ـ قيام رئيسة وزراء باكستان السيدة بنازير بوتو بزيارة رسمية الى اوزبكستان.

١٤ ـ ١٦/نوفمبر/١٩٩٥ ـ قيام الرئيس الاوزبكي كريموف بزيارة رسمية الى المانيا الاتحادية.

سبتمبر ١٩٩١/ديسمبر ١٩٩٥:

صدور وتنفيذ عشرات المراسيم والقوانين الاوزبكية المتعلقة بأهم القضايا الاقتصادية، ومن ضمنها: الخصخصة، قانون الاراضي، الشركات المساهمة؛ توقيع اتفاقيات تجارية اقتصادية وثقافية مع العشرات من بلدان العالم؛ صدور مراسيم وقرارات لتوفير الضمان الاجتماعي للمعوقين وذوي المداخيل المحدودة، والأسر الكبيرة، وما إلى ذلك.

المراجع

مراجع الفصل الاول

١ ـ المصادر

ـ ما كتبه الاقدمون عن آسيا الوسطى (ق ـ ٦ ق. م ـ ق ـ ٣ م). **النصوص المختارة**. مراجعة ل. ف. باجينوف، طشقند ـ ١٩٤٠ م.

ـ **بيتشورين . ن. ي.** جامع المعلومات عن شعوب آسيا الوسطى القدماء، المجلدات «١ ـ ٣» موسكو ـ لينينغراد ١٩٥٠ـ١٩٥٣

ـ **محمود بن والي**. بحر الأسرار (جغرافيا). تقديم وترجمة (من الفارسية) وتعليق وفهرسة ب. أ. أحمدوف.

٢ ـ مقالات، بحوث (رسائل) علمية

ـ **احمدوف. ب. أ.** معرفة الكتابات الاثرية في دراسة تاريخ السلالات البشرية للاوزبك ـ الجامع «في مواد تاريخ السلالات البشرية لسكان آسيا الوسطى»، طشقند ـ ١٩٨٦، ص ١٤ ـ ٣٠.

ـ **أحمدوف. ب. أ**

ـ **بارتولد. ف. ف** ـ تاريخ الملحمة الفارسية، ـ المؤلفات. المجلد«٧» ـ موسكو، ١٩٧١، ص ٤١٧ـ ٤٣٧ .

ـ **بارتولد. ف. ف** ـ تاريخ الملحمة الفارسية، ـ المؤلفات المجلد «٧» موسكو، ١٩٧١، ص ٣٨٣ ـ ٤٠٨ .

ـ **ف. ف. بارتولد** ـ طخارستان ـ المؤلفات. المجلد «٣» موسكو ١٩٦٥، ص ٥١٤ ـ ٥١٥ .

ـ **ف. ف. بارتولد** ـ الاوسونيون، ـ المؤلفات. المجلد «٢» الجزء «١» موسكو ـ ١٩٦٣، ص ٢٥ ـ ٣٠ .

- **تاريخ اوزبكستان السوفييتية**، المجلد «١» منذ العصور الغابرة الى اواسط ق - ١٩، طشقند، ١٩٦٧، ص ١٧ - ٩٦.

- **م. ي. ماسون**. ثقافة مارغيان الزراعية القديمة، - «مواد ودراسات في علم الآثار السوفييتية، العدد ٧٣، ١٩٥٩م.

- **م. ي. ماسون**. تاريخ التعدين في منطقة اوزبكستان، طشقند، ١٩٥٣.

- **د. س رايفسكي**. دراسات في إيديولوجيا القبائل الاسقيتية - الساكية، موسكو، ١٩٧٧.

- **ف. ف. ستروف**. - موطن الزرادشتية، - مجلة «الاستشراق السوفييتي»، ١٩٤٨، العدد «٥»، ص ٥ - ٣٤.

- **س. ب. تولستوف**. في اثر الحضارة الخوارزمية القديمة، موسكو - لينينغراد، ١٩٤٨.

- **لغات طخارستان**، جامع المقالات، موسكو، ١٩٥٠م

- **إ. إ. اومنياكوف**. القضية الطخارية، مجلة« سوفيتسكايا اثنوغرافيا»، الاصدار ٦ - ٧، موسكو، ١٩٤٧.

- **ت. ك. خوجايف**. بليو أنتربولوجيا اوزبكستان القديمة. طشقند - ١٩٨٠.

مراجع الفصل الثاني

ثبت المراجع

١ - المصادر

- **ابو الغازي بهادورخان**. شجرة نسب الاتراك.

- **خان خيوة**. تأليف ابي الغازي، الترجمة والمقدمة، س. ع. سابلوكوف، الخاتمة، ن. ف. كاتانوف، كازاخان، ١٩٠٦م.

- **اريان**. «آناباسيس الاسكندر» او تاريخ حملات وغزوات الاسكندر الكبير في سبعة مجلدات. الترجمة من اللغة اليونانية ن. كورينكوفا، طشقند، ١٩١٢م.

- **بيتشورين. ن. ي (اياكينف)**. جامع المعلومات عن شعوب آسيا الوسطى القدماء.

مراجعة النص، المقالة التمهيدية والتعليق ، ا. ن. بيرنشتام ون. ف. كيونير، المجلد «١ ـ ٣»، موسكو، لينينغراد، ١٩٥٠ـ١٩٥٣م.

ـ **هيرودوتس**. التاريخ في تسعة كتب، الترجمة من اليونانية، والمقدمة والفهرست، ف. غ. ميتشينكو، المجلد «١ ـ ٢».

ـ مكتبة سمرقند العامة ١٨٨٦ـ١٨٨٨.

ما كتبه الكتاب القدماء عن آسيا الوسطى. نصوص مختارة، مراجعة ل. ف. باجينوف، طشقند ، ١٩٤٠م.

ـ **ابن حوقل ١٨٧٣**

ـ **كورتسي**. ر. ك قصة الاسكندر المقدوني. الترجمة من اللاتينية، أ. مارتوس، المجلد «١ـ٢» مكتبة سمرقند العامة، ١٨٠٩.

ـ **مهبراتا**. الترجمة من السنسكريتية والتعليق، ف. إ. كاليانوف، الكتاب «١ ـ ٢»، موسكو، لينينغراد، ١٩٥٠ـ١٩٦٧.

ـ **نرشخي**. تاريخ بخاري. الترجمة من الفارسية ، ن. س ليكوتشين. مراجعة ف. ف بارتولد ، طشقند ، ١٨٩٧.

ـ **بلوتارك**. سير الرجال العظام. الترجمة من اليونانية ، ف. اليكسييف، المجلد «٦» الاصدار «٢» مكتبة سمرقند العامة ، ١٨٩٣.

ـ **رشيد الدين**. جامع التواريخ، المجلد «١»، الكتاب «١» الترجمة من الفارسية ، ل. أ. خيتاغوروف، المراجعة والتعليق ،أ.أ. سيميونوف، موسكو، لينينغراد، ١٩٥٢.

ـ **سترابون**. الجغرافيا. الترجمة، ف. إ. بيليايف. الاعداد للطبع أ. غ. بولشاكوف وأ. ب. خالدوف، طشقند، ١٩٨٧.

٢ ـ المراجع الأدبية

ـ **الباوم**. ل. إ. بالاليك ـ تيبا. حول تاريخ الثقافة المادية والفنية في طخارستان، طشقند ، ١٩٦٠.

- **ارتامونوف. م. ن.** كنز الساكيين، موسكو، ١٩٧٣.

- **بارتولد. ف. ف.** تاريخ الحياة الثقافية في تركستان، المؤلفات، المجلد «٢» الجزء «١» موسكو، ١٩٦٨.

- **بارتولد. ف. ف.** دراسات في تاريخ سيميريتشي، المؤلفات. المجلد «٢»، جـ «٢» - موسكو، ١٩٦٣.

- **بارتولد.ف.ف.** طخارستان، - المؤلفات، المجلد «٣». موسكو، ١٩٦٥.

- **بارتولد. ف. ف.** تركستان أيام الغزو المغولي، المؤلفات. المجلد «١» موسكو، ٣٩٦٢.

- **بارتولد. ف. ف.** الاتراك، المؤلفات. المجلد «٥»، موسكو، ١٩٦٨.

- **بيرنشتان. أ. ن.** فرغانة القديمة (مقالة علمية مبسطة)، طشقند، ١٩٥١.

- **بيرنشتان. أ. ن.** مقالات في تاريخ وآثار تيان شان المركزية وبامير - آلاي، - «مواد ودراسات في الآثار السوفييتية»، العدد «٢٦»، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٢.

- **بيرنشتان. أ. ن.** حول مسألة الاوسون، الكوشان والطخاريين، (من تاريخ آسيا المركزية)، «سوفيتسكايا إثنوغرافيا»، ١٩٤٧، العدد «٣».

- **بيرنشتان. أ. ن.** دراسات في تاريخ الهون، لينينغراد، ١٩٥١.

- **فاسيليف. ل. س.** علاقات خانية الصين الثقافية والتجارية مع شعوب آسيا المركزية والوسطى، «مخبر تاريخ الثقافة العالمية»، ١٩٥٨، العدد «٥».

- **فيشنيفسكايا. ا. أ.** ثقافة القبائل الساكية في الحوض السفلي لنهر سرداريا في ق. ٧ - ٥ ق.م، موسكو، ١٩٧٣.

- **غوربونوفا. ن. غ.** فرغانة، نقلاً عن الكتاب القدماء، في كتاب. «تاريخ وثقافة شعوب آسيا الوسطى»، موسكو ١٩٧٦.

- **غريغوريف. ف. ڤ.** كاونتشي - تيبا (حفريات ١٩٣٥م)، طشقند، ١٩٤٠.

- **غريغوريف. ف. ف.** عن شعب سقيت الساكيين، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٧١.

- **غريغوريف. ف. ف.** حملة الاسكندر الكبير على تركستان الغربية «مجلة وزارة المعارف العامة » جـ«٢١٧» الفصل «٢» ١٨٨١.

- **غريغوريف. ف. ف.** تالي - بارزو كأثر من آثار سغد ما قبل الاسلام، «معلومات موجزة عن التقارير والدراسات الميدانية لمعهد تاريخ الثقافة المادية «الاصدار «١٣» ١٩٤٦.

- **غلاموف.** ي. غ. مملكة كوشان والري في آسيا الوسطى في الماضي البعيد، «العلوم الاجتماعية في اوزبكستان،١٩٦٨، العدد «٨».

- **غوميلوف.** م.ن. الاتراك القدماء، موسكو - ١٩٦٧.

- **غوميلوف.** ل. ن. بعض المسائل المتعلقة بتاريخ الهون، «مخبر التاريخ القديم» ١٩٦٠، العدد «١».

- **غوميلوف.** ل. ن. الهون. آسيا الوسطى في العصور الأخرى، موسكو، ١٩٦٠.

- **غوميلوف.** ل. ن. الايفتاليت وجيرانهم في ق - ٤ م.، «مخبر التاريخ القديم» ١٩٥٩، العدد «١».

- **داندامايف.** م. أ. ايران ابان اوائل حكام الاخيمينيين (ق - ٦ ق. م)، موسكو - ١٩٦٣.

- **دياكونوف.** م. م. نشأة المجتمع الطبقي في بقتيريا الشمالية، «سوفيتسكايا اركيولوجيا»، المجلد «١٩»، موسكو ١٩٥٤.

- **دياكونوف.** م. م. اعمال اثرية في الحوض السفلي لنهر كافرنيخون (كوباديان)، ١٩٥٠ - ١٩٥١. « مواد ودراسات في علوم الآثار السوفييتية » ، العدد «٣٧»، موسكو، لينينغراد، ١٩٥٩.

- **زادينبروفسكي.** ي.أ. الثقافة الزراعية القديمة في فرغانة، - «مواد ودراسات في علوم الآثار السوفيتية »، العدد «١١٨»، موسكو - لينينغراد، - ١٩٦٢.

- **زويف.** ي. أ. تاريخ سلالة الاوسون، «مؤلفات معهد التاريخ وعلم الآثار والإثنوغرافيا، أكاديمية العلوم الكازاخية السوفييتية»، ١٩٦٠، العدد«٨».

- **إينوسترانتسوف.** ك. أ. الهون والغون، لينينغراد، ١٩٢٦. تاريخ اوزبكستان السوفييتية، المجلد « ١» منذ القرون السحيقة حتى اواسط ق ١٩م، طشقند، ١٩٦٧.

- **كابانوف. س. ك.** معطيات علم الآثار بشأن التاريخ العرقي لسغد الجنوبية ق. ق ٣ ٤، سوفيتسكايا أركيولوجيا»، ١٩٦٥، العدد «١».

- **كابانوف. س. ك.** ثقافة المستوطنات الريفية في سغد الجنوبية ق. ق ٣ - ٤م، طشقند ١٩٨١.

- **كلياشتورني. س.ع.** الكتابات التركية القديمة الرونية كمصدر للمعلومات عن تاريخ آسيا الوسطى، موسكو، ١٩٦٤.

- **كلياشتورني. س. غ.** مواطن الكانغيوي في النصوص الأورخانية، «سوفيتسكايا اثنوغرافيا»، ١٩٥١، العدد «٣».

- **كوفاليف. س. ا.** الاسكندر المقدوني، لينينغراد، ١٩٥٧.

- **ليڤينا. ل.م.** الخزافة في اسفل واواسط حوض سرداريا في ق ا.م، موسكو، ١٩٧١.

- **ليتفينسكي. ب. أ.** المقبرة الجونية القديمة وبعض جوانب قضايا الكانغيوي - «سوفيتسكايا ارخيولوجيا»، ١٩٦٧، العدد «٢».

- **ليتفينسكي. ب. أ. فارن** الكانغيو - سرماتي (العلاقات التاريخية الثقافية بين قبائل جنوب روسيا وآسيا الوسطى)، دوشانبيه، ١٩٦٨.

- **ليتفينسكي.ب. أ.** ادوات العمل واللوازم البيتية المكتشفة في المقابر القديمة جنوبي فرغانة، موسكو، ١٩٦٨.

ليتفينسكي. ب. أ. قضايا تاريخ شعوب فرغانة في الماضي السحيق والقرون الوسطى، «تاريخ وثقافة شعوب آسيا الوسطى»، موسكو، ١٩٧٦.

- **ليتفينسكي.ب. أ.** ساكيّو ما وراء سغد، «مؤلفات اكاديمية العلوم الطاجيكية السوفيتية»، الاصدار «٢٠»، ستالين آباد، ١٩٦٠.

- **ليرخ. د. إ.** نقود بخار - خودات، «مؤلفات القسم الشرقي لدى جمعية الآثار الامبراطورية الروسية»، جـ «١٨» ، مكتبة سمرقند العامة، ١٩٠٩.

ـ **مانديلشتام. أ. م.** مواد حول الاستعراض التاريخي الجغرافي البامير والمناطق المحيطة بها منذ العصور القديمة وحتى ق ١٠م ، دوشانبيه، ١٩٠٧.

ـ **ماسون. ف. م.** الثقافة الزراعية القديمة في مارغيان، «مواد ودراسات في علم الآثار السوفييتية» العدد «٧٣» ١٩٥٧.

ـ **ماسون. م. إ.** آخانغاران. دراسات أثرية ـ طبوغرافية، طشقند، ١٩٥٣.

ـ **ماسون. م. إ.** مسألة الحدود الشمالية لدولة «الكوشانيين العظام»، «العلوم الاجتماعية في اوزبكستان»، ١٩٦٠، العدد «٨».

ـ **ماسون. م. إ.** ماضي طشقند، أزفيستيا أكاديمية العلوم الأوزبكية السوفييتية ١٩٥٤، العدد «٢».

ـ **ماسون. ف. م. روموديـن. ف. أ.** تاريخ افغانستان، المجلد «١» موسكو، ١٩٦٤.

ـ **اوبولدويفا. ت. غ.** تلال القبور القديمة في كاوتشي والثقافة الجونية، معلومات موجزة عن التقارير والدراسات الميدانية لمعهد تاريخ الثقافة المادية التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، الاصدار «٢٣»، ١٩٤٨.

ـ **اوشانين. ل. ف.** التكوين الأنتروبولوجي لسكان آسيا الوسطى، وإثنولوجيا شعوبها في ثلاثة اجزاء. يريغان، ١٩٥٧ـ١٩٥٨.

ـ **بوغليوفسكايا. ن. ف.** بيزنطية على الطرق المؤدية الى الهند. من تاريخ تجارة بيزنطية مع الشرق في ق. ق. ٤ ـ ٦م ، موسكو، لينينغراد، ١٩٥١.

ـ **بوغليوفسكايا. ن. ف. ياكوبوفسكي. أ. ي. بيتروشيفسكي. إ. د. وغيرهم.** تاريخ ايران في العصور القديمة حتى نهاية ق ـ ٨م، لينينغراد، ١٩٥٨.

ـ **بوغاتشينكوفا. غ. أ.** خالتشايان. قضية الثقافة الفنية في بقتيريا الشمالية، طشقند، ١٩٦٦.

ـ **رايفسكي. د. س.** نبذة عن عقائد القبائل السقيتية ـ الساكية، موسكو، ١٩٧٧.

ـ **ريفتين. ب. ل.** من تاريخ علاقات آسيا الوسطى الثقافية مع الصين (ق ٢ ق. م ـ ق ـ ٨م)، «قضية الاستشراق» ١٩٦٠، العدد «٥».

ـ **الجامع السغدي.** كتاب يضم مقالات عن الآثار المتعلقة بلغة وثقافة السغديين، والتي تم العثور عليها في جبل موغ في طاجيكستان السوفييتية، لينينغراد، ١٩٣٤.

ـ **نبذة عن إثنوغرافيا آسيا الوسطى،** الاصدار «١» موسكو ١٩٥٤.

ـ **ستافينوكي. ب. ي.** حول الحدود الشمالية لدولة الكوشانيين، «مخبر التاريخ القديم»، ١٩٦١، الاصدار «١».

ـ **تولستوف. س. ب.** خوارزم القديمة، موسكو، ١٩٤٨.

ـ **تولستوف. س.ب.** في اثر الحضارة الخوارزمية القديمة، موسكو، لينينغراد، ١٩٤٨.

ـ **تولستوف. س. ب. وإيتينا.م. أ.** ساكيو الحوض السفلي لنهر سرداريا (بناء على مواد تاغيسكين)، «علم الآثار السوفييتية، سوفيتسكايا آركيولوجيا»، ١٩٦٦ العدد «٢»

ـ **تريفير. ك. ف.** آثار الفن اليوناني البقتيري، موسكو، لينينغراد، ١٩٤٠.

ـ **تريفير. ك. ف.** الاسكندر الكبير في سغد، «مخبر التاريخ القديم»، ١٩٤٩، العدد «٤».

ـ **تريفير. ك. ف.** قضية الفن اليوناني البقتيري، في كتاب. «المؤتمر الدولي الثالث المكرس للفن وعلم الآثار الايراني، تقارير، لينينغراد، سبتمبر ١٩٣٥، موسكو، لينينغراد، ١٩٣٩.

ـ **اومنياكوف. م. إ.** القطية الطخارستانية، ـ «سوفيتسكايا اثنوغرافيا» الاصدار« ٦ ـ ٧»، ١٩٤٧.

ـ **خوجايف. ت. ك.** حول باليوأنتروبولوجيا اوزبكستان القديمة، طشقند، ١٩٨٠.

ـ **شيشكين. ف. أ.** افراسياب، كنز الثقافة القديمة، طشقند، ١٩٦٦.

ـ **شيشكين. ف. أ.** فاراخشا، موسكو، ١٩٦٣.

مراجع الفصل الثالث

١ ـ المصادر

ـ **ابو الفداء.** تقويم (طبعة رينو و دي سلين)،، ١٨٤٠

ـ **بيتشورين.** مجموعة المعلومات (الطبعة الثانية)،ـ ن. ي. بيتشورين (تشاكينف). مجموعة المعلومات عن شعوب آسيا الوسطى في الماضي القديم. راجع النص، كتب المقالة الافتتاحية والتعليق ا. ن. بيرنشتام و ن. ف. كيونير، المجلدات ١ ـ ٣، موسكو ـ لينينغراد، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣.

ـ **غارديزي** (ملخص ف. ف. بارتولد، ـ مقتبسات من مؤلفات غارديزي «زين الاخبار» المؤلف، المجلد«٨»، موسكو، ١٩٧٣، ص ٢٣ ـ ٦٢.

المؤلفون القدماء عن آسيا الوسطى (ق. م ٦ ـ ق ٣م). نصوص مختارة. تحرير، ل. ف. باجينوف، طشقند، ١٩٤٠.

ـ **ابن الاثير** (طبعه ـ ورنبيرغ)، ١٨٥١ ـ ١٨٧٦.

ـ **الاسطخري** (طبعة دي جويه)، ١٨٧٠.

كتاب العم كوركوتا (ترجمة .ف. ف. بارتولد، الطبعة الثانية)، ـ كتاب العم كوركوتا. الملحمة الأوغوزية البطولية. ترجمة. ف. ف. بارتولد. أعدّ الطبعة، ا. ن. كونونوف، موسكو ـ لينينغراد، ١٩٦٢.

ـ **كوتادغو بيليك** (طبعة رادلوف)، ١٨٩١، ١٩٠٠، ١٩١٠.

ـ **المسعودي.** مروج الذهب (طبعة باربيه دي مينارا)، ١٨٦١ ـ ١٨٧٧.

ـ **محمود قوشغاري. ديوان** (طبعة ـ س. مطلابوف)، ـ ديوان لغات الترك. مراجعة غ. عبد الرحمنوف، طشقند، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.

ـ **مرورّودي.** تاريخ (طبعة ـ د. روسا)، ١٢٠٦، ١٩٢٧.

ـ **سيوآن تسزان.** (ترجمة ـ بيل)، (١ و ـ ٦٢٩) ١٩٠٦.

ـ **الطبري** (طبعة المجلد ١ ـ ٦)، ١٨٧٩ ـ ١٨٩٠.

ـ **حدود السلام**. مخطوطة تومانسكي. مع مدخل ودليل، ف. ف. بارتولد، لينينغراد، ١٩٩٠.

بحوث علمية ومقالات باللغات الاوزبكية، الروسية والاوروبية الغربية

ـ **بارتولد.ف. ف**. ١٢ محاضرة في تاريخ الشعوب التركية في آسيا الوسطى، المجلد «٥»، موسكو، ١٩٦٨، ص ١٩ ـ ١٩٨.

ـ **بارتولد. ف. ف**. تاريخ الشعوب التركية المغولية، المجلد «٥»، موسكو، ١٩٦٨، ص ١٩٥ ـ ٢٢٩.

ـ **بارتولد. ف. ف**. القيرغيز (دراسات تاريخية)، المجلد «٢»، جـ «١»، ص ٤٧١ ـ ٥٤٣.

ـ **بارتولد. ف. ف**. دراسات جديدة في النقوش الأورخانية، المجلد «٥» موسكو، ١٩٦٨، ص ٣١٢ ـ ٣٢٨.

ـ **بارتولد. ف. ف**. دراسات في تاريخ سيميريتشي، المجلد «٥»، جـ «١»، **موسكو، ١٩٦٣**، ص ٢٣ ـ ١٠٦.

ـ **بارتولد. ف. ف**. المسيحية في تركستان ما قبل العهد المغولي (حول الكتابات«او النقوش» السيميريتشية)، المجلد «٥»، جـ «٢»، موسكو، ١٩٦٤، ص ٢٦٥ ـ ٣٠٢.

ـ **بيرنشتان. أ. ن**. النقوش الرونية التركية القديمة من فرغانة، «النقوش والكتابات الشرقية»، المجلد «١١»، ١٩٥٦، ص ٥٤ ـ ٥٨.

ـ **فلاديميرتسوف. ب.ي**. النظام الاجتماعي لدى المغول. اقطاعية المغول الرحل، لينينغراد، ١٩٣٤.

ـ **غوميليف. ل. ن**. الاتراك القدماء، موسكو، ١٩٦٧.

ـ **زويف.ي. أ**. الاخبار الصينية عن سوياب، ـ أخبار أكاديمية العلوم الكازاخية السوفييتية. سلسلة التاريخ، علم الآثار، والإثنوغرافيا»، ١٩٦٠، الاصدار ـ ٣ (١٤)، ص ٨٧ ـ ٩٦.

ـ **كلياشتورني. س. غ**. الآثار الرونية لقدماء الاتراك كمصدر لتاريخ آسيا الوسطى، موسكو، ١٩٦٤.

ـ **مالوف. س. ي**. آثار الكتابات التركية القديمة. نصوص ودراسات. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٦١.

ـ **ماماتوف نسيمخان**. الخاقانية التركية، طشقند، ١٩٩٢.

ماسون. م. ي. بشأن تاريخ اكتشاف النقوش الرونية التركية القديمة في آسيا الوسطى، ـ الاصدار، ٦ ـ ٧، موسكو ـ لينينغراد، ١٩٣٦، ص ٥ ـ ١٥.

ـ **ميليورانسكي. د. م**. تذكار تكريماً لـ «كيول ـ تيغين»، «النشرات الدورية لجمعية الآثار الروسية ـ القسم الشرقي»، المجلد «١٢» مكتبة سمرقند العامة، ١٩٠٠، ص ١ ـ ١٤٤.

ـ **شانيازوف. ك. ش. الاوزبك الكرلوك** (دراسات تاريخية إثنوغرافية)، طشقند، ١٩٦٤.

مراجع الفصل الرابع

١ ـ المصادر

ـ **ابو بكر يوسف يعقوب**. كتاب الخراج للامام صاحب ابي حنيفة القاضي ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم، بوساك، ١٣٠٢ | ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥.

ـ **البيروني**. آثار الأجيال الماضية، طشقند، ١٩٥٧.

ـ **البيروني**. الهند، طشقند، ١٩٦٣.

المراجع الروسية والأجنبية

١ ـ المصادر

ـ **بارتولد. ف. ف**. تركستان في عهد الغزو المغولي، المجلد «١»، موسكو، ١٩٦٣.

ـ **بارتولد. ف. ف**. حول تاريخ الفتوحات العربية في آسيا الوسطى، المجلد «٢»، الجزء «٢»، موسكو، ١٩٦٤، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٧.

ـ **بولغاكوف. ب. غ**. المعلومات المنقولة عن الجغرافيين العرب في الفترة ما بين القرنين «٩» و«١٠م» عن طرق آسيا الوسطى ومدنها، لينينغراد، ١٩٥٤.

- **قادروفا. ت.** انتفاضة الفلاحين بزعامة حمزة الخارجي في نهاية ق «٨» ومطلع ق «٩م»، ازفيستيا أكاديمية العلوم الاوزبكية السوفييتية، ١٩٥٣، العدد «٦»، ص ٩١ ـ ١٠١.

- **كراتشوفسكي. أ.ي.** المؤلفات العربية في الجغرافيا، المؤلفات المختارة، المجلد «٤»، موسكو، لينينغراد، ١٩٥٧.

- **ليرخ. ب. أ.** نقود بخار ـ خوداتوف، الجزء «١٨»، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٧٥ ـ ١٩٠٩، ص ١ ـ ١٦١.

- **سميرنوفا. ا. إ.** من تاريخ الفتوحات العربية في آسيا الوسطى. الاتفاقية المعقودة في عام ٧١٢ بين القائد العربي قتيبة، وغوريك ملك سغد. «الاستشراق السوفييتي» ١٩٥٧، العدد «٢»، ص ١١٩ ـ ١٣٤.

- **ياكوبوفسكي. أ. ي.** انتفاضة المقنّع، حركة «ذوي الثياب البيضاء»، الاستشراق السوفييتي»، المجلد «٥»، ١٩٤٨، ص ٣٥ ـ ٤٥.

- **جرجي زيدان.** تاريخ التمدن الاسلامي، القاهرة، ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦.

مراجع الفصل الخامس

المصادر الادبية

- **ابو ريحان البيروني.** تحديد حدود الاماكن للتأكيد من المسافة بين النقاط المأهولة (المساحة التطبيقية)، بحث، ترجمة وتعليق ب. غ. بولغاكوف، ابو ريحان البيروني. المؤلفات، المجلد «٣» طشقند، ١٩٦٦.

- **الثعالبي.** «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، باللغة الاوزبكية، ترجمة وبحث وتعليق. ا. ا. عبد اللايف، طشقند، ١٩٧٦.

- **غارديزي.** (طبعة محمد ناظم) ٤٤٠، أ. ن، ١٩٢٨.

- **ابن الأثير** (طبعة تورينبيرغ). المجلد «١ ـ ١٢»، ١٣ ـ ١٤، ١٨٦٧ ـ ١٨٧٦.

- **ابن مسكويه** (طبعة اميدروز ومارغوليوس). ١٩٢١.

- **ابن حوقل** (طبعة دي غوي) ١٨٧٣.

تاريخ جمهورية اوزبكستان السوفييتية المجلد «١» منذ العصور القديمة حتى اواسط القرن «١٩» طشقند، ١٩٦٧.

- **نظام الملوك** (ترجمة - زاهودير) «سياسة - نامه». كتاب سياسة الوزير نظام الملوك (ق - ١١). قام بترجمته والتقديم لدراسة الاثر والتعليق عليه ب. ف. زاهودير، موسكو - لينينغراد، ١٩٤٩.

- **الطبري** (طبعة دي غوي). ١-٦، ١٨٧٩-١٨٩٠.

- **طبري - البلعمي**. طبعة مجتبى مناوي، طهران، ١٩٦٦، الترجمة الفرنسية. غ. زوتينبيرغ، في «٤» مجلدات.

- **صنعاني** (طبعة مارغوليوس). ٢٣، ٣٥٥، ١٩١٢.

- **العتبي** (طبعة شبرينغير). ١٨٤٧.

- **حدود العالم**. مخطوطة تومانسكي. المقدمة والفهرست لـ ف. ف. بارتولد، لينينغراد، ١٩٣٠.

- **اليعقوبي**. تاريخ (طبعة هوتسم). ١٨٨٣.

المراجع بالروسية واللغات الاوروبية

١ - المصادر

- **بارتولد .ف. ف**. تركستان في فترة الغزو المغولي، المؤلفات، المجلد «١»، موسكو، ١٩٦٣.

- **بولاتوف. م . س** تكوين الاشكال المعمارية لأضرحة السامانيين، - في كتاب «مهارة معماريي اوزبكستان»، طشقند، ١٩٦٢، ص ٤٥ - ٧٤.

- **بولغاكوف ب. غ**. حياة واعمال البيروني، طشقند، ١٩٧٢.

ـ **غفوروف. ب. غ.** اسباب نهوض وسقوط السامانيين، «الاستشراق السوفييتي»، ١٩٥٨، العدد «١»، ص ٥١ ـ ٥٥.

ـ **دافيدوفيتش. ي. أ.** مواد نُميّة لتاريخ تطور العلاقات الإقطاعية في آسيا الوسطى ايام السامانيين، مؤلفات اكاديمية العلوم الطاجيكية السوفييتية، المجلد «٢٧» ، ستاليناباد، ١٩٥٤.

ـ **دافيدوفيتش . ي. أ.** سامانيو فرغانة حسب المعطيات النُميّة، «النقوش» الإبيغرافيا «الشرقية»، المجلد «١١» ١٩٥٦، ص ١٤ ـ ٢٦.

ـ **قادروفا. ت.** ثورة الفلاحين وفقراء مدن ما وراء النهر في الفترة من عام ٨٠٦ ـ ٨١٠، «ازفيستيا اكاديمية العلوم الاوزبكية السوفييتية»، طشقند، ١٩٥٤، ص ٣٧ ـ ٤٤.

ـ **قادروفا. ت.** ثورة الفلاحين بزعامة حمزة الخارجي عند مفترق القرنين الثامن والتاسع.، «ازفيستيا، اكاديمية العلوم الاوزبكية السوفييتية»، ١٩٥٣، العدد «٦».

ـ **قادروفا. ت.** من تاريخ ثورات الفلاحين في ما وراء النهر وخراسان في القرن الثامن وبداية القرن التاسع.، طشقند، ١٩٦٥.

ـ مواد الدورة العلمية لاكاديمية العلوم الاوزبكية السوفييتية المكرسة للذكرى المئوية لابن سينا، طشقند، ١٩٥٣.

ـ **نعمتوف. ن. ن.** دولة السامانيين (ما وراء النهر وخراسان في القرنين التاسع والعاشر)، دوشانبيه، ١٩٧٧.

ـ **بريبيتكوفا. أ. م.** بناية «كيرك ـ كيز» كنموذج للفن المعماري في القرن «٩»، «الآثار المعمارية»، موسكو، ١٩٦١، العدد «١٩».

ـ **بوغاتشينكوفا. غ. أ.** بمناسبة افتتاح ضريح عرب اتا في «تيم» ـ «العلوم الاجتماعية في اوزبكستان»، ١٩٦١، العدد «٢»

ـ **بوغاتشينكوفا. غ. أ.** ضريح عرب آتا (من تاريخ الهندسة المعمارية في ما وراء النهر ق. ق. ٩ ـ ١٠)، من كتاب «مهارة معماريي اوزبكستان»، المجلد «٢» طشقند، ١٩٦٣، ص ٥ ـ ١٧.

- **ديمبل. أ. إ.** ضريح اسماعيل الساماني، «الفن المعماري السوفييتي»، ١٩٣٦، العدد «٥».

- **سيمينوف. أ. أ.** حول مسألة اصل السامانيين، - في كتاب «مؤلفات اكاديمية العلوم الطاجيكية السوفييتية، المجلد «٧»، ستاليناباد، ١٩٥٤.

- **فراي. ر.** التراث الايراني، موسكو، ١٩٧٢.

- **يوشكيفيتش. أ. ب.** تاريخ الرياضيات في منتصف القرن، موسكو، ١٩٦١.

مراجع الفصل السادس

١ - المصادر

- **ابو الفضل البيهقي** «تاريخ مسعود»، ١٠٣٠ - ١٠٤١. مقالة افتتاحية، ترجمة وتعليق أ. ك. اريندس، الطبعة الثانية، موسكو، ١٩٦٩.

- **غارديزي** (طبعة قزوين). «كتاب زين الأخبار». هذه مقدمة الاستاذ المعظم ميرزا محمد خان القزويني، طهران ١٣١٥ !١٩٣٧.

- **ابن الاثير** (طبعة تورنبيرغ). ١٨٥١-١٨٧٦.

- **ابن حرداد بيك** (طبعة دي غوي). ١٨٨٩.

- **ميرخاوند** (طبعة طهران)، «تاريخ روضة الصفاء»، المجلد ١ - ١٠، طهران، ١٢٧٠ - ١٢٧٤!١٨٥٣-١٨٥٧.

- **نرشخي** (طبعة بخارى). «تاريخ بخارى»، بخارى، ١٣٢٢. نظامي عروضي السمرقندي. مجموعة التحف أو المقامات الأربع، ترجمة ز. ن. فوروجيكينا، موسكو، ١٩٦٣.

- **نظام الملوك.** «سياسة نامة» كتاب عن حكم وزير القرن «١١» نظام الملوك، الترجمة ومقدمة دراسة الاثر والتعليق لـ ب. ن. زاهودير، موسكو - لينينغراد، ١٩٤٩.

- **العتبي** (طبعة شبرينغير). ١٨٤٧.

- قيوم كريموف، طشقند، ١٩٧١.

المراجع بالروسية واللغات الأوروبية

١ ـ المصادر

ـ **أغاجانوف**. س. غ. دراسات في تاريخ الأوغوز والتركمان في آسيا الوسطى ق. ق. ١٥ ـ ١٨، اشخباد، ١٩٦٩.

ـ **أغييفا**. أ. أ **وباتسيفيتش**. غ. إ. من تاريخ المستوطنات والمدن المتحضرة في جنوب كازاخستان، «مؤلفات معهد تاريخ الآثار والاثنوغرافيا التابع لأكاديمية العلوم الكازاخية السوڤييتية»، ١٩٥٨، المجلد «٥»، ص ٣ ـ ٢١٥.

ـ **اكيشيف**. خ. أ، **بيناكوف**. ك. م. أعمال بعثة سيميريتشي الكشفية، في كتاب «الاكتشافات الأثرية» في عام ١٩٧٧، موسكو، ١٩٧٨، ص ٥١٠ ـ ٥١١.

ـ **أمينجانوفا**. م. اوانٍ يعود تاريخها الى القرون الوسطى، من متاحف طشقند وسمرقند، في مجموعة «تاريخ الثقافة المادية الاوزبكية»، طشقند، ١٩٦٢، الاصدار «٣»، ص ٨٧ ـ ١٠٠.

ـ **أريستوف**. ن. أ. مدونات عن اجناس وسلالات القبائل والشعوب التركية، ومعلومات عن عددهم، «البلاد الحية»، السنة السادسة، ١٨٩٦، الاصدار ٣ ـ ٤، ص ٢٧٧ ـ ٤٥٦.

ـ **بيناكوف**. ك. م. عدد السكان الحضر في وادي «ايلي» في القرون الوسطى، في كتاب «في عمق العصور»، آلما ـ آتا، ١٩٧٤، ص ١٨٨ ـ ٢٠٠.

ـ **بيناكوف**. ك. م ـ مدن وقرى سيميريتشي في القرون الوسطى المبكرة، «ازفيستيا» أكاديمية العلوم الكازاخية السوڤييتية. سلسلة العلوم الاجتماعية» آلما ـ آتا، ١٩٦٦، العدد «٢»، ص ٧٣ ـ ٨٤.

ـ **بارتولد**. ف. ف. بالاساغون، «المؤلفات»، المجلد «٣» موسكو ١٩٦٥، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧.

ـ **بارتولد**. ف. ف بوغرا ـ خان، «المؤلفات»، المجلد «٢»، جـ «٢»، موسكو، ١٩٦٤، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٨.

ـ **بارتولد**. ف. ف. بوري ـ تيغين، «المؤلفات»، المجلد «٢»، جـ «٢»، موسكو ١٩٦٤، ص ٥١٣ ـ ٥١٤.

- **بارتولد. ف. ف.** - ١٢ محاضرة في تاريخ شعوب آسيا الوسطى التركية، المؤلفات، المجلد «٥» موسكو، ١٩٦٨، ص ١٩ - ١٩٢.

- **بارتولد. ف. ف.** - الايلخانيون «المؤلفات»، المجلد «٢»، جـ «٢» موسكو، ١٩٦٤، ص ٥١٩ - ٥٢٠.

- **بارتولد. ف. ف، ن. أ. أ ويستوف.** مدونات عن اجناس وسلالات القبائل والشعوب التركية ومعلومات عن عددهم (نسخة منقحة)، - المؤلفات، المجلد «٥»، موسكو، ١٩٦٨، ص ٢٦٦ - ٢٧٩.

- **بارتولد. ف. ف.** دراسات في تاريخ سيميريتشي، «المؤلفات»، المجلد «٢» جـ «١»، موسكو، ١٩٦٣، ص ٢٣ - ١٠٦.

- **بارتولد. ف. ف.** تركستان ابان الحملة المغولية، «المؤلفات»، المجلد «١»، موسكو، ١٩٦٣، ص ٢٣٨ - ٤٤٥.

- **بيرنشتان.** أ. ن الآثار القديمة في وادي تالاس. دراسات في التاريخ والآثار، آلما - آتا، ١٩٤١.

- **بريكينا.** غ. أ. تاريخ السكان الفلاحين في السفوح الجنوبية الغربية لفرغانة ق. ق. ٦ - ١٢. - «النشرات الموجزة لمعهد التاريخ والثقافة المادية، اكاديمية العلوم السوفييتية. موسكو، ١٩٧٠، العدد «١٢٢»، ص ٩١ - ٩٥.

- **بريكينا.** غ. أ. زجاج من أطلال كارابولاك، في كتاب «تاريخ، آثار وإثنوغرافيا آسيا الوسطى»، موسكو، ١٩٦٨، ص ٢٥٢ - ٢٥٦.

- **بورياكوف.** ي. ف. ديناميكا تطور الحياة المدنية في تشاتشا وايلاك (حتى ق - ١٣)، في كتاب «قراءات بارتولد»، ١٩٧٦، السنة الثالثة، موسكو ١٩٧٦، ص ٢٠.

- **فاليتوفا.** أ.أ - حول قضية الحالة الطبقية للدولة القاراخانية، - «مؤلفات القسم القيرغيزي - اكاديمية العلوم السوفييتية» ١٩٤٣، المجلد «١»، الاصدار «١»، ص ١٢٧ - ١٣٦.

- **فاليتوفا. أ. أ** - بعض المصطلحات في «كوتادغو بيليغ». - «المعلومات الموجزة لمعهد شعوب آسيا اكاديمية العلوم السوفييتية»، ١٩٦٣، العدد «٦٣»، ص ١١١ - ١٢٣.

- **غورياتشيفا. ف. د** - موقع مدن بالاساغون، في كتاب «الصفحات التاريخية والثقافية المادية القيرغيزية»، فرونزه، ١٩٧٥، ص ١٣٠ - ١٤١.

- **دافيدوفيتش. إ. أ.** قضايا في التاريخ التسلسلي (الكرونولوجيا) وسلسلة النسب للقاراخانيين في النصف الثاني من ق - ١٢، في كتاب «آسيا الوسطى في الماضي البعيد والقرون الوسطى» (تاريخ وثقافة)، موسكو، ١٩٧٧، ص ١٧٧ - ١٨٧.

- **دافيدوفيتش. إ. أ** - مدونات في نمّيات آسيا الوسطى، جـ «١» (القاراخانيون، الجاغاتيون، الجانيون)، «الثقافة المادية الطاجيكية» ١٩٧١، اصدار «٢»، ص ١٧٥ - ١٨٨.

- **دافيدوفيتش. إ. أ** - من مجال التداول النقدي في منطقة فرغانة «مؤلفات متحف تاريخ اوزبكستان السوفييتية»، الاصدار «١»، طشقند، ١٩٥٤، ص ٣٩ - ٥٢.

- **دافيدوفيتش. إ. أ** - كنز النقود القاراخانية في القرن «١١» من طاجيكستان، «الآثار السوفييتية»، ١٩٥٧، العدد «٣»، ص ٢٥٧ - ٢٦٠.

- **فيودوروف. م. ن** من تاريخ العلاقات القاراخانية السلجوقية حتى قيام الدولة السلجوقية (تاريخ التحول النمي)، «العلوم الاجتماعية في اوزبكستان»، ١٩٦٦، العدد «٨»، ص ٥٣ - ٥٥.

- **فيودوروف. م. ن.** معلومات حديثة عن التاريخ السياسي لدولة القاراخانيين (خبرة الدراسات التاريخية النمية)، «العلوم الاجتماعية في اوزبكستان»، ١٩٦٥، العدد «١١»، ص ٥١ - ٥٣.

- **فيودوروف. م. ن.** تاريخ القاراخانيين في النصف الثاني من ق «١١»، «العلوم الاجتماعية في اوزبكستان»، ١٩٦٥، العدد «٣»، ص ٤٨ - ٥٤.

- **فيودوروف. م. ن** - تاريخ أوزغيند السياسي في نهاية ق ١٠ - ق ١١. (بناء على معطيات النميات القاراخانية)، «ازفيستيا اكاديمية العلوم القيرغيزية السوفييتية»، ١٩٧٩، العدد «١»، ص ٩٠ - ٩٧.

- **فيودوروف. م. ن** كنز الدراهم القاراخانية في فرغانة (١٠٣٤ - ١٠٣٤ ١)، سوفيتسكي اركيولوجيا «علم الآثار السوفييتية»، ١٩٦٨، العدد «٣» ص ٢٢١ - ٢٢٧.

- **يعقوبوفسكي. أ. ي**، مسائل الترتيب المرحلي لتاريخ آسيا الوسطى في القرون الوسطى (ق ١١ - ق ١٥)، «معلومات موجزة صادرة عن معهد التاريخ والثقافة المادية» اكاديمية العلوم السوفييتية الاصدار «٢٧»، موسكو، ١٩٤٩، ص ٣٠ - ٤٣.

- **يعقوبوفسكي. أ. ي**، كتابتان على الضريح الشمالي، عام ١١٥٢، في اوزغيند، «الكتابات الشرقية»، ١٩٤٧، العدد « ١»، ص ٢٧ - ٣٢.

مراجع الفصل السابع

١ - المصادر

- **ابو الفضل البيهقي**. تاريخ سعود ، ١٠٣٠ - ١٠٤١. المقالة الافتتاحية، ترجمة وتعليق أ. ك. اريندس، الطبعة الثانية، موسكو، ١٩٦٩.

- **الطبري** (طبعة - م. ا. دي غويه). المجلد ١ - ٦، ١٨٧٩ - ١٨٩٠.

- **الطبري** (طبعة - ف. إ. بيليايف)، تاريخ. ترجمة ف. إ. بيليايف، الاعداد للنشر ا. غ. بولشاكوف وا. ب. خالدوف، طشقند، ١٩٨٧.

- **الجويني** (طبعة قزوين). ٦٥٨، أ. و. ١٢٦٠.

- **ابن الاثير** (طبعة تورينبيرغ). ١ - ١٤، ١٨٥١ - ١٨٧٦.

- **الاسطخري** (طبعة دي غويه). ١٨٧٠.

- **المسعودي** (طبعة باربيه دي مينيرا). المجلد ١ - ٩، ١٨٦١ - ١٨٧٧.

- **المقدّسي** (طبعة دي غويه). ١٨٧٧.

- **النرشخي** تاريخ بخارى. الترجمة من الفارسية الى الاوزبكية، أ. رسوليف، طشقند، ١٩٦٦.

المراجع باللغات الروسية و الأوروبية الغربية

١ ـ المصادر

- **آدم ميتس**، عصر النهضة الاسلامية، موسكو، ١٩٦٦.

- **أحمدوف. ب. أ.** معلومات جديدة عن خيوة، «العلوم الاجتماعية في اوزبكستان» ١٩٨٣، العدد «٧»، ص ١٠ ـ ١٨.

- **احمدوف. ب. أ** ـ زمان وحياة ابن سينا، كابول، ١٩٨٠، العدد «٣»، ص ٤١ ـ ٤٧.

- **بارتولد. ف. ف** ـ البرامكة «المؤلفات» المجلد «٦»، موسكو، ١٩٦٦، ص ـ ٦٦٩.

- **بارتولد. ف. ف** ـ تركستان أيام الغزو المغولي، «المؤلفات» المجلد «١»، موسكو، ١٩٦٣.

- **بارتولد. ف. ف** ـ خوارزم، «المؤلفات، المجلد «٣»، موسكو، ١٩٦٥، ص ٥٤٤ ـ ٥٥٢.

- **بارتولد . ف. ف**، خوارزمشاه «المؤلفات»، المجلد «٢» جـ «٢» موسكو، ١٩٦٤، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧.

- **بيليايف. إ. أ** ـ العرب، الاسلام والخلافة العربية، موسكو، ١٩٦٥.

- **بونياتوف. ز. م** ـ دولة الخوارزمشاهيين ـ الأنوشتيغيين، ١٠٩٧ ـ ١٢٣١، موسكو، ١٩٨٦.

- تاريخ اوزبكستان السوفييتية، المجلد «١» من العصور القديمة وحتى القرن «١٩»، طشقند، ١٩٦٧.

- **كراتشكوفسكي. أ. ي** الجغرافيا العربية ـ المؤلفات، المجلد «٤»، موسكو ـ لينينغراد، ١٩٥٧.

- **كريمسكي. أ. إ.** فتيان افسس السبعة النيام «مؤلفات في الاستشراق»، الصادرة عن معهد «لازاريفسكي للغات الشرقية»، الاصدار «٤»، موسكو، ١٩١٤.

- **تولستوف. س. ب**، البيروني وقضية تاريخ خوارزم في القدم وفي القرون الوسطى،

«مواد المؤتمر الاول لمستشرقي عموم الاتحاد السوفييتي» في مدينة طشقند ٤ ـ ١١ يونيو ١٩٥٧. «طشقند، ١٩٥٨، ص١٢٥ ـ ١٣٠.

ـ **تولستوف. س. ب** مدن الغوز (دراسات في التاريخ والجغرافيا) ـ «الإثنوغرافيا السوفييتية»، ١٩٤٧، العدد «٣» ص ٥٥ ـ ١٠٢.

ـ **يعقوبوفسكي. أ. ي.** العراق في الفترة ما بين ق. ٨ ـ ٩م. (ميزات نظام الحكم في عهد الخلافة العباسية)، «مواد الدورة الاولى للمستعربين» ١٤ ـ ١٧ يونيو ١٩٣٥. «مؤلفات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية»، الاصدار«٢٤»، ١٩٣٧، ص ٢٥ ـ ٤٩.

ـ **يعقوبوفسكي. أ. ي** ـ ايجارات المناصفة في العراق في ق ـ ٨، ـ «الاستشراق السوفييتي»، المجلد «٤» موسكو ـ لينينغراد، ١٩٤٧، ص ١٧١ ـ ١٨٤.

مراجع الفصل الثامن

١ ـ المصادر

ـ **البيروني ابو ريحان.** آثار الأجيال السابقة، المؤلفات المختارة المجلد «١»، طشقند، ١٩٥٧.

دولت شاه السمرقندي (طبعة برون). ١٩٠١.

ـ **الزمخشري.** اساس البلاغة.

ـ **محمود الكاشغاري**، ديوان لغة الترك، المجلد «٣» ترجمة واصدار نصيرغا تايولوفتشي، س. مطالبوف، طشقند، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.

المراجع باللغتين الروسية والاوزبكية

١ ـ المصادر

ـ **بولغاكوف. و. غ**، حياة واعمال البيروني، طشقند، ١٩٧٢.

ـ **كريمسكي. أ. إ.** تاريخ فارس، أدبها ثيوصوفية الدراويش، المجلد «١ ـ ٣»، موسكو ١٩١٤ ـ ١٩١٧.

- **بوغاتشينكوفا. غ. أ ... ريمبيل. ل. إ.** ، تاريخ الفنون الاوزبكية منذ العصور القديمة وحتى منتصف القرن - ١٩، موسكو، ١٩٦٥م.

- **رستاموف. أ**، الزمخشري، طشقند، ١٩٧١.

- **تولستوف. س. ب**، نقود خوارزم القديمة، والحروف الهجائية الخوارزمية القديمة، «مخبر التاريخ القديم»، موسكو ١٩٣٨، العدد «٤» ص ١٢٠-١٤٥.

- **تولستوف. س. ب** - متعقبو الحضارة الخوارزمية القديمة، موسكو، لينينغراد، ١٩٤٨.

- **خالدوف. أ.ب**، الزمخشري (حياته وابداعه)، «اللغات السامية»، الاصدار «٢»، موسكو، ١٩٦٥.

- **يعقوبوفسكي. أ. ي**، اطلال ميزداخقان، في «نشرة الزملاء المستشرقين»، المجلد «٥»، مكتبة سمرقند العامة، ١٩٣٠، ص ٥٥١ - ٥٨١.

مراجع الفصل التاسع

قائمة المراجع المستخدمة

- **جمال كارشي. ملاحقة الصراخ**، - ف. ف. بارتولد. تركستان ابان الحملة المغولية، الجزء «١» النصوص، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٩٨.

- **الجويني**. طبعة م. م. القزويني - أ. ن، ٦٥٨، أ. د، ١٢٦٠.

- **ياكينف بيتشورين**. تاريخ الخانات الاربعة الأوائل من اسرة جنكيزخان، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٢٩.

- **ابن الاثير**. الكامل في التاريخ (ليدن)، ١٨٥١ - ١٨٧٦.

- **ابن الأثير**. الكامل في التاريخ دفتر ١ - ١٢.

- **منهاج الدين جرجاني**، طبقات ناصيري.

- **معين الدين ناتانزي، طبعة ١٨٦٤.**

- **بلانو كارنيني**. تاريخ المغول. رحلة إلى بلاد الشرق. مكتبة سمرقند العامة، ١٩١٠.

- **رشيد الدين**. جامع التواريخ، المجلد «١»، كتاب «١» ترجمة ل. أ. خيتاغوروف، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٢، المجلد «١» كتاب «٢»، ترجمة أ. س. سميرنوفا، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٢ المجلد «٢» ترجمة ي. ب فيرخوفسكي، موسكو، لينينغراد، ١٩٦٠، المجلد «٣»، ترجمة أ. ك. ارينديس، موسكو - لينينغراد، ١٩٦٤.

- **الاسطورة الخفية**، طبعة كوزينا - كوزين. س. أ. الاسطورة الخفية. مدونات تاريخية مغولية ١٢٤٠ ...، موسكو - لينينغراد، ١٩٤١.

- **أولوغ بك**. تاريخ أولوس، مخطوطة في المتحف البريطاني، رقم الجرد ADD 2616.

- **شهاب الدين محمد النسوي**. سيرة حياة السلطان جلال الدين منكبروني. الترجمة من العربية والمقدمة والتعليق والهوامش والفهرس لـ ز. م. بونياتوف، باكو، ١٩٧٣.

المراجع

١ - المصادر

- **بارتولد. ف. ف** - تاريخ الحياة الثقافية لتركستان، المؤلفات. المجلد «٢»، الجزء «١» موسكو - ١٩٦٣.

- **بارتولد. ف. ف** - قيام امبراطورية جنكيزخان، المجلد «١٠»، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٩٧.

- **بارتولد. ف. ف** - تركستان إبان الحملة المغولية، المؤلفات، المجلد «١»، موسكو، ١٩٦٣.

- **فلاديميرتسيف. ب. ي**. النظام الاجتماعي لدى المغول. اقطاعية المغول الرحل، لينينغراد، ١٩٣٤.

- **فلاديميرتسيف. ب. ي** - جنكيزخان، برلين، الجزء «٢»، موسكو، ١٩٢٢.

- **تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية**، الطبعة «٢»، موسكو ١٩٦٨.

- **كوتلوكوف. م** - سيادة المغول على تركستان الشرقية، «التتر - المغول في آسيا واوروبا. مجموعة مقالات». موسكو، ١٩٧٧.

- **كيتشانوف. أ. أ.** حروب المغول، التانغوت وفناء دولة سي - سيا» التتر - المغول في آسيا واوروبا. مجموعة مقالات»، الطبعة «٢»، موسكو ١٩٧٧.

- **ميليخوف. غ. ف.** إقامة سلطة الاقطاعيين المغول في شمال شرقي الصين، التتر - المغول في آسيا واوروبا. مجموعة مقالات»، الطبعة «٢» موسكو، ١٩٧٧.

- **د - اوسون. ك** تاريخ المغول اعتباراً من جنكيزخان وحتى تيمورلنك، المجلد «١»، ايركوتسك، ١٩٧٣.

- **بيتريشيفسكي. أ. ب.** الحملة المغولية على آسيا الوسطى (في الفترة ١٢١٩ - ١٢٢٤م) وعواقبها، «التتر - المغول في آسيا واوروبا. مجموعة مقالات»، الطبعة «٢» موسكو، ١٩٧٧.

- **سانداغ. ش.** تأسيس دولة مغولية واحدة - جنكيزخان، موسكو «التتر - المغول في آسيا واوروبا مجموعة مقالات»، الطبعة «٢»، موسكو، ١٩٧٧.

- **ايرنجين خارا - دافان**. جنكيزخان كقائد وتراثه، بلغراد، ١٩٢٩.

مراجع الفصل الثالث عشر

١ - المصادر

- **عبد العظيم سامي**. «تاريخ السلاطين المنغيت» الترجمة من اللغة الطاجيكية الفارسية والمقدمة والملاحظات لـ «ل.م. يبيفانوفا». موسكو - ١٩٦٢.

- **عبد الرحمن تمكيني البخاري**. «المطالع الفاخرة والمطالب الظاهرة». مخطوطة معهد

الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٨٢٤٥.

ـ **عندليب.** «شاهنامئي دوانئي عندليب». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد ٦٩٦/ ١.

ـ **افضل مخدوم ديرماستي.** «افضل التذكار في ذكر الشعراء والاشعار». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية، رقم الجرد: ٢٣٠٢.

ـ **قاري رحمت الله البخاري.** «غرائب الاخبار في عجائب الاسفار». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٢١٠٦.

ـ **ميرزا محمد «صدر ضياء».** «تذاكر الخطاطين». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ١٣٠٤/٣.

ـ **مير محمد صديق «حشمت».** «نامئي خسروان». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٢٢٥٢/ ١.

ـ **ميرزا عليم الطشقندي.** «انساب السلاطين وتواريخ الخواقين». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٣٧٥٣.

ـ **ميرزا محمد شريف «صدر ضياء».** كتالوج المخطوطات. مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٢٤٦٠.

ـ **ميرزا محمد شريف «صدر ضياء».** «تذكرة الشعراء» مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ١٣٠٤/ ١.

ـ **ميرزا سراج الدين بن حاجي بن عبد الرؤوف.** «تحف اهل بخارى». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٢١٤٢.

ـ **ملاّ عليم.** «تاريخ تركستان». طبعة طشقند ـ ١٩١٥م.

ـ **ملاّ عبد الله وملاّ محمد شريف.** «تاريخ الأمير حيدر». مخطوطة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ١٨٣٦.

- **ملاّ نياز محمد الخوقندي**. «تاريخ شاهروخي» (تاريخ ملوك فرغانة). اصدار ن. ن. بانتوسوف. كازان، ١٨٨٥م.

- **ملاّ يونس شيغاول وادهاه**. «حدائق الانوار». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٢/٥٩٦.

- **مطرب**. «شاهنامئي ديواني مطرب». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية ورقم الجرد: ٤/٦٩٦.

- **محمد رضا «اغاهي»**. «جولشاني دولت». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٧٥٧٢.

- **محمد رضا «اغاهي»**. «جامع المقامات السلطاني». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٩٧٨٦.

- **محمد رضا «اغاهي»**. «زبدة التواريخ». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٣/٨٢١.

- **محمد رضا «اغاهي»**. «رياض الدولة». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٣/٨٢١.

- **محمد رضا «اغاهي»**. «شاهد اقبال». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية.

- **محمد صالح - خواجه الطشقندي**. «تاريخ جديدائي طشقند». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية. رقم الجرد: ٧٧٩١.

- **محمد فضل بك**. «تاريخ مكمل فرغانة». مخطوطة معهد الاستشراق - اكاديمية العلوم الاوزبكية.

- **محمد حكيم خان تورا**. «منتخب التواريخ». صورة طبق الاصل. المقدمة والفهرست - أ. م. مختاروف - طبعة دوشانبيه - ١٩٨٣، ١٩٨٥م.

٢ ـ الأبحاث العلمية

ـ **ابازا. ك. ك**. احتلال تركستان، مكتبة سمرقند العامة ـ ١٩٠٢م.

ـ **اعظموفا. ع. ف**. طريق فولغا ـ قزوين إلى خيوة وبخارى. طشقند ـ ١٩٩٠م.

ـ **ازادايف. ف. أ**. «طشقند في النصف الثاني من ق ـ ١٩م. دراسات اجتماعية ـ اقتصادية وتاريخية سياسية، طشقند ـ ١٩٥٩.

ـ **أمينوف. أ. م**. التطور الاقتصادي في آسيا الوسطى (اعتباراً من النصف الثاني من ق ـ ١٩ وحتى الحرب العالمية الاولى، طشقند ـ ١٩٥٩.

ـ **ارادنداريكو. غ. أ**. اوقات الفراغ في تركستان. ١٨٧٤ ـ ١٨٨٩. مكتبة سمرقند العامة، ١٨٨٩.

ـ **احمد جانوفا. ز. ك**. حول تاريخ مد سكك الحديد في آسيا الوسطى (١٨٨٠ ـ ١٩١٧)، طشقند ـ ١٩٦٥.

ـ **بابا بيكوف. ح. ن**. الحركات الشعبية في خانية خوقند ومقدماتها الاجتماعية ـ الاقتصادية (ق. ق ١٨ ـ ١٩م). طشقند ـ ١٩٩٠م.

ـ **بارتولد. ف. ف**. تاريخ الري في تركستان، المجلد ـ ٣. موسكو ـ ١٩٦٥.

ـ **بارتولد. ف. ف**. معلومات عن بحر الارال و اموداريا السفلى منذ غابر العصور وحتى ق ـ ١٧م ـ المجلد ـ ٣. موسكو ـ ١٩٦٥.

ـ **بارتولد .ف.ف**. زراعة القطن في آسيا الوسطى منذ عصور التاريخ وحتى قدوم الروس، ـ المجلد «٢» الجزء الاول. موسكو ـ ١٩٦٣م.

ـ **بيسينبايف. ت. ك**. «تاريخ شاهروخي» كمرجع تاريخي المآآتا ،١٩٨٧.

ـ **بودوكوف. ن**. صناعة الخزف في آسيا الوسطى ـ مكتبة سمرقند العامة ـ ١٩٠٤م.

ـ **بُوتاكوف. أ. ف**. «دلتا أموداريا ومصباته» «الإدارة التركستانية»، ١٨٧٢، رقم ٣٢ ←

- **فيسيلوفسكي**. ن. إ. نبذة تاريخية جغرافية عن خانية خيوة منذ القدم وحتى يومنا هذا، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٧٧.

- **غالوزو**. د. غ. الحركات الوطنية التحررية في آسيا الوسطى ابان الاحتلال الروسي، -«الثورة في آسيا الوسطى»، طشقند - ١٩٢٩.

- **غينس**. غ. ك. الاستيطان والاستعمار، - في مجلة «قضايا الاستعمار»، ١٩١٣، العدد ١٢- ١٣.

- **غرامينيتسكي**. س. دراسات في تطور التعليم العام في منطقة تركستان. طشقند - ١٨٩٦م.

- **غريغوريف**. ف. ف. وصف خانية خيوة والطريق الى هناك من قلعة سرايتشيكوفسكي، «ملاحظات الجمعية الجغرافية الروسية»، ١٨٦١، رقم - ٢.

- **غروديكوف**. ن. إ. الحملة الخيوية عام ١٨٧٣. نشاطات الفصائل القوقازية، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٨٣.

- **غوباريفيتش - رادوبيلسكي**. أ. ف. أهمية تركستان في تجارة روسيا مع الدول الآسيوية المجاورة.

- **دوبرو ميسلوف**. أ. إ. طشقند في الماضي والحاضر، نبذة تاريخية، طشقند، ١٩١٢.

- **جدانكو**. ت. أ. ميزات العلاقات العرقية في آسيا الوسطى وكازاخستان (ق. ق ٩ - بداية ٢٠م)

- «الأعراق والشعوب» الإصدار «٢»، موسكو - ١٩٧٤.

- **جوكوفسكي**. س. ف. علاقات روسيا مع بخارى وخيوة خلال القرون الثلاثة الأخيرة -، «مؤلفات جمعية المستشرقين الروس» ١٩١٥، العدد «٢».

- **زيايف**. خ. ز. طشقند، ١٩٩٤م.

- **اسكنداروف.** ب. إ. بخارى الشرقية وبامير في النصف الثاني من ق - ١٩م. جـ ١ - ٢، دوشانبيه، ١٩٦٢-١٩٦٣.

- تاريخ جمهورية اوزبكستان السوفييتية. المجلد «٢». اعتباراً من ضم الخانيات الاوزبكية إلى روسيا وحتى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، - طشقند.

- **كمالوف.** س. ك. كاراكالباقيا في ق. ق ١٨ - ١٩م، طشقند - ١٩٦٨.

- **كاستيلسكايا.** ز. د. انتفاضة عام ١٩١٦ في اوزبكستان (بمناسبة الذكرى السنوية العشرين)، طشقند - ١٩٣٧.

- **كاوفمان.** أ. أ. الاستيطان والاستعمار، مكتبة سمرقند العامة، ١٩٠٥.

- **لوغوفيت.** د. ن. خانية بخارى تحت الحماية الروسية. المجلد ١ - ٢، مكتبة سمرقند العامة، ١٩١١.

- **لونين.** ب. ف. الجمعيات العلمية التركستانية و نشاطاتها التقدمية. نهاية ق ١٩ - بداية ق. ٢٠م، طشقند - ١٩٦٢.

- **ماليتسكي.** ن. غ. طشقند (نبذة تاريخية) -، إيزفيستيا مجلس النواب (الدوما) الطشقندي ١٩١٥م. العدد ١ - ٢.

- **ماسالسكي.** ف. إ. قضية القطن في آسيا الوسطى (تركستان. محافظة ما وراء القزوين بخارى وخيوة ومستقبلها، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٧٢.

- **ماسالسكي.** ف. إ. منطقة تركستان، مكتبة سمرقند العامة، ١٩١٣م.

- **ميديندورف.** أ. نبذة عن وادي فرغانة مع ملحق «دراسات كيماوية للتربة والماء» ك. شميدت، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٧٢.

- **مؤمنوف.** إ. م. من تاريخ تطور الفكر الاجتماعي - الفلسفي في اوزبكستان في نهاية ق ١٩ وبداية ق ٢٠، طشقند، ١٩٥٧.

- **نبيوف**. ر. ن. من تاريخ خانية خوقند، طشقند، ١٩٧٨.

- **ناليفكين. ف**. ب. الموجز في تاريخ خانية خوقند، كازان، ١٨٨٦.

- **ناليفكين. ف**. ب. وضع شؤون الاوقاف في منطقة تركستان بعد احتلالها، - في كتاب محافظة فرغانة السنوي المجلد «٣» مرغيلان الحديثة، ١٩٠٤.

- **شعوب آسيا الوسطى وكازاخستان**. مراجعة س. ب. تولستوف - المجلد ١ - ٢، موسكو، ١٩٦٢.

- الثورة الوطنية التحررية في عام ١٩١٦ في اوزبكستان. طشقند - ١٩٤٧.

- **نيبولسين. ب**. إ. نبذة عن تجارة روسيا مع آسيا الوسطى، خيوة، بخارى وخوقند (من جهة خط أورينبورغ)، - «مذكرات الجمعية الامبراطورية الروسية الجغرافية»، المجلد «١٠»، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٥٦.

- **قيام خانية خوقند**. في وضعها الراهن: الحدود «الجبال، الانهار، المناخ «انباء الجمعية الروسية الجغرافية». الكتاب «٣»، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٤٩.

- **أوسترو اوموف**. ن. ب. مواد في الإثنوغرافيا. الطبعة «٣»، طشقند، ١٩٠٨.

- **خانية بخارى**، - الكتاب «مواد الاحصائيات منطقة تركستان»، الاصدار «٥»، مكتبة سمرقند العامة، ١٨٧٩.

- **بافلوف. س**. ورابينوفيتش. م. انتفاضة خوقند ١٨٧٥ - ١٨٧٦م.، «الصراع الطبقي»، ١٩٣٦، العدد «١».

- **سافيتسكي**. أ. ب. مسألة الأراضي في تركستان (في المشاريع وفي قانون ١٨٦٧ - ١٨٨٦م)، طشقند، ١٩٦٣م.

- **صادقوف**. أ. س. علاقات خيوة الاقتصادية مع روسيا في النصف الثاني من ق ١٩ وبداية ق - ٢٠م، طشقند - ١٩٦٥.

- **سوبوليف. ل. ن.** معلومات جغرافية واحصائية عن دائرة زرافشان .مع قائمة ملحقة تحتوي على اسماء الأماكن المأهولة ـ «ملاحظات الجمعية الجغرافية الروسية» قسم الاحصائيات، المجلد «٤»، ١٨٧٤م.

- **سوكولوف. ي.** أ. طشقند، الطشقنديون وروسيا. طشقند، ١٩٦٥.

- **سوفوروف. ف.** التطور التاريخي الاقتصادي في تركستان (استناداً إلى مواد بناء سكة الحديد في عام ١٨٨٠ـ١٩١٧)، طشقند، ١٨٦٢.

- **تيرينتيف.** م. أ. تاريخ احتلال آسيا الوسطى. مزود بخرائط ومخططات. المجلد ١ ـ ٣، مكتبة سمرقند العامة، ١٩٠٦م.

- **فيدتشينكو.** أ. ب. في خانية خوقند، المجلد «١» الجزء «٢». مكتبة سمرقند العامة ـ ١٨٧٥م.

- **خوروشخين.** ب. أ. مجموعة مقالات، حول ما قبل منطقة تركستان. مكتبة موسكو العامة،

الفهرس

هذا الكتاب

لم يتعامل النشر العربي حتى الآن مع دول آسيا الوسطى بالجديّة المطلوبة، مع أن جزءاً لا يستهان به من تاريخ دول تلك المنطقة، يرتبط مباشرة بالعالمين العربي والإسلامي.

وقد استُعملت المخطوطات الموجودة في العالم العربي عن تلك المنطقة، بشكل جزئي وخدمةً لموضوعات جزئية محدودة. كما أنه لم يتم اللجوء إلى المخطوطات الموجودة في دول آسيا الوسطى، حول تاريخها ودور العرب والإسلام في ذلك التاريخ، انطلاقاً من جملة أسباب سياسية أو ثقافية مختلفة.

وهذا الكتاب، يؤرّخ لإحدى الدول الرئيسية في آسيا الوسطى (أوزبكستان) منذ بداية التاريخ المعروف لها، وحتى نهاية القرن العشرين، واضعاً، ولأول مرة في اللغة العربية، وربما في غيرها، تاريخاً متكاملاً لبلد ولمنطقة، ملقياً، لأول مرة، الأضواء على دور العرب والإسلام في تلك المنطقة، محدداً، لأول مرة كذلك، عمق ارتباط آسيا الوسطى بالإسلام والعرب، رغم طول فترات الاستعمار والاحتلال الأجنبيَيْن لتلك المنطقة.

الناشر